

**الخلفاء الراشدون**  
**مواقف وعبر**

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع القانوني: ٢٠٠٥/٥٠٥٣

I.S.B.N. 977-253-362-6: الترقيم الدولي

دار البحوث للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية  
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

# الـخلفاء الراشـدون

مواقفهم وعبر

إعداد

الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى

دار الدعوة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العلي الكبير، السميع البصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سيد الأولين والآخرين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

وبعد: فقد سبق نشر الكتاب الأول من كتب التاريخ الإسلامي، وموضوعه «السيرة النبوية.. مواقف وعبر»، وهذا هو الكتاب الثاني «الخلفاء الراشدون.. مواقف وعبر».

وقد تم التركيز فيه على المواقف العالية التي جرت من المسلمين، سواء في ذلك الأمراء والقادة والأفراد، وعلى العبر المستوحاة من الوقائع التاريخية.

والموضوعات التي سأقدمها للقراء الكرام في هذا الكتاب إنما هي قبسات من أمجاد سلفنا الصالح، وومضات من تاريخهم الزاهر في مجال الدعوة والجهاد ومكارم الأخلاق.

هذا وقد اخترت هذه الموضوعات بعدما طوفت في عدد من كتب التاريخ والتراجم، وجمعت الكثير من مآثر السلف ومناقبهم واطلعت على واقعهم الذهبي في تطبيق الإسلام الكامل في عهد الخلفاء الراشدين، وما نتج عن ذلك من مظاهر الحياة الكاملة التي تتسم بالقوة من غير عنف وباللين من غير ضعف، وبالعزة على الكافرين وبالذلة والتواضع للمؤمنين وبالعدل في الحكم حتى مع الكافرين، وباعتبار الكفاءة بقوة الإيمان والعمل الصالح والخبرة، وباستبعاد المؤهلات التي تتنافى مع الإسلام كالأنساب والأوطان والمجد الدنيوي.

وآمل أن أكون في تقديم هذا الجهد المتواضع قد أسهمت في أداء بعض ما لسلفنا الصالح من حق على أحفادهم الذين ورثوا عنهم هذا المجد العريض والعز المنيع، وفي تذكير أبناء الأمة الإسلامية بما بلغته هذه الأمة في ماضيها من قوة ورقى أخلاقي.

وإذا كانت الأمم الغربية تفتخر بقوتها المادية وتقدمها الصناعي فإن لنا ماضياً مجيداً بلغت فيه الأمة الإسلامية من الرقي الأخلاقي والمادي ما لم تبلغه أمة من الأمم.

وإننا حينما نحيي مآثرنا ونردد مفاخر ماضينا فليس ذلك لمجرد استجلاب النشوة بتذكر أيام عزنا ومجدنا، وليس ذلك لمجرد الاستعلاء على الآخرين، أو تعزية النفوس عن النقص الحاضر بترديد مفاخر الكمال في الماضي، وإنما ليكون ذلك دافعاً إلى انبعاث الحياة في النفوس لتعود هذه الأمة إلى رقيها الأخلاقي الكامل، ولتأخذ بأسباب التقدم المادي المناسب لعصرها حتى تكون كسلفها الصالح أقوى وأكبر أمة في هذه المعمورة.

وما يشتمل عليه هذا العصر من المواقف الأخلاقية والعلمية والسلوكية والتربوية مما ليس له علاقة مباشرة بهذا التاريخ فإنني قد أفردت له كتاباً خاصة.

لقد برز في هذا العهد نوعان من الجهاد: أحدهما الجهاد الدفاعي، وذلك في جهاد المرتدين والمتمردين على دولة الإسلام، وقد تم في أول سنة من هذا العهد القضاء على جميع تجمعات هؤلاء المرتدين والمتمردين، حتى عادت السيادة للدولة الإسلامية في جزيرة العرب كما كانت في عهد رسول الله ﷺ ويدخل في هذا النوع جهاد الخوارج الذي تم في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والنوع الآخر الجهاد الهجومي الدعوي، حيث قام المسلمون بجهاد دولتي الفرس والروم لإفساح الطريق أمام دعوة الإسلام لتصل إلى الشعوب المغلوبة على أمرها، ولتكون كلمة الله هي العليا، والسيادة في الأرض لدولة الإسلام.

لقد كان هذا العهد عهد الفتوح الإسلامية الكبرى، حيث تم فيه القضاء على دولة الفرس التي كانت دولة العالم العظمى في المشرق، ودخلت جميع ممالكها في دولة الإسلام، كما تم فتح عدد من الأقاليم التي تكونت منها دولة الروم التي كانت دولة العالم العظمى في المغرب، وذلك بالاستيلاء على بلاد الشام ومصر وبعض بلاد المغرب وضمها إلى الدولة الإسلامية.

ومن أبرز ما يلاحظ في ذلك الفتح الواسع أن المسلمين الفاتحين قد واجهوا حضارتين عريقتين هما الحضارة الفارسية والرومية، ومع ذلك فإن حضارة المسلمين

العظيمة قد استوعبت تلك الحضارتين، وتم على يد هؤلاء الفاتحين صهر تلك الحضارتين وتمحيصهما، وذلك بقبول ما يوافق حضارة الإسلام وصبغه بالصبغة الإسلامية ورفض ما يخالفها.

ولو أننا قارنا بما تم بعد ذلك في أواخر عهد العباسيين من هجوم التتار الوحشي على بلاد المسلمين لوجدنا الفرق واضحاً بين الفتح الإسلامي الذي كان فتحاً للقلوب قبل البلاد، حيث تم على إثره دخول آلاف من الكفار في الإسلام، وذوبان حضارة تلك الدول المفتوحة بحضارة المسلمين، بينما لم يتم شيء من ذلك على يد التتار، بل بصد ذلك دخلت أمة التتار في الإسلام وتحضرت بحضارة المسلمين.

### مصادر الكتاب في هذا العهد:

لقد اعتمدتُ في الكتابة عن هذا العهد على عدد من الكتب التاريخية، من أبرزها «تاريخ الرسل والملوك» للطبري، و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«فتوح مصر» لابن عبد الحكم المصري، و«فتوح الشام» لأبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي.

وقد رأيت أن أترجم لهؤلاء البارزين الذين كثر ذكرهم في هذا العهد بشكل موجز.

### محمد بن جرير الطبري:

هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، من أهل أمل بطبرستان، ولد في عام أربعة وعشرين ومائتين<sup>(١)</sup>.

قال الإمام أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي: استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته، وكان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفة فضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله تعالى، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً

(١) تذكرة الحفاظ / ٧١٠.

بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخلفين، في الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم<sup>(١)</sup>.

وقال الإمام الذهبي عنه: كان ثقة صادقاً رأساً في التفسير إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام ابن خزيمة: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير. وقد توفي رحمه الله عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة<sup>(٣)</sup>.

أما كتاب الطبري «تاريخ الرسل والملوك» فهو موسوعة تاريخية كبرى حوى فيها كثيراً من كتب المتقدمين إلى جانب كتابة تاريخ عصره، ولقد حفظ للأمة الإسلامية تاريخاً شاملاً لعصر صدر الإسلام، وما يزال هو المرجع الأكبر في ذلك العصر.

وإن المطلع على هذا التاريخ يتمعن في مراحل المتعددة يجد أنه قد توسع في عرض السيرة النبوية نظراً لكثرة المصادر عنده، كما أنه توسع في عرض فتوحات العراق والمشرق لتوفر مصادرها عنده، بينما أوجز الكلام عن فتوحات الشام والمغرب لعدم توفر الرواية في تفاصيل ذلك في بغداد التي عاش فيها، فبينما نجد يغطي أحداث القادسية مثلاً في ثلاث عشرة ومائة صفحة نجده يعرض معركة اليرموك في عشرين صفحة، ولذلك فإن من يكتب عن فتوحات الشام والمغرب لابد له من إضافة مصادر أخرى لتغطية تفاصيل تلك الفتوحات.

### سيف بن عمر الضبي التميمي:

هذا ولكثرة مرويات ابن جرير الطبري في الفتوحات التي رواها من طريق سيف ابن عمر التميمي، ولما اشتهر في تراجم علوم الحديث من تضعيفه واتهامه بالكذب، فإنني أرى من الضروري أن أنقل بعض أقوال المعتدلين الذين يتحرون في أحكامهم على الرواة، ولقد رأيت أجمع وأصدق ما قيل فيه قول الحافظ ابن حجر العسقلاني عنه حيث قال في ترجمته «ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ»<sup>(٤)</sup>.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٧٠.

(١) تاريخ بغداد ٢ / ١٦٣.

(٣) تذكرة الحفاظ ٧١٥، البداية والنهاية ١١ / ١٥٦ - ١٥٧. (٤) تقريب التهذيب ١ / ٣٤٤ رقم ٦٣٣.

وقد عدّه الحافظ ابن كثير إماماً في التاريخ<sup>(١)</sup>.

وقال عنه الحافظ الذهبي «كان أخبارياً عارفاً»<sup>(٢)</sup>.

وهذا لا يعني قبول جميع رواياته في التاريخ، بل لابد من مقارنتها مع الروايات الأخرى والترجيح خاصة في تاريخ الصحابة رضي الله عنهم.

### أبو إسماعيل الأزدي:

هو أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي، صاحب كتاب «تاريخ فتوح الشام» وهذا الكتاب له قيمة تاريخية كبيرة، حيث إنه انفرد بعدد كثير من النصوص التاريخية في فتوح الشام على عهد الخليفين أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما، ومن مزايا الكتاب أنه قد احتوى على جملة من الرسائل التي كانت تدور بين أمير المؤمنين عمر وأمرائه في الشام رضي الله عنهم.

والكتاب ليس له مصادر من كتب أخرى وإنما يرويّه مؤلفه بالإسناد عن الذين شهدوا الوقائع، وقد ساعده على جمع ذلك الكم الكبير من تاريخ فتوح الشام أنه من قبيلة الأزدي، وقد ارتحل عدد كبير من الأزدي نحو الشام وشهدوا الفتوح فكان بعضهم يروي عن بعض.

ولم أجد له ترجمة في كتب التراجم التي اطلعت عليها، ولعل سبب عدم شهرته عند المترجمين كونه ليس من رواة الأحاديث، وقد كان الدافع لوجود علم الجرح والتعديل هو حفظ السنة النبوية.

ومن دراسة تراجم شيوخه وتلاميذه يتبين أنه قد عاش في القرن الثاني، وعلى هذا فإن كتابه يُعدُّ من مصادر التاريخ القديمة.

### عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم:

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري، ولد في حدود سنة ١٨٧هـ وتوفي في سنة ٢٥٧هـ وأبوه فقيه مصر الكبير في المذهب المالكي.

أبرز مؤلفاته «فتوح مصر» ويسمى «فتوح مصر والمغرب» وكذلك يسمى «فتوح مصر وأفريقية» وقد اعتمدت عليه بالدرجة الأولى في فتوح مصر.

(١) البداية والنهاية ٧/٢٤٧.

(٢) ميزان الاعتدال ٢/٢٥٥.



أما درجته في الرواية فقد قال عنه ابن أبي حاتم: هو صدوق، وقال: سئل عنه أبي فقال: صدوق<sup>(١)</sup>. وقال النسائي: لا بأس به. وقال القضاعي: كان من أهل الحديث عالماً بالتواريخ وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: ذكره ابن حبان في الثقات<sup>(٢)</sup>.

### الحافظ ابن كثير:

هو الإمام المحدث الحافظ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. ذكر ذلك ابن كثير نفسه في ترجمة والده<sup>(٣)</sup>.

ولد ابن كثير في عام سبعمائة أو بعدها بقليل وتوفي في شهر شعبان من عام أربعة وسبعين وسبعمائة.

من أشهر كتبه تفسيره المشهور وكتابه الكبير في التاريخ «البداية والنهاية» وقد اعتمدت عليه كثيراً في تاريخ الخلفاء الراشدين.

قال عنه الإمام الذهبي: الإمام المفتي المحدث البارع، ثقة متفنن محدث متقن.

وقال عنه الداوودي: كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئاً كثيراً في الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) الجرح والتعديل ٢٥٧/٥.

(٢) تهذيب التهذيب ٢٠٨/٦.

(٣) البداية والنهاية ٣٣/١٤.

(٤) ينظر في ترجمته «طبقات المفسرين» للداوودي ١١١/١٤، والدرر الكامنة لابن حجر ٣٧٣/١ - ٣٧٤.

وذيل تذكرة الحافظ / ٣٦١.

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

مواقف وعبر

## موقف لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ

لقد أدى رسول الله ﷺ الرسالة أكمل أداء، وبلغ الأمانة التي حمّله الله جل وعلا أكمل بلاغ، فلما دنا أجله خيّر الله بين البقاء في الدنيا إلى أجل وبين اللّحاق بالرفيق الأعلى، فاختر ما عند الله كما جاء في رواية الإمام البخارى من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ذلك العبد ما عند الله»، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يُخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخيّر وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أمنّ الناس علىّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر»<sup>(١)</sup>.

ففهم أبو بكر مراد النبي ﷺ لدقة ملاحظته وشدة متابعته لأحوال النبي ﷺ وإشفاقه عليه وعلى أمته من بعده، حيث كان هذا التفكير يشغل باله ففهم التلميح من دون الصحابة رضى الله عنهم، وكان هذا الفهم بداية لموقف كبير منه ثبت الله به الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ.

وقد فهمت عائشة رضى الله عنها هذا في مرض النبي ﷺ كما أخرج الإمام البخارى من حديثها أنها قالت: «كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير، فلما نزل به ورأسه على فخذي غشى عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلى البيت ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى، فقلت: إذا لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح، قالت: فكان آخر كلمة تكلم بها: اللهم الرفيق الأعلى»<sup>(٢)</sup>.

ولما توفى رسول الله ﷺ أصابت الناس دهشة عظيمة، وبرز المنافقون، فكان عمر رضى الله عنه يهدّد ويتوعد من يقول إن رسول الله قد مات، كما أخرج

(١) صحيح البخارى رقم ٣٦٥٤، فضائل الصحابة (١٢/٧).

(٢) صحيح البخارى، المغازى، رقم ٤٤٦٣ (٨/١٥٠).

الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم<sup>(١)</sup>.

ومن كلامه في ذلك «إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يُفني الله المنافقين» أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها، وكذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن أبا بكر مرَّ بعمر وهو يقول: ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين، وكانوا قد أظهروا الاستبشار ورفعوا رؤوسهم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان عمر يرى أن بقاء الرسول ﷺ ضروري حتى يفني الله تعالى المنافقين، وهذا يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعدون المنافقين أكبر أعدائهم، وهذا موافق لقول الله تعالى فيهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه غائباً ذلك اليوم، فلما حضر كشف الأمر للمسلمين وأنقذ الله تعالى به الموقف كما أخرج الإمام البخاري رحمه الله من حديث الزهري عن أبي سلمة، أن عائشة أخبرته «أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فشكف عن وجهه ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبتُ عليك فقد متَّها<sup>(٣)</sup>.

قال الزهري: وحدثني أبو سلمة عن عبد الله بن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس. فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً

(١) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، رقم ٣٦٦٧ (١٩/٧).

(٢) فتح الباري ١٤٦/٨.

(٣) أراد بهذا أبو بكر الرد على من قال: إن الرسول ﷺ سيحيى فيقطع أيدي رجال.. لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت موتة أخرى (فتح الباري ١٥٤/٨).

قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال (يعني الزهري): فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات (١).

وقال الحافظ ابن حجر: وفي حديث ابن عمر نحوه وزاد: ثم نزل فاستبشر المسلمون وأخذ المنافقين الكآبة، قال ابن عمر: وكأن على وجوهنا أغطية فكشفت (٢).

وإنما استبشر المسلمون لأن الله تعالى جمع شملهم ووحد كلمتهم بأبي بكر رضى الله عنه، وزال الخلاف بينهم، وأصاب المنافقين حسرة وكآبة لما رأوا اجتماع كلمة المؤمنين، ولما في خطبة أبي بكر من التهديد لهم ولأمثالهم ممن تسوّل له نفسه محاولة إثارة الفتنة وتفريق شمل المسلمين كما جاء في رواية للإمام البيهقي عن عروة بن الزبير أنه ذكر ما كان من أمر المسلمين آنذاك وذكر خطبة أبي بكر. . ومنها قوله: واتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وإن كلمة الله تامة وإن الله ناصر من نصره، ومعز دينه، وإن كتاب الله عز وجل بين أظهرنا وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً ﷺ وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نبالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبعين أحد إلا على نفسه (٣).

وبهذه الكلمات المضيئة القوية خمدت رؤوس الفتنة واطمأن المسلمون إلى وجود القيادة القوية الحكيمة التي ستسلك بهم الطريق.

(١) صحيح البخارى رقم ٤٤٥٢، كتاب المغازى (٨/١٤٥).

(٢) فتح البارى ١٤٦/٨. (٣) دلائل النبوة ٢١٨/٧.

## نماذج من وسائل الإقناع المؤثرة والتجرد من الهوى (بيعة سقيفة بنى ساعدة)

لما علم الصحابة رضي الله عنهم بوفاة رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة في اليوم نفسه وهو يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وتداولوا الأمر بينهم في اختيار من يلي الخلافة من بعده .

فلما علم بذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ذهبا إليهم كما أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه من خطبة عمر رضي الله عنه التي جاء فيها قوله: وإنه قد كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ، أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بنى ساعدة، وخالف عنا على والزبير ومن معهما واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلاً صالحاً فذكر ما تمالأ عليه القوم فقالوا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالوا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم<sup>(١)</sup>.

قال: وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر - وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت. فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم - فأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا - فلم

(١) وهذان الرجلان الأنصاريان هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي رضي الله عنهما - مصنف عبد الرزاق ٤٤٥/٥، فتح الباري ١٢/١٥١.

أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يُقربني ذلك من إثم أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تُسول إليّ نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

قال: فكثرت اللغظ، وارتفعت الأصوات، حتى فرقتُ من الاختلاف، فقلتُ: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار<sup>(١)</sup>.

وجاء في حديث حميد بن عبد الرحمن الحميري رحمه الله الذي أخرجه الإمام أحمد رحمه الله إضافة مهمة، وهي قوله «فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فلم يترك شيئاً أنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا وذكره، وقال: علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس وادياً وسلكتُ الأنصار وادياً سلكتُ وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد<sup>(٢)</sup> أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر فبرّ الناس تبع لبرّهم، وفاجر الناس تبع لفاجرهم، قال فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا النص يتبين لنا كيف استطاع أبو بكر رضي الله عنه أن يدخل إلى نفوس الأنصار فيقنعهم بما رآه هو الحق من غير أن يُعرض المسلمين للفتنة، فأثنى على الأنصار ببيان ما جاء في فضلهم من الكتاب والسنة، والشأن على المخالف منهج إسلامي يقصد منه إنصاف المخالف وامتصاص غضبه وانتزاع بواعث الأثرة والأناية في نفسه ليكون مهياً لقبول الحق إذا تبين له، وقد تقدمت أمثلة لذلك من عمل النبي ﷺ وأصحابه.

ثم توصل أبو بكر من ذلك إلى أن فضلهم وإن كان كبيراً لا يعني أحقيتهم في الخلافة لأن النبي ﷺ قد نص على أن المهاجرين من قريش هم المقدمون في هذا الأمر.

(١) صحيح البخاري، الحدود، رقم ٦٨٣٠ (١٢/١٤٤-١٤٥).

(٢) يعني سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه.

(٣) مسند أحمد ٥/١. وذكره الإمام ابن تيمية وقال: فهذا مرسل حسن، ولعل حميداً أخذه عن بعض الصحابة الذين شهدوا ذلك، قال: وفيه فائدة جليّة جداً وهي أن سعد بن عبادة نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة وأذعن للصديق بالإمارة فرضى الله عنهم أجمعين - منهاج السنة النبوية ٥٣٦/١.

ولا شك في أن هذا المعنى كان غائباً عن أذهان الأنصار لأن دينهم المتين يمنهم من أن يخالفوا أوامر النبي ﷺ .

كما أشار أبو بكر إلى أن من مؤهلات القوم الذين يُرشحون للخلافة أن يكونوا ممن يدين لهم العرب بالسيادة وتستقر بهم الأمور، حتى لا تحدث الفتن فيما إذا تولى غيرهم، وأبان أن العرب لا يعترفون بالسيادة إلا للمسلمين من قريش لكون النبي ﷺ منهم ولما استقر في أذهان العرب من تعظيمهم واحترامهم .

ولقد استطاع أبو بكر بهذه الكلمات النيرة أن يغير من قناعات الأنصار الذين اجتمعوا ذلك اليوم وأن يحولهم إلى وزراء مُعينين وجنود مخلصين كما كانوا في عهد النبي ﷺ وأن يجمع كلمة المسلمين .

وحينما وصلت القضية إلى هذا الحد من الوضوح قدم أبو بكر عمر أو أبا عبيدة للخلافة، ولكن عمر كره ذلك ورأى أن احتمال الموت قتلاً أهون على نفسه من أن يتأمر على قوم فيهم أبو بكر .

وبهذه القناعة من عمر بأحقية أبي بكر بالخلافة قال له: اسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، قال: فبايعته وبايعه المهاجرون والأنصار . وبهذا الموقف الحازم حسم عمر القضية وأنهى الخلاف وجمع الصحابة على أبي بكر .

ولقد جاء في رواية أخرى أن عمر مهدّ لذلك الأمر بذكر تقديم النبي ﷺ أبا بكر بالإمامة، وذلك فيما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير، فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: يا معشر الأنصار أَلستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤمّ الناس؟! فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟! فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر<sup>(١)</sup> .

وهذا ملحظ مهم ووفق إليه عمر رضي الله عنه، وقد اهتم بذلك النبي ﷺ في مرض موته فأصرّ على إمامة أبي بكر، وهو من باب الإشارة بأنه أحق من غيره بالخلافة .

(١) مسند أحمد ٢١/١، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر ٢١٣/١ رقم ١٣٣ .



ولقد ظهر في هذا الخبر زهد الصحابة رضي الله عنهم في الإمارة والجاه  
الديني، فأبو بكر رضي الله عنه، مع أنه أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة ومع  
تقديم النبي ﷺ إياه في الإمامة، فإنه يقول للصحابة: «وقد رضيت لكم أحد  
هذين الرجلين» يعني عمر وأبا عبيدة رضي الله عنهما، وعمر يقول في حكاية  
ذلك «فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من  
إثم أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر»، وهذا غاية الأدب والتواضع  
والتجرد من حظ النفس.

ولقد ظهر زهد أبي بكر رضي الله عنه في الإمارة في خطبته التي اعتذر فيها  
عن قبول الخلافة.

وقد أخرج خبر ذلك الحاكم بإسناده من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن بن  
عوف قال: ثم قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم وقال: والله ما كنت  
حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغباً ولا سألتها الله عز  
وجل في سرٍّ وعلانية، ولكنني أشفقت من الفتنة، ومالي في الإمارة من راحة  
ولكن قُلتُ أمراً عظيماً مالي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل،  
ولو ددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره  
الذهبي (١).

هذا وبعد أن تمت بيعة أبي بكر رضي الله عنه البيعة الخاصة في سقيفة بني  
ساعدة، كان لعمر رضي الله عنه موقف آخر في تأييد أبي بكر، وذلك في اليوم  
التالي حينما اجتمع المسلمون للبيعة العامة.

قال ابن اسحاق رحمه الله: وحدثني الزهري قال: حدثني أنس بن مالك قال:  
لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم  
قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس إني كنت  
قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهدته  
إلي رسول الله ﷺ ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا - يقول

(١) المستدرک ٦٦/٣.

يكون آخرنا- وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه. . فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

فتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله<sup>(١)</sup>.  
وذكره الحافظ ابن كثير وقال: وهذا إسناد صحيح<sup>(٢)</sup>.

وأخرج الإمام البخاري منه خبر خطبة عمر، وجاء في آخره: قال الزهري عن أنس بن مالك: سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة<sup>(٣)</sup>.

ففي هذا الخبر موقف جليل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته الرائعة التي تعدُّ من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، فقد ضرب أبو بكر من نفسه مثلا عاليًا في التواضع حيث قال: «ولست بخيركم» وقرر قواعد العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولي الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد في سبيل الله تعالى لأهميته في إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك في حماية المجتمع من الانهيار والفساد.

هذا وقد أجمع الصحابة على بيعة أبي بكر رضي الله عنه، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

(١) سيرة ابن هشام ٤/٤٥٦.

(٢) البداية والنهاية ٦/٣٠٥-٣٠٦.

(٣) صحيح البخاري، الأحكام، رقم ٧٢١٩ (١٣/٢٠٦).

«وقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على بيعه الصديق في ذلك الوقت، حتى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما، والدليل على ذلك ما رواه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري قال: فُبِضَ رسول الله ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة، وفيهم أبو بكر وعمر قال: فقام خطيب الأنصار فقال: أتعلمون أنا أنصار رسول الله ﷺ فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره، قال: فقام عمر بن الخطاب فقال: صدق قائلكم ولو قلتم غير هذا لم نبايعكم، فأخذ بيد أبي بكر وقال: هذا صاحبكم فبايعوه، فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار.

وقال: فصعد أبو بكر المنبر فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير، قال: فدعا الزبير فجاء قال: قلت: ابن عمه رسول الله ﷺ أردت أن تشق عصا المسلمين، قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً، فدعا بعلي بن أبي طالب قال: قلت: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه علي ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين، قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه، هذا أو معناه.

قال الحافظ أبو علي النيسابوري: سمعت ابن خزيمة يقول: جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث فكتبت له في رقعة وقرأت عليه، فقال: هذا حديث يساوي بدنة، فقلت: يسوى بدنة! بل هذا يسوى بدنة<sup>(١)</sup>.

وقد رواه الإمام أحمد عن الثقة عن وهيب مختصراً، وأخرجه الحاكم في مستدركه من طريق عفان بن مسلم عن وهيب مطولاً كنعو ما تقدم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) بكسر الباء يعني صرة ذهب.

(٢) البداية والنهاية ٣٠٦/٦، وقال ابن كثير في موضع آخر: وهذا إسناد صحيح محفوظ -البداية ٢٤٩/٥- المستدرک ٧٦/٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

## مثل من الاستسلام لأوامر النبي ﷺ (إنفاذ أبي بكر جيش أسامة)

كان النبي ﷺ قد جهز جيشاً في أواخر حياته لغزو الروم ومن يواليهم من قبائل العرب، فلما ثقل به المرض توقف الجيش في مكان يقال له «الجرف» قرب المدينة.

فلما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر أمر بمسير هذا الجيش نحو الوجهة التي وجهه إليها رسول الله ﷺ.

وفي بيان ذلك يقول عروة بن الزبير: لما بويح أبو بكر وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال: ليطم بعت أسامة - وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشترأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبهم ﷺ وقتلهم وكثرة عدوهم - فقال له الناس: إن هؤلاء جُلُّ المسلمين، والعرب - على ما ترى - قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعت أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته<sup>(١)</sup>.

وإننا حينما نتأمل رأي جمهور الصحابة رضي الله عنهم نجد وجهةً في النظرة الأولى للأمر المبنية على الاجتهاد البشري في سياسة الأمور، حيث إن بقاء هذه القوة مناسب في دار الخلافة لتساعد في صد هجمات المرتدين من حول المدينة الذين بدت منهم علامات التنكُّر والعداء للمسلمين في المدينة، ومن ورائهم أكثر القبائل العربية التي ارتدت عن الإسلام، وخلعت يد الطاعة بعد موت النبي ﷺ، ولو أن أبا بكر نظر باجتهاده المجرّد لَمَّا خالف الصحابة فيما أشاروا عليه بعد، بل لَمَّا فكر في إرسال هذا الجيش إلى بلاد الشام، ولكن الاتجاه الذي كان مهيمنا على تفكيره هو تنفيذ أوامر النبي ﷺ مهما تكن الظروف والأحوال، لأنه يعلم يقينا أن

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٥.

وأوامر الله تعالى، والله سبحانه أعلم بما يصلح الأمة، ولذلك انطلق في تنفيذ هذا الأمر بحزم وقوة غير عابئٍ باعتراض المعترضين، وهذا منتهى التسليم لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ الذي يُعد علامة على بلوغ كمال التوحيد.

وهو في محاولة إقناع الصحابة بما ذهب إليه لا يفرط عليهم رأيه بلغة الاستبداد والتسلط والانتصار للرأي وإنما يبين لهم بحكمة وقوة أنه ينفذ أمراً من أوامر النبي ﷺ، ومن ذا الذي يردُّ أمره أو يتقاعس عن تنفيذه؟!!

ولقد بلغت قوة ريمانه بلزوم تنفيذ أمر النبي ﷺ هذا إلى هذا الحد المدهش الذي يفرض على سامعه أن يؤيده فيما ذهب إليه حيث يقول: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنقذته.

ولا يُظن بالصحابة رضي الله عنهم أنهم يردون أمر النبي ﷺ أو يتقاعسون عن تنفيذه وهم السابقون إلى الفضائل المتنافسون على المعالي، ولم يكن أبو بكر يتهمهم بذلك، ولكنهم كانوا يرون أن النبي ﷺ عقد لهذا الجيش في إسلام ومسألة من جميع قبائل العرب حيث كانت كلمة الله هي العليا ودولة الإسلام هي الغالبة في جزيرة العرب، فلما رمتهم العرب بقوس واحدة بعد وفاة النبي ﷺ رأوا أن الوضع السياسي قد تغير، وأن الوضع الحربي يتغير تبعاً لذلك.

وهذا الفهم سليم وحكيم لو كان الذي أصدر الأمر غير النبي ﷺ، وهذا هو الفارق الكبير بين فهم المعارضين من الصحابة وفهم أبي بكر، فلما شرح لهم وجهة نظرة سلموا له جميعاً رضي الله عنهم.

ولقد بينت نتائج هذا البعث الحكمة العظيمة من هذا الأمر النبوي، وقد بين هذه النتائج أبو هريرة رضي الله عنه في حديثه الذي أخرجه عنه البيهقي أنه قال: والله الذي لا إله غيره لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله، ثم قال الثانية: ثم قال الثالثة فقليل له: مه يا أبا هريرة؟ فقال: إن رسول الله وجّه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام فلما نزل بذي خشب قبض رسول الله ﷺ، وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا بكر ردّ هؤلاء،

تُوجَّه هؤُلاءِ إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والله الذي لا إله غيره لو جرَّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده رسول الله، فوجه أسامة، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤُلاءِ قوة ما خرج مثل هؤُلاءِ من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من أن حروباً كثيرة كان على المسلمين أن يخوضوها مع بعض القبائل، فأحمد الله الفتن معهم بغير قتال، وتبين من ذلك تفوق أبي بكر على بقية الصحابة في مجال فهم الإسلام وتطبيقه.

ولقد أشار بعض الصحابة على أبي بكر بتغيير قائد الجيش لكونه حديث السن، ونقل مشورتهم عمر بن الخطاب، فكان لأبي بكر موقف آخر يدل على شدة تمسكه بأوامر النبي ﷺ فكان مما قال لعمر في ذلك: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أوامر غير أمير رسول الله ﷺ! ثم نهض بنفسه إلى الجُرف - وهو مكان الجيش - فاستعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير، وسار معهم ماشياً وأسامه راكباً، فقال: يا خليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل فقال: والله لست بنازل ولست براكب<sup>(٢)</sup>.

وهكذا رأينا اهتمام أبي بكر رضي الله عنه بإنفاذ هذا الجيش الذي ترتبت عليه هذه النتائج الكبيرة، وهو نموذج من مواقفه العالية رضي الله عنه، كما يبين هذا النص تواضعه الجَمَّ حيث سار ماشياً في توديع الجيش ولم يقبل من أسامة وهو الذي لم يتجاوز العشرين من عمره أن ينزل عن راحلته من أجله رضي الله عنهم.

وقد يقال: كيف أمر النبي ﷺ أسامة مع أن في الجيش عدداً من أكابر الصحابة رضي الله عنهم فيقال: لعل من الحكَم في ذلك أن الروم قد قتلوا أباه في مؤتة، فيجتمع فيه عاملان للحماسة: كونه يجاهد في سبيل الله، وكونه يأخذ بثأر أبيه، وذلك يعطي اندفاعاً أكبر في القتال.

\*\*\*\*\*

(٢) نفس المصدر السابق. ٣٠٩/٦.

(١) البداية والنهاية ٣٠٨/٦.



مواقف وعبر

في

جهاد المرتدين



## حوار بين الصحابة ومواقف لأبي بكر

لقد كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه جهود كبيرة ومواقف عالية في مواجهة المرتدين عن الإسلام والمتمردين على الدولة الإسلامية، وذلك أنه بعد وفاة النبي ﷺ ارتدت قبائل كثيرة عن الإسلام، ومن زعماء هذه القبائل من ادعى النبوة كمسيلمة الكذاب وطلحة الأسيدي، ومن القبائل من بقيت على إسلامها لكنها امتنعت عن دفع الزكاة، وقد جاء وفود بعض هؤلاء إلى المدينة وهم يُقرون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة وتكلم الصحابة مع أبي بكر في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة حتي يتمكن الإيمان من قلوبهم فأبى من ذلك وأصر على قتلهم<sup>(١)</sup>، كما جاء في حديث أبي هريرة الذي أخرجه الشيخان أنه قال: لما توفي النبي ﷺ واستُخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله». قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق<sup>(٢)</sup>.

وقوله «فإن الزكاة حق المال» يعني كما أن الصلاة حق النفس وقد قال ﷺ في هذا الحديث «فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه» وقد اقتنع عمر رضي الله عنه بهذا الفهم وعرف أن أبا بكر رضي الله عنه على الحق، وهذا مثل من الأمثلة الدالة على علو كعب الصديق في العلم وأنه كان أفقه الصحابة وأعلمهم بالإسلام.

وهذا الحديث الذي استدل به عمر على أبي بكر لم يرد فيه ذكر الصلاة والزكاة، وإنما فهم الصديق من قول النبي ﷺ «إلا بحقه» أن حق النفس الصلاة

(١) البداية والنهاية ٦/٣١٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين رقم ٦٩٢٤، ٦٩٢٥ (١٢/٢٧٥)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، (١/٢٠٠).



وحق المال الزكاة، وكون الصديق استشهد بالصلاة وقرن بها الزكاة في قوله «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» دليل على أن قتال تاركي الصلاة كان محل اتفاق بين الصحابة.

وقد جاء ذكر الصلاة والزكاة في قول الله تعالى ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي قول رسول الله ﷺ الذي أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فاجتهاد الصديق رضي الله عنه في فهم الحديث الأول المجمل قد جاء موافقاً لصريح الكتاب والسنة.

وقد روى الحافظ ابن عساكر خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بهذه المناسبة من حديث صالح بن كيسان، ومما جاء في هذه الخطبة قوله:

إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهدهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما تقدم من بركة نبيكم ﷺ، وقد وكلكم إلى المولى الكافي، الذي وجده ضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده، ويوفي لنا عهده، يُقتل من قتل منا شهيداً من أهل الجنة، ويبقى من بقى منها خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خُلف له ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] <sup>(٢)</sup>.

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، رقم ٢٥ (١/٧٥)، صحيح مسلم، الإيمان، باب فضل أبي بكر (٢١٢/١).

(٢) البداية والنهاية ٦/٣١٥-٣١٦.

وهذه الخطبة تدل على قوة إيمان أبي بكر رضي الله عنه ورسوخ يقينه وثقته العالية بنصر الله تعالى أوليائه، ونجده وقد انتقضت عليه أكثر قبائل العرب يَصِفُ جنود دولته بأنهم لم يكونوا أقوى منهم في تلك الحال، وهذه عزمة صديقية بعثتها روحه القوية ومعنويته العالية، وقد أكسب بذلك جنود الإسلام هذه القوة بعدما اعترى بعضهم شيء من الخوف والقلق من مصير دولة الإسلام.

فما أعظم الدين الإسلامي الذي يحول الفرد الواحد إلى طاقة عالية لا تعادلها طاقة الألف من البشر!

وما يصور ضخامة المسؤولية التي تحملها أبو بكر الصديق رضي الله عنه والمسلمون معه في ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من حديث عمرو بن شعيب، قال: كان رسول الله ﷺ قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر، منصرفه من حجة الوداع، فمات رسول الله ﷺ وعمرو بعُمان، فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوى في الموت. فقال له المنذر: أشر عليّ في مالي بأمر لي ولا عليّ، قال: صدّق بعقار صدقة تجري من بعدك، ففعل. ثم خرج من عنده، فسار في بني تميم، ثم خرج منها إلى بلاد بني عامر، فنزل على قرة بن هبيرة، وقرة يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً، وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا خَواصّ، ثم سار حتى قدم المدينة، فأطافت به قريش، وسألوه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا<sup>(١)</sup> إلى حيث انتهيت إليكم، فتفرقوا وتحلّقوا حلّقاً، وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم إلى عمرو، فمر بحلقة وهم في شيء من الذي سمعوا من عمرو، في تلك الحلقة عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد، فلما دنا عمر منهم سكتوا، فقال: فيم أنتم؟ فلم يجيبوه، فقال: ما أعلمني بالذي خلوتم عليه! فغضب طلحة، وقال: تالله يا بن الخطاب لتُخبرنا بالغييب! قال: لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن أظن قلتم: ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلفهم ألا يُقروا بهذا الأمر! قالوا: صدقت، قال: فلا تخافوا هذه المنزلة، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش جُحراً لدخلته العرب في آثارك، فاتقوا الله فيهم، ومضى إلى عمرو فسلم عليه، ثم انصرف إلى أبي بكر.

(١) هي بلدة في عمان.

ومما يصور ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، قال: نزل عمرو بن العاص منصرفه من عُمان - بعد وفاة رسول الله ﷺ - بقرّة بن هُبيرة بن سلمة بن قُشير، وحوله عسكر من بني عامر من أفنائهم، فذبح له وأكرم مثواه، فلما أراد الرحلة خلا به قرّة، فقال: يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم. فقال عمرو: أكفرت يا قرّة؟! . ثم ذكر أن قرّة هدد بغزو المدينة. فقال عمرو: أتوعدنا بالعرب وتخوفنا بها! موعدك حَفْشٌ<sup>(١)</sup> أمك، فو الله لأوطئنّ عليك الخيل. وقدم على أبي بكر والمسلمين فأخبرهم<sup>(٢)</sup>.

وهذا الخبر يبين لنا شجاعة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وذلك في جهره بقول الحق أمام بني عامر الذين تنكّر كثير منهم لدولة الإسلام وهددوها بالغزو، ومع ذلك ومع كونه وحده فإنه يواجه زعيمهم قرّة بن هبيرة بوصف الكفر حينما سمى الزكاة إتاوة وأبدى رفضه لإخراجها، كما أنه يهدد ذلك الزعيم بحرب مفنية وبتعبير فيه شيء من تحقيره، وهذه شجاعة عالية من عمرو بن العاص تدل على رسوخ إيمانه وقوة قلبه.

وفي أثناء هذا الخبر موقف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يدل على قوة يقينه وثقته البالغة بوعد الله تعالى بنصر أوليائه حيث أبان بأنه لا يخاف من العرب على دولة الإسلام وإن رموها بقوس واحدة وإنما يخاف على العرب من قريش بعد سيادتهم أن يظلموهم.

ولقد عبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن حالهم آنذاك بقوله: «لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبي بكر، اجتمع رأينا جميعاً على ألا نقاتل. . . ونعبد الله حتى يأتينا اليقين<sup>(٣)</sup> وعزم الله لأبي بكر رضي الله عنه على قتالهم فو الله ما رضي منهم إلا بالحطّة المخزية<sup>(٤)</sup> أو الحرب المجلية، فأما الحطّة المخزية فأن يُقرُّوا بأن من قتل منهم في النار وأن ما أخذوا من

(١) الحفش: حقيبة المرأة تضع فيها زيتها، يريد تحقيره. (٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) يعني الموت، من قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

(٤) جاء في الأصل الحطّة بالخاء وصوابه الحطّة بالخاء المكسورة كما في الروايات الأخرى.

أموالنا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم» رواه البلاذري بإسناده عن الشعبي<sup>(١)</sup>.

وهكذا عبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن القعود عن الجهاد بالهلاك مما يدل على فظاعة هذا الأمر وأنه من الآثام الكبيرة.

لقد اجتمع رأي كثير من الصحابة رضي الله عنهم على أن يتركوا العرب وشأنهم، وأن يقصروا دولتهم على المدينة وما حولها ومن أطاعهم بغير قتال، لا لأنهم يرون عدم وجوب إقامة دولة الإسلام الكبرى، ولا لأنهم يرون عدم وجوب إنكار هذا المنكر العظيم، وهو ارتداد من ارتد من العرب أو تمرد على الدولة الإسلامية، فليسوا يجهلون حكم الإسلام في ذلك، وإنما لأن أكثر العرب رموهم عن قوس واحدة، وقد ذكر لهم عمرو بن العاص - كما سبق في الخبر الذي قبل هذا - أن بلاد العرب من عمان إلى المدينة قد عسكروا يريدون إقامة تجمعات كبرى، ويرفضون دفع الزكاة وتبعية دولة الإسلام في المدينة، فلم يصل كثير من الصحابة من اليقين إلى الدرجة التي وصل إليها أبو بكر رضي الله عنه من ضرورة قيام دولة الإسلام وانتصار أنصاره في النهاية مهما بلغ حجم الأعداء، فعدَّ أبو هريرة رضي الله عنه نقصهم في هذا اليقين الذي حملهم علي إرادة القعود عن الجهاد هلاكاً في دينهم، وعدَّ أبا بكر متقدماً لهم من ذلك الهلاك حيث صمم على جهاد جميع من ارتد أو تمرد من العرب من غير نظر إلى نتائج ذلك، حيث إنه يطبق الإسلام الذي سيظل ناقصاً بغير إقامة دولة الإسلام، فهو في جهاده يؤدي فرضاً لازماً عليه وعلى المسلمين جميعاً.

ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قدوة عظيمة لهذه الأمة فيما لو مرت بواقع يشبه ذلك الواقع الذي عاصره وتبوأ مقام المسؤولية العليا فيه.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح البلدان/ ١٣١.

## جهاد المرتدين والمتمردين حول المدينة

١- أخرج الإمام ابن جرير الطبري خبر المرتدين والمتمردين من القبائل القريبة من المدينة وذلك فيما يرويه بإسناده عن القاسم بن محمد قال: مات رسولُ الله ﷺ واجتمعت أسد وغطفان وطبىء على طليحة، إلا ما كان من خواصِّ أقوام في القبائل الثلاث، فاجتمعت أسد بسميراء، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة، وطبىء على حدود أرضهم. واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعَبَسُ بالأبرق من الرَبْذة، وتأشَّب<sup>(١)</sup> إليهم ناسٌ من بني كنانة، فلم تحملهم البلاد، فافترقوا فرقتين، فأقامت فرقة منهم بالأبرق، وسارت الأخرى إلى ذي القصة، وأمدهم طليحة بحبال<sup>(٢)</sup> فكان حبال على أهل ذي القصة من بني أسد ومن تأشَّب من ليث والدليل ومُدْلِج. وكان على مُرَّة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان، وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان، أحد بني سبيع.

وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة، فنزول على وجوه الناس، فأنزلوهم ما خلا عبَّاساً، فتحملوا بهم على أبي بكر، على أن يقيموا الصلاة، وعلى ألا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقلاً<sup>(٣)</sup> لجاهدتهم عليه - وكان عَقْلُ الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة - فردَّهم فرجع وفدٌ من يلي المدينة من المرتدة إليهم، فأخبروا عشائرهم بقله أهل المدينة وأطمعوهم فيها<sup>(٤)</sup>.

٢- وقال الإمام الطبري: فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هرب ضرار وقُضاعي وسنان ومن كان قام بشيء من أمر النبي ﷺ في بني أسد إلى أبي بكر، وارفَض من كان معهم، فأخبروا أبا بكر الخبر، وأمره بالخذر، فقال ضرار ابن الأزور: فما رأيتُ أحداً - ليس رسول الله ﷺ - أملاً بحرب شعواء من أبي بكر، فجعلنا نخبره، ولكأنما نخبره بما له ولا عليه<sup>(٥)</sup>.

(١) أي انضم.

(٢) حبال بكسر الحاء وفتح الباء هو أخو طليحة بن خويلد الأسدي.

(٣) العقال هو الحبل الذي يربط به البعير، وذلك كناية عن الشيء القليل.

(٤) تاريخ الطبري ٣/ ٢٤٤. (٥) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٨.

٣- وفي جهاد هؤلاء المرتدين والمتمردين حول المدينة يقول الإمام الطبري فيما يرويه عن القاسم بن محمد: وجعل أبو بكر بعدما أخرج الوفد<sup>(١)</sup> على أنقاب المدينة نفرًا: عليًا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، وقال لهم: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تُؤتُون أم نهاراً! وأدناهم منكم على بريد. وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا.

فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقت المدينة غارةً مع الليل، وخلفوا بعضهم بذي حُسى، ليكونوا لهم رداءً، فوافق الغُوار ليلاً الأنقاب، وعليها المقاتلة، ودونهم أقوام يدرجون، فنبهوهم، وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم، ففعلوا. وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفش العدو، فاتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حُسى، فخرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها<sup>(٢)</sup>، وجعلوا فيها الحبال، ثم ددهوها<sup>(٣)</sup> بأرجلهم في وجوه الإبل، فتدهه كل نحي في طوله<sup>(٤)</sup>، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها -ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الأنحاء- فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة فلم يُصرع مسلمٌ ولم يُصبَ إلى أن قال: وقال عبد الله الليثي - وكانت بنو عبد مناة من المرتدة - وهم بنو ذبيان - في ذلك الأمر بذي القصة وبذي حُسى -:

أطعنا رسولَ الله ما كان بيننا	فيا لَعبادَ الله ما لأبي بكر!
أيورثها بكرًا إذا مات بعده	وتلكَ لعمرُ الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وأفدنا بزمانه	وهلا خشيتم حسَّ راغبة البكر!
وإنَّ التي سألوكمُ فمنعتمُ	لكالتَّمُرُ أو أحلى إليَّ من التمر

فظنَّ القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر، فقدموا عليهم اعتماداً في الذين أخبروهم، وهم لا يشعرون لأمر الله عز وجل الذي أراده،

(١) يعني وفد القبائل الذين حضروا للمفاوضة في ترك الزكاة. (٢) الأنحاء هي القرب.

(٣) أي دفعوها. (٤) أي في حبله.

وأحب أن يبلغه فيهم، فبات أبو بكر ليلته يتهياً، فعبى الناس، ثم خرج على تعبئة من أعجاز ليلته يمشي، وعلي ميمته النعمان بن مقرن، وعلي مسيرته عبد الله بن مقرن، وعلي الساقة سويد بن مقرن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقُتل حبالٌ واتبعهم أبو بكر، حتى نزل بذي القصة - وكان أول الفتح - ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد، ورجع إلى المدينة فذل بها المشركون.

فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين، فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، وعز المسلمون بوقعة أبي بكر، وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي:

أقمنا لهم عرض الشمال فكُكبوا      ككبَّبة الغزى أناخوا على الوفر  
فما صبروا للحرب عند قيامها      صبيحةً يسمو بالرجال أبو بكر  
طرقنا بني عبس بأدنى نباحها<sup>(١)</sup>      وذبيان نهنهنا بقاصمة الظهر

ثم لم يُصنع إلا ذلك، حتى ازداد المسلمون لها ثباتاً على دينهم في كل قبيلة، وازداد لها المشركون انعكاساً من أمرهم في كل قبيلة، وطرقت المدينة صدقاتُ نفر: صفوان، الزبرقان، عدي<sup>(٢)</sup>، صفوان، ثم الزبرقان، ثم عدي، صفوان في أول الليل، والثاني في وسطه، والثالث في آخره، وكان الذي بشر بصفوان سعد ابن أبي وقاص، والذي بشر بالزبرقان عبد الرحمن بن عوف، والذي بشر بعدي عبد الله بن مسعود. وقال غيره: أبو قتادة.

قال: وقال الناس لكلهم حين طلع: نذير، وقال أبو بكر: هذا بشير، هذا حام وليس بوان، فإذا نادى بالخير، قالوا: طالما بشرت بالخير! وذلك لتمام ستين يوماً

(١) أي أقرب مرتفعاتها.

(٢) صفوان هو صفوان بن صفوان سيد بني عمرو من تميم، والزبرقان هو الزبرقان بن بدر سيد بني الرباب من تميم، وعدي هو ابن حاتم سيد طيء.

من مخرج أسامة. وقدم أسامة بعد ذلك بأيام لشهرين وأيام، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهركم.

ثم خرج في الذين خرجوا إلي ذي القصة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر، فقال له المسلمون: ننشُدك الله يا خليفة رسول الله أن تُعرِّض نفسك! فإنك إن تُصَب لم يكن للناس نظامٌ، ومقامك أشدُّ على العدو، فابعث رجلاً، فإن أصيب أمّرت آخر. فقال: لا والله لا أفعلُ ولأواسينكم بنفسي، فخرج في تعبيته إلى ذي حُسى وذي القصة، والنُّعمان وعبد الله وسويد على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الرَبذة بالأبرق، فاقتتلوا، فهزم الله الحارث وعوقاً، وأخذ الحطيئة أسيراً. فطارت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً، وقد غلب بني ذبيان على البلاد. وقال: حرام على بني ذبيان أن يملكوا هذه البلاد إذ غنمناها الله! وأجلاها.

فلما غلب أهل الردة، ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه، وسامح الناس جاءت بنو ثعلبة، وهي كانت منازلهم لينزلوها، فمنعوا منها فأتوه في المدينة. فقالوا: علامَ نمنع من نزول بلادنا! فقال: كذبتُم، ليست لكم بيلاذ، ولكنها موهبي ونقدي<sup>(١)</sup>، ولم يُعتبهم<sup>(٢)</sup>، وحمى الأبرق لخيول المسلمين. وأرعى سائر بلاد الرَبذة الناس على بني ثعلبة، ثم حمأها كلها لصدقات المسلمين، لقتال كان وقع بين الناس وأصحاب الصدقات، فمنع بذلك بعضهم من بعض.

ولما فضت عبس وذبيان أرزوا إلى طليحة وقد نزل طليحة على بُزأخة، وارتحل عن سميراء إليها، فأقام عليها، وقال في يوم الأبرق زياد بن حنظلة:

ويوم بالأبارق قد شَهدنا      على ذُبيانَ يَلْتَهَبُ التَهَابَا  
أَتَيْنَاهُمْ بَدَاهِيَةَ نَسُوفٍ<sup>(٣)</sup>      مَعَ الصَّدِيقِ إِذْ تَرَكَ الْعَتَابَا<sup>(٤)</sup> (٥)

في هذه الأخبار مواقف عالية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فمن ذلك:

(١) النَّقْدَ ما استنقذ من الأعداء. (٢) أي لم يُقل عثرتهم. (٣) أي شاقة.

(٤) أي ترك إقالة العثرات. (٥) تاريخ الطبري ٣/٢٤٥-٢٤٨.



أولاً وقوفه القوي الحازم في وجه الأعراب الذين أرادوا أن يفرقوا الدين فيستسلموا لبعض ويتمردوا على بعضهم الآخر، حيث عرضوا عليه أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة، فرفض طلبهم هذا بقوة وإباء، على الرغم من قلة المؤمنين وكثرة أعدائهم، ومع معارضة بعض الصحابة رضي الله عنهم إياه في ذلك، وذلك دليل على قوة إيمانه وجزارة علمه.

وقد تكون النظرة السياسية لهذا الأمر أن يقبل أبو بكر من هؤلاء ما عرضوا عليه وأن يوادعهم ويصرف النظر عن موضوع الزكاة إلى حين، وأن يوجه جهوده لقتال المرتدين. . قد تكون سياسة الأمور تقتضي هذا خاصة في حال قلة المؤمنين آنذاك، ولكن أبا بكر لم يكن ليقبل منهم إسلاماً ناقصاً، وما قيمة إسلام قد اختل ركن من أركانه؟ فالإسلام إما أن يؤخذ كاملاً كما جاء من عند الله تعالى أو فلا إسلام.

ثانياً: موقف بارع من أبي بكر رضي الله عنه في التخطيط الحربي، فحينما رأى المدينة مهددة من القبائل المجاورة وضع على مداخلها حرساً من كبار الصحابة، وأمر أهل المدينة بأن يرابطوا في المسجد ليكونوا على استعداد دائم حتى يتمكنوا من صد المهاجمين بسرعة، وهذا مثل من أمثلة اليقظة وأخذ الحذر والتصرف بحزم للوقاية والدفاع، وقد أفادت هذه الاحتياطات في معرفة قدوم العدو أول ما قدم والهجوم عليه قبل أن يتمكن.

ثالثاً: عزم قوي من أبي بكر لا تؤثر فيه الزعازع والمحن، فحينما دبر الأعداء مكيدتهم في تنفير إبل المسلمين وتفرق بها جيشهم لم ييأس أبو بكر ولم يعتره الوهن ولم تعرف الراحة إلى جسمه سبيلاً، بل نهض من ساعة وصوله إلى المدينة وقام بتعبية جيشه في تلك الليلة، فلم ينم ولم يترك أحداً ينام، بل سرى بذلك الجيش ليلته حتى صبح الأعداء وهم مستسلمون للراحة، ولم يدرب بخلدتهم أن جيشاً من الأسود الكاسرة قد يبتوهم ليعصفوا بهم ويحيلوهم كأمس الذهاب.

إنه لم يكن في عرف العرب الحربي أن جيشاً يُفَلَّ ويتفرق شذر مذر، يستطيع أن يلمَّ شعثه ويجمع شمله وينطلق بتعبية ونظام في ليلة واحدة، فلذلك كان أفراد

تلك القبائل في أمان من هجوم المسلمين عليهم قبل مرور أيام من الواقعة السابقة، بل كانوا يريدون جمع أكبر عدد ممكن من المقاتلين ليهجموا بهم على المدينة، فإذا بالشيخ الذي ظنوه قد فقد حيوية الشباب يعود وقد حوى حيوية أمة من الشباب فيقتلعهم من جذورهم ويهيمن على ممتلكاتهم.

وبهذا العزم القوي والسياسة الحكيمة أزهب أبو بكر جميع القبائل المحيطة بالمدينة وأظهر للقبائل العربية قوة المسلمين ووحدتهم.

وإن من أسباب نجاحه المهمة طاعة المسلمين التامة له في المدينة، حتى في الأحوال التي لا يقتنعون برأيه فيها في بداية الأمر، مما يدل على مكانته العالية في نفوس الصحابة جميعاً رضي الله عنهم، وقد أبانت الأحداث أن رأيه كان هو السديد الموافق للسنة في القضايا التي اختلف فيها معه بعض الصحابة.

رابعاً: في خروج أبي بكر رضي الله عنه للجهاد للمرة الثالثة تضحية كبيرة وفدائية عالية، فقد ناشده المسلمون أن يبقى في المدينة ويبعث قائداً على الجيش فلم يقبل بل قال: لا والله لا أفعل ولأوأسينكم بنفسي، وهذا يدل على تواضعه الجم، واهتمامه الكبير بمصلحة الأمة وتجرده من حظ النفس، وقد أصبح بذلك قدوة صالحة لغيره، فلا شك أن خروجه للجهاد ثلاث مرات متتاليات وهو الشيخ الذي بلغ الستين من عمره قد أعطى ببقية الصحابة دفعات قوية من النشاط والحيوية.

وقد جاء في إحدى هذه الروايات أن ضرار بن الأزور حينما أخبر أبا بكر الصديق بخبر طليحة الأسدي قال: «فما رأيت أحداً - ليس رسول الله ﷺ - أملاً بحرب شعواء من أبي بكر، فجعلنا نخبره ولكأنما نخبر بما له ولا عليه».

وهذا وصف بليغ لما كان يتصف به أبو بكر من اليقين الراسخ والثقة التامة بوعد الله تعالى أولياءه بالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض، وأبو بكر لم يفق الصحابة بكبير عمل، وإنما فاقهم بحيازة الدرجات العلى من اليقين، رضي الله عنهم جميعاً.

\*\*\*\*\*

## مخاطبة المرتدين والمتمردين وعقد الألوية لقتالهم

لما وصل جيش أسامة بعد شهرين من مسيرهم واستراحوا، خرج أبو بكر الصديق بالصحابة رضي الله عنهم إلى «ذي القصة» وهي على مرحلة من المدينة، وذلك لقتال المرتدين والمتمردين، فعرض عليه الصحابة أن يبعث غيره على القيادة وأن يرجع إلى المدينة ليتولَّى إدارة أمور الأمة وألحوا عليك بذلك، ومما رُوي في هذا الموضوع ما ذكره الحافظ ابن كثير من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبي شاهراً سيفه راكباً راحلته إلى وادي ذي القصة فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد<sup>(١)</sup>، لمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أُصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً، فرجع وأمضى الجيش<sup>(٢)</sup>.

ومن هذا الخبر يتبين لنا كيف كان الصحابة رضي الله عنهم معتبطين بخلافه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث جمعهم الله به وألهمه الصواب في قضايا مهمة اختلفوا فيها وأنهم كانوا مشفقين عليه من مواجهة الأعداء بنفسه حتى لا يفقدوه فيختل نظامهم بعده، فإنه كان الرجل الذي اجتمعت عليه كلمتهم بعد شيء من الخلاف الذي مرَّ ذكره، وهو المدبّر الحكيم القوي الذي صدع بالحق في قضايا تهيَّب منها غيره.

وقد قسم أبو بكر الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواءً، وجعل على كل لواء أميراً، كما أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق سيف بن عمر عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجموا - وقد جاءت صدقات كثيرة تفضلُ عنهم - قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً: عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطحاء إن أقام له، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره

(١) يعني قوله ﷺ لأبي بكر يوم أحد حينما أراد أن يبارز ابنه عبد الرحمن: شَمَّ سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك - انظر ج ٥ ص ١١٧ من هذا الكتاب.

(٢) البداية والنهاية ٣١٩/٦.

بمسئلة، والمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي، ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم، ثم يمضى إلى كندة بحضرموت، ولخالد بن سعيد بن العاص - وكان قدم على تفيئة<sup>(١)</sup> ذلك من اليمن وترك عمله - وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام، ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاة ووديعة والحارث، ولخديفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة، وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما في عمله على صاحبه، وبعث شريحيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل. وقال: إذا فرغ من الإمامة فالحق بقضاة، وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة، ولطريف بن حاجز وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن، ولسويد بن مقرن وأمره بتهمامة اليمن، والعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قسم الصديق الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواءً مع قلة المسلمين، وإن هذا ليعدُّ مثلاً عالياً في كمال الثقة بنصر الله تعالى لأوليائه المؤمنين ماداموا قد حققوا الشروط المطلوبة منهم.

أما لماذا غامر الصديق بتوزيع الجيش على هذا النحو مع أنه لو كان التوزيع أقل من ذلك وكانت البداية بالأهم فالأهم لكان ضمان نجاح المهمة أكبر، فلعله لاحظ أمراً أهم من ذلك وهو أن المرتدين لازالوا متفرقين كلٌّ في بلده ولم يحصل منهم تحزب ضد المسلمين بالنسبة للقبائل الكبيرة المتباعدة في المكان، أولاً لأن الوقت لم يكن كافياً للقيام بعمل كهذا حيث لم يمض على ارتدادهم إلا ما يقرب من ثلاثة شهور، وثانياً لأنهم لم يدركوا خطر المسلمين عليهم وأنهم باستطاعتهم أن يكتسحوهم جميعاً في شهور معدودة، فلعل الصديق أراد أن يعاجلهم بضربات قاضية عليهم جميعاً قبل أن يجتمعوا في نصره باطلهم.

وانطلقت هذه الأولوية التي ترفرف عليها أعلام التوحيد مصحوبة بدعوات خالصة من قلوب لم يتسرب إليها تعظيم أحد غير الله تعالى، ومن حناجر لم تلهج إلا بذكره تعالى، فاستجاب الله جل وعلا هذه الدعوات النقية فأنزل عليهم

(١) يعني حين ذلك.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/٢٤٩.

نصره وأعلى بهم كلمته وحمى بهم دينه حتى دانت جزيرة العرب للإسلام في شهور معدودات .

هذا وقد كتب أبو بكر الصديق كتاباً واحداً إلى قبائل العرب من المرتدين والمتمردين، كما أخرج الإمام الطبري من حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك، وهذه نسخة الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه، سلامٌ على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نُقِرُّ بما جاء به، ونكفِّر من أبي ونجاهده .

أمّا بعدُ، فإن الله تعالى أرسلَ محمداً بالحقّ من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لينذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين . فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسولُ الله ﷺ بإذنه<sup>(١)</sup> من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً .

ثم توفّى الله رسوله ﷺ وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأُمَّته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل، فقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَاتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال للمؤمنين: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد، حيٌّ قيومٌ لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نومٌ، حافظ لأمره، منتقمٌ من عدوه، يجزيه .

(١) أي بإذن الله تعالى .

وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبيكم من الله، وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضالاً، وكل من لم يعافه مبتلياً، وكل من لم يعنه الله مخذولاً. فمن هداه الله كان مهتدياً ومن أضله كان ضالاً، قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقر به، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل.

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله، وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة وأن يسبي النساء والذري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان: فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم، وإن أذّنوا أسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقرّوا قبل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم.

فنفذت الرُّسل بالكتب أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم العهود:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سرّه وعلايته، وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يُعذر إليهم فيدعوهم بداعية

الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم، لا يُنظرهم، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقرّ له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيلٌ، وكان الله حسيبه بعدُ فيما استسرّ به، ومن لم يجب داعية الله قُتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقرّ قبل منه وعلمه، ومنّ أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه، إلا الخمس فإنه يبلّغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم، لا يكونوا عيوناً، ولثلاً يُؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدّهم، ولا يُعجلّ بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حُسن الصحبة ولين القول<sup>(١)</sup>.

وهكذا قدّم خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه دعوة أولئك المرتدين والمتردين إلى العودة إلى الإسلام وتطبيقه كاملاً كما جاء من عند الله تعالى، ثم حذرهم من سوء العاقبة فيما لو ظلوا على ما هم عليه في الدنيا والآخرة، وكان قوياً في إنذارهم، وهذا هو المناسب لشدة انحرافهم وقوة تصلبهم في التمسك بباطلهم، فكان لا بد من إنذار شديد يتبعه عمل جريء قوي لإزالة الطغيان الذي عمّش في أفكار زعماء تلك القبائل والعصبية العمياء التي سيطرت على أفكار أتباعهم.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٠ - ٢٥٢ .

## جهاد تجمع طليحة الأسدي

١- أخرج الإمام ابن جرير الطبري بإسناده عن سهل بن يوسف، عن القاسم ابن محمد وبدر بن الخليل وهشام بن عروة، قالوا: لما أَرَزَتْ عَبَسٌ وَذُبْيَانٌ وَلَفُّهَا إِلَى الْبُزَاخَةِ<sup>(١)</sup> أُرْسِلَ طَلِيحَةَ إِلَى جَدِيلَةَ وَالغَوَثُ أَنْ يَنْضَمُوا إِلَيْهِ، فَتَعَجَّلَ إِلَيْهِ أَنْاسٌ مِنَ الْحَيِّينَ، وَأَمَرُوا قَوْمَهُمْ بِاللِّحَاقِ بِهِمْ، فَقَدَمُوا عَلَى طَلِيحَةَ، وَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ عَدِيًّا قَبْلَ تَوْجِيهِ خَالِدٍ مِنْ ذِي الْقَصَّةِ إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: أَدْرِكُهُمْ لَا يُؤْكَلُوا. فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَفَتَلَهُمْ فِي الذَّرْوَةِ وَالغَارِبِ، وَخَرَجَ خَالِدٌ فِي أَثَرِهِ، وَأَمَرَهُ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَبْدَأَ بِطَيْئٍ عَلَى الْأَكْنَافِ، ثُمَّ يَكُونُ وَجْهَهُ إِلَى الْبُزَاخَةِ، ثُمَّ يَثَلُّثُ بِالْبَطَّاحِ، وَلَا يَرِيمُ إِذَا فَرَّغَ مِنْ قَوْمٍ حَتَّى يُحْدِثَ إِلَيْهِ، وَيَأْمُرُهُ بِذَلِكَ. وَأَظْهَرَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ خَارَجَ إِلَى خَيْبَرَ وَمُنْصَبٌ عَلَيْهِ مِنْهَا حَتَّى يَلِاقِيَهُ بِالْأَكْنَافِ: أَكْنَفَ سَلَمَى.

فخرج خالد فازواراً عن البزاحة، وجنح إلى أجبأ، وأظهر أنه خارج إلى خيبر، ثم منصب عليهم، فقعد ذلك طيئاً وبطأهم عن طليحة، وقدم عليهم عدي، فدعاهم فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل أبداً<sup>(٢)</sup> فقال: لقد أتاكم قوم لبيحن حريمكم، ولتكنننه بالفحل الأكبر، فشانكم به. فقالوا له: فاستقبل الجيش فنهنه<sup>(٣)</sup> عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاحة منا، فإننا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عدي خالداً وهو بالسُّنْحِ، فقال: يا خالد، أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار وتتشاغل بهم، ففعل.

فعاد عدي إليهم وقد أرسلوا إخوانهم، فأتوهم من بزاحة كالممدد لهم، ولولا ذلك لم يتركوا، فعاد عدي بإسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة، فقال له عدي: إن طيئاً كالتائر، وإن جديلة أحد جناحي طيئ، فأجلني أياماً لعل الله أن ينتقد جديلة كما انتقد الغوث، ففعل، فأتاهم عدي فلم يزل بهم

(١) يعني بعد أن أوقع بهم أبو بكر كما في الخبر السابق.

(٢) يريدون بذلك أبا بكر رضي الله عنه، والبكر والفصيل اسمان لولد الناقة، وقصدهم الاستخفاف به.

(٣) أي ادفعه وكفه.



حتى بايعوه، فجاءه بإسلامهم، ولحق المسلمين منهم ألف راكب، فكان خير مولود  
وُلد في أرض طيِّ وأعظمه عليهم بركة<sup>(١)</sup>.

٢- أخرج الإمام الطبري من حديث سعد بن مجاهد، أنه سمع أشياخاً من  
قومه<sup>(٢)</sup> يقولون: سألنا خالدًا أن نكفيه قيسًا فإن بني أسد حلفاؤنا، فقال: والله ما  
قيسٌ بأوهن الشوكتين، اصمدُّوا إلى أيِّ القبيلتين أحببتم، فقال عديُّ: لو ترك هذا  
الدين أسرتي الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه. فأنا أمتنع من جهاد بني  
أسد لحلفهم! لا لعمرُ الله لا أفعل! فقال له خالد: إنَّ جهاد الفريقين جميعاً  
جهادٌ، لا تخالفُ رأياً أصحابك، امض إلى أحد الفريقين، وامض بهم إلى القوم  
الذين هم لقتالهم أنشط<sup>(٣)</sup>.

٣- أخرج الإمام الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن طلحة بن  
يزيد بن رُكَّانة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: حَدَّثْتُ أَنَّ النَّاسَ لَمَّا  
اقتتلوا، قاتل عيينة مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة قتالاً شديداً، وطليحة  
متلفف في كساء له بفناء بيت له من شعر، يتنبأ لهم، والناس يقتتلون، فلما هزَّتْ  
عيينة الحربُ، وضرَّس القتال، كرَّ على طليحة، فقال: هل جاءك جبريل بعد؟  
قال: لا، قال: فرجع فقاتل حتى إذا ضرَّس القتال وهزَّته الحرب كرَّ عليه فقال:  
لا أبا لك! أجاءك جبريل بعد؟ قال: لا والله، قال: يقول عيينة: حلفاً حتى متي!  
قد والله بلغ منَّا! قال: ثم رجع فقاتل، حتى إذا بلغ كرَّ عليه، فقال: هل جاءك  
جبريل بعد؟ قال: نعم، قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: «إن لك رحاً كرحاه،  
وحديثاً لا تنساه» قال: يقول عيينة: أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديث  
لاتنساه، يا بني فزارة هكذا، فانصرفوا، فهذا والله كذاب.

فانصرفوا وانهزم الناس فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟ وقد كان أعدُّ فرسه  
عنده، وهياً بغيراً لامرأته النَّوَّار، فلما أن غشوه يقولون: ماذا تأمرنا؟ قام فوثب  
على فرسه، وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال من استطاع منكم أن يفعل مثل ما  
فعلت وينجو بأهله فليفعل، ثم سلك الحوشيَّة حتى لحق بالشام وارفصَّ جمعه،

(٢) يعني من قبيلة طيء.

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) تاريخ الطبري ٣/٢٥٥.

وقتل الله من قتل منهم، وبنو عامر قريباً منهم على قاداتهم وساداتهم، وتلك القبائل من سليم وهوزان على تلك الحال، فلما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع، أقبل أولئك يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا<sup>(١)</sup>.

٤- أخرج الإمام الطبري من حديث عبد الرحمن بن كعب، عمن شهد بزأخة من الأنصار، قال: لم يُصب خالد على البزأخة عيلاً<sup>(٢)</sup> واحداً، كانت عيالات بني أسد محرزة - وقال أبو يعقوب: بين مثقّب وفلج، وكانت عيالات قيس بين فلج وواسط - فلم يعد أن انهزموا، فأقروا جميعاً بالإسلام خشية على الذراري. واتقوا خالدًا بطلبته. واستحقوا الأمان.

ومضى طليحة، حتى نزل كلب<sup>(٣)</sup> على النّقع. فأسلم، ولم يزل مقيماً في كلب حتى مات أبو بكر، وكان إسلامه هنالك حين بلغه أن أسداً وغطفان وعامراً قد أسلموا، ثم خرج نحو مكة معتمراً في إمارة أبي بكر، ومرّ بجنابات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به! خلوا عنه، فقد هداه الله للإسلام.

ومضى طليحة نحو مكة فمضى عمرته، ثم أتى عمر إلى البيعة حين استخلف. فقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت<sup>(٤)</sup> والله لا أحبُّك أبداً. فقال: يا أمير المؤمنين، ما تهتمُّ من رجلين أكرمهما الله بيدي، ولم يُهنيّ بأيديهما! فبايعه عمر ثم قال له: يا خُدع، ما بقي من كهانتك؟ قال: نفخة أو نفختان بالكبير. ثم رجع إلى دار قومه، فأقام بها حتى خرج إلى العراق<sup>(٥)</sup>.

في هذه الأخبار مواقف منها:

أولاً: قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعدي بن حاتم رضي الله عنه عن قومه «أدركهم لا يؤكلوا» فيه مثل على قوة يقين أبي بكر وثقته بنصر الله تعالى، فقد حكم على نتيجة المعركة مع طيئ قبل الدخول فيها.

(١) تاريخ الطبري ٢٥٦/٣.

(٢) أي نزل في قبيلة كلب.

(٣) يعني عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم رضي الله عنهما. وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه أرسلهما طليعة لجيشه فقتلتهما طليحة.

(٤) تاريخ الطبري ٢٦١/٣.

ثانيًا: أمرُ أبي بكرٍ خالدًا رضي الله عنهما بأن يبدأ بحرب قبيلة طيء مع أنها أبعد من تجمع طليحة خطة حربية ناجحة، وذلك ليحول دون انضمام طيء إلى طليحة وليضطر من انضم إليه منهم إلى التخلي عنه للدفاع عن قبيلتهم، ثم في إظهار أبي بكر أنه خارج جهة خيبر ليلاقى خالدًا ببلاد طيء تخطيط حربي بارع، وذلك لإرهاب تلك القبيلة والقبائل المجاورة.

ثالثًا: موقف حربي كبير لعدي بن حاتم الطائي، حيث استطاع إقناع قبيلته بفرعيتها بني الغوث وبني جديلة بالتخلي عن معسكر طليحة والانضمام إلى جيش خالد بن الوليد، وهذا تحول مهم في تقرير نتائج معركة بزاخة الحاسمة، ولقد كان للتخطيط السابق الذكر بالبداية بحرب قبيلة طيء في منازلهم أثر واضح في نجاح عدي في مهمته من ناحية خوف الطائيين من مدهامة جيش خالد ومن ناحية مقدرتهم على التمويه على طليحة بأن انسحاب من وصلوا إليه منهم كان الدافع إليه الإسراع في نجدة قومهم.

وهذا موقف عظيم يسجل لعدي رضي الله عنه إلى جانب موقفه الأول حينما قدم على الصديق بصدقات قومه، وكان المسلمون بأمر الحاجة إلى المال آنذاك، ولقد كان إسلامه من أول يوم إسلام رجل العلم والفهم، فكان عن قناعة واختيار كما سبق في قصة إسلامه، ولم يكن مجرد استسلام لقوة المسلمين كما هو حال كثير ممن ارتدوا عن الإسلام، وكان واثقًا من انتصار الإسلام والمسلمين في النهاية كما بشره بذلك النبي ﷺ يوم إسلامه، فكان لإيمانه القوي أثر في إقناع قومه في العدول عما توجهوا إليه من مناصرة أعداء الإسلام ولم تكن قناعتهم إلى حد الحياد والانتظار حتى يروا لمن تكون الدائرة، بل انضم منهم ألف وخمسمائة إلى جيش المسلمين مما يدل على مبلغ أثره فيهم.

رابعًا: موقف آخر لعدي بن حاتم، وذلك حينما أنكر على قومه تمنعهم من حرب حلفائهم بني أسد، وأظهر لهم أنه لو ترك الإسلام أقاربه الأذنون لجاهدتهم في سبيله، وهذا دليل على قوة إيمانه وغزارة علمه حيث والى أولياء الله وإن كانوا بعيدين عنه وتبرأ من أعداء الله وإن كانوا من حلفائه.

خامساً: موقف لخالد بن الوليد رضي الله عنه يدل على خبرته الحربية، وذلك حينما أمر عدياً بأن لا يخالف قومه في تمنعهم من مواجهة حلفائهم بني أسد وأن يوجههم إلى الوجه الجهادي الذي يكونون فيه أنشط على القتال.

سادساً: في الخبر الثالث وصف لمعركة بزاخة التي دارت بين تجمع طليحة من بني أسد وغطفان وقيس وعيس وذبيان من جهة والمسلمين بقيادة خالد بن الوليد من جهة، وقد كانت معركة مصيرية حيث وقفت القبائل القريبة موقف المترقب الحذر، ينتظرون نتيجة تلك المعركة لمن تكون له الدائرة أو عليه، وذلك مثل قبيلة بني عامر وهوازن وسليم، وقد كانت معركة عظيمة أبلت فيها الصحابة رضي الله عنهم بلاءً عظيماً حتى هزموا أعداءهم وقتلوا منهم خلقاً وأسروا آخرين وفرّ بقتيتهم.

ومما يصور بلاء الصحابة العظيم وشجاعتهم الفذة ما ذكره الإمام الذهبي من حديث الإمام الزهري قال: فسار خالد لقتال طليحة الكذاب فهزمه الله، وكان قد بايع عيينة بن حصن، فلما رأى طليحة كثرة انهزام أصحابه قال: ما يهزمكم؟ فقال رجل: أنا أحدثك، ليس منا رجل إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وإنا نلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه<sup>(١)</sup>.

وهذه شهادة باهرة للمسلمين من أعدائهم، والحق ما شهدت به الأعداء، أما لماذا هذا الفارق الكبير بين المسلمين والكفار، فإنما هو لأن المسلمين يقاتلون من أجل الحياة الآخرة، وأسرع الوسائل للوصول إلى المنازل العليا فيها أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى، فلذلك كانوا يتسابقون إليها، أما الكفار فإنما يقاتلون من أجل الدنيا، ولن يصلوا إليها إلا بالبقاء على قيد الحياة، فلذلك كانوا يتقون الموت ويلوذون بغيرهم، وهذا يعني أنهم يقاتلون بجزء يسير من طاقتهم، ويبدلون أكثر طاقتهم في الدفاع عن أنفسهم، بينما يبذل المسلمون كل طاقتهم في الهجوم على أعدائهم.

وبينما نرى طالب الحياة الدنيا يتعد عن الأهوال ومواطن الخطر، نرى طالب الحياة الآخرة يخوض غمارها بإقدام وقوة، فيفر من بين يديه طلاب الحياة الدنيا،

(١) تاريخ الإسلام، الخلفاء الراشدون/٢٩.

ولذلك فإن طالب الشهادة في سبيل الله تعالى لا يُقتل غالباً حتى يُقتل أو يهزم أعداداً كبيرة من الأعداء، فلذلك كان الواحد منهم عن عشرة من غيرهم ممن هم مثله في القوة والشجاعة، ومن أجل هذا كانوا ينتصرون على أضعافهم في العدد. وهكذا استطاع الجيش الإسلامي بفضل الله تعالى ثم بقيادة القائد المحنك والبطل المغوار خالد بن الوليد أن يقضوا على ذلك التجمع الخطير.

وكان من براعة أبي بكر الصديق في اختيار الرجال أن اختار لهذه المهمة التي لها ما بعدها أبا سليمان الذي لم تنتكس له راية، وقد أثنى عليه أبو بكر حينما عقد له اللواء بقوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين» ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام أحمد<sup>(١)</sup>.

فلما أوقع الله بطليحة وجمعه قالت بنو عامر وسليم وهوازن: ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا، كما سبق في الرواية الثالثة، وهكذا زال طغيان أولئك الأعراب الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر لينضموا إلى أعدائهم ولكن الله سلّم وحمى أوليائه من تحزب أعدائه عليهم.

وقال الحافظ ابن كثير في بيان موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من نتائج هذه المعركة:

وقد كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد حين جاءه أنه كسر طليحة ومن كان في صفه وقام بنصره فكتب إليه: لِيَزِدْكَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَاتَّقِ اللَّهَ فِي أَمْرِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، جَدًّا فِي أَمْرِكَ وَلَا تَلْنِ وَلَا تَظْفِرْ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا نَكَلْتُ بِهِ، وَمَنْ أَخَذَتْ مِنْ حَادِ اللَّهِ أَوْ ضَادَهُ مِمَّنْ تَرَى أَنْ فِي ذَلِكَ صِلَاحًا فَاقْتَلِهِ.

فأقام خالد ببزاحة شهراً يُصعدُّ فيها ويصوبُّ ويرجع إليها في طلب الذين وصاه بسبيهم الصديق، فجعل يتردد في طلب هؤلاء شهراً يأخذهم بشأراً من قُتلوا من

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٢١.

المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا، فمنهم من حرقه بالنار، ومنهم من رضخه بالحجارة ومنهم من رمى به من شواهد الجبال، كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب، رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

وهذا الكتاب يتضمن الدعاء لخالد الذي يفهم منه الشناء عليه بإحسان، كما يتضمن أمره بتقوى الله عز وجل، وذلك فيه العصمة من الوقوع في الزلل واتباع الهوى، كما أمره بالجد والحزم مع الأعداء لأنهم مازالوا في فورة طغيانهم.

وهذا موقف قوي يدل على حزم الصديق رضي الله عنه وبصيرته النافذة، فهناك قبائل لا تزال متحيرة ومترددة بين الحق والباطل، ولو آنت من الباطل قوة لمالت معه، والذين جنحوا إلى الباطل بحاجة إلى تأديب وردع حتى يزول طغيانهم، ولذلك نجد أن مواقف أبي بكر في مواجهة المرتدين قوية وصارمة، بخلاف ما اشتهر عنه من الرفق والرحمة، وإنما خرج أبو بكر عن الخلق الذي عُرف عنه لأن الموقف كان يقتضى أعلى درجات القوة والحزم والسرعة، فكانت منه القوة في محل القوة كما كان منه اللين في محل اللين.

ولقد عبر الشاعر المتنبي عن هذا المعنى بقوله:

ووضعُ النَّدَى في موضع السيف للندى      مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى  
وقد كان خالد شديداً وحازماً مع الأعداء الذين نكَّلوا بالمسلمين كما جاء في هذا الخبر، وهذا موقف جليل، فيه إظهار لعزة الإسلام وكرامة المسلمين، فدماء المسلمين ليست رخيصة ولا مهينة، والويل والثبور لمن يتعرض لمسلم بريء بالقتل أو التعذيب مادامت دولة الإسلام قائمة وعزيرة.

وقال الحافظ ابن كثير أيضاً في بيان موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: لما قدم وفد بزاخة - أسد وغطفان - على أبي بكر يسألونه الصلح، خيرهم أبو بكر بين حرب مُجَلِيَّة أو حطَّة مخزية، فقالوا: يا خليفة رسول الله أما الحرب المجلية فقد عرفناها، فما الحطة المخزية؟ قال: تُؤخذ منكم الحلقة والكراع<sup>(٢)</sup> وتتركون أقواماً يتبعون أذناب

(١) البداية والنهاية ٦/٣٢٣.

(٢) الحلقة هي السلاح، والكراع هي الخيل.

الإبل حتى يُري الله خليفة نبيه والمؤمنين أمراً يعذرونكم به، وتؤدون ما أصبتم منا، ولا تؤدي ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وأن قتلاكُم في النار، وتَدُون قتلانا<sup>(١)</sup> ولا نَدِي قتلاكم، فقال عمر: أما قولك: تدون قتلانا، فإن قتلانا قُتلوا على أمر الله لاديات لهم، فاتَّبع<sup>(٢)</sup> عمر وقال عمر في الثاني: نعم ما رأيت. ورواه البخاري من حديث الثوري بسنده مختصراً<sup>(٣)</sup>.

وهذا موقف آخر لأبي بكر رضي الله عنه في إظهار عزة الإسلام وهيبته دولته، فهو لم يقبل استسلام هؤلاء المحاربين إلا بهذه الشروط القوية، التي من أشدها عليهم مصادرة أسلحتهم وحيولهم، وهذا الشرط مؤقت بظهور صدق توبتهم وخضوعهم لدولة الإسلام، وقد كان لابد منه لضمان عدم عودتهم إلى التمرد مرة أخرى.

أما الخبر الرابع ففيه بيان توبة طليحة بن خويلد الأسدي وإسلامه ومجيئه للعمرة ثم خروجه للجهاد في العراق، وفي خبره هذا يقول الحافظ ابن كثير: وأما طليحة فإنه راجع الإسلام بعد ذلك أيضاً وذهب إلى مكة معتمراً أيام الصديق واستحى أن يواجهه مدة حياته، وقد رجع فشهد القتال مع خالد، وكتب الصديق إلى خالد «أن استشره في الحرب ولا تؤمره» يعني معاملته بنقيض ما كان قصده من الرئاسة في الباطن، وهذا من فقه الصديق رضي الله عنه وأرضاه<sup>(٤)</sup>.

وهذا التوجيه الذي وجه به الحافظ ابن كثير تصرف الصديق وارد، كما أنه يحتمل أن يكون ذلك من باب الاحتياط لأمر الأمة، لأن من كان له سوابق في الضلال والكيد للمسلمين لا يؤمن أن يكون رجوعه من باب الاستسلام لقوة المسلمين وإن كان لا يُظن بأبي بكر أنه يتهم طليحة بذلك، ولكن أبا بكر رضي الله عنه من الأئمة الذين يرسمون للناس خط سيرهم ويتأسى بهم الناس بأقوالهم وأفعالهم، فهو لذلك يأخذ بمبدأ الاحتياط لما فيه صالح الأمة وإن كان في ذلك وضع من شأن بعض الأفراد.

(١) أي تدفعون دياتهم.

(٢) أي وافق أبو بكر عمر فيما قال، وفي البداية والنهاية جاءت العبارة «فامتنع» والتصويب من كتاب تاريخ الإسلام للذهبي، قسم الخلفاء الراشدين/٣٢.

(٣) البداية والنهاية ٦/٣٢٣.

(٤) البداية والنهاية ٦/٣٢٣.

وإن التساهل في هذا الباب من حيث وضع الثقة بمن كانت لهم سوابق في الإحاد ثم ظهر منهم العودة إلى الالتزام بالدين . . إنَّ وضع الثقة الكاملة بهؤلاء وإسناد الأعمال القيادية لهم قد جرَّ على الأمة أحياناً ويلات كثيرة وأوصلها إلى مآزق خطيرة، لأن الإخلاص أحياناً يشبهه مع النفاق إذا كان المنافق بارعاً في تغطية معتقده الحقيقي .

على أن أخذ الحذر من مثل هؤلاء لا يعني اتهامهم في دينهم ولا نزع الثقة منهم بالكلية، بل يمكن أن تسند إليهم المهمات التي يتقنون أداءها إذا كانت من النوع الذي لا يشكّل خطراً على المسلمين فيما إذا ظهر عدم إخلاص هؤلاء في توبتهم، مع عدم التعرض لما كان منهم في الماضي ولا التشكيك في صحة توبتهم ما لم تقم القرائن الواضحة التي تدينهم في ذلك . . وهذا هو الذي سار عليه الصديق وأصحابه رضي الله عنهم .

\*\*\*\*\*



## جِهَادُ تَجْمَعُ أُمُّ زَمْلٍ سَلْمَى بِنْتُ مَالِكٍ

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي عن سهل بن يوسف وأبي يعقوب سعيد بن عبيد قالاً: واجتمعت فُلَّالٌ غطفان إلى «ظفر» وبها أم زمل سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر، وهي تُشَبَّهُ بِأُمِّهَا أم قرفة بنت ربيعة بن فلان ابن بدر . . وكانت في مثل عزِّ أمها، وعندها جمل أم قرفة، فنزلوا إليها فذمَّرتهم وأمرتهم بالحرب، وصعدت سائرة فيها وصوبت تدعوهم إلى حرب خالد، حتى اجتمعوا لها وتشجعوا على ذلك، وتأشَّبَ إليهم الشُّرداء من كل جانب<sup>(١)</sup> . . وتجمع إليها كل فلٍّ ومضيقٍ عليه من تلك الأحياء، من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطيء، فلما بلغ ذلك خالدًا - وهو فيما هو فيه من تتبع الثَّارِ وأخذ الصدقة ودعاء الناس وتسكينهم - سار إلى المرأة وقد استكثف أمرها وغلظ شأنها، فنزل عليها وعلى جُماعها فاقتتلوا قتالاً شديداً وهي واقفة على جمل أمها وفي مثل عزها، وكان يقال: من نَخَسَ جملها فله مائة من الإبل لعزها . . وكان قتالهم شديداً حتى اجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلواها، وقُتِلَ حول جملها مائة رجل، وبعث خالد بالفتح<sup>(٢)</sup> .

في هذا الخبر موقف حربي كبير للصحابة رضي الله عنهم، حيث استطاع فوارسهم أن يصلوا إلى ذلك الجمل الذي لا يوصل إليه في الجاهلية لكثرة عدد المحامين الذين يستبسلون في الدفاع عنه، وقد كانت أمُّ زمل وقومها يظنون لجهلهم أنهم إذا واجهوا المسلمين سيدخلون حرباً كحروب الجاهلية التي يعتمد أصحابها على انتهاز الفرص ثم الفرار إذا ضرَّست الحرب بهم، فأقدمت على ما أقدمت عليه من جمع العرب لقتال المسلمين، وقد كانت في تلك المعركة الضارية نهايتها ونهاية حُماتها الذين وقفوا للدفاع عنها.

\*\*\*\*\*

(١) أي التجؤوا إليها.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤ باختصار وتصرف.

## خبر بني تميم وموقف خالد منهم

كان النبي ﷺ قد ولَّى سادة بني تميم على قبائلهم، فالزبرقان بن بدر على الرِّبَابِ وعوف والأبناء، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون، وصفوان بن صفوان على بهْدَى من بني عمرو، وسبرة بن عمرو على خَضَمَّ من بني عمرو، ووكيع بن مالك على بني مالك من بني حنظلة، ومالك بن نويرة على بني يربوع من بني حنظلة.

فلما توفي رسول الله ﷺ سار صفوان بن صفوان بصدقة بني عمرو بفرعيها بهْدَى وخَضَمَّ إلى أبي بكر رضي الله عنه، وسار الزبرقان بن بدر إليه بصدقات الرِّبَابِ وعوف والأبناء، أما قيس بن عاصم فإنه قسمها في قومه، ثم ندم بعد ذلك فحمل صدقة قومه وتلقى بها العلاء بن الحضرمي لما مرَّ بدياره وخرج معه للجهاد. وفي أثناء ذلك أقبلت سَجَاح بنت الحارث من الجزيرة وقد ادَّعت النبوة وتبعها بعض بني تغلب والنمر وإياد وشيبان فاتبعها بعض فروع بني تميم ومنهم مالك بن نويرة.

وكانت سجاح تريد غزو المسلمين في المدينة، ثم غيرت رأيها فأمرت أتباعها بغزو أهل اليمامة، وقد سارت بجيشها إلى مسيلمة الكذاب ولكنه وادعها وصالحها على نصف غلَّات اليمامة، فانصرفت بذلك إلى الجزيرة.

ولما انصرفت سجاح إلى الجزيرة وسمعت بنو تميم بانتصار المسلمين الكبير على أعدائهم في بزاخة رجع إلى الإسلام منهم من كانوا ارتدوا مع سجاح وقابل خالد ابن الوليد رضي الله عنه بعض زعمائهم بالصدقات ما عدا مالك بن نويرة فإنه ظل متحيراً متردداً وقد اجتمع حوله جيش بمكان يسمى «البطاح».

ذكر ذلك الإمام ابن جرير الطبري<sup>(١)</sup>، ثم روى بإسناده من خير القاسم بن محمد وعمرو بن شعيب، قالوا: لما أراد خالد السيرَّ خرج من ظَفَر، وقد استبرأ

(١) تاريخ الطبري، باختصار ٣/٢٦٧ - ٢٧٥، وقد أسلمت سجاح بعد ذلك وعاشت إلى خلافة معاوية - الإصابة / ٣٣١ رقم ٦١٠.

أسداً وغطفاناً وطياً وهوازن، فسار يريدُ البطح دون الحزن، وعليها مالك بن نؤيرة، وقد تردد عليه أمره، وقد ترددت الأنصار على خالد وتخلّفت عنه، وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا! إنّ الخليفة عهد إلينا إنّ نحن فرغنا من البزاحة، واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتّى يكتب إلينا.

فقال خالد: إنّ يك عهد إليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضي، وأنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار. ولو أنّه لم يأتني له كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصةً، فكنت إنّ أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أتتهزها، كذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا، ثم نعمل به. وهذا مالك بن نؤيرة بحيالنا، وأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم.

ومضى خالد، وندمت الأنصار، وتذامروا<sup>(١)</sup>، وقالوا: إنّ أصاب القوم خيراً إنّ خير حُرمتهم، وإن أصابتهم مصيبة ليحْتَبِنَكُم الناس. فأجمعوا اللّحاق بخالد وجرّدوا إليه رسولا، فأقام عليهم حتى لحقوا به، ثم سار حتى قدم البطح فلم يجد به أحداً<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد قُتل مالك بن نؤيرة بأيدي المسلمين، وقد اختلفت الروايات في سبب قتله وكيفية ذلك، وتضمنت بعض الروايات طعنًا في خالد بن الوليد رضي الله عنه، وأمثلة الروايات في ذلك رواية محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى، وفيها أنّ خالدًا لما حاور مالكًا في شأن الزكاة قال مالك: ما أخال صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - إلا وقد كان يقول كذا وكذا، ففهم خالد من هذا الكلام أنّ مالكًا لا يزال على رده، فقال له: أو ما تعدّه لك صاحبًا! ثم قدّمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه<sup>(٣)</sup>.

ومما يؤيد كون مالك بن نؤيرة قد مات على الشك والتردد وأنه لم يميت على الإسلام، خبر الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومُتمّم بن نؤيرة،

(١) يعني تلاوموا وحض بعضهم بعضا.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٨٠، وانظر كتاب «خالد بن الوليد» للدكتور صادق إبراهيم عرجون - رحمه الله - فإن فيه دفاعًا جيدًا عن خالد بن الوليد رضي الله عنه ص ١٥٥ - ١٧٣.

وقد ذكره الإمام ابن الأثير قال: ولما قدم على عمر قال: ما بلغ بك الوجد على أخيك؟ قال: بكيته حولاً حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة وما رأيت ناراً قط إلا كدت أنقطع أسفاً عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف ولا يعرف مكانه . . إلى أن قال: قال - يعني عمر - : أنشدني بعض ما قلت فيه، فأنشده مرثيته التي يقول فيها:

وكنا كندماني جذيمة حقبه من الدهر حتى قيل لن يتصدعا  
فلما تفرقنا كاني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال عمر: لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيداً، فقال متمم: ولا سواء يا أمير المؤمنين، لو كان أخي صرع مصرع أخيك لما بكيته، فقال عمر: ما عزاني أحد بأحسن مما عزيتني به<sup>(١)</sup>.

وكان مالك قد فرق قومه وبقي في نفر معه فلقبته سرية من سرايا التي بثها خالد بن الوليد في بلاد تميم فأسروهم<sup>(٢)</sup>.

وجاء في رواية للطبري أن بعض الصحابة انتقدوا خالداً في قتل مالك وأصحابه، وأن أبا قتادة غضب ومضى إلى المدينة حتى أتى أبا بكر، فغضب عليه أبو بكر حتى كلمه عمر، فلم يرض إلا أن يرجع إلى خالد، فرجع إليه<sup>(٣)</sup>.

في هذه الأخبار مواقف منها:

أولاً: موقف خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما عزم على السير إلى مالك بن نويرة لما سمع بجمعه، وذلك يدل على بصيرة خالد الحريية ورأيه السديد، فقد فهم اتجاه الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ورغبته في القضاء على المرتدين بحزم وشدة، وانتهاز الفرص المواتية لإضعافهم وتفريق شملهم، فسار على تطبيق هذا المبدأ، ورأى أنه ليس من المصلحة أن يراجع في كل أمر يواجهه، إذ أن هذه المراجعة ستفوت عليه فرصاً مواتية للإيثار في الأعداء والقضاء على تجمعاتهم قبل أن يعظم أمرهم، فكان رأيه المضي في الأمور التي تجد عليه بما يحقق مصلحة

(٢) تاريخ الطبري ٣/٢٧٨.

(١) الكامل في التاريخ ٢/٢٤٣.

(٣) تاريخ الطبري ٣/٢٧٨.

المسلمين، وهذا رأي صائب، ولا تستقيم الأمور بدونه خاصة إذا كان الاتصال بالمسئول الأعلى يحتاج إلى وقت تفوت فيه الفرصة المناسبة.

ثانياً: موقف جليل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما أعاد أبا قتادة رضي الله عنه إلى خالد رضي الله عنه ولم يسمع شكواه إياه إلا بعد انتهاء الحرب ومجيئه هو وإياه، وهذا فهم ثاقب من الصديق يدل على علو كعبه في الخبرة الحربية، حيث إنه لو أتاحت الفرصة لكل من خالف قائده وغاضبه أن يترك ساحة القتال وأن يذهب ليقدم شكواه للمسئول الأعلى لسادت الفوضى ولضعف أمر الجيش إذ أن هذا الأمر قد لا يقتصر على رجل واحد، بل قد يفعل عدد يؤثر فقدمهم على تماسك الجيش وقوته.

\*\*\*\*\*

## معركة اليمامة ونهاية مسيلمة الكذاب

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري في عدد من الروايات عن عدد من الشيوخ قالوا: كان أبو بكر حين بعث عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة وأتبعه شُرْحَيْبِلَ عَجَلَّ عكرمة، فبادر شُرْحَيْبِلَ ليذهب بصوتها<sup>(١)</sup> فواقعهم، فنكبوه، وأقام شُرْحَيْبِلَ بالطريق حيث أدركه الخبر، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان من أمره، فكتب إليه أبو بكر: يا بن أمّ عكرمة، لا أرينك ولا تراني على حالها! لا ترجع فتوهن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عُمان ومَهْرَةَ. وإن شغلا فامض أنت، ثم تسير وتُسِيرُ جنودك تستبرئون من مررتهم به، حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت.

وكتب إلى شُرْحَيْبِلَ يأمره بالمقام حتى يأتيه أمره، ثم كتب إليه قبل أن يوجه خالدًا بأيام إلى اليمامة: إذا قدم عليك خالدٌ، ثم فرغتم إن شاء الله فالحق بقضاعة، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبي منهم وخالف.

فلما قدم خالدٌ على أبي بكر من البطح رضى أبو بكر عن خالد. وسمع عذره<sup>(٢)</sup> وقبل منه وصدقته ورضى عنه، ووجهه إلى مسيلمة وأوعب معه الناس، وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن فلان<sup>(٣)</sup>، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد<sup>(٤)</sup>، وعلى القبائل، على كل قبيلة رجلٌ.

وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح، وانتظر البعث الذي ضرب بالمدينة، فلما قدم عليه نهض حتى أتى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثير.

قالوا: وكان عددُ بني حنيفة يومئذ أربعين ألف مقاتل، في قراها وحجرها.

وأمد أبو بكر خالدًا بسليط ليكون ردءًا له من أن يأتيه أحد من خلفه.

وكان مسيلمة يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح، وكان معه نهار الرجّال بن عنفوة، وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ، وقرأ القرآن،

(١) يعني بشرف النصر، والأولى أن يحمل ذلك على شدة حماسه للجهاد.

(٢) يعني فيما أقدم عليه من قتل مالك بن نويرة كما تقدم.

(٣) لعله البراء بن مالك.

(٤) يعني أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزيد بن الخطاب.

وَفُقَّهُ فِي الدِّينِ، فَبَعَثَهُ مُعَلِّمًا لِأَهْلِ الْيَمَامَةِ وَلِيَشْغَبَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ وَيَشُدُّ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ أَعْظَمَ فِتْنَةً عَلَى بَنِي حَنِيفَةَ مِنْ مُسَيْلِمَةَ، شَهِدَ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَ مُحَمَّدًا ﷺ يَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ أَشْرَكَ مَعَهُ، فَصَدَّقُوهُ وَاسْتَجَابُوا لَهُ.

وَمَا بَلَغَ مُسَيْلِمَةَ دَنُو خَالِدٍ، ضَرَبَ عَسْكَرَهُ بِعَقْرِبَاءَ، وَاسْتَنْفَرَ النَّاسَ، فَجَعَلَ النَّاسَ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ، وَخَرَجَ مَجَاعَةَ بَنِ مُرَارَةَ فِي سَرِيَّةٍ يَطْلُبُ ثَأْرًا لَهُ فِي بَنِي عَامِرٍ وَبَنِي تَمِيمٍ قَدْ خَافَ فَوَاتِهِ، وَبَادَرَ بِهِ الشُّغْلَ، فَأَمَّا ثَأْرُهُ فِي بَنِي عَامِرٍ فَكَانَتْ خَوْلَةَ ابْنَةِ جَعْفَرٍ فِيهِمْ، فَمَنْعُوهُ مِنْهَا، فَاخْتَلَجَهَا، وَأَمَّا ثَأْرُهُ فِي بَنِي تَمِيمٍ فَنَعِمٌ أَخَذُوا لَهُ.

وَاسْتَقْبَلَ خَالِدٌ شُرْحَبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ، فَقَدَّمَهُ وَأَمَرَ عَلَى الْمَقْدَمَةَ خَالِدَ بْنَ فُلَانٍ الْمَخْزُومِيَّ، وَجَعَلَ عَلَى الْمَجْنَبِيِّنَ زَيْدًا وَأَبَا حُدَيْفَةَ.

وَجَعَلَ مُسَيْلِمَةَ عَلَى مَجْنَبِيَّتَيْهِ الْمُحَكَّمِ وَالرَّجَالِ.

فَسَارَ خَالِدٌ وَمَعَهُ شُرْحَبِيلُ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ عَسْكَرِ مُسَيْلِمَةَ عَلَى لَيْلَةٍ، هَجَمَ عَلَى جَبِيلَةَ هَجُومًا - الْمُقَلَّلُ يَقُولُ: أَرْبَعِينَ، وَالْمَكْثَرُ يَقُولُ: سِتِينَ - فَإِذَا هُوَ مَجَاعَةٌ وَأَصْحَابُهُ، وَقَدْ غَلِبَهُمُ الْكَرَى، وَكَانُوا رَاجِعِينَ مِنْ بِلَادِ بَنِي عَامِرٍ، قَدْ طَوُّوا إِلَيْهِمْ، وَاسْتَخْرَجُوا خَوْلَةَ ابْنَةِ جَعْفَرٍ فِيهِمْ مَعَهُمْ، فَعَرَسُوا دُونَ أَصْلِ الثَّنِيَّةِ، ثَنِيَّةَ الْيَمَامَةِ، فَوَجَدُوهُمْ نِيَامًا وَأَرْسَانَ خِيُولِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ تَحْتَ خُدُودِهِمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِقُرْبِ الْجَيْشِ مِنْهُمْ، فَأَنْبَهُوهُمْ، وَقَالُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: هَذَا مَجَاعَةٌ وَهَذِهِ حَنِيفَةُ، قَالُوا: وَأَنْتُمْ فَلَا حِيَاكُمْ اللَّهُ! فَأَوْثَقُوهُمْ وَأَقَامُوا إِلَى أَنْ جَاءَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَأَتَوْهُ بِهِمْ، فَظَنَّ خَالِدٌ أَنَّهُمْ جَاؤُوهُ لِيَسْتَقْبَلُوهُ وَلِيَتَّقُوهُ بِحَاجَتِهِ، فَقَالَ: مَتَى سَمِعْتُمْ بِنَا؟ قَالُوا: مَا شَعَرْنَا بِكَ، إِنَّمَا خَرَجْنَا لِثَأْرِ لَنَا فِيمَنْ حَوْلَنَا مِنْ بَنِي عَامِرٍ وَتَمِيمٍ. وَلَوْ فَطَنُوا لَقَالُوا: تَلَقَيْنَاكَ حِينَ سَمِعْنَا بِكَ.

وَدَعَا خَالِدٌ بِمَجَاعَةَ وَمَنْ أَخَذَ مَعَهُ حِينَ أَصْبَحَ. فَقَالَ: يَا بَنِي حَنِيفَةَ، مَا تَقُولُونَ؟ قَالُوا: نَقُولُ: مَنْ نَبِيٌّ وَمَنْ نَبِيٌّ، فَعَرَضَهُمْ عَلَى السِّيفِ، حَتَّى إِذَا بَقِيَ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ سَارِيَّةُ بْنُ عَامِرٍ وَمَجَاعَةُ بْنُ مُرَارَةَ، قَالَ لَهُ سَارِيَّةُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ غَدًا خَيْرًا أَوْ شَرًّا. فَاسْتَبَقَ هَذَا الرَّجُلُ - يَعْنِي مَجَاعَةَ -

فأمر به خالد فأوثقه في الحديد، ثم دفعه إلى أم تميم امرأته، فقال: استوصي به خيراً.

ثم سار إلى اليمامة، فخرج مسيلمة وبنو حنيفة حين سمعوا بخالد، فنزلوا بعقرباء، فحل بها عليهم - وهي طرف اليمامة دون الأموال - وريف اليمامة وراء ظهورهم.

وقال شُرحبيل بن مُسيلمة: يا بني حنيفة، اليوم يومُ الغيرة، اليوم إن هزمتم تستردفُ النساءُ سبيات، ويُنكحُن غير خطيبات، فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم.

فاقتتلوا بعقرباء، وكانت رايةُ المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، فقالوا: تخشى علينا من نفسك شيئاً! فقال: بئس حامل القرآن أنا إذا! وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، وكانت العرب على راياتها.

ثم التقى الناس ولم يلقهم حربٌ قط مثلها من حرب العرب، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، حتى انهزم المسلمون وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة وإلى خالد، فرال خالد عن فسطاطه ودخل أناس الفسطاط وفيه مجاعة عند أم تميم، فحمل عليهم رجل بالسيف، فقال مجاعة: مه، أنا لها جارٌّ، فنعمت الحرّة! عليكم بالرجال، فرعبلوا الفسطاط بالسيوف<sup>(١)</sup>.

ثم إن المسلمين تَداعَوْا، فقال ثابت بن قيس: بئسما عودتُم أنفسكم يا معشر المسلمين! اللهم إني أبرأ إليك ممَّا يعبد هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأبرأ إليك ممَّا يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم جالد بسيفه حتى قُتل.

وقال زيد بن الخطاب حين انكشف الناس عن رحالهم: لا تحوزُّ بعد الرِّحال<sup>(٢)</sup>، ثم قاتل حتى قتل.

ثم قام البراءُ بن مالك أخو أنس بن مالك فقال: أين يا معشر المسلمين! أنا البراءُ بن مالك، هلمَّ إليَّ! وفاءتُ فئة من النَّاسِ، فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله، وخلصوا إلى مُحكمِّ اليمامة - وهو مُحكمِّ بن الطُّفيل - فقال حين بلغه القتال: يا

(١) أي مزقوه.

(٢) أي لا تنحِّي عن القتال بعد حط الرحال.



معشر بني حنيفة، الآن والله تُستحَقَّب الكرائم غير رَضِيَّات، ويُنكحن غير خطيبات، فما عندكم من حَسَب فأخرجوه. فقاتل قتالاً شديداً، ورماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم فوضعه في نحره فقتله.

ثم زحف المسلمون حتى أَلجؤوهم إلى الحديقة، حديقة الموت، وفيها عدو الله مُسيلمَة الكذاب، فقال البراء: يا معشر المسلمين، أَلقوني عليهم في الحديقة، فقال الناس: لا تفعل يا براء، فقال: والله لتطرَحَنِّي عليهم فيها، فاحتُمِل حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار، اقتحم فقاتلهم عن باب الحديقة، حتى فتحها للمسلمين، ودخل المسلمون عليهم فيها.

وتدامر زيدٌ وخالد وأبو حذيفة، وتكلم الناس وكان يوم جنوب له غبار - فقال زيد: لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي! عضواً على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً. ففعلوا، فَرَدَّوهم إلى مصافهم حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عسكرهم، وقُتل زيد رحمه الله.

وتكَلَّمَ ثابت فقال: يا معشر المسلمين، أنتم حزبُ الله وهم أحزاب الشيطان، والعزَّة لله ولرسوله ولحزبه، أروني كما أريكم، ثم جلد فيهم حتى حازهم.

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وحمل فحازهم حتى أنفذهم، وأصيب رحمه الله.

وحمل خالد بن الوليد، وقال لِحُماته: لا أوتينَّ من خلفي، حتى كان بحيال مسيلمَة يطلب الفرصة ويرُقِب مسيلمَة.

ولما أُعطي سالم الراية يومئذ<sup>(١)</sup>، قال: ما أعلَمَني لأي شيء أعطيتمونيها! قلت: صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات! قالوا: أجل. وقالوا: فانظر كيف تكون؟ فقال: بئس والله حامل القرآن أنا إن لم أثبت! وكان صاحب الراية قبله عبد الله بن حفص بن غانم.

---

(١) يعني سالماً مولى أبي حذيفة.

ولمَّا اشتدَّ القتال - وكانت يومئذ سجلاً إنما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين - قال خالد: أيُّها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حيٍّ، ولنعلم من أين نوتى! فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر، فوقف بنو كلِّ أب على رأيتهم، فقاتلوا جميعاً. فقال أهل البوادي يومئذ: الآن يستحر القتال في الأجزع الأضعف، فاستحر القتال في أهل القرى.

وثبت مسيلمة. ودارت رحاهم عليه. فعرف خالد أنَّها لا تركدُ إلا بقتل مسيلمة، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم.

ثم برز خالد، حتى إذا كان أمام الصَّف دعا إلى البراز وانتمى، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد! ونادى بشعارهم يومئذ، وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه<sup>(١)</sup>.

فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، ولا يبرز له شيء إلا أكله، ودارت رحا المسلمين وطحنت.

ثم نادى خالد حين دنا من مسيلمة - وكان رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه، فإذا اعتراه أزيدَ كأنَّ شدقيه زيبتان لا يهمن بخير أبداً إلا صرفه عنه، فإذا رأيتم منه عورة فلا تُقلوه العثرة» فلما دنا خالدُّ منه طلب تلك، ورآه ثابتاً ورحاهم تدور عليه، عرف أنها لا تزول إلا بزواله، فدعا مسيلمة طلباً لعورته، فأجابته فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة، وقال: إن قبلنا النصف، فأى الأنصاف تعطينا؟ فكان إذا همَّ بجوابه أعرض بوجهه مستشيراً، فبينها شيطانه أن يقبل، فأعرض بوجهه مرة من ذلك، وركبه خالدُّ فأرهبه فأدبر، وزالوا فذمَّ خالد الناس، وقال: دونكم لا تُقلوهم، وركبوهم فكانت هزيمتهم.

(١) هذا الشعار جاء في هذه الرواية وهي مما رواه الإمام ابن جرير الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي بإسناده عن رجل من بني سحيم قد شهد المعركة، وسيف بن عمر وإن كان ضعيفاً في الحديث إلا أنه عمدة في التاريخ كما قال الحافظ ابن حجر - تقريب التهذيب ١/٣٤٤ رقم ٦٣٣ -.

فإن ثبت أن شعار المسلمين آنذاك كان «يا محمداه» فهو محمول على أنه مجرد شعار يتعارف به المسلمون ولم يكن القصد منه الاستغاثة برسول الله ﷺ لأنه لم يُعهد من الصحابة أبداً أنهم استغاثوا بغير الله تعالى، وهذا الأمر من الأمور المعلومة عندهم بالضرورة، ولأن الصحابة رضي الله عنهم لم يعرف عنهم أبداً أنهم نادوا رسول الله ﷺ باسمه وإنما كانوا يقولون في ندائه يا رسول الله أو يا نبي الله.

أما لماذا اختاروا هذا الشعار في هذا اليوم بالذات فلعل ذلك لكونهم يقاتلون قوماً يؤمنون بنبوة مسيلمة عن عقيدة وقناعة فأراد المسلمون أن يركِّزوا على ذكر رسول الله ﷺ تحدياً لهم ورفعاً لمعنوية المسلمين.

فقال مسيلمة حين قام، وقد تطاير الناس عنه، وقال قائلون: فأين ما كنتَ  
تعدُّنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، قال: ونادى المحكِّم: يا بني حنيفة، الحديقة  
الحديقة .

ويأتي وحشيُّ على مسيلمة وهو مُزبدٌ متساندٌ لا يعقل من الغيظ، فخرط عليه  
حربته فقتله، واقتحم النَّاس عليهم حديقة الموت من حيطانها وأبوابها، فقتل في  
المعركة وحديقة الموت عشرة آلاف مقاتل .

ولما فرغ خالد من مسيلمة والجند قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي  
بكر: ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون، فقال: دعاني أبثُّ الخيول فألقط من  
ليس في الحصون، ثم أرى رأيي .

فبث الخيول فحوروا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان، فضموا هذا إلى  
العسكر، ونادى بالرحيل لينزل على الحصون، فقال له مجاعة، إنه والله ما جاءك  
إلا سرعان الناس، وإن الحصون لملووءة رجالاً، فهلمَّ لك إلى الصُّلح على ما  
ورائي، فصالحه على كل شيء دون النفوس . ثم قال: أنطلق إليهم فأشاورهم  
وننظر في هذا الأمر، ثم أرجع إليك . فدخل مجاعة الحصون . وليس فيها إلا  
النساء والصبيان ومشِيخة فانية ورجال ضعفي فظاهر الحديد على النساء وأمرهم أن  
ينشرون شعورهن، وأن يُشرفن على رؤوس الحصون حتى يرجع إليهن، ثم رجع  
فأتى خالدًا فقال: قد أبوا أن يُجيزوا ما صنعتُ، وقد أشرف لك بعضهم نقضاً  
عليَّ وهم منِّي بُراء .

فنظر خالد إلى رؤوس الحصون وقد اسودَّت، وقد نهكت المسلمين الحرب،  
وطال اللقاء، وأحبُّوا أن يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ما كان كائناً لو كان فيها  
رجال وقتال، وقد قُتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبه المدينة يومئذ ثلثمائة  
وستون . قال سهل: ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلثمائة  
من هؤلاء وثلثمائة من هؤلاء، ستمائة أو يزيدون . وقتل ثابت بن قيس يومئذ،  
قتله رجل من المشركين قُطعت رجله، فرمى بها قاتله فقتله، وقتل من بني حنيفة  
في الفضاء بعقرباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموت سبعة آلاف وفي الطلب نحو  
منها .

فصاحه خالد على الذهب والفضة والسلاح ورُبِع السبي .

فلما فرغا فتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان، فقال خالد لمجاعة: ويحك خدعتني، قال: قومي ولم أستطع إلا ما صنعت<sup>(١)</sup>.

في هذه الأخبار مواقف منها:

أولاً: حينما وجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه الجيوش لقتال المرتدين وجه إلى مسيلمة الكذاب جيشين، أحدهما بقيادة عكرمة بن أبي جهل والثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة، وهذا دليل على خبرة أبي بكر الدقيقة بدرجات القوة عند الأعداء ومقدار مقدرتهم على الصمود، وحينما تعجل عكرمة لحرب مسيلمة فُنكب هو وجيشه أرسل إليه أبو بكر يقول له: «لا أرينك ولا تراني على حالها، لا ترجع فتوهم الناس» وهذا أيضاً من خبرة أبي بكر الحريية، فإن الروح المعنوية لها أثر كبير في نتائج المعارك، فإذا قدم هؤلاء المنهزمون فقابلوا الجيش المتوجه لقتال الأعداء أنفسهم فإن نفوس أفراد هذا الجيش سيكون فيها شيء من التخوف والضعف خصوصاً فيما إذا روى لهم المنهزمون شيئاً عن ضخامة جيش الأعداء وقوته .

وكذلك من الخبرة الحربية إمداد أبي بكر خالد بن الوليد رضي الله عنهما بجيش من خلفه يكون حامياً لجيش المسلمين خشية أن يؤتوا من خلفهم، نظراً إلى أن القبائل التي بين اليمامة والمدينة قد حاربت المسلمين وحاربوها وإن كانت قد استسلمت آنذاك، ولكن يُخشى أن تنتهز فرصة انشغال خالد وجيشه بمقارعة أعنف قوة حربية في بلاد العرب آنذاك فتتقض على المسلمين من ورائهم .

ثانياً: كانت للصحابة رضي الله عنهم مواقف عالية في الثبات والهجوم على الأعداء، وكانت معركة اليمامة معركة هائلة قابل فيها الصحابة ومن معهم قوماً بأسهم شديد في القتال كما قال رافع بن خديج رضي الله عنه: فانتهينا إلى اليمامة

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٨١ - ٢٩٨ باختصار وتصرف. وانظر البداية والنهاية ٦/ ٣٢٨ - ٣٣١. والكامل في التاريخ ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٩.

فَنَنْتَهِي إِلَى قَوْمِ هُمَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] (١).

ومما يبين شدة بأسهم ماروي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال: شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب لها ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة (٢).

ولعل من أسباب شدة بأسهم أنهم كانوا يقاتلون عن عقيدة، فقد كانوا يؤمنون بنبوّة مسيلمة الكذاب، ولكن مهما كانت عقيدتهم فإنها لا تعدُّ شيئاً أمام عقيدة المسلمين، ولا يمكن أن يكون هناك موازنة بين العقيدتين، فلذلك انتصر المسلمون عليهم مع أنهم كانوا أقل منهم عدداً (٣)، ويقاتلونهم في بلادهم.

لقد أبلى الصحابة رضي الله عنهم في قتال بني حنيفة بلاءً عظيماً، وقد وصف رافع بن خديج بلاءهم بقوله:

وأجهض أهل السوابق والبصائر العدو، فهم في نحورهم ما يجد أحد مدخلاً إلا أن يقتل رجلاً منهم أو يخرج فيقع فيخلف مكانه آخر حتى أوجعنا فيهم وبان خلل صفوفهم، وضجوا من السيف، ثم اقتحمنا الحديقة وأقمنا على بابها رجلاً لثلاً يهرب منهم أحد، فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت فجدوا في القتال، ودكّت السيوف بيننا وبينهم، ما فيها رمي بسهم ولا حجر ولا طعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيلمة (٤).

ثالثاً: رويت لبعض الصحابة كلمات قوية في تثبيت المؤمنين ودفعهم إلى البذل والتضحية، من ذلك قول زيد بن الخطاب رضي الله عنه «لا تحوز بعد الرحال» أي لا مفر من مواجهة الأعداء بعد التقاء الصفين فإلى أين تتراجعون أيها الناس، وقوله «والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله بحجتي، عضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً».

وقال ثابت بن قيس رضي الله عنه: «يا معشر المسلمين أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولحزبه أروني كما أريكم».

(٢) خالد بن الوليد/ ١٨٠.

(١) خالد بن الوليد للدكتور صادق عرجون/ ١٧٧.

(٤) خالد بن الوليد/ ١٧٨.

(٣) حيث إن عدد المسلمين أحد عشر ألفاً في مقابل أربعين ألفاً.

وقال أبو حذيفة: «يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعّال».

ولقد كان لهذه الكلمات النيرة القوية أثر كبير في تثبيت المسلمين ودفعهم إلى الصمود لهجمات الأعداء والتقدم في الهجوم عليهم حتى أجزؤوهم إلى حديقتهم، ثم هجموا عليهم داخلها.

ومما يبين ضخامة العبء الذي تحمله المسلمون وقوة الطاقة التي بذلوها، كثرة القتلى في أعدائهم، حيث جاء في رواية أن قتلهم بلغوا عشرة آلاف وفي رواية أخرى أنهم واحد وعشرون ألفاً، وعلى فرض أنهم عشرة آلاف فقط فإن قتل هذا العدد في ثلاثة أرباع يوم وهم يحملون السلاح ويقاتلون بضراوة وعنف يعدُّ جهداً كبيراً.

أما الشهداء من المسلمين فقد كانوا - كما جاء في بعض هذه الروايات - قريباً من ألف شهيد، منهم ستون وثلاثمائة من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة، وستمائة أو يزيدون من المهاجرين من غير أهل المدينة ومن التابعين، وهذا العدد وإن كان كبيراً بالنسبة لحروب المسلمين السابقة إلا أنه قليل بالنسبة لقتلى الأعداء في هذه المعركة.

لقد كان هؤلاء الصحابة الأماجد الذين استشهدوا وشرفت بهم بطاح اليمامة، والذين بقوا على الحياة بعدما أبلوا بلاءً عظيماً هم الصخرة الصلبة التي تحطمت أمامها أحلام طغاة الكفار، ومن ورائهم شياطين الجن الذين زينوا لهم ركوب الضلالة، وأعاونهم الذين روجوا بضاعتهم الدنيئة أمام عوام الناس وبسطائهم.

ولقد كان من هؤلاء الذين استشهدوا علماء وقراء من سادة الصحابة رضي الله عنهم، منهم على سبيل المثال زيد بن الخطاب وكان أسنَّ من أخيه عمر، وكان مصاب عمرَ به كبيراً حتى قال لابنه عبد الله بن عمر: ألا هلكت قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حي ألا وارىت وجهك عني؟ فقال عبد الله: سأل الله الشهادة فأعطيها وجهت أن تُساق إلي فلم أعطها<sup>(١)</sup>، وكان عمر يقول: ما هبَّت ريح الصبا إلا ذكرت زيدياً، يعني لأنها تهب من جهة المشرق حيث قُتل زيد، بيد أن شرف المقصد الذي قتل من أجله زيد كان أكبر عزاء لعمر رضي الله عنهما.

(١) الكامل ٢/٢٤٧.

ومن قُتل في اليمامة من أعيان الصحابة أبو حذيفة بن عتبة ومولاه سالم وثابت ابن قيس بن شماس وعبّاد بن بشر رضي الله عنهم وغيرهم من السادة الذين جمعوا بين العلم والشجاعة وكان لهم مواقف عالية في الجهاد في سبيل الله تعالى .

ولقد بلغ عدد الذين قُتلوا من القراء سبعين شهيداً، ولقد اغتمَّ الصحابة لذلك حتى إن عمر أشار على أبي بكر بجمع القرآن وكتابته حيث إنه لا يزال في الصحابة حفاظ متقنون، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمع ما كُتب من القرآن وعرضه على حفاظ الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

رابعاً: في هذه المعركة مواقف جهادية كبيرة لأبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، سواء في مجال القيادة أو في مجال القتال .

ومن ذلك أنه خرج أمام الصف ودعا إلى البراز، والمبارزة فن من فنون الحرب الخطيرة، فلا يُقدم عليها - عادة - إلا الأبطال المبرزون في الشجاعة وفنون الحرب، وهي مغامرة يترتب على نجاحها ارتفاع معنوية الجيش الفائر فيها وضعف معنوية الجيش المقابل، ولما كان أبو سليمان واثقاً - بعد توفيق الله تعالى - من النجاح في ذلك أراد أن يرفع من معنوية المسلمين وأن يحطّم معنوية جيش الأعداء الذين لم يزالوا يقاومون هجوم الجيش الإسلامي فدعا إلى المبارزة، فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله كما جاء في إحدى الروايات السابقة . وهكذا كانت نتيجة هذه المبارزة رفع معنوية المسلمين وتحطيم معنوية أعدائهم لأن خالدًا نجح فيها نجاحًا كبيراً .

ومن ذلك أن خالدًا حدد الهدف للقضاء السريع على بني حنيفة، بالقضاء على مسيلمة، وهذا هدف صعب المنال لكثرة الحراس حوله ولأن الحرب تدور رحاها عليه، ولكن خالدًا من النوع الذي لا يتردد في ركوب الصعاب واقتحام الأهوال، بل يقصدها ويحب الدخول فيها، ولذلك صمم على الوصول إلى مسيلمة، وقال لحماته: لا أوتين من خلفي، ثم قاتل بضراوة وشدة وهجوم مكثف حتى كان يقرب مسيلمة .

ومن ذلك أن خالدًا مازال يذكر قول النبي ﷺ عن مسيلمة «إذا رأيتم منه عورة فلا تُقبلوه العثرة» فدعاه خالد طلبًا لعورته فكان يُعرض بوجهه يستشير شيطانه، فاغتنم خالد الفرصة فهجم عليه وعلى من حوله هجومًا سريعًا حتى تطاير الناس عنه فكانت نهايته على يد وحشي الحبشي الذي رماه بالحربة من بُعد، وكان يجيد الرمي بها، ثم ضربه أحد الأنصار بسيفه فقضى عليه، وقد جاء في بعض الروايات أنه أبو دجانة سماك بن خرشة وجاء في بعضها أنه عبد الله بن زيد رضي الله عنهما.

خامسًا: وفي هذه الأخبار موقف فدائي كبير لبطل الإسلام البراء بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، فإن الأعداء لما أغلقوا على أنفسهم باب الحديقة طلب البراء من المسلمين أن يحملوه وأن يلقوه عليهم في الحديقة، فحملوه فوق الحُجُف - وهي التروس - ودفعوها بالرماح حتى ألقوه على الأعداء من فوق السور، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه.

إن المتأمل لهذا الموقف العظيم يتملكه العجب ويندهش من إقدام هذا البطل الكبير على تنفيذ هذه الخطة الفدائية، فإن أي فرد يلقي بنفسه في وسط الأعداء سيتصور الموت قتلاً بأبشع أنواع القتل، فهل كان البراء بن مالك يتصور ذلك وهو يلقي بنفسه؟ نعم كان يتوقع ذلك ولكنه من قوم تهون أنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد أقدم على هذا الأمر الهائل ابتغاء الظفر بالأعداء وفتح الباب للمسلمين، فإن تم له ذلك وإلا فإن هذا موطن من المواطنين التي تُطلب فيها الشهادة.

فلندع هذا التصور، ولنتأمل في نتيجة هذا الموقف، كيف استطاع وحده أن يُجَلِّي الأعداء وأن يفتح الباب؟ وكيف سلم من سلاح الكفار؟ لا شك عندي في أن هذه كرامة من كرامات الله تعالى لأوليائه المؤمنين، لأن سلامته وقد أحاط به الأعداء على هذه الصورة من الأمور الخارقة للعادة، وقد ثبت أن الملائكة عليهم السلام يقاتلون مع المؤمنين كما سبق، فلعل الملائكة كانوا معه في هذه المعركة إما بالقتال والحماية أو بالحماية فقط حتى أنجز هذه المهمة الخطيرة،



لقد أطلَّ على الأعداء شبح مخيف، ربما ظنوا أنه من عالم آخر، إذ يبعد أن يصل البشر العاديون إلى هذه الشجاعة الفائقة والمقدرة الخارقة، فلذلك فسحوا له المجال لذهولهم من نزوله المفاجئ، وكان بإمكانهم أن ينتظموه وهو في الهواء برماحهم، فلما هبط إلى الأرض قاتلهم حتى أجلاهم عن الباب، ويبدو أنهم قد أصيبوا منه برعب عظيم، مما جعل مقاومتهم إياه ضعيفة، واستطاع أن يتغلب عليهم في النهاية وأن يفتح الباب بمشهد منهم.

وهكذا فُتح الباب فاندفعت جحافل الحق الهادرة لتقضي على جحافل الباطل المبهوتة، وكان البراء بن مالك من أسباب تمكين المسلمين من أعدائهم، وقد تأسى به بعض جنود الحق لما لم يتسع لهم الباب فَعَلَّوْا على الأسوار وهبطوا على أعدائهم كالصواعق المحرقة.

\*\*\*\*\*

## جهاد المرتدين في منطقة مكة

ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أن أول من كتب لأبي بكر الصديق بمن ارتد من أهل عمله أمير مكة عتّاب بن أُسيد، وقد بعث أخاه خالد بن أُسيد إلى أهل تهامة، وقد تجمّعت بها جماعٌ من مُدْلِج، وتأشّب إليهم شذاذٌ من خزاعة وأفناء كنانة، عليهم جُنْدَب بن سلمى، أحد بني شُنُوق، من بني مُدْلِج، ولم يكن في عمل عتّاب جمعٌ غيره، فالتقوا بالأبارق، ففرّقهم وقتلهم، واستحرق القتل في بني شُنُوق، فما زالوا أذلاء قليلاً، وبرئت عمالة عتّاب، وأفلت جندب، فقال جندب في ذلك:

ندمتُ وأيقنتُ العَدَاةَ بأنّني      أتيتُ التي يَبْقَى على المرءِ عارُها  
شهدتُ بأنَّ اللهَ لا شيءَ غيرُهُ      بني مُدْلِجِ فاللهُ ربِّي وجارُها<sup>(١)</sup>

وهذا جهاد يذكر لعتاب بن أُسيد وأخيه والمجاهدين معه حيث سارع إلى القضاء على فتنة المرتدين في منطقة عمله قبل أن يستفحل أمرها ويصعب القضاء عليها.

وهذا الموقف يدل على حسن اختيار النبي ﷺ حيث اختاره أميراً على مكة.

أما أهل مكة فقد همَّ بعضهم بالارتداد، لولا أن ثبتهم الله بسهيل بن عمرو الذي قام فيهم خطيباً، وكان مما قال: يا معشر قريش لا تكونوا آخر الناس إسلاماً وأولهم ردة، من رأبنا ضربنا عنقه، وكان فيهم شريقاً مطاعاً، وقد تقدم خبر ذلك في معركة بدر<sup>(٢)</sup>، وهذا موقف يذكر لسهيل بن عمرو رضي الله عنه.

\*\*\*\*\*

(٢) انظر ج ٤ ص ١٨٠.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣١٩.

## جهاد المرتدين من عكّ والأشعريين

قال أبو جعفر الطبري: وكان أول منتقض بعد النبي ﷺ بتهامة عكّ والأشعريون، وذلك أنهم حين بلغهم موت النبي ﷺ تجمع منهم طخارير<sup>(١)</sup>، فأقبل إليهم طخارير من الأشعريين وخضمّ فانضموا إليهم، فأقاموا على الأعلام طريق الساحل، وتأشّب إليهم أوزاعٌ على غير رئيس، فكتب بذلك الطاهر بن أبي هالة إلى أبي بكر، وسار إليهم، وكتب أيضًا بمسيره إليهم، ومعه مسروق العكّي حتى انتهى إلى تلك الأوزاع، على الأعلام، فالتقوا فاقتتلوا، فهزمهم الله، وقتلوهم كل قتل، وأنتنت السبل لقتلهم، وكان مقتلهم فتحًا عظيمًا. وأجاب أبو بكر الطاهر قبل أن يأتيه كتابه بالفتح:

بلغني كتابك تخبرني فيه مسيرك واستنفارك مسروقًا وقومًا إلى الأخابث بالأعلام، فقد أصبت، فعاجلوا هذا الضرب ولا ترفّها عنهم، وأقيموا بالأعلام حتى يأمن طريق الأخابث، ويأتيكم أمري، فسميت تلك الجموع من عكّ ومن تأشّب إليهم إلى اليوم الأخابث، وسمي ذلك الطريق طريق الأخابث<sup>(٢)</sup>.

فهذا موقف جهادي يذكر للطاهر بن أبي هالة أمير قبيلة عكّ والأشعريين، ولقد كان حازمًا حينما عاجل ذلك الجمع الذي تجمع من عدد من القبائل وقد كتب الله له النصر عليهم حتى تشتت من بقي منهم ولم يجتمعوا مرة أخرى. وموقف آخر لمسروق العكّي حيث نهض مع الطاهر بن أبي هالة لقتال المرتدين من قومه مما يدل على قوة إيمانه وولائه للإسلام ودولته.

\*\*\*\*\*

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٢٠.

(١) أي جاؤوا متفرقين.

## جهاد المرتدين في منطقة الطائف

لم يُذكر ارتداد داخل مدينة الطائف، ولكن ارتدت قبائل تابعة لإمارة الطائف، وقد كتب أمير الطائف عثمان بن أبي العاص إلى أبي بكر الصديق بمن ارتد من أهل عمله، ذكره الإمام ابن جرير الطبري ثم قال:

وبعث عثمان بن أبي العاص بعثا إلى شنوءة، وقد تجمعت بها جماع من الأزد وبجيلة وخثعم، عليهم حميضة بن النعمان، وعلى أهل الطائف عثمان بن ربيعة، فالتقوا بشنوءة، فهزموا تلك الجماع، وتفرقوا عن حميضة وهرب حميضة في البلاد، فقال في ذلك عثمان بن ربيعة:

فضضنا جمعهم والنقع كاب      وقد تُعدى على الغدر الفتوق  
وأبرقَ بارقٌ لما التقينا      فعادت خلبًا تلك البروق<sup>(١)</sup>

وكون أهل الطائف ثبتوا على الإسلام مع حداثة إسلامهم، يدل على تمكن الإيمان من قلوبهم، ومبادرة أمير الطائف عثمان بن أبي العاص إلى جهاد المرتدين في منطقتهم موقف جهادي يذكر له رضي الله عنه.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٢٠.

## جهاد المرتدين في البحرين

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من حديث سيف بن عمر التميمي قال: خرج العلاء بن الحضرمي نحو البحرين<sup>(١)</sup>، وكان من حديث البحرين أن النبي ﷺ والمنذر بن ساوى اشتكيا في شهر واحد، ثم مات المنذر بعد النبي ﷺ بقليل، وارتد بعده أهل البحرين، فأما عبدالقيس ففأت، وأما بكر فتمت على ردتها، وكان الذي ثنى عبدالقيس الجارود حتى فأؤوا.

ثم أخرج الإمام الطبري من حديث الحسن بن أبي الحسن، قال: قدم الجارود ابن المعلّى على النبي ﷺ مرتاداً، فقال: أسلم يا جارود.

ثم ذكر إسلامه إلى أن قال: فلما قدم على قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلهم، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات النبي ﷺ. فقالت عبدالقيس: لو كان محمد نبياً لما مات، وارتدوا. وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم، ثم قام فخطبهم. فقال: يا معشر عبدالقيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ولا تحجبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عما بدا لك. قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك سيدنا وأفضلنا. وثبتوا على إسلامهم.

فهذا موقف يُذكر للجارود بن المعلّى رضى الله عنه، فقد ثبت الله به قومه عبدالقيس فثبتوا على إسلامهم، وقد ألهمه الله تعالى بضرب المثل بالأنبياء السابقين عليهم السلام حيث كانت نهايتهم الموت فكذلك رسول الله ﷺ فاقتنع قومه وزال عنهم الشك، وهذا مما يبين مزية التفقه في الدين وأثر ذلك في توجيه الاعتقاد والسلوك، وخاصة عند حدوث الفتن.

(١) البحرين اسم لمناطق في شرق جزيرة العرب، وحدها من الشمال العراق ومن الجنوب عمان، كما ذكر ياقوت الحموي، أما التسمية الحالية للبحرين فهي حديثة.

وأخرج الإمام الطبري من حديث عمير بن فلان العبدي . قال : لما مات النبي ﷺ خرج الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردة ، ومن تأشّب<sup>(١)</sup> إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافراً . حتى نزل القطيف وهجر ، واستغوى الخطّ ومن فيها من الزطّ والسيابجة . وبعث بعثاً إلى دارين ، فأقاموا له ليجعل عبدالقيس بينه وبينهم ، وكانوا مخالفين لهم ، يمدون المنذر<sup>(٢)</sup> والمسلمين ، وأرسل إلى الغرور بن سويد ، أخي النعمان بن المنذر ، فبعثه إلى جوثى<sup>(٣)</sup> ، وقال : اثبت فإني إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة . وبعث إلى جوثى ، فحصرهم وألحوا عليهم فاشتد على المحصورين الحصر ، وفي المسلمين المحصورين رجل من صالح المسلمين يقال له عبدالله بن حذف ، أحد بني أبي بكر بن كلاب ، وقد اشتد عليه وعليهم الجوع حتى كادوا أن يهلكوا . وقال في ذلك عبدالله بن حذف :

ألا أبلغ أبا بكر رسـولاً      وفتيان المدينة أجمعيناً  
فهل لكم إلى قوم كرام      قعود في جوثى محصرينا!  
كان دمأهم في كل فج      شعاع الشمس يغشى الناظرينا  
توكلنا على الرحمن إننا      وجدنا الصبر للمتوكلينا

فهذا موقف يذكر في الثبات على الحق لهؤلاء المسلمين الذين حصرهم الأعداء في «جوثى» حتى كادوا يهلكون من الجوع ، وفي الأبيات المذكورة في الرواية التي قالها عبدالله بن حذف دليل على عمق إيمان هؤلاء المحصورين وقوة توكلهم على الله تعالى وثقتهم بنصره .

وأخرج الإمام الطبري من حديث منجاب بن راشد قال : بعث أبو بكر العلاء ابن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين ، فلما أقبل إليها فكان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال في مسلمة بنى حنيفة :

(١) يعني تجمّع .

(٢) يعني المنذر بن ساوى الذى تقدم ذكره .

(٣) هى بلدة فى منطقة الأحساء وما تزال معروفة بهذا الاسم .

إلى أن ذكر خروج قيس بن عاصم المنقري التميمي ومن معه من قومه مع العلاء بن الحضرمي، قال: فأكرمه العلاء، وخرج مع العلاء من بنى عمرو وسعد والرباب<sup>(١)</sup> مثل عسكره، وسلك بنا الدهناء، حتى إذا كنا في بحبوحتها، والحنانات والعزافات<sup>(٢)</sup> عن يمينه وشماله، وأراد الله عز وجل أن يرينا آياته نزل وأمر الناس بالتزول فنفرت الإبل في جوف الليل، فما بقى عندنا بعير ولا زاد ولا مزاد ولا بناء إلا ذهب عليها في عرض الرمل، وذلك حين نزل الناس، وقبل أن يحطوا، فما علمت جمعاً هجم عليهم من الغم ما هجم علينا، وأوصى بعضنا إلى بعض، ونادى منادى العلاء: اجتمعوا، فاجتمعنا إليه، فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم؟ فقال الناس: وكيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحم شمس حتى نصير حديثاً<sup>(٣)</sup>، فقال: أيها الناس، لا تراعوا، أستم مسلمين! أستم في سبيل الله! أستم أنصار الله! قالوا: بلى، قال: فأبشروا، فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم.

ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلّى بنا، ومناً التميم، ومناً من لم يزل على طهوره، فلما قضى صلاته جثا لركبتيه وجثا الناس، فنصب<sup>(٤)</sup> في الدعاء ونصبوا معه، فلمع لهم سراب الشمس، فالتفت إلى الصّف، فقال: رائد ينظر ما هذا؟ ففعل ثم رجع، فقال: سراب، فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم آخر فكذلك، ثم لمع لهم آخر، فقال: ماء، فقام وقام الناس، فمشينا إليه حتى نزلنا عليه، فشربنا واغتسلنا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تُكرد<sup>(٥)</sup> من كل وجه، فأناخت إلينا، فقام كل رجل إلى ظهره، فأخذه، فما فقدنا سلكاً. فأرويناها وأسقينها العلل بعد النهل<sup>(٦)</sup>، وتروينا ثم تروحنا.

وكان أبو هريرة رفيقي، فلما غبنا عن ذلك المكان، قال لي: كيف علمك بموضع ذلك الماء؟ فقلت: أنا من أهدى العرب بهذه البلاد قال: فكن معي حتى تقيمني عليه، فكررتُ به، فأتيت به على ذلك المكان بعينه، فإذا هو لا غدير به،

(١) هذه فروع من قبيلة تميم وبنى عمهم.

(٢) أي اجتهد وتعب. (٣) أي تطرد.

(٤) أي تطرد. (٥) أي تطرد.

(٦) أي شربة بعد شربة، فالأولى تسمى نهلا والثانية تسمى عللا وذلك أبلغ في الرّي.

ولا أثر للماء، فقلت له: والله لولا أننى لا أرى الغدير لأخبرتكم أن هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماءً ناقعاً قبل اليوم، وإذا إداوة مملوءة، فقال: يا أبا سهم، هذا والله المكان ولهذا رجعت ورجعت بك. ملأت إداوتى ثم وضعتها على شفيره، فقلت: إن كان منّا من المنّ وكانت آية عرفتها، وإن كان غيائاً عرفته، فإذا منّ من المنّ<sup>(١)</sup>، فحمد الله.

وبعد فإن هذا الخبر العجيب يحتاج منا إلى وقفات وتأمل.

فلننظر أولاً إلى الإبل كيف نفرت بأجمعها من بين قوم تعدُّ الإبل جزءاً من حياتهم يعرفون كل ما يتصل بها من صفات وعادات بدقة متناهية، فكيف نفرت من بين أيديهم وبشكل جماعى، ولم يقدر أحد منهم على رد شيء منها؟ لا أشك أن ذلك كان تدبيراً من الله تعالى على خلاف المعتاد في حياة العرب ليكون تمهيداً لظهور هذه الكرامة العظيمة.

ثم لننظر إلى هذه الثقة البالغة من هذا العبد الصالح الذى كان مشهوراً بكثرة العبادة وكان مجاب الدعوة. هذه الثقة بمعية الله تعالى لأوليائه التى جعلته يقسم على الله جل وعلا بأنه لا يخذل أوليائه وأنصاره، وإنه لينطبق عليه قول النبي ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»<sup>(٢)</sup>.

ثم لننظر إلى هذا الإلحاح الطويل في الدعاء، فلقد استمروا في الدعاء من بعد صلاة الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس حتى فرج الله كربتهم فأنبع لهم الماء من جوف الرمل ثم تكوّن منه غدير عظيم.

ولا شك فى أن قلوبهم كانت موصولة بالله تعالى، وأنهم كانوا يشعرون بأن الأرض وما فيها والسموات فى قبضة الجبار جل وعلا، وأن بيده حياتهم وموتهم، وأنه هو الذى خلق الأسباب المعروفة الموصلة لتتأججها المألوفة، وهو قادر

---

(١) المنّ هو الذى كان ينزل على بني إسرائيل لما تاهوا فى صحراء سيناء، وقد أراد أبو هريرة رضي الله عنه برجوعه أن يعرف إن كان بقي من الماء ما هو معتاد فهو غيث من المطر لأن الغدران عادة تجفّ شيئاً فشيئاً، فلما رأى الأرض جفت بسرعة وكأنه لم يكن فيها ماء عرف أن ذلك الماء مما منّ الله به عليهم على غير المعتاد.

(٢) صحيح البخارى، رقم ٢٨٠٦، كتاب الجهاد (٦/ ٢١).



جل جلاله أن يخرق قانون الأسباب فيوجد النتائج المطلوبة من غير الأسباب المعروفة، فكان أن أوجد لهم هذا الغدير العظيم من غير سحاب ولا مطر ليكون أبلغ في حصول المقصود من تقوية الإيمان وتثبيت القلوب.

قال الإمام الطبري في سياق روايته السابقة عن منجاب بن راشد: ثم سرنا حتى نزل هَجْر، قال: فأرسل العلاء إلى الجارود ورجل آخر أن انضما في عبد القيس حتى تنزلا على الحطم مما يليكما، وخرج هو في من جاء معه وفي من قدم عليه، حتى ينزل عليه مما يلي هَجْر، وتجمع المشركون كلهم إلى الحطم إلا أهل دارين.

وتجمع المسلمون كلهم إلى العلاء بن الحضرمي، وخذق المسلمون والمشركون، وكانوا يترأفون القتال ويرجعون إلى خندقهم، فكانوا كذلك شهراً، فبينما الناس ليلة إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة، كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال، فقال العلاء: من يأتينا بخبر القوم؟

فقال عبدالله بن حذَف: أنا آتيكم بخبر القوم - وكانت أمه عجلية<sup>(١)</sup> - فخرج حتى إذا دنا من خندقهم أخذوه، فقالوا له: من أنت؟ فانتسب لهم، وجعل ينادي: يا أبجراه! فجاء أبجر بن بَجِير، فعرفه فقال: ما شأنك؟ فقال: لا أضيعن الليلة بين اللهازم! علام أقتل وحولي عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة! أيتلاعب بي الحطم ونزاع القبائل وأنتم شهود! فتخلصه، وقال: والله إنني لأظنك بس ابن الأخت لأخوالك الليلة! فقال: دعني من هذا وأطعمني، فإني قدمت جوعاً. فقرب له طعاماً، فأكل ثم قال: زودني واحملي وجوزني أنطلق إلي طيبي. ويقول ذلك لرجل قد غلب عليه الشراب، ففعل وحمّله على بعير، وزوده وجوزّه، وخرج عبدالله بن حذَف حتى دخل عسكر المسلمين، فأخبرهم أن القوم سكارى.

فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم، فوضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا، واقتحموا الخندق هُراباً، فمتردّ، وناج ودَهش، ومقتول أو مأسور، واستولى المسلمون على ما في العسكر، لم يفلت رجل إلا بما عليه.

(١) يعني من بني عجل.

وقصد عظمُ الفُلالِ لدارين<sup>(١)</sup>، فركبوا فيها السفن، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم.

فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل فيهم، وأرسل إلى عتيبة بن النهاس وإلى عامر بن عبد الأسود بلزوم ما هم عليه والعودة لأهل الردة بكل سبيل، وأمر مسمعا بمبادرتهم، وأرسل إلى خصفة التميمي والمثنى به حارثة الشيباني، فأقاموا لأولئك بالطريق، فمنهم من أناب، فقبلوا منه واشتملوا عليه، ومنهم من أبى ولجَّ فممنع من الرجوع، فرجعوا عودهم على بدئهم، حتى عبروا إلى دارين، فجمعهم الله بها.

في هذا الخبر موقف حربي جيد للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه حيث تنبه إلى حركة الأعداء وما يجري داخل معسكرهم واهتم بمعرفة ذلك فأرسل عبدالله ابن حذف لمعرفة خبرهم، وكان هذا التصرف سبباً في القضاء عليهم بعد حرب دامت شهراً بينهم وبين أعدائهم.

وموقف فدائي لعبدالله بن حذف الذي استعد للقيام بهذه المهمة مع ما فيها من الخطورة، ولقد قام بمهمته خير قيام، وكان سياسياً بارعاً حيث استطاع أن يخفي مهمته عن الأعداء وأن يحوز على قناعتهم بأنه لم يقدم لكشف أمرهم للمسلمين، وكان نجاحه في مهمته مقدمة الفتح الذي تم بعد ذلك للجيش الإسلامي.

وهكذا رأينا الفرق بين حياة الجد والسمو نحو المعالي والترفع عن الدنيا وبين حياة اللهو والنزول نحو الراذل، فقد كان المسلمون في يقظة تامة وترصد دائم لحركات العدو وسكناته، بينما كان عدوهم سادراً في غيه وغوايته، قد استسلموا لأمّ الخبائث التي سلبتهم عقولهم المفكرة فأصبحوا كقطيع من المواشي تنتظر جازرها، فكانت نهايتهم على أيدي هؤلاء الليوث العباد الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله فهياً لهم سبحانه سبيل النجاح وأعزَّ بهم دينه وأولياءه.

وما أهون الرجال وإن عظموا في أعين الناس حين يرتضون لأنفسهم أن تُسلب منهم عقولهم، ولو لحظة واحدة، فيتصرفون تصرف المجانين، وتنتهك حصونهم وتُبتذل كرامتهم!

(١) أي ذهب أكثر الفارين إلى جزيرة دارين.

وقال الإمام ابن جرير الطبري في سياق روايته السابقة عن منجاب بن راشد: ولم يزل العلاء مقيماً في عسكر المشركين حتى رجعت إليه الكتب من عند من كان كتب إليه من بكر بن وائل، وبلغه عنهم القيام بأمر الله، والغضب لدينه، فلماً جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهي، أيقن أنه لن يؤتى من خلفه بشيء يكرهه على أحد من أهل البحرين، وندب الناس إلى دارين، ثم جمعهم فخطبهم، وقال: إن الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرد الحرب في هذا البحر، وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوكم. ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم، فقالوا: نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا.

فارتحل وارتحلوا حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الخيل والإبل والبغال، منهم الراكب ومنهم الراجل، ودعا ودعوا، وكان دعاؤه ودعاؤهم: يا أرحم الراحمين، يا كريم، يا حلیم، يا أحد، يا صمد يا حي يا محيي الموتى، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت يا ربنا. فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعاً يمشون على مثل رملة ميثاء<sup>(١)</sup>، فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات، فالتقوا بها واقتتلوا قتالاً شديداً، فما تركوا بها مخبراً وسبوا الذراري، واستاقوا الأموال، فبلغ نفل الفرس ستة آلاف والراجل ألفين. قطعوا ليلهم وساروا يومهم، فلماً فرغوا رجعوا عودهم على بدثهم حتى عبروا، وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر:

ألم تر أن الله ذلل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل  
دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

ولما رجع العلاء إلى البحرين، وضرب الإسلام فيها بجرانه، وعز الإسلام وأهله، وذل الشرك وأهله، أقبل الذين في قلوبهم ما فيها على الإرجاف، فأرجف مرجفون، وقالوا: هاذاك مفروق، قد جمع رهطه. شيبان وتغلب والنمر، فقال

(١) أي سهلة ليثة.

لهم أقوام من المسلمين: إذا تشغلهم عنا اللّهَازم - واللّهَازم يومئذ قد استجمع أمرهم على نصر العلاء وطبقوا- .

قال: وكان مع المسلمين راهبٌ في هَجْر، فأسلم يومئذ فقيل: ما دعاك إلي الإسلام؟ قال: ثلاثة أشياء، خشيت أن يمسخني الله بعدها إن أنا لم أفعل: فيضٌ في الرمال، وتمهيد أثباج البحار، ودعاءٌ سمعته في عسكرهم في الهواء من السحر. قالوا: وما هو؟ قال: اللهم أنت الرحمن الرحيم، لا إله غيرك، والبديع ليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، والحي الذي لا يموت، وخالق ما يرى وما لا يرى، وكل يوم أنت في شأن، وعلمت اللهم كل شيء بغير تعلم، فعلمت أن القوم لم يعانون بالملائكة إلا وهم على أمر الله.

فلقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمعون من ذلك الهجريّ بعد.

وكتب العلاء إلى أبي بكر: أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى فجر لنا الدهناء فيضاً لا تُرى غواربة. وأرانا آية وعبرة بعد غمّ وكرب، لنحمد الله ونمجّده، فادعُ الله واستنصره لجنوده وأعوان دينه.

فحمد أبو بكر الله ودعاه، وقال: مازالت العرب فيما تحدّث عن بلدانها يقولون: إن لقمان حين سئل عن الدهناء: أيحتفرونها أو يدعونها؟ نهاهم، وقال: لا تبلغها الأرشية، ولم تقرّ العيون، وإنّ شأن هذا الفيض من عظيم الآيات، وما سمعنا به في أمة قبلها، اللهم أخلف محمداً ﷺ فينا.

ثم كتب إليه العلاء بهزيمة أهل الخندق وقتل الحطم: أما بعد، فإن الله تبارك اسمه سلب عدونا عقولهم، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار. فاقتحمنا عليهم خندقهم، فوجدناهم سكارى، فقتلناهم إلا الشريد، وقد قتل الله الحطم.

فكتب إليه أبو بكر: أما بعد، فإن بلغك عن بني شيبان بن ثعلبة تمام على ما بلغك، وخاض فيه المرجفون، فابعث إليهم جنداً فأوطئهم وشرّد بهم من خلفهم، فلم يجتمعوا، ولم يصر ذلك من إرجافهم إلى شيء<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ٣٠١ - ٣١٣ بتصرف واختصار. وانظر البداية والنهاية ٦ / ٣٣١ - ٣٣٤، والكامل في التاريخ ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٢.

وهكذا سار العلاء بن الحضرمي وجيشه إلى أعدائهم الذين تحصنوا بجزيرة دارين، ولم يكن عندهم سفن يعبرون بها البحر، فدعوا الله تعالى أن يسهل لهم عبور البحر فأجاب دعاءهم وذلك لهم.

وهذه كرامة عظيمة أجراها الله تعالى على يد هؤلاء السادة الأماجد بقيادة العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، حيث استجاب الله دعاءهم فذلل لهم ماء البحر حتى عبروا وقضوا على أعدائهم ثم رجعوا، وذلك نصر من الله تعالى لدينه وتأييد لأوليائه، فلو بقي الأعداء في جزيرتهم المحصنة بالماء لأصبحوا مصدر إزعاج دائم للمسلمين خصوصاً وأن لديهم السفن التي عبروا بها وليس لدى المسلمين سفن آنذاك، وحروب الردة كانت في مواجهة فتنة عارمة، فهي تحتاج إلى الإجهاز السريع على الأعداء قبل أن يتجمعوا وتكون لهم شوكة، فمن الله تعالى على أوليائه الصادقين بهذه الكرامة العظيمة ليكمل لهم الفتح، وإخضاع جميع المرتدين في المنطقة ليتفرغ المسلمون بعد ذلك للفتوح الإسلامية.

هذا وإن بعض من كتبوا من العلماء المعاصرين عن التاريخ الإسلامي أنكروا هذه الكرامة وما يماثلها وأولوها بتأويلات يقبلها العقل المجرد، حيث أولوا ذلك بظاهرة المد والجزر، وأن الصحابة ومن معهم اغتتموا وقت الجزر فعبروا على أرض البحر بعد أن جزر عنها الماء، وعللوا هذا الإنكار بأن المعجزات قد انقطعت وذهبت مع الأنبياء عليهم السلام.

**وإن الجواب على ذلك من وجوه:**

١- قد اتفق علماء أهل السنة على الإقرار بكرامات الأولياء، وهي ما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات، وذكروا أن هذه الكرامات تعد معجزات للأنبياء عليهم السلام لأنها لم تحصل على يد الأولياء إلا بإيمانهم بالأنبياء عليهم السلام واتباعهم إياهم، وقد ذكر العلماء من ذلك أنواعاً وأمثلة كثيرة لا يمكن أن يتطرق إليها الشك بمجموعها وإن كان بعض أفرادها قد لا يصح<sup>(١)</sup>.

٢- أن إنكار هذه الكرامات وأمثالها يعدُّ إزراءً بكل من رواها أو استشهد بها منذ عهد الرواة الذين شاهدوا هذه الكرامات إلى عهد التدوين، وعلى رأس هؤلاء

(١) انظر مثلاً كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

أئمة مشهورون بالعلم الراسخ من أمثال الأئمة الطبرى وأبي نعيم والبيهقي وابن الجوزي وابن كثير وابن تيمية وغيرهم، فهل كان هؤلاء ينقلون ظواهر طبيعية ويصورونها للناس على أنها كرامات خارقة للعادة؟

٣- أن البحر الذى قطعه الجيش الإسلامى بحر عميق حيث جاء فى الروايات المذكورة أن الأعداء عبروا إلى «دارين» بالسفن، والسفن لا تسير على ماء قليل، والتعليل بالمد والجزر لا يتصور فى بحار عميقة، وإنما هو ممكن فى السواحل ونحوها التى يغمرها الماء أحيانا ويتقلص عنها أحيانا أخرى.

٤- إذا كان الأمر لا يعدو كونه اغتنام فرصة سنحت للجيش الإسلامى فى عبور أرض البحر بعد ما جزر عنها الماء بفعل الظواهر الطبيعية فما هو الداعى لأن يقف العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه وجيشه يدعون الله تعالى متذللين أن يسخر لهم البحر؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا جمعهم العلاء وخطبهم وذكرهم بكرامة الله تعالى لهم السابقة فى البر؟ ولماذا أمرهم بعبور البحر ما دام قد تحول إلى أرض جافة ظاهرة الجزر؟

وإذا كان الأمر كذلك فما الداعى لقولهم للعلاء: نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا؟ فأى هول فى اجتياز أرض جافة قد جزر عنها ماء البحر؟ وهذه الكرامة وهى اجتياز الجيش الإسلامى لهذا البحر العميق من غير أن يستخدموا السفن تظل أمراً خارقاً للعادة سواء كان البحر قد بقي على حاله وأن الله تعالى قد سخره لهم فلم تغمرهم مياهه العميقة، أو أن الله تعالى جفف لهم ماءه فساروا على أرضه.

وقد جاء فى الرواية السابقة: «فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله تعالى جميعاً يمشون على مثل رملة ميثاء - يعنى لينة سهلة - فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل».

وظاهر هذا النص يؤيد أن الله تعالى جفف لهم ماء البحر فأصبحوا يمشون على أرض لينة فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، بعد أن دعوا الله تعالى بالدعاء المذكور

وهو قولهم: «يا أرحم الراحمين يا كريم يا حلِيم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا».

ومما يدل على أن ما حدث لهذا الجيش من تذليل البحر كان أمراً خارقاً للعادة، ما جاء في رواية الإمام الطبري من قول عفيف بن المنذر وكان أحد أفراد ذلك الجيش:

ألم تر أن الله ذلّل بحـره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل  
دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

ومما يدل على ذلك أيضاً ما جاء في رواية الطبري المذكورة من ذكر ذلك الراهب الذي أسلم لما رأى هذه الآية وما سبقها.

فقد ذكر هذا الراهب الذي أسلم الكرامتين اللتين سبق ذكرهما وكرامة ثالثة وهي أن الملائكة عليهم السلام كانوا يدعون للمسلمين، فاستدل بذلك على أن أولئك المسلمين كانوا على أمر الله مستقيمين.

وهكذا رأينا أن من شاهدوا هذه الكرامات والمعاصرين لها كانوا يرونها من خوارق العادات، وقد قادت بعضهم إلى الدخول في الإسلام. وثبت الله جل وعلا بها كثيراً من المسلمين على إسلامهم، وما زالت هذه الكرامات تحدث لبعض المؤمنين في كل عصر إنقاداً لبعضهم من مأزق وقع فيه، وتثبيتاً لبعضهم على دينه، ونصراً لدين الله تعالى وتمكيناً له في الأرض.

ومما تلزم الإشارة إليه أن هذه الكرامات وأمثالها لم تكن من الأمور التي يهتم بها الصحابة رضي الله عنهم، ولم يكونوا يستشرفون لها، ولا كانوا يعملون لها أعمالاً تمهد لحدوثها كما يفعله المنحرفون عن منهج السلف، بل كانت كرامات من الله تعالى يُنقذ بها بعض أوليائه حينما يبذلون كل ما في وسعهم من الأسباب الشرعية ثم يكون الواقع الذي مر بهم أكبر من أن تحيط به تلك الأسباب، وقد يكرمهم الله تعالى لأنهم أهل لانتصار الإسلام بهم فتأتي هذه الكرامات بعد استفراغ الوسع وبذل الجهد في جهاد الأعداء.

وقد يتخلف وجود هذه الكرامات مع احتياج المسلمين للإنقاذ ومع كونهم من أولياء الله تعالى كما هو الحال في شهداء بئر معونة لأن الله تعالى شاءت حكمته أن يصطفى عدداً من أوليائه شهداء لرفع ذكركم وليكونوا شهداء على عظمة هذا الدين الذي ضحوا بأنفسهم من أجله .

وقد رباهم النبي ﷺ بقوله وعمله على أخذ الأسباب التي خلقها الله تعالى وهياها لغاياتها المحدودة، ولذلك فإنهم لم يكونوا يفهمون الكرامات على أنها غايات تطلب لذاتها أو أنها طريق مختصر يمكن السعي إليه ليكون بديلا عن الأسباب المعروفة لدى جمهور العقلاء فضلا عن أولياء الله المهتمين، بل كانوا يبذلون كل طاقتهم في تأمين هذه الأسباب ويسارعون إلى تعلم ما عند غيرهم من ذلك ثم يتفوقون فيه على الآخرين، ولقد مرت بهم ألوان من المشاق والأهوال ونجحوا كثيراً وأخفقوا قليلاً، وكانوا في نجاحهم شاكرين متواضعين، وكانوا في إخفاقهم صابرين محتسبين رضي الله عنهم أجمعين .

\*\*\*\*\*



## جهاد المرتدين في عمان

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من حديث ابن مُحَيْرِيز، قال: نبغ بعمان ذو النَّجَّج لَقِيْط بن مالك الأزدي، وكان يُدعى في الجاهلية الجُلُنْدَى، وأدعى بمثل ما ادعى به من كان تنبأ، وغلب على عُمان مرتدًا، وألجأ جَيْفَرًا وعبادًا إلى الأَجبال والبحر<sup>(١)</sup>، فبعث جيفر إلى أبي بكر يخبره بذلك، ويستجيشه عليه. فبعث أبو بكر الصديق حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير، وعرفجة البارقي من الأزد، حذيفة إلى عمان وعرفجة إلى مهرة. وأمرهما إذا اتفقا أن يجتمعا على من بعثا إليه، وأن يتدنا بعمان، وحذيفة على عرفجة في وجهه، وعرفجة على حذيفة في وجهه. فخرجا متساندين، وأمرهما أن يُجدا السير حتى يقدا عُمان، فإذا كانا منها قريبًا كاتبا جيفرًا وعبادًا، وعملا برأيهما. فمضيا لما أمرا به.

وقد كان أبو بكر بعث عكرمة إلى مُسليمة باليمامة، وأتبعه شرحبيل بن حسنة، وسمى لهما اليمامة، وأمرهما بما أمر به حذيفة وعرفجة، فبادر عكرمة شرحبيل، وطلب حظوة الظفر، فنكبه مسليمة، فأحجم عن مسليمة، وكتب إلى أبي بكر بالخبر، وأقام شرحبيل عليه حيث بلغه الخبر، وكتب أبو بكر إلى شرحبيل بن حسنة، أن أقم بأدنى اليمامة حتى يأتيك أمري، وترك أن يمضيه لوجهه الذي وجهه له، وكتب إلى عكرمة يعنفه لتسرع، ويقول: لا أرينك ولا أسمع بك إلا بعد بلاء، والحق بعُمان حتى تقاتل أهل عُمان، وتعين حذيفة وعرفجة، وكل واحد منكم على خيله، وحذيفة ما دمتم في عمله على الناس، فإذا فرغتم فامض إلى مهرة، ثم ليكن وجهك منها إلى اليمن، حتى تلاقي المهاجر بن أبي أمية باليمن وبحضرموت، وأوطئ من بين عمان واليمن ممن ارتد، وليبلغني بلاؤك.

فمضى عكرمة في أثر عرفجة وحذيفة فيمن كان معه حتى لحق بهما قبل أن ينتهيا إلى عمان، وقد عهد إليهم أن ينتهوا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ في السير معه أو المقام بعُمان، فلما تلاحقوا- وكانوا قريبًا من عُمان بمكان يُدعى رجامًا- راسلوا جيفرًا وعبادًا.

(١) جيفر أمير عمان في الجاهلية فلما أسلم ولاة النبي ﷺ عليها ومعه عباد.

وبلغ لقيطاً مجيء الجيش، فجمع جموعه وعسكر بدباً، وخرج جيفر وعباد من موضعهما الذي كانا فيه، فعسكرا بصحار، وبعثا إلى حذيفة وعرفجة وعكرمة في القدوم عليهما، فقدموا عليهما بصحار، فاستبرءوا ما يليهم حتى رضوا ممن يليهم، وكاتبوا رؤساء مع لقيط وبدءوا بسيد بني جديد، فكاتبهم وكاتبوه حتى ارفضوا عنه؟

ونهدوا إلى لقيط، فالتقوا على دباً، وقد جمع لقيط العيالات، فجعلهم وراء صفوفهم ليُجربهم، وليحافظوا على حرمهم - ودباً هي المصر والسوق العظمى - فاقتتلوا بدباً قتالاً شديداً، وكاد لقيط يستعلي الناس، فبينما هم كذلك وقد رأى المسلمون الخلل ورأى المشركون الظفر جاءت المسلمين موادهم العظمى من بني ناجية، وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان، وشواذب<sup>(١)</sup> عمان من بني ناجية وعبد القيس. فقوى الله بهم أهل الإسلام. ووهن الله بهم أهل الشرك، فولى المشركون الأدبار، فقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وركبوهم حتى أئخنوا فيهم، وسبوا الذراري، وقسموا الأموال على المسلمين، وبعثوا بالخمسة إلى أبي بكر مع عرفجة.

ورأى عكرمة وحذيفة أن يقيم حذيفة بعمان حتى يوطئ الأمور ويسكن الناس، وكان الخمسة ثمانمائة رأس، وغنموا السوق بحذافيرها. فسار عرفجة إلى أبي بكر بخمس السبي والمغانم، وأقام حذيفة لتسكين الناس<sup>(٢)</sup>.

تبين لنا من هذا الخبر أن عمان خرج بها رجل يدعي النبوة وهو لقيط بن مالك الأزدي، كما تنبأ طليحة الأسدي والأسود العنسي ومسيلمة الحنفي، وقد كان لادعاء النبوة في ذلك الزمن رواج لما رأى زعماء القبائل من سرعة إقبال العرب على اتباع النبي ﷺ.

وهكذا رأينا أنه قد برز في كل قبيلة أو في مجموع القبائل رجل من طلاب الجاه والشهرة، فجمع الناس من حوله وأعلن انفراده بالمسئولية وشق عصا الطاعة، فمنهم من تذرع للوصول إلى مقاصده بادعاء النبوة، ومنهم من اكتفى بما ورثه في الجاهلية من شرف وسيادة، فمن الله جل وعلا على الأمة الإسلامية آنذاك برجل

(١) الشواذب: جمع شاذب، وهو المنتحى عن وطنه. (٢) تاريخ الطبري ٣/٣١٤ - ٣١٦ باختصار.

المواقف العظيمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي فجر الطاقات الكامنة في الرجال ووجهها لسحق الطغيان الذي عشن في رؤوس هؤلاء المتطاولين حتى قتل من قتل منهم وتطامن من بقي واستسلم لقوة دولة الإسلام.

لقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يغتنم الفرص ويستنفذ الطاقات ويستحث الهمم ليصل من الأعمال المقدمة إلى أعلى النتائج، فحينما أخطأ عكرمة في تسرعه في قتال بني حنيفة اغتنم أبو بكر ندمه على ذلك ليووجهه إلى مجموعة من القبائل فيستنفذ بذلك طاقته الكاملة في البلاء في سبيل الله، وهو يعلم أن الذي دفعه إلى التعجل في قتال بني حنيفة الرغبة في نصر الإسلام ودحر أعداء الله تعالى، فلم يكتب أبو بكر في نفسه هذه الرغبة الملحة بل وجهه إلى عدة ميادين كان أهلاً لها، وأبلى فيها بلاءً حسناً.

لقد اجتمع عكرمة بجيشه مع القائدين حذيفة وعرفجة وواجهوا جميعاً تجمعاً كبيراً بقيادة مدعى النبوة لقيط بن مالك، وكاد أن ينتصر مما يدل على ضخامة جيشه لولا أن قيّد الله تعالى للمسلمين مدداً من بني ناجية بقيادة الخريت بن راشد ومن عبد القيس بقيادة سيحان بن صوحان، فنصر الله جل وعلا المسلمين نصراً مؤزرًا كما جاء في الخبر.

وهكذا أمد الله سبحانه المسلمين بمدد عظيم لم يحسبوا له حساباً، وهو مثل من أمثلة نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين إذا أخلصوا النية وبذلوا الجهد المستطاع في سبيله جل وعلا.

\*\*\*\*\*

## جهاد المرتدين في مهرة

قال الإمام محمد بن جرير الطبري: ولما فرغ عكرمة وعرفجة وحذيفة من ردة عمان، خرج عكرمة في جنده نحو مهرة، واستنصر من حول عُمان وأهل عُمان، وسار حتى يأتي مهرة، ومعه ممن استنصره من ناجية والأزد وعبد القيس وراسب وسعد من بني تميم بشرًا، حتى اقتحم على مهرة بلادها، فوافق بها جمعين من مهرة: أما أحدهما فبمكان من أرض مهرة يقال له: جيروت، وقد امتلأ ذلك الحيز إلى نضدون- قاعين من قيعان مهرة- عليهم شخريت، رجل من بني شخراة، وأما الآخر فبالنجد، وقد انقادت مهرة جميعًا لصاحب هذا الجمع، عليهم المصباح، أحد بني محارب والناس كلهم معه، إلا ما كان من شخريت، فكانا مختلفين، كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر إلى نفسه، وكل واحد من الجندين يشتبه أن يكون الفلج<sup>(١)</sup> لرئيسهم، وكان ذلك مما أعان الله به المسلمين وقوَّاهم على عدوهم، ووهنهم.

ولما رأى عكرمة قلة من مع شخريت دعاه إلى الرجوع إلى الإسلام، فكان لأول الدعاء، فأجابه ووَّهن الله بذلك المصباح. ثم أرسل إلى المصباح يدعوه إلى الإسلام والرجوع عن الكفر، فاغتر بكثرة من معه، وازداد مباحة لمكان شخريت، فسار إليه عكرمة، وسار معه شخريت، فالتقوا هم والمصباح بالنجد، فاقتتلوا أشدَّ من قتال دبا.

ثم إنَّ الله كشف جنود المرتدين، وقُتل رئيسهم، وركبهم المسلمون فقتلوا منهم ما شاءوا، وأصابوا ماشاؤوا، وأصابوا فيما أصابوا ألفي نجبية<sup>(٢)</sup>، فخمس عكرمة الفيء، فبعث بالأخماس مع شخريت إلى أبي بكر، وقسم الأخماس الأربعة على المسلمين، وازداد عكرمة وجنده قوة بالظهر والمتاع والأداة، وأقام عكرمة حتى جمعهم على الذي يحب، وجمع أهل النجد، أهل رياض الروضة، وأهل الساحل، وأهل الجزائر، وأهل المرَّ واللِّبان وأهل جيروت، وظهور الشحر

(١) أي الفوز والسيادة.

(٢) يعني ألفي ناقة والنجبية الناقة السريعة.

والصبرات، وينعب، وذات الخيم، فبايعوا على الإسلام، فكتب بذلك مع البشير- وهو السائب أحد بني عابد من مخزوم- فقدم على أبي بكر بالفتح، وقدم شخريت بعده بالأحماس<sup>(١)</sup>.

في هذا الخبر موقف حربي جيد لعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، فإنه حينما وصل إلى بلاد مهرة ووجدهم منقسمين إلى قسمين ولكل قسم قائد ورأى وأن بين القائدين تنافس وخلاف، اغتنم هذه الفرصة فدعا أقلهما جندا وهو شخريت إلى الإسلام، فاستجاب لذلك سريعاً وكأنه كان ينتظر هذه الدعوة ليكون مع المسلمين ضد منافسه المصيح، وهذه سياسة جيدة من عكرمة حصل بها على مدد قوي لجيشه، ولم يغفل عكرمة دعوة الزعيم الآخر إلى الإسلام، لأن الإسلام هو الهدف الذي من أجله عُقدت أُلوية الجهاد، لكن هذا الزعيم «المصيح» اغتر بكثرة جنده فرفض قبول الدعوة إلى الإسلام، فكانت نهايته وهزيمة جيشه في تلك المعركة.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣١٦-٣١٧.

## جهاد المرتدين والمتمردين في اليمن

أما أهل اليمن فكان كثير منهم ارتدوا مع الأسود العنسي الكذاب الذي ادعى النبوة قبيل وفاة النبي ﷺ، وقد أرسل النبي ﷺ الرسل والكتب يأمر المسلمين هناك بمدافعته وقتاله، وثبت الله تعالى المسلمين هناك بمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري وغيرهما من الصحابة، حتى قتل الله الأسود العنسي على يد فيروز أحد أبناء أمراء اليمن الذين هم من أصل فارسي، وذلك قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أيام، وقد كاد الخلاف يقع بين أمراء اليمن حتى جمعهم الله بمعاذ بن جبل.

وما أن علم أهل اليمن بوفاة النبي ﷺ حتى ارتد بعضهم مرة ثانية، وعدا قيس ابن عبد يغوث على الأمراء من أبناء فارس يريد قتلهم، وكان قبل ذلك مشاركا لهم في محاولة القضاء على الأسود العنسي، فتمكن قيس من قتل أحدهم وهو ذاويه، وأفلت منهم الآخرون لما علموا خديعته وعلى رأسهم فيروز، وكان أبو بكر رضي الله عنه كتب إلى وجهاء اليمن بتأمير فيروز وأمرهم بالقيام معه في نصرة الإسلام.

وقد تصدى فيروز لحرب قيس، واستنصر بقبيلة خولان وكانوا أخواله فنصروه، كما استنصر بقبيلتي بني عقيل وعك فأمده بالرجال فالتقى بجيشه مع قيس دون صنعاء فهزم الله قيساً وفر هارباً مع جنده.

ولاشك أن لمبادرة أبي بكر رضي الله عنه إلى تأمير فيروز على اليمن أكبر الأثر في قيام القبائل بنصرتة، فأصبحت الأمور ممهدة في اليمن قبل وصول الجيش الإسلامي إليها، وهذه المبادرة تعدُّ منقبة من مناقب أبي بكر الكثيرة التي تجلّت في أيام خلافته.

أما الجيش الذي وجهه أبو بكر رضي الله عنه لإخضاع المتمردين في اليمن وحضرموت فكان بقيادة المهاجر بن أبي أمية، وكان من آخر من فصل من عند أبي بكر من الجيوش التي وجهها لحرب المرتدين والمتمردين، وقد كان أبو بكر كتب إلى الأمراء في طريقه أن يمدوه بالجيوش فأمده أمير مكة عتاب بن أسيد بجيش

بقيادة أخيه خالد، وأمه أمير الطائف عثمان بن أبي العاص بجيش بقيادة عبد الرحمن بن أبي العاص، كما انضم إليه جرير بن عبد الله البجلي، وعبد الله بن ثور حينما حاذى بلادهما، وغير ذلك من الأمداد حتى وصل إلى اليمن فوطد الأمور فيها وتتبع المتمردين فقتل من قدر عليه منهم، حتى دانت اليمن لدولة الإسلام. ثم انطلق إلى حضرموت حسب توجيهات الصديق رضي الله عنه.

أما عكرمة بن أبي جهل فإنه بعد أن قضى على المرتدين في بلاد مهرة أقام حتى وطد البلاد وأخذ منهم البيعة على الإسلام ولزوم الجماعة، ثم واصل زحفه تنفيذاً لأوامر أبي بكر حتى التقى بحضرموت بالمهاجر بن أبي أمية وجيشه، وكان أبو بكر بعثه إلى المرتدين في اليمن وحضرموت، فاجتمعت ثلاثة جيوش للمسلمين أحدها بقيادة المهاجر بن أبي أمية والثاني بقيادة عكرمة بن أبي جهل والثالث بقيادة زياد ابن لبيد البياضي وهو أحد أمراء المسلمين في البلاد، فسدوا الطرق على أعدائهم المرتدين من كندة ومن انضم إليهم من القبائل، وقد كانت بينهم حروب قبل ذلك واشترك عكرمة في المعركة الفاصلة التي كان الظفر فيها للمسلمين، ولجأ فلول المرتدين إلى حصنهم «النَّجِير».

ثم إن الأشعث بن قيس خرج من الحصن فطلب الأمان لعشرة من القوم بأهلهم على أن يفتح الباب للمسلمين، فاصطلحوا على ذلك، ونسي الأشعث أن يكتب اسمه، فلما جيء بالكتاب قال المهاجر: الحمد لله الذي أخطأك نوءك يا أشعث يا عدو الله قد كنت أشتهي أن يخزيك الله، فشده وثاقاً وهمّ بقتله، فقال له عكرمة: أخره وأبلغه أبا بكر فهم أعلم بالحكم في هذا، وإنه كان رجلاً نسي اسمه أن يكتبه وهو ولي المخاطبة، أفذاك يبطل ذاك؟ فقال المهاجر: إن أمره لبين ولكنني أتبع المشورة وأوثرها، وأخره وبعث به إلى أبي بكر مع السبي<sup>(١)</sup>.

وهذا موقف جيد من المهاجر بن أبي أمية حيث أثر قبول مشورة عكرمة ولم يصرّ على رأيه، وقد عفا أبو بكر عن الأشعث بعد تأنيب شديد له ووعد من الأشعث بالاستقامة على الإسلام.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٢٣-٣٤٢ بتصرف واختصار.

وهكذا انتهت حروب الردة التي تم بها إخضاع جزيرة العرب بأكملها في عام واحد<sup>(١)</sup>.

ولقد كان لتخطيط أبي بكر المحكم في توزيع قوة المسلمين على جزيرة العرب في وقت واحد أثر كبير في الحيلولة دون تحزب الأعداء ضد المسلمين، ولعل بعض التجمعات لم تكن تعلم بوصول قوة المسلمين حتى فاجؤوهم لظنهم أنهم مشغولون بأعدائهم القريين من المدينة.

إن المتأمل في عمل أبي بكر في حروب الردة يجد تخطيطاً عسكرياً محكماً حيث عمل على تطويق الجزيرة العربية من جميع نواحيها، وإن من أبرز الأمثلة على ذلك إرسال المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن وحضرموت وإرسال عكرمة بن أبي جهل إلى شرق الجزيرة ثم إلى جنوبها ممتداً إلى الجنوب الغربي ليلتقي بالمهاجر في حضرموت.

ولقد دُهِشت القبائل العربية في كل مكان بهذا السيل الجارف من الجيوش التي انطلقت في الأصل من المدينة، ثم انضم إليها من ثبتوا على إسلامهم وولائهم من أفراد القبائل.

ومن المؤكد أن أصحاب التجمعات الكبيرة كطليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب لم يكونوا يحسبون لقوة جماعة المسلمين في المدينة حساباً، وحينما أمد طليحة عبساً وذبيان على أهل المدينة لم يأت بنفسه وإنما أرسل أخاه «حبالا» في قيادة جيش صغير، مما يدل على عدم اهتمامه كثيراً بقوة المسلمين في المدينة، ولكن الله دحر جمعه بجيش واحد من الجيوش الأحد عشر التي وجهها الصديق لقتال المرتدين والمتمردين.

\*\*\*\*\*

---

(١) ينظر في هذه الأخبار تاريخ الطبري ٣/٣١٨.



## نتائج حروب الردة

لقد كان من نتائج هذه الحروب المتواصلة أن قامت للإسلام دولة عظيمة في جزيرة العرب خضعت لها كل القبائل العربية إما طوعاً وإما كرهاً، ولو لم يبق أبو بكر بما قام به من قتال المرتدين والمتمردين لم تقم للإسلام دولة، ولرجعت القبائل العربية إلى سابق عهدها الجاهلي في الحروب والتطاحن فيما بينهم، ولو لم يجاهد أبو بكر ومن معه من المؤمنين لإقامة دولة الإسلام لأصبح المسلمون كالنصارى يعبدون الله في خاصة أنفسهم، ولا شأن لهم بسياسة الأمة، ولأصبح الإسلام المطبق في الأرض ناقصاً لفقد أصل من أصوله وهو إقامة حكم الله تعالى في الأرض.

ومن هنا نعلم أن الأمر الذي صمم عليه أبو بكر ووافق عليه الصحابة بعد أن أقنعهم برأيه هو الأمر المستقيم الذي لا بد منه ليتم تطبيق الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى، وكان ما أقدم عليه من ذلك أمراً عظيماً لا يقدم عليه إلا عظماء الرجال الذين بلغ عندهم الإيمان بالله تعالى واليقين بنصره لأوليائه ودينه حداً يفوق كل التصورات والتقدير التي تعرض للإنسان فتزعزع إيمانه ويقينه.

ولقد وصفت عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما هذا الموقف العظيم بقولها: لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة واشرب النفاق، والله لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مطيرة في حش في ليلة مطيرة بأرض مَسْبَعَة، فو الله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بخلها وعنانها وفصلها، ثم ذكرت عمر فقالت: من رأى عمر علم أنه خلق غنى للإسلام، كان والله أحوذياً نسيج وحده، قد أعد للأمر أقرانها.

ذكره الحافظ ابن كثير من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها<sup>(١)</sup>.

ومع هذه القوة العظيمة التي أبداها أبو بكر رضي الله عنه في حرب المتمردين وإقامة الدولة الإسلامية فإنه لم يقبل الخلافة إلا مكرهاً خوفاً من انفلات الأمور

(١) البداية والنهاية ٦/٣٠٩.

وحدوث الفتن تحت إلحاح كبار الصحابة، ولقد جاء في بعض الروايات أن أبا بكر قال لعمر: ابسط يدك نبايع لك فقال عمر أنت أفضل مني، فقال أبو بكر: أنت أقوى مني، قال: إن قوتي لك مع فضلك، ذكر ذلك الذهبي في رواية عن ابن سيرين رحمهما الله<sup>(١)</sup>.

وهذا تواضع عظيم من أبي بكر رضي الله عنه فلقد أبانت الأيام بعد ذلك أنه كان أقوى الصحابة في مواجهة الفتنة الكبيرة وإن كانت قوة عمر رضي الله عنه قد برزت في كثير من المواقف وساندت قوة أبي بكر رضي الله عنه.

وهكذا رأينا أن الجهاد في سبيل الله هو السبيل الأقوم الذي سلكه أبو بكر رضي الله عنه وأصر عليه حتى أعاد جماعة المسلمين ودولتهم تحت إمام واحد، وهذا الذي تم من ألفة العرب بالإسلام وانخراطهم جميعاً تحت لواء واحد يعدُّ من بركة تنفيذ الجهاد في سبيل الله تعالى الذي هو ذروة سنام الإسلام.

ولاشك أن هذه التضحيات الضخمة التي قدمها هؤلاء الصحابة ومن والاهم والمغامرات الجريئة التي خاضوها مع أولئك المرتدين كان لنتائجها الباهرة أبلغ الأثر في خضوع قبائل الجزيرة العربية لدولة الخلافة، فإن في رؤوس زعماء هذه القبائل طغياناً يرون بسببه أنهم أعلى شأنًا من ورثة النبوة، ولو أن هذه القبائل بايعت دولة الخلافة وفي رؤوس قادتها هذا الطغيان فإن الأمور لا تنتظم لدولة الخلافة ولن تتوفر الطاعة التامة من جميع قبائل العرب على النحو الذي تم بعد حروب الردة في فتوح الشام والعراق، فإن تلك الطاعة التامة التي أنتجت النتائج الباهرة في مجال الفتوح لم تتمثل في عالم الواقع إلا بعد أنهار من دماء الأبطال الأبرار التي سفكت على جنبات الجزيرة العربية، والتي خرج بعدها من بقوا على قيد الحياة قادة الفتوح وسادة الأمم، وأصبح كل من كان يتطلع قبل ذلك من العرب أن يكون الزعيم المطلق في جزيرة العرب ينظر إليهم بعين الإجلال والإكبار ويقرع سنّ الندم على ما بدر منه من طيش وجهل، ويحاول أن يكون الجندي المطيع الذي يسابق أنداده على محاولة تحسين سمعته أمام الله وأمام أوليائه حتى يكفر عما بدر منه في أيام جاهليته.

(١) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين/٩.

وما أن خضعت جزيرة العرب لدولة الإسلام وانتهت مهمة القواد الذين وجههم الخليفة أبو بكر رضي الله عنه لإخضاع المرتدين والمتمردين حتى وجههم الصديق مرة أخرى للجهاد في سبيل الله تعالى من أجل نشر الدعوة الإسلامية وإزالة الدول التي تحكم بالجاهلية وتحول دون الشعوب وتفهم دعوة الإسلام.

ولما كانت أكثر شعوب العالم آنذاك تخضع لدولتين كبيرتين هما دولة فارس والروم فقد اتجهت أنظار الصديق ومن معه من أهل الشورى إلى غزو هاتين الدولتين وإخضاعهما لدولة الإسلام وتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها من سلطانهم ليستطيعوا بعد إزالة الطغيان المهيمن على نفوسهم أن يفهموا دعوة الإسلام وتقوم عليهم الحجة إن فضلوا البقاء على جاهليتهم.

هذا وإن توجيه القبائل العربية إلى الجهاد في سبيل الله تعالى يعدُّ من فقه أبي بكر وفهمه العظيم، وذلك أن إشغالهم بالجهاد يمتص ما لديهم من طاقة، ولو لم يشغلوا بذلك لربما صرفوا هذه الطاقة في القتال فيما بينهم خاصة وأن الإسلام لم يتمكن من سائر أنحاء الجزيرة كتمكنه في المدينة النبوية.

هذا إلى جانب ما يحصل عليه هؤلاء العرب من التربية الدينية العالية على يد المؤمنين الصادقين الذين رباهم النبي ﷺ، وذلك في معاشرتهم إياهم أثناء رحلاتهم الطويلة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى.

ولقد أنجز المسلمون في أقل من عام ونصف في خلافة أبي بكر ما تعجز عنه الأمم في أعوام كثيرة، وذلك بفضل الله تعالى، ثم بتوجيهات أبي بكر الحازمة الحكيمة، وقيادة النبلاء في كل من العراق والشام كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

\*\*\*\*\*



مواقف وعبر

في



فتوح العراق الأولى



## مسير خالد بن الوليد إلى العراق

أخرج الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر الشعبي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو باليمامة: أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهي الأبلّة، وتألّف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم.

وذكر في رواية أخرى أن أبا بكر أمره أن يأذن لمن شاء من أصحابه بالرجوع إلى بلادهم وأن لا يُكره أحداً بالسير معه.

وكان ذلك في شهر محرم سنة اثنتي عشرة<sup>(١)</sup>. وقد استمد خالد أبا بكر حينما رجع أكثر جنده، فأمدّه بالقعقاع بن عمرو التميمي فقيل له: أتمدُّ رجلاً قد ارفضّ عنه جنوده برجل؟! فقال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا<sup>(٢)</sup>.

وهذه فراسة صادقة من أبي بكر بيّنتها أحداث العراق بعد ذلك، وقد كان أبو بكر أعلم الناس بالرجال وما يتصفون به من طاقات وكفاءات مختلفة، وسيأتي فيما بعد أمثلة من شهادة الصحابة له بذلك وخاصة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين.

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الرواية الأولى «وتألّف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم» يبين لنا الهدف من الجهاد الإسلامي خارج بلاد الإسلام، فهو جهاد دعوي يُقصد به دعوة الناس إلى الدخول في الإسلام، ولما كانت الدعوة غير ممكنة مع بقاء الحكومات الكافرة فإنه لا بد من إزالتها لتمكين شعوبها من الدخول في الإسلام.

وهذا الهدف ظاهر في جميع المعارك التي خاضها الصحابة رضي الله عنهم حيث كانوا يدعون أعداءهم إلى الإسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا فليستسلموا لحكم الإسلام ويدفعوا الجزية مقابل حماية المسلمين لهم، فإن أبوا فلا بد من القتال حتى تكون كلمة الله هي العليا.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٤٣ - ٣٤٦.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٤٦.

هذا ومن المواقف التي تذكر في الجهاد في العراق ما كان من المثني بن حارثة الشيباني، وكان يقاتل الأعداء في العراق بقومه، ولما علم بذلك أبو بكر سره ما كان منه فأمره على من بناحيته وذلك قبل مجيء خالد، فلما توجهت همة الصديق لغزو فارس رأى أن خالداً أجدر القواد بهذه المهمة فوجه لها، وكتب كتاباً إلى المثني يأمره بالانضمام إلى خالد وطاعته، فما كان منه إلا أن سارع في الاستجابة ولحق بخالد هو وجيشه<sup>(١)</sup>.

وإن هذا موقف يذكر للمثني حيث لم يغرّه كثرة جيشه ولا كونه أقدم من خالد في إمرة جيوش العراق، فلم يحمل ذلك على أن يرى أنه أحق بالقيادة من خالد. ولقد كتب خالد إلى ثلاثة من الأمراء في العراق قد اجتمعت لهم جيوش لغرض الجهاد وهم: مذعور بن عدي العجلي وسلمى بن القين التميمي وحرملة بن مربيطة التميمي، فاستجابوا وضموا جيوشهم التي بلغ تعدادها مع جيش المثني ثمانية آلاف، وكان قد بقي مع خالد من جيش اليمامة ألفان، وانضم إليه من ربيعة ومضر ثمانية آلاف فأصبح جيشه ثمانية عشر ألفاً<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد جاء في كتاب أبي بكر لخالد وعياض بن غنم: «أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي» فلم يشهد الأيام مرتد<sup>(٣)</sup> يعني في أول الأمر، وقد شهدوا الأيام بعد ذلك حينما ثبتت استقامتهم كما سيأتي.

وهذا الموقف من أبي بكر مبني على الاحتياط لأمر الجهاد في سبيل الله تعالى حتى لا يشترك فيه طلاب الدنيا فيكونوا سبباً في فشل المجاهدين واختلال صفوفهم. وهذا درس تربوي من أبي بكر استفاده من الدروس النبوية العالية، وذلك في تنقية الصف الإسلامي من الشوائب وتوحيد هدفه حتى يكون خالصاً لوجه الله تعالى، فإيمان بذلك من الانتكاسات الخطيرة التي تحدث بسبب تعدد الأهداف. ولقد حرص أبو بكر على هذا المبدأ السامي مع شدة احتياج الجيش الإسلامي آنذاك إلى الرجال مما يدل على قناعته التامة بأن العبرة بسمو الهدف والإخلاص لا بكثرة العدد.

\*\*\*\*\*

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٤٧.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٤٤.

(٣) تاريخ الطبري ٣/٣٤٧، والمراد بالأيام المعارك.

## معركة كاظمة

كان خالد بن الوليد قد بعث قبل وصوله إلى العراق كتاباً إلى هرمز الذي كان والياً على «الأبلة» الواقعة في جنوب العراق يقول فيه: «أما بعد فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»<sup>(١)</sup>.

ولما وصل الكتاب إلى هرمز كتب بذلك إلى كسرى وجمع جيشه وبادر إلى المكان الذي سار إليه خالد وهو «كاظمة» فنزل على الماء ونزل المسلمون بعده على غير ماء، وقالوا لخالد في ذلك، فأمر مناديه فنادى: ألا انزلوا وحطوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرنَّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين.

وهكذا حوّل خالد بفكره العبقرى هذه المصيبة بفقد الماء إلى مكرمة ونعمة، فاغتنم ذلك لدفع المسلمين إلى الاستبسال في القتال ليكون الحصول على الماء دافعاً جديداً يضاف إلى الدوافع الأخرى الثابتة في الحض على القتال، فانقلب هاجس الكفار الذي دفعهم إلى المسارعة ومنع المسلمين من الماء وبالاً عليهم.

وحط المسلمون أثقالهم والحيل وقوف، وتقدم الراجلون، وزحفوا إلى الكفار، ومنَّ الله تعالى بكرمه وفضله على المسلمين بسحابة فأمرت وراء صفوف المسلمين ونهلوا من غدرانها فتقوى بذلك المسلمون.

وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة الشاهدة على معية الله جل جلاله لأوليائه المؤمنين بنصره وإمداده.

وواجه المسلمون هرمز وكان مشهوراً بالخبث والسوء حتى ضرب المثل بخبثه، فعمل مكيدة لخالد وذلك أنه اتفق مع حاميته على أن يبارز خالداً ثم يغدروا به ويهجموا عليه، فبرز بين الصفين ودعا خالداً إلى البراز فبرز إليه، والتقيا فاختلفا ضربتين واحتضنه خالد فحملت حامية هرمز على خالد وأحدقوا به فما شغله ذلك

(١) أخرجه الإمام الطبري من خبر الشعبي - تاريخ الطبري ٣/٣٤٧ - ٣٤٨.

عن قتل هرمز، وما أن لمح ذلك البطل المغوار القعقاع بن عمرو حتى حمل  
بجماعة من الفرسان على حامية هرمز وكان خالد يجالدهم فأناموهم<sup>(١)</sup>، وحمل  
المسلمون من وراء القعقاع حتى هزموا الفرس.

وهذا هو أول المشاهد التي ظهر فيها صدق فراسة أبي بكر حينما قال عن  
القعقاع: «لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا».

أما خالد فقد ضرب أروع الأمثال في البطولة ورباطة الجأش، فقد أجهز على  
قائد الفرس وحاميته من حوله فلم يستطيعوا تخليصه منه، ثم ظل يجالدهم حتى  
وصل إليه القعقاع ومن معه ففضى عليهم.

وقد كان الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا فلم تغن عنهم شيئاً  
أمام الليوث البواسل، وسميت هذه المعركة لذلك بذات السلاسل<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) أي أبادوهم وهو تعبير بليغ عن القتل.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣/٣٤٨ - ٣٤٩، البداية والنهاية ٦/٣٤٨ - ٣٤٩، الكامل ٢/٢٦٢.



## معركة المذار

كان هرمز قد كتب إلى كسرى بكتاب خالد، فأمدّه كسرى بجيش بقيادة «قارن» ولكن هرمز استخف بجيش المسلمين فسارع إليهم قبل وصول قارن فنكّب ونكّب جيشه، وهرب فلول المنهزمين فالتقوا بجيش «قارن» وتدامروا فيما بينهم وتشجعوا على قتال المسلمين، وعسكروا بمكان يسمى «المذار».

وكان خالد قد بعث المثنى بن حارثة وأخاه المعنى في آثار القوم ففتحا بعض الحصون، وعلموا بمجيء جيش الفرس فأبلغا خالدًا الخبر، وكتب خالد إلى أبي بكر يخبره بمسيره إليهم، وسار وهو مستعد للقتال حتى لا يفاجأ بهم، والتقى المسلمون معهم في «المذار» فاقتتلوا، والفرس قد أغضبهم وأثار حفيظتهم ما وقع لهم قبل ذلك، وخرج قائدهم «قارن» ودعا إلى البراز، فبرز إليه خالد ولكن سبقه إليه معقل بن الأعشى بن النباش فقتله، وكان قارن وضع على يمينته «قباد» وعلى يسرته «أنوشجان» وهما من القواد الذين حضروا اللقاء الأول وفروا من المعركة، فتصدى لهما بطلان من أبطال المسلمين، فأما قباد فقتله عدي بن حاتم الطائي، وأما أنوشجان، فقتله عاصم بن عمرو التميمي، واشتد القتال بين الفريقين ولكن الفرس انهزموا بعد مقتل قادتهم. وقُتل منهم ثلاثون ألفاً ولجأ بقيتهم إلى السفن فهربوا عليها ومنع الماء المسلمين من ملاحقتهم<sup>(١)</sup>.

ففي هذه المعركة برز ثلاثة من أبطال المسلمين وهم معقل بن الأعشى بن النباش، وعدي بن حاتم الطائي، وعاصم بن عمرو التميمي حيث قتلوا قادة الفرس الثلاثة، وكان ذلك سبباً في هزيمة الفرس.

وفي كثرة عدد قتلى الفرس الذين بلغوا ثلاثين ألفاً، دلالة على ضخامة الجهد الذي بذله المسلمون في هذه المعركة.

\*\*\*\*\*

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٣/٣٥١ - ٣٥٢، البداية ٦/٣٤٩، الكامل ٢/٢٦٣.

## معركة الوجة

قال الإمام محمد بن جرير الطبري: ثم كان أمر الوجة في صفر من سنة اثنتي عشرة، والوجة مما يلي كسكر من البر.

ثم أخرج من طريق سيف بن عمر التميمي عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس وعبد الرحمن بن سياه قالوا: لما وقع الخبر بأردشير [يعني كسرى] بمصاب قارن وأهل المذار أرسل الأندرزغر وأرسل بهممن جاذويه في أثره في جيش، وأمره أم يعبر طريق الأندرزغر، وكان الأندرزغر قبل ذلك على فرج خراسان، فخرج الأندرزغر سائراً من المدائن حتى أتى كسكر، ثم جازها إلى الوجة، وخرج بهممن جاذويه في أثره، وأخذ غير طريقه، فسلك وسط السواد، وقد حشر إلى الأندرزغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين فعسكروا إلى جنب عسكره بالوجة، فلما اجتمع له ما أراد واستتم أعجبه ما هو فيه، وأجمع السير إلى خالد.

ولما بلغ خالداً وهو بالثني خبر الأندرزغر ونزوله الوجة، نادى بالرحيل، وخلف سويد بن مقرن، وأمره بلزوم الحفير، وتقدم إلى من خلف في أسفل دجلة، وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة، وترك الاغترار، وخرج سائراً في الجنود نحو الوجة، حتى ينزل على الأندرزغر وجنوده ومن تأشب إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، هو أعظم من قتال الثني.

ثم أخرج من طريق سيف بن عمر التميمي عن محمد بن أبي عثمان، قال: نزل خالد على الأندرزغر بالوجة في صفر، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ، واستبطأ خالد كمينه، وكان قد وضع لهم كميناً في ناحيتين، عليهم بسر بن أبي رهم وسعيد بن مرة العجلي، فخرج الكمين في وجهين، فانهزمت صفوف الأعاجم وولوا، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه، ومضى الأندرزغر في هزيمته، فمات عطشاً<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٥٣ - ٣٥٤، وانظر البداية والنهاية ٦/٣٤٩، والكامل في التاريخ ٢/٢٦٣.

وهكذا تم نجاح المسلمين على الرغم من خطة الأعداء التي كانت مدروسة ومحكمة هذه المرة، ولقد ساعد المسلمين على النجاح - بعد توفيق الله تعالى - فشل قادة الفرس في تنفيذ الخطط الحربية، وبراعة خالد في التخطيط الحربي، فأما فشل قادة الفرس فإن القائد الأول سارع إلى الدنو من جيش المسلمين بعد أن اغتر بانضمام بعض عرب العراق إليه، بينما أبطأ القائد الثاني وسار من طريق آخر، فانفرد الجيش الأول بالمعركة، وأما براعة خالد الحربية فإنها قد ظهرت في اغتنامه الفرص وإسراعه في مناجزة الأعداء قبل أن يجتمع شملهم، وفي الخطة الحربية الرائعة التي طبقها بوضع الكمينين اللذين خرجا على حين فتور في جيش الفرس، ففضى خروجهما على ما بقي لديهم من قوة، وبهذا ظهر تفوق المسلمين الحربي على دولة كانت عريقة في الحضارة المادية ولها خبرة طويلة في الحروب.

وأخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الشعبي قال: بارز خالد يوم الوجلة رجلاً من أهل فارس يعدل بألف رجل فقتله، فلما فرغ اتكأ عليه ودعا بغدائه<sup>(١)</sup>.

وإن في هذا التصرف الجليل من سيف الله رضي الله عنه إذلالاً للفرس وتحطيماً لكبريائهم وتوهيناً لعزائمهم، ولئن كان يعدُّ مظهرًا من مظاهر الكبرياء فإن ذلك على الكافرين، وهو مطلوب من المؤمنين، خصوصاً في حال الحرب، ولقد رأى رسول الله ﷺ أبا دجانة يوم أحد يتبختر في مشيته بين الصفين فقال: إن هذه مشية يبغضها الله في غير هذا الموطن.

ولا شك أن تصرف خالد هذا وأمثاله قد أوقع الرعب في قلوب الأعداء، فأصبح كبارهم الذين يقابلون فرسان الروم يجبنون عن مواجهة فرسان المسلمين، وذلك خوفاً من القتل أولاً، وخوفاً من الذل ثانياً فيما إذا تعرضوا لمثل هذه الإهانة.

وفي سياق الرواية السابقة التي أخرجها الإمام الطبري عن محمد بن أبي عثمان قال: وقام خالد في الناس خطيباً يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٥٤.

العرب، وقال: ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب<sup>(١)</sup>، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونوَّي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثقل عما أنتم عليه<sup>(٢)</sup>.

وهذا يشير إلى أن العرب وهم في جاهليتهم إضافة إلى أنهم ليسوا من طلاب الآخرة فإنهم لم يظفروا بالدنيا لتفرقهم وتناحرهم فيما بينهم، فخالد يقول: نحن طلاب الآخرة ولنا هدف سام نسعى إليه، من أجله ندعو ومن أجله نجاهد، ولو فرض أننا لا نحمل هذا الهدف ولا نجاهد من أجله فإن العقل يقتضى أن نقاتل من أجل أن نُصلح أحوالنا المعيشية، وخالد حينما يذكر ذلك لا يجعل هذا الهدف ثنائياً مع الهدف السامي الذي ذكره، وإنما يذكر ذلك على أنه مجرد افتراض يفرض نفسه لو لم يوجد الهدف السامي المذكور، وكأنه يقول: إذا كنا سنقارع هؤلاء من أجل هذا الهدف الدنيوي أفلا نقارعهم من أجل الهدف الأخروي وابتغاء مرضاة الله جل وعلا؟

ولا شك أن هذا الكلام مما يوقظ القلوب ويشحذ الهمم، لتنتلق بعد ذلك النفوس المؤمنة مجاهدة في سبيل الله تعالى بكل طاقاتها.

\*\*\*\*\*

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٥٤.

(١) الرفع: مجتمع التراب.

## معركة أليس

أخرج الإمام الطبري من خبر المغيرة بن عتيبة قال: ولما أصاب خالد يوم الوجلة من أصحاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم، فاجتمعوا إلى أليس، وعليهم عبد الأسود العجلي، وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عجل: عتيبة بن النّهاس وسعيد بن مرة و فرات بن حيّان والمثنى بن لاحق ومذعور بن عدي.

وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه، وهو بقسيانا: وأن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب. فقدم بهمن جاذويه جابان وأمره بالحث، وقال: كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجلوك. فسار جابان نحو أليس، وانطلق بهمن جاذويه إلى أردشير ليحدث به عهداً، وليستأمره فيما يريد أن يشير به، فوجده مريضاً، فعرج عليه، وأخلى جابان بذلك الوجه، ومضى حتى أتى أليس، فنزل بها في صفر، واجتمعت إليه المسالحي التي كانت بإزاء العرب، وعبد الأسود في نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وكان جابر بن بجير نصرانياً، فساند عبد الأسود.

وقد كان خالد بلغه تجمع عبد الأسود وجابر وزهير فيمن تأشّب إليهم، فنهدلهم ولا يشعر بدنو جابان، وليست لخالد همّة إلا من تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم، فأقبل فلما طلع على جابان بأليس، قالت الأعاجم لجابان: أنعاجلهم أم نغدي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم، ثم نقاتلهم بعد الفراغ؟ فقال جابان: إن تركوكم والتّهاون بكم فتهاونوا، ولكن ظني بهم أن سيّعجلوكم ويعجلوكم عن الطعام. فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة، وتداعوا إليها، وتوافقوا عليها.

فلما انتهى خالد إليهم، وقف وأمر بحطّ الأثقال، فلما وضعت توجه إليهم، ووكل خالد بنفسه حوامي يحمون ظهره، ثم بدر أمام الصف، فنادى: أين أبجر؟

أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ رجلٌ من جذرة، فنكّلوا عنه جميعاً إلا مالكا، فبرز له، فقال له خالد: يابن الخبيثة، وما جرّك علىّ من بينهم، وليس فيك وفاء! فضربه فقتله، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا، فقال جابان: ألم أقل لكم يا قوم! أما والله ما دخلتني من رئيس وحشة قطّ حتى كان اليوم، فقالوا حيث لم يقدرُوا على الأكل تجلّداً: ندعها حتى نفرغ منهم، ونعود إليها. فقال جابان: وأيضاً أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون، فالآن فأطيعوني، سمّوها، فإن كانت لكم فأهون هالك، وإن كانت عليكم كنت قد صنعتم شيئاً، وأبليتُم عذراً. فقالوا: لا، اقتداراً عليهم.

فجعل جابان على مجنّبتيه عبد الأسود وأبجر، وخالد على تعبّته في الأيام التي قبلها، فاقتتلوا قتالاً شديداً، والمشركون يزيدهم كلباً وشدةً ما يتوقّعون من قدوم بهمّن جاذويه، فصابروا المسلمين للذي كان في علم الله أن يصيرهم إليه، وحرّب المسلمون عليهم، وقال خالد: اللهم إنّ لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم! ثم إن الله عز وجل كشفهم للمسلمين، ومنحهم أكتافهم، فأمر خالد مناديه، فنادى في الناس: الأسر الأسر! لا تقتلوا إلا من امتنع، فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوفاً، وقد وكّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد، حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كلّ جوانب أليس. فضرب أعناقهم.

ولما هزم القوم وأجلّوا عن عسكريهم، ورجع المسلمون من طلبهم ودخلوه، وقف خالد على الطعام، فقال: قد نفلتكموه فهو لكم. وقال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نفلّه. فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل، وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول: ما هذه الرقاق البيض! وجعل من قد عرفها يجيبهم، ويقول لهم مازحاً: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم، فيقول: هو هذا، فسُمّي الرقاق، وكانت العرب تسميه القرى<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٥ - ٣٥٧ باختصار، وانظر البداية والنهاية ٦/ ٣٥٠، والكامل ٢/ ٢٦٤.

في هذا الخبر مواقف لأبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه في الحزم والتدبير الحربي والشجاعة، فقد عاجل الأعداء بتلك الضربات الموجعة المهلكة حال وصولهم ولم يترك فرصة للتفكير والتخطيط للحرب، كما أنه طلب مبارزة ثلاثة من أبطال العرب في العراق فنكل اثنان وتقدم له الثالث فسخر منه بكلام حطّم فيه معنويته ثم قضى عليه، وقد قام خالد بهذا العمل البطولي ليحرج زعماء الكفار وليحطّم معنوية جيشهم ويهزمهم نفسياً قبل الدخول في المعركة، وليبين لهم أن اجتماع العرب والعجم في حرب المسلمين لم يؤثر على إقدامهم ولم يضعف من شخصيتهم.

وبملاحظة ما وقع من الكفار من اهتمامهم بوضع موائد الطعام أولاً وعدوهم واقف أمامهم يتربص بهم، وما كان من سرعة هجوم المسلمين عليهم يتبين لنا الفرق الكبير بين المعسكرين، حيث يتصف الفرس بالغرور والتعاضم والانقطاع إلى شهوات الدنيا وعدم الانسجام بين الأفراد والقادة حيث أظهر أفراد الجيش معصيتهم لقائدهم وأصروا على بسط الموائد والتهاون بالمسلمين.

بينما يتصف المسلمون بالتواضع والحزم وأخذ الحذر وترقب الفرص والزهد في الدنيا، والانسجام الكامل بين الأفراد والقادة.

\*\*\*\*\*

## فتح أمغيشيا

ذكر الإمام الطبري أن ذلك كان في شهر صفر يعني من العام الثاني عشر، وأن الله عز وجل أفاءها بغير خيل .

ثم روى من خبر المغيرة بن عتيبة قال: لما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا وقد أعجلهم عما فيها، وقد جلا أهلها، فأمر خالد بهدم أمغيشيا وكل شيء كان في حيزها، قال: وكانت مصرًا كالحيرة وكان فرات بادقلى ينتهي إليها، وكانت أليس من مسالحها، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قط .

ثم روى من خبر عدد من الشيوخ قالوا: قال أبو بكر رحمه الله حين بلغه ذلك: يا معشر قريش - يخبرهم بالذي أتاه - عدًا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله<sup>(١)</sup>، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد!<sup>(٢)</sup> .

فهذه الكلمة العظيمة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه تعد وسام شرف لخالد، فهي اعتراف بالجميل، ورفع لأهل البلاء والفضل والهمم العالية، ودفع لأصحاب الهمم الضعيفة ليضاعفوا من جهودهم وينافسوا على المكارم .

\*\*\*\*\*

---

(١) الخراذيل قطع اللحم .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٨ .



## فتح الحيرة

بعد أن هزم خالد الأعداء المتحزبين من العجم والعرب في «أليس» وهدم مدينة «أمغيشيا» حتى لا تكون مأوى لتجمع الأعداء، أحس أمير «الحيرة» «الأزاذبه» بالخطر، لدنو خالد من فتهاياً لحرب خالد، وأمر ابنه بسدّ الفرات ليحول بين المسلمين وعبور النهر بالسفن، وكان خالد قد حمل الرجال والأمتعة على السفن، ففوجئوا بتوقف السفن لضحالة ماء النهر، فقال الملاحون: إن أهل فارس سدوا النهر فسلك الماء غير طريقه.

وكان خالد على الخيل فسارع نحو ابن أمير الحيرة فلقبي حاميةً له وهم آمنون فأبادهم ثم سارع إلى «فم فرات بادقلى» حيث يعسكر ابن أمير الحيرة فلقبيه هو وجنده فاقتتلوا فقضى عليهم خالد، وفجّر الفرات وسلك الماء سبيله، واستلحق خالد جيشه وسار نحو الحيرة.

وهكذا كان خالد بن الوليد بارعاً في اتخاذ الموقف المناسب في أسرع وقت، مغتنيماً الفرص في النكاية بالأعداء وإيقاعهم في الارتباك والحيرة، فما ينتهي بهم الحديث عن مغامرة أوجعهم فيها إلا ويفاجئهم بأخرى لم يستعدوا لها ولم تخطر لهم على بال.

ولما علم أمير الحيرة بقتل ابنه، وكان بلغه موت كسرى «أردشير» خرج وقطع الفرات هارباً، وأخلى الحيرة ليوواجه أهلها جيش المسلمين.

وكان في الحيرة أربعة حصون، فأمر خالد بكل حصن قائداً من قواده، فأمر ضرار بن الأزور أن يحاصر القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي وأمر ضرار ابن الخطاب أن يحاصر قصر العدسيين وفيه عدي بن عدي المقتول، وأمر ضرار بن مقرن المزني أن يحاصر قصر بني مازن وفيه حيرى بن أكّال، وأمر المثني بن حارثة أن يحاصر قصر ابن بقبيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح.

وعهد خالد إلى قواده أن يبدؤوا هؤلاء المحصورين بالدعوة إلى الإسلام، فإن قبلوا وأسلموا قبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن أبوا ذلك فأن يؤجلوهم يوماً، وقال:

لا تمكنوا عدوكم من أذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم، ولا تُردِّدوا المسلمين عن قتال عدوهم.

وهذا المنهج الواضح الحازم الذي أمر به خالد قواده هو الذي سار عليه قبل ذلك، وأنتج له النتائج السريعة الباهرة، وما كان قواده بالذين يتلكؤون عن تنفيذه وقد طبقه على نفسه سابقاً ورأوا بأعينهم آثاره الظاهرة في النصر وكيد الأعداء.

وقد كان أول القواد أنشب القتال بعد تأجيل يوم ضرار بن الأزور، وكان على قتال أهل القصر الأبيض فأصبحوا وهم مشرفون، فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزاء، أو المنابذة، فاختراروا المنابذة وتنادوا: عليكم الخزازيف، فقال ضرار: تنحوا لا ينالكم الرمي حتى ننظر في الذي هتفوا به، فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال معهم عدة الرمي، فرموا المسلمين بالمداحي المعمولة من الخنزف، فقال ضرار: ارشقوهم، فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رؤوس الحيطان، ثم بثوا غاراتهم فيمن يليهم، وفعل القادة الآخرون مثل ذلك، فاستسلم الأعداء ورضوا بالصلح.

لقد كانت هذه الحصون المنيعة تصدُّ الغزاة من قبل وقد صممت لذلك، لأن من دنا منها يكون قد دنا من الموت على أيدي الرماة الذين يملؤون الشرفات، ولكن المسلمين من طراز آخر، فإنهم لا يصددهم حصون ولا خنادق، لأنها تعد من مواطن الموت وهم يتسابقون على نيل الشهادة، ولذلك دنوا من الحصون ورشقوا أهلها بالنبال حتى خلت شرفاتها من المقاتلين، وإن تفوق من هم في الأرض على من كانوا فوق الحصون في الرماية يعدُّ من الأمور النادرة، ويستحق كل إعجاب وتقدير، وقد أثار الرعب في قلوب الأعداء وهم محصنون في قصورهم، فاستسلموا لقوة المسلمين وشجاعتهم.

وقد خرج رؤسائهم لمقابلة خالد، فخلا بأهل كل قصر دون الآخرين وبدأ بأصحاب عدي بن عدي فقال: اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلکم ما لنا وعليکم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم

على الحياة، فقال: بل نعطيك الجزية، فقال خالد: تبًا لكم، ويحكم إن الكفر فلاة مُضَلَّة فأحرق العرب من سلكها.

وإن لنا أمام هذا الموقف الجليل وقفات، فهو أولاً يبين الهدف الأسمى من الجهاد الإسلامي، ألا وهو الدعوة إلى الإسلام وتبليغ الهداية للبشرية، وليس هو التوسع في الممالك وفرض السلطان والتمتع بالحياة الدنيا، وهو يبين ثانياً أهم مقومات نجاح المسلمين في حروبهم، هذا النجاح الذي يقوم على الحرص الأكيد على طلب الشهادة وابتغاء ما عند الله تعالى في الآخرة، ولا شك أن الذي يحرص على الموت يقاتل الأعداء بطاقته الكاملة غير مستبِق بعضها للدفاع عن نفسه، أما الذي يقاتل وهو حريص على الحياة فإنه يصرف معظم طاقته في استبقاء نفسه ليتمتع بثمرات النصر التي لا تعدو هذه الحياة الدنيا.

كما أن هذا النص يؤكد لنا أخيراً حرص الصحابة رضي الله عنهم على تطبيق سنة النبي ﷺ، وذلك بالرغبة القلبية في هداية البشرية، حيث إن خالدًا وبخهم على اختيار البقاء على الكفر مع أن بقاءهم على الكفر ودفع الجزية فيه مصلحة مالية للمسلمين، ولكن خالدًا من قوم هانت عليهم الحياة الدنيا وفضلوا ما عند الله جل وعلا في الآخرة، وقد سنَّ رسول الله ﷺ لهم هذا المبدأ السامي بمثل قوله لعلي رضي الله عنه حينما أعطاه الراية يوم خيبر «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم».

هذا وقد ظهر في فتح الحيرة تصديق معجزة من معجزات النبي ﷺ حيث أخبر بفتحها ووصف قصورها، ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام الطبري بإسنادين عن الشعبي قال: لما قدم شُوَيْل إلى خالد قال: إني سمعت النبي ﷺ يذكر فتح الحيرة فسألته كرامة<sup>(١)</sup>، فقال: «هي لك إذا فُتحت عنوة» وشهد له بذلك، وعلى ذلك صالحهم، فدفعها إليه، فاشتد ذلك على أهل بيتها وأهل قريتها ما وقعت فيه، وأعظموا الخطر<sup>(٢)</sup>، فقالت: لا تُخطروه ولكن اصبروا، ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة! وإنما هذا رجل أحرق رأني في شببتي فظن أن الشباب يدوم،

(١) يعني بنت عبد المسيح أخت عمرو بن عبد المسيح أحد زعماء الحيرة.

(٢) أي بالغوا في طلب افتدائها بالمال.

فدفعوها إلى خالد، فدفعها خالد إليه، فقالت: ما أربك إلى عجوز كما ترى! فآدني<sup>(١)</sup>، قال: لا إلا على حكمي، قالت: فلك حكمك مرسلاً، فقال: لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم، فاستكثرت ذلك لتخدعه، ثم أتته بها، فرجعت إلى أهلها، فتسامع الناس بذلك، فعنفوه، فقال: ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف! فأبوا عليه إلا يخاصمهم، فخاصمهم فقال: كانت نيتي غاية العدد، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف، فقال خالد: أردت أمراً، وأراد الله غيره، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك كاذباً كنت أو صادقاً<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تحقق فتح الحيرة كما أخبر النبي ﷺ، وقد جاء في خير آخر أخرجه الطبري أنها كشفت للنبي ﷺ فرآها ووصف شرف قصورها وشبهها بأضراس الكلاب<sup>(٣)</sup>.

ولقد قدر الله تعالى أن يكون شويل حاضراً وأن يطلب هذه المرأة التي كانت تشغل باله ل يتم تثبيت تذكُّر الصحابة رضي الله عنهم لهذه المعجزة وليعرفها غيرهم من المسلمين ومن أبناء البلاد المفتوحة حيث ترتب على الوعد الكريم من رسول الله ﷺ قضية أهمت أهلها وأهل بلدها.

وفي هذه القصة الطريفة موقف إسلامي جليل من خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث قضى لصالح الأعداء ضد صاحب القصة حيث ادعى أنه لم يرد ألف درهم وإنما أراد نهاية العدد فأخذه بظاهر قوله دون ما كان يضم في نفسه، وهذا مثل من الأمثلة العالية لنزاهة المسلمين في القضاء.

وبفتح الحيرة تحقق شطر من أمل أبي بكر رضي الله عنه في فتح العراق وإخضاعه تمهيداً لغزو فارس في عقر دارهم، وقد قام خالد بن الوليد رضي الله عنه بمهمته في ذلك خير قيام ووصل إلى الحيرة في وقت قياسي حيث بدأ صراعه مع الأعداء في شهر محرم من العام الثاني عشر في معركة كاظمة، وانتهى من فتح الحيرة في شهر ربيع الأول من العام نفسه، أما الشطر الثاني من أمل أبي بكر فكان في فتح شمال العراق بقيادة عياض بن غنم ولكنه حُصر في دومة الجندل

(١) بكسر الدال أي خذ المال فداء لي.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٦٦.

(٣) تاريخ الطبري ٣/٣٦٦.

حتى خَفَّ إليه خالد فأنقذهم الله به ثم سارع في إنهاء مهمته كما سيأتي بيان مواقف ذلك إن شاء الله تعالى .

بقي موقف من مواقف فتح الحيرة، وذلك فيما جرى من خالد بن الوليد حينما ابتلع السم القاتل فلم يؤثر عليه بإذن الله تعالى، وقد أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري بإسناده عن يونس بن إسحاق وعن رجل من بني كنانة عن الزهري عن رجل من الضَّبَاب، وعن محمد بن أبي السَّفَر عن ذي الجوشن الضَّبَّابي أنهم قالوا: وكان مع ابن بُقَيْلَةَ<sup>(١)</sup> مَنصَف له<sup>(٢)</sup> فعلق كيساً في حقوه، فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في راحته، فقال: ما هذا يا عمرو؟ قال: هذا وأمانة الله سمُّ ساعة، قال: لمَ تحتقب السم؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيتُ على أجلي، والموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي، فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى تأتني على أجلها، وقال: بسم الله خير الأسماء، رب الأرض ورب السماء، الذي ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم، فأهواوا إليه ليمنعوه منه، وبأدرهم فابتلعه، فقال عمرو: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم مادام منكم أحد أيها القرن<sup>(٣)</sup> وأقبل على أهل الحيرة فقال: لم أرَ كالْيَوْم أَوْضَحَ إقبالا<sup>(٤)</sup>.

وقد ذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير ولم يضعفها<sup>(٥)</sup>.

وذكرها الحافظ ابن حجر وقال: رواه أبو يعلى ورواه ابن سعد من طريقين آخرين ولم يضعفها<sup>(٦)</sup>. وذكرها الإمام ابن تيمية مثالا من أمثلة الكرامات<sup>(٧)</sup>.

وقد أنكر بعض الكتاب المعاصرين هذا الخبر، وعده من نسج خيال بعض الرواة حول شخصية خالد الشهيرة كما هو المعتاد في حياة بعض المشاهير.

وقد تبين لنا ثبوت هذه الرواية من ناحية الإسناد، فقد ارتضاها الأئمة المذكورون وهم الطبري وابن سعد وابن كثير وابن حجر وابن تيمية ولم يضعفوا

(١) يعني عمرو بن عبد المسيح وهو سيد قومه .

(٢) يعني خادم .

(٣) يعني يا أهل الجيل المعاصر .

(٤) تاريخ الطبري ٣/٣٦٣ .

(٥) البداية والنهاية ٦/٣٤٧ .

(٦) الإصابة ١/٤١٤ .

(٧) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان / ١٢٧ .

إسنادها، وكلهم من العلماء بالنسبة دراية ورواية، ومن غير اللائق أن نصف ما ارتضاه هؤلاء الأئمة بأنه من الأساطير التي هي من نسج الخيال.

وإذا ثبتت هذه القصة فكيف نفسّر إقدام خالد على شرب السم مع معرفته بأنه قاتل؟ فهل كان سيقدم على قتل نفسه ولو على سبيل الاحتمال البعيد؟

إنه لن يفعل ذلك أبداً لأنه مؤمن بالله حقاً أولاً ويعلم الوعيد المترتب على من قتل نفسه، ولأنه ثانياً في قمة المجد الدينوي الذي خُلد له بالانتصارات المتلاحقة الباهرة، فما الذي حمله على احتساء هذا السم القاتل؟ ثم ما الذي جعله على ثقة بالغة ويقين تام بأن السم لن يضره بإذن الله تعالى.

أما الحامل على الإقدام على هذه المغامرة العجيبة فهو مصلحة الدعوة الإسلامية بلا ريب.

إن الانتصارات الباهرة التي حققها المسلمون بقيادة خالد لا شك أنها قد دفعت عجلة الاستجابة للدعوة إلى الأمام، ولكن تظل بعض النفوس بحاجة إلى دفعات قوية من نوع آخر، وخاصة بالنسبة لأهل الكتاب الذين يتأثرون بخوارق العادات التي ألفوا حدوثها من الأنبياء عليهم السلام ومن بعض الصالحين، وقد كان كثير من أهل البلاد التي وقعت فيها هذه الحادثة من النصارى.

ولا شك أن خالدًا قد وضع في ذهنه أن الفتوح التي أجراها الله تعالى على يديه ومن معه من المسلمين ليست فتوح ممالك ولا توسعة سلطان وإنما هي فتوح القلوب المتلهفة إلى معرفة الحق، والتي حال بينها وبين إدراكه ركام الجاهلية المتسلط على الرقاب والعقول.

أما كيف أقدم خالد على هذه المغامرة مع أنها بالنسبة للأسباب المادية مورد متيقن من موارد الهلاك، فإن هذا مَعْلَمٌ من معالم الإيمان العالية التي يعجز الذهن عن تصويره كاملاً، ويعجز القلم عن تصويره، ولكن مما يُلقني بعض الضوء على هذا الموضوع أن نتصور أن خالدًا في تلك اللحظات التي حمل فيها السم في يده كان في قمة من اليقين والإيمان بأن الله جل جلاله هو الذي خلق كل شيء وأودع في كل شيء خصائصه، وأنه القادر على أن يلغي مفعول هذه الخصائص إذا أراد،

لحكمة عالية وهدف عظيم، كما أذهب فعالية النار حينما ألقى فيها إبراهيم عليه السلام، وجعلها عليه برداً وسلاماً، وقد حصل ذلك لغير الأنبياء عليهم السلام كما حصل لأبي مسلم الخولاني لما رفض أن يقر بنبوّة الأسود العنسي الكذاب فألقاه في النار فوجدوه فيها قائماً يصلي ولم تضره، وقد وفد بعد وفاة النبي ﷺ إلى المدينة فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله عليه السلام<sup>(١)</sup>.

فخالد حينما أقدم على ذلك كان موقناً بأن النتيجة ستكون على غير مألوف البشر، وأن شأن الإسلام سيعلو بسبب هذه الخارقة، فأقدم على ابتلاع السم القاتل.

وقد استشهد العلماء بهذا الخبر على ناحية الكمال التي يمكن أن يصل إليها أقوياء الإيمان من مباشرة الأسباب الضارة اعتماداً على الثقة العظيمة بالله عز وجل والتوكل الكامل عليه، واستدلوا لذلك بما رواه الإمامان أبو داود والترمذي «أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصة، ثم قال: كل بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه»<sup>(٢)</sup> مع أنه قال ﷺ «فر من المجذوم فرارك من الأسد» أخرجه الإمام البخاري<sup>(٣)</sup> وهذا لعموم الناس حتى لا يضعف إيمان من أصيب بالعدوى ويقبل توكله على الله ويقوى اعتماده على الأسباب وحدها.

ولا شك في أن خالداً وهو يقدم على ذلك لم يخالج قلبه ذرة من إرادة حظ النفس وكسب السمعة والجاه، لأنه لو نوى شيئاً من ذلك لعلم أن الله تعالى سيتخلى عنه، وهو لا حول له ولا قوة على انتزاع أثر السم الضار.

وهذه تجربة فذة لا يُطلب من أي مسلم أن يخوضها ولو كان هدفه هو نفس الهدف الذي رمى إليه خالد، لأنه يندر أن يوجد من يبلغ إيمانه وثقته بالله تعالى إلى المستوى الذي بلغ إليه خالد رضي الله عنه وأرضاه.

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان / ١٢٩، سير أعلام النبلاء ٨/٤.

(٢) فتح المجيد/ ٣١٢، سنن أبي داود رقم ٣٩٢٥، سنن الترمذي رقم ١٨١٧.

(٣) صحيح البخاري ١٥٨/١٠ رقم ٥٧٠٧ كتاب الطب.

## فتح الأنبار

تبين لنا أن خالد بن الوليد رضي الله عنه قد أنهى المهمة التي كُلِّفَ بها من فتح نصف العراق الجنوبي، وكان مقتضى خطة أبي بكر رضي الله عنه أن ينتهي عياض ابن غنم رضي الله عنه من فتح النصف الشمالي من العراق في الوقت نفسه أو ما يقاربه ليستعدوا بعد ذلك لغزو فارس وقد أَمَّنَا على ظهور الجيش الإسلامي من أن يُؤتَى من خلفه، وذلك بإخضاع جميع الولايات التي كانت خاضعة للفرس.

وقد ذكر ابن جرير الطبري خطاب أبي بكر رضي الله عنه إلى خالد وعياض بتكليفهما بغزو العراق من جنوبه وشماله، وجاء في الكتاب: وأيُّكما ما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فَضَّضْتُمَا مسالِح ما بين العرب وفارس<sup>(١)</sup> وأمتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليُقم بالحيرة أحدكما وليقتحم الآخر على القوم وجالدوهم عما في أيديهم واستعينوا بالله واتفقوا، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمع لكم، ولا تؤثروا الدنيا فتُسلبوهما، واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصي ومعالجة التوبة، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة<sup>(٢)</sup>.

وإن هذا الكتاب الجليل يدل على فكر أبي بكر العالي وتخطيطه الدقيق، وقَبْل ذلك يدل على إلهام الله جل وعلا له، فإنه لم يكن على علم مفصل عن أرض العراق وفارس وما فيهما من قوة ولم يكن هناك وقت للقيام بدراسة حربية للمنطقة، ومع ذلك جاء تخطيطه الحربي موافقاً تماماً لما اقتضته مصلحة الجيوش الإسلامية أثناء تطبيق هذه الخطة الحكيمة، وقد شهد ببراعة أبي بكر في التخطيط الحربي أخبر الناس بالحروب آنذاك وهو خالد بن الوليد، فإنه لما نهض للقيام بمهمة عياض في فتح شمال العراق ونزل بكربلاء واشتكى إليه المسلمون ما وقعوا فيه من التأذي بدبابها الكثيف قال لعبد الله بن وثيمة: اصبر فإنني إنما أريد أن أستفرغ المسالِح التي أُمر بها عياض فُنسكنها العرب فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من

(٢) تاريخ الطبري ٣٧٢/٢.

(١) يعني تفريق التجمعات الحربية التي دون بلاد فارس.



خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة وغير مُتَعَتَّة، وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة<sup>(١)</sup>.

وفي كون أبي بكر لم يذكر الأمير على العراق بعد فتحه بعينه حكمة واحتياط للمستقبل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فقد يتعثر مسير من عينه أميراً فلا يصل إلى العراق بينما يصل الآخر، وهذا ما حصل حيث وصل خالد وتعثر عياض، فكانت الإمرة لخالد بموجب تنفيذ ما جاء في هذا الكتاب.

وكونه لم يحدد من يقتحم بلاد الفرس ومن يبقى مرابطاً في الحيرة ليس فيه شيء من الإرباك والتحير لأن الذي سيكون أميراً على العراق هو الذي سيحدد ذلك.

وقد ختم أبو بكر خطابه بهذه الوصايا النافعة من الاستعانة بالله تعالى وتقواه، وإيثار الآخرة على الدنيا وأن من وفق إلى ذلك حصلت له الدنيا والآخرة، ومن أثر الدنيا سلب الدنيا والآخرة، وهو وإن حصل على بعض النعيم في الدنيا، فإنه لن يحصل على الأمن وسعادة النفس إلا في ظل الإيمان بالله تعالى والدار الآخرة.

كما أوصى أبو بكر قواده وجنود المسلمين باجتناّب معصية الله تعالى، والإسراع في التوبة لمن غلبته نفسه الأمانة بالسوء، وهذه الوصية قبس من يقين أبي بكر ومعرفته التامة بالله تعالى، وأنه هو الذي بيده النصر والخذلان، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

هذا ولما أنهى خالد مهمته في فتح جنوب العراق واستعصى على عياض أن يصل إلى شمال العراق توجه خالد ليكمل المناطق التي كُلف بها عياض في نصف العراق الشمالي.

وقد كان في شمال العراق ثلاثة تجمعات كبيرة لعسكر الفرس ومن والاهم من العرب، أحدها بالأنبار والثاني بعين التمر، والثالث بالفراض<sup>(٢)</sup>.

وقد استخلف خالدًا على الحيرة القعقاع بن عمرو التميمي الذي يعدُّ من أبرز أبطال المسلمين وفرسانهم، وهو يشبه خالدًا في مجال الكرّ والفرّ، واغتنام الفرص ومباغطة الأعداء.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٣.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٧٢.

وسار خالد نحو الأنبار، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، وكان يلي أمر الأنبار وقيادة جنودها «شيرزاد» وكان أعقل الفرس وأبلغهم قناعة لدى الناس.

وما أن وصل خالد حتى أطاف بخندقهم وعرف مكان من ضعفهم، ثم أنشب القتال وكان قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به، وتقدم إلى رُماته فأوصاهم وقال: إني أرى أقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخَّوا غيرها، فرموا باتجاه واحد، ثم تابعوا ففقؤوا ألف عين يومئذ، فسميت تلك الواقعة ذات العيون، وتصايح القوم: ذهبت عيون أهل الأنبار، فقال شيرزاد: ما يقولون؟ ففسر له، فأعجبه أمرهم، وراسل خالدًا في الصلح على أمر لم يرضه خالد، فرد رسله.

وأتى خالد إلى أضيقي مكان في الخندق، فأمر بنحر رديء الإبل ورمى بها وجعلها جسراً عبر منه الجيش الإسلامي، والتقوا بأعدائهم داخل الخندق فلجأ الأعداد إلى حصنهم، وراسل شيرزاد خالدًا على الصلح على ما أراد، على أن يخلي له طريق الخروج مع حامية له حتى يصل مأمته، فقبل منه<sup>(١)</sup>.

وهنا نقف قليلاً أمام هذه المشاهد المثيرة، فلقد أدرك خالد بسرعة عجيبة أن القوم لا علم لهم بالحرب، وهذا يدل على بصره الخارق في الأمور الحربية، وأدرك أن القوم يعلوهم شيء من الرعب، فأمر الرماة بأن يركزوا رمايتهم على عيونهم ليقضي على ما تبقى لديهم من قوة وثبات.

وقد رماهم المسلمون ففقؤوا في هجوم واحد ألف عين، وهذا دليل واضح على براعة المسلمين الأوائل في الرماية وإصابة الأهداف الدقيقة.

ثم رَدَم خالد عليهم خندقهم الذي عدَّوه حاجزاً منيعاً، لعلمه بأنهم لن يستطيعوا الدفاع عنه لما سبق من إرهابهم عن طريق الرماة، فاضطر قائدهم وأميرهم الفارسي إلى أن يطلب النجاة لنفسه وأن يصالح خالدًا على ما أراد، ومعلوم أن الصلح يكون على دفع الجزية لأنهم لم يدخلوا في الإسلام، وأمن أهل الأنبار في ظل حكم المسلمين، وتعلَّم منهم المسلمون الخط لأنهم كانوا ماهرين في الكتابة.

\*\*\*\*\*

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٧٤، البداية والنهاية ٦/٣٥٣.

## فتح عين التمر

لما قام خالد بن الوليد بفتح عين التمر وتم له إخضاع ما حولها من القرى توجه إلى التجمع الثاني في شمال العراق، وذلك في «عين التمر» حيث قد اجتمع فيها جيش كبير للفرس بقيادة «مهران بن بهرام» وجيش كبير من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن انضم إليهم بقيادة «عقّة بن أبي عقبة»، فلما سمعوا بمجيء خالد قال عقّة بسذاجة وتهور لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدًا، فقال مهران بخبث ومكر: صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم، فخدعه واتقى به وقال: دونكموه وإن احتجتم إلينا أعناكم، فسار عقّة لملاقاة خالد، فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده، فعسى خالد جنده وقال لميمنة الجيش وميسرته: اكفونا ما عنده فلإني حامل ووكل بنفسه حوامي، ثم حمل وعقّة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيرًا، وانهزم صفه من غير قتال، فأكثر المسلمون فيهم الأسر وتبعوهم وهم منهزمون.

ولما جاء الخبر «مهران» هرب في جنده وتركوا الحصن، ثم استسلم بقية جيش عقّة من العرب، فقتل خالد قائدهم عقّة أمامهم ثم قتل بقية الأسرى ليرهب بهم جميع العرب المجاورين لهم<sup>(١)</sup>.

هذا وإن مغامرة الاختطاف التي قام بها سيف الله لعملٌ مدهش حقًا، فقد انقض انقضاض الصقر على فريسته وكأن الذي أمامه جثة هامدة وليس رجلاً مدججًا بالسلاح وحوله جيش كامل يمكن أن يدافعوا عنه جميعًا.

وإن العقل المجرد ليعجز عن تصور مثل هذا الموقف الذي يندر في التاريخ وجود مثيل له، ولكن الأمر في الحقيقة إلى جانب كونه صدر من رجل يعد في القمة في الشجاعة فإن خالدًا قد نُصر بالرب الذي يعد من خصائص هذه الأمة، التي بينها النبي ﷺ في قوله «أُعْطِيَتْ خُمْسًا لِمَنْ يَعْطِيهِنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرَتْ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» الحديث<sup>(٢)</sup>، وإن الرعب ليلاحظ جليًا في هذه المعركة وفيما سبقها من

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٧٦.

(٢) صحيح البخاري، التيمم، رقم ٣٣٥، صحيح مسلم، المساجد، رقم ٥٢١.

معارك حيث لم يكن الأعداء يُقدمون على قتال المسلمين إلا وقد اكتنفهم الرعب منهم حتى قال أحد قواد الفرس وهو «جابان»: أما والله ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم، وذلك في معركة «أليس»<sup>(١)</sup>.

ولو أن خالدًا بارز قائد القوم لكان قرنٌ ضد قرنه، أما أن يهجم عليه وهو في منعة من قومه فيلتقطه التقاطًا فهذا دليل واضح على أن الرعب قد ملأ قلب ذلك القائد وقلوب جنده ففروا جميعًا بعد أسر قائدهم.

وإننا ونحن نعرض هذه الأحداث المدهشة يجب أن نتصور أن الله جل جلاله لا يزال ينصر أوليائه المؤمنين بالرعب حتى تقوم الساعة مادام المسلمون يرفعون راية التوحيد ويُعلون كلمة الله تعالى، فالله سبحانه الذي نصر خالدًا بما يشبه الخوارق من سنته الماضية أن ينصر كل من أخلص في جهاده وطبق عوامل النصر التي بينها تعالى في كتابه وبينها رسول ﷺ في سنته.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٥٦.

## فتح دومة الجندل

تبين أن القائد الآخر الذي وجهه أبو بكر لغزو العراق وهو عياض بن غنم قد حُصر في «دومة الجندل» وقد كان محاصراً لأهله فسدوا عليه الطرق وحصروه، فأمدّه أبو بكر بالوليد بن عقبة، فلما قدم عليه قال له: الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف، ابعث إلى خالد فاستمده، ففعل، فقدم على خالد رسوله عقب وقعة عين التمر مستغيثاً، فكتب إليه خالد: من خالد إلى عياض إياك أريد.

لَبَّثَ قَلِيلًا تَأْتِكَ الْحَلَابُ<sup>(١)</sup> يَحْمِلُنْ آسَادًا عَلَيْهَا الْقَاشِبُ

كَتَائِبٌ يَتَّبِعُهَا كَتَائِبُ

هذا وقد كان عياض حاصر دومة الجندل فاستمد أهلها القبائل القريبة منهم فأمدوهم، وكانوا أكبر من طاقة جيش عياض، ومع ذلك ثبت لهم مدة طويلة ولم يستطيعوا هزيمته مع أنهم في بلادهم وقد أطمعهم فيه كونه بعيداً عن دار الخلافة وكان بعيداً أيضاً عن العراق حيث يقيم فيه خالد بن الوليد وجيشه، وقد أتعبهم في الحرب وأتعبه ولكن لم يكن لأحد الفريقين قوة على الآخر.

ولما علم أهل دومة بقدم خالد استنجدوا بقبائل أخرى فأمدوهم، وكان أمرهم إلى رئيسين هما: أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة، فاختلفا فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أئمن طائراً منه، ولا أحد في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوباً أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم، فأبوا عليه، فقال: لن أمالكم على حرب خالد فشأنكم.

وهذه شهادة عالية من عدو، والحق ما شهدت به الأعداء وقد كان خالد أسره قبل ذلك حينما أرسله إليه رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فأخذه وأتى به إلى النبي ﷺ فمن عليه وكتب له كتاب عهد، ولكنه خان العهد بعد ذلك، ولقد بقي في مخيلته الرعب الذي واجهه يوم أسره خالد إلى جانب سمعته الشهيرة في حروبه مع العرب والعجم.

(١) يعني الجماعات.

وخرج أكيدر مفارقاً قومه، وبلغ خالدًا خبره وهو في طريقه إلى «دومة» فأرسل إليه عاصم بن عمرو معارضاً له فأخذه، فقال: إنما تلقيت الأمير خالدًا، ولكن خيانتته السابقة لم تجعل خالدًا ينظر في كلامه فقتله، وهكذا قتله الله بخيانتته ونقضه العهد، ولم يُغْنِ الحذر من القدر.

وإن في معرفة خالد بأمر مفارقتته قومه ورحيله عنهم دلالة واضحة على قوة الرصد الحربي ودقته لدى المسلمين آنذاك.

ولما وصل خالد إلى دومة جعلها بينه وبين عسكر عياض، فاضطر أهلها إلى أن يقسموا جيشهم قسمين، فخرج الجودي بن ربيعة ومعه وديعة الكلبي في جيش لملاقاة خالد، وخرج ابن الحدرجان وابن الأيهم في جيش لملاقاة عياض، فاقتتلوا فهزم المسلمون أعداءهم من الفريقين، وانهزم بعضهم إلى الحصن فتحصنوا به، فأطاف خالد بالحصن فلم يزل عنه حتى اقتلع بابه، وقتل من فيه من المقاتلة<sup>(١)</sup>.

وبهذا انتهت مشكلة دومة الجنادل التي أعاقت عياضاً من القيام بالمهمة التي كُلف بها من فتح شمال العراق.

وهنا يجدر بنا أن نعطي نبذة موجزة عن عياض بن غنم رضي الله عنه حتى لا يظن أحد أنه لم يكن أهلاً لهذه المهمة التي كُلف بها، فقد كان من أفاضل المهاجرين ومن سادات قريش، وكان سمحاً جواداً، وقد وثق به الخلفاء وولاتهم بعد ذلك، فكان أحد قادة اليرموك، وكان على مقدمة جيش أبي عبيدة ثم فتح بعد ذلك الجزيرة بأكملها وهي المناطق التي بين الشام والعراق، واستخلفه أبو عبيدة رضي الله عنه على الشام لما حانت وفاته، فأقره عمر رضي الله عنه على الشام إلى أن احتاج إليه في الفتوح فوجهه إليها.

ولئن كانت حروب خالد رضي الله عنه مثلاً للبراعة في الهجوم السريع واغتنام الفرص وإثارة الرعب لدى الأعداء فإن ثبات عياض رضي الله عنه هذه المدة الطويلة في وجه أعداء قد تكالبوا عليه من كل مكان دليل على تمتع الجيش الإسلامي أيضاً بالصبر والمصابرة وطول الأمل والثقة بنصر الله تعالى في النهاية.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٧ - ٣٧٩ باختصار.

## معركة الحُصَيْد

لما انتهى خالد وعاياض من فتح دومة الجندل أقام بها خالد، وردَّ الأقرع بن حابس ببعض الجيش إلى الأنبار، فلما علم الأعداء في العراق بإقامة خالد بدومة، ظن الأعاجم أن بإمكانهم أن ينالوا من الجيش الإسلامي وأن يستعيدوا بعض مجدهم الذي أطاح به خالد وجيشه، وكاتبهم عرب الجزيرة في القتال غضباً لمن قتل منهم في الحروب السابقة، فخرج من الفرس جيشان بقيادة زرمهر وروزبة.

وكان خالد قد استخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو فكان أهلاً لهذه الثقة، فإنه أرسل جيشين بقيادة أعبد بن فدكي السعدي وأمره أن يربط بالحُصَيْد، وعروة بن الجعد البارقي وأمره أن يربط بالحنافس، فخرجا فحالا بين الفرس وبين الريف وأغلقا عليهم الطرق، وانتظر الفرس اجتماع من كاتبهم من العرب.

ورجع خالد من دومة إلى الحيرة، ولما بلغه تحزب العرب والفرس وجه القعقاع ابن عمرو وأبا ليلي بن فدكي إلى جيوش الفرس، ثم خرج وعلى مقدمته الأقرع ابن حابس، واستخلف على الحيرة عياض بن غنم.

ولما رأى القعقاع قائدي الفرس لا يتحركان تقدم إلى أحدهما وهو روزبة في حُصَيْد فاستمد هذا قائد الفرس الآخر زرمهر فأمده بنفسه، والتقى المسلمون بهم فهزم الله الفرس وقتل القعقاع قائدهم الأكبر زرمهر وقتل عصمة بن عبد الله الضبي قائدهم الآخر روزبة<sup>(١)</sup>.

وهنا نجد أن القعقاع بن عمرو ومن معه من الأبطال قد انتهجوا نهج خالد في اقتناص قادة الفرس، وهي خطة حكيمة لأن الأعداء لا تقوم لهم قائمة إذا قُتل قوادهم.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٧٩ - ٣٨٠.

## معركة المصيح

لما رد الله كيد الأعاجم بقي كيد العرب الذين اجتمعوا للثأر من المسلمين الذين قتلوا زعماءهم ورجالهم، وكان بعضهم قد اجتمعوا بمكان يقال له «المصيح» بقيادة الهذيل بن عمران، فوضع خالد خطة للهجوم المباغت عليهم قبل أن يجتمعوا مع بقية المحاربين، فحدد ساعة معينة من ليلة معينة لقادته الذين بعثهم قبل ذلك وهم القعقاع ابن عمرو وأبو ليلى بن فديك وأعبد بن فديك، وعروة بن الجعد، ليوافوه بالمصيح.

وسار خالد وسار قادته، ونجحت الخطة فوصلوا جميعاً إلى هذا المكان في الساعة المحددة، وهجموا على الهذيل ومن معه ومن أوى إليه وهم نائمون من ثلاثة أوجه، فقتلوه، وأفلت الهذيل في أناس معه قليل إلى معسكر آخر في «الزُمَيْل» لهؤلاء العرب المحاربين<sup>(١)</sup>.

هذا وإن في تحديد خالد الليلة التي يلتقون فيها مع تباعد المسافة بينهم دليل واضح على اهتمام المسلمين البالغ بدراسة المناطق التي يقاتلون فيها، لأن أي خطأ في تقدير المسافة بين كل جيش والمكان المقصود لهم قد يجعل واحداً من الجيوش يصل قبل البقية فيواجه وحده المعركة وتضيع الخطة التي رتبها خالد.

وقد سلك خالد في هذه المعركة طريقة جديدة لم يطبقها من قبل وهي مفاجأة العدو ليلاً والإيقاع بهم وهم نائمون، فلماذا لم يسلك خالد الطريقة السابقة وهي الدعوة إلى الإسلام أولاً ثم إمهال الأعداء بعض الوقت لعلمهم يقبلون الإسلام أو الجزية كما هو معلوم من أحكام الجهاد؟

فالجواب أن هؤلاء قد سبقت دعوتهم، وقد واجهوا خالداً في عين التمر بقيادة عقة بن أبي عقة فقتل قائدهم وقتل عدد كبير من قبائلهم، وقد اجتمعوا في «المصيح» بقصد الانتقام من المسلمين والأخذ بثأر عقة ومن قتل معه من قبائلهم، فقتل خالد إياهم كان حملة تأديبية لهم لإصرارهم على عداة المسلمين وممالأة الفرس عليهم، فليس خالد ملزماً بدعوتهم إلى الإسلام مرة أخرى، ومعالجته إياهم بهذه الطريقة تضمن له القضاء على كل تجمع بمفرده وذلك يكفل للمسلمين القضاء عليهم بدون أن يعرض الجيش الإسلامي لخسارة تذكر.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨١.



## معركتا الشَّيِّ وَالزُّمَيْلِ

لما انتهى خالد من ذلك سار إلى التجمع الثاني وهو في مكان يسمى «الشَّيِّ» وفيه ربيعة التغلبي، فقدم أمامه القعقاع بن عمرو وأبا ليلي بن فدكى في جيشين وواعدهما ليلة معينة يبيتون فيها الأعداء كما فعلوا في «المصيخ» فالتقوا في الليلة المحددة فهجموا على الأعداء من ثلاث جهات فقتلوهم جميعاً ولم يفلت منهم أحد.

ثم تقدموا سراعاً إلى التجمع الثالث وهو قريب من «الشَّيِّ» في مكان يقال له «البشر» ويسمى «الزُّمَيْل» أيضاً، وبه تجمع كبير بقيادة رجل يقال له «عتاب» وقد انضم إليه الهذيل ومن معه لما نجوا من غارة «المصيخ» فهجموا عليهم ليلاً بالتخطيط السابق نفسه، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكان خالد قد أقسم: لِيَبْغَتَنَّ تغلب في دارها، لشدة ما لقي منهم المسلمون، فبرَّ بذلك في قسمه<sup>(١)</sup>.

وبهذه الهجمات الليلية المباغته قضى خالد على ثلاثة تجمعات كبيرة للعرب كان أصحابها يعلِّقون عليها آمالاً كبيرة في غزو المسلمين وإخراجهم من أرض العراق، وكان الفرس أيضاً يعلِّقون عليها آمالاً في إضعاف المسلمين ليتهؤوا للإجهاد عليهم واستعادة مجد الفرس.

ولكن آمال العجم والعرب المشركين جميعاً تحطمت أمام عظمة المسلمين وشجاعتهم النادرة، والتخطيط الحربي المتفوق من قائدهم المظفر، فقد سارع مع قادته للقضاء على جيشي الفرس، ثم سار إلى هؤلاء العرب فباغتهم ليلاً وبسرعة هائلة، فلم يترك لهم الفرصة للتفكير والنظر.

وقد كان هدف هؤلاء الأعداء واحداً وهو الاجتماع لحرب المسلمين انتقاماً منهم، وقد أرادوا أن يكون جيشهم كبيراً فاستعانوا بالفرس فأمدوهم بجيشين كما سبق، فلو اجتمعوا جميعاً كما هو تخطيطهم لكانوا جيشاً مكوناً من خمسة جيوش، ولقد كان خالد واثقاً بعد توفيق الله تعالى من كفاءة جيشه الحربية، فكان يريد منهم أن يجتمعوا، ولكنهم تباطؤوا وجبنوا فاغتنم ذلك خالد وأوقع بهم على الطريقة المذكورة التي لم تترك لهم بقية تذكر ويخشى منها في المستقبل.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٨٢ - ٣٨٣.

## معركة الفَراضِ

كانت آخر معركة خاضها خالد في العراق معركة «الفراض» وكان من حديثها أن خالدًا لما قفل بجيشه من شمال العراق أقام مع بقية جيشه في الفراض، وكان قد دخل في حدود الروم، فغضب الروم واستعدوا للقتال واستعانوا بالفرس وبالعرب المواليين لهم، ثم اجتمعوا، ونهر الفرات بينهم وبين المسلمين، فقالوا للمسلمين: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم؟ قال خالد: لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا، كما جاء في رواية الإمام الطبري، قال: وذلك في النصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة.

وإن هذا الجواب من خالد ليكشف لنا لونا من مهارة خالد في التخطيط الحربي، فهو كما مر علينا في رواية سابقة لا يصبر عن الحرب إذا رأى الأعداء، ولكنه لم يكن عجولاً، بل كان سريع التفكير قوي الإدراك لمنافذ الأعداء قوة وضعفًا، فكان يعتمد على الحروب الخاطفة السريعة لأنها تذهل العدو وترهبه وتتركه في حيرة من أمره حتى يقضي ما يريد من عدوه، ولكن ذلك لا يعني أن خالدًا يتهور في مداخل لا يعرف مخارجها.

وفي هذه المعركة لما رأى أن الحكمة والمصلحة في التريث لم يتعجل، وقد اختار المكان الذي يرى أنه ملائم للحرب التي يجيدها أصحابه، ولو عبر فرما لا يتهياً له ما يريد، فألزم عدوه بأن يعبر إليه ومن المكان الذي يريد هو ليستطيع تنفيذ المخطط الذي رسمه للحرب.

وجاء في هذه الرواية: فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض: احتسبوا ملككم، هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل وعلم، والله لِينصِرَنَّهُ وَلِنُحْدِلَنَّ، ثم لم ينتفعوا بذلك.

وهذا صوت عقلائهم، فقد أدركوا أن الذي يفوز في الحرب هو الذي يقاتل باسم الدين دفاعاً عنه وحماية له، وكانوا على يقين من أن خالدًا سينتصر وسيهزمون، ومع ذلك استمروا في القتال ولم ينتفعوا بهذا الفهم الصحيح لأن

الذين كانوا يسيرون أمورهم ليسوا هم العقلاء المدركين وإنما كانوا أصحاب المصالح الدنيوية التي حظوا بها بسبب قربهم من رؤسائهم وخدمتهم إياهم، ومن ورائهم الدهماء الذين لا يؤمنون إلا بما ألقوه وتربوا عليه من مبادئ وإن كانت هذه المبادئ تجرهم وتجردولتهم إلى الهلاك والدمار، وهكذا يضيع صوت العقل السليم أمام غلبة المصالح الفردية والتربية الجماعية المنحرفة.

قال: فعبروا أسفل من خالد، فلما تتأموا قالت الروم: امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أيّنا يجيء، ففعلوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً، ثم إن الله عز وجل هزمهم، وقال خالد للمسلمين: ألقوا عليهم ولا ترفهوا عنهم، فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برمّاح أصحابه فإذا جمعوهم قتلوهم، فقتل يوم الفراض في المعركة وفي الطلب مائة ألف<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا أنه على الرغم من تميزهم الذي يرفع الاتكالية ويدفع الهمم إلى التنافس فإن ذلك لم يغنهم شيئاً أمام الليوث البواسل أصحاب العقيدة الإسلامية، لأنه مهما بلغ الحافز لهم على التضحية فإنه لا يعدو كونه أمراً دنيوياً، ولن يقف الهدف الدنيوي مهما عظم أمام الهدف الأخروي، ولن يثبت طلاب الدنيا مهما كثر عددهم وقويت عددهم أمام طلاب الآخرة.

وهكذا واجه المسلمون لأول مرة جيشاً مكوناً من الفرس الذين يمثلون دولة المشرق العظمى، والروم الذين يمثلون دولة المغرب العظمى، والعرب المواليين لهؤلاء وهؤلاء، ومع ذلك انتصر المسلمون عليهم انتصاراً ساحقاً.

ولا شك أن هذه المعركة تعدُّ من المعارك التاريخية الفاصلة - وإن لم تنل من الشهرة ما نالته المعارك الكبرى - لأنها حطمت معنويات الكفار على مختلف انتماءاتهم حيث هُزموا جميعاً. فكيف إذا انفرد المسلمون بطائفة منهم؟

وهذه المعركة تعدُّ خاتمة المعارك التي خاضها سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه في العراق حيث وجهه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الشام كما سيأتي.

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٨٣.



مواقف وعبر

في

فتوح الشام الأولى



## عزم أبي بكر ورؤيا شرحبيل

إن همّة أبي بكر الصديق العالية رضي الله عنه لم تقتصر على محاولة إخضاع بلاد الفرس لدولة الإسلام، وإنما حاول في نفس الوقت إخضاع دولة الروم.

ولقد كان أبو بكر يضمّر ذلك في نفسه حتى جاءه شرحبيل بن حسنة أحد قواده في حروب الردة فقال: يا خليفة رسول الله أتحدث نفسك أنك تبعث إلى الشام جنداً؟ فقال: نعم قد حدثت نفسي بذلك وما أطلعت عليه أحداً، وما سألتني عنه إلا لشيء، قال: أجل، إني رأيت يا خليفة رسول الله فيما يرى النائم كأنك تمشي في الناس فوق خَرَشْفَةٍ من الجبل - يعني مسلماً وعرّاً، ثم أقبلت تمشي حتى صعدت قنّةً من القنان العالية، فأشرفت على الناس ومعك أصحابك، ثم إنك هبطت من تلك القنان إلى أرض سهلة دمثة - يعني لينة - فيها الزرع والقرى والحصون، فقلت للمسلمين: شنوا الغارة على أعداء الله وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة، فشد المسلمون وأنا فيهم معي راية، فتوجهت بها إلى أهل قرية، فسألوني الأمان فأمنتهم، ثم جئت فأجدك قد انتهيت إلى حصن عظيم، ففتح الله لك وألقوا إليك السلم، ووضع الله لك مجلساً فجلست عليه، ثم قيل لك: يفتح الله عليك وتُنصر فاشكر ربك، واعمل بطاعته، ثم قرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر] ثم انتهت.

فقال له أبو بكر: نامت عينك، خيراً رأيت وخيراً يكون إن شاء الله، ثم قال: بشرت بالفتح، ونعيت إلي نفسي، ثم دمعت عينا أبي بكر وقال: أما الخرشفة التي رأيتنا نمشي فيها حتى صعدنا إلى القنّة العالية فأشرفنا على الناس، فإننا نكابد من أمر هذا الجند والعدو مشقة ويكابدون، ثم نعلو بعدُ ويعلو أمرنا، وأما نزولنا من القنّة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزرع والعيون والقرى والحصون، فإننا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش، وأما قولي للمسلمين: شنوا على أعداء الله الغارة فإنني ضامن لكم الفتح والغنيمة فإن ذلك دنوُّ المسلمين إلى بلاد

المشركين وترغيبى إياهم على الجهاد والأجر والغنيمة التي تُقسَم لهم، وقبولهم، وأما الراية التي كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم ودخلتها فاستأمنوا فأمنتهم، فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك، وأما الحصن الذي فتح الله لى فهو ذلك الوجه الذي يفتح الله لى، وأما العرش الذي رأيتنى عليه جالسا فإن الله يرفعنى ويضع المشركين، وقال الله تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وأما الذى أمرنى بطاعة الله وقرأ علىَّ السورة فإنه نعى إلىَّ نفسي، وذلك أن النبى ﷺ نعى الله إليه نفسه حين نزلت هذه السورة وعلم أن نفسه قد نُعت إليه، ثم سألت عيناه، وقال: لأمرنَّ بالمعروف ولأنهينَّ عن المنكر، ولأجهدنَّ فيمن ترك أمر الله، ولأجهزنَّ الجنود إلى العادلين بالله - يعنى المشركين به - فى مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا: الله أحد أحد لا شريك له، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، هذا أمر الله وسنة رسوله ﷺ، فإذا توفانى الله - عز وجل - لا يجدنى الله عاجزا ولا وائيا ولا فى ثواب المجاهدين زاهدا.

أخرجه ابن عساکر بإسناده عن محمد بن إسحاق.

وأخرجه الأزدي مختصرا مسندا إلى أنس بن مالك رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا أن الصحابة رضي الله عنهم كما نُصروا بالرعب فقد نصروا بالمبشرات وهي الرؤيا الصالحة كما قال ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»<sup>(٢)</sup>.

لقد كان أمر غزو الروم خاطراً فى نفس أبى بكر قد أضمـره وهمَّ به لكنه لم يعلنه للصحابة بعد، لأنه أمر عظيم يحتاج إلى كثير من التروي والنظر حيث ستجابه هذه الأمة الوليدة أمة المغرب العظمى فى الوقت الذى لا تزال جيوشها تجابه فيه أمة المشرق العظمى، فجاءت رؤيا شرحبيل التى تفاعل بها أبو بكر لتدفعه إلى العزم على ما همَّ به وإعلان ما أضمـره.

(١) تاريخ دمشق ٢ / ٦١-٦٢، فتوح الشام للأزدى / ١٤.

(٢) صحيح البخارى، كتاب التعبير، رقم ٦٩٩٠، (١٢ / ٣٧٥).

وفي آخر تفسير أبي بكر لهذه الرؤيا الصالحة نجده -وقد أحسنَ بدنوَّ أجله -  
ينهض مشمراً للقيام بأمر هذا الدين، ونجده ينص على أعمال الخير التي يتعدى  
نفعها للمسلمين، فيذكر عزمه على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،  
والاجتهاد في ردع من ترك أمر الله، والجهاد في سبيل الله تعالى حتى تعلقوا راية  
التوحيد، ويذل أهل الشرك في مشارق الأرض ومغاربها.

إنه لم يعتزل في بيته ومسجده ليقضي بقية عمره القصير في الشعائر التعبدية  
التي يقتصر نفعها على فاعلها كالصلاة والصيام، مع إدراكه لعظمة هذه الشعائر  
وأثرها البالغ في حياة المؤمن، لأنه يدرك أن أعمال الخير المتعدية أبعد أثراً وأضخم  
في ميزان الله تعالى، مع إمكان الجمع بينها وبين الشعائر التعبدية من غير إفراط  
فيها يحمل فاعلها على العزلة واجتناب ما يربطه بالناس، وهذا هو الاعتدال  
المطلوب من المسلم وهو الذي وجه إليه النبي ﷺ أصحابه، وحذر من الانقطاع  
للشعائر التعبدية وحدها، وأنكر على من اتجه هذا الاتجاه كما هو معروف في كتب  
السنة.

وقد سار أبو بكر بهذا على خطاه وجدد للمسلمين سنة رسول الله ﷺ، وهو  
الذي قال عنه وعن عمر «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»<sup>(١)</sup> فمن خالف  
سنته في هذا وسنة خليفته رضي الله عنهما فقد أبعد النجعة وضل عن الطريق  
المستقيم.

\*\*\*\*\*

---

(١) مسند أحمد ٥ / ٣٨٥، سنن الترمذي، المناقب، باب ٥٢ حديث ٣٧٤٢.

## مشورة أبي بكر في جهاد الروم

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري: حدثني الحارث بن كعب عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي، وكانت له صحبة، قال:

لما أراد أبو بكر -رحمة الله عليه- أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه وأنا فيهم، فقال:

إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه، ولا تبلى الأعمال جزاءها، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع في أن تشركوا بالله، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره، فالعرب أمة واحدة، بنو أب وأم، وقد أردت أن أستنفركم إلى الروم بالشام، فمن هلك هلك شهيداً، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين، هذا رأيي الذي رأيت، فليشر عليّ كل امرئ بمبلغ رأيه.

فقام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي، ﷺ، ثم قال:

الحمد لله، الذي يخصص بالخير من يشاء من خلقه، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير إلا سبقتنا إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قد والله أردت لقاءك لهذا الرأي الذي ذكرت، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن، فقد أصبت، أصاب الله بك سبيل الرشاد، سرب إليهم الخيل في إثر الخيل، وابعث الرجال تتبعها الرجال، والجنود تتلوها الجنود، فإن الله عز وجل ناصر دينه، ومعز الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله.

ثم إن عبد الرحمن بن عوف قام، فقال:

يا خليفة رسول الله، إنها الروم وبنو الأصفر حدّ حديد، وركن شديد، ووالله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاماً، ولكن تبعث الخيل، فتغير في أدنى



أرضهم، ثم تبعثها فتغير، ثم ترجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضروا بعدوهم، وغنموا من أرضهم، ففوقوا بذلك على قتالهم، ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن، وإلى ربيعة ومضر، فتجمعهم إليك، فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك.

ثم جلس، وسكت الناس، فقال لهم أبو بكر: ماذا ترون؟ رحمكم الله. فقام عثمان بن عفان، رضوان الله عليه. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي، ﷺ، ثم قال:

رأى أنك ناصح لأهل هذا الدين، عليهم شفيق، فإذا رأيت رأياً علمته رشداً وصلاًحاً وخيراً، فاعزم على إمضائه غير ظنين، ولا متهم<sup>(١)</sup>.

فقال طلحة، والزبير، وسعد، وأبو عبيدة الجراح، وسعيد بن زيد، وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار: صدق عثمان فيما قال، ما رأيت من رأى فأمضه، فإننا سامعون لك مطيعون، لا نخالف أمرك، ولانتهم رأيك ولا نتخلف عن دعوتك.

فذكروا هذا وشبهه، وعلي بن أبي طالب - رحمة الله عليه - في القوم لا يتكلم. فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا الحسن؟

فقال: أرى أنك مبارك الأمر، ميمون النقيبة<sup>(٢)</sup>، وإنك إن سرت إليهم بنفسك، أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله.

فقال أبو بكر: بشرك الله بخير، فمن أين علمت هذا؟

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) يعنى لانظن بك التقصير ولانتهمك فى إخلاصك. (٢) النقيبة هى الرأى والمشورة. (٣) لفظ الحديث فى رواية الشيخين «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» - صحيح البخاري، الاعتصام، رقم ٧٣١١ (١٣/ ٢٩٣)، صحيح مسلم، الإمارة، رقم ١٥٣٣ ص ١٩٢٠ - ١٩٢٤.

فقال أبو بكر: سبحان الله، ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني، سرّك الله في الدنيا والآخرة.

ثم إن أبا بكر -رحمة الله عليه ورضوانه- قام في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكره بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزّكم بالجهاد وفضلكم بهذا الحديث على أهل كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإنى مؤمّر عليكم أمراء، وعاقد لهم عليكم، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، ولتَحسُنْ نيتكم وسيرتكم وطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون.

قال: فسكت الناس، فوالله ما أجابه أحد هيبَةً لغزو الروم، لما يعلمون من كثرة عددهم، وشدة شوكتهم.

فقام عمر بن الخطاب -رحمة الله عليه ورضوانه- فقال: يا معشر المسلمين، مالكم لا تجيبون خليفة رسول الله ﷺ إذا دعاكم لما يحييكم؟

فقام خالد بن سعيد بن العاص، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي - صلى الله عليه وسلم وعلى آله ثم قال: الحمد لله الذى لا إله إلا هو، الذى بعث محمداً -ﷺ- بالهدى، ودين الحق، ليُظهِرهُ على الدين كله ولو كره المشركون فإن الله منجز وعده، ومعزّ دينه، ومهلك عدوه.

ثم أقبل على أبي بكر فقال: نحن غير مخالفين لك، ولا متخلفين عنك، وأنت الوالي الناصح الشفيق، نفر إذا استنفرتنا، ونطيعك إذا أمرتنا، ونجيبك إذا دعوتنا.

ففرح أبو بكر بمقالته، وقال له: جزاك الله من أخ و خليل خيراً، فقد أسلمت مرتغباً، وهاجرت محتسباً، وهربت بدينك من الكفار لكي يطاع الله ورسوله، وتكون كلمة الله هي العليا، فتيسره<sup>(١)</sup> -رحمك الله-.

قال: فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز، ثم أتى أبا بكر، وعنده المهاجرون والأنصار أجمع ما كانوا، فسلم على أبي بكر، ثم قال:

(١) أي تيسر للخروج واستعد له.

والله لأن أحرر من حالق<sup>(١)</sup> أو تخطفني الطير في الهواء بين السماء والأرض أحب إلي من أن أبطئ عن دعوتك، أو أخالف أمرك، فوالله ما أنا في الدنيا راغب، ولا على البقاء فيها بحريص، وإنني أشهدكم أنني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله، نقاتل المشركين أبداً حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا.

فقال له أبو بكر خيراً، ودعا له المسلمون بخير، وقال له أبو بكر: إن ما نرجو أن تكون من نصحاء الله في عباده، بإقامة كتابه، واتباع سنة نبيه ﷺ.

فخرج هو وإخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته، فكان أول من عسكر. وأمر أبو بكر بلالا، فنادى في الناس: أن انفروا إلى جهاد عدوكم: الروم بالشام.

وأرسل أبو بكر إلى يزيد بن أبي سفيان، وإلى أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحيل بن حسنة، فقال:

إني باعثكم في هذا الوجه، ومؤمركم على هذه الجنود، وأنا موجه مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرت عليه، فإذا قدمتم البلد، ولقيتم العدو، واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح، وإن لم يلقكم أبو عبيدة وجمعتمكم حرب فأميركم يزيد بن أبي سفيان، فانطلقوا، فتجهزوا، وخرج القوم يتجهزون. وكان خالد بن سعيد بن العاص من عمال رسول الله ﷺ، فكره الإمارة، واستغفى أبا بكر، فأعفاه.

ثم إن الناس خرجوا إلى معسكرهم من عشرة وعشرين، وثلاثين وأربعين وخمسين، ومائة في كل يوم، حتى اجتمع الناس وكثروا.

فخرج أبو بكر ذات يوم ومعه رجال من أصحابه كثيرون حتى انتهى إلى معسكرهم، فرأى عدة حسنة، ولم يرض كثرتها للروم، فقال لأصحابه: ماذا ترون في هؤلاء؟ أترون أن نخصصهم إلى الشام في هذه العدة؟

(١) أي من جبل مرتفع.

فقال له عمر: ما أرضى هذه العدة لجموع بني الأصفر.

فأقبل أبو بكر على أصحابه، فقال لهم: ماذا ترون؟ قالوا: نحن نرى أيضاً ما رأى عمر.

فقال أبو بكر: أفلا تكتب كتاباً إلى أهل اليمن، ندعوهم إلى الجهاد، ونرغبهم في ثوابه؟ فرأى ذلك جميع الصحابة، فقالوا: نعم ما رأيت. فكتب إليهم<sup>(١)</sup>.

من هذه المشورة تبين لنا منهج أبي بكر رضي الله عنه في مواجهة الأمور الكبيرة حيث لم يكن بيتٌ فيها برأي حتى يجمع أهل الحل والعقد فيستشيرهم ثم يصدر بعد ذلك عن رأي محص مدروس، وهذه هي سنة رسول الله ﷺ كما مر معنا في مواقف غزوة بدر وأحد.

ومن هذه المحاور تبين لنا أيضاً منزلة أبي بكر العالية عند الصحابة، حيث أرجعوا الأمر له ووضعوا ثقتهم الكاملة به، وهذا أعلى مثل يمكن أن يكون للانسجام الكامل بين الحاكم والمحكومين بعد رسول الله ﷺ.

كما نستفيد من هذه المحاور ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الأدب الجمِّ والتواضع الكبير، فلم يكن الواحد منهم يحب أن يبرز نفسه وأن يقول أى كلام يخطر على باله ليُنظر إليه ويُرَى مكانه، بل تركوا الكلام لكبارهم فقط، حتى إن علياً وهو من الكبار في المنزلة لم يتكلم حتى راجعه أبو بكر، واستخرج منه هذه الفائدة الغالية التي سرَّ لها أبو بكر لما يترتب عليها من الثقة بنصر الله تعالى، والشعور بأن العاقبة للمؤمنين.

ومن هذا الحوار الذي دار في هذه المشورة تبين لنا اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالجهاد ومسارعتهم إلى الخروج في سبيل الله تعالى، وخاصة ما كان من خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه حيث أبدى استعدادَه الكامل للخروج هو وأهل بيته وأقاربه بعبارات بليغة مؤثرة، مما جعل أبا بكر الصديق رضي الله عنه يشكره ويثنى عليه.

(١) فتوح الشام للأزدى ١-٨، وانظر تاريخ دمشق لابن عساکر ٢/ ٦٣-٦٥.

وإننا حينما نتأمل في تفاصيل هذه المحاور نجد أن الصحابة رضي الله عنهم قد أجمعوا على موافقة أبي بكر في غزو الروم، وإنما تنوعت وجهات نظر بعضهم في كيفية هذا الغزو، كان رأى عمر إرسال الجيوش تلو الجيوش حتى تتجمع في الشام فتكون قوة كبيرة تستطيع أن تصمد للأعداء، وكان رأى عبدالرحمن بن عوف أن يبدأ الغزو بقوات صغيرة تغيّر على أطراف الشام ثم تعود إلى المدينة، حتى إذا تمّ إرهاب العدو وإضعافه تُبعث الجيوش الكبيرة.

ومن المعلوم أن أبا بكر قد أخذ برأى عمر في هذا الأمر، لكنه أيضاً قد استفاد من رأى عبدالرحمن بن عوف فيما يتعلق بطلب المدد بالجيوش من قبائل العرب وخاصة أهل اليمن.

وقد كان هناك خياران في كيفية إرسال الجيوش:

الأول: بعث جيش واحد ينطلق من المدينة تحت قيادة واحدة ويكون موكولاً إليه مهمة فتح الشام بجميع أقطاره، وهذا له محاسنه ومساوئه، فمن محاسنه أنه يدرأ الخطر عن الجيش الإسلامى فلن يغلب من قلة جيش جاوز العشرة آلاف.

ومن مساوئه ببطء الحركة وتأخر وصول الجيوش كلما تضاعف عددها وتأخر فتح البلاد إذا كان الجيش منوطاً به فتح جميع الأقاليم، كما أن من مساوئه إهدار طاقة بعض الجند فيما إذا كان جيش العدو غير مكافئ لهذا الجيش.

أما الخيار الثانى: فهو توزيع الجيش إلى عدة قيادات وتوجيهه إلى فتح عدة أقاليم، ومن محاسن ذلك سرعة السير والحركة، والسرعة في إنجاز فتح الأقاليم المتعددة والاستفادة من طاقة الجند الكاملة.

ومن مساوئه احتمال الهزيمة فيما إذا وجّه الأعداء لهذه الجيوش جيوشاً هي أكبر من طاقتها.

والتخطيط الحربى القيادى الذى سلكه أبو بكر يدل على أنه قد لاحظ كل هذه الاحتمالات، ففرق الجيش الإسلامى إلى أربعة جيوش، وعيّن لكل جيش إقليماً من أقاليم الشام، وجعل على قيادة هذه الجيوش كلاً من أبي عبيدة بن الجراح ووجهه إلى حمص، ويزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى دمشق، وشرحيل بن حسنة

ووجهه إلى الأردن، وعمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين، وبهذا يكون قد ضمن بإذن الله فتح أقاليم الشام في وقت متقارب، وهذا إنما يتم فيما إذا لم يوجه الروم حشوداً كبيرة لمقاومة الجيوش الإسلامية، ولقد لاحظ أبو بكر هذا الاحتمال فجعل القيادة العامة لأبي عبيدة فيما إذا اجتمعوا للقتال، وفي هذا إيحاء لهم جميعاً بأنه إذا اقتضت المصلحة أن يجتمعوا في قيادة موحدة.

وقد ذكر الأزدي في روايته السابقة كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى أهل اليمن:

بسم الله الرحمن الرحيم، من خليفة رسول الله - ﷺ - إلى من قرئ عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين، من أهل اليمن، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله لا إله إلا هو. أما بعد، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفاً وثقالاً، وقال: جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وعسكروا وخرجوا، وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم، وإلى إحدى الحسينين، إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة، فإن الله لم يرض من عباده بالقول دون العمل، ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق، ويقروا بحكم الكتاب، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، حفظ الله لكم دينكم، وهدى قلوبكم، وزكى أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين، والسلام عليكم.

وبعث هذا الكتاب مع أنس بن مالك<sup>(١)</sup>.

وقد كان لهذا الكتاب - على إيجازه - مفعول كبير، حيث أقبلت قبائل اليمن في أمداد كثيرة تكون منها مع الجيوش التي خرجت من المدينة جيش كبير في الشام، مما يدل على صلاح القيادة وإخلاصهم، ورغبة أفراد الأمة آنذاك في الخير وتنافسهم عليه.

(١) فتوح الشام للأزدي ٨، وانظر تاريخ دمشق ٢ / ٦٥.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه :

أتيت أهل اليمن جناحاً جناحاً، وقبيلةً قبيلةً، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر، وإذا فرغت من قراءته قلت: الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله .

«بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد: فإني رسول خليفة رسول الله ﷺ، ورسول المسلمين إليكم، ألا وإني قد تركتهم معسكرين، ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم، فعجلوا إلى إخوانكم، رحمة الله عليكم أيها المسلمون». قال: فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع مني هذا القول يحسن الردّ على، ويقول، نحن سائرون، وكأننا قد فعلنا<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام / ٩ .

## مسير يزيد بن أبي سفيان ووصية أبي بكر

كان أول الجيوش التي غادرت المدينة جيش يزيد بن أبي سفيان، ولقد أوصاه أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى تشتمل على حكم باهرة في مجالي الحرب والسلم، ومن ذكر هذه الوصية ابن الأثير في «كامله» حيث قال: وأمر -يعني أبو بكر- يزيد بن أبي سفيان على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه، فيهم سهيل بن عمرو في أمثاله من أهل مكة، وشيعة ماشيا، وأوصاه وغيره من الأمراء، فكان مما قال ليزيد: إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله.

وقد وليتك عمل خالد<sup>(١)</sup>، فيأيك وعبيبة الجاهلية<sup>(٢)</sup>، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جنك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها.

وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون به، ولا تزينهم فيروا خلك<sup>(٣)</sup> ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكري<sup>(٤)</sup> وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل شرك لعلايتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تحزن عن المشير خيرك فتؤى من قبل نفسك.

واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك، وبددهم في عسكري، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم

(١) يعني عمل خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى أبا بكر رضي الله عنهما فأعفاه.

(٢) يعني التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية.

(٣) يعني لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك. (٤) يعني ليروا قوة المسلمين.



بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تحف من عقوبة المستحق، ولا تلجج فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعا، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبين الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له .

قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاية الأمر<sup>(١)</sup> ويمكن أن نوجز فوائد هذه الوصية في النقاط التالية:

١- أن الولايات والمناصب ليست حقاً ثابتاً لأصحابها وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يعزلهم إذا أسأؤوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا، فيخل بمسئوليته ويعرض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع.

٢- أن تقوى الله عز وجل هي أهم عوامل النجاح في العمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه في باطنهم فحري بهم أن يتقوه في ظاهرهم، وبذلك يتجنب الوالي كل مظاهر الفساد والإفساد، التي تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التي لا تلتزم بتقوى الله تعالى .

٣- التحذير من التعصب للأباء والأجداد والأقوام، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفا للاستقامة، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهي الأخوة في الله تعالى .

(١) الكامل ٢/٢٧٦ .

٤- الإيجاز في الموعظة فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا، فيضيع المقصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغاً عن استيعاب ما يقول والاستفادة من مواعظه، وإن لم يكن بليغاً فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعي ما يقول المتكلم.

٥- إذا أصلح المسئول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجاً صالحاً للقدوة الحسنة فإن ذلك يكون سبباً في صلاح من هم تحت رعايته.

٦- الاهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهرًا ومخبرًا، مظهرًا من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومخبرًا من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة الكاملة يقام بها ذكر الله في الأرض، وتهذب السلوك، وتقوي القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعد ملاذاً للمسلم عند الشدائد.

٧- إكرام رسل العدو إذا قدموا، مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامي، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكرام إلى حد إطلاعهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغي إطلاعهم على قوة جيش المسلمين ليرهبوا بذلك أقوامهم.

٨- الاحتفاظ بالأسرار، وعدم التهاون بإفشائها، خاصة فيما يتعلق بأمر المسلمين العامة، فإن الحكيم يستطيع التصرف في الأمور وإن تغيرت وجوهها ما دام سره حبيسًا في ضميره، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

٩- إتقان المشورة أهم من النظر في نتائجها فإن المستشار وإن كان حصيف الرأي ثاقب الفكر فإنه لا يستطيع أن يفيد من استشارته حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فإذا أخفى المستشار بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

١٠- أن على القائد وكل مسئول أن يكون مخالطاً لمن ولي أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمرهم، وفي هذا أكبر العون له على تصور

مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسئول الذي يعيش في عزلة، ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رعيته، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء، وقد لا يكشفون له الأمور بكامل تفصيلاتها، وقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

١١- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة في مكامن الخطر، واختيار الحراس الأمناء من ذوي النباهة، وعدم وضع الثقة الكاملة بهم، بل لابد من الرقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم.

١٢- أن يسلك المسئول في عقاب المخالف مسلماً وسطاً، فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق، فإن ذلك يجزئه على مزيد من المخالفة، ويجري غيره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى، وينفلت الأمر، ولا يشتد في العقوبة فينفر الرعية، ويدفعهم إلى التسخط والتحزب، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان وبعد النظر والتروي بحيث تؤدي غرضها التربوي بدون إثارة ضجة، ولا دفع إلى النقد والتسخط.

١٣- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجري في حدود المسئولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتماماً بأمورهم فيزيد المحسن إحساناً ويقتصر المسيء عن الإساءة، ولكن بدون تجسس عليهم فإن ذلك يعد فضيحة لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذي يربط المسئول بأفراد رعيته، من المودة والإعجاب والشكر على الجميل، وهذا الخيط مادام قائماً فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التي تفسد المجتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التي تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة وهذه لها سلياتها المعروفة.

١٤- أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة، وإن سمع منهم ما يكره أحياناً من النقد والتوجيه، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع، وأن لا يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية فإن

هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير في الأمور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولي أمورهم.

١٥- أن يصدق القائد في لقاء الأعداء وأن لا يجبن، فإن جبنه يسري على جنده، فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفي غير الحرب أن يكون المسئول شجاعاً في مواجهة المواقف، وأن لا يضعف فيسري ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

١٦- أن يتجنب القائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها هذا في مجال الحرب، وفي مجالات السلم أن يتجنب المسئول أي استفادة ذنبوية من عمله لا تحل له شرعاً، مثل أخذ الهدايا التي يقصد بها دفعها الاستفادة من المسئول في مجانية الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول كما جاء في هذه الوصية يقرب من الفقر، ويدفع النصر.

ومن هذه الفوائد تبين لنا عظمة هذه الوصية التي أوصى بها أبو بكر رضي الله عنه أحد قواده، وهي تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم في تلافي الوقوع في المشكلات، وحلها إذا وقعت.

وإن هذه الوصية وأمثالها تسجل إضافة جديدة لمواقف أبي بكر المتعددة الأنواع، فإذا تأملت إدارته للحكم وجدت رجلاً بارعاً في أمور السياسة، وإذا رأيت توجيهه للقادة العسكريين تجد رجلاً بارعاً في شؤون الحرب، وكأنه مع القادة في الميادين، وإذا رأيت رحمته وتأليفه للقلوب رأيت رجلاً بارعاً في الدعوة إلى الله تعالى، فهو الرجل الرحيم بالمؤمنين، الرافع لشأن أهل البلاء والصدق منهم، الخبير بأهل الكفاءة والقدرة، القوي الحازم على أعداء الله من المنافقين والكافرين.

### قدوم مدد من خثعم:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر قدامة بن جابر عن سفيان، أن ابن ذي السهم الخثعمي قدم على أبي بكر- رضي الله عنه - من اليمن في جماعة من قومه، من خثعم، وهم دون الألف، وفوق تسعمائة، فقال ابن ذي

السهم لأبي بكر: إنا قد تركنا الديار والأموال والأصول، وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا، ونحن نريد جهاد المشركين، فماذا ترى لنا في أولادنا ونسائنا؟ أنخلفهم عندك ونمضي؟ فإذا جاء الله بالفتح بعثنا إليهم، فأقدمتهم علينا، أم ترى لنا أن نخرجهم معنا ونتوكل على ربنا؟

قال أبو بكر رضي الله عنه: سبحان الله، يا معشر المسلمين، هل سمعتم ممن سار من المسلمين إلى أرض الروم وأرض الشام ذكر عن الأولاد والنساء مثل ذكر أخي خثعم؟ أما إني أقسم لك يا أبا خثعم، أني لو سمعت هذا القول منكم والناس مجتمعون عندي قبل أن يشخصوا لأحببت أن أحتبس عيالاتهم عندي، وأسرحهم وليس معهم من النساء والأولاد ما يشغلهم ويهمهم حتى يفتح الله عليهم، ولكنه قد مضى عظم الناس وذراريهم، ولك بجماعة المسلمين أسوة، وأنا أرجو أن يدفع الله بعزته عن حرمة الإسلام وأهله، فسر في حفظ الله وكنفه، فإن بالشام أمراء، وجهناهم إليها، فأيهم أحببت أن تصحب فاصحب، قال: فسار حتى لحق يزيد بن أبي سفيان، فصحبه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام/ ٢٥-٢٦.

## مسير شرحبيل بن حسنة

حدد أبو بكر الصديق لمسير شرحبيل ثلاثة أيام بعد مسير يزيد بن أبي سفيان، فلما مضى اليوم الثالث ودع أبو بكر شرحبيل وقال له: يا شرحبيل ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان؟ قال: بلى، قال: فإني أوصيك بمثلها، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن ليزيد، أوصيك بالصلاة في وقتها، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل، وبعيادة المرضى، وبحضور الجنائز، وذكر الله كثيراً على كل حال. فقال شرحبيل: الله المستعان وما شاء الله أن يكون كان<sup>(١)</sup>.

فأما الصلاة على وقتها فهي بالنسبة للقادة والجنود من أعظم ما يعين على الانضباط والالتزام بالنظام، ومن كان حريصاً على أداء الصلوات الخمس في أول أوقاتها فإنه حريٌّ به أن يكون جاداً منظماً في أداء كل ما يكلف به من مهام على الوجه الأكمل. وعبادة المرضى وحضور الجنائز أداء لحق الجنود ومظهر من مظاهر الوفاء لإخوان لهم أدوا ما كلفوا به في حال قوتهم وصحتهم، فعبادة المريض مواساة، وإشعار له بأنه وإن توقف عطاؤه بعض الوقت فإن عطاءه السابق ليس محل الإهمال ولا النسيان من قاداته ولا من زملائه، وأن الأمل كبير في أن تعود إليه صحته فيعود فارس ميدانه في السلم والحرب، ولهذا شرع للعائد أن يدعو للمريض بقوله: اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً أو يمشي لك في صلاة<sup>(٢)</sup>.

وحضور الجنائز إشعار للمسلمين بأن حق المسلم لا ينتهي بانتهاء حياته، بل إن من حقه أن يشيعه إخوانه إلى قبره وأن يدعوا له.

أما الصبر على حر القتال حتى ينال المجاهدون إحدى الحسينيين: إما الظفر أو الشهادة فذلك من أبرز ما يجب على القائد أن يتحلى به من صفات ليكون بذلك قدوة صالحة لجنوده، والصبر من أبرز عوامل النصر.

وكذلك الإكثار من ذكر الله تعالى في جميع الأحوال لأنه هو مولى المؤمنين وناصرهم سبحانه.

(١) فتوح الشام للأزدي/١٥.

(٢) جاء هذا الدعاء في حديث عن رسول الله ﷺ أخرجه الإمامان أحمد وأبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، - مسند أحمد ١٧٢/٢، سنن أبي داود، الجنائز رقم ٣١٠٧ باب ١٢.

## مسير أبي عبيدة عامر بن الجراح

ولما أراد أبو بكر أن يبعث أبا عبيدة بن الجراح دعاه فودعه ثم قال له: اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له، ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج في أشرف الناس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين، وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة، والنية الحسنة، أحسن صحبة من صحبتك، وليكن الناس عندك في الحق سواء، واستعن بالله وكفى بالله معينا، وتوكل على الله، وكفى بالله وكيفا، اخرج من غد إن شاء الله<sup>(١)</sup>.

وهذه وصية غالية وقيمة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه بين فيها لأبي عبيدة رضي الله عنه منزلة جنوده الذين سيخرجون معه وأن فيهم وجوه المسلمين وساداتهم، وأوصاه بأن يحسن صحبتهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأن ينظر إلى الحق فيجعله ميزانا لمعاملة الناس، مع طلب العون من الله تعالى والتوكل عليه فإن تنفيذ الحق لا يتم إلا بذلك.

### ثناء وموعظة من معاذ لأبي بكر:

وكان معاذ بن جبل في جيش أبي عبيدة، فتقدم إلى أبي بكر الصديق فقال: يا خليفة رسول الله، إني قد كنت أردت أن يكون ما أريد أن أكلمك به بالمدينة قبل شخوصنا عنها، ثم بدا لي أن أؤخر ما أريد من ذلك حتى يكون عند وداعي، فيكون آخر ما أفارقك عليه كلامي إياك.

قال: فهات يا معاذ، فو الله ما علمتك إلا سديد القول، موفق الرأي، رشيد الأمر.

فأدنى راحلته منه، ومقود فرسه في يده، وهو متنكب القوس، متقلد السيف، فقال: إن الله بعث محمداً ﷺ برسالته إلى خلقه، فبلغ ما أحب الله أن يبلغ، وكان كما أحب ربه أن يكون فقبضه الله إليه، وهو محمود مبرور، صلوات الله عليه وبركاته ورضوانه إنه حميد مجيد، وجزاه عن أمته كأحسن ما جوزي النبيون [عليهم الصلاة والسلام].

(١) فتوح الشام للأزدي/١٧.

ثم إن الله استخلفك أيها الصديق على ملاء من المسلمين، ورضي منهم بك، فارتد مرتدون، وأرجف مرجفون، ورجعت راجعة عن هذا الدين، فأدهش بعضنا وحرار جُلُّنا، وأحبَّ المداهنة والموادعة طائفة منا، واجتمع رأي الملاء الأكبر منا أن يتمسكوا بدينهم، وأن يعبدوا الله حتى يأتيهم اليقين<sup>(١)</sup>، ويدعوا الناس وما ذهبوا فيه، فلم ترض منهم بشيء كان رسول الله ﷺ يرده عليهم<sup>(٢)</sup>، فنهضت بالمسلمين وشمرت للمجرمين، وشدت بالمطيع المقبل على العاصي المدبر، حتى أجاب إلى الحق من كان عائداً عنه، ورحل عن الباطل من كان مرتكراً فيه.

فلما تمت نعم الله عليك وعلى المسلمين بك في ذلك ندبت المسلمين إلى جهاد المشركين، وإلى الوجه الذي يضاعف الله لهم فيه الأجر ويعظم لهم فيه الفتح والغنم، فأمرك مبارك، ورأيك محمود رشيد، ونحن وصالحو المؤمنين نسأل الله المغفرة، والرحمة الواسعة، والقوة على العمل بطاعة الله في عافية، فإن هذا الذي تسمع من دعائي وثنائي ومقالتني لتزداد في فعل الخير رغبة، ولتحمد الله على النعمة، وأنا معيد القول على المؤمنين ليحمدوا الله على ما أبلاهم، واصطنع عندهم بولايتك عليهم.

ثم أخذ كل واحد منهما بيد صاحبه، فودعه، ودعا له، ثم تفرقا، وانصرف أبو بكر -رضي الله عنه-، ومضى ذلك الجيش<sup>(٣)</sup>.

#### موقف لخالد بن سعيد بن العاص:

أخرج أبو إسماعيل الأزدي من حديث سعيد بن العاص، أن رجلا من المسلمين قال لخالد بن سعيد بن العاص، وقد تهيأ للخروج مع أبي عبيدة بن الجراح: لو خرجت مع ابن عمك يزيد بن أبي سفيان كان أمثل من خروجك مع غيره.

فقال: ابن عمي أحب إلي من هذا في قرابته، وهذا أحب إلي من ابن عمي في دينه، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليي، وناصري على ابن عمي قبل اليوم، وأنا أشد استئناساً إليه، وأشد طمأنينة مني بغيره<sup>(٤)</sup>.

(١) أي الموت.

(٢) يعني لم تقر مانعي الزكاة التي ترد على فقرائهم.

(٣) فتوح الشام للأزدي / ١٩-٢٠.

(٤) فتوح الشام للأزدي / ٢١-٢٢.



وهذا موقف إيماني جليل من خالد بن سعيد بن العاص، حيث قدم رابطة الدين على رابطة النسب، ففضل أن يكون تابعاً للرجل الأتقى، والأقدم إسلاماً وجهاداً وإن كان بعيداً عنه في النسب، وهذا يدل على وعيه وقوة إيمانه.

### قدوم مدد من طيء:

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من حديث المحلل بن خليفة، أن ملكان بن زياد الطائي، أخا عدي بن حاتم لأمه، أتى أبا بكر رضي الله عنه في جماعة من قومه من طيء، نحو من ألف رجل، فقال له:

إنا أتيناك رغبة في الجهاد، وحرصاً على الخير، ونحن القوم الذين تعرف، الذين قاتلنا معك من ارتد منا، حتى أقرّوا بمعرفة ما كانوا ينكرون، وقاتلنا معك من ارتد منا حتى أسلموا طوعاً وكرهاً، فسرّحنا رحمك الله في آثار الناس، واختر لنا والياً صالحاً نكنّ معه.

وكان قدومهم على أبي بكر رضي الله عنه بعد مسير الأمراء كلهم إلى الشام، فقال له أبو بكر: قد اخترت لكم أفضل أمرائنا أميراً، وأقدم المهاجرين هجرة، الحق بأبي عبيدة، فقد رضيت لكم صحبتته، وحمدت لكم إليه<sup>(١)</sup>، فنعم الرفيق هو في السفر، ونعم الصاحب في الحضر.

قال: قلت لأبي بكر -رضي الله عنه- قد رضيت بخيرتك التي اخترت لي. قال أبو بكر: فاتبعه حتى تلحق به. فاتبعت حتى لحقته بالشام، فشهدت معه موطنه التي شهدها كلها. لم أغب عن يوم منها<sup>(٢)</sup>.

### وصيتان من أبي بكر لأبي عبيدة وقيس بن هبيرة:

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر يحيى بن هانئ بن عروة، أن أبا بكر رضي الله عنه كان أوصى عبيدة بن الجراح بقيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي، وقال له:

إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف، فارس من فرسان العرب، ليس بالمسلمين غناء عن رأيه ومشورته وبأسه في الحرب، فأدنه وألطفه وأره أنك غير مستغن عنه، ولا مستهين بأمره، فإنك تستخرج بذلك نصيحتته لك وجهده وجدّه على عدوك.

(١) هكذا جاءت، ولعلها ولايته.

(٢) فتوح الشام للأزدي/ ٢٤-٢٥.

قال: فدعا أبو بكر قيس بن هبيرة، فقال: إني بعثتك مع أبي عبيدة الأمين، الذي إذا ظلم لم يظلم، وإذا أسيء إليه غفر، وإذا قُطع وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، فلا تعصين له أمراً، ولا تخالفن له رأياً، فإنه لن يأمرك إلا بخير، وقد أمرته أن يسمع منك، فلا تأمره إلا بتقوى الله، فقد كنا نسمع أنك شريف ذو بأس، سيّد مجرب في زمان الجاهلية الجهلاء، إذ ليس فيهم إلا الإثم، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك في الإسلام على المشركين، وعلى من كفر بالله وعبد معه غيره، فقد جعل الله في ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل، والعزّ للمسلمين.

قال: فقال قيس بن هبيرة: إن بقيت وأبقاك الله فسيلغك عني من حيطتي على المسلم، وجهدي على الكافر ما تحب ويسرك ويرضيك، فقال له أبو بكر -رضي الله عنه- : افعل ذلك، رحمك الله.

قال: فلما بلغ أبا بكر مبارزة قيس بن هبيرة البطريقين بالجابية، وقتله إياهما قال: صدق قيس، وبرّ ووفى<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجد أبا بكر رضي الله عنه يشحذ الهمم، ويفجر الطاقات الكامنة في النفوس، فقيس بن هبيرة المرادي رجل عظيم في قومه في الجاهلية، وله سمعة عالية في الشجاعة والإقدام، فأراد أبو بكر -بهذا الثناء عليه- أن يستخرج منه أعلى ما يمكن من طاقة ليصرفها في حماية الإسلام والجهاد في سبيله.

ولاشك أن الثناء على العظماء النبلاء بذكر فضائلهم يرفع من معنويتهم، ويمنحهم قوة عالية تدفعهم إلى التضحية والفداء حتى لا يخيب ظن أهل الفضل فيهم، خاصة إذا صدر هذا الثناء من أعظم رجل في الإسلام آنذاك، بل أعظم رجل في العالم حيث أصبح ملوك الأرض وساداتها يحسبون لسيد المسلمين وأميرهم ألف حساب.

لقد فجر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بهذا الجهاد المبارك طاقات العرب، فظهرت شجاعة الشجعان، وحصافة رأي أهل الرأي الخطباء، وبلاغة الكتاب، ودقة تخطيط القادة، وقبل ذلك كله أمانة المسلمين وتقواهم.

(١) فتوح الشام للأزدي . ٢٦-٢٧ .

## سير الجيوش الإسلامية وموقف هرقل

سارت من المدينة ثلاثة جيوش إسلامية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيط بن حسنة رضي الله عنهم في العام الثاني عشر للهجرة في أوقات متقاربة، ولما وصلوا إلى جنوب الشام نزل أبو عبيدة في الجابية جنوب دمشق، ونزل شرحبيط في بصرى جنوب الجابية، ونزل يزيد في البلقاء جنوب بصرى، وقد تأخر عنهم عمرو بن العاص، ثم وصل إلى الشام ونزل جنوب فلسطين.

ومازال أبو بكر رضي الله عنه يمدّهم بالجنود كلما وفدت عليه وفود من العرب للجهاد حتى بلغت جنود المسلمين بالشام سبعة وعشرين ألفاً.

ومن هذه الإمدادات جيش بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ومعه ألف مجاهد، وجيش آخر بقيادة سعيد بن عامر بن حذيم ومعه سبعمائة<sup>(١)</sup>.

هذا وإن المتأمل ليتملكه العجب حينما يرى جيوش المسلمين موجهة بثقلها إلى حرب مع دولة الفرس العريقة التي تملك مشارق الأرض، ثم في الوقت نفسه يوجه الصديق أربعة جيوش لحرب الدولة العظمى، دولة الروم التي تملك مغارب الأرض، فيحارب المسلمون الدولتين العظيمين في وقت واحد.

وقد يقول قائل: أما كان الأولى أن يوحد المسلمون قوتهم نحو دولة الفرس حتى يقضوا عليها، ثم يتوجهون نحو دولة الروم؟ نعم، قد يخطر هذا التساؤل لكثيرين، ولكن حينما نتأمل فيما وقع من هذه الحروب نجد أن نسبة كبيرة من نصر المسلمين كانت بالرعب الذي ملأ الله تعالى به قلوب الأعداء، فأراح المسلمين من كثير من العناء في قتالهم.

وإنه حينما يرى الفرس أنهم إذا واجهوا بقواتهم الضخمة العريقة بعض قوة المسلمين يصيبهم الهلع، ويتصورون كيف يكون الموقف لو واجهوا المسلمين وهم بقواتهم الكاملة فيما لو سحبوها من الميدان الآخر، وكذلك الأمر بالنسبة للروم.

(١) فتوح الشام للأزدي/ ٣٠-٣١.

ثم إنه قد تسوّل للروم أنفسهم أن يغزوا دار الإسلام وقد عرّيت من القوة بسبب توجه الجيوش نحو دولة الفرس، وما أخبار غزوة تبوك ببعيدة، فقد كانت لتأديب أتباع الروم الذين هموا بغزو المدينة فغزاهم النبي ﷺ في عقر دارهم، ولاشك أن ذلك أبلغ في الرد على أعداء الإسلام من مدافعتهم بعد دخولهم دار المسلمين.

ولما علم هرقل بهذه الجيوش أشار على قومه بمصالحة المسلمين وعدم مقاومتهم، وألح في ذلك، ولكن كبراء قومه لم يكونوا في مستواه من الفهم والإدراك، فاغترروا بقوتهم وكثرة جندهم، ولجّوا معه في الجدل حتى وافقهم على ما أرادوا من القتال.

ولقد كان واثقاً بأنهم على الحق وأن نبيهم ﷺ هو النبي المنتظر، منذ أن بعث إليه كتاباً يدعو إلى الإسلام.

وكان هرقل عالماً بكتبهم الدينية فأرسل لما وصله الكتاب يطلب له جماعة من العرب ليسألهم عن النبي ﷺ فوجدوا أبا سفيان وصحباً له قدموا الشام للتجارة، فجاؤوا به إلى هرقل.

وقد أخرج الإمام البخاري خبره في حديث طويل جاء فيه «فقال- يعني هرقل- للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آباءه من ملك فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آباءه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حين يتم، وسألتك: أيرتدُّ أحد سُخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: . . بما يأمركم؟ فذكرت

أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

وقد جاء في نهاية الحديث أن هرقل جمع عظماء الروم في حمص في بيت ملكه وغلق عليهم الأبواب ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقاتلي أنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل<sup>(١)</sup>.

فلما غزت بلادة جيوش المسلمين داخله الرعب منهم وأيقن بزوال ملكه عن الأراضي التي سيطرونها، فأشار على قومه بمصالحتهم فلم يوافقهم كبراًؤهم، لما أراد الله تعالى من نصر دينه على يد أوليائه المجاهدين في سبيله، حيث تم بسبب جهادهم تحرير بلاد الشام من أيدي النصارى ودخول أكثر أهلها في الإسلام.

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر أبي سعيد المقري وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص قالاً: لما مضت جنود أبي بكر رضي الله عنه إلى الشام بلغ ذلك هرقل ملك الروم وهو بفلسطين، وقالوا له: قد أتتك العرب، وجمعت لك جموعاً عظيمة، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بعث إليهم قد أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد، وقد جاؤوك وهم لا يشكون أن هذا سيكون، وجاءوك مع ذلك بنسائهم وأولادهم تصديقاً لمقالة نبيهم ﷺ يقولون: لو دخلناها فتحناها، ونزلنا بنسائنا وأولادنا.

فقال لهم هرقل: فذلك أشدُّ لشوكتهم إذا قاتل القوم عن تصديق ويقين، وأشد على من يكابدهم أن يزيلهم عن رأيهم، أو يصددهم عن أمرهم.

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي، رقم ٧ (٣١/١).

قال: فجمع إليه أهل البلاد وأشرف الروم، ومن كان على دينه من العرب فقال: يا أهل هذا الدين، إن الله عز وجل قد كان إليكم محسنًا، وكان لدينكم هذا معزًا، وله ناصرًا على الأمم الخالية، وعلى كسرى والمجوس، وعلى الترك الذين لا يعلمون، وعلى من سواهم من الأمم كلها، وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم وسنة نبيكم، الذي كان أمره رشدًا وفعله هدى، فلما بدلتم وغيرتم أطمع ذلك فيكم قومًا، والله ما كنا نعتدّهم، ولا نخاف أن نُبتلى بهم، وقد ساروا إلينا حفاة عراة جياعًا، أخرجهم إلى بلادكم قحط المطر وجدوبة الأرض، وسوء الحال، فسيروا إليهم، فقاتلوهم عن دينكم، وعن بلادكم، وعن نسائكم وأولادكم، وأنا شاخص عنكم، وممدكم بالخيل والرجال حاجتكم، وقد أمرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا.

ثم خرج إلى دمشق فقام فيهم بمثل هذا المقام، وقال فيهم مثل هذا القول، ثم أتى حمص فقام فيهم هذا المقام، وقال فيهم مثل هذا القول، ثم خرج وأتى إلى أنطاكية فأقام بها، وبعث إلى الروم، فحشروهم إليه، فجاء منهم مالا يُحصي عددهم إلا الله، ونفر إليه مقاتلتهم ورجالهم وشبانهم وأتباعهم، وأعظموا دخول العرب عليهم، وخافوا أن يُسلَبوا ملكهم<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٧-٢٩.

## مكاتبات بين أبي بكر وبعض قاداته

كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر رضي الله عنهما يخبره بما بلغه مما جمع هرقل ملك الروم من الجموع .

وقد روى في ذلك محمد بن عبد الله الأزدي قال: حدثني أبو حفص الأزدي عن كتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى أبي بكر رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أبي بكر، خليفة رسول الله ﷺ من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإننا نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله عزاً متيناً، وأن يفتح لهم فتحاً يسيراً، فإنه بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام، تدعى أنطاكية، وأنه بعث إلى أهل مملكته، فحشرهم إليه، وأنهم نفرؤا إليه على الصعب والذلول<sup>(١)</sup>، وقد رأيت أن أعلمك ذلك، فترى فيه رأيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته، وجمعه لكم الجموع، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال، وقد علمت والحمد لله، قد غزاهم رجال كثير من المسلمين، يحبون الموت حبّ عدوهم الحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبنائهم وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فالفهم بجندك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين فإن الله معك، وأنا مع ذلك مُمدُّك بالرجال حتى تكثفي ولا تريد أن تزداد إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) يعني الخيل بأنواعها، ما يصعب قياده منها وما يسهل، والمراد وصف جيشهم بالكثرة.

وبعث بهذا الكتاب مع دارم العبسي .

وهذا كتاب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن ملك الروم هرقل لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب في قلبه، فتحمل فنزل أنطاكية، وخلف أمراء من جنده على مدائن الشام وأمرهم بقتالنا، وقد تيسروا لنا واستعدوا، وقد أخبرنا مسالمة الشام<sup>(١)</sup> أن هرقل استنفر أهل مملكته، وأنهم قد جاءوا يجرون الشوك والشجر، فمرنا بأمرك، وعجل علينا في ذلك برأيك نتبعه إن شاء الله، ونسأل الله النصر والصبر والفتح وعافية المسلمين، والسلام عليك ورحمة الله .

فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه تحوّل ملك الروم إلى أنطاكية، وأن الله ألقى الرعب في قلبه من جموع المسلمين، فإن الله - وله الحمد - قد نصرنا ونحن مع رسول الله ﷺ بالرعب، وأمدنا بملائكته الكرام، وإن ذلك الدين الذي نصرنا الله به بالرعب، هو هذا الدين الذي ندعو الناس إليه اليوم، فوَرَبك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين، ولا من يشهد أن لا إله إلا الله كمن يعبد معه آلهة آخرين، ويدين بعبادة آلهة شتى، فإذا لقيتموهم فانهذ إليهم بمن معك، وقاتلهم، فإن الله لن يخذلك، وقد نبأنا الله تبارك وتعالى أن الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، وأنا مع ذلك مُمدّدك بالرجال في إثر الرجال، حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله .

وبعث بهذا الكتاب مع عبد الله بن قرط الثمالي .

وقد كان أبو بكر قال له حين قدم عليه: أخبرني خبر الناس، قال له: المسلمون بخير، قد دخلوا أدنى الشام، وقد رعب أهلها منهم، وقد ذكر لنا أن الروم قد جمعت لنا جموعاً كثيرة جمّة، ولم يلقنا عدونا بعد، ونحن في كل يوم نتوقع لقاء العدو ونتوكّفه (أي نتنظره)، وإن نحن لم تأتنا جيوش من قبل هرقل فليست الشام بشيء .

---

(١) أي المسلمون من أهل الشام .



فقال له أبو بكر رضي الله عنه: اصدقني الخبر.

فقال له: وما لي لا أصدقك الخبر، ويحلّ لك الكذب: أو يصلح لمثلي أن يكذب مثلك؟ ولو كذبتك في هذا ألم أحن أمانتي وأحن ربّي، وأحنك وأحن المسلمين؟

فقال له أبو بكر - رضي الله عنه - : معاذ الله، لست من أولئك.

وكتب معه أبو بكر رضي الله عنه حينئذ بهذا الكتاب، ورده إلى يزيد، وقال له: أخبره، وأخبر المسلمين بأني مُمدُّ المسلمين مع هاشم بن عتبة، وسعيد بن عامر ابن حذيم.

فخرج عبد الله بن قرط بكتاب أبي بكر حتى قدم على يزيد، فقرأه على المسلمين، ففرحوا به وسُرُّوا<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام للأزدي/ ٣٠ - ٣٣.

## خروج هاشم بن عتبة إلى الشام

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من حديث أبي عبادة عن جده أن أبا بكر رضي الله عنه دعا هاشم بن عتبة فقال له: يا هاشم، إن من سعادة جدك، ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوها من المشركين، وممن يثق الوالي بنصيحته ووفائه وعفافه وبأسه، وقد بعث إليّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار، فسر إليهم فيمن تبعك، فإني نادب الناس معك، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة، أو يزيد.

قال: لا، بل على أبي عبيدة.

قال: فاقدم على أبي عبيدة.

قال: وقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد فإن إخوانكم من المسلمين معافون، مدفوع عنهم، مصنوع لهم، وقد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم منهم، وقد اعتصموا بحصونهم، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم، وقد جاءتني رسلهم يخبروني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام، وقد بعثوا إليّ يخبروني أنه قد وجه إليهم هرقل جنداً من مكانه ذلك، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم، يشدد الله بهم ظهورهم، ويكبت بهم عدوهم، ويلقي بهم الرعب في قلوبهم، فانتدبوا - رحمكم الله - مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واحتسبوا في ذلك الأجر والخير، فإنكم إن نصرتهم فهو الفتح والغنيمة، وإن تهلکوا فهي الشهادة والكرامة.

ثم انصرف أبو بكر رضي الله عنه إلى منزله، ومال الناس على هاشم حتى كثروا عليه، فلما أتموا ألقاً أمره أبو بكر أن يسير، فجاءه فسلم عليه

وودَّعه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: يا هاشم، إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته، وإن الله -عز وجل - قد جمع لك تلك الخصال كلها، وأنت حديث السن، مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر، واعلم أنك لا تخطو خطوة، ولا تنفق نفقة ولا يصيبك ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملاً صالحاً، إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

فقال هاشم: إن يرد الله بي خيراً يجعلني كذلك، وأنا أفعل، ولا قوة إلا بالله، وأنا أرجو إن أنا لم أُقتل أن أُقتل، ثم أُقتل إن شاء الله.

فقال له عمه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: يا ابن أخي، لا تطعن طعنة، ولا تضربن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله، واعلم أنك خارج من الدنيا رشيداً، وراجع إلى الله قريباً، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدم صدق قدمته، أو عمل صالح أسلفته.

فقال: أي عم، لا تخافن مني غير هذا، إنني إذا لمن الخاسرين، إن جعلت حلِّي وارتحالي، وغدوي ورواحي، وسيفي وطعني برمحي، وضربي بسيفي رياء للناس.

ثم خرج من عند أبي بكر رضي الله عنه فلزم طريق أبي عبيدة حتى قدم عليه، فتباشر بمقدمه المسلمون، وسرُّوا به<sup>(١)</sup>.

في هذا الخبر ثلاثة مواقف:

أولاً: موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما أثنى على هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بالجمع بين حكمة الشيوخ وشجاعة الشبان، حيث إن الثناء من الرجل الكبير القدر له أثره البالغ في شحذ الهمم واستخراج الطاقات العالية، كما سبق،

(١) فتوح الشام للأزدي / ٣٣ - ٣٥.

وهذا الثناء يُعدُّ وساماً عالياً يتحلى به هاشم بن عتبة، وقد أثبتت الأيام أنه أهل لهذا الثناء وذلك في مواقفه في حروب الشام والعراق.

ثانياً: موقف لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث خشي على ابن أخيه هاشم - وهو في سن الشباب - أن يداخله شيء من العُجب والرياء، فوعظه تلك الموعظة البليغة في الإخلاص.

ثالثاً: موقف لهاشم بن عتبة في جوابه لأبي بكر حيث تبين فهمه للتوحيد، وذلك ببيان أن التوفيق للهدى والخير بيد الله عز وجل، ولم يشغله عن هذا المعنى السامي حب الظهور والثناء على النفس.

\*\*\*\*\*

## خروج سعيد بن عامر بن حذيم إلى الشام

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من حديث أبي عبادة عن جده قال: وبلغ سعيد بن عامر بن حذيم أن أبا بكر - رضي الله عنه - يريد أن يبعثه، فلما أبطأ ذلك عليه، ومكث أياماً لا يذكر له أبو بكر شيئاً قال: يا أبا بكر، قد بلغني أنك أردت أن تبعثني في هذا الوجه، ثم رأيتك قد سكت، فما أدري ما بدا لك، فإن كنت تريد أن تبعث غيري فابعثني معه، فما أرضاني بذلك، وإن كنت لا تريد أن تبعث أحداً فإن لي رغبة في الجهاد، فأذن لي - رحمك الله - كيما ألحق بالمسلمين، فقد ذكر لي أن الروم قد جمعت لإخواننا جمعاً عظيماً.

فأمر أبو بكر بلالاً، فنادى في الناس: ألا انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر بن حذيم إلى الشام، فانتدب معه سبعمائة رجل في أيام يسيرة.

فلما أراد سعيد بن عامر الشخصوص بالناس أتى بلالاً أبا بكر. فقال: يا خليفة رسول الله، إن كنت إنما أعتقتني لأقيم معك، وتمنعني مما أرجو لنفسي فيه الخير أقمت معك، وإن كنت إنما أعتقتني لله لأملك نفسي، وأضطرب فيما ينفعني فخلّ سبيلي حتى أجاهد في سبيل ربي، فإن الجهاد أحب إليّ من المقام.

فقال له أبو بكر رضي الله عنه: وإن الله يشهد أنني لم أعتقك إلا له، وأنني لا أريد لك جزاءً ولا شكوراً، وإنني لا أحب أن تدع هواك لهواي ما دعاك هواك إلى طاعة ربي.

فقال له بلال: إن شئت أقمت.

فقال له أبو بكر: أما إذا كان هواك في الجهاد فلم أكن لأمرك بالمقام، إنما كنت أريدك للأذان، وإنني لأجد لفراقك وحشة يا بلال، فما بدّ من التفرق فرقة لا لقاء بعدها أبداً حتى يوم البعث، فاعمل صالحاً يا بلال يكن زادك من الدنيا، ويذكرك الله به ما حييت، ويحسن لك به الثواب إذا توفيت.

فقال له بلال: جزاك الله من وليّ نعمة وأخ في الإسلام خيراً، فوالله ما أمرك لنا بالصبر على طاعة الله والمداومة على الحق والعمل الصالح ببدع، وما أريد أن أوذّن لأحد بعد رسول الله ﷺ.

ثم خرج بلال مع سعيد بن عامر بن حذيم.

وأقبل سعيد على راحلته حتى وقف على أبي بكر رضي الله عنه وعنده المسلمون، فقال: «إنا نؤمُّ هذا الوجه فاجعله اللهم وجه بركة. اللهم فإن قضيتَ لنا التّقاء فاجمعنا على طاعتك، وإن قضيت علينا الفرقة فإلى رحمتك، والسلام»، ثم تولى وسار.

فقال أبو بكر - رضي الله عنه: عباد الله، ادعوا الله لأخيكم كما يصحبه الله ويسلمه، وارفعوا أيديكم - رحمكم الله - فرفعوا أيديهم، وهم أكثر من خمسين رجلاً.

فقال أبو بكر: ما رفع عدد من المسلمين أيديهم إلى ربهم يسألونه شيئاً إلا استجاب لهم، ما لم يدعوا بمعصية أو قطيعة رحم.

فبلغه ذلك بعد ما واقع أرض الشام، وقاتل العدو. فقال: رحم الله إخواني، ليّتهم لم يكونوا دعوا لي، قد كنت خرجت وأنا على الشهادة حريص وأنا أرجوها، فما هو إلا أن لقيت العدو فعصمني الله من الهزيمة والفرار، وتعرضت للشهادة فذهب من نفسي ما كنت أعرف من حبّ الشهادة، فلما بلغني أن إخواني دعوا لي بالسلامة علمت أنه قد استجيب لهم، وأني سالم.

وكان أبو بكر أمره أن يسير حتى يلحق بيزيد بن أبي سفيان، فسار حتى لحقه، فشهد معه وقعة العربة والدائنة<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر موقف لسعيد بن عامر بن حذيم، حيث ظهر منه الزهد في القيادة، وحب الجهاد والشهادة، فهمه الكبير أن يخرج للجهاد على أي وضع كان

(١) فتوح الشام للأزدي / ٣٥ - ٣٨، بتصرف.

جندياً أو قائداً، وبمثل هذا الرجل تنجح الأمم، لأنه يتوجه حيث وجهه، ويؤدي المهمة المنوطة به من غير نظر إلى شرف نفسه وحظها الدنيوي .

ولقد بلغ من حبه للشهادة أن تمنى أن أبا بكر وأصحابه لم يدعوا له بالسلامة، حيث استجاب الله تعالى دعوتهم فجاهد وسلم، مع تعرضه لمواطن الشهادة .

وموقف لبلال بن رباح رضي الله عنه حيث عصف به الشوق إلى الجهاد، فحاور أبا بكر رضي الله عنه تلك المحاوره الشيقه التي كانت نهايتها إذنه له بالخروج إلى الجهاد بعد ما بثه أشواقه التي غلبها حب الاثنين للجهاد في سبيل الله تعالى .

\*\*\*\*\*

## مسير حمزة بن مالك الهمداني إلى الشام

قال محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي، عن عمرو بن محصن عن حمزة بن مالك الهمداني، ثم العذري، أنه قدم في جمع عظيم من همدان على أبي بكر رضي الله عنه فقدموا، وهم أكثر من ألفي رجل، فلما رأى أبو بكر عددهم وجلدهم فرح بهم وسرّ بذلك، وقال: الحمد لله على صنيعه للمسلمين، ما يزال الله يتيح لهم مدداً من أنفسهم ما يشد به ظهورهم، ويقصم به عدوهم.

قال: ثم إن أبا بكر - رضي الله عنه - أمرنا أن نعسكر بالمدينة.  
قال: وكنت أختلف إلى أبي بكر غدوة وعشية، وعنده رجال من المهاجرين والأنصار.

قال: وكان يلفظني ويدني مجلسي منه، ويقول لي، تعلّم القرآن، وأسبغ الوضوء، وأحسن الركوع والسجود، وصلّ الصلاة لوقتها، وأدّ الزكاة المفروضة لحينها، وانصح المسلم، وفارق المشرك، واحضر الناس يوم البأس.  
فقلت: والله لأجهدن نفسي، ألا أدع شيئاً مما أمرتني به إلا عملته، وإني لأعلم أنك قد اجتهدت لي في النصيحة، وأبلغت في الموعظة.

قال: ثم إنه خرج إلى عسكرنا، فأمرنا أن نتيسر ونتجهز، ونشتري حوائجنا، ثم نعجل على أصحابنا.

قال: فتحششنا<sup>(١)</sup> لذلك، وعجلنا الجهاز، فلما فرغنا بعث إليّ، فقال: يا أبا همدان، إنك شريف رئيس بئس<sup>(٢)</sup>، ذو عشيرة، فأحضرهم البأس، ولا تؤذ بهم الناس.

(١) أسرنا.

(٢) أي شجاع.



قال: وكان معي رجال من أهل القرى، من همدان فيهم جهل وجفاء، فكان أهل المدينة قد تأذوا بأناس منهم، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فقال: أبو بكر رضي الله عنه:

نشدت الله امرءاً مسلماً، سمع نشدي لما كفَّ عن هؤلاء القوم، ومن رأى لي عليه حقاً فليحتمل ذرب<sup>(١)</sup> ألسنتهم، وعجلة يكرهها منهم ما لم يبلغ ذلك الحد، فإن الله مهلك هؤلاء أعداءنا، جموع هرقل والروم، وإنما هم إخوانكم، فإن كانت منهم عجلة على أحد منكم فليحتمل ذلك، ألم يكن ذلك أصوب في الرأي وخيراً في المعاد من أن ينتصر منهم؟  
قال المسلمون: بلى.

قال: فإنهم إخوانكم في الدين، وأنصاركم على الأعداء، ولهم عليكم حق، فاحتملوا ذلك لهم، ثم نزل<sup>(٢)</sup>، قال: ثم نظر إلى فقال: ما تنتظر؟ ارتحل على بركة الله. قال: فارتحلت.

قال: وقد قلت له قبل أن أرتحل، أعليّ أمير دونك.

قال: نعم، هناك ثلاثة قد أمرناهم، فأَيُّهم شئت فكن معه.

قال: فسرت حتى دخلت أداني الشام، فلما لحقت بالمسلمين سألتهم، أي الأمراء كان أفضل؟ وأيهم كان أفضل عند رسول الله ﷺ؟ فقالوا: أبو عبيدة بن الجراح.

فقلت في نفسي: لا والله لا أعدل بهذا الرجل أحداً، فجئت حتى أتيت أبا عبيدة، فدخلت عليه، ثم قصصت عليه قصة مخرجي ومقدمي على أبي بكر رضي الله عنه، وما كان من أمري، وأمر أصحابي بالمدينة، وبمقدمي عليه، واختياري إياه على غيره.

فقال: بارك الله في مقدمك وجهادك ومجيئك إلينا، وبارك الله لنا فيك وفيمن قدمت به علينا من المسلمين<sup>(٣)</sup>.

(٢) يعني من المنبر.

(١) أي حدثها وشدتها.

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٣٩ - ٤١.

في هذا الخبر موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في تأليف زعماء القبائل وملاطفتهم وتوجيههم نحو ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

وفي هذا الخبر لون من سمو تربية المجتمع المدني آنذاك من صحابة وتابعين، حيث كانوا يحتملون أذى بعض الوفود الذين لم يتلقوا تربية إسلامية كافية، ويرفعون أمر ما يلاقونه منهم إلى خليفة رسول الله ﷺ، ولم يُذكر أنه حصل نزاع بينهم مع كثرة الوفود التي وفدت على المدينة .

ولقد كان لأبي بكر الصديق موقف جليل في مناشدة الصحابة أن يحتملوا أذى إخوانهم، وأن ينظروا إلى مصلحة الإسلام والمسلمين قبل أن ينظروا إلى مصلحتهم، وذلك بتذكُّر الهدف الذي قدم من أجله أولئك العرب وهو الجهاد في سبيل الله تعالى .

\*\*\*\*\*

## موقعتا «العربة» و«الدائنة»

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر أبي أمامة الباهلي قال: كنت ممن سرّح أبو بكر رضي الله عنه مع أبي عبيدة في نفر من قومي، فأوصاني به وأوصاه بي قال: فكانت أول وقعة يوم العربة والدائنة وليس من الأيام العظام، فخرجت إلينا ستة قواد من الروم، مع كل قائد خمسمائة رجل فكانوا ثلاثة آلاف رجل.

فأقبلوا حتى انتهوا إلى العربة، فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه ذلك، فبعثني إليه في خمسمائة رجل، فلما أتيته بعث معي رجلاً في خمسمائة رجل، وأقبل يزيد في آثارنا في الصف.

فلما رأينا الروم حملنا عليهم فهزمناهم، وقتلنا قائداً من قوادهم، ثم مضوا واتبعناهم، فجمعوا لنا بالدائنة، فسرنا إليهم، فقدمني يزيد وصاحبي في عدتنا، فهزمناهم. فعند ذلك فزعوا واجتمعوا، وأمدّهم ملكهم<sup>(١)</sup>.

هاتان المعركتان هما أول لقاء حربي يتم بين المسلمين والروم في فتوح الشام، وقد ظهر فيهما دقة رصد المسلمين الحربي، حيث علم يزيد بن أبي سفيان بخروج أولئك القادة فأعدّ العدة لهم، بينما ظهر ضعف التخطيط الحربي عند الروم لأن هذا العدد الذي أخرجوه لا يمكن أن يقاوم جيشاً واحداً من جيوش المسلمين.

وحيث كانت هاتان المعركتان في فلسطين ولم يرد ذكر لعمر بن العاص الذي بعثه أبو بكر إلى فلسطين فإن تاريخهما قبل وصول جيشه.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٥٢.

## مسير عمرو بن العاص إلى الشام

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه أحد أمراء الجهاد في الشام، وقد تأخر مسيره عن الأمراء الثلاثة السابقين، وقد أمره أبو بكر رضي الله عنه أن يخرج من المدينة وأن يعسكر حتى يندب معه الناس.

وقد خرج معه عدد من أشرف قريش منهم الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل.

فلما أراد المسير خرج معه أبو بكر يشيعة وقال: يا عمرو إنك ذو رأي وتجربة بالأمر وبصر بالحرب، وقد خرجت مع أشرف قومك ورجال من صلحاء المسلمين وأنت قادم على إخوانك فلا تألهم نصيحة ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فرب رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور.

فقال له عمرو: ما أخلقتني أن أصدق ظنك، وأن لا أفيل رأيك<sup>(١)</sup>.

فسار عمرو نحو الشام، وكان يستنفر من مرَّ به من الأعراب فينفر معه ناس كثير، حتى كان جيشه نحواً من ألفي رجل، فقدموا على أبي عبيدة رضي الله عنه فسرَّ بهم واستأنس بهم ومن معه من المسلمين.

وكان عمرو ذا رأي في الحرب وبصر بالأشياء، فقال أبو عبيدة لعمرو: يا عمرو لرب يوم لك قد شهدته فبورك فيه للمسلمين برأيك ومحضرك، وإنما أنا رجل منكم ولست - وإن كنت الوالي عليكم - بقاطع أمراً دونكم، فأحضرني رأيك في كل يوم بما ترى فإنه ليس بي عنك غنى.

قال: أفعل، والله يوفئك لما يصلح المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وهذا مثل من أمثلة تواضع الصحابة رضي الله عنهم وتجردهم من حظ النفوس واهتمامهم بمصالح الإسلام والمسلمين.

\*\*\*\*\*

(٢) فتوح الشام للأزدي/ ٤٨ - ٥١ باختصار.

(١) أي أن لا أخطئ رأيك في.

## توجيه خالد بن الوليد إلى الشام

ظلت جيوش المسلمين في الشام بغير قتال بقية العام الثاني عشر إلا ما كان بين جيش يزيد بن أبي سفيان وجيش للروم في فلسطين كما تقدم في معركتي العربة والدائنة، وكذلك ما كان بين جيش أبي عبيدة والروم الذين خرجوا من عمّان، وكان النصر في كل ذلك حليف المسلمين<sup>(١)</sup>.

ودخل العام الثالث عشر والمسلمون في الشام على حالهم، والروم جادّون في تجهيز الجيوش لقتالهم، ولم يرض أبو بكر عن بقاء الجيوش الإسلامية طوال هذه المدة من غير أن يقوموا بأعمال حربية كبيرة، وعلم بثاقب بصره أن وضع المسلمين هناك لا يحتاج فقط إلى إمدادهم بالجيوش، وإنما يحتاجون إلى قائد حربي له مهارته القيادية وخبرته الحربية، ولمع في ذهنه قانع المرتدين وفتح العراق خالد بن الوليد، فقال بلغة الواثق المستبشر: والله لأنسین الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. فبعث إليه وهو بالعراق يأمره بالمسير إلى الشام<sup>(٢)</sup>.

لقد طال انتظار أبي بكر للمعارك الحاسمة في الشام، ولقد كان شديد الاهتمام بأمر الجيوش الإسلامية هناك، حيث إن الروم يقاتلون وهم بأرضهم، ولذا فإنهم يستطيعون إحضار المدد في أي وقت، بينما لا يستطيع المسلمون ذلك بسرعة، فطول الوقت ليس في صالح المسلمين.

ولقد كانت براعة خالد في اغتنام الفرص، واقتناص مواطن الضعف من الأعداء، والمقدرة الفائقة على إرباكهم وإرهابهم على الدوام، والسرعة في حسم المواقف. . كان ذلك كله مشار إعجاب أبي بكر وإكباره، فلما طال عليه أمر الجيوش الإسلامية في الشام قال كلمته هذه، وغلب على ظنه أنه هو الذي سيحسم الموقف مع الروم في الشام.

ولاريب في أن أخبار انتصاراته السريعة الفائقة في العراق قد طرقت مسامع الروم، فأثارت الرعب لديهم وجعلتهم يترثون كثيراً في مواجهة المسلمين، فمن المناسب جداً أن يرميهم أبو بكر بمن أدهشهم بأخباره وأطار صوابهم.

(١) فتوح الشام للأزدي/ ٢٩.

(٢) تاريخ الطبري ٤٠٨/٣.

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة، والسلام عليك.

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإنني قد وليت خالداً قتال الروم بالشام، فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره، فإنني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد، والسلام عليك ورحمة الله.

وقدم خالد أمامه كتاباً إلى أهل الشام في مسيره إليهم، كما روى محمد بن عبد الله الأزدي عن عبد الله بن قُرط الثمالي قال: لما خرج خالد من عين التمر مقبلاً إلى الشام كتب إلى المسلمين بالشام مع عمرو بن الطفيل بن عمرو الأزدي، وهو ابن ذي النور:

بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى من بأرض العرب<sup>(١)</sup> من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإنني أحمد إليكم الله، الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنني أسأل الله الذي أعزنا بالإسلام، وشرفنا بدينه، وأكرمنا بنبيه محمد ﷺ، وفضلنا بالإيمان، رحمة من ربنا لنا واسعة، ونعمة منه علينا سابغة، أن يتم ما بنا وبكم من نعمته، واحمدوا الله - عباد الله - يزدكم، وارغبوا إليه في تمام العافية يدمها لكم، وكونوا له على نعمه من الشاكرين.

وإن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني يأمرني بالسير إليكم، وقد شممت وانكشمت وكان خيلي قد أطلت عليكم في رجال، فأبشروا بإنجاز موعود الله، وحسن ثوابه عصمنا الله وإياكم بالإيمان، وثبتنا وإياكم على الإسلام، ورزقنا وإياكم حسن ثواب المجاهدين، والسلام عليكم.

(١) هكذا جاءت الرواية والظاهر أن الصواب بأرض الشام.

وكتب معه إلى أبي عبيدة:

بسم الله الرحمن الرحيم، لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف، والعصمة في دار الدنيا، لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ، يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالمقام على جندها، والتولي لأمرها، ووالله ما طلبتُ ذلك ولا أردته، ولا كتبت إليه فيه، وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها، لا يعصى أمرك، ولا يخالف رأيك، ولا يُقطع أمر دونك، فأنت سيد من سادات المسلمين، لا ينكر فضلك، ولا يستغنى عن رأيك، تَمَّ الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله.

قال: فلما قدم عليهم عمرو بن الطفيل، وقرأ عليهم كتاب خالد بن الوليد، وهم بالجابية، ودفع إلى أبي عبيدة كتابه، فلما قرأه قال: بارك الله لخليفة رسول الله ﷺ فيما رأى، وحيا الله خالدًا بالسلام<sup>(١)</sup>.

ألا وإن هذا التصرف العالي من هذين العملاقين ليكشف لنا عن الأخلاق السامية التي كان يتصف بها صحابة رسول الله ﷺ، فإن خالدًا لم يأخذه الأشر والبطر أن كان فاتح العراق وقد أنيطت به مسئولية فتح الشام مع وجود أربعة من القواد قد وزعت عليهم المسئولية قبل ذلك، فمع هذه الثقة البالغة من أمير المؤمنين والشرف الكبير الذي تُوجَّح به فإنه يعترف بالفضل لأهله، ويعلن طاعته لأبي عبيدة ابن الجراح الذي ولي الأمر من بعده، وفي مقابل ذلك نجد أبا عبيدة يبارك هذا الأمر ويحيي خالدًا، وهذا يدل على اتصاف هذين الصحابين الجليلين بنبيل المقاصد، والتجرد من حظ النفس، وإيثار مصلحة المسلمين العامة.

\*\*\*\*\*

(١) فتوح الشام / ٦٨ - ٧٢.

## مسير خالد بن الوليد إلى الشام

ما أن شعر خالد بهذه المسئولية حتى أهتم شأن السفر إلى الشام، فجمع الأدلاء وقال لهم: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين، فكلهم قالوا: لا نعرف إلا طريقاً واحداً لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ الراكب فإياك أن تُغرَّر بالمسلمين<sup>(١)</sup>.

وكان هناك طريقان إلى الشام، أحدهما يأخذ إلى الشمال الغربي، ثم ينحرف غرباً، ثم يتجه إلى دمشق جنوباً، والآخر يذهب إلى الجنوب الغربي، ثم يتجه غرباً إلى دومة الجندل ثم يتجه إلى الشام جهة الشمال الغربي، وكان خالد يهيمه أن يصل إلى الشام بسرعة، ومن طريق لا يمر على ممالك الروم وجيوشهم حتى لا يعوقه الاصطدام بهم عن بلوغ هدفه بسرعة، والطريقان المذكوران بعيدان، والأول منهما مع بعده يمر على الجزيرة، وهي من ممالك الروم.

وهناك طريق ثالث وهو الطريق الصحراوي الذي ذكره الأدلاء وفيه مفازة مهلكة ما بين «قراقر» إلى «سوى».

وقد جاء في رواية عند الطبري عن ابن إسحاق عن صالح بن كيسان أنه قال في سياق روايته: ثم أراد - يعني خالد - السير مفوّزاً من قراقر وهو ماء لكلب إلى سوى وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال، فلم يهتد خالد الطريق، فالتمس دليلاً، فدلَّ على رافع بن عميرة الطائي فقال له خالد: انطلق بالناس، فقال له رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيال والأثقال، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغرراً، إنها لخمس ليال جياذ لا يُصاب فيها ماء مع مضلتها، فقال له خالد: ويحك إنه والله إن لي بُدُّ من ذلك إنه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك فمرُّ بأمرك.

قال: استكثروا من الماء، من استطاع منكم أن يصير أذن ناقته على ماء فليفعل، فإنها المهالك إلا ما دفع الله، ابغني عشرين جزوراً عظاماً سماناً مساناً، فأتاه بهن خالد، فعمد إليهن رافع فظمأهن حتى إذا أجهدهن عطشاً أوردهن فشربن، حتى

(١) تاريخ الطبري ٤٠٨/٣.



إذا تملأن عمد إليهم فقطع مشافرهن ثم كعمهن لثلا يجتررن، ثم أخلى أدبارهن - وذلك ليحفظن الماء في بطونهن - .

وفي رواية أخرى للطبري عن عدد من الشيوخ أن خالدًا أمر صاحب كل خيل بقدر ما يسقيها، فظمًا كل قائد من الإبل الشرف الجلال ما يكتفي به، ثم سقوها العلل بعد النهل، ثم صرروا آذان الإبل وكعموها وخلوا أدبارها، ثم ركبوا من قراقر مفوزين إلى سوى وهي على جانبها الآخر مما يلي الشام، فلما ساروا يومًا افتظوا لكل عدة من الخيل عشرًا من تلك الإبل فمزجوا ما في كروشها بما كان من الألبان ثم سقوا الخيل<sup>(١)</sup>.

وهذا هو الظاهر لأن عشرين من الإبل لا يكفي ما في بطونها لجميع الخيل، وتحمل رواية ابن إسحاق على أن العشرين خيل خالد خاصة.

قال ابن إسحاق في سياق روايته: ثم قال لخالد: سر، فسار خالد معه مُعذًا بالخيول والأثقال، فكلما نزل منزلاً افتظَّ أربعًا من تلك الشوارف<sup>(٢)</sup> فأخذ ما في أكراشها فسقاه الخيل، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء، فلما خشى خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة - وهو أرمذ - : ويحك يا رافع ما عندك؟ قال: أدركت الرِّيَّ إن شاء الله، فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها، قال: إنا لله وإنه إليه راجعون، هلكتم والله إذاً وهلكت، لا أبا لكم انظروا، فطلبوا فوجدوها قد قطعت، وبقيت منها بقية، فلما رآها المسلمون كبروا، وكبر رافع بن عميرة، ثم قال: احفروا في أصلها، فحفروا فاستخرجوا عينا، فشربوا حتى روي الناس، فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل.

فقال رافع: والله ما وردت هذا الماء قط، إلا مرة واحدة، وردته مع أبي وأنا غلام، فقال شاعر من المسلمين:

لله عينا رافع أتى اهتدى      فوز من قراقر إلى سوى  
خمسًا إذا ما سارها الجيش بكى      ما سارها قبلك إنسي يرى<sup>(٣)</sup>

(١) تاريخ الطبري ٤٠٨/٣ .

(٢) يعني نحر تلك الإبل الكبيرة وعصر ما في بطونها من الماء .

(٣) تاريخ الطبري ٤١٥/٣ .

هذا وإننا أمام هذه المغامرة الجريئة التي قام بها خالد لنقف معجبين مندهشين، فإن المتأمل إذا نظر فيما قام به خالد من المخاطرة بجيش لا يقل عن تسعة آلاف قد يحكم على عمله هذا بأنه تهوُّر، ودخول في تهلكة، إذ أن هناك احتمال أن لا يجدوا الماء فيهلكوا جميعاً، فما الحكم شرعاً في هذا العمل الذي أقدم عليه خالد؟ الواقع أن الإقدام على عمل كهذا لا يجوز إلا إذا كان وراءه هدف من الأهداف العالية التي تهون من أجلها الحياة، وخالد قد انتدب من قبل الخليفة لإغاثة جيش المسلمين بالشام الذي كان مواجهاً لعدو عظيم البأس كثير العدد، فهو يريد الوصول لأداء هذه المهمة مهما كلفه ذلك من تضحيات، واحتمال وقوع الهلاك قد ألغاه خالد من تفكيره بإيمانه الراسخ وبقينه الصادق بنصر الله تعالى وإمداده أولياءه المؤمنين إذا صدقوا في التجائبهم إليه.

ومما يدل على استحضر خالد لهذا المعنى السامي قوله لأفراد جيشه: لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله له فقالوا له: أنت رجل لك الخير فشانك، فطابقوه ونووا واحتسبوا واشتهوا مثل الذي اشتهى خالد<sup>(١)</sup>.

فدخول خالد في هذه المغامرة لا يعد تهوراً ولا إلقاء في التهلكة، وإذا كان هناك احتمال وقوع الهلاك فليس بأقوى من احتمال ذلك في وقوف المسلم أمام الأعداء في الميدان، ولكن لما كان الهدف من قتال الأعداء هو إعلاء كلمة الله تعالى كان الدخول في سبيل الهلاك مطلباً شرعياً.

وكذلك السير في نجدة المسلمين يعدُّ من الجهاد في سبيل الله تعالى، فلو هلك الجند وهم في هذا السبيل كانوا من الشهداء.

أما لو فرضنا أن رجالاً غامروا بحياتهم في سبيل مطلب دنيوي فإنهم يكونون آثمين لو فقدوا حياتهم في هذا السبيل، ومن هنا نعلم الفرق الواضح بين هدف خالد من هذه المغامرة وبين أهداف أهل الدنيا، وعلى قدر سمو الهدف تكون التضحيات.

---

(١) تاريخ الطبري ٤٠٩/٣.

## حروب خالد في مسيره إلى الشام

لم تكن رحلة خالد بن الوليد رضي الله عنه مجرد عبور إلى الشام، بل قد قام بإخضاع القبائل والقرى التي مر بها.

ومن ذلك مارواه أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قُرط قال: ومرّ بتدمر، فتحصنوا منه، فأحاط بهم من كل جانب، وأخذهم بكل مأخذ، فلم يقدر عليهم، فارتحل عنهم.

فاجتمع عظماءهم فقالوا: إنا لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم هم الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا، فافتحوا لهم وصالحوهم. فبعثوا إلى خالد ابن الوليد، ففتحوا له، وصالحوه.

وكان قد قال لهم حين ارتحل عنهم: والله لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم، ولظهرنا عليكم، وما جئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحنونها علينا، وإن أنتم لم تصالحوني هذه المرة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهي هذا، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مقاتلتكم وأسبي ذراريكم.

ثم ارتحل فمضى فبعثوا إليه فرجع إليهم ففتحوا له وصالحوه<sup>(١)</sup>.

هذا وإن في هذا النص لثلا عاليًا لحسن الظن بالله تعالى والثقة بنصره، حيث أقسم خالد بالله تعالى على بلوغ الهدف من نصر دين الله تعالى والظفر بالأعداء حتى لو تحصنوا بالسحاب.

ولقد أثرت هذه الكلمات القوية المشتملة على الوعيد الصارم، والثقة البالغة في بلوغ الأهداف. . أثرت على الأعداء فتذكروا ما كانوا يعلمونه من الكتب السماوية عن القوم الذين يُظهرهم الله عليهم، فجزموا بأنهم هم هؤلاء القوم ففتحوا لهم مدينتهم وصالحوهم.

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر سراقه بن عبد الأعلى ابن سراقه الأزدي قال: مرّ خالد في طريقه تلك على حوآرين، فخافوه وهابوه

(١) فتوح الشام / ٧٧ - ٧٨ .

وتحرّز أكثرهم منه، وتحصّنوا فأغار عليهم، فاستتقوا الأموال وقتل الرجال، وأقام عليهم أياماً، فبعثوا إلى من حولهم ليمدوهم، فأمدوهم من مكانين اثنين، جاءهم من بعلبك مدد وهي أرض دمشق، ومن قبل بصرى وهي مدينة حوران ومن أرض دمشق أيضاً.

فلما رأى خالد المددين قد أقبلوا خرج فصف الناس، ثم تجرّد في مائتي فارس فحمل على أهل بعلبك، وإنهم لأكثر من ألفي رجل، فقصف بعضهم على بعض، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وما وقفوا له ساعة حتى انهزموا ودخلوا المدينة. ثم انطلق يركض في أصحابه وجيئاً<sup>(١)</sup>، حتى إذا كان بحذاء أهل بصرى، وإنهم لأكثر من ألفين استعرضهم، ثم حمل عليهم، فما ثبتوا له فواقاً<sup>(٢)</sup> حتى هزمهم، فدخلوا المدينة، وخرج أهل المدينة، فرموا المسلمين بالنشاب<sup>(٣)</sup>، فحمل عليهم خالد بن الوليد، فأحجزهم في المدينة، وانهزموا.

وانصرف عنهم خالد يومئذ، فلما كان الغد خرج أهل المدينة ليقاتلوه، فشدّ عليهم خالد، فهزمهم، فلما رأوا أنهم قد عجزوا عنه، وأنهم لا طاقة لهم به صالحوه.

قال عمرو بن محصن، حدثني عالج من أهل حوارين، وكان من شجعانهم وأشدّائهم، فقال: والله لخرجنا إلى خالد بعد ما جاءنا مدد بعلبك وأهل بصرى بيوم، فخرجنا إليه، وإننا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم<sup>(٤)</sup>، قال: فما هو إلا أن دنونا منهم، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسود، فهزمونا أقبح هزيمة، وقتلونا أشد القتل، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم، وقد رأيت منا رجلاً كئناً نعدّه بألف رجل، وكان يقول، لئن رأيت أميرهم لأقتلنّه، فلما رأى خالداً قال له أصحابه، هذا خالد أمير القوم، قال: فحمل عليه العالج، وإننا لنرجو لبأسه وشدته أن يقتله، فما هو إلا أن دنا منه، فضرب خالد فرسه، فقدمه عليه.

(١) الوجيف نوع من السير السريع.

(٢) الفواق: النبال.

(٣) النشاب: النبال.

(٤) لعل الذين واجهوهم سرية انتخبها خالد من شجعان جيشه، إذ يبعد أن يصل عدد أعدائهم إلى تسعين ألفاً.

وكان خالد رضي الله عنه إذا كان عند الحرب فكأنه يربو ويعظم ويهول من ينظر إليه، فاستقبل العليج، فاستعرض وجهه بالسيف، فضربه، فأطار نصف وجهه وقحف رأسه، فقتله.

قال: وانهزمتنا أقبح هزيمة حتى دخلنا مدينتنا، فما كان لنا همٌّ إلا الصلح، حتى صالحناهم<sup>(١)</sup>.

وهذا وصف بليغ لشجاعة فرسان المسلمين في ذلك الزمن، وتنويه بشجاعة خالد بن الوليد خاصة، ومقدرته الفائقة على إرهاب الأعداء وملء صدورهم بالرعب.

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر قيس بن أبي حازم قال: كنت مع خالد بن الوليد حين مرّ بالشام، فأقبل حتى نزل ببُصرى من أرض حوران، وهي مدينتها، فلما اطمأننا ونزلنا خرج إلينا الدرنجار<sup>(٢)</sup> في خمسة آلاف من الروم، فأقبل إلينا وما يظن هو وأصحابه إلا أنا في أكفهم، فخرج خالد، فصفتنا، ثم جعل على ميممتنا رافع بن عمرو الطائي، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، وقسم خيله فجعل على شطرها المسيب بن نجية، وعلى الشطر الآخر رجلاً كان من بكر بن وائل - ولم يُسمه - فظننت أنه مذعور بن عدي العجلي، وكان قد توجه من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد، ثم صار بعد ذلك إلى مصر، فداره بها اليوم معروفة.

قال: فأمرهما خالد حين قسم الخيل بينهما أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وشمال، ثم ينصبان على القوم. قال: فانطلقا، ففعلا ذلك.

قال: ثم أمر خالد من معه أن يرجعوا إلى القلب، فرجعنا إليهم، والله ما نحن إلا ثمانمائة رجل وخمسون رجلاً، وأربعمائة رجل من مشجعة من قضاة، فكنا ألف رجل ومائتي رجل ونيفاً<sup>(٣)</sup>.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٧٨ - ٨٠. (٢) الدرنجار قائد جيش الروم، وهو لقب لمن يقود خمسة آلاف.

(٣) يعني الذين في القلب.

وكنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء، لأنه كان لا يملأ صدره منهم بشيء، ولا يبالي من لقي منهم، لجرأته عليهم، وشدّته ونجدته، ثم دنونا منهم فبدؤونا بالحملة علينا، فشدوا علينا شدتين، فلم نبرح موافقنا.

ثم إن خالدًا نادى بصوت جهوريّ شديد عال، فقال: يا أهل الإسلام، الشدّة، الشدّة، احملوا -رحمكم الله- عليهم، فإنكم إن قاتلتموهم محتسبين تريدون بذلك وجه الله فليس لهم أن يواقفوكم ساعة، ثم إن خالدًا شدّ عليهم، وشددنا معه، فو الله الذي لا إله إلا هو ما ثبتوا لنا فواقًا حتى انهزموا، فقتلنا منهم في المعركة مقتلة عظيمة، ثم اتبعناهم نكردهم<sup>(١)</sup> ونقتلهم، ونصيب الطرف منهم، ونقطعهم عن أصحابهم، ثم نقتلهم.

فلم نزل كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بصرى، وهي مدينة حوران، فأغلقوا أبوابها، وتحصّنا منا، ثم أخرجوا إلينا الأسواق وصالحونا.

قال: وخرج خالد من فوره، فأغار على ناس من غسان، في جانب مرج راهط، فقتل منهم وسبى وصالحنا عامتهم، وأسلموا<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قام خالد بهذه الحروب الخاطفة التي أذهلت الأعداء وأرعبتهم، وأطارت لخالد سمعة حربية مرعبة، مع ما سبق له من سمعة عالية في هذا المجال.

وفي هذا الخبر وصف بليغ لشجاعة خالد الفذة وإقدامه الشديد، حيث كان لا يكثر بمن يواجههم وإن كانوا أضعاف جيشه.

\*\*\*\*\*

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٨١-٨٢

(١) أي نظردهم

## معركة أجنادين

كان الروم قد بعثوا جيشاً كبيراً قوامه سبعون ألفاً ورابط في «جلق» بأعلى فلسطين بقيادة «تذارق»، ولما تم فتح بصرى على يد المسلمين أراد الروم أن يصنعوا شيئاً ضدهم، وقد حاولوا اغتنام فرصة تفرق جيوشهم، حيث إن عمرو بن العاص لا يزال جنوب فلسطين في ثلاثة آلاف، ويزيد بن أبي سفيان في البلقاء في سبعة آلاف، وشرحبيل في بصرى في سبعة آلاف، أما خالد وأبو عبيدة فقد اتحد جيشهما وكان مع أبي عبيدة سبعة آلاف وقدم خالد بتسعة آلاف، وقد توجهوا نحو دمشق بعد أن تم فتح بصرى.

هذا التفرق لم يكن في صالح المسلمين، ولذلك كان تخطيط الروم أن يزحف «تذارق» بجيشه إلى جنوب فلسطين ليسحق جيش عمرو بن العاص، وما ثلاثة آلاف في مقابل سبعين ألفاً، وأن ينطلق «وردان» من حمص بجيشه ليواجه شرحبيل بن حسنة ويسترد بصرى.

وبينما كان خالد وأبو عبيدة على مشارف دمشق لحصارها جاءت الأخبار بتحريك جيشي الروم، وكان المسلمون آنذاك على درجة عالية في التيقظ والرصد الحربي.

يقول محمد بن عبد الله الأزدي فيما رواه عن يزيد بن يزيد بن جابر: وجاء أبو عبيدة بن الجراح من قبل الجابية حتى نزل باب الجابية، ثم شن الغارات في الغوطة، وعلى غير الغوطة، فبينما هما كذلك إذ أتاهما وردان صاحب حمص في جمع عظيم من الروم، وهو يريد أن يقطع شرحبيل بن حسنة وهو ببصرى.

قال: وأتى خالدًا وأبا عبيدة أن جموعًا من الروم قد نزلت أجنادين وأن أهل البلد ونصارى العرب قد سارعوا إليهم، وجاءهما خبر أفضعهما وهما مقيمان على قوم، وهما يقاتلانهم، فالتقيا فتشاورا في ذلك فقال أبو عبيدة لخالد: أرى أن نسير حتى نقدم على شرحبيل بن حسنة قبل أن ينتهي إليه العدو، الذين قد صمدوا صمده، فإذا اجتمعنا سرنا جميعاً حتى نلقاه.

فقال له خالد: إن جمع الروم ها هنا بأجنادين، وإن نحن سرنا إلي شرحبيل ابن حسنة تبعنا عدونا هؤلاء من قريب، ولكنني أرى أن نصمد صمدًا عظيمهم، وأن نبعث إلى شرحبيل بن حسنة فنحذره مسير العدو إليه، ونأمره أن يوافينا بأجنادين، ونبعث إلى يزيد بن أبي سفيان، فنحذره مسير العدو إليه، ونأمره أن يوافينا بأجنادين، ونبعث إلى عمرو بن العاص، فيوافينا بأجنادين، ثم نناهض عدونا بأجمعنا.

فقال أبو عبيدة: هذا رأي حسن، فأمضه على بركة الله، ونسأل الله بركته<sup>(١)</sup>.

وأخرج أبو إسماعيل الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعد قال: وكان خالد مبارك الولاية، ميمون النقيية مجربًا بصيرًا بالحرب، مظفرًا، وكان مما صنع الله للمسلمين في ذلك<sup>(٢)</sup>، فوكي أمر الناس، فلما أراد الشخصوص من أرض دمشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأجنادين كتب نسخة واحدة إلى الأمراء:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإنه نزل بأجنادين جموع من جموع الروم غير ذوي عدد ولا قوة، والله قاصمهم وقاطع دابرهم، وجاعل دائرة السوء عليهم، وقد شخصت إليهم يوم سرحت رسولي إليكم، فإذا قدم عليكم فانهبوا إلى عدوكم - رحمكم الله - في أحسن عدتكم، وأصح نيتكم، ضاعف الله لكم أجوركم، وحطّ أوزاركم، والسلام عليكم ورحمة الله.

وسرّح بهذه النسخ مع أنباط الشام، وكانوا مع المسلمين، يكونون عيونًا وفيوجًا<sup>(٣)</sup>، وكان المسلمون يرضخون لهم ويعطونهم.

قال: ودعا خالد الرسول الذي يبعث به إلى شرحبيل بن حسنة، فقال: كيف علمك بالطريق؟ قال: أنا أدلّ الناس بالطريق.

قال: فادفع هذا الكتاب إليه، وحذّره الجيش الذي ذكر لنا أنه يريد، وخذّ به وبأصحابه طريقًا تعدل به عن طريق العدو الذي قد شخص إليه، وتعجلّ إليه حتى يقدم علينا بأجنادين، قال: نعم.

(٢) أي في مجيء خالد إلى الشام

(١) فتوح الشام للأزدي / ٨٣-٨٤.

(٣) الفيوج جمع فيج وهو العداء سريع الجري.



فخرج الرسول إلى شرحبيل بن حسنة، وخرج رسول آخر إلى عمرو بن العاص، وآخر إلى يزيد بن أبي سفيان، وخرج خالد وأبو عبيدة بالناس إلى أهل أجنادين، والمسلمون يومئذ سراع إليهم جراً عليهم، فلما شخصوا ومضوا لم يرعهم إلا وأهل دمشق في آثارهم يتبعونهم، فلحقوا أبا عبيدة وهو في أخريات الناس، فلما رآهم أبو عبيدة أنهم قد لحقوه وأحاطوا به، وهو في نحو من مائتي رجل من أصحابه، والروم في عدد كثير من أهل دمشق، فقاتلهم أبو عبيدة قتالاً شديداً.

وأتى خالد الخبير وهو أمام الناس ولا يشعر بما لقي أبو عبيدة، فأخبروه وهو في الفرسان والخيل، فعطف خالد راجعاً، ورجع الناس معه، وتعجل خالد في الخيل وأهل القوة، فأقبلوا يركضون حتى انتهوا إلى أبي عبيدة وأصحابه، وقد أحاط بهم الروم، وهم يقاتلونهم قتالاً خشناً، فحمل خالد بخيله على الروم، فدق بعضهم على بعض، وقاتلهم ثلاثة أميال، وانهمزوا هزيمة شديدة حتى دخلوا دمشق وانصرف خالد، ومضى بالناس نحو الجابية، وأخذ يلتفت ويتنظر قدوم أصحابه عليه.

ومضى رسول خالد إلى شرحبيل ليأتيه وليس بينه وبين الجيش الذي ساروا إليه من حمص مع وردان إلا مسيرة يوم، وكان قد قرب منه، وشرحبيل لا يعلم، ولا يشعر بمسيرهم إليه.

فدفع الرسول الكتاب إليه، وأخبره الخبر، واستحثه بالشخص، فقام في الناس، فقال: يا أيها الناس، اشخصوا إلى أميركم، فإنه قد توجه إلى عدو المسلمين بأجنادين، وقد كتب إليّ يأمرني بموافاته هنالك، ثم خرج بالناس، ومضى بهم الدليل، وبلغ ذلك الجيش الذي خرج في طلبهم، فأقبلوا في آثارهم.

وجاء كتاب الروم الذين بأجنادين إلى صاحبهم: أن اقدم علينا فإننا نؤمرك علينا ومقاتلون معك العرب حتى تخرجهم من بلادنا.

فأقبل في آثار المسلمين رجاء أن يستأصلهم، ويتعورهم، ويصيب منهم طرفاً، ويكون قد نكب طائفة من المسلمين، فأسرع السير قبلكم، فلم يلحقهم.

وقدم شرحبيل ومن معه من المسلمين على خالد، وجاء وردان فيمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين، فأمرّوه عليهم، واشتد أمرهم.

وأقبل يزيد بن أبي سفيان حتى وافى خالدًا وأبا عبيدة، ثم إنهم ساروا حتى نزلوا بأجنادين، وجاء عمرو بن العاص فيمن معه من المسلمين، فاجتمع الناس جميعًا بأجنادين.

فخرج خالد بن الوليد، فأنزل أبا عبيدة في الرجال، وبعث معاذ بن جبل على الميمنة، وبعث سعيد بن عامر بن حذيم القرشي على الميسرة، وبعث سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل على الخيل.

وأقبل خالد يسير في الناس، وما يقرّ في مكان واحد، يحرض الناس، وقد أمر نساء المسلمين، فاحترمن<sup>(١)</sup>، وقُمنَ من وراء الناس، فهنّ يدعون الله ويستغثنه، فكلما مرّ بهنّ رجل من المسلمين دفعن أولادهن إليه، وقلن له: قاتلوا دون أولادكم ونسائكم.

وأقبل خالد يقف على كل قبيلة وكل جماعة، ويقول: اتقوا الله عباد الله، قاتلوا في الله من كفر بالله، ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدامكم الأقدام الأسد، وأنتم أحرار كرام، فقد أبيتتم الدنيا، واستوجبتم على الله ثواب الآخرة، ولا يهولنكم ما ترون من كثرتهم فإن الله منزل عليهم رجزه وعقابه، وقال للناس: أيها الناس، إذا أنا حملت فاحملوا.

وقال معاذ بن جبل: يا معشر المسلمين، اشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوان الله والثواب العظيم من الله.

وكان من رأي خالد مدافعتهم، وأن يؤخروا القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرواح، وتلك الساعة التي كان رسول الله ﷺ يستحب القتال فيها، فأعجله الروم، فحملوا على المسلمين مرتين من قبل الميمنة، على معاذ بن جبل، ومن قبل الميسرة على سعيد بن عامر، فلم يتحلل منها أحد، ورموا المسلمين بالنشاب،

(١) هكذا جاءت ولعلها فاحترسن.

فنادى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان من أشد الناس، وكان من المهاجرين الأولين، وكان أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة، فنادى خالداً فقال: علامُ نُستهدف لهؤلاء الأعلاج؟ وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست الخيل<sup>(١)</sup>.

وأقبل خالد إلى خيل المسلمين، فقال: احملوا رحمكم الله على اسم الله، فحمل عليهم خالد، وحمل الناس بأجمعهم، فما واقفهم فواقاً<sup>(٢)</sup>، وانهمزوا هزيمة شديدة، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وأصابوا عسكرهم وما فيه.

وأصابت أبان بن سعيد نصابة، وقد كان أبلَى بلاءً حسناً، وقاتل قتالاً شديداً، عظم فيه غناؤه، وعُرف فيه مكانه، وأصابته نصابة فنزعها، وعصبها بعمامته، فحمله إخوته، فقال لإخوته، لاتنزعوا عمامتي عن جرحي، فلو قد نزعتموها تبعثها نفسي، وايم الله ما أحب أنها بحجر من جبل الحمر، وهو جبل السماق<sup>(٣)</sup>، فمات، يرحمه الله منها.

وقتل اليعقوب بن عمرو بن ضريس المشجعي سبعة من المشركين بأجنادين، وكان جليداً شديداً، وأصابته طعنة، وكانوا يرجون أن يبرأ منها، فمكث أربعة أيام أو خمسة أيام، ثم إنها انتقضت به، فاستأذن أبا عبيدة أن يأذن له إلى أهله، فإن يبرأ رجع إليهم، فأذن له، فرجع إلى أهله، يرحمه الله، فدفن هناك.

وقُتل مسلمة بن هشام المخزومي، ونعيم بن صخر بن عدي العدوي، وهشام ابن العاص أخو عمر بن العاص السهمي، وهبار بن سفيان، وعبد الله بن عمرو ابن الطفيل ذي النور الأزدي، ثم الدوسي، وكانوا من فرسان المسلمين ومن أهل النجدة والشدة، فقتلوا يومئذ يرحمهم الله.

وقتل المسلمون منهم في المعركة ثلاثة آلاف واتبعوهم يأسرونهم، ويقتلونهم، وخرج أولئك الروم، فلحقوا بإيلياء، وقيسارية، ودمشق، وحمص، فتحصنوا في هذه المدائن العظام.

(١) شمست الخيل، امتنعت ظهورها عن الركوب.

(٢) أي لم يصبروا لهم إلا قليلاً.

(٣) السماق نبات جبلي، يستطب به العرب في أمراض كثيرة، وقد عرف به الجبل الذي ينبت.

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر رضي الله عنه بفتح الله عز وجل عليه وعلى المسلمين: لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، سيف الله المصبوب على المشركين، أما بعد، سلام عليكم، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني أخبرك أيها الصديق أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعاً جمة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يفنونا، أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله، متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كل فج وشعب وغائط، فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه، وحسن الصنع لأوليائه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي، عن ثابت بن سهل بن سعد قال: كانت وقعة أجنادين أول وقعة عظيمة كانت بالشام، وكانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى، لليلتين بقيتا منه، يوم السبت نصف النهار، وكانت قبل وفاة أبي بكر - رضي الله عنه - بأربع وعشرين ليلة.

وبعث خالد بن الوليد بكتابه إلى أبي بكر مع عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، فجاء الكتاب حتى قدم على أبي بكر - رضي الله عنه - فلما قرأه أبو بكر رحمة الله عليه فرح به، وأعجبه، وقال: الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقر عيني بذلك<sup>(١)</sup>.

### في هذه المعركة الكبرى مواقف وعبر منها:

أولاً: براعة خالد بن الوليد رضي الله عنه في التخطيط الحربي، فحينما علم أن الروم قد وجهوا جيشين كبيرين ليقتطعوا بهما جيشي عمرو بن العاص وشرحبيط ابن حسنة رضي الله عنهما وضع خطة حربية عاجلة لتلافي ذلك والسرعة في مناجزة الروم، حيث حدد مكان المعركة قرب جيش الروم الجنوبي في أجنادين وأسرع بالاتصال بقيادة المسلمين ليوافوه في ذلك المكان، ليسلم جيش عمرو وشرحبيط وليجتمع للمسلمين قوة تقاوم جيوش الروم، وقد نجح في خطته نجاحاً

(١) فتوح الشام للأزدي / ٨٤ - ٩٣.

باهراً، حيث إنه لم يكن بين جيش شرحبيل وجيش وردان الرومي الذي قصده إلا يوم واحد.

ثانياً: موقف ثبات من أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ومن معه، حيث ثبت مئتان لعدد كبير من الروم لحقوهم حينما غادروا دمشق، وموقف عال في سرعة النجدة، حيث عطف خالد بطائفة من الفرسان على جيش الروم فدقوا بعضهم على بعض وهزموهم، وهكذا يكون الأبطال العظماء، في الثبات عند الشدائد، وبذل أقصى ما في الوسع في نجدة المسلمين وإنقاذهم.

ثالثاً: صدرت من بعض قادة المسلمين كلمات مضيئة في حث المسلمين على بذل الجهد في جهاد الأعداء والثبات أمامهم، ومن هؤلاء القادة خالد بن الوليد ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما.

ولقد كان لهذه الكلمات أثر واضح في تحريض المؤمنين على الثبات ووحدة الكلمة.

رابعاً: كانت لأبطال المسلمين مواقف عالية في الثبات، ذكر منها موقف معاذ بن جبل قائد الميمنة، وسعيد بن عامر بن حذيم قائد الميسرة، حيث ثبتا لهجوم الروم ولم يتزحزحا عن مكانهما.

وكذلك ما ذكر عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان شديداً في الحرب عظيماً في الثبات وصدَّ هجوم الأعداء، ومن هؤلاء الصابرين الثابتين الذين أثنوا في الروم وأبلوا بلاءً حسناً أبان بن سعيد بن العاص، وقد أصابه سهم، استشهد بعده رحمه الله تعالى ومنهم اليعقوب بن عمرو المشجعي، وكان شجاعاً شديداً، قتل سبعة من المشركين، ثم أصيب واستشهد رحمه الله تعالى.

ومن أبلى بلاءً حسناً في هذه المعركة عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه وكان موصوفاً بالشجاعة والفروسية، ومن أخباره في هذه المعركة ما ذكر الإمام الذهبي من طريق ابن سعد قال: أخبرنا محمد بن عمر حدثني هشام بن عمارة عن أبي الحويرث قال: أول من قُتل يوم أجنادين بطريق، برز يدعو إلى

البراز، فبرز إليه عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب فاختلفا ضربات ثم قتله عبد الله، ثم برز آخر فضربه عبد الله على عاتقه وقال: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فأثبته وقطع سيفه الدرع وأشرع في منكبته ثم ولى الرومي منهزماً.

وعزم عليه عمرو بن العاص أن لا يبارز فقال: لا أصبر، فلما اختلقت السيوف وُجد في ربطة من الروم عشرة مقتولاً وهم حوله وقائم السيف في يده قد غرى - يعني لرق - وإن في وجهه لثلاثين ضربة<sup>(١)</sup>.

وهكذا أبلى عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه بلاءً حسناً في هذه المعركة، وهو ابن عم النبي ﷺ وممن ثبتوا معه يوم حنين، وكان عمره يوم أن استشهد نحو من ثلاث وثلاثين سنة<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*\*\*

(٢) الإصابة ٢ / ٣٠٠.

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٨٢.

## حصار دمشق ومعركة مرج الصفر<sup>١</sup>

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: ثم إن خالد بن الوليد أمر الناس أن يسيروا إلى دمشق، فأقبل بالناس حتى نزلها، فأقبل إلى مكان دير الذي كان ينزله، فنزله، وهو دير خالد، وبه يُدعى إلى اليوم، وهو من دمشق على بعد ميل، مما يلي الباب الشرقي.

وجاء أبو عبيدة حتى نزل على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على جانب آخر من دمشق، وأحاطوا بها، وكثروا حولها، وحصروا أهلها حصاراً شديداً.

قال: ثم إن خالد بن الوليد خرج بالمسلمين ذات يوم، فأحاطوا بمدينة دمشق، ودنوا من بابها، فرماهم أهلها بالحجارة، ورشقوهم من فوق البيوت بالنشاب.

قال: فإن المسلمين كذلك يقاتلونهم، ويرجون فتح مدينتهم إذ أتاهم أت فأخبرهم، وقال: هذا جيش قد أتاكم من قبل ملك الروم، وقد أظلكم، فنهض خالد بالناس على تعبيته وهيئته، فقدم الأثقال والنساء، وخرج معهم يزيد بن أبي سفيان، ووقف خالد وأبو عبيدة من وراء الناس، ثم أقبل خالد بالناس نحو ذلك الجيش فإذا هو الدرُّنَجَار<sup>(١)</sup> قد بعثه ملك الروم في خمسة آلاف رجل من أهل القوة والشدة منهم ليغيث أهل دمشق، فصمد المسلمون صمدهم، وخرج إليهم أهل القوة والشدة من أهل دمشق، وصحبهم خلق كثير من أهل حمص، والقوم أكثر من عشرة آلاف.

فلما نظر إليهم خالد عبى لهم أصحابه كتعية يوم أجنادين، وكان من أبصر الناس بالحرب مع وقار وسكينة وشفقة على المسلمين، وحسن النظر لهم والتدبير لأموارهم.

فجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة، وعلى الخيل زيد بن عمرو بن نفيل، وأبا عبيدة على الرجالة، وذهب خالد، فوقف في أول

(١) يعني قائد خمسة آلاف رجل كما سبق.

الصفّ، يريد أن يحرض الناس، فنظر إلى الصفّ من أوّله إلى آخره، فحملت خيل الروم على سعيد بن زيد، وكان واقفاً في جماعة من المسلمين في ميمنة الناس، يدعون الله، ويقص عليهم، فحملت الروم عليهم، فنازلهم سعيد بن زيد، على عظم جمعهم، بالخيّل، فهزّمهم الله، وقتلهم مقتلة عظيمة، وأصاب المسلمون عسكرهم، ورجع الناس وقد ظفروا، وقد قتلوهم كل مقتلة، وذهب المشركون على وجوههم، فمنهم من دخل مدينة دمشق مع أهلها، ومنهم من رجع إلى حمص، ومنهم من لحق بقيصر.

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن عمرو بن محصن أن قتلاهم يومئذ، وهو يوم مرج الصفر كانوا خمسمائة في المعركة، وقد قتلوا وأسروا نحواً من خمسمائة أخرى، ثم إن المسلمين أقبلوا حتى نزلوا على أهل دمشق.

قال أبو إسماعيل الأزدي: وحدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة قال: كان بين يوم أجنادين وبين يوم الصفر عشرون يوماً، فحسبت ذلك، فوجدته يوم الخميس لاثنتي عشرة بقية من جمادى الآخرة قبل وفاة أبي بكر - رضي الله عنه - بأربعة أيام.

ثم إن الناس أقبلوا جميعهم حتى نزلوا على دمشق، فحاصروا أهلها، وضيقوا عليهم، وعجز أهلها عن قتال المسلمين، ونزل خالد منزله الذي كان ينزل به على باب الشرقي، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية: ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب آخر، ونزل عمرو بن العاص على باب آخر.

وكان المسلمون يغيرون على من كان خارجاً منهم من المدينة، فكل ما أصاب رجل نَفَالاً<sup>(١)</sup> جاء بنفله، فيلقيه في القبض، ولا يستحل أن يأخذ منه قليلاً ولا كثيراً حتى إن الرجل ليجيء بالكبّة الغزل، أو بالكبّة الصوف والشعر والمسلة<sup>(٢)</sup>، فيلقيه في القبض لا يستحل أن يأخذ منه قليلاً ولا كثيراً.

(٢) أي الإبرة الكبيرة.

(١) أي غنيمة.



فسأل صاحب دمشق بعض عيونه عن أعمالهم وسيرتهم، فوصفهم له بهذه الصفة في الأمانة، ووصفهم بالصلاة في الليل وطول القيام، فقال: هؤلاء رهبان بالليل، أسدُّ بالنهار، ولا والله مالي بهؤلاء طاقة، ومالي في قتالهم من خير.

قال: فراوض المسلمين على الصلح، فأخذ لا يعطيهم ما يرضيهم، ولا يتابعونه علي ما يسأل، وهو في ذلك لا يمنع من الصلح والفراغ إلا إنّه بلغه أن قيصر يجمع الجموع للمسلمين، وأنه يريد غزوهم، فكان ذلك مما يمنعه من تعجيل الصلح<sup>(١)</sup>.

وهذه المعركة من الأمثلة الكثيرة الدالة على يقظة المسلمين ودقة رصدتهم لتحركات عدوهم، فقد علموا بهذا الجيش قبل وصوله إلى هدفه وسارعوا إلى منازلته والقضاء عليه قبل تحقيق مقصوده.

وهكذا أثنى الروم على أولئك الصحابة رضي الله عنهم فوصفهم بالأمانة وشدة الشجاعة وكثرة العبادة، واستنتج من ذلك زعيمهم أن المسلمين أمة لا تغلب وقوة لا تقهر، وبهذا كان مظهر المسلمين في عبادتهم وأخلاقهم محط إعجاب الكفار ومبعث انهزامهم النفسي قبل ملاقاتهم في ميادين الحرب، وهذا يبين لنا أهمية الاستقامة وأثرها في النصر على الأعداء.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٩٤ - ٩٧.

## وفاة أبي بكر واستخلاف عمر

في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة النبوية مرض الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولما شعر بدنو أجله استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم توفي في مساء يوم الاثنين لثمان ليال بقين من شهر جمادى الآخرة من العام المذكور<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبة النميري عدة روايات في وفاة أبي بكر واستخلاف عمر رضي الله عنهما، فمن ذلك ما ذكره عن الحسن بن أبي الحسن البصري، قال: لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه. جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظني إلا ميت لما بي. وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدي، ورد عليكم أمركم. فأمرؤا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي. فقاموا في ذلك وخلوا عليه فلم تستقم لهم، فرجعوا إليه فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك. قال: فلعلكم تختلفون. قالوا: لا. قال: فعليكم عهد الله على الرضى، قالوا: نعم. قال: فأمهلونني حتى أنظر الله ولدينه ولعباده. فأرسل أبو بكر إلى عثمان بن عفان فقال: أشر عليّ برجل، والله إنك عندي لها لأهل وموضع. فقال: عمر. فقال اكتب. فكتب حتى انتهى إلى الاسم فغشي عليه. ثم أفاق. فقال: أكتب عمر.

وعن عاصم بن عدي رضي الله عنه قال: جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر. فكانت آخر خطبة خطبها، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها غدارة. وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبوها فحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى. وإن هذا الأمر الذي هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله. ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة، وأملككم لنفسه، أشدكم في حال الشدة، وأسلسكم في حال اللين، وأعملكم برأي ذوي الرأي، لا يتشاغل بما لا يعنيه، ولا يحزن لما ينزل به، ولا يستحي من

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٢٠، البداية والنهاية ٧/ ١٨.

التَّعَلُّمُ، وَلَا يَتَحَيَّرُ عِنْدَ الْبَدِيهَةِ. قَوِيٌّ عَلَى الْأُمُورِ، لَا يَخُورُ لَشَيْءٍ مِنْهَا ضِدَّهُ  
بَعْدُ وَلَا تَقْصِيرَ. يَرُودُ لَمَّا هَوَّاتِ عَتَادَهُ مِنَ الْحَذَرِ وَالْعِلْمِ<sup>(١)</sup>، وَهُوَ عَمْرُ بْنُ  
الْخَطَّابِ - ثُمَّ نَزَلَ فَدَخَلَ. فَحَمَلَ السَّخَطَ إِمَارَتَهُ الرَّاضِي بِهَا عَلَى الدُّخُولِ مَعَهُمْ  
تَوْصِيلاًً.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ عَثْمَانُ يَكْتُبُ وَصِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ فَأُغْمِي  
عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَجَعَلَ عَثْمَانُ يَكْتُبُ فَكُتِبَ عَمْرٌ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: مَا كُتِبْتَ؟ قَالَ:  
كُتِبْتَ عَمْرٌ. قَالَ كُتِبْتَ الَّذِي أَرَدْتُ أَنْ أَمْرَكَ بِهِ وَلَوْ كُتِبْتَ نَفْسَكَ لَكُنْتُ لَهَا أَهْلًا.

وَعَنْ الْوَاقِدِيِّ، عَنْ أَشْيَاخِهِ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا اسْتَعَزَّ بِهِ دَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ  
فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: مَا سَأَلْتَنِي عَنْ أَمْرٍ إِلَّا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ  
مَنِي: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَإِنْ. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: هُوَ وَاللَّهُ أَفْضَلُ مِنْ رَأْيِكَ فِيهِ. ثُمَّ  
دَعَا عَثْمَانَ بْنَ عَفَانَ. فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ. فَقَالَ: أَنْتَ أَخْبَرْنَا بِهِ.  
فَقَالَ: عَلَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ عَثْمَانُ: اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي بِهِ أَنْ سَرِيرَتَهُ خَيْرٌ مِنْ  
عَلَانِيَتِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيْنَا مِثْلَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ وَاللَّهُ لَوْ تَرَكْتَهُ مَا عَدَّتْكَ.  
وَشَاوَرَ بَعْدَهُ سَعِيدُ بْنُ يَزِيدٍ وَأَسِيدُ بْنُ الْحَضِيرِ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وَسَمِعَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنْهُمْ: مَا  
أَنْتَ قَائِلٌ لِرَبِّكَ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ اسْتِخْلَافِكَ عَمْرَ عَلَيْنَا وَقَدْ تَرَى غَلْظَتَهُ؟ فَقَالَ أَبُو  
بَكْرٍ: أَجْلِسُونِي، أَبَاللَّهِ تَخُوفُونِي؟! خَابَ مِنْ تَزُودٍ مِنْ أَمْرِكُمْ بِظُلْمٍ، أَقُولُ: اللَّهُمَّ  
اسْتِخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ خَيْرَ أَهْلِكَ. أَبْلَغَ عَنِّي مَا قَلْتُ مِنْ وِرَاءِكَ. ثُمَّ اضْطَجَعَ - وَدَعَا  
عَثْمَانَ بْنَ عَفَانَ فَقَالَ: اكْتُبْ.

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا عَهْدُ أَبُو بَكْرٍ بِنِ أَبِي قُحَافَةَ فِي آخِرِ عَهْدِهِ  
بِالدُّنْيَا خَارِجًا مِنْهَا، وَعِنْدَ أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْآخِرَةِ دَاخِلًا فِيهَا، حَيْثُ يُؤْمِنُ الْكَافِرُ،  
وَيُوقِنُ الْفَاجِرُ، وَيُصَدِّقُ الْكَاذِبُ، إِنِّي اسْتِخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ.  
فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. وَإِنِّي لَمْ أَلِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَدِينَهُ وَنَفْسِي وَإِيَّاكُمْ إِلَّا خَيْرًا، فَإِنْ  
عَدَلَ فَذَلِكَ ظَنِّي بِهِ، وَعَلِمِي فِيهِ. وَإِنْ بَدَلَ فَلِكُلِّ امْرَأٍ مَا اكْتَسَبَ. وَالْخَيْرُ أَرَدْتُ،

(١) جاءت «والظلم» ولعل الصواب ما أثبتته.

ولا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم أمر بالكتاب فحتمه، وخرج به مختوماً. فقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ قالوا: نعم. فبايعوا. ثم دعا أبو بكر عمر خالياً فأوصاه، ثم خرج. فرفع أبو بكر يديه وقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيراً، وأحرصهم على ما أرشدتهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم فهم عبادك<sup>(١)</sup>.

من هذه الأخبار يتبين لنا أمور مهمة منها:

أولاً: أن أبا بكر رضي الله عنه لم يستخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إلا بعد أن عقد مجلساً للشورى بين أهل الحل والعقد، وبناءً على محض اختيارهم فوضوه في اختيار من يخلفه في الحكم، فاختر عمر بعد أن استشار بعض قادة أهل الحل والعقد فأشاروا به، وبناءً على ذلك فإن خلافة عمر بن الخطاب تمت عن طريق الشورى بين أهل الحل والعقد وليست مجرد استخلاف من أبي بكر.

ثانياً: تبين لنا من الصفات التي افترضها أبو بكر فيمن يصلح للخلافة دقته في اختيار الرجال ومعرفة صفات الكمال في الجانب السياسي، فهو حينما أدرك أهمية اجتماع تلك الصفات في شخص واحد لم ير من قد اجتمعت فيه من أصحابه إلا عمر بن الخطاب فاستشار كبار أهل الحل والعقد في توليته فأشاروا به واجتمعت كلمتهم عليه.

وهكذا انتقل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الدار الآخرة بعد أن قام بأعمال كبيرة في الدعوة والجهاد في وقت قياسي، لقد أنجز في سنتين وأشهر ما لا يتم إنجازه -عادة- في سنوات، ولقد تحقق فيه قول الله تعالى في بيان طاقة المسلم الجهادية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/٦٦٥-٦٦٩ طبقات ابن سعد ٣/١٩٩.

ولقد بين الله سبحانه في هذه الآية سبب هذا التفاوت بين طاقة المؤمنين والكفار بقوله عن الكفار ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي بسبب أنهم لا يفهمون ولا يدركون أسباب النصر المعنوية التي هي أسباب النصر الحقيقية والتي أبرزها شعور المؤمنين دائماً بمعية الله تعالى لهم بالحفظ والنصر والتأييد، فكون العبد يشعر شعوراً جازماً بأن الله جل وعلا معه بحفظه ونصره وتأييده يمنحه قوة عالية لا يدانيها أي قوة مادية على وجه الأرض، فهذا الشعور يرفع من معنوية المؤمنين بنسبة عالية، بينما تظل معنوية الكفار مرتبطة بالأسباب المادية وحدها، وربما تنخفض معنويتهم إذا علموا بعقيدة المسلمين الحيوية العالية.

ومن أسباب النصر المعنوية شعور المجاهد بأن مصيره في الآخرة إلى الدرجات العلى في الجنة سواء نال الشهادة أو كتب الله تعالى النصر على يديه، وكونه يشعر بهذا الشعور يجعله يستमित في القتال لأنه سينال الفلاح في كلتا الحالتين، والذي يستमित في القتال لا يستطيع البشر العاديون أن يثبتوا أمامه، لأن طاقته تكون مضاعفة أضعافاً كثيرة.

وهذه الآية وإن كان ظاهرها أن طاقة المسلم في القتال تعادل طاقة عشرة فإنها ليست خاصة في القتال المباشر، بل تشمل الجهاد بأنواعه، فطاقة القائد المسلم تعادل طاقة عشرة من غير المسلمين، وتوجيه القادة ومتابعة سيرهم.

فأبو بكر -رضي الله عنه- في السنة الأولى وجه أحد عشر جيشاً لقتال المرتدين في وقت واحد، وهذا يعني أن طاقته تستوعب الإشراف على جميع تلك الجيوش ومتابعة سيرها وتحمل نتائج معاركها، ولو أنه كان متصفاً بشيء من الضعف والخور لتردد في الأمر طويلاً وكان إقدامه في الأخير على جمع تلك الجيوش في قيادة واحدة وتوجيهها إلى أقرب تجمع للكفار، ولو أنه فعل ذلك وحصل له الانتصار على ذلك التجمع فإنه سيحصل لدى الأعداء البعيدين تنبه مبكر إلى قوة المسلمين، وسيعقدون بينهم تحالفات -حسب المعتاد في الحروب- وستكبر تجمعاتهم بحيث يصعب على المسلمين القضاء عليهم في وقت قياسي، وستكون النتيجة مرور سنوات من الصراع داخل الجزيرة العربية، وربما تنبه الأعداء من الفرس

والروم فقاموا بإمداد العرب المتمردين على دولة الإسلام ليضعفوا ثم ليقضوا عليها قبل أن تمتد إليهم، وربما يكون طلب المدد من العرب أنفسهم، ولكن أبا بكر رضي الله عنه بما وهبه الله تعالى من طاقة عالية وهمة كبيرة قام بتخطيط حربي أذهل جميع الأعداء، حيث قضى على جميع تجمعاتهم قبل أن يكون لديهم وقت للتفكير في التحالف والتخطيط الحربي المضاد.

وبينما نجد أبا بكر يوجه قوات المسلمين في العام الثاني عشر إلى العراق للقضاء على إحدى أكبر دولتين في العالم إذا هو يعدُّ الجيوش لغزو الشام والقضاء على الدولة الأخرى، فأىُّ طاقة كان يتمتع بها أبو بكر!! وما أضخم ذلك الفكر الذي استوعب الإشراف على تلك الجيوش التي توجهت للقضاء على دولتي العالم العُظميين!!

\*\*\*\*\*



مواقف وعبر

في

خلافة أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضي الله عنه



## مكاتبات بين أمير المؤمنين عمر وأبي عبيدة ومعاذ

كان أول خطاب وصل إلى الشام من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل نبأ وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتولية أبي عبيدة على الشام وقد جاء فيه: أما بعد فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ قد توفي فإننا لله وإنا إليه راجعون، ورحمة الله وبركاته على أبي بكر الصديق العامل بالحق، والآخذ بالعرف، اللين الستير الوداع، السهل القريب الحكيم، ونحتسب مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامة عند الله تعالى، وأرغب إلى الله في العصمة بالتقى في مرحمته، والعمل بطاعته ما أحيانا، والحلول في جنته إذا توفانا، فإنه على كل شيء قدير، وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق، وقد وليتك جماعة المسلمين، فابث سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام، وانظر في ذلك برأيك ومن حضرك من المسلمين، ولا يحملنك قولي هذا على أن تعري عسكرك فيطمع فيك عدوك، ولكن من استغنيت عنه فسيره، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه، وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه<sup>(١)</sup>.

ففي هذا الكتاب يذكر أمير المؤمنين عمر خبر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ويثني عليه ذلك الثناء العاطر، ثم يذكر تولية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه على الشام، وهذا هو الظاهر أن عمر كتب إلى أبي عبيدة بتوليته وعزل خالد والمسلمون محاصروا أعدائهم في دمشق خلافاً لما ذهب إليه سيف بن عمر واعتمده الطبري من أن كتاب عمر وصل والمسلمون يواجهون أعداءهم في اليرموك وذلك بناءً على ما ذهب إليه من أن اليرموك كانت في الشهور الأولى من العام الثالث عشر<sup>(٢)</sup>.

وما كان عمر وهو الخبير بمصائر الحروب الشفيق بالأمة. . ما كان ليربك المسلمين بعزل خالد وتولية أبي عبيدة وهم يواجهون أضخم معركة خاضوها في حياتهم، تلك المعركة التي كانت أعصاب المسلمين فيها جميعاً مشدودة نحو الشام،

(١) تاريخ دمشق ١٢٥/٢ . (٢) انظر تحقيق هذا الموضوع في معركة اليرموك.



وقلوبهم واجفة، وألسنتهم تلهج بالدعاء للمسلمين بالنصر وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه .

وسيتبين لنا عند استعراض مواقف هذه المعركة كيف أن إنقاذ المسلمين تم بإذن الله تعالى على يد خالد بن الوليد، حينما طلب من أبي عبيدة لما تأزم الموقف أن يوليه القيادة العامة للجيش الإسلامية، فتنازل له أبو عبيدة راضياً مختاراً مؤملاً أن يتم النصر على يد سيف الله المصوب على الكافرين .

وجاء في رواية الأزدية: قالوا: فلم يُسمع من أبي عبيدة شيء يتنفع به مقيم ولا ظاعن . فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل، فأقرأه الكتاب، فالتفت معاذ إلى الرسول فقال: رحمة الله ورضوانه على أبي بكر، ويح غيرك، ما فعل المسلمون؟ قال: استخلف أبو بكر - رضي الله عنه - عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقال معاذ: الحمد لله، وفقوا وأصابوا .

وقال أبو عبيدة: ما منعتني عن مسألته منذ قرأت الكتاب إلا مخافة أن يستقبلني، فيخبرني أن الوالي غير عمر .

فقال الرسول: يا أبا عبيدة، إن عمر يقول لك أخبرني عن حال الناس، وعن خالد بن الوليد، أي رجل هو؟، وأخبرني عن يزيد بن أبي سفيان، وعن عمرو ابن العاص، وكيف هما في حالهما وهيئتهما، ونصحهما للمسلمين .

فقال أبو عبيدة: أما خالد فخير أمير، أنصح لأهل الإسلام، وأشدُّ شفقة عليهم، وأحسنه نظراً لهم، وأشدّه على عدوهم من الكفار، فجزاه الله عنهم خيراً، ويزيد وعمرو في نصحهما وحدّهما ونظرهما للمسلمين وشفقتهما عليهم كما يحب عمر أن يكونا عليه، وكما أحبّ .

قال: فأخبرني عن أخويك سعيد بن زيد، ومعاذ بن جبل .

فقال: هما كما عهدت، إلا أن يكون السن زادهما في الدنيا زهداً، وفي الآخرة رغبة، قال: ثم إن الرسول وثب لينصرف فقال أبو عبيدة: سبحان الله، انتظر نكتب معك .

فكتب إليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل كتاباً واحداً:

بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليكم، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، وإنك يا عمر، أصبحت وقد وليت أمر أمة محمد، أحمرها وأسودها، يقعد بين يديك العدو والصديق، والشريف والوضيع، والشديد والضعيف، ولكل عليك حقّ وحصّة من العدل، فانظر كيف تكون يا عمر، وإننا نذكرك يوماً تُبلى فيه السرائر، وتكشف فيه العورات، وتظهر فيه المُخبّات، وتَعُوّ فيه الوجوه لملك قاهر، قهرهم بجبروته، والناس له داخرون، يتظرون قضاءه، ويخافون عقابه، ويرجون رحمته، وإنه بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجالٌ إخوان العلانية أعداء السريرة، وإننا نعوذ بالله من ذلك، فلا ينزل كتابنا من قلبك بغير المنزلة التي أنزلناها من أنفسنا، والسلام عليك ورحمة الله.

فمضى رسوله بالكتاب إليه، وقال أبو عبيدة لمعاذ: والله ما أمرنا عمر أن نظهر وفاة أبي بكر رضي الله عنه للناس، وأن ننعاه إليهم، وما أريد أن أذكر من ذلك شيئاً دون أن يكون هو يذكره، قال له معاذ: فإنك نعم ما رأيت.

فمضى رسوله بالكتاب إليه، وسكتا فلم يذكرنا للناس شيئاً، ولم يلبثا إلا مقدار ما قدم رسول عمر عليه حتى بعث إليهما عمر رضي الله عنه بجواب كتابهما، وبعهد أبي عبيدة، وأمر أبا عبيدة أن يعظ الناس.

وجاء بالكتاب شداد بن أوس بن ثابت ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري.

وكان جواب كتابهما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، سلام الله عليكما، فإنني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنني أوصيكما بتقوى الله، فإنه رضاء ربكما، وحظ أنفسكما، وغنيمة الأكياس<sup>(١)</sup> لأنفسهم عند تفريط العجزة، وقد بلغني كتابكما تذكيران أنكما عهدتاني وأمر نفسي لي مهم، فما يدريكما، وهذه تزكية منكما لي، وتذكيران أني وليت أمر هذه الأمة،

(١) جمع كَيْسٍ بتشديد الياء وكسرهما، وهو النبيه الفطن.

يقعد بين يديّ الشريف والوضيع، والعدوّ والصدّيق، والقوي والضعيف، ولكلّ حصته من العدل، وتسألاني كيف أنا عند ذلك، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتبتما تخوفاني يوماً هو آت، وذلك باختلاف الليل والنهار، فإنهما يُبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتیان بكل موعود، حتى يأتيا بيوم القيامة، يوم تُبلى السرائر، وتُكشف العورات، وتغنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته، فالناس له داخرون، يخافون عقابه، ويتظرون قضاءه، ويرجون رحمته، وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية، أعداء السريرة، فليس هذا بزمان ذلك، فإن ذلك يكون في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرغبة، رغبة الناس ورهبتهم، بعضهم إلى بعض . والله عز وجل قد ولاني أمركم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنه كما حرسني عن غيره، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وكيت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله، وإنما العظة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم إن عمر قد تغير منذ وكى، وإني أعقل الحق من نفسي وأتقدم، وأبين لكم أمري، فأما رجل كانت له حاجة، أو ظلم مظلمة، أو عتب علينا في خلق فليؤدني، فإنما أنا رجل منكم، ليس بيني وبين أحد من المسلمين هوادة، وأنا حبيب إليّ صلاحكم، عزيز عليّ عتسبكم، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع على ما يضيرني بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد ذلك إلا بالأمناء، وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم، إن شاء الله، وما سلطان الدنيا وإمارتها! فإن كل ما تريان يصير إلى زوال، وإنما نحن إخوان، فأينا أمّ أخاه، أو كان عليه أميراً لم يضره ذلك في دينه ولا في دنياه، بل لعل الوالي أن يكون أقربهما إلى الفتنة وأوقعهما بالخطيئة إلا من عصم الله، وقليل ما هم<sup>(١)</sup>.

هذا وقد تباطأ أبو عبيدة في إبلاغ خالد والمسلمين بنبأ وفاة أبي بكر وتولية أبي عبيدة على إمرة الشام كله رجاء أن يتم فتح دمشق على يد خالد بناء على الخطة الحربية التي كان وضعها لذلك .

(١) فتوح الشام للأزدي / ٩٩ - ١٠٢ .

وعلم عمر رضي الله عنه بذلك وهو يعلم أخلاق أبي عبيدة المجبولة على الزهد في الدنيا والبعد عن الجاه، فكتب له كتاباً آخر يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ.

وبعد: فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحيي فإن الله لا يستحيي من الحق، وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى، وقد استعملتك على جند خالد، فاقبض جنده واعزله عن إمارته، ولا تُنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنفذ سرية إلى جيش كبير، وغض عن الدنيا عينيك، وأله عنها قلبك، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم، وخبرت سرائرهم، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار، وكأني بك منتظر سفيراً من دار قد مضت نضارتها، وذهبت زهرتها، وأحزم الناس من يكون زاده التقوى.

أخرجه الأزدي قال: حدثني يزيد بن أبي يزيد بن جابر عن أبي أمامة رضي الله عنه (١).

وهكذا أمر عمر أبا عبيدة أمراً مؤكداً بالبت في هذا الأمر وإعلانه، ومع اهتمامه البالغ بأمور الحكم والجهاد، لم يُغفل الموعظة بالتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا، مما يدل على أن هذا الأمر الكبير كان ماثلاً أمام أعين هؤلاء الصحابة، وأنه لا يشغلهم عنه أي شاغل، لأن بتذكرة دائماً تستقيم أمور الحياة الدنيا.

**وفي هذه الأخبار مواقف منها:**

أولاً: ما قام به أبو عبيدة من كتمان خبر وفاة أبي بكر أول الأمر كي لا يؤثر ذلك على المسلمين في جهادهم، ولقد كان تعبير الراوي عن ذلك بليغاً حينما قال: فلم يُسمع من أبي عبيدة شيء ينتفع به مقيم ولا ظاعن.

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٠٢.

وهذه السريّة المبنية على الحكمة والتفكير المتأمل كان لها دور مؤثر في تماسك مجتمع المسلمين آنذاك .

ثانياً: كان في حسّ أبي عبيدة ومعاذ أن أصلح المسلمين للخلافة بعد أبي بكر عمر، وكان من شدة إشفاق أبي عبيدة من أن يتولى غيره أنه لم يسأل رسول عمر عن الخليفة بعد أبي بكر، وحينما سأله معاذ حمداً لله على ذلك، وهكذا التقت أفكار هؤلاء العظماء أبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ والذين وافقوا أبا بكر على أقدمية عمر في ذلك حينما استشارهم . . التقت أفكار هؤلاء العظماء على أن أصلح الأمة للخلافة بعد أبي بكر عمر .

ولقد أثبت الواقع أنه لم يأت بعد عمر مثله في إقرار العدل، ودعم الجهاد، وإعزاز الدين، وتوسيع الدولة الإسلامية وتقويتها، وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية الوثابة التي اتسعت وعظمت حتى هيمنت على حضارات الأمم والتهمتها، وصاغت الصياغة الإسلامية .

ثالثاً: ثناء أبي عبيدة البليغ على خالد - مع أنه قد خلفه في الإمارة، ومع أن الذي طلب تقييمه أمير المؤمنين عمر - يدل على عظمة أبي عبيدة وعمق يقينه ورجاحة عقله، فلم يُغَطَّ على محاسن خالد مداراةً لعمر الذي ولاه وعزل خالداً، ولا خضوعاً لهوى منحرف .

رابعاً: في الموعظة البليغة التي وجهها أبو عبيدة ومعاذ إلى أمير المؤمنين عمر دلالة على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأمر الآخرة، وتمحيص النفوس من كل ما قد يعلق فيها من شوائب حتى تصبح صفحة بيضاء، فلم يدُرْ بخلد أبي عبيدة ومعاذ أن عمر القوي الإيمان الراسخ العلم ليس بحاجة إلى مواعظ، بل فضلاً النظر في نجاته من عواقب المسؤولية على النظر في عظمته وتفوقه في مجالات الورع والتقوى وكبح جماح النفس، فوجّهها له تلك الموعظة .

خامساً: في جواب عمر لأبي عبيدة ومعاذ حكمٌ بالغة وفوائد جمة، فقد بدأ بتذكيرهما بتقوى الله تعالى، والتقوى حماية للنفس وحارس أمين لها يحميها من بُنَيَات الطريق ومنعطفاته الخطيرة، وقد وصف المتقين بالفطنة ووصف المقصرين

بالعجز، وإنه لوصف صادق، فما أعظم فطنة من نظر إلى نجاته وسعادته في حياة الخلود وما أرجح عقله!! وما أعجز من ضيِّع ذلك وأضعف عقله!!

وذكرهما بما ذكرناه به من يوم الحساب وتلَّقِي الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، يوم يتمنى الإنسان أن يكون قدّم من العمل الصالح أفضل مما قدم وأن يكون برئ من كل عمل سيئ وإن تبادلت هذه الموعظة بين الصحابة دليل على عظمة تذكُّرهم للأخرة وشدة فزعهم من هولها وشوقهم إلى نعيمها.

ويُذكر عمر أبا عبيدة ومعاداً وغيرهما بأن الولاية لن تغير من خلقه المعروف شيئاً، وأنه قد نصب نفسه للعدالة بين الناس من غير محاباة لقوي ولا هضم لضعيف.

### حوار بين خالد وأبي عبيدة:

علم خالد بأمر عزله فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال: يغفر الله لك، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك؟، فقال أبو عبيدة: وأنت يغفر الله لك ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوان وقوأم بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه، في دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض له من الهلكة، إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم.

ودفع أبو عبيدة كتاب عمر إلى خالد<sup>(١)</sup>.

وهكذا نعود مرة أخرى إلى هذين العملاقين لتتعلم منهما دروساً بالغة الأهمية في حياتنا العملية.

فهذا أبو عبيدة يؤثره عمر بالولاية العامة في الشام فيزهد بها ويتأخر في إبلاغ خالد بذلك إيثاراً للمصلحة العامة حتى تنقضي المهمة التي خطط لها خالد، ثم

(١) تاريخ دمشق ١٢٦/٢.

يعرض الأمر وهو يفهم حقيقة الولاية فهماً تاماً، فهي مَعْرَم وليست بمَغْنَم، والسعيد من لم يُبْتَلَ بها، لكن من ابتلي بها فعدل ونصح فهي خير في الدنيا وثواب جزيل في الآخرة.

وخالد يلوم أخاه أبا عبيدة أن أسرَّ في نفسه هذا التكليف ولم يبلغه إياه في حينه، وهو لا يريد أن يتقدم أبا عبيدة بشيء إلا أن يكون ذلك تكليفاً من قِبَل الخليفة فالطاعة إذاً واجبة على الجميع.

وهنا تبدو لنا روح الطاعة والتجرد من حظ النفس لدى هؤلاء الأماجد الكرام، فقد وجَّه أبو بكر خالداً لأعنف حروب الردة، فتوجه لها طائِعاً مختاراً، وكان كذلك في حروب العراق، حتى إذا كان من فتح المدائن قاب قوسين أو أدنى صدر التوجيه له إلى الشام فسلم طائِعاً مختاراً.

وأبو عبيدة بعد أن كان أمير الشام وقائد جيوشها يصبح قائد جيش واحد فيُسَلِّم الأمر لخالد طائِعاً مختاراً، ثم يرجع بعد ذلك أميراً عاماً فلا يزيد شيئاً أمام نفسه، بل يتقبل التكليف ببطء ويعلن زهده في الدنيا ومناصبها، ويشير إلى خطورة المسؤولية إلا على من عصمه الله، ثم يعود خالد جندياً مطيعاً لأبي عبيدة يتوجه حيثما وجهه.

وأمر آخر في غاية الأهمية وهو أن خالداً بقي عند أبي عبيدة في أعلى مكانة، فكان لا يتقدم خطوة إلا بمشورة خالد، حتى كأن خالداً لم يفقد شيئاً من سلطته الأولى، وخالد لم يبخل بخالص الرأي والمشورة على أبي عبيدة، فكان وضعهما الإداري طيلة عملهما في أعلى وضع يمكن أن يتصوره الإنسان من مكارم الأخلاق.

وما هذه إلا لمحات موجزة عن تشخيص السمو الأخلاقي الذي بلغه هذان العملاقان، ولو تعمق الدارس في طريقة العمل بينهما لخرج بنتائج باهرة، تعدُّ مثلاً عالية للأسوة الحسنة.

ولو أن هذه التصرفات من تثبيت أمير ثم عزله وتثبيت آخر ثم تكليف الأول بالمسؤولية... لو أن ذلك تم بين أبناء الدنيا وطلاب الجاه لوجدنا الغيرة تبرز قرونها

والحسد يرسل لهيبه فيحرق الأخضر واليابس، ولسادت الفوضى وعم الفساد، لأن القائد الأخير سيتكبر عن استشارة القائد الأول، والقائد الأول سيكتم خبرته ومواهبه حتى لا تكون سبباً في نجاح القائد الثاني، والنتيجة تكون في انحدار مستوى العمل وخسارة الأمة.

وقد وقعت الأمة الإسلامية في كثير من أطوار تاريخها ضحيةً لمثل هذه الأمراض الخلقية، منذ أن ذهب ذلك الرعيل الأول الذي تغذى بغذاء الإيمان، وآثر الآخرة على الدنيا.

لقد حمى الإسلام سياج الأخوة الإسلامية بتوجيهات سامية نحو الأخلاق النبيلة، فإيثار المصلحة العامة للمسلمين، والتجرد من حظ النفس، من أعظم الأخلاق الكريمة أثراً في حفظ الأخوة ورعايتها، فالمجتمع الذي يسود فيه الإيثار، وحب المصلحة العامة، ونسيان الذات في سبيل مصلحة الأمة، هو المجتمع الذي تترعع فيه الأخوة الإسلامية وتزدهر، لأنه مجتمع تُبدل فيه النصيحة وتعتقد المشورة بين أفرادها، حتى في الأمور الصغيرة، فيستفيد الفرد من عقول الآخرين وتجاربهم في الحياة، فإذا تبدل المسئول بمسئول آخر مثلاً استفاد هذا الأخير من تجارب الأول ولم ييخل الأول بإسداء نصيحته ومشورته للأخير، لأنهما أخوان في الله، وهدفهما واحد هو إعزاز الإسلام والمسلمين.

وإذا استحكمت الأخوة الإسلامية في النفوس ظهرت آثارها الحميدة في بناء المجتمع الصالح، وحمایته من أسباب الانهيار، وما هذه المواقف الإسلامية التي نشيد بها إلا أثر من آثار تمكن الأخوة الإسلامية في قلوب الصحابة رضي الله عنهم.

\*\*\*\*\*





مواقف وعبر

في



فتوح الشام الثانية

(ما قبل اليرموك)



## معركة فحل<sup>(١)</sup>

ظل أبو عبيدة عامر بن الجراح محاصراً دمشق ومعه من القادة خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهم، وكان في جنوب الشام جيش بقيادة عمرو ابن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة رضي الله عنهما. وقد جاءت الأنباء إلى أبي عبيدة أن جيشاً كبيراً للروم قادم نحو المسلمين، وعلم أنهم اتجهوا نحو فلسطين، ولعلهم أرادوا أن يكرروا محاولتهم الأولى يوم أجنادين حيث وجهوا قوتين كبيرتين لجيشين منفصلين عن الجيش الإسلامي الرئيس، وقد علمنا سابقاً أن خالد بن الوليد قضى على محاولتهم تلك بجمع الجيوش الإسلامية والاتجاه بها إلى أجنادين وكانت النتيجة نصراً مؤزرًا للمسلمين.

وفي هذه المرة بعد مشاورة بين أبي عبيدة وخالد، قرر أبو عبيدة إبقاء جيش حول دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان، ثم التوجه ببقية الجيش جنوباً لمواجهة جيش الروم. وخوفاً من أن يدرك جيش الروم جيش المسلمين في فلسطين فقد قدم أبو عبيدة خالدًا في خمسمائة وألف من الفرسان.

ومعروف أن خالدًا وحده يكفي مع مئات من الفرسان لإرهاب جيش كبير، وقد سار يسابق الريح حتى أدرك مؤخرة جيش الروم وقد دخل أوائهم عسكرهم، فهجم عليهم وقتل منهم كثيرين، وغنم من أموالهم، وأفلت من أفلت منهم منهزمين حتى دخلوا معسكرهم<sup>(٢)</sup>.

وواصل خالد سيره حتى لقي عمرو بن العاص فعسكر قريباً منهم.

وفي هجوم خالد هذا على مؤخرة جيش مكون من عشرين ألفاً ما يكشف لنا عن قوة المسلمين واستهانتهم بأرواحهم إلى جانب خور الروم وجبنهم، وضياع المسؤولية فيهم.

---

(١) كانت هذه المعركة في ٢٨ ذي القعدة عام ثلاثة عشر للهجرة - انظر «الطريق إلى دمشق» لأحمد عادل كمال/٣١٤.

(٢) فتوح الشام للأزدي/١١٠.

فلو أن فرقة من جيش الكفار هجمت على جيش المسلمين لكانت النتيجة أن يطوقها الجيش ويبيد جميع أفرادها. ولقد كانت فرصة للروم أن يتخلصوا من أبرز قواد جيش المسلمين الذي دوخهم وشتت أفكارهم، ولكن الشيء الذي كان يهيمن عليهم عند اللقاء أن يخلصوا أنفسهم من هجوم المسلمين الصاعق، فكان أقرب تفكير يراودهم أن يفروا عند اللقاء.

### بين يدي المعركة:

قال أبو اسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي في سياق هذه المعركة: وكان المسلمون حيث نزلوا بهم ليس شيء أحب إليهم من معاجلتهم، وكانت الروم ليس شيء أحب إليهم من مطاولة المسلمين رجاء المدد من صاحبهم، ولأن المسلمين لم يكونوا في مثل ما فيه الروم من الخصب والكفاية.

وأقبل المشركون يُفجرون المياه بينهم وبين المسلمين ليطاولوهم لما وجدوا من صبر المسلمين وجدّهم، ونصر الله إياهم، فهم يخافون إن هم عاجلوهم أن يقعوا منهم في شدة شديدة، أو ينهزموا هزيمة قبيحة، فهم يدافعون ويطاولون ما استطاعوا.

وأقبل المسلمون يخوضون إليهم ما فجروا عليهم، ويمشون في الوحل، فلما رأى ذلك الروم منهم، وأنهم لا يمنعهم منهم [الماء] خرجوا، فعسكروا ووطنوا نفوسهم على القتال، وكانوا في كل يوم يزدادون، ويأتيهم المدد من الرساتيق والقرى، ومن كان على دينهم.

وأمر أبو عبيدة حين بلغه ذلك فقال للمسلمين: أغيروا عليهم، وأغيروا على أهل القرى والسواد والرساتيق، ففعلوا ذلك، فقطعوا عنهم المدد والميرة<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجد أولئك الصحابة رضي الله عنهم عزائمهم قوية، فالذي يعدّه الأعداء عوائق دون الزحف والتقدم لا يكون كذلك عند أولئك المجاهدين، لأنهم قد ألفوا حياة الخشونة والصبر على الشدائد.

وإذا كان الأعداء قد عزموا على المطاولة والتأخير لتصل إليهم الأمداد فإنهم أمام أناس قد تدثروا بالحزم الشديد، وتلبسوا بالعزم الأكيد على المناجزة واغتنام

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١١٢.

الفرص، فقد حالوا بين أعدائهم ووصول أي مدد بالغارات السريعة المفاجئة التي شكلت طوقاً حول الأعداء.

ومن أمثلة هذه الغارات ما ذكره الأزدي في سياق روايته قال: فخرج صفوان ابن المعطل الخزاعي، ومعن بن يزيد بن الأحنس السلمي يوماً في خيل لهم، فأغاروا، فغنما غنائم كثيرة، فلما انصرفوا عرضت لهما الروم، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وإنما كانا جميعاً في نحو من مائة فارس، وخرج الدرنجات<sup>(١)</sup> في خمسة آلاف خيل، فطاردهم، وصبروا لهم، واحتسبوا في قتالهم، ثم إن الروم غلبوهم على غنيمتهم.

ثم إن حابس بن سعيد الطائي جاء في نحو من مائة رجل من طيء، فحمل عليهم، فزالوا غير بعيد، ثم حملوا عليه، فردّوه وأصحابه حتى ألحقوهم بالمسلمين، ثم انصرفوا، وقد بغوا، وهم يظنون أن هذا ظفر منهم، ولم يقتلوا أحداً، ولم يهزموا جمعاً<sup>(٢)</sup>.

وهذا مثل من شدة جلد المسلمين آنذاك وقوة صبرهم وشجاعتهم، حيث صبر مائة لخمسة آلاف وقاوموهم ولم يستطع الأعداء رغم كثرتهم أن يقتلوا مسلماً واحداً، ثم لما جاء المائة الآخرون كشفوا الأعداء وأزالوهم، وقد رضي الأعداء من الغنيمة أن يعودوا سالمين قد أحرزوا أموالهم، وكأنهم قد يسوا من قتال المسلمين.

قال الأزدي في سياق روايته: فلما انصرفوا إلى رحالهم وعسكرهم أرسلوا إلى أبي عبيدة أن اخرج أنت ومن معك من أصحابك، وأهل دينك من بلادنا التي تُنبت الحنطة والشعير، والفواكه والأعشاب والثمار، فلستم لها بأهل، وارجعوا إلى بلادكم، بلاد البؤس والشقاء، وإلا أتيناكم فيما لا قبل لكم به، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف.

فردّ عليه أبو عبيدة فقال: أما قولكم، اخرجوا من بلادنا، فلستم لها ولما تبت بأهل، فلعمري ما كنا لنخرج منها، وقد أذلكم الله بنا فيها، وأورثناها، ونزعها من أيديكم، وصيرها لنا، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، والله مالك الملك

(١) يعني قائد الروم.

(٢) فتوح الشام للأزدي/١١٣.

يؤتي الملك من يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذل من يشاء، وأما قولكم في بلادنا إنها بلاد البؤس والشقاء فصدقتم، وما نجعل ما قلتم، إنها كذلك، وقد أبدلنا الله بها بلاد العيش الرفيع، والسعر الرخيص، والأنهار الجارية، والثمار الكثيرة، فلا تحسبونا تاركها، ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها، فأقيموا، فوالله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبسّد خضراءكم، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان رد أبي عبيدة؛ رد العالم الموقن، فالأرض ليست ملكاً للبشر وإنما هي ملك لرب البشر جل جلاله، فهو يورثها من يشاء من عباده، وقد علم الصحابة رضي الله عنهم بمقتضى بشارات النبي ﷺ أن الله تعالى سيورث المسلمين ديار الفرس والروم، فحروب المسلمين ليست كحروب سائر الأمم التي تحارب لتأكل الضعفاء وتوسع ملكها، بل هي حروب ذات هدف أعلى ومقصد أسمى، هو إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دولة الإسلام التي هي أحق بوراثة الأرض من جميع الأمم التي لا تدين بالإسلام.

### محاورة معاذ مع زعماء الروم:

قال محمد بن عبد الله الأزدي في سياق روايته: فأرسلوا إلى أبي عبيدة أن أرسل إلينا رجلا من صلحاءكم نسأله عما تريدون، وما تسألون وما تدعون إليه، ونخبره بذات أنفسنا، وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم.

فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل، فأتاهم على فرس له، فلما دنا منهم نزل عن فرسه، وأخذ بلجامه ثم أقبل إليهم يقود فرسه، فقالوا لبعض غلمانهم: انطلق إليه فأمسك له فرسه.

فجاء الغلام ليمسك له دابته، فقال معاذ: أنا أمسك فرسي، لا أريد أن يمسه أحد غيري، فأقبل يمشي إليهم، فإذا هم على فرس وبسط وغمارق<sup>(٢)</sup> تكاد الأبصار أن تغشى منها.

(١) فتوح الشام للأزدي/١١٣-١١٤.

(٢) جمع نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة.

فلما دنا من تلك الثياب قام قائماً<sup>(١)</sup>، فقال له رجل: أعطني دابتك، أمسكها لك، وادن أنت فاجلس مع هؤلاء الملوك في مجالسهم، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم، وقد بلغهم صلاح وفضل عند من أنت منهم، فهم يكرهون أن يكلموك جلوساً، وأنت قائم، فاجلس معهم.

فقال معاذ للترجمان: إن نبينا ﷺ أمرنا أن لا نقوم لأحد من خلق الله، ولا يكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة، والرغبة إليه، فليس قيامي هذا لكم، ولكنني قمت إعظماً للمشبي على هذا البسط والجلوس على هذه النمارة التي استأثرت بها على ضعفائكم وأهل ملئتكم، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها، وقد زهد الله في الدنيا وذمها، ونهى عن البغي والسرف فيها، فأنا أجلس هاهنا على الأرض، وكلموني أنتم بحاجتكم من ثم، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم، فليفهمني ما تقولون، وليفهمكم ما أقول.

ثم أمسك برأس فرسه، وجلس على الأرض عند طرف البساط، فقالوا له: لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك، وإن جلوسك على الأرض متحياً صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك.

فأخبره الترجمان بمقالهم: فجثا معاذ على ركبتيه، واستقبل القوم بوجهه، وقال للترجمان: قل لهم إن كانت هذه المكرمة التي يدعوني إليها استأثرت بها على من هو مثلكم، إنما هي للدنيا التي زهد الله فيها، فهي عندكم مكرمة في الدنيا، فهذه المكرمة لكم، ولا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها، ولا في شيء يباعدنا من ربنا، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم - فأنتم بها مستأثرون على ضعفائكم - مكرمة لمن كانت في يديه منكم عند الله، فهذا خطأ من قولكم، وجور من فعلكم، وإنه لا يدرك ما عند الله بالخطأ، ولا بخلاف ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله من الزهادة في الدنيا، وأما قولكم، إن جلوسي على الأرض متحياً صنيع العبد بنفسه، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعت، وأنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا أستأثر لشيء من مال

(١) أي وقف ولم يجلس، والمراد بالثياب الفرش.

الله على إخواني من أولياء الله، وأما قولكم أنني أزریت بنفسي، فإن كان ذلك فإنما هو عندكم وليس ذلك عند الله كذلك، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك، وإن قلت إن دخل على ذلك عباد الله فقد أخطأتم خطأً بيناً لأن أحبَّ عباد الله إليه المتواضعون لله، القريبون من عباد الله الذين لا يشغلون أنفسهم بالدنيا، ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة.

قال، فلما فسر هذا الترجمان لهم نظر بعضهم إلى بعض، وتعجبوا مما سمعوا منه، وقالوا لترجمانهم: قل له، أنت أفضل أصحابك؟

فقال معاذ: عند الله؟! معاذ الله أن أقول ذلك، وليتني لا أكون شرهم.

قال: فسكتوا عنه ساعة، لا يكلمونه، وهم يتكلمون فيما بينهم، فلما احتبسوا عنه لا يكلمونه قال لترجمانهم: قل لهم إن كانت لهم حاجة في كلامي، وإلا انصرف عنهم.

فقال لهم الترجمان ذلك، فأقبلوا عليه، فقالوا لترجمان: قل له، أخبرونا ما تطلبون، وإلى ما تدعون إليه، وما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة، وليسوا منكم ببعيد، وتركتم أرض فارس، وقد هلك ملك فارس، وهلك ابنه، وإنما تملكهم اليوم النساء، ونحن ملكنا حي، وجنودنا عظيمة كثيرة، وإن افتتحت من مدائننا مدينة أو من قرانا قرية، أو من حصوننا حصنا، أو هزمت لنا عسكرياً، أظنتم أنكم قد ظفرتم بجماعتنا، وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم، أو فرغتم مما وراءنا منا ونحن عدد السماء وحصى الأرض؟، وأخبرونا لم تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا؟

فلما قالوا هذا القول، وفسره الترجمان لمعاذ سكتوا، فقال معاذ لترجمان: قد فرغوا؟ قال له: نعم، قال: فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذاكر حمد الله الذي لا إله إلا هو، والصلاة على محمد نبيه ﷺ وأن أول ما أدعوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله وحده، وبمحمد ﷺ، وأن تصلوا صلاتنا، وتستقبلوا قبلتنا، وأن تستنوا بسنة نبينا ﷺ وتكسروا الصليب، وتجتنبوا شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، ثم أنتم منا ونحن منكم، وأنتم إخواننا في ديننا، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن أبيتم

فأدوا الجزية إلينا في كل عام وأنتم صاغرون، ونكف عنكم، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين فليس شيء مما خلق الله عز وجل نحن قابلوه منكم، فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، فهذا ما نأمركم به، وماندعوكم إليه.

وأما قولكم ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم بعيد، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملكهم، فإني أخبركم عن ذلك، ما بدأنا بقتالكم إلا أنكم أقرب إلينا منهم، وأنكم عندنا جميعاً بالسوء، وما جاءنا كتابنا بالكف عنهم، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا ﷺ، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] وكنتم أقرب إلينا منهم، فبدأنا بكم لذلك، وقد أتاهم طائفة منا وهم يقاتلونهم، وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم وينصرهم.

وأما قولكم إن ملكنا حيّ وإن جنودنا عظيمة، وإنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض وتؤيسوننا من الظهور عليكم، فإن الأمر في ذلك ليس إليكم، وإنما الأمور كلها إلى الله، وكل شيء في قبضته، فإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا، وأميرنا رجل منا، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا، وإن هو سرق قطعنا يده، وإن زنا جلدناه، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه، وإن جرحه أفاده من نفسه، ولا يحتجب منا، ولا يتكبر علينا ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاء الله علينا، وهو كرجل منا.

وأما قولكم جنودنا كثيرة، فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض فإننا لا نثق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها<sup>(١)</sup>، ولكننا نتبرأ من الحول والقوة، ونتوكل على الله عز وجل، ونثق بربنا، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها وقال تبارك وتعالى ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(١) يعني إن كنتم تعتمدون على كثرة الجنود فلسنا كذلك.



وأما قولكم ، كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا ، فأنا أخبركم عن ذلك ، نحن نؤمن بنبينا ، ونشهد أنه عبد من عبيد الله ، وأنه رسول من رسل الله ، وأن مثله عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له : كن ، فيكون ، ولا نقول إنه الله ، ولا نقول إنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة ، ولا أن له صاحبة ولا ولدا ، ولا أن معه آلهة أخرى ، لا إله إلا هو ، تعالى عما تقولون علوا كبيرا ، وأنتم تقولون في عيسى قولا عظيماً ، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول ، وأنتم بنوة نبينا ﷺ كما تجدونه في كتابكم ، وكما نؤمن نحن بنبينا ، وأقررتم بما جاء به من عند الله ، ووجدتم الله ، ما قاتلناكم ، بل كنا نسالكم ونواليكم ونقاتل معكم عدوكم .

قال : فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له : ما نرى ما بيننا وبينك إلا متباعداً ، وقد بقيت خصلة نحن نعرضها عليكم ، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم وإن أبيتم فهو شر لكم ، نعطيكم البلقاء وما إلى أرضكم من سواد الأرض وتتحوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ، ونكتب عليكم كتاباً نسمي فيه خياركم وصلحاءكم ، ونأخذ عهودكم ومواثيقكم على ألا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن معكم نعينكم عليهم حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم .

فقال معاذ : هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا ، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاث التي وصفت لكم ما فعلنا .

فغضبوا عند ذلك ، وقالوا نتقرب إليك وتتباعد عنا؟ اذهب إلى أصحابك ، فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً .

فقال معاذ : أما الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون .

وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة ، فأخبره بما قالوا وبما رد عليهم<sup>(١)</sup> .

فهذه المحاور فيها مواقف عالية منها : وقوف معاذ رضي الله عنه من مظاهر الترف والخيلاء موقف العزة والإباء حيث أبي أن يجلس معهم في مجالسهم

(١) فتوح الشام للأزدي / ١١٥-١٢١ .

الوثيرة التي تكاد تخلب الأبصار بمنظرها الباهر، وعدت تلك الفرش من الإسراف والخيلاء اللذين جاء النهي عنهما في الإسلام، إضافة إلى أن تلك المظاهر الغالية الثمن مما استأثر به كبراء الروم على ضعفائهم، فاخصت بهذه المظاهر طبقات معينة على حساب الضعفاء الذين أرهقتهم الضرائب من أجل رفاهية تلك الطبقات، ولقد كانت هذه الإشارة من معاذ كافية لإثارة العامة الذين سلبت حقوقهم من أجل تحقيق مستوى أعلى من الرفاهية لفئة معينة من الناس.

وحيثما وصفوه بأنه قد احتقر نفسه لما جلس على الأرض أبان لهم بأن رفعة الإنسان إنما تكون بارتفاع منزلته عند الله تعالى، وليس عند البشر المنحرفين عن منهج الله جلا وعلا.

لقد قالوا هذا الكلام وعقلاؤهم يفهمون سر عظمة المسلمين، وأن سبب جرأتهم على الأمم الكبرى وتفوقهم عليهم في القتال راجع إلى تحليهم جميعاً بمكارم الأخلاق ونظرهم إلى معالي الأمور، من الزهد بمتاع الدنيا، والتواضع والعفة، والكرم والعدل في الحكم والورع عن حقوق الناس، وفوق ذلك صلتهم القوية بالله تعالى وقربهم منه واعتصامهم به، ولقد سبق بيان اعتراف بعض كبارهم بذلك للمسلمين ويأسهم من الانتصار عليهم لتفوقهم عليهم في مجال الأخلاق.

ومن أفضل ما بين معاذ لزعماء الروم أنهم إذا كانوا يعتزون بملكهم وبما له من القوة والرفعة فإن ملك المسلمين هو الله عز وجل الذي يملك السموات والأرضين ومن فيهن، فهو جل وعلا الذي يعظمه المسلمون ويقدمونه وحده، فأما أميرهم فإنه كرجل منهم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وهو مثلهم محكوم بشريعة الإسلام لا يمكن أن يتجاوزها.

وكذلك رده على اعتزازهم بكثرة جنودهم حيث أبان لهم أن العبرة ليست بكثرة العدد ولا بقوة العدد وإنما العبرة بمقدار ما تحظى به الأمة من الصلة بالله تعالى والتوكل عليه.

ومن أروع ما أجابهم به بيان أن المؤمنين لا يفرون أبداً من المعركة، فإما أن يقتلوا عن آخرهم أو ينتصروا على أعدائهم ويذلّوهم، وفي هذا تهديد بليغ لهم يجعلهم ينهزمون نفسياً قبل دخول المعركة.

وهنا انتهت هذه المحاوراة الشيقة التي أظهر بها معاذ رضي الله عنه عزة الإسلام والمسلمين، وبين أنهم ليسوا طلاب دنيا حتى يقبلوا بأنصاف الحلول، وإنما قدموا لهدف واضح بينه لهم نبيهم ﷺ وبين لهم المنهج الذي يسرون عليه للوصول إلى هذا الهدف، فهم ملتزمون به لا يحدون عنه في أي مكان وزمان، في حال القوة أو في حال الضعف، وأنهم مستعدون لأن يموتوا جميعاً في سبيله.

### محاورة أبي عبيدة مع رسول الروم:

قال أبو إسماعيل محمد الأزدي في سياق روايته: فإنهم لكذلك إذ بعثوا إلى أبي عبيدة رجلا يخبره عنهم، قالوا: إنك بعثت إلينا رجلا لا يقبل النصف، ولا يريد الصلح ولا ندري أعن رأيك ذلك أم لا، وإنما نريد أن نبعث إليك رجلا منا يعرض عليك النصف، ويدعوك إلى الصلح، فإن قبلت ذلك منه ففعل ذلك يكون خيراً لك ولنا، وإن أبيت فلا نراه إلا شراً لك.

فقال أبو عبيدة: فابعثوا من شئتم.

فبعثوا إليه رجلا طويلاً أحمر، أزرق (العينين) فأقبل حتى أتى أبا عبيدة، فلما دنا من المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من أصحابه، ولم يدر أفيهم هو أم لا، ولم يُرهبه مكان أمير<sup>(١)</sup>، فقال لهم: يا معشر العرب، أين أميركم؟

فقالوا: ها هو ذا، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض وهو مُتَنَكِّبُ القوس، وفي يده أسهم، وهو يقلبها.

فقال له الرسول: أنت أمير هؤلاء القوم؟ قال: نعم.

قال: فما يجلسك على الأرض؟ رأيت لو كنت جالساً على وسادة أو كان تحتك بساط، أو كان ذلك واضعك عند الله أو مانعك من الإحسان؟

قال أبو عبيدة: إن الله لا يستحي من الحق، ولأصدقنك عما قلت، ما أصبحت أملك ديناراً ولا درهماً وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم يكن عندي حتى استقرضت من أخي هذا نفقة كانت

(١) أي لم ير مظاهر الإمارة التي تبعث على الرهبة.

عنده - يعني معاداً - فأفرضنيها، ولو كان عندي أيضاً بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي، وأجلس أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني على الأرض، ونحن عباد الله نمشي على الأرض، ونجلس على الأرض، ونأكل على الأرض، ونضطجع على الأرض، وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئاً، بل يعظم الله به أجورنا، ويرفع درجاتنا، ونتواضع بذلك لربنا، هات حاجتك التي جئت بها.

فقال له الرومي: إنه ليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح؟ ولا شيء أبغض إليه من البغي والفساد، وإنكم قد دخلتم بلادنا فظهر منكم فيها الفساد والبغي، ويقال، ما بغى قوم وأفسدوا في الأرض إلا أهتمهم الله بهلاك، وأنا أعرض عليكم أمراً لكم فيه حظٌّ إن قبلتموه، نحن نعطيكم دينارين، وثوباً ثوباً، ونعطيكم أنت ألف دينار، ونعطي الأمير الذي فوقك - يعنون عمر - ألفي دينار، وتنصرفون عنا، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء، وما والى أرضكم من سواد الأردن، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتاباً يستوثق فيه بعضنا من بعض بالإيمان المغلظة، ليقومون به وليفينا بما عاهد الله عليه.

قال: فحمد الله أبو عبيدة، وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ ثم قال: إن الله بعث فينا رسولا نبياً، وأنزل عليه كتاباً حكيمًا، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم، رحمة منه للعالمين، وقال لهم: فإن الله إله واحد، عزيز حكيم، عليّ مجيد، وهو خالق كل شيء، وليس كمثل شيء، وأمرهم أن يوحدوا الله الذي لا إله إلا هو، ولا يتخذوا له صاحبة ولا ولداً، ولا يتخذوا معه آلهة أخرى، وأن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه، وأمرنا ﷺ، فقال: إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل، فمن آمن وصدق فهو أخوكم في دينكم، له مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية فاقتلوهم وقتلوهم فإن قتلتم المحتسب بنفسه شهيد عند الله، وهو في جنات النعيم، وقتل عدوكم في النار، فإن قبلتم ما سمعتم مني فهو لكم، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فقال الرومي: قد أبيتم إلا هذا؟ فقال له أبو عبيدة: نعم، فقال له الرومي: أما والله على ذلك، إني لأراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم.

فانصرف الرومي وهو رافع يديه إلى السماء، وهو يقول: اللهم إنا قد أنصفناهم، فأبوا علينا، اللهم فانصرنا عليهم<sup>(١)</sup>.

وبعد: فإن في هذه المحاوراة البليغة مواقف عالية: منها ما قام به أبو عبيدة عامر بن الجراح من بيان جملة من مكارم الأخلاق لذلك الرومي الموفد إليهم، وذلك حينما اعترض على جلوسه على الأرض وهو أمير، فأبان له أبو عبيدة أن من مظاهر سمو الأخلاقي عند الإنسان أن يتصف بالتواضع والعفة والمواساة، وأن هذه الأخلاق لا تتنافى مع الإمارة، بل هي من دعائم قوتها وثباتها، ومن الدلائل على رجاحة عقل المتصف بها وسداد رأيه.

ومنها جوابه على عروض المساومة التي تقدم بها مندوب الروم، حيث بين له الهدف الأعلى الذي بعث الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ وهو أن يعبد الناس ربهم جلا وعلا وحده لا شريك له فإن وحدوا الله تعالى ودخلوا في الإسلام فهم إخوة للمسلمين وإن أبوا فليدفعوا الجزية التي تعني خضوعهم للمسلمين مقابل تمتعهم بحماية دولة الإسلام، فإن أبوا فلا بد من قتالهم، على أن مما يقوي المسلم ويسلّيه أنه من قتل فهو إلى جنات النعيم، ومما يضعف الكافر ويحسره أنه إن قتل فإلى الجحيم، فكيف يرضى عاقل لنفسه بالحرمان من الجنة والخلود في النار.

ومع هذا الوضوح الذي بينه أبو عبيدة فإن ذلك الرومي لم يستخدم شيئاً من عقله وفكره ليزن به كلام أبي عبيدة فيعرف هل هو حق أم باطل، وإنما الذي كان مهيمناً عليه هو بيان المهمة التي جاء من أجلها وهي الدعوة إلى الصلح أولاً ثم التهديد بقوة الروم ثانياً إن لم ينجح الصلح.

وهكذا تكون عبودية البشر للبشر حيث يلغي الأتباع عقولهم، ويحصرون تفكيرهم على النجاح في أداء المهمة التي كلفهم بها سادتهم.

(١) فتوح الشام للأزدي ١٢٢-١٢٤.

## وصف المعركة:

لما انتهت مفاوضات الروم قال أبو عبيدة: أصبحوا أيها المسلمون وأنتم تحت راياتكم وعلى مصافكم.

وزحف المسلمون إليهم، وتعرض فرسان المسلمين للروم ولكن الروم ظلوا في معسكرهم ذلك اليوم، ولا يستطيع المسلمون الوصول إليهم من أجل الوحل الذي صنعوه بينهم وبين المسلمين.

ثم خرج إليهم فرسان المسلمين بقيادة خالد، وبقي المشاة مع أبي عبيدة في فحل وقد أخرج فرسانهم، فأمر خالد قيس بن هبيرة في مجموعة من فرسان المسلمين بأن يهاجموهم فهاجمهم قيس فهزمهم وفرقهم. ثم أخرج الروم طائفة أخرى من الفرسان فأمر خالد ميسرة بن مسروق بالخروج إليهم فخرج في مجموعة أخرى فهزمهم.

ولما رأى الروم ذلك أخرجوا لهم عدداً كبيراً من الفرسان بقيادة قائد من عظمائهم، فقسم فرسانه قسمين، وأرسل قسماً نحو خالد بن الوليد فصمد لهم بفرسانه ولم يتزحزح، ثم أرسل قائدهم القسم الآخر نحو خالد أيضاً فصمد لهم.

ولما رأى خالد قوة معنوية المسلمين وتضعف فرسان الروم قال لفرسانه: إنه لم يبق من جد القوم ولا حدهم ولا قوتهم إلا ما قد رأيتم فاحملوا معي بأهل الإسلام حملة واحدة واتبعوهم ولا تغفلوا عنهم رحمكم الله.

وحمل خالد بمن معه فاكتسح من أمامه منهم، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم، وحمل ميسرة بن مسروق العبسي على الذين أمامه فهزمهم، واتبعهم المسلمون يقتلون منهم وقد اختل نظامهم حتى اضطروهم إلى الانسحاب إلى معسكرهم.

وأراد خالد أن يغتنم فرصة ارتفاع معنوية المسلمين وانحطاط معنوية الروم فقال لأبي عبيدة: إن هزيمتنا خيل المشركين قد دخل رعبها قلوب جماعتهم، فكلهم قلبه مرعوب متخوف لمثلها منا مرة أخرى، فناهض هؤلاء القوم غداً بالغداة مادام رعب الهزيمة في قلوبهم، فإنك إن أخرت قتالهم أياماً ذهب رعب هذه الهزيمة من قلوبهم ونسوها واجترؤوا علينا.

قال أبو عبيدة: فانهضوا على بركة الله غداً بالغداة.

وقام أبو عبيدة بتعبية جيشه في الثلث الأخير من الليل، وجعل على ميمنته معاذ بن جبل وعلى ميسرته هاشم بن عتبة، وعلى المشاة سعيد بن زيد، وعلى الفرسان خالد بن الوليد.

ثم وعظ أبو عبيدة المسلمين مواعظ بليغة منها قوله: كونوا عباد الله أولياء الله، وارغبوا فيما عند الله أشد من رغبتكم في الدنيا، ولا تواكلوا فتخاذلوا، وليغن كل رجل منكم قرنه، وأقدموا إقدام من يريد بإقدامه ثواب الله، ولا يكن من لقيكم من عدوكم أصبر على باطلهم منكم على حقكم.

وهكذا أمر أبو عبيدة المسلمين بأن يتولوا الله تعالى وذلك بنصرة دينه، وأن تكون قلوبهم حاضرة مع مستقبلهم الأخرى، ونهاهم عن التواكل لأن المتواكل قد أهدر جزءاً من طاقته اعتماداً على وقوف إخوانه، وأوصى كل رجل معه زميل أن يغني زميله ببذل كل طاقته بدلاً من أن يعتمد على زميله، كما حثهم على الإخلاص لله تعالى في جهادهم حتى يحصلوا على ثواب المخلصين ويكون عطاؤهم في القتال أقوى وأبلغ، ثم يبين أن من النقص المشين والخسارة الفادحة أن يكون أهل الباطل أصبر على حماية باطلهم من أهل الحق على حقهم.

ثم نهض أبو عبيدة بالمسلمين إلى الروم يمشي ونهض المسلمون معه تحت راياتهم بسكينة وبصيرة ودعة وحسن رعة<sup>(١)</sup>.

وصنع الله للمسلمين ما لم يكن في حسابهم وأخرج الروم لهم من مكانهم الحصين، وذلك أن «سقلاز» قائد الروم أراد أن يغتنم الفرص كما يصنع قواد المسلمين، فبادر إلى تعبئة جيشه ليهاجم على معسكر المسلمين ظناً منه أنهم نيام وأنهم لا يفكرون في عبور النهر إليهم، فلما تجاوز بجيشه منطقة الأوحال وأشرف على النهر لم يفاجأ إلا بجيش المسلمين يعبر النهر وكان النهر ضحلاً لا يعوق السير، فكان لا بد للروم من اللقاء والمواجهة.

ولما رأى الروم ضعف مستوى الأداء لفرسانهم وخيولهم أمام فرسان وخيول المسلمين ابتكروا حيلة لرفع مستوى فرسانهم فجعلوا في صحبة كل فارس رجلاً

(١) فتوح الشام للأزدي ١٢٨-١٣٥.

راميًّا وآخر يحمل رمحًا، وهذا يعني أنه إذا واجه فارسهم فارسًا من المسلمين تصدى له الرامي فإذا أفلت منه قد لا يفلت من حامل الرمح.

وكان خالد قد تقدم بالفرسان ومعه مساعدها قيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق، فلما رأى مكيدة الروم تراجع بفارسانه قليلا حتى لصق بجيش المسلمين من المشاة، وهو يفكر بحيلة يخرج بها فرسان المسلمين من هذا المأزق.

وهده الله لذلك، فقد رأى أن فرسان الروم مُترَكِّزون في قلب جيشهم، وميمنتهم وميسرتهم من المشاة. ولم يكونوا بحاجة إلى صف خيولهم على طول جيشهم لأن جيشهم أضخم بكثير من جيش المسلمين.

وكان فرسان المسلمين مُقسَّمين إلى ثلاثة أقسام: قسم بقيادة خالد نفسه، وقسم جعل عليهم خالد قيس بن هبيرة، وقسم جعل عليهم ميسرة بن مسروق، فلما رأى خالد ما فعل الروم بفارسانهم أمر قيس بن هبيرة أن يذهب بفارسانه إلى ميسرة الروم فيغير على مشاتهم، وأمر ميسرة بأن يبقى في قلب جيش المسلمين، وذهب هو إلى ميمنة الروم ليغير على مشاتهم، وهدفه من ذلك أن يستدرج فرسان الروم للدفاع عن مشاتهم فيتجردوا بذلك من حماتهم من الرماة وحاملي الرماح، وفعلا انطلقت طائفة من فرسان الروم إلى ميمنتهم وطائفة أخرى إلى ميسرتهم متجردين من حماتهم، فقال خالد: الله أكبر أخرجهم الله لكم من رجالتهم شدوا عليهم.

ونجحت مكيدة خالد، وباءت مكيدتهم بالفشل، وشد عليهم خالد من جهة وقيس من الجهة الأخرى، حتى صرعوا عدداً كبيراً من فرسانهم وقد انتقضت صفوف الروم من قبل خالد وقيس وبقي قلب الروم، وقد هجم عليهم جيش المسلمين بفارسانهم ومشاتهم وثبت لهم الروم مدة ثم انهزموا أمامهم.

وقد ذكر الرواة أن هذه المعركة من أعنف المعارك التي خاضها المسلمون، وقد كان عدد المسلمين في حدود ستة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً وعدد الروم ما بين خمسين ألفاً وثمانين ألفاً على اختلاف الروايات، والفرق ليس كبيراً جداً بالنسبة لما ألفه المسلمون من كثرة عدد أعدائهم، وإنما كان مرجع ثبات الروم بعض الوقت



وشدة قتالهم لكونهم منتخبين من أشداء الروم وذوي البأس فيهم، ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف للمسلمين إلا ساعات من نهار ثم انهزموا.

وقد أسلمتهم هزيمتهم مع الليل إلى الأوحال التي صنعوها لتحول بينهم وبين هجوم المسلمين، فشاء الله أن تكون سبباً في هلاكهم فقد تورطوا فيها وهم ينسحبون فتصيدهم المسلمون فيها بالرماح ولم ينج منهم إلا قليل<sup>(١)</sup>.

ومما يصور شدة هذه المعركة وضراوتها ما أخرجه الأزدي من خبر سالم بن ربيعة قال: حمل ميسرة بن مسروق<sup>(٢)</sup> يومئذ ونحن معه في الخيل، فحملنا على القلب، وقد أخذ صف الروم ينتقض من قبل ميسرتهم وميمنتهم، ولم ينته الانتقاض إلى القلب، فثبتوا لنا وقاتلونا قتالاً شديداً، فصُرع ميسرة عن فرسه، وصُرعته معه، وخرج فرسي فعاد، ويعتق ميسرة رجلاً من الروم فاعتركا ساعة فصرعه ميسرة فقتله، ثم شد آخر على ميسرة فعانقه واعتركا ساعة فصرعه ميسرة وجلس على صدره وشدَّ عليه، فضربت وجه الرومي بالسيف فأطرت قحف رأسه ووقع ميتاً، ووثب ميسرة.

وأقبل إليَّ رجل منهم فضربني ضربة أدارني منها، وبصر به ميسرة فضربه فقتله، وركبنا منهم عدد كثير فأحاطوا بنا وظننا والله أنه الهلاك، إذ نظرنا فإذا نحن نسمع نداء المسلمين وتكبيرهم، وإذا صفوفهم قد قربت منا، وإذا الرايات قد غشيتنا، فشدَّ الله ظهورنا بإخواننا فانقشعوا عنا.

وحمل عليهم خالد بن الوليد على ميمنتهم فدقَّ بعضهم على بعض حتى دخلوا عسكرهم<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعد قال: كان معاذ ابن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصاً، وأمضاهم في رقاب الروم سيفاً، فبينما هو يحارب في ميمنة المسلمين إذ أقبلت جنود الروم تحوط عسكر المسلمين، فبرز إليهم معاذ بن جبل في رجاله ونادى فقال: أيها الناس اعلموا - رحمكم

(١) انظر فتوح الشام للأزدي / ١٢٨ - ١٣٣، تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٢-٤٤٣.

(٢) هو ميسرة بن مسروق العبسي رضي الله عنه أسلم قديماً ورسول الله ﷺ بمكة.

(٣) فتوح الشام للأزدي / ١٣٥ - ١٣٦.

الله - أن الله قد وعدنا بالنصر، وأيدكم بالإيمان، فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، واعلموا أن الله معكم، وناصركم على عبدة الأوثان<sup>(١)</sup>.

### مواقف جهادية:

هذا وقد كان لبعض قادة المسلمين وأبطالهم مواقف عالية في هذه المعركة الضاربة، فمن ذلك ما رواه محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبيه: أن خالدًا قاتل يومئذ قتالا شديدًا، ما قاتل مثله أحد من المسلمين، وما كان إلا حديثًا ومثلاً لمن حضره، ولقد كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يخالطهم، ثم يجالدهم حتى يفرقهم ويهزمهم ويكثر القتل فيهم.

قال: وسمعت من يزعم أنه قتل في ذلك اليوم أحد عشر رجلاً من بطارتهم وأشدائهم وأهل الشجاعة منهم، وكان يقاتلهم ويقول:

أضربهم بصارم مُهندٍ ضرب صليب الدين هاد مُهتدٍ

لا واهن القول ولا مُفند<sup>(٢)</sup>

وسياتي زيادة تنويه بجهاده في خبر هاشم بن عتبة.

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر ربيعة العنزي عن هاشم بن عتبة قال: والله لقد كنا يومئذ أشفقنا على خيلنا أول النهار، ثم إن الله نصرنا عليهم، فما هو إلا أن رأينا خيلنا قد نصرها الله على خيلهم فدعوت الناس إليّ وأمرتهم بتقوى الله وهزرت رايتي، ثم قلت: والله لا أردّها حتى أركزها في صفهم فمن شاء فليتبعني ومن شاء فليتحلف عني.

قال: فو الله الذي لا إله إلا هو ما أعلم أن أحداً من أصحاب رايتي تحلف عني حتى انتهيت إلى صفهم، فنضحونا بالنشاب فجثونا على الركب واتقيناهم بالدرك<sup>(٣)</sup>، ثم دنوت بلوائي وقلت لأصحابي: شدوا عليهم أنا فداؤكم، فإنها غنيمة الدنيا والآخرة، فشدت وشدوا معي، فاستقبلت عظيمًا منهم وقد أقبل نحوي فأوجزته الرمح<sup>(٤)</sup> فخر ميتا، وضاربناهم بالسيوف ساعة في صفهم.

(٢) فتوح الشام للأزدي / ١٣٦.

(٤) أي أسرعت إليه بالرمح.

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٣٧.

(٣) أي التروس التي يتقي بها المحارب.

قال: وحمل عليهم خالد بن الوليد من قبل ميسرتهم، فقاتلهم قتالا شديداً سريعاً ذريعاً، وانتقضت صفوف الروم من قبل خالد ومن قبلي، ونهد إليهم أبو عبيدة بالرجالة والناس<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك ما رواه الأزدي من خبر يحيى بن هانئ بن عروة المرادي: أن قيس ابن هبيرة قطع يومئذ ثلاثة أسياف، وكسر بضعة عشر رمحاً وكان يقاتل ويقول:

لا يُّعَدَنَّ كل فتى كَرَّارٍ ماضي الجنان خشن صبار  
حبوتهم بالخيل والأدبار<sup>(٢)</sup> تُقدم إقدام الشجاع الضَّاري

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر عبد الله بن قُرط الثمالي قال: وكان واثلة ابن الأسقع في خيل ابن هبيرة، فعرض له بطريق من كبارهم فبرز له واثلة وهو يقول في حملته:

لَيْثٌ وليث في مجال ضنك كلاهما ذو أنف ومعك<sup>(٣)</sup>  
أجول جَوْلَ صارم في العرك أو يكشف الله قناع الشك  
مَعَ ظَفَري بحاجتي وتركي

ثم حمل على البطريق فضربه ضربة فقتله<sup>(٤)</sup>.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن المؤرخين لم يسجلوا جميع المواقع التي جرت من المسلمين آنذاك، وإنما كانوا يكتفون بذكر بعض المواقع البارزة، وينبغي أن نعلم بأن جميع الذين شهدوا هذه المعارك من المسلمين قد بذلوا جهوداً كبيرة من طاقتهم، ولم يكونوا ينتظرون ثناءً من أحد لأنهم إنما يريدون وجه الله تعالى.

وإنما نقل الرواة ما حدث به بعض من شاهدوا هذه المعارك. وعلى سبيل المثال نجد أن القعقاع بن عمرو الذي كان من البارزين في حرب العراق وكان الرواة هناك ينقلون أخباره قد شارك في كثير من حروب الشام حيث قدم مع خالد، ولكن لم يذكر له إلا مواقع قليلة، وقد شهد هذه المعركة وكان له فيها أشعار سُجِّلت ومنها قوله:

(٢) لعله أراد الموت.

(٤) فتوح الشام/١٣٣.

(١) فتوح الشام/١٣٣-١٣٤.

(٣) الأنف الإباء، والمعك لي الخصم وغلبته.

وغداة فحل قد رأوني مُعلماً  
مازال الخيل العراب تدوسهم  
حتى رمين سراتهم عن أسرهم  
يوم الرداغ بعيد فحل ساعة  
ولقد أبرنا في الرِّداغ جموعهم  
والخيل تنحط والبلا أطوار  
في حوم فحل والهبا موار  
في ردغة ما بعدها استمرار  
وخز الرماح عليهم مدرار  
طراً ونحوي تشخص الأبصار<sup>(١)</sup>

### كتاب من أبي عبيدة لعمر:

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين نصره، وعلى الكافرين رجزه، أخبر أمير المؤمنين -أصلحه الله- أنا التقينا نحن والروم وقد جمعوا لنا الجموع العظام، فجاءونا من رؤوس الجبال وأطراف البحار، وظنوا أنه لا غالب لهم من الناس، فبرزوا لنا وبغوا علينا، وتوكلنا على الله ورفعنا رغبتنا إليه، وقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجالتنا، وكان القتال بين الفريقين ملياناً<sup>(٢)</sup> النهار، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين، منهم عمرو بن سعيد ابن العاص، وضرب الله وجوه المشركين، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، حتى اعتصموا بحصونهم، فأصاب المسلمون عسكرهم، وغلبوا على بلدهم، وأنزلهم الله من صياصهم<sup>(٣)</sup>، وقد قذف في قلوبهم الرعب.

فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت ومن قبلك من المسلمين على إعزاز دينه، وإظهار الفلج<sup>(٤)</sup> على المشركين، فادعوا الله لنا بتمام النعمة، والسلام عليك<sup>(٥)</sup>.

(١) تاريخ دمشق ٤٨٧/١، الطبعة الأولى.

(٢) الملي الساعة الطويلة من النهار، والمراد جزء منه.

(٣) الصياصي جمع صيصة وهي الحصن وكل ما امتنع به.

(٤) الفلج هو الظفر.

(٥) فتوح الشام للأزدي / ١٣٩-١٤٠.

وهذا الكتاب مثل من أمثلة كثيرة تدل على اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بالتوحيد الخالص، وذلك بإرجاعهم كل الأمور إلى حول الله تعالى وقوته، وشكره التام على نعمته جل وعلا.

وعلى هذا المنوال جاء كتاب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي يقول فيه:  
بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.  
أما بعد فإنه بلغني كتابك تذكر إعزاز الله لأهل دينه، وخذلان أهل عدواته، وكفايته إيانا مؤونة من عادانا، فالحمد لله على إحسانه إلينا فيما مضى، وحسن صنيعه لنا فيما غير، الذي عافى جماعة المسلمين وأكرم بالشهادة فريقتاً من المؤمنين، فهنيئاً لهم برضاء ربهم وكرامته إياهم، ونسأله ألا يحرمنا أجرهم ولا يفتننا بعدهم، فقد نصحوا لله وقضوا ما عليهم، ولربهم كانوا يعملون ولأنفسهم كانوا يهتدون<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٤١.

## حصار دمشق وفتحها

لقد تم حصار دمشق ثلاث مرات: الأولى بعد وصول خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق، حيث أصبح أميراً على الشام وانضم إليه أبو عبيدة بن الجراح بجيشه، وقد قطع هذا الحصارَ تجمُّعُ الروم في أجنادين حيث ذهب خالد وأبو عبيدة وبقية القادة بجيوشهم وقاتلوا الروم في أجنادين في شهر جمادى الأولى من العام الثالث عشر، ثم في مرج الصفر في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر كما سبق.

والثانية: بعد معركتي أجنادين ومرج الصفر، وفيها كانت وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر، وفيها كان عزل خالد وتولية أبي عبيدة على الشام رضي الله عنهما.

والثالثة: بعد معركة فحل وهي الأخيرة، وفيها تم فتح دمشق في شهر رجب من العام الرابع عشر للهجرة النبوية<sup>(١)</sup>.

وبعد هذه المعركة الكبيرة غلب المسلمون على جميع بلاد الأردن، وكانت نهاية هذه المعركة في آخر شهر ذي القعدة من العام الثالث عشر، وبعد أن قام الجيش الإسلامي بإخضاع ما بقي من القرى والأرياف توجهوا إلى دمشق وعادوا مرة أخرى إلى حصارها.

وظل أبو عبيدة مرابطاً بجيشه عند باب الجابية غربي دمشق، وخالد بن الوليد عند الباب الشرقي، ويزيد بن أبي سفيان عند الباب الصغير إلى باب كيسان جنوبي دمشق، وعمرو بن العاص على باب توما شمالي دمشق، وكذلك شرحبيل ابن حسنة على باب الفراديس شمالي دمشق.

وقد طال حصار المسلمين لها لأنها كانت محصنة بسور عظيم مبني بالحجارة الضخمة، وكان ارتفاعه ستة أمتار تقريباً، وسماكته خمسة أمتار، فكان من

---

(١) انظر تحقيق ذلك في «الطريق إلى دمشق» لأحمد عادل كمال / ٣٥٧.

الصعب جداً اقتحامه بأي وسيلة آنذاك كما أن حول السور من خارجه خندق فيه ماء غزير، فكان لابد لمن أراد الوصول أن يسبح في الماء.

وقد أغار المسلمون على ما حول دمشق، وقطعوا جميع الإمدادات التي تصل إليها خاصة من طريق حمص حيث وجه أبو عبيدة جيشاً بقيادة ذي الكلاع الحميري ليصد أي إمداد يرسله الروم إلى دمشق وقد تصدى لجيش رومي جاء لهذا الغرض.

ولقد يئس الروم من الإمدادات، ولكنهم كانوا ينتظرون بالمسلمين حلول فصل الشتاء لظنهم أنهم لن يستطيعوا البقاء في العراء مع شدة البرد، ولقد كان حاكم دمشق الرومي يائساً من الانتصار على المسلمين من قبل حصارهم.

ومما جاء في هذا المعنى ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله من حديث الوليد بن مسلم قال: أخبرني من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالا: لما نزل المسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر، فذهبنا نتسوق منها قبل ذلك، فبينما نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه، فقال: أنتما من العرب؟ قلنا: نعم، قال: وعلى النصرانية: قلنا: نعم، فقال: ليذهب أحدكما فليتجسس لنا عن هؤلاء القوم ورأيهم، وليثبت الآخر على متاع صاحبه، ففعل ذلك أحدنا، فلبث ملياً ثم جاءه فقال: جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقاً، أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها، ويثقفون القنا، لو حدثت جليساك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر، قال: فالتفت إلى أصحابه وقال: أتاكم منهم مالا طاقة لكم به<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أخرى لهذا الخبر ذكرها الحافظ ابن عسساكر من خبر يحيى بن يحيى الغساني عن هذين الرجلين قالا: فبينما نحن على برج بابها الشرقي إذ نشب أصحاب خالد بن الوليد القتال، ودنا رجل منهم في يده اليمنى السيف، وفي يده اليسرى الدرة فنادى بالبراز، فقال لنا: ما يقول: قلنا: إنه يدعو إلى المبارزة، فأنزلوا حبشياً كالبعير مستلثماً<sup>(٢)</sup> عليه سلاحه، فتداني فضربه المسلم بقتله، ثم نادى بالبراز فأنزلوا إليه صاحب بندهم، أجلسوه على باب دكوه، فتداني فضربه المسلم بقتله، ثم نادى بالبراز، فقال: قل للشيطان يبارزك<sup>(٣)</sup>.

(٢) أي قد لبس اللأمة وهي سلاح الوقاية.

(١) البداية ٧ / ١٥، تاريخ دمشق ٢ / ٩٦.

(٣) تاريخ دمشق ٢ / ١١٨.

فهذا المجاهد البطل الذي لم يُذكر اسمه قتل اثنين من أبطال الروم مبارزة، ثم لما يُسوا من مبارزته قالوا تلك الكلمة التي تدل على اعترافهم بقوة المسلمين وعجزهم عن مقاومتهم مقاومة الند للند، ومن المعروف أن المبارزة ترفع من معنوية الجيش الذي ينتصر مبارزوه، بينما تهبط من معنوية الجيش الذي يهزم مبارزوه، ولذلك يُقدم عليها المسلمون كثيراً لثقتهم بأبطالهم.

وفي رواية أخرى لابن عساكر: فلما طال عليهم الحصار دسَّ بطريقهم عيوناً فجسوا عساكرهم وأمرأهم، ثم عادوا إلى عظيمهم فسألهم بما جسوا ورأوا فقالوا: أما الليل فطول القيام وأما النهار فالخير الظاهر والحرص على الجهاد، وإن وجد أحدهم نعلاً أو كبة شعر أو غزل دفعها إلى صاحب المقسم، فإذا قال صاحب المقسم، ما هذا؟ قالوا: هذا ما لا نستحله إلا بحلّه، فلما سمع عظيم دمشق هذه القصة قال: ما لنا بهؤلاء طاقة ولا لنا في قتالهم خير<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الرواية إضافة، وهي وصف المسلمين بالأمانة حيث يسلمون لصاحب الغنائم كل ما وجدوه وإن كان شيئاً حقيراً لا يُوبه له.

وقد جاءت عدة روايات في بيان هذا الحصار وكيف تم الفتح بعد ذلك، وإن من أمثل هذه الروايات وأوضحها ما أخرجه ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر.

وقد جاء في هذه الرواية: فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث، وهرقل منهم قريب، وقد استمدوا، وذو الكلاع بين المسلمين وحمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص - وكان أبو عبيدة بعثه في جيش ليصد أمداد الروم.

قال: وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق، فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع، وشغلتها عن الناس، فأرزوا ونزلوا بإزائه، وأهل دمشق على حالهم.

فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا - يعني تحيروا - وازداد المسلمون طمعاً فيهم، وقد كانوا يرون أنها كالجارات قبل ذلك، إذا

(١) تاريخ دمشق ٢ / ١٢٣ - ١٢٤.



هجم البرد قفل الناس، فسقط النجم والقوم مقيمون، فعند ذلك انقطع رجاؤهم، وندموا على دخول دمشق، وولد للبطريق- يعني قائد الروم - الذي دخل على أهل دمشق مولود فصنع عليه -يعنى طعاماً- فأكل القوم وشربوا، وغفلوا عن موافقهم، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد فإنه كان لا ينام ولا يُنيم، ولا يخفى عليه شيء من أمورهم، عيونه ذاكية وهو معنيٌّ بما يليه، قد اتخذ حبالاً كهيئة السلايم، وأوهاقا - يعني حلقاً تكون بأطراف الحبال لتمسك بِشُرْفِ السور-.

فلما أمسى من ذلك اليوم نهد -يعني مضى- ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول يومه - يعني الذين لازموه من أيامه الأولى- وقالوا: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا، وانهدوا للباب.

فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف، وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم -وقد كان الماء فيه عميقاً كما تقدم- فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعأ أحبولة إلا أثبتاها -والأوهاق بالشرف- وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق، أكثره ماءً وأشدّه مدخلا، وتوافوا لذلك، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أو دنا من الباب، حتى إذا استتوا على السور حذر عامة أصحابه، وانحدر معهم، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي، وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور، فنهده المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها.

وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم، وانحدر إلى الباب فقتل البوايين، وثار أهل المدينة، وفرغ سائر الناس، فأخذوا موافقهم ولا يدرون ما الشأن، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين.

فأقبلوا -يعني الروم- عليهم من داخل، حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أنيم، ولما شد خالد على من يليه، وبلغ منهم الذي أراد عنوة أرز من أفلت

إلى أهل الأبواب التي تلي غيره، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة -يعني على نصف الأملاك- فأبوا وأبعدوا، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح، فأجابوهم وقبلوا منهم، وفتحوا لهم الأبواب، وقالوا: ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة، فالتقى خالد والقواد في وسطها، هذا استعراضاً وانتهاياً، وهذا صلحاً وتسكيناً، فأجروا ناحية خالد مُجْرَى الصلح فصار صلحاً<sup>(١)</sup>.

هذا وإننا من هذا الموقف العظيم لخالد رضي الله عنه نكتشف مقدرته الخارقة في شؤون الحرب، لا في مجال ميدان المعارك فحسب وما يتطلب ذلك من شجاعة وحسن تدبير، بل في التخطيط العالي في جميع شؤون الحرب.

وإننا لنستفيد من هذا الموقف عبراً عظيمة، فلا بد أن يكون القائد متيقظاً دائماً، وأن لا يعتمد في الأمور المهمة على غيره إلا إذا كانوا في مستواه، وأن يُكثِر من بَثِّ العيون المخلصين الذين يكشفون له عن تحركات العدو وأعماله في كل الأوقات.

كما نستفيد من بلادة الأعداء وتهاونهم أن إهمال ساعة قد يضيع مفعول سنة من الصبر والمصابرة، وأن الاشتغال بالأدنى يحول دون بلوغ معالي الأمور.

هذا وإن خوض خالد بنفسه هذه المغامرة ليدلنا على عظمته القيادية، فهو لا يعيش في أبراج محصنة ويتقي بجنده المخاطر، بل يقودهم في هذه المخاطر، وإن الجندي حينما يرى قائده يدخل معه في المخاطرة يحاول أن يبذل كل ما يملكه من طاقة من أجل بلوغ الأهداف.

إن الذي يتصور خالدًا وهو يحمل القربة المنفوخة فوق ظهره، ويسبح في الماء، ثم يصعد إلى السور على الحبال، ثم يهبط إلى ميدان الأعداء. . إن من يتصور قيام خالد بهذه العملية وهو الذي ملأ الدنيا شرقها وغربها شهرة ومجداً، يدرك كيف كانت عظمة المسلمين الأوائل، ويعرف سبباً مهماً من أسباب انتصاراتهم الباهرة، التي خلدها التاريخ، وأصبحت مضرب الأمثال.

هذا وإن تصرف أبي عبيدة رضي الله عنه في إجراء فتح دمشق مجري الصلح كلها يُعدُّ مثلاً لكمال العدل والوفاء، حتى مع الأعداء الذين لو ظفروا بالمسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٣٨.

لمزقوهم، وظاهر من العرض السابق أن الروم لم يرضوا بالصلح إلا بعد أن فُتح جزء من مدينتهم عنوة، والجيش الإسلامي واحد وإن تقسم إلى أقسام، فكان بإمكان أبي عبيدة أن يرفض الصلح بعدما تبين له ما قام به خالد، لكنه قد أعطاهم موافقة على الصلح، فمن تمام الوفاء أن يُتم لهم ما وافقهم عليه، وإن كانوا قد اغتتموا فرصة عدم علمه بما قام به خالد، فالمسلمون قدموا ليفتحوا القلوب قبل فتح البلدان، فكانت أخلاقهم العالية هي الجاذب الأول لأبناء البلاد المفتوحة نحو الدخول في الإسلام.

وقبل مغادرة أحداث هذا الحصار نشير إلى عمل فدائي قام به أحد الصحابة بمفرده وهو واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، فقد ذكر الإمام الذهبي من حديث بسر بن عبيد الله عن واثلة. قال: فأسمع صرير باب الجابية -وهو أحد أبواب دمشق- فمكثت فإذا بخيل عظيمة فأمهلتها، ثم حملت عليهم وكبرت فظنوا أنهم أحيط بهم، فانهزموا إلى البلد، وأسلموا عظيمهم -يعني قائدهم- فدعسته بالرمح وألقيته عن برذونه، وضربت يدي على عنان البرذون وركضت، والتفتوا فلما رأوني وحدي تبعوني فدعست فارساً بالرمح فقتلته، ثم دنا آخر فقتلته، ثم جئت خالد بن الوليد فأخبرته وإذا عنده عظيم من الروم يلتمس الأمان لأهل دمشق<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٨٦ - ٣٨٧.

## فتح مدينة حمص

أخرج محمد بن عبدالله الأزدي من خبر محرز الباهلي قال: ثم خرج أبو عبيدة نحو حمص، فخرج إليه أهل حمص جمعاً عظيماً، ثم استقبلوا بجوسية<sup>(١)</sup>، فرماهم أبو عبيدة بن خالد بن الوليد، فأقبل خالد فلما نظر إليهم خالد قال: يا أهل الإسلام الشدة الشدة، ثم حمل خالد عليهم وحمل المسلمون معه، فولّوا منهزمين حتى دخلوا مدينتهم.

وبعث خالد بن الوليد ميسرة بن مسروق العبسي فاستقبل خيلاً لهم عظيمة عند نهير قريب من حمص، فطاردهم قليلاً ثم حمل عليهم فهزمهم.

وهكذا كان النصر حليف المسلمين إلا في الشاذ النادر مهما قلوا وكثر أعداؤهم، وإن يكن ذلك عجباً فأعجب منه أن فارساً من المسلمين يُدعى شرحبيل ابن حمير انفرد عن بقية الجيش، فعرض له بعض فرسان الروم، فحمل عليهم فقتل منهم سبعة، ثم جاء إلى نهر قبل حمص عند دير مسحل فنزل عن فرسه وسقاه، وجاءه نحو من ثلاثين فارساً من أهل حمص، فلما رأوه واحداً أقبلوا نحوه وراء النهر، فأقحم فرسه الماء وعبر إليهم، ثم ضرب فرسه وحمل عليهم في كل حملة يقتل رجلاً حتى قتل أحد عشر رجلاً، وانتهوا إلى دير مسحل، فاقتحموا جوف الدير، واقتحم شرحبيل معهم، فرماه أهل الدير بالحجارة حتى قتلوه<sup>(٢)</sup>.

وإن مثار العجب أن يتصدى فارس واحد لمجموعة من الفرسان فيقتل منهم ويهزم بقيتهم، ثم تأتي مجموعة أخرى يحول بينه وبينهم النهر فيطمعون فيه فلا ينتظر حتى يعبروا إليه، بل يُقحم فرسه ويعبر إليهم، ولا شك أن إقدامه هذا قد أوقع الرعب في قلوبهم فصار يقتل منهم حتى فروا منهم ولجؤوا إلى ذلك الدير، وأخيراً غدروا به كفعل الجبناء الذين لا يواجهون في الميدان وإنما يدافعون من الأبراج المحصنة.

(١) قرية قرب حمص.

(٢) فتوح الشام للأزدي / ١٤٥.

وإذا كان هذا خبر فارس مغمور ليس له ذكر في التاريخ فكيف بالفرسان المسلمين الذين ملؤوا صفحات التاريخ بطولة وفداء؟

وإن جيشاً يكون هذا أحد أفراده العاديين لا يمكن أن يُغلب بإذن الله تعالى .

ثم ذكر الأزدي في سياق الخبر السابق أن المسلمين نزلوا على باب الرستن أحد أبواب مدينة حمص، وأنهم حاصروا أهل هذه المدينة حصاراً شديداً، وأن أهل حمص أخذوا يقولون للمسلمين، اذهبوا نحو الملك فإن ظفرتم به فنحن كلنا لكم عبيد، قال: فأقام أبو عبيدة على باب الرستن بالناس، وبث المسلمون الخيل في نواحي أرضهم فأصابوا منهم غنائم كثيرة، وقطعوا عنهم المدد والميرة، واشتد عليهم الحصار وخشوا السبي فأرسلوا إلى المسلمين فطلبوا إليهم الصلح، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتاباً بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وعلى أن يُضيفوا المسلمين يوماً وليلة، وعلى ألاّ يعمرُوا بيَعَهُم، وصالحوا على أرض حمص كلها، على أن عليهم مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار .

فقبل ذلك منهم المسلمون، وفرغوا من الصلح، وفتحوا باب المدينة، ودخل المسلمون، وآمن بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup> .

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام للأزدي ١٤٥ - ١٤٦ .

## خبر قيصر حين بلغه فتح الشام

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي من خبر عبدالله بن قرط الشمالي، قال: عسكر أبو عبيدة بن الجراح ونحن معه حول حمص نحو من ثماني عشرة ليلة، وقد وجّه عماله في نواح من أرض حمص، واطمأن في عسكره، وذهبت منهزمة الروم من فحل حتى قدموا على ملك الروم بأنطاكية، وخرجت فرسان من فرسان الروم ورجال من عظمائهم وذوي الأموال والغنى والقوة ممن كان واطن الشام، فدخلوا قيسارية، وتحصن أهل فلسطين بإيلياء.

فلما قدمت الهزيمة على هرقل بأنطاكية دعا رجلا من عظمائهم، وعدداً من فرسانهم وأشدائهم، فدخلوا عليه، فقال: أخبروني ويلكم من هؤلاء القوم الذين تلقونهم، أليسوا بشراً مثلكم؟

قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟

قالوا: نحن أكثر منهم أضعافاً، وما لقيناهم في مواطن إلا ونحن أكثر منهم.

قال: ويلكم، فما بالكم منهزمون إذا لقيتموهم؟ فسكتوا، فقام شيخ منهم، فقال: أنا أخبرك أيها الملك من أين يؤتون، قال: فأخبرني.

قال: إنا إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا، ومن حيث إنا نحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر.

قال: ويلكم، فما بالكم كما تصنعون، وهم كما تزعمون؟

قال الشيخ: ما أراه إلا وقد علمت من أين هذا، قال له: ومن أين هذا؟

قال: من أجل أن القوم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحداً، ويتناصفون فيما بينهم، ومن أجل أنان شرب الخمر، وتركب الحرام، ونقض العهد، ونغضب، ونظلم، ونأمر بسخط الله، وننهي عن ما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

قال: صدقتني والله، والله لأُخرجنَّ من هذه القرية، ولأدعنَّ هذه البلدة، ومالي في صحبتكم من خير وأتم هكذا.

قال له الشيخ: أنشدك الله أيها الملك أن تترك سورية وهي جنة الدنيا للعرب، ونخرج منها ولمْ نقاتل ونجهد.

قال: قد قاتلتموهم غير مرةً بأجنادين، وفحل، ودمشق، والأردن، وفلسطين، وحمص، وفي غير موطن من المواطن، كل ذلك تنهزمون وتفرون وتُغلبون.

قال له الشيخ: أنشدك الله أيها الملك أن تخرج وحولك من الروم عدد الحصا والتراب والذرِّ، لم يلقهم منهم إنسان، ثم تريد أن تخرج منها، وترجع بهؤلاء جميعاً من قبل أن تقاتلوا؟

قال: فإن هذا الشيخ ليكلمه بذلك إذ قدم عليه وفد أهل قيسارية ووفد إيلياء<sup>(١)</sup>.

وهكذا ظهر واضحاً أن عقلاء الروم كانوا يعلمون مكان القوة عند المسلمين، وأسباب انتصاراتهم، كما كانوا يعلمون من أين تُؤتَى جيوشهم، ومع ذلك فإنهم يُصرون على حرب المسلمين من غير أن يحاولوا تغيير ما بأنفسهم، فيُهزَمون في كل مرة.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح الشام للأزدى ١٤٩-١٥١، البداية والنهاية ٧/ ١٥.



مواقف وعبر

في

فتوح العراق الثانية

(ما قبل القادسية)





كانت فتوح العراق الأولى على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه كما سبق، إلى أن رحل إلى الشام مدداً للمسلمين هناك، وقد تولى أمر جيش المسلمين في العراق بعد رحيل خالد، المثنى بن حارثة الشيباني، وقد قام بتنظيم جيشه، وولّى عدداً من أهل البسالة والإقدام بدلاً من الذين أخذهم خالد معه.

ولما علم أهل فارس بغيبة خالد أرادوا اغتنام الفرصة للقضاء على بقية جيش المسلمين، فوجهوا جيشاً نحو عشرة آلاف بقيادة هرمز بن جاذويه، وقد كتب شهر براز<sup>(١)</sup> ملك الفرس إلى المثنى: إني قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس<sup>(٢)</sup>، إنما هم رعاة الدجاج والخنزير، ولست أقاتلك إلا بهم، فكتب إليه المثنى: من المثنى إلى شهر براز، إنما أنت أحد رجلين: إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك، وأما الذي يدلنا على الرأي فإنكم إنما اضطرتهم إليهم، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنزير قال: فجزع أهل فارس من هذا الكتاب، ولأموا شهر براز على كتابه إليهم واستهجنوا رأيه<sup>(٣)</sup>.

هذا وقد وفق المثنى بهذا الرد المحكم، فقد حصر أمر كسرى بأحد مقصدين: الأول البغي، والمراد بالبغي هنا الكبرياء والاستهانة بالآخرين حيث إن إرسال هذا النوع من الجنود يعني عدم إقامة وزن يذكر للعدو المحارب، وهذا نوع من الغرور الذي يسلم صاحبه إلى الفشل، ولذلك قال المثنى: إنما أنت أحد رجلين: إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، والمقصد الآخر الكذب، فالكذب ضعف وخور ولا يصدر إلا من ضعف عن المقاومة وعجز عن المواجهة فتدرع بالكذب ليستر نقصه وعواره، ولذلك قال المثنى: وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله الملوك، ثم بكتهم وبين عجزهم ونفاد قوتهم بقوله: فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنزير.

(١) جاء في «البداية والنهاية» شهر يار وصوابه شهر براز وهو ابن أردشير بن شهر يار كما في تاريخ الطبري.

(٢) البداية والنهاية ١٧/٧.

(٣) يعني من رذائلهم وسقطهم.

وقد سار المثنى من «الحيرة» إلى «بابل» فتوغل في أرض الفرس من أجل أن لا يترك لهم مجالاً لاستعادة القرى التي سيطر عليها المسلمون، وقد التقوا عند عدوة نهر الصراط الأولى ببابل، فاقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين فحمل عليه المثنى بن حارثة فقتله، وأمر المسلمين فحملوا. فلم تكن إلا هزيمة الفرس، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغنموا منهم مالا عظيماً، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة.

وقد أشاد الفرزدق بعد ذلك بالمثنى لقتله الفيل حيث يقول:

وبيت المثنى قاتل الفيل عنوة ببابل إذ في فارس ملك بابل<sup>(١)</sup>

وبعد هزيمة الفرس في هذه المعركة ظل المثنى ينتظر أخبار أبي بكر الصديق وأوامره رضي الله عنه، وقد انشغل الصديق بحروب الشام، وانشغل أهل فارس عن المسلمين بالشقاق والخلاف بينهم على الملك، فاغتنم ذلك المثنى ووفد على الصديق في المدينة فوافاه في مرض الموت، وقد أوصى أبو بكر عمر رضي الله عنهما بقوله: إذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى، فكان أول عمل قام به عمر أن ندب الناس مع المثنى لحرب أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي توفي فيها أبو بكر، ثم كرر ذلك ثلاثة أيام حتى انتدب الناس لهذا الوجه، وكان أول من بادر إلى الجهاد أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم تتابع الناس، وقد ولاه عمر على هذا الجيش وعلى حرب العراق، ثم كلم في أن يولي رجلاً من المهاجرين أو الأنصار فقال: لا والله لا أفعل، إن الله إنما رفعكم بسببكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبتكم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً<sup>(٢)</sup>.

وإنما فعل ذلك عمر مع معرفته بفضائل الصحابة رضي الله عنهم على غيرهم ليدفع الناس إلى الإسراع في الاستجابة حيث لم يستجيبوا إلا في اليوم الثالث، ولم يكن ذلك من عادتهم فلعل موت الصديق رضي الله عنه كان له أثر في ترددهم وتأخرهم.

(١) البداية والنهاية ١٧/٧.

(٢) تاريخ الطبري ٤٤٤/٣، البداية ١٨/٧.

على أن عمر رضي الله عنه لم يكن ليولي القيادة رجلاً يفقد الكفاءة لمجرد أنه أول من استجاب، بل هو متصف بذلك مع وجود من يتصف بالكفاءة من الصحابة، ولكن عمر رجح في هذه المرة جانب المبادرة إلى الاستجابة لناحية تربوية قصد بها دفع المسلمين إلى الاهتمام بالجهاد في سبيل الله تعالى، وقد أثبتت الأيام أن أبا عبيد رحمه الله كان يتصف بالشجاعة والفداء والشهامة والسخاء كما سيأتي في المواقف التالية إن شاء الله تعالى.

وإنما كان يخشى عليه عمر رضي الله عنه من التسرع وزج المسلمين في المهالك نظراً لأنه شجاع وليس لديه خبرة بحرب فارس، كما كان يخشى عليه أن يدفعه إقدامه وحماسه إلى التفرد بالرأي وعدم الأخذ بالشورى، فلذلك زوده بنصائح نافعة في هذا المجال. فكان مما قال له: اسمع من أصحاب النبي ﷺ، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث، الذي يعرف الفرصة والكف.

وقال له أيضاً: إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية - يعني التسلط والجبروت - تقدم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون، واخزن لسانك ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة.

ونراه يركز مرة أخرى في نصيحته على التريث والتروي فيقول لأبي عبيد: إنه لم يمنعني أن أؤمر «سليطاً» إلا سرعته في الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان، والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لا يصلح لها إلا المكيث<sup>(١)</sup>.

وقد كان سليط بن قيس الأنصاري ممن بادر بعد أبي عبيد إلى الجهاد.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٥ - ٤٥٤.

## معركة النمارق

## معركة كسكر

## معركة باقسيانا

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جهز جيشاً إلى العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود وقد سبقه المثنى بن حارثة ليلحق بجيشه المهدد من الفرس، ثم لحق به أبو عبيد بعد شهر.

وكان الفرس قد انشغلوا عن المسلمين طوال غيبة المثنى بموت ملكهم شهر براز، فقد حدث تنازع بين آل كسرى، حتى اجتمع الفرس على بوران بنت كسرى عند قدوم المثنى، وأسندت بوران أمور الحرب والملك إلى رستم، وكان من أعظم قادة الفرس، وكان أول ما قام به أن أرسل بعض قادة الفرس ليقوموا بثورات من داخل أقاليم العراق، ولما علم أهل العراق بتماسك دولة الفرس بدأ كثير منهم بالانتفاض على المسلمين، وقد تصرف المثنى إزاء ذلك بحكمة حيث جمع قواته من المناطق المختلفة وانحاز بهم إلى «خَفَّان» قريباً من الصحراء حتى لا يُؤْتَى من خلفه وانتظر قدوم أبي عبيد.

وكان أول من ثار وجمع الجيوش من الفرس «جابان» وقد نزل بجيوشه في «النمارق»، وقد أبو عبيد وأقام بخفان أياماً ليستريح أصحابه، ثم سار بجيشه بعد تعبته نحو النمارق وعلى خيله المثنى، وعلى ميمنته والق بن جيداره وعلى ميسرته عمرو بن الهيثم بن الصلت بن حبيب السلمي، فنزلوا على جابان في النمارق واقتتلوا قتالاً شديداً فهزم الله أهل فارس، وأسرَ جابان، أسره مطر بن فضة التميمي وهو لا يعرفه، فخدعه جابان حتى تفلَّت منه بشيء فخلَّى عنه، فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه قائد الفرس وأشاروا عليه بقتله فقال: إني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم، والمسلمون في التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم فقالوا: إنه الملك - يعني القائد - قال: وإن كان، لا أغدر، فتركه<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٤٤٨/٣.

وهذا الموقف من أبي عبيد يعدُّ مثلاً على سماحة المسلمين، ووفائهم بالعهود وإن أبرمها بعض أفرادهم، ولا شك أن هذه الأخلاق العالية كان لها أثر كبير في اجتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام، فحينما يتسامع الناس أن المسلمين أطلقوا أحد قادة الفرس الذين كانوا أسرع الناس في عدائهم لمجرد أنه اتفق مع أحد المسلمين على الفداء فإنهم ينجذبون إلى هذا الدين الذي أخرج هؤلاء الرجال.

ولا ننسى قبل أن نعرض الأحداث موقف المثنى بن حارثة الرائع حيث استسلم لإمارة أبي عبيد مع أنه يُقدّم العراق لأول مرة، لأن أمير المؤمنين أمره عليه، فكان نعم القائد ونعم الجندي، ولعلنا على ذكر لموقفه المشابه مع خالد بن الوليد لما ولاه أبو بكر على العراق وكان المثنى أسبق منه في حرب الفرس، فلم يختلف غناؤه وجهده في حالي القيادة والجنديّة، وهكذا يكون عظماء الرجال.

هذا وقد انهزمت فلول الفرس نحو «كسكر» وكانت هذه القرية إقطاعاً خاصاً لنرسي ابن خالة كسرى وكان فيها فواكه لا يأكلها إلا ملوك الفرس، فأمر أبو عبيد فرسان المسلمين بمطاردة الفرس فقال: اتبعوهم حتى تُدخلوهم عسكر نرسي أو تبيدوهم فيما بين النمارق إلى بارق إلى درتا.

ولحق بهم أبو عبيد ببقية الجيش، وعلم رستم بهزيمة جابان فبعث الجالنوس لنجدة نرسي ومن انضم إليه في كسكر، . ولكن أبا عبيد عاجلهم والتقى بهم في مكان أسفل كسكر يقال له السقاطين فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الله هزم فارس وهرب نرسي وغلب المسلمون على عسكره وأرضه، ووجدوا في خزائنه شيئاً عظيماً ولم يكونوا بشيء أفرح منهم بشجر النرسيان لأن «نرسي» كان يحميه ويمالته عليهم ملوكهم فاقتسموه فجعلوا يطعمونه الفلاحين وبعثوا بخمسه إلى عمر، وكتبوا إليه: إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها وأحبينا أن تروها ولتذكروا إنعام الله وإفضاله<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر إشارة إلى نوع من الأخلاق الرفيعة لدى المسلمين حيث رفعوا من شأن الفلاحين المحرومين فأطعموهم من طعام ملوكهم الذي كان محرماً

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

عليهم، فكأنهم بهذا يقولون لهم: تعالوا إلى هذا الدين العظيم الذي يرفع من شأنكم ويرد عليكم كرامتكم الإنسانية.

وأقام أبو عبيد بكسكرو وبعث قواتٍ لمطاردة الفرس وتأديب أهل القرى المجاورة الذين نقضوا العهد ومالؤوا الفرس.

ورجحت كفة المسلمين في المنطقة بعد هذا الانتصار وجاء بعض الولاة يطلبون الصلح، وقدّم واليان منهم طعاماً خاصاً لأبي عبيد من فاخر أطعمتهم فقالوا: هذه كرامة أكرمناك بها، وقرى لك، قال: أأكرمتم الجند وقرتموهم مثله؟ قالوا: لم يتيسر ونحن فاعلون، فقال أبو عبيد: فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند، فردّه.

وأتاه أولئك الدهاقين المتربصون جميعاً بما وسع الجند، وهابوا وخافوا على أنفسهم. فقال أبو عبيد: ألم أعلمكم أنني لست أكل إلا ما يسع من معي ممن أصبتم بهم! قالوا: لم يبق أحدٌ إلا وقد أُتِيَ بشبّعه من هذا في رحالهم وأفضل. فلما علم قبلَ منهم، وأكل وأرسل إلى قوم كانوا يأكلون معه أضيافاً عليه يدعوهم إلى الطعام، وقد أصابوا من نزلِ فارس ولم يروا أنهم أتوا أبا عبيد بشيء فظنوا أنهم يُدعون إلى مثل ما كانوا يُدعون إليه من غليظ عيش أبي عبيد، وكرهوا ترك ما أتوا به من ذلك، فقالوا له: قل للأمير، إننا لا نشتهي شيئاً مع شيء أتتنا به الدهاقين، فأرسل إليهم: إنّه طعام كثير من أطعمة الأعاجم، لتنظروا أين هو مما أُتيتم به<sup>(١)</sup>.

وهكذا أكل هذا الأمير الكريم المتواضع بعد ماردٍ طعام الأعاجم مرتين لما علم في الثالثة أنهم أطعموا جميع الجند مثلما أطعموه وأفضل، ومع هذا لم يرض أن يأكل وحده حتى دعا أضيافه وألح عليهم حتى بعد أن علم أنهم أصابوا من طعام الفرس وعدّد لهم أصناف هذا الطعام ليرغبهم في مشاركته، وهذا لون من الكرم الرفيع، والكرم من أهم عناصر السيادة.

وإن هذه الأمثلة لتدلنا على مقدار ما بلغ إليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من الرقي الأخلاقي والتقدم الحضاري.

(١) تاريخ الطبري ٤٥١/٣ - ٤٥٣.

ولما علم أبو عبيد بتقديم جالنوس نهد إليه بالمسلمين فالتقوا عند «باقسيانا»  
فهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس، وغلب المسلمون على بلادهم<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم القضاء على ثلاثة جيوش للفرس في مدة وجيزة، وكان بإمكان  
الفرس أن يوحّدوا هذه الجيوش وأن يأتوا المسلمين من أمامهم وخلفهم وعن يمينهم  
وشمالهم، لكثرة عددهم، ولكن الله أعمى بصائرهم وكانوا لشدة خوفهم من  
المسلمين يتمنى كل قائد أن يكفيه الآخر مهمة المواجهة وإضعاف المسلمين ليظفر  
بالنصر عليهم بعد ذلك، وقد أفاد المسلمون سرعة تحركهم وبطء حركة جيوش  
الأعداء.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤٥٢/٣ - ٤٥٣.

## معركة الجسر الأولى

تبين لنا أن قائد الفرس «الجالنوس» قد انهزم أمام المسلمين في معركة «باقسيانا» وأنه هرب إلى بلاده.

ولما رجع الجالانوس إلى رستم قال رستم: أيُّ العجم أشد على العرب فيما ترون؟ قالوا: بهمن جاذويه، فوجهه ومعه الفيلة، وقال له: قدّم الجالانوس فإن عاد لمثلها فاضرب عنقه، فأقبل بهمن ومعه راية كسرى، وكانت لا تُخرج إلا في الحروب الكبيرة، وعلم أبو عبيد فأقبل بجيشه فنزل في مكان يسمى «المروحة» والنهر بينهم، فبعث إليه بهمن: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم، فقال الناس: لا تعبر يا أبا عبيد، نهاك عن العبور، قل لهم فليعبروا، وكان من أشد الناس عليه في ذلك سليط بن قيس الأنصاري، فلجّ أبو عبيد في رأيه وترك رأي الناس، وقال: لا يكونون أجراً على الموت منا، بل نعبر إليهم، واغتنم ذلك مردان شاه رسول قائد الفرس فأخبرهم أن أهل فارس قد عيروهم بالجن، فازداد أبو عبيد تمسكا برأيه، واتهم سليط بن قيس بالجن، فقال سليط: أنا والله أجراً منك نفساً وقد أشرنا عليك بالرأي وستعلم.

وكانت «دومة» امرأة أبي عبيد قد رأت رؤيا أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد وابنه جبر في ناس من أهله فأخبرت بها أبا عبيد فقال: هذه الشهادة، وعهد أبو عبيد إلى الناس فقال: إن قُلت فعلى الناس فلان حتى عد سبعة من ثقيف من أقاربه الذين ذكرتهم امرأته في الرؤيا، فإن قتل آخرهم فالقيادة للمثنى بن حارثة.

ثم عبر أبو عبيد وعبر الناس معه إلى مكان ضيق المطرد والمذهب، وكان الفرس قد قدموا بعدد من الفيلة يتقدمها فيل عظيم أبيض، وعليها سعف النخل فلما رأتها خيول المسلمين جفلت منها ومن أصوات الأجراس المعلقة بها، فصاروا لا يستطيعون الوصول إليهم والفيلة تجوس خلالهم، فترجل أبو عبيد وترجل الناس معه، وتصافحوا معهم بالسيوف، وفقد المسلمون خيلهم فأصبحوا رجالة يقاومون



سلاح الفيلة والفرسان والمشاة من الفرس، إلى جانب الرماة الذين أُضربوا بالمسلمين وهم يدفعون بخيولهم نحوهم فلا تندفع. فكان موقفاً صعباً أظهر المسلمون فيه من البسالة والتضحية ما يندر أن يوجد له مثيل في التاريخ، وصمدوا للفرس رغم تفوقهم عليهم في كل وسائل القتال.

وكانت الفيلة أشد سلاح واجهه المسلمون، فقد كانت تهدُّ صفوفهم، فناداهم أبو عبيد بأن يجتمعوا على الفيلة ويقطعوا أحزمتها ويقلبوا عنها أهلها، وبدأ هو بالفيل الأبيض فتعلق بحزامه وقطعه ووقع الذين عليه، وفعل المسلمون مثل ذلك، فما تركوا فيلاً إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه، ولكن الفيلة استمرت في الهجوم لأنها كانت مدربة، فرأى أبو عبيد أن يتخلص منها، فسأل عن مقاتليها، فقيل له إنها إذا قطعت مشايرها تموت، فهجم على الفيل الأبيض، ونفخ خرطومه بالسيف فاتقاه الفيل بيده وأطاح به ثم داسه بأقدامه، وأخذ الراية أخوه الحكم بن مسعود فقاتل الفيل حتى أزاحه عن أبي عبيد ولكن وقع له ما وقع لأبي عبيد، فقد أراد الحكم قتله فاتقاه بيده، ثم داسه بأقدامه، وانتقلت راية المسلمين إلى الذين سماهم أبو عبيد، ومنهم أبناؤه الثلاثة، وهب ومالك وجبر، إلى أن قتلوا جميعاً فانقلت القيادة للمثنى مع آخر النهار.

وكان بعض المسلمين قد عبروا الجسر منسحين، واستمر الانسحاب من الميدان، فلما رأى ذلك عبد الله بن مرثد الثقفي بادر وقطع الجسر، وقال: موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا، وحاول منع الناس من العبور فأتوا به إلى المثنى فضربه من شدة غضبه من صنيعه وقال: ما حملك على الذي صنعت؟ قال: ليقاتلوا، وقد كان اجتهاده في غير موضعه لأن قطع الجسر أدى إلى وقوع بعض المسلمين في النهر وغرقوا بسبب شدة الضغط من الفرس، فكانت الفكرة المناسبة أن يحافظ المسلمون على بقيتهم بالانسحاب إن استطاعوا ذلك، وهذا هو ما قام به المثنى حيث أمر بعقد الجسر ووقف هو ومن معه من أبطال المسلمين فحموا ظهور المسلمين حتى عبروا وقال المثنى: يا أيها الناس إنا دونكم فاعبروا على هينتكم - يعني على مهلكم - ولا تدهشوا فإننا لن نرايل حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تغرقوا أنفسكم.

وكان المثني ومن معه من الأبطال من أمثال عصام بن عمرو والكلج الضبي هم آخر من عبر، وقد كان بهمن جاذويه حاول أن يجهز على بقية المسلمين ولكنه لم يستطع وفوت عليه هذه الفرصة المثني حينما تولى قيادة هذا الانسحاب المنظم، ولا شك أن هؤلاء الأبطال الذين حموا ظهور المسلمين حتى انسحبوا قد بذلوا جهوداً جبارة في الصمود أمام الأعداء.

ولقد استنتج العلامة العز بن عبد السلام قاعدة فقهية جهادية تنطبق على انسحاب المسلمين في هذه المعركة وأمثال ذلك حيث قال: «إذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة»<sup>(١)</sup>.

لقد انسحب خمسة آلاف من المسلمين وخلفوا وراءهم أربعة آلاف من الشهداء منهم عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم خاصة من الأنصار الذين رافقوا أبا عبيد من المدينة، وقد عاد ألفان ممن انسحبوا إلى المدينة وغيرها ولم يبق مع المثني غير ثلاثة آلاف.

أما الفرس فقد قُتل منهم ستة آلاف على الرغم من الوضع السيئ الذي كان فيه المسلمون مما يدل على بسالتهم وقوة احتمالهم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تبين لنا أن من أهم أسباب انتكاسة المسلمين في هذه الموقعة مواجهتهم سلاح الفيلة لأول مرة، إلى جانب عدم إصابتهم في اختيار المكان الذي جرت فيه المعركة، فالمسلمون تعودوا في حروبهم على اختيار مكان واسع المُطرد حيث إن سلاح الفرسان عندهم هو المقدم، فلما انحصروا ضاعت منهم فرصة مطاردة الأعداء، حيث كان العدو أمامهم والنهر من خلفهم.

أما المواقف التي جرت في هذه المعركة فهي تلخص إجمالاً في مقدرة المسلمين الفائقة على التكيف مع الأوضاع غير الملائمة، والخروج من المآزق المفاجئة،

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/٩٥.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٤٥٤ - ٤٥٩، البداية والنهاية ٧/٢٨، بتصرف.

والصبر والمصابرة على القتال، إن كانت المعركة غير متكافئة، وتتضح هذه المواقف بعرض الصور التالية:

١- حينما رأى قائد المسلمين أبو عبيد أن خيول المسلمين لا تُقدّم على جيش العدو وفيه الفيلة قرر حالاً التّرجل وترك فرسه ففعل المسلمون كما فعل، وهو حلّ جيد لأنه لا بد من مواجهة الأعداء والاختلاط بهم حيث إنهم أرهقوهم بالسهام.

٢- حينما رأى أبو عبيد ما تفعله الفيلة وراكبوها بجيش المسلمين قرر قطع أحزمة الفيلة حتى تُلقى راكبيها، وبدأً بذلك مع كبير الفيلة وتأسى به المسلمون، فألقوا جميع راكبي الفيلة، وهي خطوة جيدة في سبيل التخلص من هذا السلاح الفتاك، ثم لما استمرت الفيلة في مهاجمة المسلمين قرر التخلص منها بالقتل، وهي خطوة أخرى تشتمل على المخاطرة والمغامرة، وقد بدأ بتنفيذ هذه الخطة أيضاً بنفسه رحمه الله ولكنه قضى نحبه قبل إتمام هذا العمل، ولم يرو لنا التاريخ أي محاولة أخرى للقضاء على الفيلة في هذه المعركة غير ما جرى من الحكم بن مسعود أخي أبي عبيد وخلفه في القيادة وقد واجه المصير نفسه الذي واجهه أبو عبيد، ولعل هذه النتيجة السيئة جعلت المسلمين يتحاشون التعرض لها.

ومن المعلوم أن سلاح الفيلة كان جديداً على المسلمين، وإلا فإنه كان بإمكانهم أن يخترعوا أسلحة بعيدة المدى تستطيع القضاء على الفيلة من غير ضرورة الاقتراب منها.

وإن إقدام أبي عبيد وهو القائد على هذه المغامرة الخطيرة دليل على زهده في الدنيا وحرصه على نيل الشهادة، وهو مطلب عزيز يبعث في روح الجند الحيوية والإقدام، ولكنه في الحقيقة ليس المطلوب الأول من القائد، بل هو مكلف بالدرجة الأولى بإدارة المعركة حتى يحصل على أكبر النتائج بأقل التضحيات، ولذلك أحجم عدد من جلة الصحابة رضي الله عنهم عن قبول القيادة لأنهم عزموا على التعرض للشهادة، كما سبق أمثلة لذلك في معركة اليمامة.

٣- على الرغم من الوضع السيئ الذي كان فيه المسلمون في هذه المعركة فإنهم لما ترجّلوا عن خيولهم وخالطوا الفرس فتكوا بهم حتى قتلوا منهم ستة آلاف،

وهذا شاهد حي على بسالة المسلمين الأوائل وإقدامهم على المخاطرة بالنفوس في سبيل الله تعالى، فإنه كان عليهم وهم مشاة أن يواجهوا فرسان العدو ومشاتهم، وما تزودوا به من الفيلة، وهي مهمة شاقة لا يطيقها إلا أقوياء الرجال، ومع ذلك قام بها هؤلاء الأبطال، ولولا تسليح الأعداء بالفيلة التي هتكت صفوف المسلمين لكان نصرهم قريب المنال.

٤- وآخر المواقف التي رأينا التنويه عنها موقف المثني بن حارثة ومن ثبت معه من أبطال المسلمين، حينما رأى أفراد الجيش قد بدؤوا بالانسحاب وعبور الجسر، وقد سبق وصف ما قام به هؤلاء الأبطال من حماية ظهور المسلمين حتى تم انسحابهم، وهذا لون رفيع من ألوان التضحية والفداء، فإن قادة الدنيا يَخُصُّون عدداً من الجنود لحمايتهم، أما المثني فقد تولى مع مساعديه من الأبطال حماية الجيش الإسلامي، فكان آخر من عبر الجسر.

والآن وبعد أن تكشفت لنا معالم هذه المعركة وبعض المواقف الإسلامية التي جرت فيها فلنتأمل بعض آثارها.

لقد كان عدد المسلمين في أول النهار تسعة آلاف، وفقدوا في ذلك اليوم أربعة آلاف، ولولا أن الله ألهم المثني إلى خطة الانسحاب المنظم لزاد هذا العدد، فهل أثرت هذه الإصابة البالغة على المسلمين بالنسبة لمستوى حماسهم للجهاد وإقدامهم عليه؟

الواقع أنهم عادوا سريعاً إلى تنظيم صفوفهم ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وذلك أنهم يفهمون جيداً معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** (١٤٠) **وَلِيَمْحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴿آل عمران: ١٣٩-١٤١﴾.

فإصابة المسلمين إنما تتم بقدر الله تعالى ليتبين المؤمنون على درجاتهم في الإيمان قوة وضعفاً، بناء على مقدار صبرهم وثباتهم، وليُقَدِّمَ المسلمون شهداء في سبيل الله جل وعلا، حتى يظهر للعالم عظمة هذا الدين الذي من أجله يُقَدِّمُ المسلمون

هؤلاء الشهداء وهم لا يدافعون فقط عن أرضهم وأموالهم، وإنما يقاتلون من أجل نشر دعوة الإسلام والدفاع عنه.

فالمعارك الإسلامية لا خسارة فيها مطلقاً، سواء كان النصر والفتح للمسلمين، أو كانت الهزيمة والإصابة، لأنه في حال النصر يتم التمكين للمسلمين في الأرض، وتقوى دولتهم مع ما يحصل عليه المجاهدون من الثواب الأخروي، وفي حال الإصابة فإن ما يقدمه المسلمون من الشهداء يعطي الدعوة الإسلامية دفعات إلى الأمام مع ما يحصل عليه المجاهدون من الأجر الأخروي، سواء استشهدوا أو بقوا على قيد الحياة.

وهكذا تبينت لنا نماذج من قوة الإيمان لدى المسلمين في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وأن ما أصابهم في معركة الجسر الأولى لم يكن دافعاً لهم إلى الإحجام عن القتال.

ومن الأدلة على أن المصائب لا تزيد المسلمين الصادقين إلا قوة واندفاعاً نحو جهاد الأعداء أن المثنى بن حارثة لما علم بانفراد قائدين من قادة الفرس بعد المعركة مع أصحاب لهما استخلف على الجيش عاصم بن عمرو، وخرج في كتيبة من الفرسان يريدتهما، فظنا أنه هارب لأنهما لم يتوقعا أي إقدام على الهجوم من المسلمين بعد انهزامهم، فاعترضاه فأخذهما أسيرين وخرج أهل «أليس» على أصحابهما فأتوه بهم أسراء، فقدّمهما، وقال: أنتما غررتما أميرنا وكذبتما واستفزتماه فضرب عنقيهما وضرب أعناق الأسراء، ثم رجع إلى عسكره.

وهكذا نجد أن المثنى قد قتل هذين القائدين وأصحابهما وهو في قلة من جيشه ممن بقي معه ولم يحسب حساباً لاحتمال انتقام الفرس وحلفائهم منه وهم أكثر من جيشه أضعافاً مضاعفة، وهذا دليل على الجسارة والجرأة الفائقة.

هذا وقد بقي المثنى في العراق في عدد قليل لا يكفي حتى للاحتفاظ بالممالك التي استولى عليها المسلمون، ولقد كان بإمكان الفرس أن يلاحقوا بقية الجيش

الإسلامى حتى يخرجوهم من العراق، وسيجدون ممن بقي على الولاء لهم من العرب من يتولى مطاردتهم في الصحراء، ولكن الله تعالى مع هذه الفئة المؤمنة ومع المؤمنين في كل مكان، فكلما وقع المسلمون الصادقون في مأزق حرج قيض لهم الأسباب التي تخرجهم من هذا الحرج، فحينما اضطر خالد بن الوليد إلى مغادرة العراق بنصف الجيش أوقع الله الخلاف والاضطراب في دولة فارس فشغلوا بأنفسهم عن المسلمين، وحينما استقرت دولتهم كان المثنى قد تقوى ونظم أموره فتصدى لجيشهم في بابل وهزمهم.

ولما انتظم أمرهم على رستم الذي هو من أعظم قوادهم وحصل ما حصل على المسلمين من الهزيمة في الجسر كانت الفرصة سانحة أمام الفرس ليحاولوا القضاء على المسلمين، ولكن الله سبحانه قيض أمراً صدّهم عن المسلمين حيث انقسموا إلى قسمين: قسم مع رستم وقسم مع فيرزان، وأتى الخبر إلى قائد الفرس بهمن جاذويه فأسرع بالعودة إلى المدائن وكان ممن يُنظر إليهم في أمور سياستهم.

وهكذا كفى الله المؤمنين القتال وأنقذهم من هذا المأزق الحرج وأخذوا فرصة كافية لتلقيّ الجيوش القادمة من دار الخلافة حتى تقوّوا وتكونَ لديهم جيش كبير.

هذا ما كان من أمر المسلمين في العراق، فماذا كان من أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهو يتلقّى هذا النبأ المؤسف الذي يحمل استشهاد أربعة آلاف من المسلمين، وفيهم عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم؟

لقد تأثر عمر ومن حوله من الصحابة لمصاب الجيش الإسلامي في هذه المعركة وقال: اللهم كل مسلم في حلّ مني، أنا فئة كل مسلم، من لقي العدو ففُطِعَ بشيء من أمره فأنا له فئة، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إليّ لكنت له فئة<sup>(١)</sup>.

وهو موقف إسلامي كريم من عمر رضي الله عنه حيث إن هؤلاء المنهزمين لم ينسحبوا من المعركة من حين أن رأوا مؤشرات التفوق لدى الأعداء والوضع السيئ لدى المسلمين ويتركوا إخوانهم يواجهون وحدهم حر المعركة، وإنما انسحبوا حينما

(١) تاريخ الطبري ٤٥٨/٣.

رأوا أن مصلحة الجيش في الانسحاب ووافقهم على ذلك أميرهم، وقد دخلوا  
المعركة وهم مخلصون صادقون وخرجوا منها وهم كذلك، فكانوا جديرين بموقف  
الرحمة والمواساة من عمر، وهذا الموقف يدل على أن عمر وهو الرجل القوي  
الحازم يلين ويواسي في مقام الرحمة والعطف.

ولما حدث ما حدث من قلة الجيش في العراق مع المثنى، اهتم أمير المؤمنين  
بإمداده فكتب إلى عماله لجمع الجيوش، وكان جرير بن عبد الله البجلي قد رغب  
في جمع بجيلة من القبائل فاجتمع له منهم ألفان وبعث بهم أمير المؤمنين إلى  
المثنى، وسمح عمر رضي الله عنه لأهل الردة بالجهاد وكتب إليهم ليوافوه فبعث  
بهم إلى العراق، واجتمع عند المثنى جيش كبير.

\*\*\*\*\*

## معركة البويب

لما علم قادة الفرس باجتماع جيش كبير عند المثنى بعثوا مهران الهمداني بجيش من الفرسان لمواجهة جيش المثنى، ولما علم المثنى بذلك كتب إلى من لم يصل إليه من الأمداد أن يوافوه بالبويب وعلى رأس هؤلاء جرير بن عبد الله حيث كتب إليه المثنى يقول: إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب، فاجتمعوا بالبويب وليس بينهم وبين جيش الفرس إلا النهر، فأقام المثنى حتى كتب له مهران: إما أن تعبروا إلينا أو أن نعبر إليكم، فقال المثنى: اعبروا، فعبر مهران بجيشه، وكان ذلك في شهر رمضان من العام الثالث عشر للهجرة، فقام المثنى خطيباً وقال للمسلمين: إنكم صوام والصوم مَرَقَةٌ ومضعفة وإني أرى من الرأي أن تفتروا ثم تقووا بالطعام على قتال عدوكم، قالوا: نعم، فأفطروا.

وكان المثنى قد عبأ جيشه وسار فيهم يحثهم على القتال، ويقول لأهل كل راية: إني لأرجو أن لا تُؤتَى العرب اليوم من قبلكم، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم.

قال الرواة: وأنصفهم المثنى في القول والفعل، وخلط الناس في المكروه والمحجوب، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً ولا عملاً.

وهذا دليل على حسن قيادته وسعة حكمته، حتى أصبح أفراد الجيش مطيعين له عن حب وقناعة.

ولما رضي المثنى عن استعداد جيشه قال: إني مكبرٌ ثلاثاً فتهيؤوا ثم احملا مع الرابعة، فلما كبر أول تكبيرة أعجلهم أهل فارس وعاجلهم فخالطوهم مع أول تكبيرة، وليس من عادة الفرس هذا الاندفاع ولكن لعل ما حصلوا عليه في معركة الجسر من إصابة المسلمين خفف مما وقر في نفوسهم من هيبة المسلمين والرعب منهم.



وهكذا بدأ الفرس بالهجوم وقد صمد لهم المسلمون واستمروا معهم في صراع شديد، والمثنى إلى جانب اشتراكه في القتال يراقب جيشه بدقة حتى إنه رأى خلافاً في بعض صفوفه فأرسل إليهم رجلاً وقال: إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم: فقالوا: نعم، واعتدلوا.

ولما رأى المثنى ركود الحرب وعدم تفوق المسلمين بشكل بارز دعا بعض فرسانه الأبطال فحمل بهم على قلب المشركين حتى ضعضعهم وأزال قائدهم نحو الميمنة، وقد ارتفع الغبار والمجنبات في الميمنة والميسرة تقتتل، ولا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لا المسلمون ولا المشركون.

ووقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر الغبار، وقد فنى قلب المشركين وقُتل قائدهم مهراة والمجنبات قد هز بعضها بعضاً، فلما رآه المسلمون وقد أزال القلب وأفنى أهله قويت مجنبتهم على المشركين، وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر، وأرسل إليهم من يقول لهم: عاداتكم في أمثالهم، انصروا الله ينصركم، حتى هزموا القوم، فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم وقطعه، وأخذ الأعاجم، فافترقوا بشاطئ الفرات، واعتورتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم، ثم جعلوا جثثهم أكواماً من كثرتها، حتى ذكر بعض الرواة أن قتلاهم بلغوا مائة ألف.

وندم المثنى على مسابقة الفرس وقطع الجسر فقال: لقد عجزت عجزة وقي الله شرها، بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه، حتى أخرجتهم، فإني غير عائد فلا تعودوا، ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة، لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع.

ولقد أبان المثنى في آخر هذا الكلام وجه الخطأ في هذه الخطة حيث قد لاحظ ببصيرته الحربية النافذة أن في منع العدو من الفرار إلقاء لهم إلى الاستماتة في القتال دفاعاً عن أنفسهم، فإنه حينما يشعر الإنسان بأنه مقتول يبذل كل طاقته في الدفاع عن نفسه، وهذا يكلف الجيش المقابل جهوداً ضخمة في محاولة القضاء عليه، ولكن الله تعالى وقي المسلمين شر هذه الخطة كما ذكر المثنى حيث ثبت

المسلمين فكانت قوتهم أعلى بكثير من احتمال الأعداء وطاقاتهم، وألقي الرعب في قلوب الأعداء حتى فقدوا الطاقة والمقدرة على الدفاع عن النفس.

ولربما رأى بعض أفراد الجيش في خطة المثنى هذه براعة وعظمة لكونها بلغت في النكاية بالكفار وإرهابهم مبلغاً عظيماً، ولربما تأسى به بعض القادة في أمثال هذه المعركة، فأراد المثنى باعترافه بهذا الخطأ أن يزيل هذا الفهم من النفوس، وما قد يتبعه من التآسي به في التنفيذ.

وإن في اعتراف المثنى بهذا الخطأ، وهو الرجل الذي بلغ في هذه المعركة أوج النصر والشهرة لدليلاً على قوة إيمانه، وتجرده من حظ النفس، وإيثاره مصلحة الجماعة، وهكذا يكون العظماء.

ولقد أعاد هذا النصر المؤزر الذي حازه المسلمون هيبته العظيمة في قلوب الأعداء، وعفوا به على كل آثار إصابتهم في معركة الجسر، فله در هؤلاء الأبطال، وما أعظم غناءهم عن الإسلام والمسلمين!

وإن مما يؤيد ما قاله المثنى في نقد هذه الخطة وأن الله وقى شرها ما ذكره عرفجة بن هرثمة حينما طلب المثنى من قادة الجيش أن يتحدثوا عن المعركة حيث قال: حُزناً كتيبة منهم إلى الفرات، ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن في غرقهم وسلّى عنا بها مصيبة الجسر، فلما دخلوا في حدّ الإحراج كروا علينا فقاتلناهم قتالاً شديداً، حتى قال بعض قومي: لو أخرجت رايتك فقلت: عليّ إقدامها، وحملت بها على حاميتهم فقتلته، فولوا نحو الفرات، فما بلغه منهم أحد فيه الروح.

وإن من المواقف المذكورة في هذه المعركة ما كان من مسعود بن حارثة أخي المثنى حيث قال لقومه قبل بدء المعركة: إن رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف، الزموا مصافكم، وأغنوا غناء من يليكم، ولما صرّع قال رحمه الله: يا معشر بكر بن وائل ارفعوا رايتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصري.

وإن من الأقوال الرائعة التي قيلت بعد المعركة قول المثنى: قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليّ من ألف من العرب، ومائة اليوم من العرب أشد عليّ من ألف من العجم، إن الله أذهب مصدوقتهم، ووهن كيدهم، فلا يروعنكم زهأً ترونه - يعني هيئتهم - ولا سوادٌ - يعني كثرتهم - ولا قسىُّ فُجٍّ - يعني قد بانت أوتارها - ولا نبألٌ طوال، فإنهم إذا أُعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت.

وإن هذا القول في ذلك الوقت مناسب تماماً حيث عرض المثنى خبرته الجيدة في حربه مع الفرس في الوقت الذي دخل في حروب العراق أعداد كبيرة من المسلمين يشاركون في حرب الفرس لأول مرة، فجمع المثنى لهم بذلك بين المشاهدة في معركة من المعارك وبين وصف تجاربه في كل المعارك التي خاضها معهم قبل ذلك.

وإن من المواقف التي ينبغي الإشارة إليها ما كان من نساء المسلمين لما أرسل إليهم قادة المسلمين بعض ما أصابوا من الطعام، وقد أرسلوه مع أحد زعماء النصارى من العرب وهو عمرو بن عبد المسيح بن بقليلة في رجال معه، فلما رأتهم النساء تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد، فقال عمرو ابن عبد المسيح: هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش، وبشروهن بالفتح<sup>(١)</sup>.

وإن هذا الموقف ليدل على حسن التربية الإسلامية وإبراز شخصية المسلم حتى لدى النساء، فإنهن قد تدربن على حماية الموقف فيما إذا خلا من الرجال.

هذا وقد أطلق هذا النصر الحاسم يد المسلمين في العراق فيما بين النهرين وأرسل المثنى قواده يُخضعون البلاد لسلطان المسلمين، ويتقوون بما يفىء الله عليهم من الغنائم على جهاد عدوهم.

\*\*\*\*\*

---

(١) يراجع تاريخ الطبري ٣/ ٤٦٠ - ٤٧٦.



مواقف وعبر

في

معركة القادسية



تبين ما آل إليه أمر المسلمين في جهاد الفرس حيث أحرز المسلمون نصراً كبيراً في معركة البويب بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني، وقد أزالوا به آثار هزيمتهم في معركة الجسر الأولى.

وفي أثناء ذلك اجتمع أهل فارس على تمليك شباب من أبناء ملوكهم وهو «يَزْدَجَرْد» فاجتمعوا عليه بعد تفرق، ولما علم بذلك المثنى كتب إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمرهم فأجابه بقوله «أما بعد فأخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة أحدا ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد إذا جدَّ العجم فلتلقوا جدَّهم بجدكم».

فانحاز المثنى بمن معه ونزلوا بأطراف العراق مما يلي بلاد العرب على معسكرات متقاربة، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة.

#### الاستعداد للمعركة:

كتب عمر إلى عماله في شهر ذي الحجة وهو خارج للحج أن لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ، والعجل العجل. ذكره ابن جرير رحمه الله<sup>(١)</sup>.

وما أن اجتمع أوائل الناس في المدينة حتى خرج بهم عمر رضي الله عنه.

قال ابن جرير رحمه الله فيما يرويه عن شيوخه: خرج عمر حتى نزل على ماء يُدعى صراراً، فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد، أيسير أم يقيم، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان يُدعى في إمارة عمر رديفاً - قالوا: والرديف بلسان العرب الرجل الذي بعد الرجل، والعرب تقول ذلك للرجل الذي يرجونه بعد رئيسهم - وكانوا إذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس.

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٧٧ - ٤٧٨.

أقول: وإن في هذا لدلالة على عظم مكانة عمر في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، وهذه الهيبة العظيمة التي عمرت قلوبهم منه مبعثها أمران:

أولاً: قوة إيمان بالله تعالى وقيامه بتوحيده تعظيماً له وخوفاً منه وتجريد قلبه تماماً من أن يتسرب إليه أي اعتبار لأي قوة على وجه الأرض، فالصحابة يرون أن قلبه قد امتلأ من خوف الله تعالى وتعظيمه، ورجائه والخضوع له حتى لم يعد لأي قوة أخرى في الأرض أن تراحم وجود الإيمان بالله تعالى في قلبه، ومن كانت هذه حاله فحريٌّ بالقلوب أن تستكين له وأن تهاب منه وأن تحسب حساباً كبيراً لمنطقه وسلوكه.

ثانياً: أن عمر كان يحمل الناس على الحق الذي يطمئن إليه إما طوعاً أو كرهاً، فكان الناس يفكرون كثيراً ويزنون كلامهم طويلاً قبل أن يكلموه خشية أن يزلُّوا بكلمة لا يحسبون لها حساباً، وهو لقوة اتصاله بالله تعالى وعظم منزلة الآخرة عنده وهوان الدنيا عليه يدرك من سَقَط الكلام وعواره مالا يدركه الآخرون.

وإلى جانب هذه الهيبة العظيمة فإنهم كانوا يحبونه من قلوبهم ويفدونهم بأنفسهم لأن قوته عليهم كانت من أجل تعظيم الله تعالى وتقديره حق قدره وتنفيذ شرعه لا من أجل أن يبني لنفسه أو لأسرته مجدداً يخلد ذكره في هذه الحياة الفانية، فهي هيبة مشوبة بالحب، وتعظيم مشوب بالإجلال.

وفي هذا الخبر أيضاً دلالة على عظمة هؤلاء الثلاثة الذين كان الصحابة يقدمونهم في مخاطبة عمر وهم عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف والعباس ابن عبدالمطلب رضي الله عنهم أجمعين، مما يدل على تمتع هؤلاء بالصفات التي يرضى عنها عمر والتي مبعثها قوة الإيمان بالله تعالى والتجرد من حظ النفوس ومن ضغوط الناس.

قال ابن جرير في سياق روايته: فقال عثمان لعمر: ما بلغك؟ ما الذي تريد؟ فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر -يعني خبر عزمه على غزو الفرس- ثم نظر ما يقول الناس، فقال العامة: سر وسر بنا معك، فدخل معهم في رأيهم، وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه برفق، فقال: استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك.

ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب فقال: أحضروني الرأي فإني سائر، فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ويقيم، ويرمي بالجنود، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون، وإلا أعاد رجلاً وندب جنداً آخر وفي ذلك ما يغيظ العدو، ويرعوي المسلمون، ويحيي نصر الله بإنجاز موعود الله.

قال: فنادى عمر: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس إليه، وأرسل إلى علي وقد استخلفه على المدينة فأتاه، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه، وجعل على المجتبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف فقام في الناس فقال: إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله، فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس، وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم، يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمّت ومن خلّفت<sup>(١)</sup>. يعنى بذلك علياً وطلحة رضي الله عنهما، وكان قد خلف علياً على المدينة وقدم طلحة على مقدمة الجيش.

هذا وإن لى تعليقات على هذا الخبر أوجزها فيما يلي:

مما يلاحظ أن عمر رضي الله عنه لم يكن عازماً على الخروج بنفسه إلى العراق بدليل أنه لما استشار الناس فأشار عليه العامة بذلك وافقهم ظاهراً وكره أن يخالفهم حتى يخرجهم من رأيهم برفق كما جاء في الرواية، والسؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال، لماذا لم يستشر الناس وهو في المدينة، ثم إما أن يخرج إن قبل رأيهم أو يجلس إن قبل الرأي الآخر؟ والجواب أن يقال: لعل عمر رضي الله عنه آنس من المسلمين بعض الركود وعدم تقدير الأمر بكل ما يجب أن يقدره به وأنهم لم يصلوا من الإقدام على الجهاد إلى المستوى الذي يريد منهم أن يبلغوه،

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٨٠.

ولا شك أن طاقات عمر الفذة لم يبلغها أحد ممن عاصره آنذاك ولا ممن جاؤوا بعده، فأراد بخروجه أن يقدم للجهد دفعاً قوية نحو الأمام حيث إن رغبة الأمة في صحبته لا يدانيها أي رغبة أخرى بعد إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، وقد حصل له ما أراد من ذلك رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين.

وإن من أبرز ما يلاحظ في هذا الخبر أن الصحابة رضي الله عنهم نفذوا أمر أمير المؤمنين عمر فخرجوا بدون مراجعة مع أنهم لا يدرون عن خطة سيرهم ولا لماذا خرجوا، وهذا من دلالاته المهمة أنه يكشف عن كمال الانسجام بين الحاكم والمحكومين في ذلك العصر، وما كان عليه الصحابة من الطاعة لولي الأمر الذي يعلمون يقيناً أنه لن يأمرهم إلا بطاعة الله تعالى، وهذا الخلق النبيل يعد من أبرز العوامل التي حققت لهم الانتصار السريع والنجاح الباهر سواء في مجال توحيد الجزيرة العربية وإقامة الدولة الإسلامية أو في مجال غزو الأعداء وإخضاع الممالك لدولة الإسلام.

ومما يلاحظ في هذا الخبر أن عمر رضي الله عنه ترك رأي العامة وأخذ برأي أهل الحل والعقد الذين أطلق عليهم أهل الرأي، وفي هذا دلالة على أن أمور الأمة تُدار بالمشورة بين أهل الحل والعقد الذين هم أهل الرأي والتدبير والخبرة في سياسة الأمور، ولم يذكر عمر رضي الله عنه موضوع فهم الدين وتطبيقه في وصف أهل الحل والعقد فلم يقل أهل العلم والعمل لأن هذا الأمر كان معلوماً توفره لدى الصحابة رضي الله عنهم وإن كانوا يتفاضلون في ذلك، لكن كان أصحاب العقول الراجحة فيهم هم المتميزون في فهم الإسلام وتطبيقه.

ومن هذا نستفيد أن العبرة شرعاً ليست في كثرة الآراء وإنما العبرة بسداد الآراء وصوابها وإن قلت.

وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يفيد أن نجاح الأمة في أمورها مترتب على إحكام العلاقات بين الحاكمين والمحكومين حيث يقول: «وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم».



فالذي يفهم من هذا النص أن أمور المسلمين تكون شورى بينهم، وما يقرر أهل الحل والعقد يأخذ به أولياء الأمور، ثم يكون ملزماً لعامة الأمة في حدود طاعة الله تعالى .

هذا وقد روي من الكلمات البليغة التي قيلت في هذه المشورة ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه قال في سياق خبر هذه المشورة: فقال عبدالرحمن -يعنى ابن عوف رضي الله عنه: فما فديت أحداً بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولا بعده فقلت: بأبي وأمي اجعل عجزها بي<sup>(١)</sup> وأقم وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تُهزم في أنف الأمر خشيتُ أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً<sup>(٢)</sup>.

ألا ما أعظمك يا بن عوف وما أصوب رأيك، وما أجمل عرضك، فقد قلت رأياً صواباً وعرضته بقوة فوفقت في رأيك ووفقت في طريقة عرضه.

إن الحق قد يشوّهه في أسماع الناس طريقة عرضه عليهم، وقد يُحسن الإنسان العرض ولكن لا يوفق للنطق بالحق والصواب في الرأي، فأما حين تجتمع الحسنيين للإنسان فإنه يبلغ مقصوده، مع توفيق الله تعالى بسهولة ويسر.

وبهذا اقتنع أمير المؤمنين برأي عبدالرحمن بن عوف ومن وافقه الرأي، وقرر أن يبعث قائداً من الصحابة يكون ممثلاً له في تنفيذ ما يريد.

واستشار أمير المؤمنين أصحاب الرأي في اختيار هذا القائد، وبينما هم في هذه المشورة إذ ورد كتاب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان مرسلًا لجباية بعض صدقات أهل نجد، فقال عمر: أشيروا عليّ برجل، فقال عبدالرحمن بن عوف: وجدته، قال: من هو؟ قال: الأسد في برائته سعد بن مالك، ووافقه عليه أهل الرأي، فأنتهى عمر إلى قولهم وأرسل إليه<sup>(٣)</sup>.

وإن في تقديم ابن عوف لسعد بقوله «الأسد في برائته» مثل آخر لحسن العرض، والثناء على أهل الفضل بما هم أهل له.

(١) يعني إذا كان هناك ملامة في عدم ذهابك يا عمر فاجعلني أنا المسئول عن ذلك.

(٢)،(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٤٨١ - ٤٨٣ .

## وصية من عمر لسعد:

لما قدم سعد إلى المدينة أمره عمر رضي الله عنهما على حرب العراق وقال له: يا سعد سعد بني وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن، فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقتنا فالزمه فإنه الأمر، هذه عظمتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين<sup>(١)</sup>.

وإنها لموعظة بليغة من عالم رباني وقائد سياسي خبير، فلقد أدرك عمر جانب الضعف الذي يمكن أن يؤتى سعد من قبله وهو أن يُدلي بقرابته من النبي ﷺ فيحمله ذلك على شيء من الترفع على المسلمين، ثم ذكره بالمبدأ الإسلامي العام الذي يعدُّ مقياساً لكرامة المسلم في هذه الحياة حيث قال «الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة» فقوله «يتفاضلون بالعافية» يعني بالشفاء من أمراض النفوس فكأنه يقول يتفاضلون بالبعد عن المعاصي والإقبال على طاعة الله تعالى وهذه هي التقوى التي جعلها الله سبحانه ميزاناً للكرامة بقوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وهو ميزان عادل رحيم بإمكان كل مسلم بلوغه إذا جدَّ في طلب رضوان الله تعالى والسعادة الآخروية.

ثم ذكره عمر في آخر الموعظة بلزوم الأمر الذي كان عليه رسول الله ﷺ وهذا يشمل الالتزام بالدين كله وتطبيقه على الناس.

## وصية أخرى:

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوصى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما مرة أخرى لما أراد أن يبعثه بقوله: إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي، فإنك تُقدم على أمر شديد كراهة لا يُخلِّص منه إلا الحق، فعود نفسك

(١) تاريخ الطبري ٤٨٣/٣.

ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً، منها السر ومنها العلانية، فأما العلانية فإن يكون حامده وذامه في الحق سواء، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحببة الناس، فلا تزهد في التحب فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبداً حبه، وإذا أبغض عبداً بغضه، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس، ممن يشرع معك في أمرك<sup>(١)</sup>.

هذا وإن لنا مع هذا النص وقفةً سريعةً نستلهم منه بعض المواقف والعبر النافعة، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أولاً أن لزوم الحق يخلص المسلم من الشدائد، وذلك أن من لزم الحق كان مع الله تعالى، ومن كان مع الله كان الله معه جل وعلا بنصره وتأييده، وإن هذا الشعور ليعطى المسلم دفعات قوية نحو مضاعفة العمل ومواجهة الصعاب والمآزق، إضافة إلى الطمأنينة النفسية التي يتمتع بها من لزم الحق قولاً وعملاً، بخلاف من حاد عن طريق الحق فإنه يشعر بالقلق والآلام المتعددة التي منها تأنيب الضمير والخوف من محاسبة الناس والدخول في مجاهيل المستقبل التي تترتب على الانحراف.

وذكر عمر رضي الله عنه أن عُدّة الخير الصبر، وذلك أن طريق الخير ليس مفروشاً بالخمائل، بل هو طرق شاق شائك، يتطلب عبوره جهاداً طويلاً، فلا بد لسالكه من الاعتداد بالصبر، وإلا انقطع في أثناء الطريق.

وذكر أن خشية الله تعالى تكون في طاعته واجتناب معصيته ثم بين الدافع الأكبر الذي يدفع إلى طاعته ألا وهو بغض الدنيا وحب الآخرة، والدافع الأكبر الذي يدفع إلى معصيته، وهو حب الدنيا وبغض الآخرة.

(١) تاريخ الطبري ٤٨٣/٣.

ثم ذكر أن للقلوب حقائق منها العلانية ومثل لها بالمعاملة مع الناس بالحق في حالَي الغضب والرضى، وأن لا يحمل الإنسان ثناءً الناس عليه على مداراتهم في النكول عن تطبيق الحق، ولا يحمله ذمهم إياه على ظلمهم ومجانبة الحق معهم.

وذكر من حقائق القلوب السرّ، وجعل علامته ظهور الحكمة من قلب المسلم على لسانه، وأن يكون محبوباً بين إخوانه المسلمين فإن محبة الله تعالى لعبده مترتبة على محبة المسلمين له، لأن الله تعالى إذا أحب عبداً حبه لعباده.

وإذا كان سعد بن أبي وقاص المشهود له بالجنة بحاجة إلى هذه الوصية . . فكيف بنا وأمثالنا ونحن ينقصنا الكثير من فهم الإسلام وتطبيقه؟

\*\*\*

### خطبة لعمر:

وسار سعد إلى العراق ومعه أربعة آلاف مجاهد، وشيّعهم عمر من مكانه في «صرار» إلى «الأعوص» ثم قام في الناس خطيباً فقال: إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال، وصرّف لكم القول ليحيي به القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله، من علم شيئاً فليتنفع به، وإن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهيّن واللين، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسرّ لكل باب مفتاحاً، فباب العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولا تصانع في ذلك أحداً، واكتف بما يكفيك من الكفاف، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء، إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فأنّهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متّع<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الخطبة البليغة نجد عمر رضي الله عنه يقرر بعض أمور العدل في الحكم بين الناس، فيذكر من أمارات العدل أن يتصف الحاكم بخلق الحياء والسخاء والسماحة، وذلك أن خلق الحياء يحمل صاحبه على احترام شعور الآخرين ويمنعه من فظاظة القول وغلظ الطباع، وإذا كان المسئول بهذه الصفات فإنه يعطي أصحاب

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٨٥ .

القضايا فرصة التعبير عما يريدون، وقد يمنعهم اللفظ الغليظ من ذكر تفاصيل القضية فيتم الحكم على غير تبيين، وذلك يؤثر في تحقق العدل.

أما خلق السخاء فإنه يورث في نفس المسئول قناعة تحميه من التطلع لما في أيدي الآخرين، وبالتالي فإن نفسه تنقمع عن الظلم ويصبح ديدنه في تنفيذ مسؤوليته أن يحمي المستضعفين من شره المتجبرين الظالمين.

أما السماح فإنها تعبير صادق عن امتلاء النفس بحب الخير للمسلمين، ومن مظاهرها طلاقة الوجه وبشاشته، وقد تكون مظهرًا من مظاهر الحياء، لكنها مع الزمن تكون خلقًا مألوفًا، والسماحة بهذا المعنى إذا اتصف بها المسئول فإنها تفتح الطريق أمام ذوي الحاجات وتكون عاملا من عوامل إقرار العدل بين الناس.

وذكر أن تباشير العدل الرحمة، فحيثما وجدت الرحمة وجد العدل، وذلك أن المستحقين للرحمة هم بحاجة للعدل، وهم غالبًا أوساط الناس وضعفاؤهم، فإذا وجد الرحيم العطوف الذي يهتم بقضايا المستضعفين فإنه جدير إذا تولى أن يعدل.

ومما ذكر عمر رضي الله عنه في هذه الخطبة أن باب العدل الاعتبار، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال. يعني أن الدافع الأكبر الذي يدفع المسئول إلى إقرار العدل والباب الذي يدخل منه لتحقيق ذلك هو أن يأخذ العبرة من خاتمة من سبقوه إلى التمكين في الأرض وتولي المناصب المهمة. وذلك بالتفكير الدائم في تقديم الأعمال التي تخدمه وتنفعه في مستقبله بعد الموت من خلال مسؤوليته التي تحملها، فإذا كان ديدنه التفكير في ذلك فإن هذا الأمر يدفعه إلى تلمس أسباب العدل وتطبيقه بين الناس.

وذكر عمر رضي الله عنه أن الزهد مفتاح العدل، وعرف الزهد بأنه أخذ الحق من كل أحد قبله حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، قال «ولا تصانع في ذلك أحدا، واكتف بما يكفيك من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء» وفي هذا البيان نجد أنه اعتبر الزهد في أمرين: الجاه والمال، فأما الزهد في الجاه فإن يقبل الحق من كل من صدر منه الحق كائنا من كان، وأن لا يحمله جاهه

ومنزله على رفض الحق إذا صدر ممن هم دونه في المنزلة الدنيوية، وأن يؤدي الحق إلى مستحقه كائناً من كان، وأن لا يحمله منصبه على استضعاف من هم دونه ومنعهم حقوقهم، وأن يكون في أخذه الحق وأدائه قاصداً ذات الحق لا مُصانعة الناس ومداراتهم.

وأما الزهد في المال فأن يكتفي بمعيشة الكفاف وذلك بأن يقتصر في الإنفاق على ما لا بد منه لمثل مجتمعه.

وأما كون الزهد بنوعيه مفتاح العدل فلأن من أهم الدوافع نحو الظلم الجروح نحو العلو في الأرض والاستكثار من متاعها فإذا رَوَّضَ المسئول نفسه على الزهد في الجاه والمال كان جديراً بأن يُفتح له باب العدل، وأن يكون مصدر خير وسعادة للمسلمين.

ثم نجد عمر رضي الله عنه يختم خطبته ببيان ضخامة المسؤولية التي تحملها حيث يقول: «إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فأَنْهَوْا شكااتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلي من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع».

فالمسئول الأول في الأمة هو أثقلهم حملاً لأنه مسئول عن الأمة أمام الله تعالى، ثم تتدرج المسئوليات من بعده على حسب منزلتها.

وقوله «وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه» الظاهر أنه يريد أن الله ألزمه برفع الظلم عن المظلومين وإقرار العدل في الأرض، وإذا تم ذلك لم يعد هناك دعاء يُرفع من المظلومين، ويدل على ذلك قوله بعد هذه الجملة «فأنهوا شكااتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلي من يبلغناها نأخذ له الحق بغير متعتع» يعني نأخذ له الحق بقوة وهو يشعر بعزته وكرامته ولا يتعرض في سبيل حصوله على حقه للمذلة والمهانة.

وبهذه الخطبة وأمثالها يقرر عمر رضي الله عنه قواعد العدل في الإسلام، وبما قام به من إلزام نفسه بالعدل، وأخذ الناس به أصبح مضرب المثل في هذا المجال.

## مسير سعد إلى زُرود:

وسار سعد بجيشه حتى نزل بمكان يقال له «زُرود»<sup>(١)</sup> من بلاد نجد، وأمه أمير المؤمنين بأربعة آلاف، واستطاع سعد أن يحشد سبعة آلاف آخرين من بلاد نجد، وكان المثني بن حارثة الشيباني ينتظره في العراق ومعه اثنا عشر ألفاً.

وأقام سعد بزُرود يجمع القوات استعداداً للمعركة الفاصلة مع الفرس وانتظاراً لأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم أجمعين، وقد كان عمر عظيم الاهتمام بهذه المعركة كما ذكر الإمام الطبري بإسناده عن ماهان أنه قال، قال عمر: والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سِطَّةٍ ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغرَّهم<sup>(٢)</sup>.

وبينما كان سعد مقيماً بجيشه في زُرود مرض المثني مرضاً شديداً وكان مع جيشه في أطراف العراق، ولما أحس بدنو أجله كتب وصيةً إلى سعد بن أبي وقاص وولَّى على من معه من الجيش بشير بن الخصاصية، وأرسل بوصيته أخاه المعنى بن حارثة وقد جاء في وصيته لسعد: أن لا يقاتل عدوه وعدوهم - يعني المسلمين - إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يُظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فإووا إلى فته، ثم يكونوا أعلم بسيلهم، وأجراً على أرضهم، إلى أن يردَّ الله الكرة عليهم.

فلما انتهى إلى سعد رأيُ المثني ووصيته ترحم عليه وأمر المعنى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيراً<sup>(٣)</sup>.

وهذه وصية ثمينة من رجل عظيم الخبرة بحرب فارس، وهو أول من تجرأ على حربهم في الإسلام.

ومما يلفت النظر في هذا الخبر أن المثني قد أوصى بزوجه سلمى بنت خصفة التيمية إلى سعد بن أبي وقاص، وحملها معه المعنى، ثم خطبها سعد بعد انتهاء

(١) زُرود رمال بين الثعلبية والحزيمية بطريق الحاج من العراق سميت بذلك لأنها تزدرد يعني تبتلع المياه.

(٢) تاريخ الطبري ٤٨٦/٣ - ٤٨٧. (٣) تاريخ الطبري ٤٨٦/٣ - ٤٩٠.

عدتها وتزوجها، فهل أراد المثنى أن يبرَّ زوجته بعد رحيله بضمها إلى بطل عظيم من أبطال الإسلام شهد له رسول الله بالجنة؟ إنه نوع من الوفاء نادر المثال، أم أنها كانت ذكية وعاقلة وقد تكون لديها خبرة من حروب زوجها فأراد أن ينتفع المسلمون بها؟ كل ذلك محتمل، وهو غيـض من فيض مما تحلى به ذلك الجيل الراشد من الفضائل وعظائم الأمور.

### موقف جهادي للمعنى بن حارثة:

تقدم لنا عرض وصية المثنى بن حارثة الشيباني لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وقد حمل هذه الوصية أخوه المعنى بن حارثة، ومما ينبغي الإشادة به الإشارة إلى موقف قام به المعنى قبل إبلاغ هذه الوصية، وذلك أنه علم بأن أحد أمراء الفرس وهو الأزامرد بعث قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال له: ادع العرب فأنت على من أجابك وكن كما كان أبائك - يعني المناذرة الذين كانوا ولاية الفرس - فنزل «القادسية»، وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكتبهم به مقاربة ووعيداً، فلما انتهى إلى المعنى خبره، أسرى المعنى من «ذي قار» حتى بيته، فأنأمه ومن معه، ثم رجع إلى ذي قار<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجد أن ذلكم الجيل الزاهر قد أنجب رجالاً أكفاءً وسادةً فضلاءً، فلا تكاد الساحة تخلو من رجال المواقف حتى يبرز فيها من يملؤها بطولة وفداءً، فحينما غاب المثنى قام أخوه المعنى بعد موته وسدَّ ثلثة خطيرة تفتقر إلى الأبطال أمثاله، وإن غارته الليلية هذه لتشبهه إلى حد كبير غارات خالد بن الوليد القاصمة التي تترك الأعداء في ذهول وحيرة فلا يكادون يحاولون لَمَّ الشمل واستعادة المواقف حتى يفاجئهم بقاصمة تشل تفكيرهم وتفرق جمعهم.

### مسير سعد إلى العراق ووصية من عمر:

وجاء الأمر من عمر أمير المؤمنين إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما بالرحيل من «زرود» إلى العراق استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه بالوصية التالية:

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٠.



أما بعد فإنني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب، وأمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظاً من الله يعلمون ماتفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منا ولن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم شرٌّ منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرّة المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، جامّ الأنفس والكراع<sup>(١)</sup> وأقم بمن معك كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة، يجمعون فيها أنفسهم، ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم.

ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمةً وذمةً ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم ففؤا لهم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذب لا ينفحك خبره وإن صدق في بعض، والغاش عين عليك وليس عينا لك.

(١) يعني الخيول.

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، فتنقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلال، ولا تخص أحداً بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولاسرية في وجه تتخوف فيه صنعة ونكاية.

فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنيعته بك، ثم أذك حراسك على عسكرك، وتحفظ من البيات جهدك، ولا تؤتئ بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدوك وعدو الله، والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان<sup>(١)</sup>.

وبعد قراءة هذا الخطاب العظيم المشتمل على هذه الوصايا النافعة، يتبين لنا جانب مهم من جوانب عظمة عمر رضي الله عنه وهو خبرته العالية في التخطيط الحربي، مع أنه لم يسبق له أن تولى قيادة جيوش من هذا النوع، ولكن الإلهام الإلهي كان واضحاً في كل توجيهاته ووصاياه.

وما يدل على بصيرته النافذة في التوجيه الحربي ما رواه الإمام الطبري بإسناده عن الإمام الشعبي قال: كان عمر قد كتب إلى سعد مُرتحله من «زرود»: أن ابعث إلى «فرج الهند» - يعني جنوب العراق - رجلاً ترضاه يكون بحياته ويكون رداً لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم، فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة، فكان بحيال «الأبلّة» من أرض العرب، فأتى «غُضياً» ونزل على جرير - يعني البجلي وقبيلته - وهو فيما هناك يومئذ، فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غُضَيَّ إلى الجبّانة، فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم، وأمر على أجنادهم وعبهم، ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدّهم وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم، وواعدهم القادسية، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمركم.

(١) الفاروق القائد، لمحمود شيت خطاب/ ١٥٥.

وقد نفذ سعد هذه الخطة فأمر أمراء الأجناد، وعرف على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات على عهد رسول الله ﷺ، وعشر الناس فجعلهم عشرة أعشار وجعل على كل عشر رجلا له ذكر في الإسلام<sup>(١)</sup>.

### الاستعانة بالتائبين:

ذكر الإمام الطبري في رواية له أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يستعن في حروب الردة ولا على الأعاجم بمرتد، وأن عمر استنفرهم ولم يول منهم أحدا<sup>(٢)</sup> وفي رواية أخرى أن عمر قال لسعد بن أبي وقاص في شأن طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي: استعن بهما ولا تُؤلِّينهما على مائة.

وإننا لنستفيد من سنة هذين الخليفين الراشدين اللذين قال عنهما رسول الله ﷺ «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»<sup>(٣)</sup>. إننا لنستفيد من سنتهما هذه أن من ارتد عن الإسلام ثم تاب ورجع إليه فإن توبته مقبولة ويكون معصوم الدم والمال، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم غير أنه لا يولى شيئا من أمور المسلمين المهمة وخاصة الأعمال القيادية، وذلك لاحتمال أن تكون توبته نفاقا، وإذا كانت كذلك وتولى قيادة المسلمين فإنه يفسد في الأرض ويقلب موازين الحياة فيقرب أمثاله من المنافقين ويبعد المؤمنين الصادقين، ويحول المجتمع الإسلامي إلى مجتمع تسوده مظاهر الجاهلية.

فكانت هذه السنة الراشدة من الخليفين الراشدين لحماية المجتمع الإسلامي من تسلل المفسدين إلى قيادته وتوجيهه، ولعل من حكم هذه السنة أيضا ملاحظة عقوبة المرتدين بنقيض قصدهم، فالذين يرتدون من أجل الحصول على الزعامات والقيادات، إذا أظهروا التوبة وعادوا إلى الإسلام يحرمون من هذه القيادات عقوبة لهم، وردعا لكل من تسول له نفسه أن يخرج عن الخط الإسلامي، ويبحث عن الزعامة في معادة الإسلام وموالاته أعدائه.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٧ - ٤٨٨.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٩.

(٣) مسند أحمد ٥/ ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠٢، سنن الترمذي المناقب باب ٥٢، حديث ٣٧٤٢، سنن ابن ماجه، المقدمة رقم ٩٧.

## كتاب من أمير المؤمنين عمر:

وصل إلى قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو نازل في شراف على حدود العراق كتاب أمير المؤمنين بالمسير نحو فارس، وقد جاء في هذا الكتاب: أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع - وإن كان سهلاً - كؤود لبحوره وفيوضه ودآئه<sup>(١)</sup>، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض.

وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدؤوهم الشدَّ والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم - يعني الانتظار بعد المواجهة - ولا يخذعنكم فإنهم خدعة مكرة، أمرهم غير أمركم، إلا أن تجادوهم - يعني تأخذوهم بالجد - وإذا انتهيت إلى القادسية - والقادسية باب فارس في الجاهلية - فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدن - يعني بين الصحراء والقرى العامرة - على حافات الحجر وحافات المدن، والجراع بينهما - يعني الأراضي السهلة - ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إن أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم، الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدثهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم، واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدياركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن، وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة<sup>(٢)</sup>.

ولعلنا على ذكر من وصية المثنى لسعد في اختيار المكان الذي يستقر فيه الجيش، فهي تشبه هذه الوصية حيث اتفق رأي عمر ورأي المثنى في اختيار المكان، وكانت تلك الوصية من المثنى نتيجة خبرة أكثر من ثلاث سنوات في حرب الفرس، وهذا دليل آخر على براعة عمر في التخطيط الحربي مع أنه لم تطأ قدماه أرض العراق رضي الله عنهم أجمعين.

(١) الدأءاء الفضاء وما اتسع من الأدوية.

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٤٩٠.

وتتضمن هذه الوصية إبقاء الجيش بعيداً عن متناول الأعداء، ثم رميهم بالسرايا التي تنغص عليهم حياتهم وتثير عليهم أتباعهم حتى يضطروهم المسلمون إلى منازلهم في المكان الذي تم اختياره.

وكتب إليه عمر أيضاً يذكره بأسباب النصر المعنوية وهي التي تأتي في المقام الأول والأكبر، وقد جاء في كتابه: أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة، ومن غفل فليحدثهما، والصبر الصبر، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله، واسألوا الله العافية، وأكثروا من قوله «لا حول ولا قوة إلا بالله» واكتب إليّ أين بلغ جمعكم، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؟ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بماهجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية، وخف الله وارجه، ولا تُدَلَّ بشيء، واعلم أن الله قد وعدكم، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له، فاحذر أن تصرفه عنك، ويستبدل بكم غيركم<sup>(١)</sup>.

هذا وإننا لنجد عمر رضي الله عنه في هذا النص وفي نصوص كثيرة داعياً إلى الله تعالى مؤثراً بدعوته حيث يلامس كلامه القلوب فيحييها، فهو أولاً يوصي بتعاهد القلوب، فإن القلب هو المحرك لجميع أعضاء الجسم والحاكم عليها فإذا صلح صلح الجسم كله، ثم يوصيه بموعظة جنده وتذكيرهم بالإخلاص لله تعالى واحتساب الأجر عنده، ويبين أن نصر الله تعالى مترتب على ذلك، ويحذره من التفريط في المسؤولية التي تحملها وما يستقبله من الفتوح، ويذكرهم بوجوب ارتباطهم بالله تعالى وأن قوتهم من قوته، ويوصي قائد المسلمين بأن يكون بين مقام الخوف من الله تعالى والرجاء لما عنده، وهو مقام عظيم من مقامات التوحيد، وينهاه عن الإدلال على الله بشيء من العمل أو من ثناء الناس، ويذكره بما سبق من وعد الله تعالى بانتصار الإسلام وزوال ممالك الكفر، ويحذره من التهاون في تحقيق شيء من أسباب النصر فيتخلف النصر عنهم ليتم على يد غيرهم ممن يختارهم الله تعالى.

(١) تاريخ الطبري ٤٩١/٣.

## كتاب من سعد إلى عمر:

فكتب سعد لأمير المؤمنين بصفة البلدان التي يتوقع أن تكون ميداناً للمعركة الفاصلة، إلى أن قال: وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا، وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم، وأمر الله بعد ماض، وقضاؤه مسلّم إلى ما قدر لنا وعلينا، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية.

فكتب إليه عمر: قد جاءني كتابك وفهمتته، فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أديارهم فلا تنزع حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله.

وصار عمر ومن معه يدعون لسعد وللمسلمين معه<sup>(١)</sup>.

وهكذا كانوا يجمعون بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى، فبعد أن أتقن عمر رضي الله عنه وأكمل كل الأسباب الممكنة ظل ملازماً للدعاء الذي يستنزل به نصر الله جل وعلا وتأييده لعباده المؤمنين.

## كتاب من عمر إلى سعد:

وبينما كان سعد وجيشه متوجهين نحو القادسية ينتظرون بروز الأعداء لهم ورد إلى سعد كتاب من أمير المؤمنين فيه تثبيت لهم، وتقوية لعزائمهم وقد جاء فيه: إني قد ألقى في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزتموهم فاطرحوا الشك، وآثروا اليقين عليه، فإن لآعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان، أو قرفه - يعني رماه - بإشارة أو بلسان، فكان لا يدري الأعجمي ما كلمه به، وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك له مجرى الأمان، وإياكم والضحك، والوفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر الهلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم، وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم، واعلموا أنني أحذركم أن تكونوا شيئاً على المسلمين وسبباً لتوهينهم<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٤٩٢/٣.

(٢) تاريخ الطبري ٤٩٢/٣.

وهكذا أتحف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الجيش الإسلامي هناك برائعة من روائعه في التوجيه والإرشاد، ولكم يتمنى المهتمون بهذه الروائع أن لو اتصل البريد بينه وبين قاداته في كل المعارك كما هو الحال في القادسية، إذًا لأتحف الأمة بالكثير من هذه الروائع .

هذه الموعظة فيها تثبيت للمؤمنين لأن عمر قد أخبر عنه النبي ﷺ بأنه من الملهمين فقال: «إنه كان فيمن قبلكم أناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمي أحد فإنه عمر»<sup>(١)</sup> وقال ﷺ «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»<sup>(٢)</sup> .

فإذا جاء المسلمين خبر عمر بأن الله ألقى في قلبه بأنهم سيهزمون عدوهم، فإن ذلك يجعلهم يندفعون في قتال عدوهم وهم واثقون بالنصر .

لقد كان عمر رضي الله عنه يعيش مع الجيش الإسلامي بكل مشاعره وأحاسيسه، ولقد تكاثفت عليه الهموم حتى أصبح لا يهناً يعيش ولا يقر له قرار حتى يسمع أخبارهم، وإن في مثل هذا الإلهام من الله تعالى تخفيفاً من هذا العبء الكبير الذي تحمله عمر وتثبيتاً للمسلمين وتقوية لقلوبهم .

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يذكر المسلمين بشيء من عوامل النصر المعنوية حيث يحثهم على الالتزام بشرف الكلمة والصدق في القول والوفاء بالعهود، ولو كان من التزم بذلك أحد أفراد المسلمين، أو كان هناك خطأ في الفهم فلم يقصد المسلم الأمان وفهمه العدو أماناً .

إن الانتصار على الأعداء ليس في الانتصار الحربي وحده، وإنما هو بالدرجة الأولى في انتصار المبدأ الذي يمثله المنتصر ومدى قناعة الناس به، إنما يتم ذلك بكون المبدأ حقاً وكون من يمثله متخلفاً بمكارم الأخلاق، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم وهم يعرضون على الناس دين الله الحق، ويمهدون لعرضه بإزالة قوى الباطل التي تحول دون بلوغ دعوة الحق .

(١) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، باب ٦، صحيح مسلم، فضائل الصحابة رقم ٢٣ .

(٢) سنن الترمذي، المناقب، باب ٦٥، سنن أبي داود، الإمارة، رقم ٢٩٦١ .

## موقف جهادي لزهرة بن الحوية:

من الأمور التي كان يتميز بها قادة الصحابة رضي الله عنهم إسناد المهمات إلى الأكفاء من الرجال، ومن هؤلاء الذين ولاهم سعد بن أبي وقاص زهرة بن عبد الله بن الحوية، وقد ولاه على مقدمة الجيش، وقد جرى له موقف يدل على أهليته لذلك، فقد أخرج ابن جرير بإسناده عن كرب بن أبي كرب العُكلي - وكان في المقدمات أيام القادسية - قال: قدمنا سعد من «شراف» فنزلنا بعذيب الهجانات، ثم ارتحل، فلما نزل علينا بعذيب الهجانات وذلك في وجه الصبح، خرج زهرة ابن الحوية في المقدمات، فلما رفع لنا العذيب - وكان من مسالحهم - استبنا على بوجه ناسًا، فما نشاء أن نرى على برج من بوجه رجلا أو بين شرفتين إلا رأيناه، وكنا في سرعان الخيل - يعني أوائلها - فأمسكنا حتى تلاحق بنا كثف - يعني جماعة - ونحن نرى أن فيها خيلا، ثم أقدمنا على العذيب، فلما دنونا منه خرج رجل يركض نحو القادسية فأنتهينا إليه فدخلنا فإذا ليس فيه أحد، وإذا ذلك الرجل هو الذي كان يتراءى لنا على البروج وهو بين الشرف مكيدة، ثم انطلق بخبرنا، فطلبناه فأعجزنا، وسمع بذلك زهرة فاتبعنا فلحق بنا وخلفنا واتبعه، وقال: إن أفلت الربى أتاهم الخبر، فلحقه بالخذق فطعنه فجدله فيه.

وكان أهل القادسية يتعجبون من شجاعة ذلك الرجل ومن علمه بالحرب، لم يُر عين قوم قط أثبت ولا أربط جأشًا من ذلك الفارسي، لولا بعد غايته - يعني زهرة - لم يلحق به ولم يصبه زهرة<sup>(١)</sup>.

أقول: إن في هذا دلالة على حسن اختيار أمراء المسلمين للقادة، حيث يضعون الرجل المناسب في المكان المناسب، فإن القوم الذين طلبوا ذلك الرجل فأعجزهم لديهم وسائل من نفس النوع الذي لدى زهرة، فكلهم كانوا يركبون الخيل، ولكن زهرة كان يتفوق عليهم بأنه كان يحمل الهم الكبير الذي يحمله سعد وعمر، وإن الذي أوصل زهرة إلى مقصوده ليس الفرس التي كان يمتطيها وإنما أوصله همه الكبير وشعوره بالمسئولية.

(١) تاريخ الطبري ٤٩٣/٣.



إن الذي كان يسيطر على تفكير زهرة وهو يطارد ذلك الرجل أن يحول دون وصول عين العدو إليهم فيعلموا بقدوم المسلمين وقد تجاوز في سبيل ذلك كل الاحتمالات الأخرى . . من ثبات ذلك الرجل وقتاله وهو - كما جاء في آخر الرواية- موصوف بالشجاعة والخبرة بالحرب- إلى احتمال ظهور كمائن في الطريق تقضي عليه وقد انفرد عن أصحابه . وهكذا فليكن الرجال .

وفي هذا النص ما يؤيد وصف عمر لأهل فارس بأنهم خدعة مكرة فإن ذلك الرجل الفارسي أوهم المسلمين بأن في القصر رجالا كثيرين بوقوفه أمام كل شرف القصر حتى استطاع أن يفلت لولا أن تداركه زهرة بتوفيق الله ثم بحزم هذا القائد وجده في الأمر .

### حروب خاطفة ومكاتبات بين سعد وعمر:

تبين لنا أن جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نزل في القادسية، وأن الخطة الحربية التي رسمها لهم عمر رضي الله عنه أن يبقوا هناك حتى يأتي إليهم الأعداء، وقد أدرك الفرس خطورة منازلة المسلمين وهم على طرف الصحراء، فتباطؤوا في الإقدام عليهم لعلهم يتقدمون في بلادهم، ولكن سعدا بقي هو وجيشه في القادسية، وبث سرايا للإغارة على قرى العراق لمحاولة الضغط على حكومة فارس واستخراجها من بلادها وحصونها المنيعة .

ويكفي أن نورد مثلا واحداً لهذه الغارات التي قام بها المسلمون بنجاح، وأمّنوا بسببها الحصول على الزاد الذي يكفيهم لعدة شهور إلى جانب الهدف الأول وهو إلقاء الفرس إلى التقدم إليهم .

فمن ذلك أن سعدا رضي الله عنه بعث عاصم بن عمرو التميمي إلى أسفل الفرات، فسار حتى أتى «ميسان» فطلب غنما أو بقرا فلم يقدر عليها، وتحصن منه من في الأفدان، ووغلوا في الأجام ووغل حتى أصاب رجلا على طف أجمّة- يعني إلى جانب شجر ملتف- فسأله واستدله على البقر والغنم، فحلف له وقال: لا أعلم، وإذا هو راعي ما في تلك الأجمّة، فصاح منها ثور: كذب والله، وها نحن أولاء فدخل فاستاق الثيران، وأتى بها العسكر، فقسم ذلك سعد على الناس فأخصبوا أياماً .

هذا وإن أول ما يلفت النظر في هذا الخبر حصول هذه الكرامة العظيمة لذلك الجيش الذي ضم عدداً من الصحابة رضي الله عنهم، والكرامات منة من الله تعالى يمن بها على أوليائه الصالحين، إما لإنقاذهم من الهلاك والضرر، أو لتقوية إيمانهم، أو لإرهاب عدوهم، إلى غير ذلك من الحكم العظيمة، وقد تجتمع هذه الحكم في كرامة واحدة. فالناس لم يشهدوا أن الثيران تتكلم بكلام البشر ولكنها خاطبت هؤلاء المسلمين وكذبت راعيها ودلت على نفسها.

وكم كان أثر مثل هذه الكرامة عظيماً، والمسلمون مقبلون على معركة مرعبة، لا يعلمون ما ينتظرهم فيها من مفاجآت وأهوال، كما أن أثرها عظيم على أهل تلك البلاد حيث ستعلو في أعينهم مكانة المسلمين. ولن يتحمسوا لمؤازرة أعدائهم.

وقد جاء في آخر هذه الرواية أن الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه هذا الخبر في زمانه فأرسل إلى نفر ممن شهدوا أحدهم نذير بن عمرو والوليد بن عبد شمس وزاهر، فسألهم فقالوا: نعم، نحن سمعنا ذلك، ورأيناه واستقناها<sup>(١)</sup>، فقال: كذبتكم، فقالوا: كذلك إن كنت شهدتنا وغبنا عنها، فقال: صدقتم، فما كان الناس يقولون في ذلك؟ قالوا: آية تبشير يستدل بها على رضى الله سبحانه، وفتح عدونا، فقال: والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء، قالوا: والله ما ندري ما أجنت قلوبهم، فأما ما رأينا فإننا لم نر قوماً قط أزهد في دنيا منهم، ولا أشد لها بغضاً، ما اعتد على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث: لا بجبن ولا بغدر ولا بغلول<sup>(٢)</sup>.

وإن في هذا الثناء البالغ على أفراد ذلك الجيش ما يدلنا على الصفات التي أهلتهم لبلوغ رضوان الله تعالى أولاً، وحصولهم على النصر المؤزر ثانياً، حيث وصفوهم بالشجاعة والوفاء بالعهود، والأمانة، وإن قوماً يتصفون كلهم بهذه الصفات العالية لجدىرون بالنصر والتأييد.

هذا وإن في ثنايا هذا الخبر ما يدلنا على المعاناة الصعبة التي واجهها الجيش الإسلامي في طبيعة تلك البلاد حيث يطول فيها شجر القصب ويلتف بحيث يستر من كان بداخله تماماً، فأجام القصب تشكل مكامن جيدة للمحاربين وحصوناً

(١) يعني البقر.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٤٩٤ - ٤٩٥.

ساترة لأهل تلك البلاد، ولكنها عوائق وبلاء على الغزاة، ومع ذلك نجح المسلمون في اختراق أرض العراق، واستخدموا هذه المكامن أحياناً لصالحهم، وهذا يدل على فرط شجاعتهم وجسارتهم.

وذكر ابن جرير في سياق هذه الرواية التي أخرجها عن كرب بن أبي كرب العكلي أنه قال: وبث - أي سعد - الغارات بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطمعة ما كانوا يستكفون به زمانا، وبعث سعد عيوناً إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولى «رستم بن الفرخزاذ الأرمني» حربته، وأمره بالعسكرة، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: لا يكرُبَنَّك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه رجالا من أهل المنظرة والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم، وكتب إليّ في كل يوم<sup>(١)</sup>.

وسياتي إن شاء الله عند عرض كلام الوفود تصديق قول أمير المؤمنين هذا حيث كانت وفادة الوفود على كسرى ورستم من أقوى العوامل لهزيمتهم النفسية قبل أن يدخلوا المعركة مع المسلمين.

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يركز على اختيار الوفود بأن يكونوا من أهل المنظر والهيئة الحسنة، وأن يكونوا من أهل الرأي السديد وأن يكونوا من أهل الشجاعة، وإن هذه الأمور الثلاثة إذا اجتمعت في شخص فإنه جدير بأن يصل إلى مقصوده ومقصود من أرسله، فإن أصحاب المنظر والهيئة الحسنة يورثون في قلوب من يلقونهم مهابة قبل أن يتكلموا، فإذا تكلموا وكانوا على حصافة في الرأي فإنهم يأخذون بمسامع من أسمعوه كما أخذوا ببصره، فتكتمل لهم صورة الكمال اللائق بهم، ولا بد مع ذلك من الأمر الثالث وهو الشجاعة لأن من فقد الشجاعة لا يستطيع أن يعبر عما يريد وإن كان من أهل الرأي والنباهة.

### بعث وفد المسلمين إلى كسرى:

وقد نفذ سعد هذا الأمر فأحسن الاختيار، فبعث أربعة عشر رجلاً من وجوه المسلمين كما جاء في رواية الإمام الطبري وهم النعمان بن مقرن المزني، وبسر بن

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٥.

أبي رهم الجهني، وحملة بن جوية الكناني، وحنظلة بن الربيع التميمي، وفرات ابن حبان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن زرارة بن النباش الأسدي، وعطارد بن حاجب التميمي، والأشعث بن قيس الكندي، والحارث بن حسان الذهلي، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والمغيرة بن شعبة الثقفي والمعنى بن حارثة الشيباني وكان أميرهم النعمان بن مقرن<sup>(١)</sup>.

وسنختار إحدى الروايات التي ذكرها الإمام ابن جرير في بيان المحاورة التي جرت بين هؤلاء وكسرى وهي الرواية التي أخرجها بإسناده عن بنت كيسان الضبية عن بعض سبي القادسية ممن حسن إسلامه وحضر هذا اليوم الذي قدم فيه وفود العرب قال: وثاب إليهم الناس ينظرون إليهم، فلم أر عشرة قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم - يعني على التقدير وإلا فهم أربعة عشر - قال: وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضاً، وجعل أهل فارس يسوءهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم، فلما دخلوا على «يزدجرد» أمرهم بالجلوس وكان سيئ الأدب، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال: سلهم ما يسمون هذه الأردية؟ فسأل النعمان، وكان على الوفد: ما تسمي رداءك؟ قال: البرد، فتطير وقال: «بردجهان» وتغيرت ألوان فارس وشق ذلك عليهم، ثم قال: سلهم عن أحذيتهم، فقال: ما تسمون هذه الأحذية؟ فقال: النعال، فعاد لمثلها، وقال: «ناله ناله في أرضنا» ثم سأله عن الذي في يده فقال: سوط - والسوط بالفارسية الحريق - فقال: أحرقوا فارس أحرقهم الله، وكان تطيره على أهل فارس، وكانوا يجدون من كلامه.

وهكذا وجدنا أن الله تعالى قدر أن تكون أسماء هذه الأشياء بالعربية مطابقة لأسماء منكرة عندهم تثير تشاؤمهم، وكانوا قوماً قد غلب عليهم التشاؤم والرجوع إلى تخرصات الكهان، فأثر ذلك عليهم وهز من عزتهم وكبريائهم، وهكذا نجد كل أمة تنحرف عن التوحيد الخالص لله عز وجل تكون عرضة لشياطين الجن والإنس يلعبون بها ويوغلون بها في أحوال الشرك والوثنية.

واستبشر أعضاء الوفد الإسلامي بذلك، فكان هذا أول تبشير انتصارهم على أعدائهم، وبين لهم هوان هذه الأمة التي تعلق مستقبلها على كلمات لا أثر لها في الحقيقة والواقع.

(١) تاريخ الطبري ٤٩٦/٣.

قال: ثم قال الملك: سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟  
أمن أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فقال لهم النعمان بن مقرن: إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته، فقالوا: بل تكلم، وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا، فتكلم النعمان فقال: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين، فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، فدخلوا معه جميعاً على وجهين، مكره عليه فاغتبط، وطائع آتاه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، - يعني الجزية - فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

وهذا كلام قوي رصين تمثل به ما أراده عمر رضي الله عنه من حصافة الرأي وشجاعة اللسان، وقد بين به النعمان رضي الله عنه الهدف الواضح الذي من أجله غزا المسلمون بلاد الفرس وغيرها، وهو الدعوة إلى الإسلام، فلو أسلم الفرس وطبقوا أحكام الإسلام لرجع المسلمون عن بلادهم وتركوهم وشأنهم، ولو خضعوا لحكم دولة الإسلام إذا لم يدخلوا فيه ودفعوا الجزية لتركهم المسلمون ورجعوا عنهم وكان لهم حق الحماية من قبل المسلمين مقابل ما يأخذون منهم من الجزية.

قال: فتكلم يزدجرد، فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً، ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونناكم، لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد حَق<sup>(١)</sup> فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

(١) أي كثر عددكم.

هذا وإن كلام ملك الفرس هذا يدل على أنه لم يفهم الأهداف العالية التي جمعت العرب ومن أسلم معهم ووحدت قلوبهم وحوّلتهم من قبائل متفرقة متناحرة إلى دولة واحدة، وقوة عظمى، فهو لا يزال يذكر واقعهم الأول قبل الإسلام، ثم يحاول أن يساومهم بإغرائهم بالمال ليندفعوا عن بلاده.

وهكذا شأن زعماء الجاهلية دائماً في معاملتهم مع المسلمين، إن أحسوا ضعفاً فيهم هجموا عليهم بشراسة وعنف واتخذوهم لهم عبيداً، وإن آسوا منهم قوة وتماسكاً حاولوا مساومتهم وإغراءهم حتى يتمكنوا منهم بعد ذلك بالمكر والخديعة.

وحينما يستطيع المسلمون عرض أهدافهم بتجرد وحكمة وقوة فإنهم يتمكنون من نشر دعوة الإسلام في الأرض، وتتحول الأمم القوية التي كانت تحارب الإسلام إلى الانضمام مع أمة الإسلام، فتكون قوتها قوة للمسلمين.

قال: فأسكت القوم، فقام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي، فقال: أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف، ويفخّم الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني لأكون الذي أبلغك، ويشهدون على ذلك، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحداً ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا.

فكانت حالتنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا، في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل ترّب كان له وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف

الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء وإليَّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلِّكم داري دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم، فمن قُتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تُسلم فتنجي نفسك.

وهذه الإجابة من المغيرة بن زرارة الأسيدي تدل على سرعة بديهته ومقدرته الفائقة على الإحاطة بأطراف القضية، والوعي الشامل لمتطلبات الدعوة الإسلامية، وإن صدور هذا الكلام البليغ من رجل لم تكن له شهرة تاريخية ليدلنا على تعدد الكفاءات عند المسلمين.

وفي هذه الإجابة بيان مفيد لمعالم الجاهلية من رجل عاشها وخبرها قبل الإسلام، ثم خبَّر الإسلام بعد ذلك، ولهذا كان بيانه كاشفاً لظلمات الجاهلية، ومُبرِّزاً لأنوار الإسلام.

وفي بيان منهج الدعوة بالنسبة لغير المسلمين أفاد بأن الله تعالى أمر المسلمين بدعوة الكفار أولاً إلى الدخول في الإسلام فإن أجابوا أصبحوا إخوة للمسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن أبوا وأصروا على البقاء على دينهم فلهم أن يمارسوا دينهم في حياتهم الشخصية، ومن حقهم أن تحميهم دولة الإسلام كما تحمي أبناءها في مقابل دفع الجزية، مع ضرورة الاستسلام والشعور بالتبعية، وأن يكون الحكم في الأرض للإسلام، فإن أبوا وأصروا على بقاء دولتهم وحكمهم ولم يستسلموا للمسلمين فلا بد من قتالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، فمن قُتل من المسلمين فهو شهيد مصيره إلى الجنة، ومن بقي أعقبه الله النصر على من عاداه.

وإن هذا البيان لا يترك مجالاً للتفكير في مساومة المسلمين في التخلي عن مطالبهم، كما أنه يَهْزُّ من موقف العدو ويجعله في قلق دائم، ويقين راسخ بأن المسلمين إما أن يصلوا إلى أهدافهم أو يموتوا دونها، وإن قومًا قد وصلوا إلى هذا المستوى من الإيمان لا يمكن أن يقف أمامهم شيء.

ولقد أدرك كسرى من هذه المحاوراة أن موقف الفرس مع المسلمين عصيب، وأن لهم أهدافًا لا بد وأن يبلغوها كما سيتبين في حوارهم مع رستم، ولكنه أراد أن يستعمل مع المسلمين أنواعًا من الحروب النفسية التي تعتمد على الكذب والتهويل والكبرياء فقال للمغيرة بن زرارة الذي تولى محاورته: أتستقبلني بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك، لم أستقبلك به.

فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي، وقال: ائتوني بوقر من تراب، فقال: احمِلوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، ارجعوا إلي صاحبكم فأعلموه أنني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية، وينكّل بكم وبه من بعد، ثم أوردته بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور.

ولئن كان هذا التهديد يجدي ويغني من ساسة العالم آنذاك فلن يزيد المسلمين إلا ثقة بنصر الله تعالى وقوة على أعدائهم، كما لم يزدتهم الترغيب السابق إلا رسوخًا في التمسك بأهدافهم النبيلة.

ثم قال كسرى: من أشرفكم؟ فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو: أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحملني، فقال: أكذاك؟ قالوا: نعم.

وإنما كان سكوت القوم من باب الورع وكراهية الترفع، ولكن عاصمًا غلب جانب افتداء الإخوة بالنفس ليحمل التراب عنهم، وكونه ينسب الشرف لنفسه ليس مقصودًا لذاته كما يعلم بذلك أصحابه، وبهذا يكون قد سبق أصحابه في الخروج من التردد بين كراهية نسبة الشرف إلى النفس ومحبة خدمة الإخوة.

فحمل التراب على عنقه حتى أتى راحلته فحملة عليها ولما وصل القادسية قال: بشروا الأمير بالظفر، وتفاءل بأن المسلمين سيملكون أرض الفرس، ولما دخل على سعد فأخبره الخبر قال: أبشروا فقد أعطانا الله ملكهم.



وهكذا نجد أن الله سبحانه مع أوليائه المؤمنين فيُقَدَّر لهم ما يزيد في قوتهم ويوهن أعداءهم، فقد فرح المسلمون بهذه البشرى وجعلوها علامة على الفتح.

أما الفرس فقد جاء في هذه الرواية أنه اشتد عليهم ما صنع المسلمون، وصنع الملك من قبول التراب، وراح رستم من سباط إلى الملك يسأله عما كان من أمره وأمرهم، وكيف رأيهم، فقال الملك: ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتم دخلوا علي، وما أنتم بأعقل منهم، ولا أحسن جواباً منهم، وأخبره بكلام متكلمهم، وقال: لقد صدقني القوم، لقد وعد القوم أمراً ليدركنّه أو ليموتنّ دونه، على أنني وجدت أفضلهم أحمتهم، لما ذكروا الجزية أعطيتهم تراباً فحمله على رأسه وخرج به، ولو شاء اتقى غيره. وأنا لا أعلم. قال: أيها الملك إنه لأعقلهم، وتطيّر إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه.

وخرج رستم من عنده كثيراً غضبان - وكان منجماً كاهناً - فبعث في أثر الوفد، وقال لثقتة: إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا، وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم وأبناءكم، فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم غير ذي شك، ما كان من شأن ابن الحجابة الملك، ذهب القوم بمفاتيح أرضنا، فكان ذلك ممّا زاد الله به فارس غيظاً<sup>(١)</sup>.

ومن هذا الحوار بين كسرى ورستم يتبين لنا أن كسرى قد أدرك عظمة المسلمين، ولكنه غلب عليه الكبر والاعتزاز بالملك فتصرف بحماقة حيث حملهم التراب، وتشاءم من ذلك رستم، وكان سلوكهم في السلم والحرب يقوم على الطيرة كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية في بلاد العرب.

أما المسلمون فإنهم تفاءلوا بذلك خيراً وفهموا منه البشارة بامتلاك أرض الفرس، وهكذا علمهم النبي ﷺ فقد كان يتفاءل بالاسم الحسن ونحو ذلك مما يبعث الفرحة والسرور، ويبشر المسلمين على إثر ذلك، لكنه لم يكن يتشاءم. ولم يبن أي سلوك في حياته أو حياة أصحابه على الطيرة، بل اعتبر ذلك شركاً كما جاء في قوله ﷺ: «من رده الطيرة من حاجة فقد أشرك»<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٩٨-٥٠٢.

(٢) مسند أحمد ٢/٢٢٠.

وهكذا رأينا أن التوحيد أعطى المسلمين الثقة واليقين والإقدام بحكمة من غير نظر إلى العوائق المتخيلة في الأذهان، بينما أوقع الشرك أصحابه في الحيرة والتردد، وتصور العوائق التي لا وجود لها في الواقع.

ومن هنا نعلم الأثر العظيم للتوحيد في نصر المسلمين، والأثر البالغ للشرك في خذلان المشركين.

### حوار بين ملك الفرس وقائده:

ولقد كان مما صنع الله تعالى للمسلمين ووهن به كيد أعدائهم أن خلافاً حاداً نشأ بين ملك الفرس «يزدجرد» وكبير قادتهم «رستم» حول التخطيط للحرب، حيث أصرَّ ملك الفرس على أن يتولى رستم قيادة الجيش، وحاول رستم بكل وسيلة أن يقنع الملك برأيه في إرسال قائد آخر، وكان مما قال له رستم: أيها الملك دعني فإن العرب لا تزال تهاب العجم مالم تُضرَّهم بي، ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفى، ونكون قد أصبنا المكيدة ورأي الحرب، فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر، فأبى عليه، وقال: أي شيء بقي؟ فقال رستم: إن الأناة في الحرب خير من العجلة، وللأناة اليوم موضع، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بكرة، وأشد على عدونا، فلجَّ وأبى، فخرج [رستم] حتى عسكر بساباط<sup>(١)</sup>.

وإن هذه المحاوراة في محاورات أخرى تدل على أن رستم كان كارهاً لهذه الحرب متشائماً منها، وكان يتوقع أن تكون نتيجتها لصالح المسلمين، ومما قال رستم في ذلك: أيها الملك لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتركيبتها، ولو أجد من ذلك بدءاً لم أتكلم به، فأنشدك الله في نفسك وأهلك وملكك، دعني أقم بعسكري وأسرح الجالنوس، فإن تكن لنا فذلك، وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره، حتى إذا لم نجد بدءاً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهنَّاهم وحسرتناهم ونحن جامون، فأبى إلا أن يسير.

وقال له أيضاً: إن غناء الجالنوس كغنائي وإن كان اسمي أشد عليهم من اسمه فإن ظفر فهو الذي نريد، وإن تكن الأخرى وجهت مثله ودفعنا هؤلاء القوم إلى

(١) تاريخ الطبري ٥٠٤/٣.

يوم ما، فإني لا أزال مرجوًّا في أهل فارس، مالم أُهزَمَ ينشطون، ولا أزال مهيبًا في صدور العرب، ولا يزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم، فإن باشرتهم اجترؤوا آخر دهرهم، وانكسر أهل فارس آخر دهرهم<sup>(١)</sup>.

رؤى مزعجة لرستم:

ومن هذا الحوار يتبين لنا أن رستم كان كارها لهذه الحرب متشائمًا منها، وكان يتوقع أن تكون نتيجتها لصالح المسلمين ضد الفرس، ولقد خرج إليها مكرهًا ضعيف النفس، وزاده وهنا على وهن الرؤى المفزعة التي يراها، ويراهها له منجمه، وكان كلما رأى شيئًا من ذلك طلب الإعفاء من القيادة، ولكن كسرى يصبر على توليته ذلك.

فمن هذه الرؤى ما ذكره الإمام الطبري عن سعيد بن المرزبان قال: فلما أصبحوا من ليلتهم بشاطئ العتيق غدا منجم رستم على رستم برؤيا أريها من الليل، وقال رأيت الدلو في السماء دلوًا أفرغ ماؤه، ورأيت السمكة سمكة في ضحضاح من الماء تضطرب، ورأيت النعائم والزهرة تزدهر، قال: ويحك هل أخبرت بها أحدا؟ قال: لا، قال: فاكتمها<sup>(٢)</sup>.

وقد تطير رستم من هذه الرؤيا، وكانوا كما أسلفنا من قبل يتشاءمون ويبنون سلوكهم في الإقدام والإحجام على هذا التشاؤم.

وذكر الطبري أيضًا عن الشعبي قال: كان رستم منجمًا فكان يبكي مما يرى ويقدم عليه، فلما كان بظهر الكوفة رأى أن عمر دخل عسكر فارس، ومعه ملك فختم على سلاحهم ثم حزمه ودفعه إلى عمر<sup>(٣)</sup>.

وهكذا تضافرت الرؤى الصادقة كهذه الرؤيا مع الخرافات التي لا أثر لها في الواقع ولكنهم كانوا يعتقدون بها. تضافرت كلها على التهويل من شأن المسلمين وترسيخ عظمتهم في نفس رستم حتى غدا متحيرًا مضطربًا يود أن لو خرج من

(٢) تاريخ الطبري ٥١٦/٣.

(١) تاريخ الطبري ٥٠٤-٥٠٥/٣.

(٣) تاريخ الطبري ٥١٦/٣.

هذه المهمة بأي ثمن، فكان الإصرار على بعثه قائداً خطأً حريياً فادحاً من ملك الفرس .

ومن أثر هذه الرؤى والاعتماد على التنجيم فإن رستم كان موقناً بأن نتيجة الحرب القادمة ستكون لصالح المسلمين، ومما يدل على ذلك أنه كتب إلى أخيه وإلى رؤوس أهل بلادهم: من رستم إلى البندوان مرزبان الباب وسهم أهل فارس الذي كان لكل كَوْن يكون فيفضُّ الله به كل جند عظيم شديد ويفتح به كل حصن حصين ومن يليه، فَرْمُوا حصونكم وأعدوا واستعدوا، فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوساً، فأبى الملك<sup>(١)</sup>.

وهذا يعتبر نوعاً من الحرب النفسية قدرها الله تعالى لتكون لصالح المسلمين .

### حوار بين رستم وأحد المجاهدين:

ولقد نهض رستم بعد أن أعيته الحيل في دفع القيادة عنه فسار بجيشه نحو القادسية .

أخرج الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن ابن الرُّفَيْلِ الفارسي قال: لما فصل رستم وأمر الجالوس بالتقدم إلى الحيرة أمره أن يصيب رجلاً من العرب، فخرج هو والأزادمرد سَرِيَّةً في مائة حتى انتهيا إلى القادسية، فأصابا رجلاً دون قنطرة القادسية فاخطفاه، فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم، فلما انتهيا إلى النجف سرحا به إلى رستم وهو بِكُوْتَى، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال: نطلب موعود الله، قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تسلموا، قال رستم: فإن قُتِلتم قبل ذلك؟

قال: في موعود الله أن من قُتِل منا قبل ذلك أدخله الجنة، وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك، فنحن على يقين، فقال رستم: قد وُضِعنا إذاً في أيديكم، قال: ويحك يا رستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ما ترى حولك فإنك

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٠٥-٥٠٦ .

لست تجاول الإنس، إنما تجاول القضاء والقدر، فاستشيط غضباً فأمر به فضربتُ عنقه<sup>(١)</sup>.

وهكذا استطاع هذا المجاهد المسلم أن يرمى بقنبلة بعيدة المدى في وسط جيش الفرس، فلقد حطم أعصاب أكبر قادتهم حتى أخرجه عن طوره، وأغضبه غضباً شديداً حتى أمر بقتله وهو الذي اشتهر بالحلم والحكمة.

لقد وُفق هذا المجاهد في بيانه الرائع إلى أن يضع جيش الفرس - وخاصة قائدهم - في حيرة مطبقة، وشعور ضاغظ بأن المسلمين سيقضون عليهم لا محالة، وذلك بإشعارهم أولاً بأن المسلمين مقدمون على قتالهم حتى الموت ليقينهم بأن من مات فمآله إلى الجنة ولا بد أن يتحقق النصر على يد من بقي لأن الله تعالى قد وعدهم بذلك، ثم بإشعارهم ثانياً بأنهم لا يقاتلون المسلمون في واقع الأمر، وإنما يقاتلون الله تعالى، لأن المسلمين ليسوا إلا جنود الله سبحانه ينفذون أوامره، ومن دخل مع الله جل وعلا في صراع فإنه مغلوب لا محالة، ولذلك اعترف له رستم بحتمية كون نتيجة المعركة لصالح المسلمين ماداموا بهذا الإيمان القوي حيث قال: قد وُضعتنا إذاً في أيديكم.

وإن هذا المجاهد الذي لم يُعرف اسمه ليعتبر مثالا عالياً للشجاعة النادرة والفدائية العالية، فهو يخاطب رستم بهذا المنطق القوي ويتهجم على تقاليد الفرس البالية ويُظهر عزة الإسلام، مع أنه كان عارياً من الحصانة التي يتمتع بها الوفود المبعوثون من قادتهم، حيث قد تعارفت الدول على أن الرسل لا تقتل، وهذا المجاهد قد أُخذ أسيراً بالقوة فهو تحت تصرف أعدائه، كما أن هذا المجاهد يعتبر مثالا لقوة الإيمان والثقة العالية بنصر الله تعالى لأوليائه.

وإن جيلاً هذا الرجل أحد أفراده العاديين الذين لم يرتفع لهم ذكر ولا شهرة لهو جيل فريد من الفضائل والسمو نحو المعالي.

لقد قتله رستم وهو يعترف بأنه قد مثل أمة بلغت الكمال في مجال الأخلاق، ولقد ظل رنين كلام ذلك المجاهد في سمعه ووقر في قلبه حتى استشهد بكلامه وضرب المثل بأمة الإسلام وهو يلوم قومه على الظلم والفجور.

(١) تاريخ الطبري ٥٠٧/٣.

قال الرُّقَيْل في رواية ابن جرير السابقة: «وخرج رستم من كُوْتَى حتى ينزل بِعُرسٍ فغضب أصحابه الناس أموالهم ووقعوا في النساء وشربوا الخُمور، فضج العلوج إلى رستم وشكوا إليه ما يلقون في أموالهم وأبنائهم، فقام فيهم فقال: يا معشر أهل فارس والله لقد صدق العربي، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله للعرب في هؤلاء - وهم لهم ولنا حرب - أحسن سيرة منكم، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكِّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان، فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيِّراً ما بكم، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم، وبعث الرجال فلقطوا له بعض من يُشكى فأُتِيَ بنفر فضرب أعناقهم<sup>(١)</sup>».

وهكذا تنبه رستم لبعض أسباب النصر المعنوية القائمة على مكارم الأخلاق لما أحيط به وأدرك الخطر، وكان لقاءه ببعض المسلمين وسماعه أخبارهم مما أيقظ مشاعره نحو ذلك، حيث أدرك أن السبب الرئيسي لانتصار المسلمين مع قلة عددهم وضعف عدتهم أنهم اتصفوا بالعدل والعفة والوفاء حتى مع أعدائهم، فلقد شهد لهم أنهم خير لشعوب دولة الفرس من الفرس أنفسهم مع أنهم أعداء لهم محاربون، والحق ما شهدت به الأعداء، ولا يستطيع هو ولا غيره أن يقول غير ذلك لأن التاريخ لم يسجل على المسلمين في فتوحهم الأولى أي مخالفة في انتهاك الأعراس أو نهب أموال الأمنين.

### تقارب بين الجيشين:

سار رستم ببطء شديد نحو القادسية، جاء في رواية ابن جرير من طريق سيف ابن عمر عن شيوخه قالوا: ولما اطمأن رستم أمر الجالنوس أن يسير من النجف، فسار في المقدمات فنزل فيما بين النجف والسيلحين، وارتحل رستم فنزل النجف، وكان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط وزحفه منها إلى أن لقي سعدا أربعة أشهر، لا يُقدم ولا يقاتل رجاء أن يضجروا بمكانهم، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقي ما لقي من قبله، وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله وينهضه ويقدمه حتى أقحمه.

(١) تاريخ الطبري ٥٠٨/٣.

ولقد كان عمر رضي الله عنه مدركا لسياسة الفرس الحربية ولما يصلح من الخطط لحسم القتال معهم فرسم لسعد خطة بعيدة المدى، تعتمد على الصبر والمطاوله.

جاء في الرواية السابقة: وعرف عمر أن القوم سيطاولونهم فعهد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم، وأن يطاولوهم أبداً حتى ينغضوهم، فنزلوا القادسية وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاوله، وأبى الله إلا أن يتم نوره، فأقاموا واطمأنوا وكانوا يغيرون على السواد فانتسفوا ما حولهم فحووه وأعدوا للمطاوله، وعلى ذلك جاؤوا، أو يفتح الله عليهم، وكان عمر يمدهم بالأسواق إلى ما يصيبون -يعني من أعدائهم- فلما رأى ذلك الملك ورستم وعرفوا حالهم، وبلغهم عنهم فعلمهم علم أن القوم غير منتهين، وأنه إن أقام لم يتركوه فرأى أن يشخص رستم، ورأى رستم أن ينزل بين العتيق والنجف ثم يطاولهم مع المنازلة، ورأى أن ذلك أمثل ما هم فاعلون حتى يصيبوا من الإحجام حاجتهم أو تدور لهم سعود<sup>(١)</sup>.

ولقد كان سعد رضي الله عنه رجل الموقف في رزائته واتزانه وصبره وبُعْد سياسته وصونه سره عمّن لا يفقه أمور الحرب، جاء في رواية للإمام الطبري بإسناده عن موسى بن طريف قال: قال الناس لسعد: لقد ضاق بنا المكان فأقدم، فزبر من كلمه بذلك وقال: إذا كُفِيتم الرأي فلا تكلفوا فإننا لن نقدم إلا على رأي ذوي الرأي، فاسكتوا ما سكتنا عنكم<sup>(٢)</sup>.

وهذا موقف يدل على فقهه بأمور الحرب حيث إن منها ما لا ينبغي أن يطلع عليه إلا الخاصة من ذوي الرأي، إذ أنه لو أعطاه كل ما عنده لربما فشى ذلك في الجند، وقد يستطيع العدو بعد ذلك الاطلاع على أسرار الجيش الإسلامي لأن قدرات الناس على صون الأسرار تختلف.

### مغامرة من طليحة:

هذا وقد أرسل سعد الطلائع لمعرفة تحركات العدو وهو يظن أن رستم لا يزال في النجف فأرسل عمرو بن معد يكرب في خمسة وطليحة بن خويلد الأسدي في خمسة، فلم يسيروا إلا فرسحاً وبعض آخر حتى رأوا مقدمات جيش رستم فاتفقوا على العودة وإبلاغ سعد بذلك ما عدا طليحة فإنه أصر على أن يذهب إلى جيش الفرس وحده.

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٠ .

جاء في رواية أبي عثمان النهدي عند الطبري قال بعد أن ساق الخبر: فأتوا سعدا فأخبروه بقرب القوم، ومضى طليحة وعارض المياه على الطفوف -يعني الأراضي المشرفة على الريف- حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم، فلما أدبر الليل خرج وقد أتى أفضل من توسم في ناحية العسكر، فإذا فرس لم ير في خيل القوم مثله، وفسطاط أبيض لم ير مثله، فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس، ثم ضمه إلى مقود فرسه، ثم حرك فرسه فخرج يعدو به، ونذر به الناس والرجل -يعني المشاة- فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول وعجل بعضهم أن يسرح، فخرجوا في طلبه ولقد لحقه فارس من الجند، فلما غشيه وبوأ له الرمح ليطلعنه عدل طليحة فرسه فنذر الفارسي بين يديه فكرَّ عليه طليحة فقصم ظهره بالرمح، ثم لحق به آخر ففعل به مثل ذلك، ثم لحق به آخر وقد رأى مصرع صاحبيه -وهما ابنا عمه- فزاد حنقًا، فلما لحق بطليحة وبوأ له الرمح عدل طليحة فرسه فنذر الفارسي أمامه، وكرَّ عليه طليحة ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسي أنه قاتله فاستأسر، وأمره طليحة أن يركض بين يديه، ففعل، ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلًا وقد أسر الثالث وقد شارف طليحة عسكرهم فأحجموا عنه ونكسوا.

وأقبل طليحة حتى غشي العسكر وهم على تعبئة، فأفزع الناس، وجوزوه إلى سعد، فلما انتهى إليه قال: ويحك ما وراءك؟ قال: دخلت عساكرهم وجسستها منذ الليلة، وقد أخذت أفضلهم توسمًا، وما أدري أصبت أم أخطأت، وها هو ذا فاستخبره، فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي، فقال له الفارسي: أتؤمّني على دمي إن صدقتك؟ قال: نعم الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمّن قبلي، باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى، ولم أرَ ولم أسمع بمثل هذا، أن رجلا قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته، فأنذره وأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركته ولا أظن أنني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الشائر بالقتيلين وهما ابنا عمي فرأيت الموت فاستأسرت.



ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف وأن الأتباع مثلهم خُدَّام لهم، وأسلم الرجل وسماه سعد مسلماً، وعاد إلى طليحة، وقال: لا والله لا تُهزَمون مادمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمواساة، لا حاجة لي في صحبة فارس فكان من أهل البلاء يومئذ<sup>(١)</sup>.

وبعد: فقد رأينا نموذجاً لما كان عليه أبطال المسلمين من البسالة والإقدام، وتقديم مصلحة المسلمين العامة على المصالح الخاصة، فقد كان طليحة بن خويلد الأسدي نموذجاً للشجاعة الفائقة والجسارة العظيمة، وقد وصف ذلك الأسير الفارسي شجاعته بما لا مزيد عليه، ولا أعظم من اعتراف أهل الاختصاص بتفوق أقرانهم، وإذا كان أولئك الفرسان الذين تغلَّب عليهم طليحة كلُّ واحد منهم يعدل ألفاً فكم يعدل طليحة من الفرسان!!

وعلى الرغم من أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة كان خلاف ما أُمرَ به فإن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لم يحاسبه على ذلك التجاوز، نظراً للنتيجة الكبيرة التي أفادها لصالح جيش المسلمين من أسر ذلك الفارسي والإفادة منه عن جيش الفرس، إلى جانب ما تم من إسلام ذلك الفارسي وهو مطلب كبير عند المسلمين، مع اعتبار أن طليحة قد تصرف في أمر سعد باجتهاده لتحقيق مصلحة الجيش الإسلامي ولم يتصرف اتباعاً لهواه ومصالحته.

وكون سعد لم يحاسب طليحة على تجاوزه، دليل على مرونة قادة المسلمين في تطبيق الأنظمة الحربية، فالعبرة عندهم ليست في كون الجندي يخالف أمر القائد فحسب، وإنما هي بالدرجة الأولى في تحقيق مصلحة الجيش الإسلامي أو الإخلال بذلك، وكون طليحة حقق هذه المصلحة أعظم من أن يحاسب على مخالفته.

ولا شك في أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة العالية والبطولة النادرة كان مُقدِّمةً لإسلام ذلك الرجل الفارسي، إذ أن هذا العمل لا يمكن أن يصدر من غير المسلمين مهما بلغوا من الشجاعة والإقدام فإن الاحتمال الغالب في مثل تلك الحال أن يُروِّي ذلك البطل المغامر ثرى تلك البطاح التي غامر فيها بدمه، ولن يُقدم على ذلك من كان في قلبه شيء من إرادة الدنيا.

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٣ - ٥١٤.

بقي أن يقال إن هناك احتمالاً أن يؤسر ذلك المغامر فيضطر إلى الإدلاء بمعلومات عن جيشه فيضرب جيشه بذلك، ولكن هذا الاحتمال غير متوقع، لأن أسر أبطال المسلمين بعيد المنال، فإن البطل المسلم سيظل يقاوم ما بقيت روحه بين جنبيه، ولن يُسلم نفسه لأعدائه، وإنما المحتمل هو أحد أمرين: أن يتمكن الأعداء من قتله وهذا نجاح كبير له لأنه قد فاز بالشهادة في سبيل الله تعالى، أو أن ينجو فيظفر بمعلومات جديدة يتحرف بها قادة جيشه، وهذا التردد بين الاحتمالين لا يوجد عند غير المسلمين، فلذلك لا توجد عندهم مثل هذه المغامرة المذهلة.

إن ما قام به طليحة من ذلك العمل البطولي المدهش كان مقدمة لإسلام ذلك الرجل الفارسي، لأنه وهو فارس قوي يعدل ألف فارس سيكون أعلى شيء عنده في الحياة أن يرى مظاهر البطولة النادرة، وسيكون فكره مركزاً حول هذا المجال، فلما رأى من ذلك ما أذهله وجعله يحتقر نفسه وأبطال قومه عند بطولة طليحة زال ما في فكره من نخوة الجاهلية المتركرة بعظمة الفرس وبطولتهم، ورأى أنه قد تحوّل إلى تلميذ في مدرسة البطولة الحققة، فهيمن عليه الإعجاب ببطولة المسلمين، وقاده ذلك إلى التعرف على أخلاقهم العالية، من الصدق والأمانة والوفاء والتواضع والتسامح. . فأعلن إسلامه.

لقد انتقل ذلك المسلم الفارسي من عالم الأنانية والتفاخر بالجاه والمال والطبقية القتالة إلى عالم الإيثار والتواضع والمواساة والرحمة، فأحس بالفارق الكبير بين العالمين، وآثر تبعية عالم مكارم الأخلاق لأنه وجد فيه نفسه الحقيقية التي فقدها طول عمره بخضوعه لضلالات قومه.

### حوار رستم مع زهرة:

كان رستم حريصاً على معرفة المزيد من أخبار المسلمين ومدى قوتهم، فرغب في اللقاء مع أحد قادتهم، فكان لقاءه الأول مع قائد مقدمة جيش المسلمين زهرة ابن الحويّة التميمي.

يقول الإمام ابن جرير فيما يرويه بإسناده عن ابن الرُّقَيْل عن أبيه قال: لما نزل رستم على العتيق وبات به أصبح غادياً على التصفح والحزر<sup>(١)</sup> فسأير العتيق نحو

(١) يعني أراد تأمل جيش المسلمين وتقدير عددهم.

خَفَّانَ حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة، فتأمل القوم حتى أتى على شيء يشرف منه عليهم.

فلما وقف على القنطرة راسل زهرة، فخرج إليه حتى واقفه، فأراد أن يصالحهم ويجعل له جُعلًا على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول فيما يقول: أتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم، ونكف الأذى عنهم، ونوليهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعيًا، ونميرهم من بلادنا ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا وقد كان لهم في ذلك معاش - يعرض لهم بالصلح، وإنما يخبره بصنيعهم، والصلح يريد ولا يصرح - .

فقال له زهرة: صدقت، قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً فدعانا إلى ربه فأجبناه، فقال لنبيه ﷺ، إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مُقرِّين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز.

فقال له رستم: وما هو؟ قال: أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، قال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، قال: حسن، وأي شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم، قال: ما أحسن هذا!

ثم قال له رستم: أرأيت لو أن رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعني قومي كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟ قال: إي والله ثم لا تقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة، قال: صدقتني والله، أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة، كانوا يقولون: إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم، وعادوا أشرافهم، فقال له زهرة: نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون، نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصي الله فينا.

فانصرف عنه، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحموا من ذلك وأنفوا، فقال:  
أبعدكم الله وأسحقكم، أخزى الله أخرجنا وأجبنا.

يقول الرُّقَيْلِ راوي هذا الخبر وهو رجل فارسي: فلما انصرف رستم ملّت إلى  
زهرة فكان إسلامي، وكنت له عديداً وفرض لي فرائض أهل القادسية<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا في هذه المحاوراة المثيرة كيف علا نجم المسلمين وأفل نجم المجوس،  
وساد منطق العدالة والعقل السليم والتواضع والقيم العليا، وخفّت منطق الجور  
والعقل المريض والكبرياء والقيم الهابطة.

ولقد كان رستم مهياً نفسياً لقبول نداء العقل السليم والسمو نحو القيم العليا،  
فلما سمع كلام زهرة بن الحوية المشرق وقر في نفسه حب الإسلام الذي سيحفظ  
له كرامته وكرامة أمته، والذي سيسمو بعقول المستضعفين وهم أغلبية الأمة  
فيحيلهم إلى عناصر فعالة مؤثرة وسيهدّب من نفوس عليّة القوم فينزلهم من علياء  
الجبروت والطغيان ليكونوا في مستوى بشريتهم، وهنا يكون البروز لأصحاب  
المواهب العالية الذين ستضع بهم أمتهم ثقنها وستسند إليهم أمورها.

لقد بين زهرة لرستم أن أهداف العرب قد تغيرت بعد الإسلام، فيجب أن ينظر  
إليهم العالم على أنهم مسلمون لا على أنهم العرب الذين كانوا يعاملونهم قبل  
ذلك، وقد لخص الدوافع إلى تغيير الأهداف والمناهج ببيان أن مقصد العرب قبل  
الإسلام الحصول على الدنيا وأن مقصدهم بعد الإسلام الظفر بنعيم الآخرة،  
وحسبهم هذا التحول الكبير في مقاصدهم لتتحول حياتهم بأكملها من حياة الخنوع  
والذل والتفرق والأهداف القريبة والتخلق بمساوئ الأخلاق إلى حياة العز والجماعة  
والأهداف السامية والتخلق بمكارم الأخلاق.

وكان زهرة في غاية البراعة والتوفيق حينما ذكر لرستم أن الله تعالى قد سلط  
المؤمنين بهذا الدين على من كفر به، وأن العزّ قرين من آمن به وأن الذل قرين من  
كفر به، فقد رسخ في نفس رستم أن من سيقاتلهم ليسوا كمن اعتاد مقابلتهم بل  
هم مُوجّهون من قِبَلِ الله تعالى، ومن كانت هذه صفتهم فلا قِبَلْ لأحد بقتالهم.

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٧ - ٥١٨.

لقد فهم رستم هذه المعاني السامية، وأدرك أن المسلمين لا طمع عندهم في الاستيلاء على بلادهم لمنافع شخصية، وإنما همُّهم الوحيد أن يحولوها إلى بلاد إسلامية، ثم تبقى بعد ذلك بيد أهلها، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولقد أثر هذا المنطق العادل في نفس رستم، وهمَّ بالدخول في الإسلام وإدخال أمته فيه لولا أن حال دون ذلك إجماع مستشاريه على عداة الإسلام وقتال المسلمين، ويبدو أنهم قد اتهموه بالجن حيث قال لهم: أخزى الله أعرعنا وأجبننا. وقد استفاد من هذه المحاوراة راوي هذه القصة الرفيل حيث دخل في الإسلام وكان له دور مهم في نقل أخبار الفرس والتعريف بأحوالهم. أما ما في الخبر من إبراز دعوة التوحيد فسيأتي التعليق على ذلك عند عرض كلام وفود المسلمين إلى رستم إن شاء الله.

### حوار رستم مع رُبَعيِّ بن عامر:

أخرج الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: وأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة وبسر بن أبي رهم وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وربُعيِّ بن عامر وقرِفة بن عامر التيمي ثم الوائلي، ومذعور بن عدي العجلي والمضارب بن يزيد العجلي، ومعبد بن مرة العجلي - وكان من دهاة العرب - فقال: إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم؟ قالوا جميعاً: نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به، فقال سعد: هذا فعل الحزمة اذهبوا فتهيؤوا.

وهكذا حدّد أعضاء هذا الوفد مهمتهم بتنفيذ أوامر أميرهم أولاً ثم النظر فيما يجد من أمور لم يسبق فيها أمر من قائد المسلمين بفعل الأفضل والأنفع للمسلمين، وهذا يدل على فقههم في تحمل المسؤولية وأدائها، وذلك انطلاقاً من قاعدة: يرى الشاهد ما لا يرى الغائب، فلا بد من التصرف في الأمور التي تجدد بالحكمة والمشورة لأن عدم التصرف في الوقت المناسب يؤدي إلى فشل المهمة، ولذلك قال سعد: هذا فعل الحزمة.

«فقال ربُّعيُّ بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وآداب، ومتى نأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم، فلا تزدهم على رجل، فمالؤوه جميعاً على ذلك، فقال سرِّحوني، فسرحه - يعني أرسله سعد إلى رستم -».

وأمام هذا المقطع من الخبر نجد صورة عالية من الشورى التي خلَّت من حظ النفس وتجردت لمصلحة الإسلام والمسلمين، فقد تنازل سعد عن رأيه حالاً وأخذ برأي ربُّعي بن عامر، ووافق الجميع على ذلك لما رأوا وجاهة هذا الرأي مع أنه يقصرُ شرف المهمة على رجل واحد، ثم لما آنس ربُّعي من نفسه المقدرة على تمثيل المسلمين طلب ذلك لنفسه، ولما كان سعد يدرك تماماً ما يتحلَّى به ربُّعي من التجرد والإخلاص وافقه على ذلك، وكانت هذه الموافقة أولى من إرسال غيره لأنه لم يُبد استعداده للقيام بالمهمة إلا وهو قد أعدَّ نفسه لها، وإن الذي يعيش القضية بفكره وأحاسيسه أولى بالنجاح فيها من الذي يفاجأ بها وهو على غير استعداد.

ومن هنا نعلم أن من آنس من نفسه المقدرة والكفاءة فلا بأس أن يطلب القيام بالمهمة ما دام قد تجرد من حظ النفس وأراد مصلحة الأمة، فقد يرى من نفسه أنه أقدر ممن حوله على أدائها، ويحسُن بالمستول أن يلبي طلبه كما فعل سعد لأن ذلك أنجح للعمل في الغالب.

ثم ذكر ابن جرير في روايته خبر خروج ربُّعي وقدمه على رستم وأن الفرس قبلوه بمظاهرهم الدنيوية من فرش الحرير والوسائد المنسوجة بالذهب، وأنه قابلهم بمظهره المتواضع في لباسه وسلاحه ودابته وما قام به من شق وسادتين لهم وربط فرسه بهما، إلى أن قال: «فقالوا: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتوني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد! فأقبل يتوكأ على رمحه، وزجُّه نصل<sup>(١)</sup>، يقارب الخطو ويزجُّ النمارق والبُسُط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه متهتكاً مخرقاً».

أقول: وإن في هذا السلوك العالي مثلاً بديعاً لاحتقار مظاهر الجاهلية وإظهار عزة الإسلام، وذلك بالقول والعمل، فقد رفض أولاً أن ينصاع لمطلبهم في وضع

(١) الزج الحديدية في طرف الرمح، وهو النَّصْل ولكن لعله أراد أنه بدون غلاف.

السلاح، فما دام أنه لم يقتنع ذاتياً بهذا المطلب فإن إظهار الشخصية يقتضي عدم الخضوع لإرادتهم، ثم لما رأى أنهم يتباهون بفرشهم ووسائلهم أراد إهانتهم بإفسادها ليبيّن لهم أن هذه المظاهر الخلابّة لم تؤثر في نفسه، وأنها ليست من الأمور التي يهتم بها المسلمون أو يقيمون وزناً لأصحابها، فله دره ما أعظم مُرامه وما أسدّ سهامه. لقد رماهم في أعظم شيء يعتزون به وهو ما يملكونه من مظاهر الدنيا فحطم معنوياتهم قبل أن يبدأ معهم الحوار.

قال: «فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفْضِيَ إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتيكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم كم أحبُّ إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، -وأراد مقاربتة ومدافعتة- فقال: إن مما سنّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نُمكن الأعداء من آذاننا ولا نُؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبّل ونكفُّ عنك، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى، قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أذنهم على أعلاهم».

هذا وبعد الاطلاع على هذا البيان الواضح يدرك المتأمل مبلغ ما وصل إليه المسلمون الأوائل من النجاح الباهر في التفاوض مع الأعداء وأن سرَّ نجاحهم يكمن في أمرين: أولهما حسن اختيار الوفود، وثانيهما أن أمور الجهاد قد بينها النبي ﷺ وطبقها في عهده وطبقها خلفاؤه حتى أصبحت من المعلومات الواضحة عندهم، وإنما يتفاوتون في المقدرة على التعبير عنها والنكاية بالأعداء في الحرب النفسية.

قالوا: «فخلص رستم برؤساء أهل فارس فقال: ما ترون، هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعزَّ من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه! فقال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصنون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون فيه ما ترون».

وهذا الكلام دليل على تفوق رستم على بني قومه في العقل والإدراك، ولو كان معه من يؤيده لربما دخل في الإسلام، فقد كان معجباً بأخلاق المسلمين، وإطلاق العرب عليهم نظراً لأن المسلمين آنذاك كانوا كلهم من العرب إلا القليل النادر.

وجاء في هذه الرواية أن الفرس أقبلوا إلى ربيعي يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه، فقال لهم: هل لكم إلى أن تُروني فأريكم؟ فأخرج سيفه من خرقه كأنه شعلة نار، فقال القوم: أغمده، فغمده، ثم رمى ترساً ورموا حجفته - وكانت من الجلد المتين - فخرق ترسهم وسلمت حجفته، فقال: يا أهل فارس إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب، وإنا صغرناهن.

وهكذا تفوق عليهم ربيعي بن عامر حتى في السلاح وهم الأمة القوية المحاربة، وما ذاك إلا من عناية المسلمين آنذاك بشؤون الحرب على قدر طاقتهم، فقد جلا ربيعي سيفه وحده قبل أن يذهب إليهم حتى أصبح كأنه شعلة نار، وأخاف الفرس منظره فطلبوا منه أن يغمده، واختار ترسه من النوع القوي، وهو وإن كان من الجلد فإن إتقان الصناعة قد أحاله إلى مادة قوية.

فليُنظر المسلمون إلى واقعهم المعاصر كيف تفوق عليهم الأعداء بجميع أنواع الأسلحة وأصبحوا لا يستطيعون المباهاة بأي نوع منها لتأخرهم الشديد في مجال



الصناعة مع أنهم المأمورون من الله تعالى بالإعداد الحربى ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] (١).

### حوار رستم مع حذيفة بن محصن:

وجاء في آخر هذا الخبر أن الفرس طلبوا في اليوم الثاني من قائد المسلمين بَعث ربيعي بن عامر فبعث إليهم حذيفة بن محصن وأنه قدم عليهم في مثل هيئة ربيعي وأنهم قالوا له: ما بالك جئت ولم يجئ صاحبنا بالأمس؟ قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء.

وهذا جواب سديد أظهر فيه حذيفة عدالة المسلمين وحسن قيادتهم، وفي تغيير الرسل الموفدين فائدة مهمة وهي أن يتبين للأعداء أن لدى المسلمين كفاءات متعددة.

ثم جاء في هذه الرواية أن حذيفة عرض لهم الأمور الثلاثة التي عرضها عليهم ربيعي وهي الإسلام أو الجزية أو القتال، فقال رستم: أو المودعة إلى يوم ما. فقال حذيفة: نعم ثلاثاً من أمس (٢).

وهذه نباهة من حذيفة تدل على حسن اختيار سعد للوفود، فقد كان رستم حريصاً على أن يأخذ من المسلمين موافقة على المودعة وإطالة أمر الحرب، فلما واجه ربيعي بن عامر أسقط في يده حينما عرف أن من سنة الإسلام أن لا يهادنوا الأعداء إذا لقوهم أكثر من ثلاثة أيام، فأراد أن يجرَّ حذيفة للموافقة على المودعة إلى أجل غير مسمى، ولكن حذيفة كان واعياً لأحكام الجهاد، فوافق على ذلك لمدة ثلاثة أيام بما فيها اليوم الماضي الذي كان بداية مواجهة العدو.

### حوار رستم مع المغيرة بن شعبة:

وجاء في آخر هذه الرواية أن الفرس طلبوا في اليوم الثالث من قائد المسلمين أن يبعث إليهم رجلاً، فبعث إليهم المغيرة بن شعبة. وقد أخرج الإمام الطبري خبره من طريق سيف بن عمر عن أبي عثمان النهدي قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة

(٢) تاريخ الطبري ٥٢١/٣.

(١) تاريخ الطبري ٥١٨-٥٢١/٣.

فعبرها إلى أهل فارس حبسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم<sup>(١)</sup> فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبُسْطَهم على غلوة<sup>(٢)</sup> لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليهم غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه<sup>(٣)</sup> فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتوني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وإن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول.

فقالَت السَّفلة: صدق والله العربي، وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا ما كان أحقهم حين كانوا يصغرُّون أمر هذه الأمة.

وهكذا استطاع هذا العبقرى الملهم أن يرمي دولتهم بقنبلة بعيدة الأثر في مجتمعهم حيث فرقت جمعهم، ونبّهت العامة المستضعفين إلى حقوقهم المسلوبة، فأرأوا في كلام المغيرة ما يعبر عن شعورهم الدفين الذي أماته الطغيان والجبروت، فنظفوا بما يعبر عن استيائهم من أوضاعهم السيئة حيث قالوا: صدق والله العربي، وكأنهم كانوا في سُبَات عميق وهم يسبِّحون بحمد آلهتهم من البشر من غير أن يشعروا بأنهم كان مستعبدين لهم حتى طرق أسمعهم كلام المغيرة بن شعبة وهو يُصنّف مجتمعهم الذي رآه إلى آلهة معبودين وعبيد مُستعبدين.

وشعر كبارهم بخطر هذا الكلام فلم يستطيعوا كتمان مشاعرهم بل صرحوا بما سيكون لهذا الكلام من أثر في استقلالية عبيدهم وشعورهم بإنسانيتهم وكرامتهم فقالوا: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه.

(١) يعني أنهم استمروا على ما اتفقوا عليه أول يوم من إظهار التهاون بالمسلمين وذلك بالمبالغة في المظاهر الدنيوية.

(٢) يعني ضربوه ضرباً خفيفاً.

(٣) يعني قدر رمية السهم.

ولقد توصل المغيرة بهذا إلى نتيجة مهمة وهي تفاؤله بأن دولتهم ستضمحل لأن الملك لا يمكن أن يستمر على الظلم والطغيان.

لقد بين لهم بلسان الحال أن أهم علامات قابلية الدولة للاستمرار أن لا يكون هدف الأمة هو تعظيم أمرائهم ورؤسائهم، والتفنن في مظاهر الأبهة من الملابس والفرش والمراكب والقصور، وتشكيل المجتمع إلى طبقات يخدم بعضها بعضاً ويتذلل بعضها لبعض، بحيث تكون الطبقة العليا معبودة من مختلف الطبقات، ومن هم دون ذلك عابدون لمن هم فوقهم، معبودون ممن هم دونهم، لأن دولةً هذه أوصافها تحمل أسباب فنائها من داخلها، وهي وإن عُمِّرت مدة من الزمن لا يمكن أن يُكتب لها الاستمرار، لأنه لا بد أن يأتي الوقت الذي يتنبه فيه العامة المستعبَدون، ويدركون أنهم يعبدون بشراً مثلهم، ليس لهم من المؤهلات إلا أنهم اتفقوا على الظلم والطغيان.

بل إن أهم علامات قابلية الدولة للبقاء والاستمرار أن يكون هناك شعور مشترك من الحاكمين والمحكومين بأنهم جميعاً يخدمون مبدأ سامياً، يعيشون جميعاً من أجله، ويتفانون جميعاً في خدمته، ومن كان أشدَّ بلاءً وأعظم تفانياً في خدمة هذا المبدأ كان أولى بالتقديم والرفعة.

وإن المبدأ السامي الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يعيشون له، ويتنافسون في خدمته هو الإسلام، ومن أجل سلامتهم من عبادة البشر، وكونهم جميعاً حاكمين ومحكومين يعبدون رب البشر، ومن أجل خدمتهم لدين الله عز وجل، الذي أنزله لتنظيم حياة البشر، نصرهم الله تعالى على ممالك ضخمة لم يكونوا في يوم من الأيام يحلمون بحياسة رقعة صغيرة من أراضيها.

وإنه مهما اتفق المفكرون على مبادئ من صنع البشر ومهما حاولوا إتقانها وعظموها، وجعلوها وسيلة لإخضاع عامة الناس، فإن هذه المبادئ لم تخرج من عبودية البشر للبشر، لأنها من صنع البشر أنفسهم.

ولأجل فهم المسلمين الأوائل لعوامل انهيار الأمم وعوامل قيامها حكم المغيرة ابن شعبة على دولة الفرس بالفناء، لما عرف المبدأ الذي يتنافس فيه عامتهم، وهو

خدمة كبرائهم، وتعظيمهم والخضوع لهم، لأنه من السهولة بمكان أن يتنبه العامة، وأن يقولوا: لسنا عبيداً للبشر، ولكن مما يشبه المستحيل أن يقول العامة في دولة الإسلام: لسنا عبيداً لرب البشر، لأن العبودية لرب البشر جل جلاله هي منتهى العز والكرامة، وغاية الفخر والجلال.

ولقد تنبه عقلاء الفرس إلى هذا الخطأ الكبير الذي بنوا عليه سياستهم، كما سبق في محاوره رستم مع زهرة بن الحوية حيث قال رستم: صدقتني والله، أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة، كانوا يقولون: إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم.

قال أبو عثمان النهدي في سياق رواية الحوار بين المغيرة بن شعبه ورستم: فمأزحه رستم ليمحو ما صنع، وقال له: يا عربي إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرهما عما ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق، ثم قال: ما هذه المغازل التي معك؟<sup>(١)</sup> قال: ما ضرَّ الجمره أن لا تكون طويلة، ثم راماهم، وقال: ما بال سيفك رثاً؟ قال: رث الكسوة، حديد المضربة، ثم عاطاه سيفه.

لقد أدرك رستم خطورة هذا الكلام الذي ألقى به المغيرة وفي وسط يضم كبراء الفرس إلى جانب خدمهم وتابعيهم، فلم يراجع في هذا الكلام حتى يقطع الحوار حول هذا الموضوع خوفاً من أن يواصل المغيرة بيان هذا الموضوع، فذكر أنه لا يوافق حاشيته على ما صنعوا من تعظيمه، وهو مجرد اعتذار أراد به الخروج من هذا المأزق، ثم لم يمهل المغيرة ليرد على ذلك بل عاجله بالسؤال عن سلاحه بأسلوب التهوين والاحتقار فكان جواب المغيرة على البديهة مسكتاً، ومعلياً من شأن المخبر مهوناً من شأن المظهر.

ثم قال له رستم: تكلم أم أتكلم؟ فقال المغيرة: أنت الذي بعثت إلينا فتكلم، فتكلم رستم فعظم من شأن قومه وذكر محامدهم، وصغر من شأن العرب وذكر معايبهم، ثم عرض مساومة المسلمين بالمال ليرجعوا عنهم.

(١) يعني بذلك السهام.

فتكلم المغيرة بن شعبة وحمد الله وأثنى عليه وقال: إن الله خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له<sup>(١)</sup> وأما الذي ذكرت نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء، والتمكن في البلاد، وعظم السلطان في الدنيا، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، فالله صنعه لكم ووضعه فيكم، وهو له دونكم، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال، وضيق المعيشة واختلاف القلوب، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك وصيرنا إليه، والدنيا دول ولم يزل أهل شدائدنا يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائنا يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر، كان شكركم يقصر عما أوتيتم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر، كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يُرْفَهُ بها عنا ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه، أو كنتم تعرفوننا به، إن الله تعالى بعث إلينا رسولا . . ثم ذكر مثل كلام من سبقه من الوفود إلى أن ذكر الجزية، فاستشاط رستم غضباً، ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين .

وإن هذا الكلام الواضح الرصين من المغيرة لم يترك لرستم مجالاً للرد خاصة وأن الأيام الثلاثة التي فرضها عليه المسلمون قد انتهت فلم يعد هناك مجال لمحاولاته السياسية في الصلح أو تأخير موعد اللقاء .

قال: فانصرف المغيرة، وخلص رستم تألّفًا بأهل فارس وقال: أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا؟ ألم يأتكم الأولان فحسراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً، هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن بلغ من إربهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا، فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء، فلجوا وتجلدوا، وقال: والله إنني لأعلم أنكم تُصْعُون إلى ما أقول لكم، وأن هذا منكم رثاء، فازدادوا لجاجة<sup>(٢)</sup> .

(١) يعني فإن الله تعالى هو الذي يخلقه وما صنع . (٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢١-٥٢٤ .

وهذا اعتراف آخر من رستم بما عليه المسلمون من سمو في الأخلاق وعلو في السياسة، وكان مثار دهشة رستم وعجبه من كون وفود المسلمين يقولون كلاماً واحداً لا يختلفون فيه في المطالب التي يعرضونها عليه، فاستنتج من ذلك إحدى نتيجتين: أن يكونوا كاذبين في دعواهم الدينية فهم عظماء في صونهم الأسرار واتفاق كلمتهم وتخلقهم بمكارم الأخلاق، أو أن يكونوا صادقين في دعوتهم إلى دينهم فإن هذا الدين السماوي هو الذي جبلهم على هذه السياسة العظيمة ومكارم الأخلاق، وقد ترجحت لديه النتيجة الأخيرة حيث ختم كلامه عن المسلمين بقوله: لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء.

ومن هذا تتبين لنا منزلة اجتماع الكلمة واتفاق الرأي في الدعوة إلى الإسلام، وإظهار عظمة المسلمين، وإيقاع الرعب والهيبه في قلوب الأعداء.

فمتى يتنبه المسلمون للزوم هذا المبدأ الكريم الذي أنتج للمسلمين الأوائل هذه النتائج الباهرة، حتى يكونوا جسداً واحداً كما أمرهم نبيهم ﷺ ويداهاً واحدة على أعدائهم.

وقول رستم لكبار قاداته «والله إني لأعلم أنكم تصغون إلى ما أقول لكم وأن هذا منكم رثاء» يعني أنهم في قرارة أنفسهم مقتنعون برأي رستم في تفادي الحرب مع المسلمين بأي ثمن ولكنهم يصرون على الحرب مرءاةً لملك الفرس حيث إنه يصير على ذلك.

ورستم يشير بهذا إلى خطورة نتائج كتمان الرأي السديد من أهل الشورى مداراة لمن هم أعلى منهم في المسئولية، وهو محق فيما ذهب إليه من ذلك ولكن قومه لم يسمعوا منه.

هذا ويبدو أن رستم كان معجباً بذكاء المغيرة بن شعبة الحاد وسرعة بديهته وإن كان قد استاء كثيراً من جرأته عليه وعلى قومه، فلما ذهب المغيرة أراد رستم أن يرمي بآخر ما في جعبته ليغيظ المغيرة، فقد جاء في رواية أخرجها الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الرِّفيل الفارسي قال: فأرسل - يعني رستم - مع المغيرة رجلاً، وقال له: إذا قطع القنطرة ووصل إلى أصحابه فنَاد: إن الملك كان

منجماً قد حسب لك، ونظر في أمرك فقال: إنك غدا تفقأ عينك، ففعل الرسول: فقال المغيرة: بَشَّرْتَنِي بخير وأجر، ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضاً، فرأهم يضحكون ويتعجبون من بصيرته.

وهكذا فليكن الرجال، ورضي الله عن عمر حينما أوصى سعداً بحسن اختيار الوفود وذكر له الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم، ورضي الله عن سعد حينما أحسن الاختيار، فاختار من مثّلوا إسلامهم وأمتهم أصدق تمثيل، وأدخلوا الحيرة والرعب في قلوب أعدائهم.

ولقد بلغ هذا الكلام رستم فزاده رعباً وقلقا، وتمثّل ذلك في قوله لقومه ناصحاً لهم كما جاء في هذه الرواية: أطيعوني يا أهل فارس، وإني لأرى لله فيكم نقمة لا تستطيعون ردها عن أنفسكم<sup>(١)</sup>.

#### حوار رستم مع بقية وفد المسلمين:

هذا ولما رجع المغيرة وكان آخر الوفود أراد سعد أن يُعذر من أعدائه فأرسل لهم بقية من اختارهم للوفادة، كما جاء في رواية أخرى للطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا: أرسل إليهم سعد بقية ذوي الرأي جميعاً وحبس الثلاثة<sup>(٢)</sup> فخرجوا حتى أتوه ليعظموا عليه استقباحاً<sup>(٣)</sup> فقالوا له: إن أميرنا يقول لك: إن الجوار يحفظ الولاية، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض إلا أن داركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا، وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم، واتق الله يا رستم، ولا يكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تُغَبَطَ به إلا أن تدخل فيه، وتطرد به الشيطان عنك.

وهذا كلام عظيم في غاية التنزل مع الأعداء، ومحاولة تأليف قلوبهم، وإنما يدل هذا الكلام على تجرد المسلمين من إرادة الدنيا، حيث أبدوا استعدادهم الكامل

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢٤ .

(٢) يعني أبقى الثلاثة الأولين فلم يرسلهم.

(٣) يعني ليعظموا عليه صدوده عن الإسلام استقباحاً لرأيه ورأي قومه.

بالرجوع إلى بلادهم إذا دخل الفرس في الإسلام وأن يتركوا لهم حكم بلادهم وما وراءها مما يتم على يدهم فتحه، ثم يكونون عوناً لهم على أعدائهم.

وإن في هذا التجرد عبرة لهم لو كان لهم عقول يبصرون بها.

ولقد كان رستم مقتنعاً بالإسلام كما تقدم، ولكنه لم يستطع إقناع قومه، ففضل البقاء معهم على عداة المسلمين، وظهر أمام الوفد الإسلامي بما يجب أن يكون عليه في عرف دولته من تفخيم أمر أمته والتهوين من شأن العرب، وقد تكلم بكلام طويل ضرب فيه عدة أمثال تدور حول بيان اغترار المسلمين بما حصلوا عليه من نصر سابق فشبهم بحيوانات أحسنت الدخول وطاب لها المقام ولم تُحسن الخروج، فأصيبت لسوء تقديرها النتائج، وبين لهم ما ينتظرهم من مصير سيء على يد جيشه.

ولا شك أنه كان يتظاهر بغير ما يعتقد خضوعاً لما تُلزمه به الأعراف الحربية حيث قد صرح قبل ذلك مراراً بتشاؤمه من قتال المسلمين وتخوفه من سوء العاقبة على قومه.

وقد رد عليه أعضاء الوفد الإسلامي بكلام بليغ شرحوا فيه دعوة الإسلام وواقع الفرس في كفرهم نعمة ربهم فقالوا: ماذكرتم من سوء حالنا فيما مضى، وانتشار أمرنا فلماً تَبْلَغُ كنهه، يموت الميت منا إلى النار، ويبقى الباقي منا في بؤس، فيينا نحن في أسوأ ذلك بعث الله فينا رسولا من أنفسنا إلى الإنس والجن، رحمة رحم الله بها من رد رحمته، ونقمة ينتقم بها ممن أراد كرامته، فبدأ بنا قبيلة قبيلة فلم يكن أحد أشد عليه، ولا أشد إنكارا لما جاء، ولا أجهد على قتله ورد الذي جاء به من قومه، ثم الذين يلونهم، حتى طابقتنا على ذلك كلنا، فنصبنا له جميعاً وهو وحده فردٌ ليس معه إلا الله تعالى، فأعطيَ الظفر علينا فدخل بعضنا طوعاً وبعضنا كرهاً، ثم عرفنا جميعاً الحق والصدق، لما أتانا به من الآيات المعجزة، وكان مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى، فسرنا بذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لا يُخرم عنه ولا يُنقض، حتى اجتمعت العرب على هذا،



وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم، ثم أتيناكم بأمر ربنا نجاهد في سبيله وننفذ أمره وننجز موعوده، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه، فإن أحببتمونا تركناكم ورجعنا، وخلفنا فيكم كتاب الله، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتال، أو تفتدوا بالجزى فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم، فاقبلوا نصيحتنا، فوالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم.

وأما ما ذكرت من رثائنا وقتلتنا فإن أداتنا الطاعة، وقتالنا الصبر، وأما ما ضربتم لنا من الأمثال فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل، ولكننا سنضرب مثلكم، إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضاً، واختار لها الشجر والحب وأجرى إليها الأنهار، وزينها بالقصور، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها، ويقومون على جناتها، فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب، وفي الجنان بمثل ذلك، فأطال نظرهم<sup>(١)</sup> فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم، استعذبهم فكابروه، فدعا إليها غيرهم، وأخرجهم منها، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس، وإن أقاموا فيها صاروا خوفاً لهؤلاء يملكونهم، ولا يملكون عليهم، فيسومونهم الخسف أبداً، ووالله لو لم يكن ما نقول لك حقاً، ولم يكن إلا الدنيا لما كان لنا عما ضربنا به من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرجكم من صبر، ولقارعتناكم حتى نغلبكم عليه<sup>(٢)</sup>.

وبهذا البيان الرفيع ختم وفود جيش المسلمين لقاءاتهم وحوارهم مع قائد الفرس، وقد اشتمل هذا البيان على أمور مهمة، فإن هؤلاء ومن سبقهم من الوفود قد اتفقوا على موافقة رستم في التهوين من شأن العرب قبل الإسلام بل إنهم ذكروا من سوء حالهم ما لم يذكره رستم، وكذلك ذكر جميع الوفود في فتوح المسلمين الأولى، وهذا يدل على سلامتهم من لوثة القومية العربية، وتجردهم للدين الإسلامي، وبذلك فوتوا على أعدائهم ثغرات واسعة للطعن فيهم.

فقد قالوا لرستم وغيره: إنا لسنا أولئك الذين حملتم عنهم هذه الصورة، فإننا نتبرأ منهم ومن مناهجهم في الحياة، ولكن الله تعالى بدلنا أناساً آخرين، لما اعتنقنا

(١) يعني أمهلهم طويلاً.

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢٥ - ٥٢٩.

هذا الدين، فاحكموا علينا من واقعنا الذي تُشاهدونه والذي يشرّف كل صاحب عقل سليم ولا تحكموا علينا من تاريخنا الماضي قبل التحول بالإسلام.

ثم ذكروا أن تحوّلهم إلى الإسلام لم يتم لأن النبي ﷺ عربي مثلهم، بل إنهم قاوموه أشد المقاومة، ولم ينصره حتى قومه وإنما حصل هذا التحول لما أُشربت قلوبهم حب هذا الدين لما يشتمل عليه من معجزات وآيات بينات، لا تترك مجالاً لصاحب العقل السليم إلا أن يُدعن له ويترك هواه، وفي هذا تحريض للفرس وغيرهم كي يدعنوا للإسلام إذا فهموا سمو هذا الدين عن أن يكون دين قوم أو جنس.

ثم بينوا لرستم أن خروج المسلمين من بلادهم لقتالهم ليس استجابة لهوى أنفسهم، وإنما هو تكليف من تكاليف هذا الدين الذي آمنوا به، ولذلك كان دخول أعدائهم في الإسلام أحب إليهم من الصلح الذي يستفيدون منه جباية الجزية كل عام، لما يترتب على إسلامهم من الأجر العظيم لمن دعوهم إليه، ودخولهم مع أعدائهم في القتال أحب إليهم من مصالحتهم بالجزية لما يترتب على الجهاد من أجر عظيم في مباشرة القتال وفي الاستشهاد في سبيل الله تعالى، وكون الدخول في القتال، وهو لا تؤمن عاقبته أحب إليهم من الصلح الذي تُضمن عاقبته دليل واضح على أنهم لا يريدون الدنيا وإنما يريدون الآخرة، وهذا يكفي في إقناع صاحب العقل السليم بالدخول في الإسلام، ومؤاخاة هؤلاء الكرام الذين تجردوا من حظوظ أنفسهم وعاشوا لدينهم الذي ارتضاه لهم خالقهم جل وعلا.

وردوا على ما ذكره من قلة عددهم، وورثاة مظهرهم بأن عدتهم الطاعة وقاتلهم الصبر، فالطاعة لله تعالى أولاً ثم للقائد في حدود طاعة الله تعالى، وإن جيشاً يتصف بالطاعة الكاملة لقائده وذوي الرأي فيه ليعدل أضعافه من جيش ينقصه التفاهم والولاء للقيادة.

أما الصبر فإنه أهم عناصر النصر لأن أفراد الجيش قد يبذلون طاقة في القتال أول الأمر لكن قلّ من يصبر على هذا المستوى من الطاقة إلى نهاية المعركة.

ثم بينوا لرستم على سبيل التوبيخ أن ما ضرب لهم من الأمثال حيث شبههم بالحيوانات لا يليق لأن الرجال والأمور الجسام لا يُمثّل لها بالهزل من القول.

ثم ضربوا له مثلاً عالياً نبهوا قومه فيه إلى أنهم قد ركبوا أهواءهم، وعطلوا عقولهم التي من الله بها عليهم في أهم أمر يجب أن يفكروا فيه وهو شكر الخالق جل وعلا وإخلاص العبادة له. وإن لم يفعلوا ذلك فإن الله تعالى يسلط عليهم أولياءه فينتقم بهم منهم.

وهكذا أرسل سعد بن أبي وقاص عدة وفود إلى رستم ليدعوه وقومه إلى الإسلام ويقيم عليهم الحجة، ولقد بين هؤلاء الوفود في حوارهم مع رستم أن الإسلام يقوم على إخلاص العبادة لله تعالى وحده، وذلك يتضمن الكفر بجميع الطواغيت التي تُعبد من دون الله تعالى، وأن المسلمين سواسية عنده جل وعلا، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن المسلمين مأمورون بالدعوة إلى الله تعالى لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده.

وهل كان العرب في جاهليتهم يعبدون العباد؟ أم كانوا يعبدون الأشجار والأحجار؟

في الظاهر كانوا يعبدون الأشجار والأصنام المنحوتة ونحو ذلك من الجمادات ولكن العبادة الحقيقية للأصنام الكبيرة كاللات والعزى ومناة لم تكن لذواتها وإنما كانت لمن كانوا وراءها من شياطين الإنس الذين كانوا يروّجون لها، ومن شياطين الجن الذين يخاطبون عابديها.

فأما كون شياطين الإنس يروّجون لها ويدافعون عنها فهذا معروف، ومن أبرز ما يتعلق بعبادة الإنس المتعلقة بعبادة الأصنام أنهم كانوا يشرعون للناس ما يُنظّمون به حياتهم باسم الأصنام وبموجب ولائهم وخدمتهم لها، وهذا نوع من أنواع العبادة فلا يجوز صرفه لغير الخالق جل وعلا.

وأما كون شياطين الجن يخاطبون عابديها ويلبّون لهم ما يستطيعون من حوائجهم فهذا أيضاً مشهور وقد مر علينا في فتح مكة بعض ما كان من ظهور الجن عند هدم الأصنام.

أما في غير بلاد العرب فقد كانت عبادة العباد للعباد ظاهرة مكشوفة وقد لاحظ جنود الإسلام أمثلة منها في بلاط قادة الفرس والروم، وما كان في بلاط كسرى

وهرقل أعظم من ذلك، فلذلك ركّز وفود المسلمين على محاربة هذه الطبقة التي تجعل الناس عابدين ومعبودين.

ولقد وفقّ الوفود إلى النطق بالصواب حينما بينوا لرستم حقيقة الواقع الذي آل إليه أمر العرب في جاهليتهم حيث بينوا له أنهم من سوء والانحطاط على حال هي أشد مما وصفهم به رستم، ثم وفقوا حينما عزّوا ذلك إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله، حيث كانوا يعبدون العباد معه، ثم وفقوا في بيان أن هذا التحول الكبير المفاجئ الذي لا يحتاج إلى بيان إنما كان بسبب دين التوحيد، حيث أصبحوا بهداية النبي ﷺ يخلصون العبادة لله تعالى وحده، وكان هذا التوحيد الخالص هو العامل المهم في انتصار المسلمين بما يشبه الخوارق.

إن العامل الرئيسي في انهزام الأمة أن يتخذ بعضها بعضاً أرباباً من دون الله تعالى، لأنه ما دام الأرباب مساوين للمربوبين في الخلق فما الذي يدفع المربوبين إلى الإخلاص في عبادة الأرباب والاستعداد للفناء من أجلهم؟!

وإذا كانوا يطيعونهم خوفاً من بطشهم فما الذي يكفل لهم دوام الرقابة عليهم في كل أحوالهم؟

إن كل إنسان يملك طاقة عظيمة مدخرة، وهو ليس على استعداد لأن يبذلها إلا لمن يستحقها، وهل يبذلها إلى حد الفناء ليستبقي بها حياة مخلوق مثله؟!

هذا ما لا يمكن أن يقع في حياة الناس، إن كل جندي ممن لا يحملون عقيدة التوحيد الخالص يقاتل بجزء يسير من طاقته، ويستبقي الجزء الكبير منها للدفاع عن نفسه لأنها أغلى شيء يملكه، وليس على استعداد لأن يفدي بها غيره.

أما جنود التوحيد الذين لا يتخذون أرباباً من البشر فإنهم يبذلون كل طاقتهم من أجل نصره كلمة التوحيد، ولن يقف أحد لمثل هؤلاء مهما بلغ عددهم وقويت عدتهم.

ولعل هذا من أسرار تكليف المسلم بالثبات أمام عشرة من الكفار ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وإن من عدم فقههم كونهم يصرفون أعمالهم لغير الله تعالى، ولقد خفف الله تعالى عن المؤمنين لضعف بعضهم، فجعل الحد الأدنى للثبات الواجب أن يواجه المسلمون ضعفهم ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]

والظاهر أن رستم وهو الخبير بمصائر الأمم وعوامل الانتصار والانهيار في الحروب قد أدرك سرَّ عظمة المسلمين، حيث إنهم جميعاً بقادتهم وجنودهم يخدمون مبدأً واحداً سامياً يموتون جميعاً من أجله، وفي سبيل إعزازه يحيون.

لقد أدرك ذلك، وأدرك في مقابله أسباب انهيار دولتهم وأن السبب الرئيسي في ذلك هو انقسام الناس فيها إلى عابد ومعبود، وعدم توفر الأسباب المؤثرة التي تجعل الجندي يضحى بنفسه في سبيل أمته، بينما رأى ذلك متمثلاً بوضوح في كلام الوفود من المسلمين، وفي واقع حياة المسلمين وانتصاراتهم السريعة الباهرة.

لقد أدرك ذلك كله فداخله الرعب من المسلمين، وهمَّ بمصالحتهم ومهادنتهم لوافقه ملك الفرس على ذلك.

#### عبور الفرس إلى المسلمين:

وفي نهاية الحوار مع رستم قال لوفد المسلمين: أتعبرون إلينا أم نعبّر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا إلينا.

ولما علم سعد بذلك أمر الجيش بالاستعداد، وأرسل إلى الفرس: شأنكم والعبور، فأرادوا العبور من القنطرة فأرسل إليهم: لا ولا كرامة. أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم، تكلّفوا معبراً غير القناطر فباتوا يردمون نهر العتيق حتى الصباح.

#### عودة إلى الرؤى المزعجة:

ورأى رستم من الليل أن ملكاً نزل من السماء فأخذ قسي أصحابه فختم عليها، ثم صعد بها إلى السماء، فاستيقظ مهموماً محزوناً، فدعا خاصته فقصها عليهم،

وقال: إن الله ليعظنا لو أن أن فارس تركوني أتعظ، أما ترون النصر قد رُفِعَ عنا، وترون الريح مع عدونا، وأنا لا نقوم لهم في فعل ولا منطلق، ثم هم يريدون مغالبةً بالجبرية<sup>(١)</sup>.

وهكذا عادت لرستم أحلامه المزعجة وهي نوع من الرعب الذي يُلقيه الله في قلوب أعداء المسلمين.

### استعداد المسلمين:

وقد أمر سعد رضي الله عنه بتعبئة الجيش استعداداً لبدء المعركة، وكان مريضاً بعرق النساء، وبه دما مل لا يستطيع الركوب ولا الجلوس فكان مكباً على صدره وتحتته وسادة ويشرف على الميدان من قصر قُدَيْس الذي كان في القادسية وقد أناب عنه في تبليغ أوامره خالد بن عرفطة. وقد أمر بأن ينادى في الجيش: ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد في أمر الله، أيها الناس فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد<sup>(٢)</sup>.

وقبل بدء القتال حصل اختلاف على خالد بن عرفطة نائب سعد فقال سعد: احملوني وأشرفوا بي على الناس، فارتقوا به فأكبَّ مَطْلَعاً عليهم والصف في أسفل حائط قصر قُدَيْس يأمر خالداً فيأمر خالد الناس، وكان ممن شغَب عليه وجوه من وجوه الناس فهمَّ بهم سعد وشمهم، وقال: أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم، فحبسهم، ومنهم أبو محجن الثقفي، وقيدهم في القصر.

وقال جرير بن عبد الله البجلي - مؤيداً طاعة الأمير - : أما إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً.

وقال سعد: والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننتُ فيه سنة يُؤخذ بها من بعدي<sup>(٣)</sup>.

لقد كان سعد رضي الله عنه رجل الموقف حقاً فقد حسم الداء في أول مراحلها، وقضى على الفتنة وهي في مهدها، وهو نوع من القوة والحزم لا يتوفر إلا في

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٣٠.

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢٩.

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٥٣١.

القليل من الناس، وإذا صاحبَ القوةَ حلمَ وحكمةَ وكرمَ اكتملت عناصرُ السيادة، وهي متوفرة في سعد رضي الله عنه، فلذلك استطاع أن يقود هذا الجيش الكبير المنتزع من قبائل عديدة بينها إحنٌ وأحقاد في الجاهلية، وقد كانوا يأنفون من سيادة بعضهم على بعض.

وقد قام فيهم سعد خطيباً بعد هذه الحادثة فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: إن الله هو الحق لا شريك له في الملك، وليس لقوله خُلف، قال الله جل ثناؤه ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] إن هذا ميراثكم وموعود ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها، وتقتلون أهلها وتجبنونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة، عزّ من وراءكم، فإن تزهّدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ربحكم وتؤبقوا آخرتكم<sup>(١)</sup>.

وقام عاصم بن عمرو التميمي فقال: إن هذه البلاد قد أحل الله لكم أهلها، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم، وأنتم الأعلون والله معكم، إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلکم أموالهم ونسأؤهم وأبناؤهم وبلادهم، وإن خرّتم وفشلتم - والله لكم من ذلك جار وحافظ - لم يبق هذا الجمع منكم باقية، مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك، الله الله اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها، أولاً ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفار ليس لها خمر ولا وزر يعقل إليه<sup>(٢)</sup> ولا يمتنع به! اجعلوا همكم الآخرة<sup>(٣)</sup>.

وهذا كلام يدل على عمق في فهم التوحيد ورسوخ في الإيمان، وإن صدور مثل هذا الكلام من عاصم بن عمرو الذي لم يدخل في الإسلام إلا في أواخر العهد النبوي لدليل على عمق الأثر الذي تركه الإسلام في نفوس العرب.

(٢) أي ليس لكم غطاء، ولا حصن تلجؤون إليه.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣١.

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٢.

هذا وقد كتب سعد إلى أصحاب الرايات: إني قد استخلفت فيكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبوب - يعني الدمامل - فإني مُكَبُّ على وجهي وشخصي لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمرى ويعمل برأىي، فقرأ على الناس فزادهم خيراً، وانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاتوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضى بما صنع.

ولقد كان في إصابة سعد بالمرض حكمة بالغة فقد ألزمه المرض البقاء في القصر وكان مشرفاً على ساحة المعركة، فكان يرى تفاصيل سير المعركة فيوجه توجيهاته عن طريق نائبه، ولو أنه كان سليماً واشترك بنفسه في القتال كالمعتاد لانغمس داخل الجيش ولم يستطع الإشراف على كل ما يجري في الساحة، وستأتي أمثلة تبين أنه أنقذ باطلاعه الدقيق على ما يجري فئات من الجيش كاد العدو أن يفنيهم، وقد ساعده على ذلك أنه كان حديد البصر.

وإن المعارك الكبيرة كهذه المعركة تحتاج إلى تفرغ القائد لإدارتها ولكن المسلمين الأوائل ألفوا أن يكون القائد بينهم وفي مقدمتهم.

ولا يمكن أن يُظنَّ بسعد رضي الله عنه أنه ترك المشاركة في القتال جبناً ولا رعاية لحظّ النفس، فإن بقاءه فوق قصر غير محصن وبدون حراسة يعتبر غاية الثبات والتضحية، وفي ذلك يقول عثمان بن رجاء السعدي: كان سعد بن مالك أجراً الناس وأشجعهم، إنه نزل قصرًا غير حصين بين الصفين، فأشرف منه على الناس ولو أعراه الصف فواق ناقة أخذ برمته<sup>(١)</sup>، فو الله ما أكرته هول تلك الأيام ولا أفلقه<sup>(٢)</sup>.

### رستم يفرع من الأذان:

بعدما ردم الفرس نهر العتيق وعملوا لهم منه جسراً ظلوا يعبرون منه طوال الليل حتى وصلوا إلى ميدان المعركة.

ومن أخبارهم بعد العبور ما رواه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن ابن الرُقَيْل<sup>(٣)</sup> قال: لما نزل رستم النجف بعث منها عيناً إلى عسكر المسلمين،

(١) يعني لو انحسر عنه صف المسلمين وانكشف للعدو مقدار حلب ناقة لأخذه الأعداء.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٠. (٣) لعل الرواية عن أبيه كما في سائر الروايات.



فانغمس فيهم بالقادسية كبعض من ندد منهم، فرأهم يستاكون عند كل صلاة ثم يصلون، فيفتقون إلى مواقفهم، فرجع إليه فأخبره بخبرهم وسيرتهم، حتى سأله: ما طعامهم؟ فقال: مكثت فيهم ليلة، لا والله ما رأيت أحداً منهم يأكل شيئاً إلا أن يمصوا عيداناً لهم حين يمسون وحين ينامون وقيل أن يصبحوا، فلما سار فنزل بين الحصن والعتيق - يعني في القادسية - وافقهم وقد أذن مؤذن سعد الغداة فرأهم يتحششون - يعني يتهيؤون للنهوض - فنادى في أهل فارس أن يركبوا، فقبل له: ولم؟ قال: أما ترون إلى عدوكم قد نودي فيهم فتحششوا لكم! قال عينه ذلك: إنما تحششهم هذا للصلاة، فقال بالفارسية وهذا تفسيره بالعربية: أتاني صوت عند الغداة، وإنما هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل، فلما عبروا تواقفوا وأذن مؤذن سعد للصلاة - يعني صلاة الظهر - فصرى سعد، وقال رستم: أكل عمر كبدي<sup>(١)</sup>.

وهكذا فرغ رستم من سماع الأذان، ومن منظر المسلمين وهم يستعدون جميعاً للصلاة بحيوية ونشاط، ومن اجتماعهم جميعاً خلف قائدهم في الصلاة.

وكان المسئول الأعلى في المسلمين آنذاك هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما كان من رستم إلا أن نسب إليه هذه الآثار التربوية العالية، فكيف لو كانت هذه الحروب في عهد النبي ﷺ وسمع رستم عن معجزاته، وحب المؤمنين وطاعتهم إياه وسياسته العالية في السلم والحرب بما لا مثيل له، فماذا سيقول؟ وما عمر بن الخطاب بمواهبه الفذة وسمعته العالية إلا قبس من ضوء رسول الله ﷺ.

ولو أن رستم تجرد من الهوى، واستمع لإرشاد من أعجب بمنطقهم وأخلاقهم وصلاتهم لأدرك أن النقلة العظيمة التي انتقل العرب إليها في واقعهم المذهل لم تكن من نتاج البشر مهما بلغوا من الذكاء والتربية العالية، وإنما هي وحي إلهي أنزله الله جل وعلا على خاتم الرسل ﷺ هداية للثقلين.

وإذا كان أحد تلامذة النبي ﷺ الذين رباهم على يديه قد أفزع قادة العالم آنذاك وملاً قلوبهم كمداً فبم يوصف أثر النبي ﷺ؟ إنه أمر عظيم يفوق حد

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٢ - ٥٣٣.

الوصف، ولقد ظل مفكرو العالم آنذاك متحيرين من تلك الآثار الضخمة للدعوة الإسلامية، ولم يخرج من هذه الحيرة إلا من مسَّت أنوار الإيمان شغاف قلبه فأعلن إسلامه وتبعيته للركب العظيم الذي ساد العالم وفرض عليه حضارته وعلومه.

وإنها لشهادة بيّنة من مفكر عالمي تُظهر ما للصلاة والأذان من أثر بالغ في تقويم السلوك، وإنه لمنظر عظيم حين يقوم جيش مكون من ثلاثين ألفاً مستجيبين لنداء رجل واحد، ويقفون للصلاة خلف إمام واحد، ولكن الإلف والعادة يُفقدان العمل الرائع روعته وجلاله إلا عند من رسخ الإيمان في قلوبهم، فأصبح يتجدد لهم اليقين مع كل صلاة، وإذا كان كثير من المسلمين يغفل عن مزايا الأذان وصلاة الجماعة، فإن مفكري الأعداء قد شهدوا بذلك، والحق ما شهدت به الأعداء.

ولقد كان من مظاهر حرص الصحابة رضي الله عنهم ومن اتبعهم بإحسان على الالتزام بالسنة أن حملوا معهم أعواد الأراك من الحجاز وظلوا يستاكون بها حتى كانت ملازمتهم إياها من المظاهر المهمة التي لفتت نظر جاسوس رستم فأبلغه عنها، وإن من عوامل النصر المهمة الالتزام بسنة رسول الله ﷺ حتى في الأمور الصغيرة فإن هذا الالتزام دليل على كمال الطاعة لله تعالى وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم يؤلّون التكاليف الشرعية من الاهتمام بقدر منزلتها، وإذا كانوا يهتمون هكذا بالسنن التي لا يعاقب تاركها فإن اهتمامهم بالواجبات من باب أولى، والمسلم يثاب على حرصه على السنة ومحاسبتها نفسه عن التقصير فيها.

### مواعظ جهادية:

صدرت مواعظ بليغة من وجهاء المسلمين وقادتهم في بداية اليوم الأول من المعركة وكانت بأمر من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لتقوية إيمان المسلمين وإثارة حماسهم ليبذلوا في سبيل الله كل طاقاتهم، فلقد جمعهم سعد وقال لهم: انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق لهم عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطبائهم، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في الناس فذكروهم وحرصوهم على القتال، فساروا فيهم.

فقال قيس بن هبيرة الأسدي: أيها الناس احمدا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم، واذكروا آلاء الله، وارغبوا إليه في عاداته، فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء، والأرض القفر، والظراب الحشن، والفلوات التي لا تقطعها الأدلة.

وقال غالب بن عبد الله الليثي: أيها الناس احمدا الله على ما أبلاكم وسلوه يزدكم، وادعوه يجبكم، يا معاشر معدّ، ما علّتكم اليوم وأنت في حصونكم - يعني الخيل - ومعكم من لا يعصيكم - يعني السيوف -؟ اذكروا حديث الناس في غد، فإنه بكم غداً يبدأ عنده، وبمن بعدكم يُثني.

وقال ابن الهذيل الأسدي: يا معاشر معدّ، اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليهم كأسود الأجم، وتربّدوا لهم تربّد النمر وادّرعو العجاج، وثقوا بالله، وعضوا الأبصار، فإذا كلّت السيوف - فإنها مأمورة - فأرسلوا عليهم الجنادل، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه.

وقال بسر بن أبي رهم الجهني: احمدا الله وصدقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم الله على ما هداكم له، ووحّدتموه ولا إله غيره، وكبرتموه، وأمتتم بنبيه ورسله، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا يكوننّ شيء بأهون عليكم من الدنيا، فإنها تأتي من تهاون بها، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم، انصروا الله ينصركم.

وقال عاصم بن عمرو: يا معاشر العرب إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم لأعيان من العجم، وإنما تخاطرون بالجنة، ويخاطرون بالدنيا، فلا يكوننّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونوا شيئاً على العرب غداً.

وقال ربيع بن البلاد السعدي: يا معاشر العرب قاتلوا للدين والدنيا ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وإن عظّم الشيطان عليكم الأمر فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم مادام للأخبار أهل.

وقال ربيعي بن عامر: إن الله قد هداكم للإسلام، وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر راحة، فعودوا أنفسكم الصبر تعتادوه، ولا تعودوها الجزع فتعتادوه.

ذكر ذلك الإمام الطبري وقال: وقام كلهم بنحو هذا الكلام، وتواتق الناس وتعاهدوا، واهتاجوا لكل ما كان ينبغي لهم<sup>(١)</sup>.

أقول: وإن في بعض هذا الكلام ذكراً للدنيا مع الآخرة، وإنما أرادوا بذلك تحريض من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم وهم قليل.

### يوم أرمات:

في اليوم الأول من أيام القادسية ويسمى «يوم أرمات» وجه سعد رضي الله عنه بيانه إلى الجيش قائلاً: الزموا مواقفكم لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرة فكبروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعطه أحد قبلكم، واعلموا أنما أُعطيتموه تأييداً لكم، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا، ولتستتمَّ عدتكم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم الناس ليزروا وليطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم، قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله<sup>(٢)</sup>.

وهذا نموذج من البيانات الحربية التي يلقيها القادة قبل بدء المعركة لرسم خطة بدايتها، ومن مزايا التخطيط الحربي لدى المسلمين أن التوقيت وإصدار الأوامر للقتال يكون بالتكبير، وفي ذلك أبلغ التذكير بمعية الله سبحانه لأوليائه بالنصر والتأييد، وحينما يذكر المسلم ربه جل وعلا وهو متهيء لخوض المعركة فإن إيمانه يقوى، ويكون الله سبحانه بين عينيه والجنة محط تفكيره، وتتضاءل الدنيا بكل ما فيها عنده، وحينما يظل مصطحباً ذكر الله تعالى فإنه يأتي بالعجائب ولا يقف له شيء، ومن أجل أن يكبر المسلمون بقلوبهم مع ألسنتهم وأن يظلوا مصطحبين لذكر الله تعالى، فإن سعداً قال لهم: واعلموا أن التكبير لم يُعطه أحد قبلكم، واعلموا أنكم إنما أُعطيتموه تأييداً لكم.

فالله أكبر تعني أنه أكبر من الأعداء وإن كانوا في نظر الناس أقوىاء، وأنه تعالى أكبر من كل شيء، فالذي يقولها من قلبه وهو يفقه معناها يستصغر قوة الأعداء مهما عظمت، ويحتقر مظاهر الدنيا وإن كانت هيمنتها على نفسه كبيرة فيقدم على قتال الأعداء بطاقته الكاملة، ولذلك كان التكبير تأييداً للمسلمين من الله تعالى.

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٣٣ - ٥٣٤.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٥٣٥.

ثم يختم سعد بيانه بتوجيه أصحابه إلى قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند الزحف على الأعداء، وهو توجيه آخر لربط المسلمين بربهم جل وعلا، فلا تحوّل للمؤمن من حال القلق والاضطراب إلى حال السكينة والطمأنينة، ومن حال الترقب والخوف من سوء العاقبة إلى العاقبة الحميدة إلا بالله جلا وعلا، ولا قوة للمؤمن على مواجهة الشدائد والمصائب إلا بالله تعالى، ولذلك كان هذا التوجيه في نهاية البيان في غاية المناسبة.

وهذه الكلمة العظيمة تُؤتي مفعولها في تقوية قلب المؤمن، ومعونته على تحمل الشدائد إذا نطق بها وهو مدرك لمعناها، مستحضر لعظمة الله تعالى، وأن كل شيء بيده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأن يكون في حال الرخاء من المتقين لله جل وعلا، ولذلك كان الربانيون من أمثال عمر رضي الله عنه يخشون على جنود الإسلام من المعاصي أكثر من خشيتهم عليهم من الأعداء.

ولما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه إياه عمر- وكان من القراء- أن يقرأ سورة الجهاد [يعني سورة الأنفال] وكان المسلمون يتعلمونها كلهم، فقرأ على الكتيبة الذين يلونه سورة الجهاد، فقرأت في كل كتيبة، فهشّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها<sup>(١)</sup>.

وهكذا يتزود المسلمون المتقون بالقرآن، ويجعلون من كلام الله تعالى مادة لحماسهم وإقدامهم على القتال، فأين منهم الذين يرددون الشعارات الجاهلية؟! وما هي النتائج المرتقبة للاتجاهين في الدنيا والآخرة؟

ولما فرغ القراء كبر سعد، فكبر الذين يلونه بتكبيره، وكبر بعض الناس بتكبير بعض، فتحشش الناس [يعني تحركوا] ثم ثنى فاستتم الناس، ثم ثلث فبرز أهل النجدات فأنشبو القتال، وخرج من أهل فارس أمثالهم، فاعتوروا الطعن والضرب<sup>(٢)</sup>.

وكان لأبطال المسلمين من أمثال غالب بن عبد الله الأسدي، وعاصم بن عمرو التميمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي وطليحة بن خويلد الأسدي أثر ظاهر في

(١) تاريخ الطبري ٥٣٦/٣.

(٢) تاريخ الطبري ٥٣٦/٣.

النكاية بالعدو حيث قتلوا وأسروا عدداً من أبطالهم ولم يُقتل من المسلمين أحد فيما ذُكر أثناء المبارزة، والمبارزة فنٌّ عسير من فنون الحرب لا يتقنه إلا الأبطال من الرجال، وهي ترفع من شأن المنتصرين وتزيد في حماسهم، وتخفف من شأن المهزمين وتحط من معنوياتهم، والمسلمون الأوائل متفوقون في هذا الفن على غيرهم دائماً، ولذلك فإنهم هم المستفيدون من المبارزة.

وبينما الناس ينتظرون التكبيرة الرابعة إذ قام صاحب رجالة بني نهد قيس بن جذيمة بن جرثومة، فقال: يا بني نهد انهدوا فإنما سميتم نهدا لتفعلوا، فبعث إليه خالد بن عرفطة: والله لتكفنَّ أو لأولِّينَ عمالك غيرك، فكفَّ<sup>(١)</sup>.

وهذه نظرة حزم وانضباط من خالد بن عرفطة، فإن سعداً لم يؤخر التكبيرة الرابعة إلا لحكمة يقتضيها الموقف، ولعل من ذلك أن تتكشف نقاط الضعف في جيش الأعداء، ولعل من ذلك أيضاً أن يبرز دور أبطال المسلمين في مبارزة الأعداء ومطاردتهم، وفي ذلك تنشيط للمسلمين وتخذيل للكافرين وإذا التحم المسلمون بأجمعهم مع الأعداء لم تظهر هذه البطولات إلا لعدد محدود من الناس.

وهذا الهدف جاء التصريح به في كلام سعد السابق حيث يقول: «ولينشَّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا» وقد برزوا وطاردوا وكانت الغلبة لهم، وظهر فشل الفرس في مجالي المبارزة والمطاردة، وهذا ما كان الفرس يتحاشونه في قتالهم مع المسلمين في كل لقاء.

ولما رأى رستم تفوق المسلمين لم يمهلهم حتى يكملوا خطة قائدهم في المزيد من حرب المطاردة والمبارزة، بل أمر جانباً من قواته بأن تهجم هجوماً عاماً على جانب جيش المسلمين الذي فيه قبيلة بجيلة ومن لفَّ معهم، وكان الهجوم ملفتاً للنظر لأن الفرس وجهوا ما يقرب من نصف الجيش إلى قطاع لا يمثل إلا نسبة قليلة من الجيش الإسلامي، وهذا يدل على محاولتهم المستميتة لقطع حرب المبارزة والمطاردة التي فشلوا فيها.

---

(١) المرجع السابق ٥٣٧/٣.

وهكذا هجم الفرس على أحد جناحي جيش المسلمين بثلاثة عشر فيلا وكل فيل يصحبه حسب تنظيم جيشهم أربعة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان، ففرقت الفيلة بين كتائب المسلمين وكان الهجوم مركزاً على بجيلة ومن حولهم وثبت المشاة من أهل المواقع لهجوم الفرس.

وأبصرهم سعد فأرسل إلى بني أسد يقول لهم: ذبُّوا عن بجيلة ومن لافَّها من الناس، فخرج طليحة بن خويلد وحمَّال بن مالك وغالب بن عبد الله والرَّيِّل بن عمرو في كتائبهم، يقول المعروف بن سويد وشقيق: فشَدُّوا والله عليهم فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم، فأخرت وخرج إلى طليحة عظيم منهم فبارزه، فما لبَّته طليحة أن قتله.

ذكر ذلك الإمام الطبري<sup>(١)</sup> وذكر في رواية أخرى أن فارس لما رأوا ما تلقى الفيلة من كتيبة أسد رموهم بحدِّهم، وبدر المسلمين الشدَّة عليهم ذو الحاجب والجالنوس [وهما قائدان من قادة الفرس] والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد، فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة، وقد ثبتوا لهم، وقد كبرَّ سعد الرابعة، فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد.

وحملت الفيول من الميمنة والميسرة على خيول المسلمين، فكانت الخيول تحجم عنها، وتحيد، وتلح فرسانهم على المشاة ليدفعوا بالخيول لتُقدَّم على الفيلة.

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو فقال: يا معشر بني تميم أستم أصحاب الإبل والخيول؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟ قالوا: بلى والله، ثم نادى في رجال من قومه رماة، وآخرين لهم ثقافة [يعني حذق وخفة حركة] فقال لهم: يا معشر الرماة ذبُّوا ركبنا الفيلة عنهم بالنبل، وقال: يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة فقطَّعوا وُضُنُّها [يعني أحزمتها لتسقط توابيتها التي تحمل المقاتلين] وخرج يحميهم، والرَّحَى تدور على أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذنانها وذبابها [يعني ما يعلق بها] فقطَّعوا

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩.

وُضِنها وارْتَفَع عواءُ الفِيلة فما بَقِيَ لهُم يَوْمئذٍ فِيلٌ إِلا أُعْرِيَ، وَقُتِلَ أَصْحابُها، وَتَقابَلَ النَّاسُ وَنَفَسَ عَنِ أَسَدٍ، وَرَدُّوا فِارسَ عَنهُم إِلى مَواقِفِهِم فاقْتَتَلوا حَتى غَرَبَتِ الشَّمسُ، ثُمَّ حَتى ذَهَبَتِ هِداةُ مِنَ اللَّيلِ، ثُمَّ رَجَعَ هُوَلاءُ وَهُوَلاءُ، وَأُصِيبَ مِنَ أَسَدٍ تِلْكَ العِشِيَّةِ خَمسمائَةَ، وَكانوا رِداءً لِلناسِ، وَكانَ عاصِمٌ [يعني وَبني تميم] عادية النَّاسِ وَحاميتِهِم، وَهذا يَوْمُها الأَوَّلُ وَهُوَ يَوْمُ أَرْماتٍ<sup>(١)</sup>.

وَهكذا انْتَهى اليَوْمُ الأَوَّلُ بما فِيهِ مِنَ شِدادٍ وَمفاجآتٍ، وَكانت فِيهِ مَواقِفٌ تَذَكُرُ لِأبطالِ المُسلمينَ، وَمَواقِفٌ تَذَكُرُ لِقادِئِهِم.

فَمَما ذُكِرَ لِقائِدِ المُسلمينَ سَعَدَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أَنَّهُ كانَ يَقْضًا مَتَنبِهاً لِما يَجري فِي سِاحةِ المِعرِكةِ، وَأَنَّهُ كانَ يَتَصَرَّفُ فِي الوَقْتِ المُناسِبِ بما يَناسِبُ المَقامَ، وَكانَ لِمَوقِعِهِ المُشْرِفِ مِنَ القِصرِ ما يَساعِدُ عَلى رَؤْيَةِ ما يَجري بوضوحٍ، وَلِئِنَّ كانَ الَّذي أَقعدَهُ عَنِ المِشارِكةِ فِي القِتالِ هُوَ المِرضُ فَإِنِّي أَعْتَبِرُ أَنَّ هَذا المِرضُ رِحمةٌ مِنَ اللهِ تَعالَى بِذَلِكَ الجِيشِ لِيَتِمَّ إِشرافُ القائِدِ عَلِيهِ وَهُوَ يَرى كُلَّ جِزِيَّةٍ فِيهِ، وَلَقَدْ كانَ هَذا الوَضِعُ هُوَ المِفتَرَضُ حَتى لو كانَ سَعَدٌ صَحيحاً فِي مِثْلِ هَذهِ المِعرِكةِ الكَبِيرةِ وَالجِيشِ المِترامِي الأَطرافِ، فَإِنَّهُ لو قادَهُمُ مِنَ المِيدانِ لَم يَدركُ كُلَّ ما يَجري وَلفاتٍ أُمورٍ تَحْتَاجُ إِلى عِلاجٍ فوريٍّ، وَمِنَ هَذهِ الأُمورِ ما قامَ بِهِ الفِرسُ مِنَ تَوجِيهِ ثالِثةِ عَشَرَ فِيلاً بِصَحبتِها اثْنا وَخَمسونَ أَلْفَ مِقاتِلِ إِلى قَبيلَةِ بَجيلَةَ التي يَبلِغُ عَدَدُها أَلْفينَ وَمِنَ مَعها مِنَ القَبائِلِ الصَغيرةِ، فَلولا ما أَلهمَّ اللهُ بِهِ سَعَدًا مِنَ تَصَرَّفِ حَكيمٍ لِأبيدِ هَذا الجِزءِ مِنَ الجِيشِ، وَلَكِن سَعَدًا أَبْصَرَ ذَلِكَ فَأَمَرَ قَبيلَةَ أَسَدٍ بِالدِّفاعِ عَنِ بَجيلَةَ وَصدَّ الفِرسَ، وَلَقَدْ كانَ بِإِمكانِ قَبيلَةَ أَسَدٍ أَنْ تسانِدَ بِجِيلةً لَكِن لَن تَفْعَلُ ذَلِكَ بِالمِستوى الَّذي قامَتِ بِهِ لِما أَمَرها القائِدُ العامُّ.

وَما يَدلُّ عَلى مِبلِغِ تَأثيرِ أَمْرِ سَعَدِ عَلى بَنِي أَسَدٍ ما كانَ مِنَ زَعيمِهِم طَليحَةَ بَنِ خَويلدٍ فَقَد قالَ لِقَومِهِ يَوْمئذٍ: يا عَشيرَتاهِ إِِنَّ المَنوَهَ بِاسمِهِ الموثوقُ بِهِ، وَإِنَّ هَذا لو عَلِمَ أَنَّ أَحَدًا أَحَقَّ بِإِغاثةِ هُوَلاءِ مَنكُم اسْتَغاثِهِم، ابْتَدؤُوهمُ الشِدَّةَ، وَأَقدموا عَلِيهِم

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٣٩ - ٥٤٠.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٥٣٨ - ٥٣٩.



إقدام الليوث الحربة فإنما سُمِّيتم أسداً لتفعلوا فعله شدوا ولا تصدوا، وكُرُوا ولا تفروا، لله در ربيعة أي فَرِي يفرون، وأي قرن يغنون، هل يوصل إلى مواقفهم! فأغنوا عن مواقفكم أغناكم الله، شدوا عليهم باسم الله<sup>(١)</sup>.

ولقد كان لهذا الكلام مفعول عجيب في نفوس قومه حيث تحولوا إلى طاقات فعالة، وتحملوا وحدهم رحي المعركة إلى أن ساندهم بنو تميم، وقدموا في هذا اليوم خمسمائة شهيد.

ثم لما استحکم الأمر وادلهم على بني أسد، ووجه إليهم الفرس فائدهم بهم من جاذويه ومعه خمسة أفيال وعشرون ألف مقاتل، لم يتركهم سعد بل وجه إلى عاصم بن عمرو زعيم بني تميم ليثير فيه مسئولية تحمل الدفاع عن بني أسد ومحاولة تعطيل سلاح الفيلة، وكان لهذه الثقة الكبيرة التي أولاه إياها سعد أثر بالغ فيما جرى من النتائج المحمودة لأن شعور الإنسان بأنه المسئول الأول عن القضية يجعله يفكر فيها بما لا يفكر به الآخرون، ومع الاعتصام بالله تعالى أولاً والتعمق في التفكير ثانياً يتفتق الذهن عادة عن الحلول المناسبة للمشكلة، وهذا ما حصل لعاصم حيث ابتكر الطريقة السالفة الذكر لتعطيل الفيلة وقضى هو وقومه على راكبيها.

### مواقف بطولية في اليوم الأول:

لقد جرت في اليوم الأول من أيام معركة القادسية مواقف بطولية.

فمن ذلك موقف الأبطال من قبيلة بجيلة ومن معهم من النخع وكندة وغيرهم حيث رامهم الفرس بثقلهم ففرت خيلهم من الفيلة وثبت المشاة في وجه الفرس حتى ساندهم قبيلة أسد.

ثم مواقف الأبطال من قبيلة أسد فقد وجهوا ثقلهم لحرب الفيلة ومن عليها وصمدوا لها صموداً مذهلاً يدل على شجاعة عالية وإيمان قوي، ولم يثن من عزائمهم سقوط المئات من الشهداء بين أرجلهم، وإن ثبات رجال هذه القبائل

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٣٨ - ٥٣٩.

وعدم فرارهم مع هذا الوضع الهائل الذي صبّه عليهم الفرس للدليل على عظمة المسلمين الصادقين، وأنهم هم رجال المواقف حقاً.

ثم ما قام به بنو تميم بقيادة عاصم بن عمرو من التصدي للفيلة بقطع أحزمتها وإلقاء التوابيت من فوقها التي كانت مملوءة بالمقاتلين والقضاء عليهم، وإن الوصول إلى الفيلة بحد ذاته مطلب عسير، ومزلق خطير، فمع ما عرف عن الفيلة من مقدرة على القتال، وصعوبة بالغه في إصابة مقاتليها فإن كل فيل حوله أربعة آلاف مقاتل من الفرسان والمشاة، فإذا علمنا أن عدد الفيلة التي سيواجهها بنو تميم بعد انضمام بهممن جاذويه إلى الهجوم ثمانية عشر، وأن عدد المقاتلين حولها اثنان وسبعون ألفاً فإننا نعلم ضخامة المهمة التي توجه لها عاصم بن عمرو ومن انتخبهم من قومه من الرماة الذين كانت مهمتهم مشاغلة المقاتلين حول الفيلة ومن الذين اختارهم من الشجعان الحاذقين للوصول إلى مؤخرة الفيلة لتنفيذ المهمة، ولعله قام بهذه المهمة باختراق هذه المجموعات واحدة بعد الأخرى لأن مهمته التي تولاهها هي حماية المجموعة التي تتولى الهجوم على مؤخرة الفيلة وهي مهمة أصعب من مهمتهم، فلله درهم من أبطال مغاوير! ما أعظم جسارتهم! وما أبعد أثرهم!

لقد ولّت الفيلة هاربة ولها عواء، وانشغل الفرس بإصلاح توابيتها ليلة ويوماً، واستراح منها المسلمون في اليوم الثاني من أيام المعركة.

وانتهى اليوم الأول، فماذا كان عمل المسلمين في الليل؟ لقد كان من رحمة الله بهم أن توقفت المعركة ليتفرغوا لنقل شهدائهم ودفنهم، ونقل الجرحى إلى مستشفى الحرب، وأين موقع هذا المستشفى؟ إنه في «العُدَيْب» حيث تقيم نساء المجاهدين الصابرات المحتسبات، فيتلقين الجرحى ويتولين علاجهم وتمريضهم إلى أن يتم قضاء الله فيهم، ومع ذلك فإن لهن مهمة أعجب من ذلك يشترك معهن فيها الصبيان ألا وهي حفر قبور الشهداء، ولئن كان تطيب الجرحى وتمريضهم من المهمات القريبة المنال للنساء فإن حفر الأرض من المهمات الخشنة، ولكن الرجال كانوا مشغولين بالجهاد، فلتقم النساء بمهمتهم عند الضرورة، وهن أهل لذلك لما يتصفن به من الإيمان والصبر.

وتم نقل الشهداء إلى وادي مشرق بين العذيب وعين الشمس في جانبه  
جميعاً<sup>(١)</sup>.

وكان التحايز بين المسلمين وأعدائهم تلك الليلة فرصة لزيارة بعض المجاهدين  
لأهلهم في العذيب.

ومما ذكر من الأخبار في ذلك مما فيه عبرة ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن  
الشعبي قال: كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية، فقالت لبنيتها:  
إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تثوبوا<sup>(٢)</sup>، ولم تنب بكم البلاد<sup>(٣)</sup>، ولم  
تُحَمِّمكم السنَّة<sup>(٤)</sup>، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس،  
انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره، فأقبلوا يشددون، فلما غابوا عنها رفعت يديها  
إلى السماء وهي تقول: اللهم ادفع عن بني، فرجعوا إليها وقد أحسنوا القتال  
ماكلم<sup>(٥)</sup> منهم رجل كلماً<sup>(٦)</sup>.

وهكذا تكون المؤمنات، فهذه المرأة تحب بنيتها حباً ملاً جوانحها، ولكن حبها  
لبنيتها لم يحملها على منع الخير عنهم، فالخير كل الخير في أن يجاهدوا في سبيل  
الله تعالى لمصلحتهم الخاصة في رفع درجاتهم، ولمصلحة الأمة الإسلامية إذا  
أضيف إلى مجاهديها أربعة ليوث، يدافعون عن حرمتها وينشرون دين الإسلام  
في الأرض، ولكن كيف تجمع بين حبها المفرط لبنيتها وحبها الخير لهم ولأمتهم؟

إن السبيل هو ما سلكته من دفع بنيتها إلى الجهاد، والتضرع إلى الله تعالى في  
نفس الوقت بأن يدفع عن بنيتها ويردّهم إليها سالمين.

ولقد علم الله سبحانه صدق نيتها في حب الأمرين فجمعهما لها، وهو سبحانه  
القريب إلى عباده المتقين.

ويشبه خبر هذه المرأة ما جرى للخنساء مع بنيتها الأربعة في دفعهم إلى الجهاد،  
فقد زارها بنوها تلك الليلة فقوت من عزائمهم وحشتم على التعرض للبأس

(١) الطبري ٥٤٢/٣ - ٥٥٠.

(٣) يعني ولم يستثقلكم الناس.

(٥) يعني لم يجرح.

(٢) يعني فلم ترجعوا عن هجرتكم.

(٤) أي ولم يضعفكم القحط والجوع.

(٦) تاريخ الطبري ٥٤٤/٣.

الشديد من القتال، وكان مما قالت لهم: فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرت لظّي على سيقها وحلّت ناراً على أرواقها (جوانبها) فتيّموا وطيسها (وسطها) وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها (جيشها) تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة<sup>(١)</sup>.

وإنها لكلمات بليغة جمعت بين عمق المعنى ومثانة المبنى، ولا عجب في ذلك فإن الخنساء شاعرة مجيدة.

ولقد ضربت بهذا السلوك مثلاً عالياً للأمم المؤمنة، فلقد دفعت ببنيتها إلى مواطن الشهادة وهي أحوج ما تكون إليهم لكبر سنّها، ولكنها لرسوخ إيمانها تشعر بأن ما تنتظره عند الله تعالى في دار كرامته أعظم وأبقى.

وهكذا فلتكن النساء المؤمنات، فإن لم يبلغن هذا الحد من التضحية فليكنّ المرأة النخعية السالفة الذكر، التي دفعت ببنيتها إلى الجهاد وسألت الله عز وجل أن يحفظهم لها.

ولئن خلّد التاريخ ذكر هاتين المرأتين فلكنّ حوت مضارب النساء في العذيب من نساء مؤمنات مضحيات مريّيات، وإن ما قدّمته من المجاهدين الذين ملؤوا ساحات القادسية بذلاً وتضحية، وأصبحوا مثلاً عالية لمن جاء بعدهم.. إن ما قدّمته من ذلك لدليل على صدق الإيمان وسمو التربية لديهن.

ولئن سكت التاريخ عن تسطير مآثرهن ومآثر كثير من أبطال الإسلام، فإن ذلك كله مسجل في تاريخ الخلود، وسيجدونه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

### يوم أغواث:

كان يوم أغواث هو اليوم الثاني من أيام القادسية. وفي ليلة هذا اليوم قدمت طليعة جيش الشام يقودهم القعقاع بن عمرو التميمي.

---

(١) الاستيعاب ٤/ ٢٨٩.

وقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أمر أمير الشام أبا عبيدة بإعادة جيش خالد بن الوليد إلى العراق مدداً للمسلمين في القادسية، فأعادهم وأبقى خالداً عنده لحاجته إليه، وولّى على هذا الجيش هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ابن أخي سعد وكان هذا الجيش تسعة آلاف حين قدم من العراق إلى الشام بقيادة خالد وعاد منهم إلى العراق ستة آلاف، وقد ولّى هاشم بن عتبة القعقاع بن عمرو على المقدمة وعددهم ألف مجاهد، فأسرع القعقاع حتى قدم بهم على جيش القادسية صبيحة يوم أغواث، وكان أثناء قدومه قد فكر بعمل يرفع به من معنوية المسلمين فقسم جيشه إلى مائة قسم كل قسم مكوّن من عشرة، وأمرهم بأن يقدموا تباعاً كلما غاب منهم عشرة عن مدى إدراك البصر سرّحوا خلفهم عشرة، فقدم هو في العشرة الأوائل وصاروا يقدمون تباعاً كلما سرّح القعقاع بصره في الأفق فأبصر طائفة منهم كبر فكبر المسلمون ونشطوا في قتال أعدائهم، وهذه خطة حربية ناجحة لرفع معنوية المقاتلين، فإن وصول ألف لا يعني مدداً كبيراً لجيش يبلغ ثلاثين ألفاً، ولكن هذا الابتكار الذي هدى الله القعقاع إليه قد عوض نقص هذا المدد بما قوى به عزيمة المسلمين.

وقد بشرهم بقدوم الجنود بقوله: يا أيها الناس إني قد جئتكم في قوم والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حطّوتها وحاولوا أن يطيروا بها دونكم، فاصنعوا كما أصنع، فتقدم ثم نادى: من يبارز؟ فقالوا فيه بقول أبي بكر: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا، وسكنوا إليه، فخرج إليه ذو الحجاب (وهو قائد كبير من قادة الفرس وأبطالهم وهو الذي أصاب المسلمين يوم الجسر) فقال له القعقاع: من أنت؟ (وكان لا يعرفه لأن القعقاع يوم الجسر كان في الشام) فقال: أنا بهمن جاذويه.

وهنا تذكّر القعقاع مصيبة المسلمين الكبرى يوم الجسر على يد هذا القائد فأخذته حميته الإسلامية فنادى وقال: يالشارت أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر، ولا بد أن هذا القائد الفارسي على الرغم مما اشتهر به من الشجاعة قد انخلع قلبه من هذا النداء، فلقد قال أبو بكر رضي الله عنه عن القعقاع «لصوت القعقاع في الجيش

خير من ألف رجل» فكيف سيثبت له رجل واحد مهما كان في الشجاعة وثبات القلب؟ ولذلك لم يمهل القعقاع أن أوقعه أمام جنده قتيلا، فكان لقتله بهذه الصورة أثر كبير في زعزعة الفرس ورفع معنوية المسلمين لأنه كان قائداً لعشرين ألف مقاتل من الفرس.

ثم نادى القعقاع مرة أخرى: من يبارز؟ فخرج إليه رجلان، أحدهما البيروزان والآخر البندوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أخو بني تيم اللات، فبارز القعقاع بيروزان (وهو قائد مؤخرة الفرس ويتبعه أربعة وعشرون ألف مقاتل) فقتله القعقاع، وبارز ابن ظبيان بندوان وهو من أبطال الفرس فقتله ابن ظبيان.

وهكذا قضى القعقاع في أول النهار على قائدين من قادة الفرس الخمسة، ولاشك أن ذلك قد أوقع أربعة وأربعين ألف مقاتل من الفرس في الحيرة والاضطراب لفقد قائديهم إلى جانب انكسار معنوية بقية الجيش الفارسي.

والتحم الفرسان من الفريقين، وجعل القعقاع يقول: يا معاشر المسلمين بأشروهم بالسيوف فإنما يُحصَدُ الناس بها، فتواصى الناس، وأسرعوا إليهم بذلك فاجتلدوا بها حتى المساء.

وذكر الرواة أن القعقاع حمل يومئذ ثلاثين حملة، كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وجعل يرتجز ويقول:

أزعجهم عمداً بها إزعاجاً      أظعن طعنا صائباً ثجاجاً  
أرجو به من جنة أفواجاً

وكان آخر من قتل بُزْرَجَمَهْرَ الهمداني وقال في ذلك القعقاع:

حبوته جياشةً بالنفس      هدارة مثل شعاع الشمس  
في يوم أغواث فليلُ الفرس      أنخس بالقوم أشد النخس  
حتى تفيض معشري ونفسي<sup>(١)</sup>

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٢ - ٥٤٧.

وهكذا رأينا هذا البطل العظيم يطوي الأرض طياً بين الشام والعراق ليمد الجيش الإسلامي بنفسه ومن معه، فيواصل الليل مع النهار، حتى إذا وصل وشاهد ما يكابده المسلمون من قتال أعدائهم بادر إلى أشد نوع من القتال وهو المبارزة، في الوقت الذي كان بحاجة إلى أن يأخذ قسطاً من الراحة بعد سفر شاقّ طويل، ولكن أنى له أن يستريح وهو يملك قلباً كبيراً يحمل همّ الأمة الإسلامية ومستقبل الإسلام.

ولله در أبي بكر رضي الله عنه حينما اكتشف في وقت مبكر عظمة هذا الرجل ومقدرته الحربية فبعثه وحده مدداً لخالد بن الوليد في العراق وقال عنه: «لا يهزم جيش فيهم مثل هذا» وقال عنه: «لصوتُ القعقاع في الجيش خير من ألف رجل»، ولقد أثبتت الأيام صدق فراسة أبي بكر رضي الله عنه كما في هذه المعركة وما سبقها من معارك.

إن القعقاع بن عمرو وأصحابه بما قدّموا ذلك اليوم لأصدق دليل على أن الله تعالى قد أودع في الجسم الإنساني طاقة ضخمة ولكن الإنسان العادي لا يبذل إلا جزءاً من طاقته، ولا يمكن أن يوجد من يبذل طاقته الكاملة في القتال إلا المسلمون الذين صدقوا مع إسلامهم، لأنهم ينسون أنفسهم تماماً في سبيل الدفاع عن دينهم وأمتهم الإسلامية، وهؤلاء يتفاوتون في بذل الطاقة حسب قوة إيمانهم.

وهذا بطبيعة الحال لا يكفي عن التدريب البدني الطويل المتواصل، ولكن هذا التدريب متوافر لدى العرب منذ الجاهلية لكثرة ما يقوم بينهم من الحروب، وجاء الإسلام فحث المسلمين على ركوب الخيل والرمية والسباحة وغير ذلك من إعداد القوة البدنية، مع ما رسخ في قلوبهم من العقيدة الإيمانية التي تجعل هدف المسلم الأعلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، فتجردوا لله تعالى ونسوا ذواتهم في سبيله جل وعلا، فأتوا بالعجائب ودوخوا الأمم وأقاموا دولة الإسلام العظمى، لأنهم بلغوا الغاية في الأمرين: التدريب البدني، والقوة الروحية.

فأما حين يحصل الضعف والخلل في الأمرين أو أحدهما فإن الإنسان لا يبذل إلا جزءاً من طاقته ويهدر بقيتها لضعف الدوافع التي تدفعه لإبراز الطاقة المدخرة.

## بطولات أخرى في هذا اليوم:

إضافة إلى بطولات القعقاع بن عمرو التميمي المذكورة فقد برزت في هذا اليوم مواقف بطولية تستحق الذكر والثناء، فلقد جاء في تاريخ الطبري من رواية سيف ابن عمر عن شيوخه أن رجلا من الفرس خرج ينادي: من يبارز؟ فبرز له «علباء ابن جحش العجلي» فنفحه علباء فأسحره (يعني أصابه في رثته) ونفحه الآخر فأمعاه (يعني أصابه في أمعائه) وخرأ، فأما الفارسي فما من ساعته، وأما الآخر فانتشرت أمعاؤه فلم يستطع القيام، فعالج إدخالها فلم يتأت له حتى مر به رجل من المسلمين فقال: يا هذا أعني على بطني، فأدخله له، فأخذ بصفاقيه (يعني جلد بطنه) ثم زحف نحو صف فارس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعاً من مصرعه إلى صف فارس وقال:

أرجو بها من ربنا ثوابا      قد كنت ممن أحسن الضرابا<sup>(١)</sup>

فهذا الفارس الصريع يزحف إلى جيش الأعداء وهو ممسك بطنه حتى لا تخرج أمعاؤه مرة أخرى، وكأنه يعطي من نفسه نموذجاً لبذل آخر ما في الوسع والطاقة وفي قتال الأعداء، وهو في أثناء زحفه يحتسب هذه الخطوات عند الله تعالى، وهو منظر قهيب مذهل لمن شاهده من الأعداء، فإنه لم يزحف نحو المسلمين، ولو فعل لم يكن ملوماً فقد بذل ما يجب عليه وأصبح عاجزاً عن القتال، ولكنه زحف نحو الأعداء إمعاناً منه في تحديهم والنكاية بهم، وتقرباً إلى الله تعالى بتلك الخطوات، وتقوية لعزائم المسلمين الذين مازالوا بكامل قواهم، وهذا نموذج من السمو الذي كانت الأمة الإسلامية تتمتع به في عصورها الزاهرة.

ومثل آخر يبين لنا ما كان يتمتع به أولئك الأعلام من مقدرة فائقة في القتال والخروج من الأزمات، فقد روى الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه: أن رجلا من أهل فارس خرج فنادى: من يبارز؟ فبرز له «الأعراف بن الأعلم العُقيلي» فقتله، ثم برز له آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه، ونذر سلاحه عنه فأخذوه، فغبر في وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه<sup>(٢)</sup>.

(١، ٢) تاريخ الطبري ٥٤٦/٣.



فهذا البطل المقدم حينما سقط سلاحه واجتمع عليه عصابة من أهل الكفر حول  
تراب الأرض سلاحاً فصار يغبر في وجوه الأعداء وهو يتراجع إلى الوراء حتى  
لحق بأصحابه، وهذا بقدر ما يظهر أبطال المسلمين بمظهر الجمع بين الشجاعة  
النادرة والرأي الحصيف فإنه يظهر جنود الكفر بمظهر التخاذل والاشتغال بوقاية  
النفس حتى من غبارٍ نائر، وذلك يظهر الفرق الشاسع بين جنود الإسلام وجنود  
الكفر.

وكان لأبناء الخنساء الأربعة مواقف فدائية في ذلك اليوم، وسبق أن ذكرنا  
وصيتها لأولادها في ليلة ذلك اليوم، بأن يقصدوا مواطن البأس الشديد في  
القتال، فلما غدوا ذلك اليوم اندفعوا إلى القتال بحماس وقال كل واحد منهم  
شعراً حماسياً يقوي به نفسه وإخوانه فقال أولهم:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة      قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة  
مقالةً ذات بيان واضحة      فباكروا الحرب الضروس الكالحة  
وإنما تلقون عند الصائحة      من آل ساسان الكلاب النابحة  
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة      وأنتم بين حياة وحياة صالحة  
أو ميتة تُورث غنماً رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل، فحمل الثاني وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلدة      والنظر الأوفق والرأي السدّد  
قد أمرتنا بالسداد والرشد      نصيحة منها وبراً بالولد  
فباكروا الحرب حماة في العدد      إما لفوز بارد على الكبد  
أو ميتة تورثكم عزّ الأبد      في جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد، وحمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصي العجوز حرفاً      قد أمرتنا حدباً وعطفاً  
نصحا وبراً صادقاً ولطفاً      فبادروا الحرب الضروس زحفاً

حتى تُلْفُوا آل كسرى لَفًا      أو يكشفوكم عن حماكم كشفا  
إنا نرى التقصير منكم ضعفاً      والقتل فيكم نجدة وزلفى  
وقاتل حتى استشهد، وحمل الرابع وهو يقول:

لست لخنساء ولا للأخرم      ولا لعمرو ذي السناء الأقدام  
إن لم أَرِدْ في الجيش جيش الأعجم      على الهول خِصْمٌ خِصْمٌ خِصْمٌ  
إما لفوز عاجل ومغنم      أو لوفاة في السبيل الأكرم

وقاتل حتى استشهد، فبلغ الخنساء خبر بنيتها الأربعة، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته<sup>(١)</sup>.

هذه المرأة العظيمة التي بكت أخاها صخرًا ورثته بالأشعار المبكية دهرًا طويلًا في الجاهلية نجدها في الإسلام تدفع بنيتها جميعًا إلى حِمَامِ الموت، ثم تقول هذا الكلام الإيماني الرفيع بعد استشهادهم، وهذا شاهد من الشواهد الكثيرة التي تدلنا على التحول الكبير الذي طرأ على حياة الأمة الإسلامية بعدما دخلوا في الإسلام.

وفي هذا اليوم قام القعقاع بن عمرو وبنو عمه من تميم بمكيدة بالغة التأثير على الفرس، وذلك أنه لما علم بما فعلته الفيلة في اليوم الأول بخيول المسلمين قام هو وقومه - بتوفيق من الله تعالى - بتهيئة الإبل لتظهر في مظهر مخيف يُنْفِرُ الخيول فألبسوها وجللها ووضعوا لها البراقع في وجوهها، وحملوا عليها المشاة وأحاطوها بالخيول لحمايتها، وهجموا بها على خيول الفرس، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلوا بالمسلمين يوم أرمات فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا لكثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين، فلما رأى ذلك الناس استنوا بهم، فلقي الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرمات<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نجد أن المسلمين الأوائل يتفوقون على أعدائهم في الابتكار الحربي، فالفرس أنهكوا المسلمين في اليوم الأول بسبب استخدام الفيلة، ومادام المسلمون لا

(١) الاستيعاب ٢٨٩/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٥٤٥/٣ .

يملكون الفيلة فليخترعوا مما يملكون من الإبل ما يكيّدون به الأعداء فكانت هذه الحيلة الحربية الممتازة التي أخافت خيول الأعداء فنفرت بمن عليها من الفرسان، وهكذا يجب أن يكون المسلمون متفوقين في مجال الإعداد المادي بعد تفوقهم في الإعداد الروحي.

### ليلة السواد:

ما زلنا مع يوم «أغواث» وقد استمر القتال فيه إلى منتصف الليل، وسميت تلك الليلة ليلة السواد، ثم وقف القتال بعد أن تحاجز الفريقان، وكان لوقف القتال منفعة كبيرة للمسلمين، حيث كانوا ينقلون شهداءهم إلى مقر دفنهم في وادي «مُشَرَّق»، وينقلون الجرحى إلى «العُدَيْب» حيث تقوم النساء بتمريضهم.

ولقد شارك في القتال في هذه الليلة لأول مرة أبو محجن الثقفي.

قال ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه: فقالوا: ولما اشتد القتال بالسواد<sup>(١)</sup>، وكان أبو محجن قد حُبس وقيد، فهو في القصر، فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقبله، فزبره وردّه، فنزل فأتى سلمى بنت خَصْفَةَ، فقال: ياسلمى يا بنت آل خَصْفَةَ، هل لك إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلّين عني وتُعيّريني البلقاء، فلهه عليّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي، فقالت: وما أنا وذاك! فرجع يرسف في قيوده ويقول:

كَفَى حَزَنًا أَنْ تَرَدِّيَ الْحَيْلُ بِالْقَنَا<sup>(٢)</sup> وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا  
إِذَا قُمْتُ عَنَّا نِي الْحَدِيدُ وَأُغْلِقْتُ مَصَارِيْعُ دُونِي قَدْ تُصَمُّ الْمُنَادِيَا  
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةَ فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَحَا لِيَا  
وَلِلَّهِ عَهْدٌ لَا أَحْيِسُ بَعْدَهُ لَنْ فُرَجَتْ أَلَّا أَزُورَ الْحَوَانِيَا  
فَقَالَتْ سَلْمَى: إِنِّي اسْتَخَرْتُ اللَّهَ وَرَضِيْتُ بَعْدَكَ، فَأَطْلَقْتَهُ. وَقَالَتْ: أَمَّا  
الْفَرَسُ فَلَا أَعِيرُهَا، وَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِهَا، فَاقْتَادَهَا فَأَخْرَجَهَا مِنْ بَابِ الْقَصْرِ الَّذِي  
يَلِي الْخَنْدَقَ فَرَكَبَهَا، ثُمَّ دَبَّ عَلَيْهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ بِحِيَالِ الْمَيْمَنَةِ كَبْرًا، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيَّ

(١) أي ليلة السواد.

(٢) يعني الرماح.

ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصّفين، فقالوا: بسرّجها، وقال سعيد والقاسم: عُرِيًّا، ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة فكَبَّرَ وحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصّفين برمحه وسلاحه، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب فنَدَرَ أمام النَّاسِ، فحمل على القوم يلعب بين الصّفين برمحه وسلاحه، وكان يقصف الناس ليلتئذ قصفًا منكرًا، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النَّهار، فقال بعضهم: أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه، وجعل سعد يقول وهو مُشرف على النَّاسِ مُكَبِّ من فوق القصر: والله لولا مَحْبِسُ أَبِي مَحْجَنٍ لقلتُ: هذا أبو مَحْجَنٍ وهذه البلقاء! وقال بعض الناس: إن كان الخضر يشهد الحروب فنظنَّ صاحب البلقاء الخضر، وقال بعضهم: لولا أنَّ الملائكة لا تُبَاشِرُ القتال لقلنا: ملكٌ يثبِّتنا، ولا يذكره الناس ولا يابّهون له، لأنَّه بات في محبسه، فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو مَحْجَنٍ حتى دخل من حيث خرج، ووضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجله في قيديه، وقال:

لقد علمتُ تقيفٌ غيرَ فخر	بأنّا نحن أكرمهم سُيُوفًا
وأكثرهمُ دروعًا سابغات	وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفًا
وأنا وفلدهم في كل يوم	فإن عميوا فسَلَّ بهم عريفًا
وليلة قادمٍ لم يشعروا بي	ولم أشعر بمخرجي الزُّحُوفًا
فإن أحبسُ فذلكمُ بلائي	وإن أترك أذيقهم الحُتُوفًا

فقال له سلمى: يا أبا مَحْجَنٍ، في أيّ شيء حبسك هذا الرجل؟ قال: أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهليّة، وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني، يبعثه على شفّتي أحيانًا، فيساء لذلك ثنائي، ولذلك حبسني، قلت:

إذا متُّ فادفني إلى أصل كرمة	تروِّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلأة فإنني	أخاف إذا ما متُّ ألا أذوقها
وتروِّي بخمر الحُصِّ لحدّي فإنني	أسير لها من بعد ما قد أسوقها

فلما أصبحت سلمى أخبرت سعد بن أبي وقاص عن خبرها وخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه، وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، قال: لا جرم لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً<sup>(١)</sup>.

فهذا موقف يذكر لأبي محجن الثقفي في الشجاعة وحسن الطراد وسرعة الحركة في الهجوم على الأعداء، وقد شفع له جهده الكبير الذي بذله في الجهاد، ووفائه حيث عاد وأدخل رجله في القيد، فعفا عنه سعد، وأطلقه ليكمل دوره الجيد في الجهاد، وقد أفاد من هذا العفو وقابله بالحسنى حيث وعد بأن لا يستجيب للسانه في قوله ما لا يليق من الشعر.

وموقف لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدل على بصره النافذ في الحرب، فحينما رأى ذلك الفارس يتقلب بين الصفوف قال: والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، وفي رواية أنه قال: الطراد طراد أبي محجن والضبح ضبح البلقاء، وهذه نباهة عالية وإدراك حربي رفيع، مع أن سعداً لم يشاهد أبا محجن في الحروب إلا قليلاً.

وموقف آخر لسعد حينما عفا عن أبي محجن عما كان من تجاوز لسانه الذي وازن بينه وبين بلائه الكبير في الجهاد وحفظ العهد فرجح عمله الصالح ورجا من الله أن يعفو عنه بجهاده وأخلاقه.

أما نصف ليلة السواد الأخير فإن من أبرز ما جرى فيه أن القعقاع بن عمرو اغتتم الفرصة في التخطيط لخطة يرفع بها من معنوية المسلمين في يومهم القادم، فلقد أمر أتباعه بأن يتسللوا سرّاً ثم يقدموا في النهار تباعاً على فرق كل فرقة مائة مقاتل، وقال لهم: إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة، كلما توارى عنكم مائة فليتبعتها مائة، فإن جاء هاشم فذاك، وإلا جددتم للناس رجاءً وجداً.

فلما ذرّ قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيل وطلعت نواصيها كبرّ وكبر الناس وقالوا: جاء المدد.

وقد تأسى به أخوه عاصم بن عمرو فأمر قومه أن يصنعوا مثل ذلك فأقبلوا من جهة «خفّان».

(١) تاريخ الطبري ٥٤٨/٣ - ٥٥٠ .

فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة في سبعمائة من جيش الشام، فأخبروه برأي القعقاع وما صنع في يوميه، فعبى أصحابه سبعين سبعين، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع خرج هاشم في سبعين معه<sup>(١)</sup>.

وهنا نقف قليلاً لنشيد بموقف هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فلقد قبل الأخذ بالرأي الأمثل في التخطيط الحربي فصنع بتفريق جيشه كما صنع القعقاع بن عمرو، ولم يمنعه اعتبار النفس والمنصب من أن يأخذ برأي قائد من قواده، بل كان رجلاً من الرجال الذين تخرجوا في مدرسة التربية النبوية، فأصبحوا يُلغون ذواتهم ومصالحهم الخاصة في سبيل مصلحة الإسلام ومصلحة المسلمين العامة، وهذا من أهم أسباب نجاحهم في إقامة الدولة الإسلامية الكبرى، والقضاء على قوى العالم آنذاك.

أما الفرس فإنهم باتوا يعالجون توابيت الفيلة التي تحطمت في اليوم الأول، وبسبب ذلك غابت الفيلة في اليوم الثاني، فكان غيابها مع قدوم القعقاع بن عمرو وما قام به من شجاعة وابتكارات حربية سبباً في تفوق المسلمين في اليوم الثاني.

### يوم عمّاس:

أما اليوم الثالث وهو يوم «عمّاس» فقد قدّم الفرس فيه فيلتهم بتخطيط جديد تلافوا به ما كان في اليوم الأول من قطع حبالهم، فجعلوا مع كل فيل رجلاً يحمونه ومع الرجال فرساناً يحمونهم.

وظل المسلمون يقاومون الفيلة والمقاتلين من فوقها وحولها، ولقوا منها عنتاً شديداً.

ولما رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما يلاقي المسلمون منها أرسل إلى مسلمي الفرس الذين كانوا مع جيش المسلمين يسألهم عن الفيلة هل لها مقاتل؟ فقالوا: نعم المشافر والعيون لا يتنفع بها بعدها، فأرسل إلى القعقاع وعاصم بن عمرو وقال لهما: اكفياني الفيل الأبيض - وكانت كلها ألفة له وكان بإزائهما - وأرسل إلى حمّال بن مالك والربيل بن عمرو الأسديين فقال: اكفياني الفيل الأجرّب، وكانت ألفة له كلها وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رُمحيهما ودباً

(١) تاريخ الطبري ٥٥١/٣.

إليه في كتيبة من الفرسان والرجال، فقالا لمن معهما: اكتنفوه لتحيروه فأصبح الفيل ينظر يمينه ويسرة متحيراً ممن حوله ودنا القعقاع وعاصم فحملا عليه وهو متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معاً في عيني الفيل الأبيض، ونفض رأسه فطرح سائسه، ودلّ مشفره، فنفحه القعقاع بسيفه فرمى به، ووقع لجنبه فقتلوا من كان عليه.

وحمل حمّال بن مالك وقال للربيل بن عمرو: اختر إما أن تضرب المشفر وأطعن في عينه أو تطعن في عينه وأضرب مشفره، فاختر الضرب، فحمل عليه حمال وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه لا يخاف سائسه إلا على بطانه (وذلك لأن المسلمين قطعوا ذلك منها في اليوم الأول) فانفرد به أولئك فطعنه حمّال في عينه فألقى على خلفه، ثم استوى، ونفحه الربيل بن عمرو فأبان مشفره، وبصر به سائسه فضرب جبينه وأنفه بحديدة كانت معه وأفلت منها الربيل وحمال.

وصاح الفيلان صياح الخنزير، وكانت الفيلة تابعة لهما فرجعت على الفرس ورجعت معها الفيلة تطأ جيش الفرس حتى قطعت نهر العتيق وولّت نحو المدائن وهلك من كان عليها<sup>(١)</sup>.

وهكذا أنقذ الله المسلمين بهؤلاء الأربعة الأبطال ومن كان معهم من المساعدين لهم، وردّ الله كيد الفرس للمرة الثانية، وأبطل مفعول سلاحهم الأكبر، سلاح الفيلة، هذه المخلوقات العظيمة التي هي أشبه ما تكون بالجبال المتحركة.

ولاشك أن الفضل - بعد الله تعالى - يعود إلى قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث أبصر البلاء الذي وقع على المسلمين من الفيلة فسأل مسلمي الفرس عن مقاتلتها، كما أنه أدرك ببصره الحادّ وبصيرته النافذة أن جميع الفيلة تتبع اثنين منها، فكلّف أربعة من أبطال المسلمين بالقضاء عليهما، وتم ما أراد فكانت الفيلة وبالاً على الفرس بعدما كانت سلاحاً فتاكاً في أيديهم.

ولما خلا الميدان من الفيلة زحف الناس بعضهم على بعض واشتد القتال بينهم، وكان لدى الفرس جيش احتياطي من أهل النجدات والبأس، فكلما وقع خلل في جيشهم، أبلغوا «يزدجرد» فأرسل لهم من هؤلاء.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٢ - ٥٥٦ .

قال الرواة: فلولا الذي صنع الله للمسلمين بالذي ألهم القعقاع في اليومين وأتاح لهم بهاشم<sup>(١)</sup> كسر ذلك المسلمين، وقد انتهى ذلك اليوم والمسلمون وأعداؤهم على السواء<sup>(٢)</sup>.

### بطولات أخرى جرت في هذا اليوم:

وجرت في هذا اليوم بطولات ومغامرات، فمن ذلك ما ذكره الطبري بإسناده عن الشعبي قال: قال عمرو بن معد يكرب: إني حامل على الفيل ومن حوله - لفيل بإزائهم - فلا تدعوني أكثر من جزر جزور [يعني نحر الناقة] فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثور، فأني لكم مثل أبي ثور! فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف، فحمل فما انثنى حتى ضرب فيهم، وستره الغبار، فقال أصحابه: ما تنتظرون؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه، وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم، فحملوا حملة فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه، وإن سيفه لفي يده يضاربهم وقد طعن فرسه، فلما رأى أصحابه وانفرج عنه أهل فارس أخذ برجل فارس رجل من أهل فارس، فحركه الفارسي فاضطرب الفرس فالتفت الفارسي إلى عمرو، فهم به وأبصره المسلمون، فغشوه، فنزل عنه الفارسي، وحاضر (يعني أسرع) إلى أصحابه، فقال عمرو: أمكنوني من لجامه، فأمكنوه منه فركبه<sup>(٣)</sup>.

وهذا نموذج رفيع من نماذج الشجاعة والثبات حيث ظل يقاوم مجموعة من الأعداء حتى بعدما فقد فرسه وأصيب في بدنه.

ومن البطولات التي جرت من المسلمين في اليوم الثالث من أيام القادسية ما رواه الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما كان يوم «عمّاس» خرج رجل من العجم حتى إذا كان بين الصفيين هدر وشقشق ونادى: من يبارز؟ فخرج رجل منا يقال له شبر بن علقمة - وكان قصيراً قليلاً دميماً - فقال: يا معشر المسلمين قد أنصفكم الرجل، فلم يجبه أحد ولم يخرج إليه أحد فقال: أما والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه، فلما رأى أنه لا يمنع أخذ سيفه وحجفته (يعني ترسه) وتقدم، فلما رآه الفارسي هدر، ثم نزل إليه فاحتمله فجلس على صدره، ثم أخذ سيفه ليذبحه، ومقود فرسه مشدود بمنطقته، فلما استل

(٢) تاريخ الطبري ٥٥٢/٣.

(١) يعني بوصول هاشم بن عتبة وجيشه.

(٣) المرجع السابق ٥٥٤/٣.



السيف حاص الفرس حيصة فجذبه المقود فقلبه عنه، فأقبل عليه وهو يسحب فافترشه، فجعل أصحابه يصيحون به، فقال: صيحوا ما بدا لكم، فوالله لا أفارقه حتى أقتله وأسلمه، فذبحه وسلبه<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا هذا الرجل المؤمن الذي تضاءلت فيه عناصر الكفاءة الحربية المادية فهو قصير ضعيف الجسم، ومن كانت هذه حاله لا يدخل مجالات الحرب الشاقة كالمبارزة حيث تتطلب هذه المجالات أجساماً قوية طويلة، ولكنه لما رأى خلو ذلك المكان من أبطال المسلمين دفعه إيمانه إلى التصدي لذلك المبارز الفارسي مع معرفته سلفاً بنقص كفاءته في هذا الميدان، ولكن عزَّ عليه أن يتبختر ذلك الفارسي بين الصنفين ولا يبرز له أحد، وفي ذلك تقوية لموقف الأعداء وتوهين لموقف المسلمين، فبرز له ثقة بالله تعالى وتوكلاً عليه، وحمل معه ما يستطيعه من الأسباب المادية، وفوض ما ينقص منها لمولاه جل وعلا، فنصره تعالى بجنود لا يراهم وإن كان يؤمن بهم، فنفرت الفرس بأمر الله تعالى وسحبت صاحبها إلى حتفه المنتظر، وكان في ذلك إنقاذ لهذا المؤمن وتمكين له ليقضي على عدوه.

وهكذا فإن الله تعالى دائماً مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه، فإن هذا الخبر فيه أبلغ الدلالة على ذلك، ولا يخطر بالبال أن هذا الأمر جرى بشكل طبيعي وأسباب لا علاقة لها بنصر الله تعالى لأوليائه، فإنه لو كان هذا الأمر معتاداً ويجري في حياة الناس لأعدَّ ذلك الفارسي للأمر عدته ولم يفرط في أمر يكون سبباً في هلاكه.

واستمر القتال في اليوم الثالث إلى الليل، ثم حجز بينهم صوت طليحة بن خويلد الأسدي، وكان قد التف من وراء جيش الفرس، ففزع لذلك الفرس وتعجب المسلمون، فكف بعضهم عن بعض للنظر في ذلك، وكان سعد رضي الله عنه قد بعثه مع أناس لحراسة مكان يحتمل منه الخطر على المسلمين، فتجاوز مهمته، ودار من خلف الفرس وكبر ثلاث تكبيرات<sup>(٢)</sup>.

ولقد أفادت حركته هذه حيث توقفت الحرب وكان هناك فرصة لإعادة الصفوف والاستعداد لقتال الليل.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٤.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٨ - ٥٥٩.

## ليلة الهرير:

بدأ القتال ليلة اليوم الرابع: وقد بدأ المسلمون على عاداتهم بالمطاردة، وانبعث لذلك أبطال المسلمين من أمثال القعقاع وعاصم بن عمرو، ومسعود بن مالك الأسدي وابن ذي البردّين الهلالي وقيس بن هبيرة الأسدي، ولكن الفرس في هذه الليلة قد غيروا طريقتهم في القتال، فقد أدرك رستم أن جيشه لا يصل إلى مستوى فرسان المسلمين في المطاردة ولا يقاربهم، فعزم على أن يكون القتال زحفاً بجميع الجيش حتى يتفادى الانتكاسات السابقة التي سببت تحطيم معنوية جيشه، فلم يخرج أحد من الفرس، وإنما قدموا جيشهم وجعلوه ثلاثة عشر صفّاً في القلب والمجنبتين.

وبدأ القعقاع بن عمرو القتال وتبعه أهل النجدة والشجاعة قبل أن يكبر سعد، فسمح لهم بذلك واستغفر لهم، فلما كبر ثلاثاً زحف القادة وسائر الجيش، وكانوا ثلاثة صفوف، صفّاً فيه الرماة و صفّاً فيه الفرسان و صفّاً فيه المشاة.

وكان القتال في تلك الليلة عنيفاً، وقد اجتلدوا من أول الليل حتى الصباح لا ينطقون، كلامهم الهرير، فسميت ليلة الهرير.

وقد أوصى المسلمون بعضهم بعضاً على بذل الجهد في القتال لما يتوقعونه من عنف الصراع، ومما روي من الأقوال في ذلك ما ذكر الإمام الطبري عن دريد بن كعب النخعي أنه قال لقومه: إن المسلمين تهيؤوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه، نافسوهم في الشهادة وطيبوا بالموت نفساً، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلا فالآخرة ما أردتم.

وقال الأشعث بن قيس: يا معشر العرب إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجراً على الموت ولا أسخى أنفساً عن الدنيا، تنافسوا الأزواج والأولاد، ولا تجزعوا من القتل فإنه أمانى الكرام ومنايا الشهداء.

وكان بإزاء قبيلة «جُعْفَى» ليلة الهرير كتيبة من كتائب العجم عليهم السلاح التام، فازدلفوا لهم فجالدوهم بالسيوف، فرأوا أن السيوف لا تعمل في الحديد

فارتدعوا، فقال حميضة بن النعمان البارقي: ما لكم؟ قالوا: لا يجوز فيهم السلاح، قال: كما أنتم حتى أريكم، انظروا، فحمل على رجل منهم فاستدار من خلفه فدق ظهره بالرمح، ثم التفت إلى أصحابه فقال: ما أراهم إلا يموتون دونكم، فحملوا عليهم فأزالوهم إلى صنفهم.

وكان بإزاء قبيلة كندة تُرك الطبري [أحد قادة الفرس] فقال الأشعث بن قيس الكندي: يا قوم ازحفوا لهم، فزحف لهم في سبعمائة فأزالهم وقتل قائدهم. وكان القتال في تلك الليلة شديداً متواصلًا، وقام زعماء القبائل يحثون قبائلهم على الثبات والصبر.

ومما يبين عنف القتال في تلك الليلة ما أخرجه الإمام الطبري عن أنس بن الحليس قال: شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم حتى الصباح، أفرغ عليهم الصبر إفراغًا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد، وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصبح انتمى الناس - يعني المسلمين - فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي الأعور بن بنان المنقري قال: أول شيء سمعه سعد ليلتئذ مما يستدل به على الفتح في نصف الليل الباقي صوت القعقاع ابن عمرو هو يقول:

نحن قتلنا معشرًا وزائداً      أربعة وخمسة وواحدًا  
نحسب فوق اللبّد الأسود<sup>(٢)</sup>      حتى إذا ماتوا دعوت جاهداً

الله ربي واحترزت عامداً<sup>(٣)</sup>

وهكذا بات سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدعو الله تعالى تلك الليلة

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٩ - ٥٦٣.

(٢) اللبّد سرج الفرس، والأساود الحيات، يعني كنا نظن أن فوق خيول الفرس رجالاً شجعانًا.

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٢.

ويستنزل نصره، ومما ينبغي الإشارة إليه أن سعداً كان مستجاب الدعوة، روى ابن الأثير بإسناده عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» وكان لا يدعو إلا استجيب له، وكان الناس يعلمون ذلك منه ويخافون دعاءه<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن دعاء سعد وأمثاله أمضى في الأعداء من السيوف القواطع، والسهام المسددة، وقاتل المسلمون أعداءهم تلك الليلة حتى الصباح.

### يوم القادسية:

أصبح المسلمون في اليوم الرابع وهم يقاتلون، فسار القعقاع بن عمرو في الناس فقال: إن الدبّرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر، فآثروا الصبر على الجزع، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء، وصدّوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح.

ولما رأت ذلك القبائل قام فيها رجال، فقام قيس بن عبد يغوث والأشعث بن قيس، وعمرو بن معد يكرب وابن ذي السهمين الخثعمي وابن ذي البردين الهلالي، فقالوا: لا يكونن هؤلاء [يعني السابقين] أجداً في أمر الله منكم، ولا يكونن هؤلاء [يعني أهل فارس] أجراً على الموت منكم، ولا أسخى أنفُساً عن الدنيا.

وقام في ربيعة رجال فقالوا: أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجراً مما كنتم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يضيف القعقاع بن عمرو مآثرة جديدة من مآثره الكثيرة، فقد جمع الله له بين الشجاعة النادرة، والرأي السديد وقوة الإيمان، فسخر ذلك كله لنصرة الإسلام والمسلمين، وكان قدومه في هذه المعركة فتحاً للمسلمين.

لقد أدرك القعقاع أن الأعداء قد نفذ صبرهم بعد قتال استمر يوماً وليلة دون انقطاع، وقبل ذلك لمدة يومين مع راحة قليلة، وعرف بثاقب فكره وطول تجربته

(١) أسد الغابة ٢/٢٩١.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٥٦٣.

- بعد ملاحظة التوجيهات الإلهية - أن عاقبة المعركة مع من صبر بعد هذا الإجهاد الطويل .

ولا شك أن الأعداء يدركون شيئاً من ذلك بحكم خبرتهم الطويلة في الحروب الكبيرة، ولكنهم لا يملكون الطاقة التي يملكها المسلمون لما تقدم بيانه من المزايا القتالية التي لا تتوافر في غير المسلمين .

وقد استجاب له جماعة من القادة الأبطال ثم تتابع على ذلك سائر القادة وأفراد الجيش، واستطاع القعقاع ومن معه من الأبطال أن يفتحوا ثغرة عميقة في قلب الجيش الفارسي حتى وصلوا قريباً من رستم مع الظهيرة، وهنا تنزل نصر الله تعالى، وأمد أوليائه بجنود من عنده فهبت ريح عاصف وهي الدبور، فاقتلعت طيارة رستم عن سريره، وألقتها في نهر العتيق، ومال الغبار على الفرس فعاقهم عن الدفاع .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على أوليائه في اللحظات الحاسمة بعد أن يبذل المسلمون كل ما في وسعهم من طاقة وقوة، وإن اقتلاع سقف السرير الضخم الذي قد صنع ورُكّب بإحكام شديد ليدلنا على أن تلك الريح لم تكن عادية وإنما كانت موجهة من الله تعالى لإنهاء المعركة لصالح المسلمين، فالفرس أمة محاربة منذ عشرات السنين وهم يدركون تأثير عوامل الجو، وقد أعدوا لهذه المعركة ما لم يعدوه لغيرها، ولا شك أنهم قد حصنوا ذلك المكان الذي يشرف منه رستم على قيادة المعركة بحيث لا تصل إليه الأيدي ولا السهام ولا عوامل الجو المعتادة، ولكن الله تعالى فوق تديبرهم وفوق كل شيء وهو جل وعلا مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه، وقد صدق معه أولئك المؤمنون فسخر لهم الريح العاصف لتقلب موازين المعركة، فأتى الله تعالى أعداء دينه من حيث لم يحتسبوا .

وتقدم القعقاع ومن معه حتى عثروا بسرير رستم وهم لا يرونه من الغبار، وكان رستم قد تركه واستظل ببغل من البغال المحملة، وضرب هلال بن علفة<sup>(١)</sup> أحد عدلى البغل فوق رستم وهو لا يشعر به فأزال من ظهره فقاراً، وهرب

(١) هو من تيم الرباب .

رستم نحو نهر العتيق لينجو بنفسه ولكن هلالاً أدركه فأمسك برجله وسحبه ثم قتله، وصعد السرير ثم نادى: قتلت رستم ورب الكعبة، إليّ، فأطافوا به وما يرون السرير وكبروا وتنادوا، وانهزم قلب الفرس.

أما بقية قادة المسلمين فإنهم تقدموا أيضاً فيمن يقابلهم وتقهقر الفرس أمامهم، ولما علم الجالوس بمقتل رستم قام على الردم المقام على النهر ونادى أهل فارس إلى العبور فراراً من القتل فعبروا، أما المقترنون بالسلاسل وعددهم ثلاثون ألفاً فإنهم تهافتوا في نهر العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم، فما أفلت منهم أحد<sup>(١)</sup>.

وهكذا تحطمت معنوية الفرس ولاذوا بالفرار لما قُتل قائدهم، واعتبروا أن المعركة انتهت لغير صالحهم بينما كانوا ثابتين في الأيام الثلاثة الأولى، حتى بعد هزيمة الفيلة وفرارها، وقد كانوا يعتمدون عليها في حروبهم الكبيرة.

أما المسلمون فإن معنويتهم لا تتحطم بقتل قادتهم ولا يلجؤون إلى الفرار بل يثبتون أمام الأعداء، وقد يختارون قائداً لهم من أبطالهم كما في غزوة مؤتة لما استشهد قادتهم الثلاثة.

وهذا يدل على أن هناك فرقاً جوهرياً بين جيش المسلمين وجيش الكفار، فالمسلمون لا يقاتلون من أجل البشر، وإن كانوا قادتهم وزعماءهم، وإنما يقاتلون من أجل رب البشر جل وعلا، وهذا من لوازم فهمهم الصحيح لمعنى كلمة التوحيد، وتطبيقهم مقتضاها.

فكل واحد منهم يبذل طاقته حرصاً منه على أن لا يؤتى المسلمون من قبله، وليس للقائد مزية إلا بالتنظيم وتوجيه المعركة، ويبقى كل فرد في الجيش الإسلامي له حرية التصرف في النكاية بالأعداء من غير تهور ينقلب إساءة إلى المسلمين، بينما تحوّل عبادة العباد عند الكفار دون بذل الطاقة وحسن التصرف عند فقد القيادة أو بعدها عن مكان المعركة، ولذلك نرى نجاح المسلمين في هذه المعركة وغيرها مع بُعد المسافة بينهم وبين القائد الأعلى في المدينة المنورة لعدم حاجتهم إليه في كل التفاصيل، بينما يحتاج أعداؤهم إلى اتصالات متكررة لمعرفة رأي من يعملون لهم.

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٦٣ - ٥٦٤.

## نهاية المعركة:

تبين لنا أن المعركة انتهت بتوفيق الله تعالى، ثم بجهود أبطال المسلمين وحكمة قادتهم، وكانت معركة عنيفة قاسية ثبت فيها الأعداء للمسلمين ثلاثة أيام حتى هزمهم الله في اليوم الرابع، بينما كان المسلمون يهزمون أعداءهم غالباً في يوم واحد، وكان من أسباب هذا الثبات أن الفرس كانوا يعتبرون هذه المعركة معركة مصير، فإما أن تبقى دولتهم مع الانتصار، وإما أن تزول دولتهم مع الهزيمة ولا تقوم لهم قائمة، كما أن من أسباب ثباتهم وجود أكبر قادتهم «رستم» على رأس القيادة، وهو قائد له تاريخ حافل بالانتصارات على أعدائهم، إضافة إلى تفوق الفرس في العدد والعدد، حيث كان عدد الفرس عشرين ومائة ألف من المقاتلين من غير الأتباع، مع من كانوا يبعثهم يزدجرد مدداً كل يوم، بينما كان عدد المسلمين بضعة وثلاثين ألفاً، كما ذكر الإمام الطبري<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك كله انتصر المسلمون عليهم بعد أن قدموا خمسمائة وثمانية آلاف من الشهداء<sup>(٢)</sup>.

وهذا العدد من الشهداء هو أكبر عدد قدمه المسلمون في معاركهم في الفتوح الإسلامية الأولى، وكونهم قدموا هذا العدد من الشهداء دليل على عنف المعركة وعلى استبسال المسلمين وتعرضهم للشهادة رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين.

وأمر سعد رضي الله عنه بمطاردة فلول المنهزمين، فوكل القعقاع بن عمرو وشرحبيل بن السمط الكندي بمطاردة المنهزمين يميناً وشمالاً دون نهر العتيق، وأمر زهرة بن الحوية بمطاردة الذين عبروا النهر مع قادتهم، وكان الفرس قد بثقوا النهر في الردم حتى لا يستطيع المسلمون متابعتهم، فاستطاع زهرة وثلثمائة فارس أن يتجاوزوا بخيولهم وأمر من لم يستطع بموافاتهم من طريق القنطرة، وكان أبعاد قليلاً، ثم أدركوا القوم، وكان الجالينوس وهو أحد قادتهم الكبار يسير في ساقية القوم يحميهم، فأدركه زهرة فنازله فاختلفا ضربتين فقتله زهرة وأخذ سلبه، وطاردوا الفرس وقتلوا منهم، ثم أمسوا في القادسية مع المسلمين<sup>(٣)</sup>.

(٢) تاريخ الطبري ٥٦٤.

(١) تاريخ الطبري ٤٨٦/٣ - ٥٣٥.

(٣) تاريخ الطبري ٥٦٥/٣ - ٥٦٦.

وفي ذلك اليوم حدث أمر عجيب يدل على مقدار اهتمام المسلمين الأوائل بأمر دينهم وما يُقربهم إلى الله تعالى، فقد قُتل مؤذن المسلمين في ذلك اليوم وحضر وقت الصلاة، فتنافس المسلمون على الأذان حتى كادوا أن يقتتلوا بالسيوف، فأفرغ بينهم سعد، فخرج سهم رجل فأذن<sup>(١)</sup>.

وإن التنافس على هذا العمل الصالح ليدل على قوة الإيمان، فإن الأذان ليس من ورائه مكاسب دنيوية ولا جاه وشهرة، وإنما دفعهم إلى التنافس عليه تذكر ما أعدّه الله تعالى للمؤذنين يوم القيامة من أجر عظيم، وإن قومًا تنافسوا على الأذان سيتنافسون بطريق الأولى على ما هو أعظم من ذلك، وهذا من أسرار نجاحهم في الجهاد في سبيل الله تعالى والدعوة إلى الإسلام.

### كتاب من سعد إلى عمر:

وكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما يخبره بالفتح مع سعد بن عُميلة الفزاري وجاء في كتابه: أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كانوا قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائها [يعني مقدارها] فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يدؤون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل دويّ النحل، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم<sup>(٢)</sup>.

وإننا حينما نتأمل هذا الكتاب نجد أنه قد تحلى بتوحيد الله تعالى وتعظيمه والبراءة من حول النفوس وقوتها، فالنصر على الأعداء إنما هو من الله تعالى وحده وليس بقوة المسلمين، بالرغم مما بذلوه من الجهاد المضني والتضحية العالية.

وقوة الأعداء الضخمة، ليس بقاؤها أو سلبها للبشر، بل ذلك كله لله تعالى، فهو الذي حرّم الأعداء من الانتفاع بقوتهم، وهو الذي منحها للمسلمين، وإنما

(١) تاريخ الطبري ٥٦٦/٣.

(٢) تاريخ الطبري ٥٨٣/٣.



البشر مجرد وسائط يُجري الله النفع والضرر على أيديهم، وهو وحده الذي يستطيع دفع الضرر وجلب المنفعة سبحانه وتعالى، وهكذا يكون الموحدون، وهم الذين يستحقون النصر من الله جل وعلا.

ونجد سعداً يصف الصحابة رضي الله عنهم ومن معهم من التابعين بالتفوق في العبادة والشجاعة، فهم عبّاد في الليل لهم أصوات مدويّة بالقرآن كأصوات النحل لا تكلُّ ولا تمَل، وفرسان في النهار لا تصل الأسود الضارية إلى مستواهم في الإقدام والثبات.

وحسبنا هذه الشهادة في بيان فضل من حضر تلك المعركة، من استشهد ومن بقي، وهم بضعة وثلاثون ألفاً، لأنها شهادة صادرة من رجل شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ودعا له وأثنى عليه كثيراً.

أما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد زاد هممه لما نزل رستم بالقادسية خوفاً على المسلمين، جاء في تاريخ الطبري من طريق سيف بن عمر عن مجالد بن سعيد قال: لما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله ومنزله قال: فلما لقي البشير سأله من أين؟ فأخبره، قال: يا عبد الله حدثني قال: هزم الله العدو، وعمر يخبُّ معه - يعني يسرع - ويستخبره، والآخر على ناقته ولا يعرفه، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال: فهلاً أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين! وجعل عمر يقول: لا عليك يا أخي<sup>(١)</sup>.

وإن لنا أمام هذا النص وقفيتين: الأولى أمام هذا الاهتمام الكبير من عمر رضي الله عنه الذي دفعه إلى أن يخرج إلى البرية كل يوم لعله يجد الركبان القادمين من العراق فيسألهم عن خبر المسلمين مع أعدائهم، وقد كان بإمكانه أن يوكّل بهذه المهمة غيره ممن يأتيه بالخبر ولكن الهمم الكبير الذي كان يحمله للمسلمين لا يتيح له أن يفعل ذلك، وهذا منتهى الرحمة والشعور بالمسئولية.

والوقفة الثانية أمام هذا التواضع الجم من عمر رضي الله عنه، فقد ظل يسير

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٨٣.

ماشياً مع الراكب، ويطلب منه خبر المعركة، وذلك الرسول لا يريد أن يخبره بالتفاصيل حتى يصل إلى أمير المؤمنين، ولا يدري أنه الذي يخاطبه ويعدو معه، حتى عرف ذلك من الناس في المدينة.

وهذه أخلاق عالية يحق للمسلمين أن يفاخروا بها العالم في تاريخهم الطويل، وأن يستدلوا بها على عظمة هذا الدين الذي أنجب رجالاً مثل عمر في عدله ورحمته وحزمه وتواضعه.

### خطبة لعمر بعد الفتح:

ولما أتى عمر رضي الله عنه خبر الفتح قام في الناس فقراً عليهم الفتح وقال: إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سدتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك منّا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولست معلّمكم إلا بالعمل، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم، وإنما أنا عبد الله عَرَضَ عليّ الأمانة، فإن أبيتها [يعني أعففت نفسي من أموال الرعية] ورددتها عليكم واتّبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت، ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً، وبقيت لا أقال ولا أردُّ فأستعَبُ<sup>(١)</sup>.

وهذه الخطبة تعتبر من النماذج العالية للحاكم العادل والمؤمن الورع، فقد ذكر عمر رضي الله عنه في هذه الخطبة أنه عبد من عباد الله تعالى لا يزيد عن رعيته بشيء إلا أنه تحمّل هذه الأمانة العظيمة.

فهو ليس بملك مستبدّ يستعبد الناس ويستذلهم، ومعنى استعباد الناس أن يحاول الهيمنة على أفكارهم ومشاعرهم، فيجعلهم يفكرون كما يفكر، يحبون ما يحب ويبغضون ما يبغض من غير نظر إلى الحق والباطل، فهذه هي الطاغوتية التي تزعمها فرعون حينما قال لقومه فيما حكاه الله تعالى عنه ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٤.

أما الحاكم المسلم فإنه يفكر كما يريد الله تعالى ويأمر رعيته بأن يسخروا أفكارهم وسلوكهم لبلوغ مراد الله سبحانه .

ثم ذكر المسئولية العظمى في تصريف أموال الدولة، وأنه لو أثر نفسه بشيء من هذه الأموال فإنه قد يعيش بشيء من السعادة المؤقتة، ولكن يعقب ذلك الحزن الطويل، في حياة أبدية لا ينفع فيها الندم، ولا يُقال فيها المذنب إذا طلب الإقالة، ولا يُردُّ لحياة العمل فيحسن من سيرته وسلوكه .

أما إن أعف نفسه عن أموال الرعية، وأسهر ليله في تفقد أحوالهم واجتهد في العدل بينهم حتى يراهم سعداء، فإنه يسعد في آخره برضوان الله تعالى والدرجات العُلى في الجنة، ويعيش في دنياه بسعادة نفسية على أمل حظوته بالسعادة الأخروية .

#### كتاب من سعد إلى عمر ومن عمر إلى سعد:

هذا وقد كتب سعد إلى أمير المؤمنين رضي الله عنهما كتاباً آخر، يطلب فيه أمره في أهل الذمة من عرب العراق الذين نقضوا عهدهم في حال ضعف المسلمين فقام عمر رضي الله عنه في الناس فقال: إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه، ومن يتبع السنة وينته إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه، وذلك بأن الله عز وجل يقول ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] .

وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يليهم، وجلا أهله، وأتاهم من أقام على عهدهم، فما رأيكم فيمن زعم أنه استكره وحشر وفيمن لم يدع ذلك ولم يقم وجلا، وفيمن أقام ولم يدع شيئاً ولم يجل، وفيمن استسلم؟ فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزد غلبه إلا خيراً، وأن من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم، وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم، وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شأؤوا وادعواهم وكانوا لهم ذمة، وإن شأؤوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال، وأن يُخبروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاحين<sup>(١)</sup> .

(١) تاريخ الطبري ٥٨٥/٣ .

هذا وإن لنا أمام هذه الخطبة وقفتين: الأولى عند تطبيق عمر رضي الله عنه مبدأ الشورى حيث كان يستشير أهل الرأي في كل أموره المهمة بالرغم مما عرف عنه من غزارة العلم وسداد الرأي، وإن هذا السلوك الرفيع كان من أسباب نجاحه الكبير في سياسة الأمة.

الثانية: الاستفادة من هذه المقدمة التي قدمها عمر رضي الله عنه بين يدي استشارته حيث ذكّر الصحابة رضي الله عنهم بلزوم التجرد من الهوى وإخلاص النية لله عز وجل، والاستقامة على المنهج القويم الذي سنه رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك عصم من الزلل في الحكم وأصاب الحق وظفر بثواب الله تعالى.

وقد لخص عمر رضي الله عنه هذه المشورة بخطاب وجهه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جاء فيه: أما بعد فإن الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة والذكر، فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة، ولم يرض منه إلا بالكثير، وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدة ولا رخاء، والعدل - وإن رُئيَ لِينًا - فهو أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور، وإن رُئيَ شديدًا فهو أنكش للكفر، فمن تم على عهده من أهل السواد - يعني عرب العراق - ولم يُعنْ عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية، وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بذلك إلا أن تشاؤوا، وإن لم تشاؤوا فانبذوا إليهم، وأبلغوهم مأمئهم<sup>(١)</sup>.

ونجد أن عمر رضي الله عنه قبل أن يوجه الجيش الإسلامي إلى ما يجب عمله تجاه أهل العهد يتحفهم بشيء مما علّمه الله حيث بين لهم أن الله عز وجل قد يسر على عباده شريعته، فجعل فيها رخصاً يعلمها أهل العلم والاجتهاد، ومن ذلك الاجتهاد في معاملة الكفار بما يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين، واستثنى من ذلك أمرين: العدل في السيرة والذكر، فالعدل في الحكم لا رخصة فيه وإن كان ذلك مع الكفار، لأن العدل في الحكم هو الدعامة الكبرى لبقاء حكم الإسلام وسيادته

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٥.

وانتشار الأمن والرخاء في بلاد المسلمين، هذا في الدنيا وأما في الآخرة فلا مفر من العقاب للظالمين، لأن حقوق الله تعالى قد يغفرها لعبده ويتجاوز عنه، أما حقوق الناس فإن الله تعالى يوقف الظالمين والمظلومين يوم القيامة فيقتصن لبعضهم من بعض.

وأما ذكر الله تعالى فلا بد أن يسود حياة المسلم في قلبه ولسانه وجوارحه، فيكون تفكيره خالصاً لله تعالى، ومنطقه فيما يرضيه وعمله من أجله، ويكون همه الأكبر إقامة ذكر الله جل وعلا في الأرض قولاً وعملاً واعتقاداً، فإذا كان كذلك عصمه الله سبحانه من فتنة الشبهات والشهوات.

وقد أخذ سعد ومن معه من المسلمين بتوجيهات أمير المؤمنين فعرضوا على من حولهم ممن جلا عن بلاده أن يرجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية.

وهكذا نجد أمامنا نموذجاً من نماذج الرحمة وتأليف القلوب فهؤلاء الذين نقضوا العهد قد كلفوا المسلمين حروباً دامت سنة كاملة بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، فلما آنسوا من المسلمين قلة واجتمع شمل الفرس نقضوا عهدهم مع المسلمين وأظهروا ولاءهم للفرس، ومع ذلك عفا عنهم المسلمون لما انتصروا على الفرس، وجاء بعض هؤلاء مستسلمين للمسلمين، وبعضهم ظل بعيداً ينتظر ما يفعله المسلمون بالتقريين منهم.

وهذه المعاملة الكريمة حبيبت المسلمين والإسلام لهؤلاء الناكثين فدخلوا بعد ذلك على فترات في الإسلام وأصبحوا من جنوده الأقوياء.

### تاريخ المعركة:

وقبل أن نتقل إلى مواقف ما بعد القادسية نشير إلى تاريخ وقوع هذه المعركة الكبرى التي كانت فاصلة بين المسلمين والفرس، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها، وللأستاذ أحمد عادل كمال تحقيق جيد في ذلك توصل فيه إلى أنها في شهر شعبان من العام الخامس عشر للهجرة<sup>(١)</sup>، وهذا القول هو الذي تؤيده أحداث العراق والشام آنذاك.

(١) القادسية/ ٢٢٦.

وعلى هذا فإنها تكون هي ومعركة اليرموك في عام واحد، وقد سبقتها اليرموك حيث إن جيش العراق الذي سبق توجيهه إلى الشام مع خالد رضي الله عنه عاد إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبة بتوجيه من أبي عبيدة بن الجراح وبناء على أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم بعد أن شهدوا اليرموك فشهدوا القادسية .

فهل كان اتفاق المعركتين الكبيرين في عام واحد وفي وقت متقارب مقصوداً للأعداء ليربكوا المسلمين ويحاولوا القضاء عليهم؟

الواقع أن التخطيط لمعركة القادسية كان قبل ذلك بعام وشهور سواء من قبل الفرس أو من قبل المسلمين، وذلك لأن الفرس اجتمع أمرهم على ملكهم «يزدجرد» بعد فرقة ونزاع فعزموا على بعث جيش كبير لغزو المسلمين، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وقادته أدركوا ذلك فأعدوا للمعركة الحاسمة من بداية العام الرابع عشر وصارت الإمدادات تُبعث من دار الخلافة في هذا العام وبداية العام الخامس عشر إلى العراق .

واكتفى الخليفة بما في الشام من الجند نظراً لأن المسلمين هناك قد تغلبوا على الروم في معاركهم الأولى واستولوا على أكثر مدنهم الكبرى مثل دمشق وحمص، ولكن الروم فاجئوا المسلمين بجموع لم يحسبوا لها حساباً ووجهوها بسرعة كبيرة كما تقدم، والظاهر أنهم اغتتموا فرصة انشغال أمير المؤمنين بالإعداد للمعركة الفاصلة مع الفرس فوجهوا حشودهم الضخمة للقضاء على المسلمين في الشام حيث كانوا يعرفون أن إمدادهم من دار الخلافة أقرب إلى المستحيل، ولكن الله سلّم فانتصر المسلمون عليهم في اليرموك انتصاراً حاسماً .

لقد تعرضت الأمة الإسلامية الناشئة لغزو منظم من دولتين تمتلكان العالم آنذاك، وكل دولة منهما قد حشدت كل ما في طاقتها للقضاء على دولة الإسلام، ولكن هذه الأمة الناشئة استطاعت أن تقف بصلابة وعزم أمام تلك القوتين حتى قضت عليهما، وإن هذا وحده يكفي دليلاً على عظمة المسلمين الصادقين وعلى عظمة هذا الدين الذي دفعهم إلى هذه التضحيات العالية وأنه حق من عند الله تعالى الذي وعد بنصر دينه وأوليائه المؤمنين .

\*\*\*\*\*



مواقف وعبر

في



معركة اليرموك



## استعداد الروم للمعركة:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرط الشمالي «أن أهل إيلياء وأهل قيسارية بعد يوم «فحل» تواصلوا واجتمع رأيهم على أن يبعثوا وفدًا إلى ملك الروم هرقل بأنطاكية، فيخبرونه بتمسُّكهم بأمره وإقامتهم على طاعته وبخلافهم العرب وكرهيتهم لهم، ويسألونه المدد والنصر، وإلا أمكنوهم من أنفسهم.

فلما أن جاءه هذا رأى أن يبعث الجنود، ويقوم هو بأنطاكية فأرسل إلى رومية وإلى القسطنطينية وإلى من كان من جنوده وعلى دينه من أهل الجزيرة وأرمينية، وكتب إلى عماله أن يحشروا إليه كل من كان أدرك الحلم من أهل مملكته، فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني، فأقبلوا إليه، وجاء منهم ما لا تحمله الأرض، وجاءه جرجير صاحب أرمينية في ثلاثين ألفًا، وأناه أهل الجزيرة، وفزع إليه أهل دينه، وجميع من كان في طاعته منهم.

ودعا باهان، وكان من عظمائهم وأشرفهم، فعقد له على ثلاثمائة ألف رجل، ووجه معه قواده وجنوده، وأمر لهم بجوائز، وأعطى باهان مائتي ألف درهم، ثم أعطى الأمراء مائة ألف درهم لكل واحد منهم.

وقال لهم: إذا اجتمعتم فأمركم باهان، وقال: يا معشر الروم، إن العرب قد ظهروا على سورية، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبرِّ والشعير والذهب والفضة حتى يسبوا الأخوات والأمهات والبنات والأزواج، ويتخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدًا، فامنعوا في حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم. ثم وجههم إلى المسلمين<sup>(١)</sup>.

وهكذا سعى هرقل في جمع هذا الجيش العظيم وقرر أن يخوض آخر معركة مع المسلمين ليكون القرار النهائي بعدها، من تثبيت حكم الروم في سوريا بعد الانتصار أو الرحيل النهائي بعد الاندحار.

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٥١-١٥٣، وانظر تاريخ دمشق ١٤٤/٢.



وبعد أخذ التجربة الكافية من المعارك السابقة تين لهرقل أن الفرق شاسع بين جنود الروم وجنود المسلمين، حيث يتسم المسلمون بالشجاعة الخارقة، وسرعة الحركة، والتخطيط الحربي المتفوق، والتصرف الفوري عند حدوث المفاجآت، بينما لا تتوفر هذه الصفات العالية لدى جيش الروم.

ومن أجل أن يغطي هرقل هذا الفرق الشاسع فقد قرر أن يحشد كل ما لدى الروم وأحلافهم من قوة حربية في الرجال والعُدَد، حتى يقابل الروم الفرد المسلم بعشرة أضعافه، فيشغلوا بذلك جيش المسلمين عن التمتع بالصفات السابقة التي يتفوقون بها، ومن أجل ذلك سعى هرقل حثيثا في جمع هذا الجيش الضخم.

### مشورة أبي عبيدة مع قاداته:

قال الأزدي في سياق روايته: فقدمت عيون من قبلهم [يعني المسلمين] فأخبروا بمقالة هرقل ملكهم، بمسيرهم إلينا وجمعهم لنا، ومن جلب علينا معهم ومن غيرهم ممن كان على دينهم وفي طاعتهم.

فلما جاء أبا عبيدة خبرهم وعددهم وكثرتهم، وما أقبلوا به من غيرهم ممن كان على دينهم وطاعتهم من الجنود رأى ألا يكتم ذلك المسلمين، وأن يستشيرهم فيه لينظر ما يؤول إليه رأي جماعتهم، فدعا رؤوس المسلمين وذوي الهيئة والصلاح منهم، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال:

أما بعد، فإن الله عز وجل وله الحمد قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء عندكم، وصدقكم الوعد، وأعزكم بالنصر، وأراكم في كل موطن ما تُسرون به، وقد سار إليكم عدوكم من المشركين بعدد كثير، ونفروا إليكم فيما حدثني عيوني نفير الروم الأعظم، فجاءوكم براً وبحراً، حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية، ثم قد وجه إليكم ثلاثة عساكر، في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر، وقد أحسبت ألا أغرُّكم من أنفسكم، وألا أطوي عنكم خبر عدوكم، ثم تشيرون عليّ برأيكم، وأشير عليكم برأيي، فإنما أنا كأحدكم.

وقد تبادل أبو عبيدة المشورة مع قاداته واستقر رأيهم أخيراً على أن يغادروا مدينة «حمص» وأن يتشاوروا مع بقية القادة في الشام ثم يختاروا مكانا مناسباً للاجتماع

ومواجهة الروم فيه، قال: ثم بعث إلى حبيب بن مسلمة، وكان استعمله على الخراج، فقال له: انظر ما كنت جيبته من الخراج من حمص فاحتفظ به حتى أمرك فيه بأمر، ولا تجبين أحداً ممن بقي من الناس حتى أحدث إليك في ذلك.

فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال: اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنا إذ لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم: نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما ردنا عليكم أموالكم أننا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم، ولكننا نتنحى إلى بعض الأرض ونبعث إلى إخواننا فيقدموا علينا ثم نلقى عدونا فنقاتلهم، فإن أظفرنا الله بهم وفينا لكم بعهدكم إلا أن لا تطلبوا ذلك.

فلما أصبح أمر الناس أن يرتحلوا إلى دمشق، ودعا حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذ منهم المال فأخذ يرد عليهم، وأخبرهم بما قال أبو عبيدة، وأخذ أهل البلد يقولون: ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ماردوا علينا، بل غصبونا وأخذوا مع ما قدروا عليه من أموالنا<sup>(١)</sup>.

هكذا عامل أبو عبيدة أهل حمص وهو في موقف القوة، وكان باستطاعته أن لا يرد عليهم ما أخذ منهم بل إن في استطاعته أن يسلبهم ما يملكون من أموال، ولكنه الوفاء العظيم الذي لا ينبع من مجرد صدوره من نفوس جُبِلت على مكارم الأخلاق، بل من الوازع الديني والتقيد الدقيق بأحكام الإسلام، فأبو عبيدة يرى أن أخذ الأموال منهم يوقع المسلمين في الإثم لأن من شروط الجزية أن يتولى المسلمون حماية أهل الذمة، فإن لم يستطيعوا حمايتهم فلا حق لهم فيها.

وكان لهذا الموقف العالي أثر عظيم في الدعوة إلى الإسلام حيث تعلق أهل البلاد بحب المسلمين، وتمنوا أن ينصرهم الله على أعدائهم، كما جاء في رواية أخرى أنهم قالوا: لو لايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم<sup>(٢)</sup>.

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٥٣ - ١٥٦ بتصرف، وانظر تاريخ دمشق ١٤٥/٢.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري/ ١٨٧.

## رسالة إلى عمر:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي من خبر سفيان بن عوف بن معقل قال: بعثني أبو عبيدة بن الجراح ليلة غدا من حمص إلى دمشق، وقال: أتت أمير المؤمنين فأبلغه عني السلام، وأخبره بما قد رأيت وعانيت. وبما قد جاءتنا به العيون، وبما استقر عندك من كثرة العدو، وبالذي رأى المسلمون من التنحي عنهم.

وكتب معه: أما بعد، فإن عيوني قدمت عليّ من أرض عدونا، من القرية التي فيها ملك الروم، فحدثوني بأن الروم قد توجهوا إلينا، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأمة قطُّ كانت قبلنا، وقد دعوت المسلمين، وأخبرتهم الخبر، واستشرتهم في الرأي، فأجمع رأيهم عليّ أن يتنحوا عنه حتى يأتينا رأيك، وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قبلنا، فسأله عما بدا لك، فإنه بذلك عليم، وهو عندنا أمين، ونستعين بالله العزيز العليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام عليك».

قال سفيان: فلما قدمتُ على أمير المؤمنين سلّمت عليه، فقال: أخبرني عن الناس، فأخبرته بصلاحتهم، ودفاع الله عنهم.

ثم أخذ الكتاب، فقرأه، فقال لي: ويحك، ما فعل المسلمون؟ فقلت: أصلحك الله، خرجت من عندهم ليلا من حمص، وتركتهم وهم يقولون نصليّ الغداة، ثم نرحل إلى دمشق، وقد أجمع رأيهم عليّ ذلك فكأنه كرهه حتى عرفت الكراهية في وجهه.

ثم قال: لله أبوك، مارجوعهم عن عدوهم وقد أظفرهم الله بهم في غير موطن من مواطنهم، وما تركهم أرضا قد احتووها وفتحها الله عليهم، وصارت في أيديهم؟ وإنني أخاف أن يكونوا قد أساءوا الرأي، وجاؤوا بالعجز، وجرؤوا عليهم عدوهم.

قلت: أصلحك الله، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وإن صاحب الروم قد جمع لنا جموعاً لم يجمعها هو ولا أحد كان قبله لأحد كان قبلنا، ولقد أخبرنا

بعض عيوننا أن عسكرا واحدا من عساكرهم مروا بالعسكر في أصل جبل، فهبطوا من الثنية نصف النهار إلى عسكرهم، فما ظنك أصلحك الله، بمن بقي منهم؟ فقال: لولا أني ربّما كرهت الرأي من رأيهم، والشيء من أمرهم فأرى الله يُخير لهم في عاقبة ذلك لكان هذا الرأي منهم أنا له كاره.

ثم قال لي: أخبرني، أجمع رأي جميعهم على التحويل؟ [قال: نعم]. قال: فالحمد لله على ذلك، فإنني أرجو أن يكون الله جمع رأيهم على الخير، إن شاء الله.

قال: فقلت، يا أمير المؤمنين، اشدت أعضاد المسلمين بمدد يأتيهم من قبلك قبل الوقعة، فإن هذه الوقعة هي الفيصل فيما بيننا وبينهم، فإن أظفرنا الله بهم وأظهرنا عليهم هذه المرة هلكت الروم هلاك عاد وثمود.

قال: فقال لي أبشر، وبشر المسلمين إذا قدمت عليهم، واحمل كتابي هذا إلى أبي عبيدة، وإلى المسلمين، وأعلمهم أن سعيد بن عامر بن حذيم قادم عليهم بالمدد، إن شاء الله<sup>(١)</sup>.

### رسالة إلى أبي عبيدة:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، والمجاهدين في سبيل الله، سلام عليكم فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنه بلغني توجهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق، وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم وخليتموها لعدوكم، وخرجتم منها طائعين، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم، وسألت رسولكم عن رأي من جميعكم؟ فزعم أنه ذلك كان من رأي خياركم وأولي النهى منكم وجماعتكم، فعلمت أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد في العاجلة والعاقبة فهون ذلك علي ما كان دخلني من الكراهية قبل ذلك لتحويلكم.

(١) فتوح الشام/ ١٥٦ - ١٥٨.

وقد سألني رسولكم المدد لكم، وأنا ممدكم قبل أن يقرأ عليكم كتابي هذا، وأشخص لكم المدد من قبلي إن شاء الله، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكثير، ولا بالجمع الكثير كان الله ينزل النصر عليهم، ولربما خذل الله الجموع الكثيرة فوهنت، وقلت وفشلت ولم تغن عنهم فثتتهم شيئاً، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثير عددها من أعداء الله، فأنزل الله عليكم نصره، وعلى المشركين من أعداء الله وأعداء المسلمين بأسه ورجزه والسلام عليكم<sup>(١)</sup>.

وهكذا كره عمر رضي الله عنه خروج المسلمين من حمص، ورأى أن ذلك يُجرى العدو على المسلمين، ويرفع من معنويتهم وقدرتهم على قتال المسلمين لظنهم بأن المسلمين هربوا عن مواجهتهم، ولكن عمر مَحَى من نفسه تلك الكراهية لما علم أن ذلك التصرف كان عن إجماع من أهل الرأي فيهم بعد عقد مجلس للمشورة، وهذا تقدير منه لاجتماع كلمة المسلمين وتفاؤل بأن ذلك هو الخير، لأن الله تعالى لا يجمع رأي أهل الرأي إلا على ما فيه الخير والصواب.

وسياتي أن رأي عمر هو رأي خالد رضي الله عنهما وأن ما في نفسه من كراهية تحول المسلمين من حمص قد زال حينما عرف أن ذلك عن مشورة أهل الرأي وإجماعهم.

وإننا حينما نتأمل في واقع الجيوش الإسلامية المتفرقة في الشام، وما قام به الروم من سرعة الزحف نحو المسلمين يتبين لنا أن ما قام به أبو عبيدة رضي الله عنه بعد مشورة أصحابه هو الصواب، لأنه لو كتب لقادة المسلمين في الشام ليوافقوه في حمص فإن هناك احتمالاً كبيراً أن يصل إليه الروم وأن يحاصروا حمص قبل أن يأتي القادة البعيدون، فيتفرق بذلك جيش المسلمين، وهم أحوج ما يكونون إلى الاجتماع لمواجهة الروم الذين زحفوا مجتمعين.

### مشورة أخرى مع القادة:

أخرج أبو إسماعيل الأزدي من خبر عبد الله بن قرط قال: لما صلينا الغداة بحمص خرجنا نسير مع أبي عبيدة حتى قدمنا دمشق، وبها خالد بن الوليد وقد

(١) فتوح الشام/ ١٥٩.

تركنا أرض حمص، وليس فيها منا ديار بعد ما كنا افتتحناها، وأمنا أهلها، وكتبنا بيننا وبينهم كتاباً، وصالحناهم عليها.

قال: فلما دخلنا دمشق أتانا خالد بن الوليد، وضممنا عسكرينا وعسكره فكانوا واحداً، فخلا أبو عبيدة بخالد، فأخبره الخبر، وبمشورة الناس عليه وبالرحلة، وبمقالة العبسي في ذلك<sup>(١)</sup>.

فقال خالد: أما إنه لم يكن الرأي إلا الإقامة بحمص حتى نناجزهم فيها، فأما إذا اجتمع رأيكم على أمر واحد فإني لأرجو ألا يكون الله جمع رأيكم إلا على ما هو خير لكم.

فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين، وأمر سويد بن كلثوم القرشي، أن يرد على أهل دمشق ما كان اجتبي منهم، الذين كانوا أمنوا ووصلحوا، فرد عليهم ما كان أخذ منهم.

وقال لهم المسلمون: نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم، ونحن معيدون لكم أماناً و متممون ما كنا صالحناكم عليه<sup>(٢)</sup>.

ثم إن أبا عبيدة جمع أصحابه، فقال لهم: ماذا ترون؟ أشيروا عليّ.

فقال يزيد بن أبي سفيان: أرى أن تخرج حتى تنزل الجابية، ثم تبعث إلى عمرو بن العاص فيقدم عليك بمن معه من المسلمين، ثم نقيم للقوم حتى يقوموا علينا، فنقاتلهم ونستعين الله عليهم.

فقال شرحبيل بن حسنة: ولكني أرى إذ خيلنا لهم عمّا خيلنا من أرضهم أن ندعها كلها في أيديهم، ونخرج لهم عنها، ونترك التخوم<sup>(٣)</sup> بيننا وبين أرضهم، فندنو من خيلفتنا ومن مددنا، فإذا أتانا من المدد ما نرجو أن نقوى به على عدونا قاتلناهم إن هم أتونا، وإلا أقدمنا عليهم إن هم أقاموا عنا.

(١) يعني ميسرة بن مسروق العبسي، وكان أشار بالرحيل واجتماع جيوش المسلمين في مكان واحد ووافقه على ذلك بقية أهل الرأي.

(٢) وهكذا عامل أبو عبيدة أهل دمشق كما عامل أهل حمص، وقد بينا سابقاً أن ذلك كان مثالا للورع والتقوى والتخلق بمكارم الأخلاق.

(٣) التخوم بالضم الحدود.

وقال رجال من المسلمين: هذا - أصلحك الله - رأي حسن، فاقبله وارجع إليه، فإن عاقبته إن شاء الله راجعة إلى خير.

قال معاذ بن جبل: أصلحك الله، وهل يلتمس هؤلاء من عدوهم أمراً أضرب عليهم ولا أشد مما تريدون بأنفسكم؟ تخلون لهم عن أرض قد افتتحها الله عليكم وقتل فيها ملوكا من ملوك الروم وصناديدهم، وأهلك الله فيها جنودهم العظام، فإذا خرج المسلمون منها، وتركوها لهم، وكانوا فيها على مثل حالتهم الأولى التي كانوا عليها، فما أشد على المسلمين دخولها بعد الخروج منها، وهل يصلح لكم أن تخرجوا منها وتدعوها، وتدعوا اللقاء والأردن، وقد اجتبيتم خراجها إلا أن تدفعوا عنهم؟ أما والله لئن خرجتم منها ثم أردتم دخولها بعد الخروج منها لتكابدن من ذلك مشقة.

فقال أبو عبيدة: صدق وبر، ما ينبغي لنا أن نترك قوماً قد اجتبيناهم خراجهم، وعقدنا لهم العهد حتى نعذر إلى الله في الدفع عنهم، فإن شئتم نزلنا الجابية، وبعثنا إلى عمرو بن العاص يقدم علينا، ثم أقمنا للقوم حتى نلقاهم بها.

فقال له خالد بن الوليد: كأنك إذ كنت بالجابية كنت على أكثر مما أنت عليه مكانك هذا الذي أنت به.

### كتاب من عمرو بن العاص:

قال: فإنهم لكذلك يجيلون الرأي إذ قدم على أبي عبيدة عبد الله بن عمرو بن العاص بكتاب من أبيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن أهل إيليا، وكثيراً ممن كنا صالحناهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد فيما بيننا وبينهم، وذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشام بقضها وقضيضها<sup>(١)</sup>، وأنكم قد خلّيتم لهم عن الأرض، وخرجتم منها، وأقبلتم منصرفين عنها، وقد جرأهم ذلك عليّ وعلى من قبلي من المسلمين، وقد ترأسوا وتواثقوا، وتعاقدوا ليسيرن إليّ، فاكتب إليّ برأيك، فإن كنت تريد القدوم عليّ أقمت لك حتى تقدم، وإن كنت تريد منزلاً من الشام أو من غيرها وأن أقدم عليك فأعلمني برأيك أوافك فيه، فإني صائر إليك أينما كنت، فابعث إليّ مدداً أقوى بهم

(١) أي جموعها.

على عدوِّي وعلى ضبط ما قبلي، فإنهم قد أرجفوا بنا واغتمزوا فينا، واستعدوا لنا، ولو يجدون فينا ضعفاً أو يرون فينا فرصة ما ناظرونا، والسلام عليك<sup>(١)</sup>.

### كتاب من أبي عبيدة إلى عمرو:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد قدم عليّ عبد الله بن عمرو بكتابك تذكر فيه إرجاف المرجفين واستعدادهم لك، وجرأتهم عليك، للذي بلغهم من انصرافنا عن الروم، وما خلينا لهم من الأرض، وإن ذلك والحمد لله لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ولا وهن من عدوِّهم، ولكنه كان رأياً من جماعتهم كادوا به عدوهم من المشركين، ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم، وليجتمع بعض من المسلمين إلى بعض، ويجمعوا من أطرافهم، وينضم إليهم من كان قريبهم، ويتظرون قدوم أمدادهم عليهم، ثم يناهضونهم إن شاء الله.

وقد اجتمعت خيلهم، وتتامّت فرسانهم، ووثقنا بنصر الله أولياءه، وإنجاز موعده، وإعزاز دينه، وإذلال المشركين حتى لا يمنع أحد أمه، ولا خليلته ولا نفسه حتى يتوغلوا في رؤوس الجبال، ويعجزوا عن منع الحصون ويجنحوا للسلم، ويلتمسوا الصلح، وسنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ثم أعلم من قبلك من المسلمين أنني قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام، إن شاء الله، فليحسنوا بالله الظن، ولا يجدن أهل حربكم وعدوكم فيكم ضعفاً ولا وهناً ولا فشلاً، فيغتمزوا فيكم، ويتجرؤوا عليكم، أعزنا الله وإياكم بنصره، وألبسنا وإياكم عافيته وعفوه، والسلام عليك.

وقال أبو عبيدة لعبد الله بن عمرو: أفرى أباك السلام، وأخبره أنني في أثرك، وأعلم ذلك المسلمين، وكن يا عبد الله بن عمرو ممن يشدد الله به ظهور المسلمين، ويحسن به ظنهم، ويستأنسون به، فإنك رجل من الصحابة، وقد جعل الله للصحابة بصحبته رسول الله فضلاً على غيرهم من المسلمين، ولا تتكل في ذلك على أبيك، وكن أنت في جانب تحرض الناس، وتعدهم بالنصر، وتأمروهم بالصبر، ويكون أبوك يفعل ذلك في جانب آخر.

فقال: إنني أرجو أن يبلغك من ذلك إن شاء الله ما يسرك.

(١) فتوح الشام/ ١٦٠ - ١٦٢.



قال: ففعل ذلك هو وأبوه، فكان لهما أجراً وغناء، ونكاية في المشركين وشدة وقوة على عدو المسلمين.

ثم خرج عبد الله بكتاب أبي عبيدة حتى قدم به على أبيه، فقرأه على الناس. ثم قام عمرو بن العاص، وجمع إليه من كان قبله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وكان مما قال: ألا ولا يبقين رجل من أهل عهدنا إلا تهيأ واستعدّ حتى يسير معي إلى أهل إيلياء فإنني أريد المسير إليهم والنزول بساحتهم، ثم لا أزيلهم حتى أقتل مقاتلتهم، وأسبي ذراريهم أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ثم نادى في المسلمين، أن ارتحلوا إلى إيلياء، فسار نحواً من ميلين قبل أرض إيلياء، ثم نزل وعسكر، ثم قال لأهل الأردن: أخرجوا إلينا الأسواق. ونادى مناديه، ألا برئت الذمة من رجل من أهل الصلح لم يخرج بسلاحه حتى يحضر معنا عسكرنا، وينظر ما نأمره به.

ثم أمر فاجتمع إليه أهل الصلح كلهم، فخرجوا بعدتهم وسلاحهم، فوجههم مع ابنه عبد الله فقدّمهم، وأمرهم أن يعسكروا ونزل عبد الله معهم في خمسمائة رجل من المسلمين.

وإنما أراد بذلك أن يشغل أهل الأردن عن الإرجاف<sup>(١)</sup>، وأن يبلغ أهل إيلياء أنه يريد المسير إليهم والنزول عليهم، فيرعب قلوبهم، ويشغلهم في أنفسهم وحصونهم من الغارة عليهم، وأن يتعاطوا شيئاً مما في أيديهم.

فخرج التجار من أهل الأردن ومن كان فيها من أهل إيلياء عند حميم أو ذي قرابة، فلحقوا بإيلياء، وقالوا لهم: هذا عمرو بن العاص قد أقبل نحوكم وصار إليكم بالناس.

فاجتمعوا من كل مكان وتراسلوا، وجعل لا يأتيهم أحد من قبل الأردن إلا أخبرهم بمعسكره، فأيقنوا أنه يريدهم، وكانوا من ذلك في هول شديد، وزادهم خوفاً ووجلاً<sup>(٢)</sup>.

(١) يعني عن الخوض في أخبار الفتن.

(٢) فتوح الشام/١٦٢ - ١٦٥.

## رسالة من عمرو بن العاص:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله العظيم الذي لا إله إلا هو، ومحمد ﷺ أما بعد، فإننا نشني على ربنا خيراً، ونحمده حمداً كثيراً كما رحمنا بنبيه وشرفنا برسالته، وأكرمنا بدينه، وأعزنا بطاعته، وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته، فلسنا والحمد له نجعل له ندأً، ولا نتخذ من دونه إلهاً، لقد قلنا إذن شططاً، سبحانه وبحمده جل ثناؤه، والحمد لله الذي جعلكم شيعاً وجعلكم في دينكم أحزاباً بكفركم بربكم، فكل حزب بما لديهم فرحون، فمنكم من يزعم أن الله ولداً، ومنكم من يزعم أن الله ثاني اثنين، ومنكم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة، فبُعِدَ لمن أشرك بالله وسُحِقاً، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، والحمد لله الذي قتل بطارقتكم، وسلب عزكم، وطرد من هذه البلاد ملوككم، وأورثنا أرضكم ودياركم وأموالكم، وأذلكم بكفركم بالله، وترككم ما دعوناكم إليه من الإيمان بالله ورسوله، فأعقبكم الله الجوع والخوف والذل بما كنتم تصنعون، فإذا أتاكم كتابي هذا فأسلموا تسلموا، وإلا فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتاباً أماناً على دماءكم وأموالكم، وأعقد لكم عقداً، تؤدون إليّ الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيـل بعد الخيل، وبالرجال بعد الرجال، ثم لا أقـلـع عنكم حتى أقتل المقاتلة، وأسبي الذرية، وتكونون كأمة كانت فأصبحت كأنها لم تكن<sup>(١)</sup>.

وهكذا خدع عمرو بن العاص أولئك الأعداء ومكر بهم، حيث أظهر لهم أنه قد جمع جيشه وأنصاره لقتالهم، بينما هو فعل ذلك ليُقى بسلام إلى أن يصل جيش المسلمين، قبل أن ينتقض عليه أهل العهد فيكونوا مع أعدائه في بيت المقدس ثم يحصروه عن المسلمين، إذا شعروا بضعفه.

وهذا مثل من الأمثلة التي برز فيها دهاء عمرو وظهرت حكمته.

قال: وأرسل الكتاب إليهم مع رجل نصراني على دينهم وقال له: عَجَلْ عَلَيَّ فَإِنِّي إِنَّمَا أَنْتَظِرُكَ.

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٦٥ - ١٦٦.

فلما قدم عليهم قالوا له: ويحك ما وراءك؟ قال: لا أدري إلا أن الرجل قد بعثني إليكم بهذا الكتاب، وقد وجهَ عسكريه نحوكم، وقال: ما يمنعني من المسير إليهم إلا انتظاري رجوعك.

قالوا له: أنظرنا ساعة من النهار، فإننا ننتظر عيونًا لنا تقدم علينا من قبل أمير العرب الذي بدمشق، ومن قبل جند الملك الذي قد أقبل إلينا، فننظر ما يأتينا به، فإن ظننا أن لنا بالعرب قوة لم نصلحهم، وإن خشينا ألا نقوى عليهم صنعنا ما صنع أهل الأردن وغيرهم، فما نحن إلا كغيرنا من أهل الشام.

فأقام العلي حتى أمسى. ثم إن رسول أهل إيلياء الذي كان بعثوه عينا لهم أتاهم، فأخبرهم أن باهان قد أقبل من قبل ملك الروم في ثلاثة عساكر، في كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل، وأن العرب لما بلغهم ما سار إليهم من تلك الجموع علموا أنه لا قبل لهم بما جاءهم، فانصرفوا راجعين، وقد كان أوائل العرب دخلوا أرض قنسرين فأخرجوهم منها، ثم أتوا أرض حمص فأخرجوهم منها، ثم أتوا أرض دمشق فأخرجوهم منها، ثم أقبلت العرب نحو الأردن نحو صاحبهم هذا الذي كتب إليكم، والروم في آثارهم يسوقونهم سوقًا عنيفًا سريعًا إلى ما قبلكم من البلاد.

فتباشروا بذلك، وسرّوا به، ودعوا العلي الذي بعث به عمرو بن العاص فقالوا له: اذهب بكتابتنا إلى صاحبك، وكتبوا معه:

أما بعد، فإنك كتبت إلينا كتابًا تزكي فيه نفسك، وتعيب ما نحن عليه، والقول بالباطل لا ينفع به أحد نفسه، ولا يضر به عدوه، وقد فهمنا ما دعوتنا إليه، وهؤلاء ملوكنا وأهل ديننا قد جاؤوكم، فإن أظهرهم الله عليكم فذلك بلاؤه عندنا في القديم، وإن ابتلانا بظهوركم علينا، فلعمري لننقُرُ لكم بالصغار، وما نحن إلا كمن ظهرتم عليهم من إخواننا، ثم دانوا لكم فأعطوكم ما سألتهم.

وقدم الرسول بهذا الكتاب إلى عمرو، فقال له عمرو: ما حبسك؟ فأخبره الرسول بالخبر. إلى أن قال: فلم يكن إلا يومه ذلك حتى قدم خالد بن الوليد في مقدّمة أبي عبيدة، وكان أبو عبيدة قد خرج من أرض دمشق بالمسلمين إلى بلاد

الأردن، وأمر عبد الرحمن بن حنبل فنأدى الناس أن يسيروا إلى بلاد الأردن، وأمر خالد بن الوليد، فتقدم في مقدمته حتى نزل اليرموك، وأقبل عمرو حتى نزل معه (١).

#### مثل من فساد قادة الروم:

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي، وحدثني أبو الجهم الأزدي عن رجل من تنوخ كان من باهان يُكنى أبا بشير قال: كنت نصرانياً، فنصرت النصرانية على العرب، وأقبلت مع الروم، فجعلنا لا نمر بأحد من أهل البلد إلا وجدناهم أحسن شيء ثناء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم.

قال: وأقبلت الروم فجعلوا يفسدون في الأرض، ويسئون السيرة، ويعصون أميرهم حتى ضج منهم الناس، وشكاهم أهل القرى، وجعلوا لا يفيقون من شرب الخمر والزنا، ولا تزال جماعة من أهل الذمة يجيئون إلى ملكهم ومعهم الجارية قد افتضت، وجماعة يشكون أن أغنامهم قد ذبحت وجماعة يشكون أنهم خربوا وسلبوا.

فلما رأى باهان ذلك وما يصنعون قام فيهم خطيباً فقال:

يا معشر أهل هذا الدين، إن حجة الله عليكم عظيمة، إنه قد بعث إليكم رسولاً، وأنزل عليكم كتاباً، وكان رسولكم لا يريد الدنيا، وزهدكم فيها، وأمركم ألا ترغبوا فيها ولا تظلموا أحداً، فإن الله لا يحب الظالمين، وأنتم الآن تظلمون، فما عذرکم غدا عند الله وقد تركتم أمره وأمر نبيكم وما أتاكم به من كتاب ربكم؟ وهذا عدوكم قد نزل بكم، يقتلون مقاتلتكم ويسبون ذراريكم، وأنتم تعملون بالمعاصي، فلا تنزعون منها خشية العقاب، فإن نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عليكم عدوكم فمن الظالم إلا أنتم؟ فاتقوا الله وانزعوا عن ظلم الناس.

فقام إليه رجل من أهل البلد، فشكا إليه مظلمة، قال: فتكلم بلسانهم وأنا أفقه كلامهم، فقال: أيها الملك، عشت الدهر، ووقيناك بأنفسنا مكروه الأحداث، إني امرؤ من أهل البلد، من أهل الذمة، وكانت لي غنم، أظنها مائة شاة أو تنقص

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٦٦ - ١٦٨.

قليلاً، وكان فيها ابن لي يرهاها، فمرَّ بها عظيم من عظماء أصحابك، فضرب خبائه إلى جنبها، ثم أخذ حاجته منها، ثم أنهب بقيتها أصحابه، فجاءته امرأتي، وابنتي، فشكت إليه انتهاب أصحابه غنمي، وقالت: أما ما أخذت لنفسك فهو لك، وأما ما أخذ أصحابك فابعث إليهم فليردوا علينا غنمنا.

فلما رآها أمر بها، فأدخلت بناءه، فطال مكثها عنده، فلما رأى ذلك ابنها دنا من باب البناء، فطالع، فإذا هو بصاحبه ينكح أمه أو أخته، وهي تبكي، فصاح الغلام، فأمر به فقتل، فأخبروني ذلك فأقبلت إلى ابني، فأمر بعض أصحابه فشدوا عليّ بالسيف ليضربوني، فاتقيتهم بيدي فقطعوها.

فقال له باهان: أفتعرفه؟ قال: نعم. قال: وأين هو؟ قال: هو هذا العظيم من عظمائكم.

قال: فغضب ذلك العظيم الذي فعل بالرجل ما فعل، وغضب له ناس من أصحابه، وكان فيهم ذا شأن وشرف، فأقبل ناس من أصحابه أكثر من مائتي رجل فشدوا على المستعدى، فضربوه بأسيافهم حتى مات، ثم رجعوا وباهان ينظر ما صنعوا.

فقال بلسانه: العجب كل العجب، كيف لا تُهدَّ الجبال وتتفجر البحار، وتزول الأرض، وترعد السماء لهذه الخطيئة التي عملتموها، وأنا أنظر لأعمالكم العظام التي تعملونها، وأنا أرى وأسمع، إن كنتم تؤمنون بأن لهؤلاء المستضعفين المظلومين إلهاً ينتصر لهم وينصف المظلوم من الظالم فأيقنوا بالقصاص، ومن الآن يعجل لكم بالهلاك، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك فأنتم والله عندي شر من الكلاب وشر من الحمير، ولعمري إنكم لتعملون أعمال قوم لا يؤمنون، ولقد سخط الله أعمالكم، وليكلنكم إلى أنفسكم، وأما أنا فإني أشهد أي بريء من أعمالكم، وسوف ترون عاقبة الظلم، وإلى أي مصير تصيرون، ثم نزل<sup>(١)</sup>.

فهذه القصة تين ما كان يزاوله طغاة الروم من الظلم الشنيع، فهذا الأمير الرومي قد سحق أسرة من أسر أهل الشام، وارتكب معها ثلاث جرائم: نهب

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٧٥ - ١٧٧.

المال، والزنى، والقتل، حيث كان هو وأمثاله يعتبرون المستضعفين غنيمة لمن وجدهم لأنهم لا ناصر لهم من قُوى البشر، أما رب البشر فإنهم لا يؤمنون به إيماناً يحرك مشاعرهم ويحكم تصرفاتهم. . إنهم يؤمنون بوجوده ولكن لا وجود له في قاموس حياتهم، وبالتالي فإنهم يفقدون الوازع الديني الذي يترتب على الإيمان الحي بالله تعالى واطلاعه على خلقه وهيمته عليهم ومحاسبته إياهم ثم جزائه إياهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولذلك فإن هؤلاء الذين فقدوا العقول السليمة يتصرفون تصرف البهائم التي لا يردعها رادع عن شهوة ولا تتخاطب إلا بقرونها ومخالبتها وقواطع أسنانها، فلذلك يأكل القوي الضعيف في تلك المجتمعات كما هو الحال في حظائر الحيوانات والغابات.

ولقد كان باهان واسع العقل عظيم الإدراك حينما أدرك العلاقة المباشرة بين الأخلاق وتقرير مصير الدول والجيوش، فأبان أن مرتكبي الظلم ليسوا جديرين بالنصر على الأعداء.

ولقد كان هذا الفساد الذي ساد معسكره الكبير من أقوى ما واجهه من التحطيم المعنوي والفرع الشديد من الانهزام والاندحار على يد أمة الأخلاق والعدل. وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر عند عرض كلام باهان في الاستشهاد بهذه القصة وما كان يعانيه من التشاؤم القاتل بسبب فُشو الظلم في جيشه.

### رسالتان بين أبي عبيدة وعمر:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرط: أن معاذ بن جبل ورجالاً معه من المسلمين قالوا لأبي عبيدة بن الجراح حين أقبل من دمشق إلى معسكره باليرموك: ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تُعلمه علم هذه الجيوش التي قد جاءتنا، وتسأله المدد؟ قال: بلى، وكتب إليه.

أما بعد، أُخبر أمير المؤمنين - أكرمه الله - أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً، ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة، وجاؤونا وهم نحو من أربعمئة ألف

رجل، وأنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغرَّ المسلمين من أنفسهم، أو أكتمهم ما بلغني عنهم، فكشفت لهم عن الخبر، وشرحت لهم من الأمر، وسألتهم عن الرأي، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض من أرض الشام، ثم انضم إلينا أطرافنا وقواصينا، وتكون بذلك المكان جماعتنا، حتى يقدم علينا من قبل أمير المؤمنين المدد لنا، فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا، ودينهم منهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم مالا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغيث من قبله، والسلام عليك.

فلما أتاه الكتاب دعا عمر المهاجرين والأنصار، فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فبكى المسلمون بكاءً شديداً، ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله أن ينصرهم ويعافهم، وأن يدفع عنهم، واشتدت شفقتهم عليهم وقالوا: يا أمير المؤمنين، ابعثنا إلى إخواننا، وأقرِّ علينا أميراً ترضاه لنا، أو سرِّ بنا أنت، فو الله إن أُصيبوا فما في العيش خير بعدهم.

قال عبد الله بن قرط: فكل من قدمت عليه من المهاجرين والأنصار ظهر منهم الجزع والشفقة على المسلمين مخافة الهلاك عليهم، ولم أر أحداً كان أشد جزعاً ولا أظهر شفقة من عبد الرحمن بن عوف، ولا أكثر مقالة: سر بنا يا أمير المؤمنين، فإنك لو قدمت الشام لقد شدَّ الله قلوب المؤمنين وأرعب قلوب الكافرين.

قال: فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يقيم عمر، ويبعث المدد، ويكون رداءً للمسلمين.

فقال عمر لعبد الله بن قرط: كم بين المسلمين وبين الروم يوم خرجت إلي؟ قال: قلت ما بين أدناهم وبين المسلمين ثلاث أو أربع ليال، وبين جماعتهم وجماعة المسلمين خمس ليال.

فقال: هيهات، متى يأتي هؤلاء غياثنا.

قال: فكتب عمر إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فقد قدم عليّ أخو ثماله بكتابك تخبرني فيه بنفير الروم إلى المسلمين برأً وبحراً، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقسسهم ورهبانهم، وإن ربنا المحمود عندنا والصانع لنا، والعظيم ذو المنّ والنعمة الدائمة علينا، قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيث بعث محمداً ﷺ بالحق وأعزه بالنصرة، ونصره بالرعب على عدوه، وقال: وهو لا يخلف الميعاد ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] فلا تهولنك كثرة ما جاءك منهم، فإن الله منهم بريء، ومن برئ الله منه كان قَمِنًا ألا تنفعه كثرة، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذه، ولا توحشك قلة المسلمين، فإن الله معك وليس قليلاً من كان الله معه، فأقم بمكانك الذي أنت به حتى تلقى عدوك وتناجزهم، وتستظهر بالله عليهم، وكفى به ظهيراً وولياً ونصيراً.

وقد فهمت مقالتك «احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا، ودينهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياث من قبله» وأيم الله لولا استثناؤك بهذا لقد كنت أسأت، ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله خير للأبرار، ولقد قال الله عز وجل: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] فطوبى للشهداء، ولمن عقل عن الله ممن معك من المسلمين لأسوة بالمصرعين حول رسول الله ﷺ في موطنه، فما عجز الذين قاتلوا في سبيل الله، ولا هابوا الموت في جنب الله، ولا وهن الذين بقوا من بعده، ولا استكانوا لمصيبتهم، ولكنهم تأسوا بهم وجاهدوا في الله من خالفهم منهم وفارق دينهم.

ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ



الْمُحْسِنِينَ ﴿ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨]، فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة.

واقراً كتابي هذا على الناس، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن الله بهم قبلاً، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرًا، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيئات ما قد أبادونا وأهلكونا، ولكن نتوكل على الله ربنا، ونبرأ إليه من الحول والقوة، ونسأله النصر والرحمة، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فأخلصوا الله نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وإنا لنلحظ في كتاب عمر رضي الله عنه تركيزاً قوياً على توحيد الله تعالى بالتذكير بلزوم استصحاب التوكل عليه واستمداد النصر منه وشكره على نعمه، والشعور القوي بأن العامل الأعلى في النصر هو استحضار المجاهدين معية الله تعالى بنصره وتأييده، وعدم النظر لكثرة الأعداء، لأن الله تعالى قد تخلى عنهم، ومن تخلى الله عنه فلا قوة له وإن ملأ الأرض عدداً وعتاداً.

قال عبد الله بن قرط: دفع إليّ عمر هذا الكتاب وأمرني أن أعجلّ المسير، وقال: إذا قدمت على المسلمين فسرّ في صفوفهم، وقف على أهل كل راية منهم، وأخبرهم أنك رسولي إليهم، وقل لهم: عمر يقرئكم السلام، ويقول لكم: يا أهل الإسلام اصدقوا اللقاء، وشدوا عليهم شدّ الليوث، واضربوا هامتهم بالسيوف، وليكونوا أهون عليكم من الذر، فإننا قد كنا علمنا أنكم عليهم منصورون، فلا تهولنكم كثرة عدوكم، ولا تستوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم.

قال: فركبت راحلتي، وأقبلت مسرعاً أتخوف أن لا أدرك الناس، وأن تفوتني الواقعة.

قال: فانتهيت إلى أبي عبيدة يوم دخل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي في ألف رجل من المسلمين من قبل عمر على أبي عبيدة في عسكره.

قال: فشجع ذلك المسلمين، وسرُّوا بمددهم، وقدمت بكتاب عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة، فقرأه على الناس، فسرُّوا برأيه لهم، وبما أمرهم به من الصبر، وبما بشرهم به من الفتح، وبما رجا لهم في ذلك من الأجر<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا كيف أن المسلمين تهيَّبوا من لقاء عدوهم مع أن عددهم يقارب الأربعين ألفاً، وكانت أكثر أصوات القادة تنادي بالرحيل عن الشام حتى يتقوى المسلمون ثم يعودون لمناجزة أعدائهم.

وإذا ما قارنا بين أحداث هذه المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم بأحداث معركة القادسية الفاصلة بين المسلمين والفرس نجد أن المسلمين وعددهم ثلاثون ألفاً، قابلوا الفرس وعددهم مائتا ألف، ولم يتهيَّبوا منهم. ولم يُلحوا في طلب المدد، ولم يفكروا بالتحول من العراق حتى يكمل استعدادهم، والمسلمون هم المسلمون في ذلك التاريخ سواء في الشام أو في العراق، بل إن كثيراً من أبطال العراق كانوا مع خالد بن الوليد في الشام وحضروا معركة اليرموك من أمثال القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي، ثم انصرفوا بعد ذلك إلى العراق وحضروا آخر معركة القادسية.

وهذا دليل واضح على أن معركة اليرموك كانت أضخم بكثير من معركة القادسية.

والآن وبعد أن تبين لنا حجم هذه المعركة فماذا كان عدد جنود الروم؟

لقد تبين لنا من كتاب أبي عبيدة السابق إلى أمير المؤمنين أن عدد الروم كانوا نحو أربعمائة ألف، وقد جاء ذلك في رواية أخرجهما الأزدي عن عبد الله بن قرط الشمالي وهو صحابي شهد المعركة.

ويؤيد ذلك ما أخرجه الأزدي أيضاً عن أبي جهم الأزدي عن رجل من الروم أسلم وحسن إسلامه قال: كنت مع باهان - يعني قائد الروم - في عسكرهم ذلك. . . إلى أن قال: قال باهان: فكيف ترون بقتالهم فإننا أكثر من عشرة

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٨٠ - ١٨٤.

أضعافهم، نحن نحو من أربعمئة ألف، وهم نحو من ثلاثين ألفاً أو أقل أو أكثر قليلاً<sup>(١)</sup>.

فهذا دليل على أن جيش الروم يقارب أربعمئة ألف.

كما جاء في رواية ثالثة أخرجها الأزدي أيضاً عن أبي خدّاش عن سفيان بن سليم عن عبد الله بن قرط الثمالي: وفيها أن أهل إيلياء - القدس - أرسلوا رسولاً ينظر لهم جيش الروم فأخبرهم أن باهان قد أقبل من عند هرقل في ثلاثة عساكر كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل<sup>(٢)</sup>.

فهذا يدل على أن جيش الروم ما بين ثلاثمئة وأربعمئة ألف.

أما الرواية التي تقول إن جيش الروم كان مائة ألف فهي مستبعدة لأن المسلمين قابلوا في أجنادين مائة ألف من الروم ولم يأبهوا بهم مع أن هذه المعركة كانت هي الأولى من المعارك الكبيرة.

وأما القول بأنهم كانوا مائتي ألف أو مائتين وأربعين ألفاً فهما محتملان لكن القول الأول قد روي من طرق متعددة، كما أن الصفات التي أطلقت على جيش الروم تدل على أنهم كانوا أكثر من هذا العدد، حيث جاء في كتاب أبي عبيدة «وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعه لأمّة قط كانت قبلنا» و«أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً، ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا».

ومن المستبعد أن أمة عظيمة كالروم تكون طاقتها الكاملة من الرجال في حدود هذا العدد، فتبين أن القول الراجح أنهم كانوا نحواً من أربعمئة ألف كما ذكر أبو عبيدة رضي الله عنه.

ومما يدل على كثافة جيش الروم إلى حد غير معتاد ما ذكره الأزدي في رواية له عن قسامة بن زهير عن رجل من الروم كان يدعى «جرجه» - وقد أسلم وحسن

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٠٨، وقد جاء في روايتين للطبري أن عدد المسلمين ستة وثلاثون ألفاً - تاريخ الطبري ٣/ ٢٩٢ - ٣٩٤.

(٢) فتوح الشام للأزدي / ١٦٧.

إسلامه - قال: كنت في ذلك الجيش الذي بعثنا ملك الروم من أنطاكية مع باهان، فأقبلنا ونحن لا يحصي عدونا إلا الله، ولا نرى أن لنا غالباً من الناس.

قال: ولحق بنا كل من كان على ديننا من النصارى، حتى إن كان الراهب لينزل من صومعته، وقد كان فيها دهرًا طويلاً من دهره، فتركها وينزل إلينا فيقاتل معنا غضباً لدينه ومحاماةً عليه<sup>(١)</sup>.

### مكان المعركة والتقاء الجيشين:

ذكر الإمام ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر عن عدد من الشيوخ أن هرقل كتب إلى قادة جيشه يقول لهم: انزلوا بالروم منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب.

قالوا: ففعلوا فنزلوا الواقعة، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم.

وانتقل المسلمون عن معسكرهم الذي اجتمعوا به، فنزلوا بحذائهم، على طريقهم، وليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو بن العاص: أيها الناس أبشروا، حُصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير<sup>(٢)</sup>.

وهذا يدل على خبرته وبصره بأمور الحرب.

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرط قال: لما نزلت الروم منزلهم الذي نزلوا به دسنا إليهم رجالاً من أهل البلد، كانوا نصارى فأسلموا وحسن إسلامهم، وأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم، ويكتموا إسلامهم، ويأتوا بأخبارهم، فكانوا يعملون ذلك.

قال: فمكثوا أياماً مقابلنا، ثلاثة أو أربعة، لا يسألوننا عن شيء ولا نسألهم عن شيء، ولا يتعرضون لنا، ولا نتعرض لهم، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً عالياً وجلبة شديدة وأصواتاً رفيعة، فظننا أن القوم يريدون النهوض إلينا، فتهيأنا وتيسرنا، ثم إنا دسنا عيوناً لنا إليهم ليأتونا بالخبر.

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٦٨ - ١٦٩.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٣.

قال: فما لبثنا إلا قليلا حتى رجعوا إلينا فأخبرونا أن بريدًا جاءهم من قبل ملك الروم، فبشرهم بما ل يقسم بينهم، ويمدد يأتيهم، وفرحوا بذلك، ورفعوا له أصواتهم.

فقام فيهم ملكهم باهان، واجتمعوا إليه، فقال لهم: إن الله لم يزل لدينكم ناصرا ومعزا ومظهرا على كل من ناوأكم، وقد جاءكم قوم يريدون أن يفسدوا عليكم دينكم ويغلبوا على بلادكم ودياركم وأموالكم، وأنتم عدد الحصا والثرى والذرّ، والله إن في هذا الوادي منكم لنحوًا من أربعمئة ألف مقاتل مع أتباعكم وأعوانكم، ومن اجتمع إليكم من سكان بلادكم، وممن هو معكم على دينكم، فلا يهولنكم أمرها، ولا القوم فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس، وجلّهم حاسر جائع، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك وأهل الحصون والقلاع، والعدة والقوة، والسلاح والكراع، فلا تبرحوا العرصة وفيهم عين تطرف حتى تهلكوهم أو تهلكوا أنتم.

فقام إليه بطارتهم، فقالوا: مُرنا بأمرك، ثم انظر ما نصنع، قال: تيسروا حتى أمركم<sup>(١)</sup>.

#### مناوشة بين بعض الجيشين:

قال أبو بشير التنوخي في سياق خبره السابق<sup>(٢)</sup>: وقد نزلنا بالمسلمين ونحن لهم هائبون، وقد كان بلغنا، أن نبيهم ﷺ قال لهم: إنكم ستظهرون على الروم، وقد كانوا واقعونا غير مرة، كل ذلك يكون لهم الظفر علينا إلا أنا إذا نظرنا إلى عددنا وجموعنا طابت أنفسنا أن مثل جمعنا ذلك لا يُفَلّ.

قال: فأقام باهان أيامًا يرأسل من حوله من الروم، ويأمرهم أن يحملوا إلى أصحابه الأسواق، وكانوا يفعلون، ولم يكن ذلك يضر المسلمين، لأن الأردن في أيديهم، فهم مخصبون بخير، فلما رأى باهان، صاحب الروم، أن ذلك لا يضرهم ولا ينقصهم، وأنهم يكتفون بالأردن بعث خيلا عظيمة ليأتيهم من

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٧٤.

(٢) أبو بشير التنوخي كان نصرانياً وجاء مع الروم ثم أسلم كما سبق في أول خبره الذي تقدم.

ورائهم، عليها بطريق عظيم من عظمائهم وبطارقتهم، وأراد أن يكفيهم بجنوده من كل جانب، وعلم المسلمون ما يريدون.

فدعا أبو عبيدة خالد بن الوليد، فبعثه في ألفي فارس، فخرج خالد حتى اعترض العليج، فلما استقبله نزل خالد في الرجالة، وبعث قيس بن هبيرة في الخيل، فحمل عليهم قيس، فاقتتلوا قتالا شديداً، وحمل قيس في خيل المسلمين على خيلهم، فهزمها حتى اضطرها إلى الرجالة الذين مع خالد، ومشى خالد في الرجالة حتى إذا دنا من البطريق شدّ عليه رايته، وشد معه المسلمون، فضربوهم بالسيوف حتى تبددوا وانهزموا، وقُتل منهم مقتلة عظيمة.

وقال قيس لرجل من بني نمر مرّ به البطريق يركض منهزماً: يا أخا بني نمر، لا يفوتك البطريق، فإني والله قد كددت فرسي على هذا العدو من هذا اليوم حتى ما عند فرسي من جري.

فحمل عليه النميري، فركض في إثره ساعة، ثم إنه أدركه، فلما رأى البطريق أنه قد غشيه وأحرجه عطف عليه البطريق، فاضطربا بسيفيهما، فلم يصنع السيفان شيئاً، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، ووقعا على الأرض، فاعتركا ساعة، ثم صرعه النميري، ووقع النميري على صدر البطريق، فضمّه البطريق إليه، وكان مثل الأسد، فجعل النميري لا يستطيع أن يتحرك، وبصر بهما قيس، فجاء حتى وقف عليهما فقال: يا أخا بني نمر، قتلت الرجل إن شاء الله؟ قال: لا، والله ما أستطيع أن أتحرك، ولا أضربه بشيء، ولقد ضمّني بفخذه وأمسك يدي بيديه، فنزل إليه قيس فضربه فقطع إحدى يديه، ثم تركه وانطلق وقال للنميري: شأنك به، وقام النميري، فضربه بسيفه حتى قتله.

ومرّ به خالد بن الوليد، فقال له: ما هذا يا قيس، ومن قتله؟ فقال له قيس: قتله هذا النميري، ولم يخبره ما صنع هو به<sup>(١)</sup>.

### تنظيم جيش المسلمين:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي من خبر الحارث بن عبدالله الأزدي، ثم النميري. قال: لما نزل أبو عبيدة بن الجراح اليرموك وضم إليه

(١) فتوح الشام ١٧٨ - ١٧٩.

قواصيه، وجاءتنا جموع الروم وهم يجرون الشوك والشجر، ومعهم صلبهم ومعهم القسيسون والرهبان والأساقفة والبطارقة، ورهبانهم يقصون عليهم، وبطارقتهم يحرضونهم فجاؤوا حتى نزلوا دير الجبل، فلما أقبلوا إلى المسلمين بتلك الجموع خافهم المسلمون فما كان شيء أحب إليهم من أن يخرجوا لهم، ويتنحوا عن بلادهم حتى يأتيهم مدد يرون أنهم يقوون به على من جاءهم من الروم.

قال: فدعا أبو عبيدة الناس، فاستشارهم، فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام إلا خالد بن الوليد، فإنه أشار عليه بالمقام، وقال لأبي عبيدة: خلني والناس ودعني والأمر، وولني ما وراء بابك فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو، فقال له أبو عبيدة: شأنك بالناس، فخلاه وإياهم.

قال: وكان قيس بن هبيرة المرادي على مثل رأي خالد بن الوليد في المقام بأرض الشام، ولم يكن في المسلمين أحد يعدلها في الحرب وشدة البأس.

قال: فخرج خالد بالناس وهم بأحسن شيء رعة، ودعة وهيئة، وأشدهم في لقاء عدوهم بصيرة، وأطيبهم أنفسا بقتالهم.

قال: فصفهم خالد ثلاثة صفوف، وجعل ميمنة وميسرة، ثم إن خالد أتى أبا عبيدة فقال: من كنت تجعل على ميمنتك؟ قال: معاذ بن جبل، قال: أهل ذلك هو الرضا والثقة. فولها إياه، فأمر أبو عبيدة معاذًا، فوقف في الميمنة.

ثم قال خالد: من كنت تولي الميسرة؟ قال: غير واحد، قال: فولها قباث بن أشيم إن رأيت، فأمره أبو عبيدة، فوقف في الميسرة، وكان فيها كنانة وقيس، وكان قباث كنانيًا، وكان شجاعًا بئيساً<sup>(١)</sup>.

وقال خالد: وأنا على الخيل، وول على الرجالة من شئت.

قال: أوليها إن شاء الله من لا يخاف نكوله ولا صدوره عند البأس، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، قال: وفقت ورشدت.

قال أبو عبيدة: انزل يا هاشم فأنت على الرجالة وأنا معك.

(١) يعني أنه شديد البأس.

وقال خالد لأبي عبيدة: ابعث إلى أهل كل راية فمرهم أن يطيعوني، فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك، فخرج الضحاك يسير في الناس، ويقول لهم: إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به.

فقال الناس: سمعنا وأطعنا، ومر الضحاك بمعاذ بن جبل، فأمره بطاعة خالد ابن الوليد، فقال معاذ: سمعنا وأطعنا، ثم نظر إلى الناس فقال: أما والله إن أطعتموه لتطعينّ مبارك الأمر، ميمون النقيية، عظيم الغناء، حسن الحسبة والنية.

قال الضحاك: فحدثت خالدًا بمقالة معاذ بن جبل، وقلت له: لقد سمعت معاذًا يحسن عليك الثناء، وقال فيك كيت وكيت، فقال لي: رحم الله أخي معاذًا، أما والله إن أحبني إني لأحبه في الله، لقد سبقت له ولأصحابه سوابق لا ندركها ولا نبلغها ولا ننالها، فهنيئًا لهم بما خصهم الله به من ذلك.

قال الضحاك: فلقيت معاذًا فأخبرته بما قلت لخالد وما ردّ به عليّ خالد، فقال معاذ: أما إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه على جهاد المشركين، وشدته عليهم، وجهاده إياهم مع بصيرته وحسن نيته، وإعزاز دينه أحسن الثواب، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملاً.

فلقيت خالدًا بذلك، فقال: ما شيء على الله بعزير.

قال: ثم إن خالدًا سار في الصفوف يقف على أهل كل راية ويقول: يا أهل الإسلام، إن الصبر عز وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر تنصرون فإن الصابرين هم الأعلون، وإنه إلى الفشل ما يحور المبطل الضعيف، وأن المحق لا يفشل، يعلم أن الله معه، وأنه عن حرم الله يذبّ وعنه يقاتل، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه، إنه شاكر يحب الشاكرين.

قال: فما زال يقف على كل راية يعظهم ويحضهم ويرغبهم حتى مر بجماعة الناس، ثم إنه جمع إليه خيل المسلمين، ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي وكان يساعده ويوافقه ويشبهه في جلده وشدته، وشجاعته وإقدامه على المشركين، فقال له خالد: أنت فارس العرب، وقلّ من حضرها اليوم يعدلك عندي، فاخرج معي في هذه الخيل.



وبعث إلى ميسرة بن مسروق العبسي، وكان من أشرف العرب وفرسانهم، ودعا عمرو بن الطفيل بن عمرو ذي النور الأزدي ثم الدؤسي فخرج معه.

ثم قسموا الخيل أرباعاً، فبعث كل رجل منهم على ربع، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين حتى دنا من عسكر الروم الأعظم الذي فيه باهان.

فلما رأتهم الروم فزعوا لمجيئهم إليهم، وقد كانوا أتوا، فأخبروا أن العرب يريدون الانصراف عن أرض الشام، وأن يخلوكم وإياها، فكان ذلك قد وقع على أنفسهم، وطمعوا به، ورجوا ألا يكون بينهم قتال، وصدّق ذلك عندهم خروجهم من بين أيديهم يسوقونهم وهم يدعون لهم الأرض والمدائن التي كانوا قد غلبوا عليها فيما بينهم وبين اليرموك ودمشق وحمص وما حولها، فلما رأوا خالدًا قد أقبل عليهم في الخيل أفزعهم ذلك، وخرجوا على راياتهم، وخرجوا بصلبهم والقسيين والرهبان والبطارقة، فصفوا عشرين صفًا، لا يرى طرفها<sup>(١)</sup>.

هذا وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن سيف بن عمر عن شيوخه أن الروم خرجوا في تعبئة لم ير الراءون مثلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم يُعبها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا إلى الأربعين.

وجاء في هذه الرواية أن خالدًا قال: إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبئة أكثر في رأي العين من الكراديس<sup>(٢)</sup>.

وهكذا حاول خالد أن يخفف من الفرق الهائل بين الجيشين في نظر العين، ويُعتبر هذا التنظيم من عبقرياته في التخطيط الحربي.

### مبارزة ومناوشات:

ثم أخرجوا إلى المسلمين خيلاً عظيمة أضعاف خيل المسلمين، فلما دنت من خيل المسلمين خرج بطريق من بطارقتهم وشجعانهم يسأل المبارزة ويتعرض لخيل المسلمين.

فقال خالد: أما لهذا رجل يخرج إليه؟ ليخرجن إليه بعضكم أو لأخرجن إليه، فتفّلت إليه عدة من المسلمين ليخرجوا إليه، فأراد ميسرة بن مسروق أن يخرج إليه فقال له خالد: أنت شيخ كبير، وهذا الرومي شاب، ولا أحب أن تخرج إليه،

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٨٧ - ١٩١. (٢) الكردوس الكتبية وهي جزء من الجيش.

فإنه لا يكاد الشيخ الكبير يقوى على الشاب الحديث السنّ، فقف لنا رحمك الله، في كتيبتك، فإنك ما علمت حسن البلاء عظيم الغناء، وأراد عمرو بن الطفيل أن يخرج إليه، فقال له خالد: يا ابن أخي، أنت غلام حديث السن، وأخاف ألا تقوى عليه.

قال الحارث بن عبدالله الأزدي: وكنت في خيل خالد التي خرجت معه، فقلت، فأنا أخرج إليه، فقال: ما شئت، فلما ذهبت لأخرج إليه قال لي خالد: هل بارزت رجلا قط قبله؟ قلت: لا، قال: فلا تخرج إليه.

قال قيس بن هبيرة. يا خالد، كأنك عليّ تُحوّط؟ قال له: أجل، فإني أرجو إن خرجت إليه أن تقتله، فإن أنت لم تخرج إليه لأخرجن إليه أنا.

فقال قيس: بل أنا أخرج إليه، فخرج إليه قيس وهو يقول:

سَائِلُ نِسَاءِ الْحَيِّ فِي حِجَالِهَا<sup>(١)</sup> أَلَسْتُ يَوْمَ الْحَرْبِ مِنْ أَبْطَالِهَا  
مُقَعِّصُ الْأَقْرَانِ مِنْ رِجَالِهَا

فخرج إليه، فلما دنا منه ضرب فرسه، ثم حمل عليه قيس، فما هلهل<sup>(٢)</sup> أن ضربه بالسيف على هامته، فقطع ما عليه من السلاح، وفتق هامته فإذا الرومي بين يدي فرسه قتيلا، وكبر المسلمون.

فقال خالد: ما بعد ما ترون إلا الفتح، احمل عليهم يا قيس.

ثم أقبل خالد على أصحابه، فقال: احملوا عليهم، فوالله لا يفلحون، وأولهم فارس متعفر في التراب.

قال: فحملنا عليهم وعلى من يلينا منهم، ومن خيلهم وهي مستقدمة أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال.

قال قيس: فحملنا عليهم، فكشفنا خيلهم حتى لحقت بالصفوف، وحمل عليهم خالد وأصحابه على من يليهم، فكشفوهم حتى ألحقوهم بالصفوف، وحمل عمرو بن الطفيل الأزدي وميسرة بن مسروق العبسي في أصحابهما حتى ألحقوهم بالصفوف، صفوف المشركين.

(١) الحجال القباب والستور.

(٢) أي انتظر.

ثم إن خالدًا أمر خيله، فانصرفت عنهم، ثم أقبل بها حتى لحق بجماعة المسلمين، وقد أراهم الله السرور في المشركين، وتلاومت بطارقة الروم، وقال بعضهم لبعض: جاءتكم خيل لعدوكم ليست بالكثيرة، فكشفت خيولكم من كل جانب.

فأقبلت منهم كتائب في إثر كتائب، فطبقت الأرض مثل الليل والليل، كأنها الجراد السود، وظن المسلمون أنهم سيخالطونهم، والمسلمون جرءاء عليهم، سراع إليهم، فأقبلوا حتى إذا دنوا من جماعة المسلمين واقتربوا منهم ومن خيلهم وقفوا ساعة وقد هابوهم، وامتألت صدورهم من المسلمين خوفًا.

فقال خالد للمسلمين: قد رجعنا عنهم، ولنا الظفر عليهم وعليهم الدبرة، فاثبتوا لهم ساعة، فإن أقدموا علينا قاتلناهم، وإن رجعوا عنا كان لنا الظفر والفضل عليهم، فأخذوا يقربون من المسلمين ثم يرجعون، والمسلمون في مصافهم وتحت راياتهم سكوت، لا يتكلم رجل منهم كلمة إلا أن يدعو الله في نفسه، ويستنصره على عدوه<sup>(١)</sup>.

### عدول الروم إلى المفاوضات:

فلما نظرت الروم إلى حالهم تلك، وإلى خيل المسلمين ورجالتهم ومصافهم، وحدهم وجددهم، وصبرهم وسكوتهم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فواقفوهم ساعة، ثم انصرفوا راجعين عنهم إلى عسكرهم.

قال: فاجتمعت بطارقتهم وأمراؤهم وعظماؤهم وفرسانهم إلى باهان، وهو أمير جماعتهم، فقال لهم باهان:

إني قد رأيت رأيًا، وأنا ذاكره لكم، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بلادكم، وركبوا مراكبكم، وطعموا من طعامكم ولبسوا من لباسكم، فعَدَلُ الموت عندهم أن يفارقوا ما قد تطعموه من عيشكم الرفيع، ودنياكم التي لم يروا مثلها قط، وقد رأيت إن رأيتم ذلك أن أسألهم أن يبعثوا إلينا رجلاً منهم له عقل، فننطقه ونشافهه، ونطمعهم في شيء يرجعون به إلى أهلهم، لعل ذلك يُسخي بأنفسهم

(١) فتوح الشام للأزدي/ ١٩١ - ١٩٤.

عن بلادنا، فإن هم فعلوا ذلك كان الذي يريدون منا قليلاً فيما نخاف، وندفع به خطر الواقعة التي لا تدرون تكون علينا أم لنا.

فقالوا له: قد أصبت، وأحسنْتَ النظر لجماعتنا، فاعمل برأيك.

وإن في هذا الكلام الذي صدر من أكبر وأعقل قوادهم لدليلاً على أنهم لم يفهموا هدف المسلمين الأسمى من غزو بلادهم، فهم ينسبون ذلك إلى طمع المسلمين فيما في بلادهم من الخيرات وما يعيش به المسلمون في بلادهم من شظف العيش وقلة الموارد، ولذلك فإنهم لا يزالون يطمعون في قبول المسلمين لما يعرضونه عليهم من الصلح على أموال يدفعونها لهم.

وقد سبق أن عرضوا ذلك على المسلمين بالحاح في معركة فحل وكان السفير إليهم معاذ بن جبل ورد عليهم بكلام لا محيد عنه، ثم أجابهم أبو عبيدة بجواب معاذ نفسه، ولكنهم في هذه المرة قد اغتروا بجموعهم العظيمة، وبكون المسلمين تراجعوا إلى جنوب الشام، فحاولوا إعادة عروضهم السابقة.

وهكذا نجد الكفار في كل زمن لا يفقه كثير منهم هدف المسلمين الواحد الذي لا يتغير منذ بعث الله تعالى نبيه ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك نجدهم يتورطون كثيراً في حروبهم مع المسلمين الصادقين ولكنهم ينسون هذا الهدف السامي أحياناً لكثرة من يواجهون من المسلمين غير الصادقين على مدار التاريخ الذين يقعون فريسة لفتنة الترغيب أو الترهيب من قبل الأعداء.

ولقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثال في صلابة الموقف أمام جميع الأعداء، والامتناع التام من الخضوع لمطالبهم والاستجابة لتهديدهم أو إغرائهم، وكان جوابهم في كل موقف تعرضوا له جواباً واحداً لا يتغير، مما يدل على عمق التربية الدينية التي رباهم عليها الرسول ﷺ.

هذا ولما عرض باهان على قادة جيشه هذا الرأي قالوا: قد أصبت وأحسنْتَ النظر لجماعتنا فاعمل برأيك، فبعث رجلاً من خيارهم وعظمائهم اسمه «جرجه» حتى أتى أبا عبيدة فقال له: «إني رسول «باهان» عامل ملك الروم على الشام وعلى هذه الجنود وهو يقول لك: أرسل إليَّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميراً

فإنه قد دُكر لي أن ذلك الرجل له عقل وله فيكم حسب، وقد سمعنا أن عقول ذوي الأحساب أفضل من عقول غيرهم، فنخبره بما نريد، ونسأله عما تريدون، فإن وقع فيما بيننا وبينكم أمر لنا ولكم فيه صلاح أو رضياً أخذنا به وحمدنا الله عليه، وإن لم يتفق ذلك فيما بيننا وبينكم كان القتال من وراء ما هناك».

وهكذا نص قائدهم على أمير المسلمين السابق خالد بن الوليد، ولعله نص عليه لكونه أصلب المسلمين موقفاً في قتال الروم، فلو استطاع إقناعه بالصلح والانسحاب لرجا بذلك أن يحوز على قناعة المسلمين، وهو ينطلق في ذلك أيضاً من المفاهيم البشرية التي تسود عموم البشر في كل الأزمان إذا تخللوا عن شريعة الله، من أن الرجل القوي القيادي في الجيش يغيّر من آراء أفراد الجيش غالباً، ولا يعلم هؤلاء أنه مهما بلغ القائد عند المسلمين من القوة ونباهة الذكر فإن تأثيره على الجيش لا يعدو الأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص ملزم من شريعة الإسلام.

وهكذا فكر باهان في عرض الصلح على المسلمين مع أن معه جيشاً يبلغ عشرة أضعافهم، وهذا دليل واضح على أن الروم قد أصيبوا بالرعب من المسلمين على الرغم من تفوقهم الكبير في الجيش والإعداد العسكرى.

إن المنتظر في مثل هذه الحال أن يكون لدى الروم إقدام شديد وحماس قوي نحو الحرب حتى يقضوا على عدوهم الذي أرعبهم وأزال دولتهم من الشام، مادامت الفرصة قد واتتهم وجمعوا ذلك الجمع الكبير الذي يصعب جمعه مرة أخرى.

ومن المنتظر عادة أن الذي يطلب الصلح هو الضعيف القليل العدد الذي يخشى على نفسه من الإبادة وسط جيش عظيم.

ولكن الذي حدث خلاف ذلك تماماً، لقد كان المسلمون في منتهى الإقدام والحماس، وكان الروم في منتهى الرعب والخوف، وماذاك إلا من أثر سلاح الرعب الذي ينصر الله تعالى به أوليائه المؤمنين.

قال: وجاء رسولهم هذا الرومي عند غروب الشمس، فلم يمكث إلا يسيراً حتى حضرت الصلاة، فقام المسلمون يصلون صلاتهم، فلما قضوا صلاتهم قال خالد للرومي:

- هذا الليل قد غشينا، ولكن إذا أصبحت غدوت إلى صاحبك، إن شاء الله، فأرجع إليه، فأعلمه ذلك، وجعل المسلمون ينتظرون الرومي أن يقوم إلى صاحبه، فيرجع إليه، فيخبره بما ردّوا عليه، وأخذ الرومي لا يبرح، وجعل ينظر إلى رجال من المسلمين يصلون، وهم يدعون الله، ويتضرعون إليه.

فقال عمرو بن العاص: إن رسولكم هذا الذي أرسل إليكم لمجنون؛ فقال أبو عبيدة: كلا، أو ما تفتن إلى نظره إلى المسلمين؟ وجعل الرومي ما يفيق ولا يطرف بصره عنهم.

فقال أبو عبيدة: والله إنني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحبّه إليه، وعرفه فضله، فلبث الرومي بذلك قليلاً، ثم أقبل على أبي عبيدة، فقال: أيها الرجل، متى دخلتم في هذا الدين؟ ومتى دعوتم إليه الناس؟

قال أبو عبيدة: دعينا إليه منذ بضع وعشرين سنة، فمنا من أسلم حين أتاه الرسول، ومنا من أسلم بعد ذلك.

فقال: هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول؟

فقال: لا، ولكنه أخبرنا أنه لا نبي بعده، وأخبرنا أن عيسى بن مريم قد بشر به قومه.

قال الرومي: أنا على ذلك من الشاهدين، أن عيسى بن مريم قد بشرنا براكب الجمل، وما أظنه إلا صاحبكم.

وقال الرومي: أخبروني عن قول صاحبكم في عيسى بن مريم ما كان، وما قولكم أنتم فيه؟

قال أبو عبيدة: قول صاحبنا قول الله، وهو أصدق القول وأبره قال الله في عيسى بن مريم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال الله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ

مَنْهُ ﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَإِلَى قَوْلِهِ ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧١ ، ١٧٢] (١).

فلما فسّر له الترجمان هذا بالرومية، وبلغ هذا المكان قال: أشهد أن هذه صفة عيسى نفسه، وأشهد أن نبيكم صادق، وأنه الذي بشرنا به عيسى، وأنكم قوم صدق. وقال لأبي عبيدة: ادع لي رجلين من أول أصحابك إسلامًا، وهما فيما ترى أفضل من معك.

فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، فقال: هذان من أفضل المسلمين فضلًا، ومن أول المسلمين إسلامًا.

فقال لهما الرومي ولأبي عبيدة: أضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت وجاهدت معكم؟ فقالوا له: نعم، إن أنت أسلمت ولم تغير حتى تموت وأنت على ذلك فإنك من أهل الجنة.

قال: فإنني أشهدكم أنني من المسلمين، فأسلم، وفرح المسلمون بإسلامه، وصافحوه ودعوا له بخير، وقالوا له: إنا إن أرسلنا رسولنا غدا إلى صاحبكم وأنت عندنا ظنوا أنا حبسناك عنهم، فنتخوف أن يحبسوا صاحبنا، فإن شئت أن تأتيهم الليلة، وتكتم إسلامك حتى نبعث رسولنا إليهم غدًا، وينصرف. وننظر على ما ينصرم الأمر فيما بيننا وبينهم، فإذا رجع رسولنا إلينا أتيتنا عند ذلك، فما أعزك علينا، وأرغبنا فيك، وأكرمك علينا، وما أنت عند كل امرئ منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه.

قال: فإنكم نعم ما رأيتم، فخرج، فبات في أصحابه، وأتى باهان فقال له: غدا يجيئكم رسول القوم الذي سألتهم، فلما أصبح الرومي، وانصرف خالد راجعًا إلى أصحابه من قبل باهان أقبل الرومي حتى لحق بالمسلمين، فأسلم وحسن إسلامه، وكان له نجدة ونكاية في المشركين رحمه الله.

(١) وتكملة الآية الأولى: ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

قال: فدعا أبو عبيدة خالدًا فأخبره الذي جاء فيه جرحه وقال لخالد: القهم فادعهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فهو حظهم، وكانوا قومًا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن أبوا فاعرض عليهم الجزية بأن يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا فأعلمهم أننا نناجزهم ونستعين الله عليهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين.

هكذا بهذا الحكم الثابت أوصى أبو عبيدة خالدًا، ولو علم الروم باعتصام المسلمين بهذا الحكم لأراحوا أنفسهم من عناء التفكير في محاولة إقناع المسلمين بقبول رأيهم في الصلح.

### حوار خالد مع الروم:

هذا ولما عزم خالد على المسير لمقابلة قائد الروم أمر بخيمة له من الجلد فضربت له في معسكر الروم، وخرج خالد فأقام بها بعض الوقت، ثم بعث باهان إلى خالد يدعوه إلى لقائه، وقد صفّ في طريقه عشرة صفوف عن يمينه ومثلها عن شماله مقنّعين بالحديد لا يرى منهم إلا عيونهم، محمّلين بأنواع الأسلحة، وصفّ من وراء تلك الصفوف خيلاً عظيمة لا يرى طرفاها، وإنما أراد باهان بذلك أن يُري خالدًا حدة الروم وعددهم ليرعبه بذلك، وليكون ذلك أسرع إلى ما يريد أن يعرض عليه من الصلح والمهادنة، فأقبل خالد غير مكترث بما رأى من هيئتهم وجماعتهم، وكأنها أهون عليه من الكلاب.

وهكذا بدأ باهان مع خالد بفتنة الإرهاب والتخويف، ولكن خالدًا لم يتأثر بشيء مما رأى من كثرتهم وتنوع أسلحتهم، لأنه يعتبر القوة المادية في المقام الثاني، ويعتبر القوة المعنوية في المقام الأول، وهو يعلم يقينًا أن الكفار جميعًا لا يصلون إلى مستوى المسلمين في هذا المجال حتى ولو كانوا عشرة أضعاف المسلمين، فلما دنا من باهان رحب به، ثم قال بلسانه: هاهنا عندي اجلس معي فإنك من ذوي أحساب العرب فيما ذكر لي، ومن شجعانهم، ونحن نحب الشجاع ذا الحسب، وقد ذُكر لي أن لك عقلاً ووفاء، والعاقلة ينفعك كلامه وذو الوفاء يصدق قوله ويوثق بعهده، وأجلس فيما بينه وبين خالد ترجمانًا، فهو يفسر لخالد ما يقول، وخالد جالس إلى جانبه.



ثم قال باهان لخالد: أخبرني عنك وأنت هكذا، أحتاج إلى مشورة هذا الرجل معك؟

فقال له خالد: وقد تعجب من ذلك، إن في عسكرنا هذا لأكثر من ألفي رجل، كلهم لا يُستغنى عن رأيه وعن مشورته.

فقال له باهان: ما كنا نظن ذلك عندكم ولا نراكم به.

قال خالد: ما كل ما تظنون ونظن يكون صوابا، قال باهان: صدقت.

ثم قال باهان: إن أول ما أكلمك به أن أدعوك إلى خُلَّتِي ومصافاتي.

وهذا من الأمور الغريبة أن يدعو قائد الروم قائد المسلمين إلى الخلة والمصافاة وقد تقابلا في الميدان، والروم في اعتقادهم أن المسلمين معتدون عليهم، فالوضع الطبيعي أن تحصل إرادة النعمة والإعدام بدلاً من إرادة الخلة والمصافاة، ولكن إذا علمنا أن ذلك نوع من النفاق السياسي الذي يتعامل به الأعداء مع المسلمين وغيرهم ويعتبرونه من الحنكة السياسية والبراعة في احتواء الخصوم. . إذا علمنا ذلك فإن الغرابة تزول لأن هذا خلق من أخلاق الكفار التي لا يرون فيها جرحاً لمكارم الأخلاق، أما المسلمون فإنهم بمقتضى توجهات دينهم يعتبرون ذلك من مساوئ الأخلاق التي لا يتصف بها إلا المنافقون، ولذلك أجاب خالد قائد الروم بقوله: فكيف لي ولك أن يتم هذا فيما بيني وبينك وقد جمعتني وإياك بلدة لا أريد أنا ولا تريد أنت أن نفترق حتى تصير البلدة لأحدنا؟

فقال باهان: فلعل الله يصلح بيننا وبينكم ولا يهراق دم ولا يقتل قتيل، فقال خالد: إن شاء الله فعل.

انتقل باهان بعد ذلك إلى لون آخر من محاولة احتواء خالد حيث قال له: فإني أريد أن أُلقي الحشمة فيما بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه وإن قبلك هذه الحمراء قد أعجبتني، وأنا أحب أن تهبها لي، فإني لم أرَ قبة من القباب أحسن منها وأفضل، فخذ ما بدا لك فيها وسلني ما أحببت فهو في يديك وهب لي هذه القبة فهي أطرف مما عندنا.

وهكذا رأينا باهان يساوم خالدًا في خيمته الجلدية ويبيدي استعداداه لدفع ما يريد خالد من أموال، وهو الذي يملك أفخر القباب، وأنعم الأثاث، فهل كان فعلاً يريد شراء هذه الخيمة أم كان يريد شراء خالد بالإغراء المادى؟!!

إن هذا الأخير هو المتبادر إلى الذهن في معاملة تدور بين قائدين من أعظم قادة العالم آنذاك، فماذا كان جواب خالد له؟ لقد قال له: هي لك فخذها ولست أريد من متاعك شيئاً، لقد فوتَّ خالد عليه مراده من هذه المساومة، وعلم باهان أنه لا جدوى من محاولاته التي يقوم بها لاحتواء خالد، فتحول إلى عرض المفاوضة التي يريدها فقال لخالد: إن شئت بدأنك بالكلام وإن شئت أنت فتكلم.

فقال خالد: ما أبالي أي ذلك كان، أما أنا فلا إخالك إلا وقد علمت وبلغك ما أسأل وما أطلب وما أدعو إليه، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم بأجنادين ومرج الصُفْرَ وفحل ومدائنكم وحصونكم، وأما أنت فلست أدري ما تريد أن تقول، فإن شئت فتكلم، وإن شئت بدأتك فتكلمت.

وهكذا أشعره خالد بأنه لا جديد لديه، وإنما مطلبه الآن هو نفس العرض السابق الذي يقدمه المسلمون في كل لقاء بينهم وبين أعدائهم، فهو مطلب واحد لا تنازل فيه ولا تحوُّل عنه.

فقال باهان: الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء، وملكننا أفضل الملوك، وأمتنا خير الأمم.

فلما بلغ هذا المكان قال خالد للترجمان، وقطع على صاحب الروم منطقته، ثم قال: والحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبينا وجميع الأنبياء، وجعل الأمير الذي وليناه أمورنا رجلاً كبعضنا، فلو زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنا، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلاً، إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبر، والحمد لله الذي جعل أمتنا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقر بالذنب وتستغفر الله منه، وتعبد الله وحده، لا تشرك به شيئاً، قل الآن ما بدا لك.

فاصفرَّ وجه باهان، ومكث قليلاً، ثم قال باهان: الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء عندنا، وأغنانا من الفقر، ونصرنا على الأمم وأعزنا فلا نذلّ، ومنعنا من

الضيم، فلا يباح حريمنا، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا ببطرين ولا مرحين ولا باغين على الناس، وقد كانت لنا منكم يا معشر العرب جيران كنا نحسن جوارهم، ونعظم قدرهم، ونفضل عليهم، ونفي لهم بالعهد، وخيرناهم بلادنا، ينزلون منها حيث شاءوا، فينزلون آمنين، ويرحلون آمنين، وكنا نرى أن جميع العرب ممن لا يجاورنا سيشكر لنا ذلك الذي أتينا إلى إخوانهم، وما اصطنعنا عندهم، فلم يرعنا منكم إلا وقد فاجأتمونا بالخيال والرجال، تقاتلوننا على حصوننا، وتريدون أن تغلبونا على بلادنا، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عددًا، وأعظم مكيدة، وأوفى جنداً، ثم رددناهم عنها، فلم يرجعوا عنا إلا وهم بين قتيل وأسير.

وأراد منا ذلك فارس، فقد بلغكم كيف صنع الله عز وجل بهم، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم بأشد مما لقينا به فارس، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوي المنعة والعز والجنود العظيمة، فكلهم أظفروا الله بهم، وصنع لنا عليهم، ولم تكن أمة من الأمم بأرق عندنا منكم شأنًا، ولا أصغر أخطارًا، إنما جلكم رعاء الشاء والإبل، وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء، فأنتم تطمعون أن نُجَلِّي لكم عن بلادنا، بس ما طمعتم فيه منها، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا - ونحن يتقي كل من حولنا من الأمم العظيمة الشأن الكثيرة العدد كثرتنا وشدة شوكتنا- إلا جهد نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر، فعثيتم في بلادنا، وأفسدتم كل الفساد، وقد ركبتكم مراكبنا، وليست كمرابكم، ولبستم ثيابنا، وليست كثيابكم، وثياب الروم كأنها صفائح الفضة، وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم، وأصبتم منا، وملاتم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة البيضاء، والمتاع الفاخر، ولقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا، وهو في أيديكم، فنحن نسلمه لكم، واخرجوا به، وانصرفوا عن بلادنا.

فإن أبت أنفسكم إلا أن تحرصوا وتشرهوا، وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا ما يقوى به الضعيف منكم، ويرى الغائب أن قد رجع إلى أهله بخير، فعلنا، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار، ونأمر لك بمثلها، ونأمر لرؤسائكم بألف دينار، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلظة ألا تعودوا إلى بلادنا، ثم سكت.

وهنا وصل باهان إلى تفصيل ما يريد عرضه من أمر الصلح في مقابل أن تدفع دولة الروم للمسلمين مبالغ ضخمة من الدنانير تصل إلى الملايين، بالرغم من أن خالدًا جابهه بما يُقنطه ويدفعه إلى اليأس من احتوائه وموافقته على ما يريد، وبالرغم من القوات الهائلة التي يقودها، ولكن لعله مأمور بأن ينفذ هذه الخطة فلا بد من عرضها وإن فقدت جدواها.

وبهذا نجد الفرق واضحًا بين تصرف قادة المسلمين وقادة الكفار، فكلهم يسرون وفق مخطط مرسوم، ويطيعون قاداتهم الكبار، ولكن قادة المسلمين لا ينفذون الأوامر باعتبارها أوامر بشرية فحسب، بل باعتبارها أوامر إلهية. ومن ضمن هذه الأوامر طاعة المسؤولين الكبار في حدود طاعة الله تعالى، ثم إنهم يأخذون حريتهم الكاملة في الأمور الاجتهادية التي هي دون الأمور الثابتة، والتي تتطلبها المواقف المتغيرة، ولذلك فإن أحكامهم في اتخاذ المواقف لا تتسم بالحيرة والشذوذ بل تنسجم مع متطلب العقل السليم، بخلاف مواقف قادة الكفار التي يغلب عليها الاضطراب والحيرة، وينفر من قبولها العقل السليم.

فقال خالد رضي الله عنه: الحمد لله الذي لا إله إلا هو.

فلما فسّر له الترجمان قوله: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، رفع يده إلى السماء ثم قال لخالد: نعم ما قلت.

ثم قال خالد: وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

فلما فسّر له الترجمان قال باهان: الله أعلم، ما أدري لعله كما تقول، فأخبر الترجمان خالدًا.

ثم قال خالد رضي الله عنه: أما بعد فإن كل ما ذكرت به قومك من الغنى والعز، ومنع الحرير، والظهور على الأعداء، والتمكن في البلاد فنحن به عارفون، وكل ما ذكرت من إنعامكم على جيرانكم منا فقد عرفناه، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم، وإصلاحكم وإحسانكم إليهم كان ذلك زيادة في ملككم وعزًا لكم، ألا ترون أن ثلثيهم أو شطرهم دخلوا معكم في دينكم فهم يقاتلوننا معكم؟

وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والغنم فما أقل من رأيت واحداً منا يكرهه، وما لمن يكرهه منا فضل على من يفعله، وأما قولكم إنا أهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء فحالتنا والله كما وصفت، ما نتفي من ذلك ولا نتبرأ منه، وكنا على أسوأ وأشد مما ذكرت، وسأقص عليك قصتنا، وأعرض عليك أمرنا، وأدعوك إلى حظك إن قبلت.

ألا إنا كنا، معشر العرب، أمة من هذه الأمم أنزلنا الله -له الحمد- منزلاً من الأرض، ليست به أنهار جارية، ولا يكون به من الزرع إلا القليل، وكل أرضنا المهامة والقفار، فكنا أهل حجر ومدر، وشاء وبعير، وعيش شديد، وبلاء دائم لازم، نقطع أرحامنا، ونقتل خشية الإملاق أولادنا، ويأكل قوينا ضعيفنا، وكثيرنا قليلنا، ولا تأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة، نعبد من دون الله أرباباً وأصناماً ننحتها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا، وهي لا تضر ولا تنفع، ونحن عليها مكبون.

فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار، من مات منا مات مشركاً، وصار إلى النار، ومن بقي منا بقي كافراً مشركاً بربه، قاطعاً لرحمه إذ بعث الله فينا رسولا من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا وأفضلنا، دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركون دونه، وقال لنا: لا تتخذوا من دون الله ربكم إلهاً، ولا ولياً ولا نصيراً، ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولدًا، ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً، ولا شمساً ولا قمرًا، واكتفوا به رباً وإلهاً من كل شيء دونه، وكونوا أولياءه، وإليه فادعوا وإليه فارغبوا.

وقال لنا: قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى، وكل من زعم أن الله ولدًا، وأنه ثاني اثنين، أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ويدخلوا في الإسلام، فإن فعلوا حرمت عليكم دماءهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها، وهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم فاعرضوا عليهم الجزية، أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، وإن أبوا فقاتلوهم، فإنه من قُتل منكم كان

شهيدياً عند الله مرزوقاً وأدخله الله الجنة، ومن قتل من عدوكم قتل كافرًا وصار إلى النار مخلدًا فيها أبدًا.

ثم قال خالد: وهذا والله الذي لا إله إلا هو، أمر الله به نبيه ﷺ، فعلمناه وأمرنا أن ندعو الناس إليه، ونحن ندعوكم إلى ما دعا إليه نبينا ﷺ، وإلى ما أمرنا به أن ندعو الناس إليه، فندعوكم إلى الإسلام، وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإلى أن تقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتقروا بما جاء من عند الله عز وجل فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسلام، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فإننا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن فعلتم قبلنا منكم، وكففنا عنكم، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم، وهم أحرص على الموت منكم على الحياة، فأخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم إلى الله، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

وهكذا أنهى خالد بيانه بهذه الخيارات الثلاثة التي دعا إليها باهان وجيشه، وقد تحير باهان أمامها وانزعج كثيرًا، لأنه لا يرضى هو ولا قومه بالخيارين الأولين، فلم يبق إلا الخيار الثالث، وهو الذي حاول بكل جهوده السابقة أن يتلافاه لحوفه من مواجهته وشكّه في عاقبته، ولكنه أمر لا محيد عنه، ولذلك قال باهان: «أما أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه ويدخل في دينكم، وأما أن نؤدي الجزية - وتنفس صعدًا وثقلت عليه وعظمت عنده. فقال - فسيموت من ترى جميعًا قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس، وهم يأخذون الجزية ولا يعطونها، وأما قولك فأخرجوا حتى يحكم الله بيننا فلعمري ما جاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك الله، وأما قولك إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فصدمت، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فيها فقاتلناهم عليها فأخرجناهم منها، وقد كانت قبل ذلك لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كنا قاتلناهم فيها، فابرزوا على اسم الله فإننا خارجون إليكم.

هذا وفي كلام باهان ما يدل على تشاؤمه من هذه الحرب وأنه يتوقع أن يرث المسلمون بلاد الشام كما ورثها الروم من أسلافهم.

كما تدل هذه المحاوره على أن هذا القائد كان من أفضل قادة الروم وأنبلهم ولكن رجاحة العقل لا تجدي شيئاً إذا فُقدت الهداية إلى الصراط المستقيم .

هذا وقد جاء في سياق الرواية المذكورة أن سفيان بن سليم الأزدي قال: قال لي الحارث بن عبد الله الأزدي: فلما فرغ باهان من كلامه وثب خالد فقام، وقمت معه، فمرّ بقبته فتركها له، ومضينا حتى خرجنا من عسكرهم .

قال: وبعث معنا صاحب الروم رجالا أخرجونا من عسكرهم، وحتى أمنا .

قال: فرجعنا إلى أبي عبيدة، فقص عليهم خالد الخبر، وأخبرهم بأن القتال سيقع بينهم، وقال للناس: استعدوا أيها الناس استعداد قوم يرون أنهم على ساعة مقاتلون<sup>(١)</sup>.

### مشورة باهان لأصحابه:

روى أبو إسماعيل الأزدي من خبر أبي جهضم الأزدي عن رجل من الروم قال: كنت مع باهان في عسكرهم ذلك قال: وقد كان أسلم وحسن إسلامه قال: كتب باهان إلى قيصر كتابا يخبره فيه بحاله وحال أصحابه وحال المسلمين، وكان قد جمع أصحابه يوم انصرف خالد عنهم، فقال: أشيروا عليّ برأيكم في أمر هؤلاء القوم، فإنني قد هيّيتهم ولا أراهم يهابون، وأطمعتهم فليسوا يطمعون، وأردتهم على الرجوع والخروج من بلدنا بكل وجه فليسوا براجعين، والقوم ليسوا يريدون إلا هلاككم واستئصالكم وسلب سلطانكم، وأكل بلادكم وسبي أولادكم ونساءكم وأخذ أموالكم، فإن كنتم أحراراً فقاتلوا عن سلطانكم، وامنعوا حريمكم ونساءكم وأولادكم وبلادكم وأموالكم .

فقامت البطارقة، رجل من بعد رجل، فكلهم يخبره أنه طيب النفس بالموت دون بلاده وسلطانه، وقالوا له: إذا شئت فانهض بنا .

فقال لهم باهان: فكيف ترون بقتالهم، فإننا أكثر من عشرة أضعافهم نحن نحو من أربعمئة ألف، وهم نحو من ثلاثين ألفاً، أو أقل أو أكثر قليلاً .

فقال له بعضهم: أخرج إليهم في كل يوم مائة ألف يقاتلون وتستريح البقية وتُسرح بعيالنا وأثقالنا إلى البحر فلا يكون معنا شيء يهمننا ولا يشغلنا، ويقاتلهم

(١) فتوح الشام للأزدي: ١٩٤ - ٢٠٧ . بتصرف .

في كل يوم منا مائة ألف، فهم في كل يوم في قتل وجراحات، وعناء ومشقة وشدة، ونحن لا نقاتل إلا كل أربعة أيام يوماً، فإن هزموا منا في كل يوم مائة ألف بقي لهم أكثر من مائتي ألف لم يهزموا.

وقال آخرون: لا، ولكننا نرى إذا هم خرجوا إلينا أن تبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابك، فلا والله لا تبعث عشرة على واحد إلا غلبوه.

فقال لهم باهان: هذا ما لا يكون، وكيف أقدر على عددهم حتى أبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابي؟ وكيف أقدر على أن ينفرد الرجل منهم من صاحبه حتى أبعث إليه عشرة من قبلي؟ وهذا ما لا يكون.

قال: فأجمع رأيهم جميعاً على أن يخرجوا بأجمعهم خرجة واحدة فيناجزوهم فيها، ثم لا يرجعون عنهم حتى يحكم الله بينهم.

قال: فاجتمع رأي الروم كلهم على هذا.

قال: وكتب باهان إلى قيصر: أما بعد، فإننا نسأل الله لك أيها الملك، ولجندك ولأهل مملكتك النصر، ولدينك وأهل سلطانتك العز، فإنك قد بعثتني فيما لا يحصيه من العدد إلا الله، فقدمت على قوم، فأرسلت إليهم، فهيبتهم، فلم يهابوا، وأطمعتهم فلم يطمعوا وخوفتهم فلم يخافوا، وسألتهم الصلح فلم يقبلوا، وجعلت لهم الجعل على أن ينصرفوا فلم يفعلوا، وقد دُعر منهم جندك ذعراً شديداً، وقد خشيت أن يكون الفشل قد عمهم، والرعب قد دخل في قلوبهم، إلا أن منهم رجالاً قد عرفتهم ليسوا بفرار من عدوهم، ولا شكاً في دينهم، ولو قد لقوهم لم يفرروا حتى يظهروا أو يقتلوا، وقد جمعت أهل الرأي من أصحابي وأهل النصيحة لملكنا وديننا فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعاً في يوم واحد، ثم لا نزايلهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال: وكان باهان رأى رؤيا، وكتب بها إلى ملك الروم في كتابه هذا: وقد أتاني آت في منامي فقال لي: لا تقاتل هؤلاء القوم فإنهم إذن يهلكونك، فلما انتبهت من منامي عبرت أنه من الشيطان أراد أن يحزنني فخسأته، فإن يكن الشيطان فقد خسأته، وإلا يكن الشيطان فقد تبين لي الأمر، فابعث أنت أيها الملك بثقلك وخدمك ومالك فألحقهم بأقصى بلادك وانتظر وقعتنا هذه، فإن أظهرنا الله



عليهم حمدت الله الذي أعزّ دينك، ومنع سلطانك، وإن هم ظهروا علينا فافرض بقضاء الله، واعلم أن الدنيا زائلة عنك، كما زالت عن من كان قبلنا، ولا تأسف منها على ما فاتك، ولا تغتبط منها بشيء مما في يديك، والحق بمعاقلك وبادار مملكتك، وأحسن إلى رعيتك وإلى الناس يحسن الله إليك، وارحم الضعفاء والمساكين تُرحم، وتواضع لله يرفعك، فإن الله لا يحب المتكبرين، والسلام<sup>(١)</sup>.

### استعداد الجيشين للمعركة:

قال: ثم إن باهان خرج إلى المسلمين في يوم ذي ضباب ورذاذ، فصاف له عشرين صفًا لا يرى طرفاهم، ثم جعل على ميمنته وميسرته، فجعل ابن قناطر على ميمنته، وجعل معه جرجير في أهل أرمينية، وجعل الدرنجار في ميسرته، وكان من خيارهم ونساکهم، فأقبلوا نحو المسلمين، فلما نظر إليهم المسلمون وقد أقبلوا كأنهم الجراد قد ملؤوا الأرض كأنهم أعراض الجبال نهضوا إلى راياتهم.

وجاء خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيط بن حسنة إلى أبي عبيدة، وهم الأمراء الذين كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمرهم وبعثهم إلى الشام، فأتوا أبا عبيدة ومعه معاذ لا يفارقه فقالوا له: إن هؤلاء قد زحفوا إلينا في مثل هذا اليوم المطير، وإنا لا نرى أن نخرج إليهم فيه إلا أن يأتونا حتى يُلطوا<sup>(٢)</sup> بعسكرنا، أو يضطرونا إلى ذلك، قال: فإنكم قد أصبتم.

قال: وخرج أبو عبيدة ومعه معاذ بن جبل، فصفوا الناس وعبوهم، ووقفوهم على مراكزهم، وأقبلت الروم في المطر، ووقفوا ساعة، وتصبروا عليه، فلما رأوا أن ذلك لا يقلع ولا ينقطع انصرفوا إلى عسكرهم.

قال: ودعا الدرنجار، وكان فيهم ناسكًا، رجلا من العرب ممن كان على دين النصرانية، فقال له: ادخل في عسكر هذا القوم، فانظر ما هديهم وما حالهم وما أعمالهم وما يصنعون وكيف سيرتهم؟ ثم ألقني بها، فخرج ذلك الرجل حتى دخل عسكر المسلمين، فلم يستنكروه لأنه كان رجلا من العرب، لسانه ووجهه، فمكث في عسكرهم ليلة حتى أصبح، فوجد المسلمين يصلون الليل كله كأنهم في النهار، ثم أصبح، فأقام عامة يومه، ثم خرج إليه، فقال له:

(٢) أي يلتصقون.

(١) فتوح الشام: ٢٠٨ - ٢١٠.

جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون، ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، رهبان بالليل، أسد بالنهار لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنى لرجموه، لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى.

فقال: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم وكما ذكرت، لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها<sup>(١)</sup>.

لقد كان ذلك الرجل النصراني مآحاً سريع الفهم، حيث فهم مزايا المسلمين العالية بتلك السرعة وكان صادقاً عادلاً حيث أبرز تلك المزايا لمن بعثه بأمانة، وهي صفات جذابة لأصحاب العقول السامية والأفكار السليمة، وفي الوقت نفسه هي صفات مرعبة للأعداء، لأن الذين بلغوا ذلك الحد من العبادة وأقاموا حياتهم على العدل والحق، لا بد أنهم سيحفظون بحب الله تعالى ونصره وتأييده، ولا بد أن تكون نفوسهم قوية وثابة نحو المعالي، بحيث تستنفد كل طاقات أجسامها في خدمة أهدافها السامية، وفي سبيل ذلك تُذلل جميع الصعوبات وتستهيئ بجميع العوائق والعقبات، ومن كان الله جل وعلا معه فلن يخذل، ومن كان يحمل نفساً قوية فلن يُغلب، فلذلك ندم الدررنجار على قتال هؤلاء المسلمين المصطفين الأخيار.

وفي رواية للطبراي أن رجلاً قال لخالد بن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لو ددت أن الأشقر براء من توجيئه<sup>(٢)</sup> وأنهم أضعفوا في العدد<sup>(٣)</sup>.

وهذا مثل على شجاعة خالد وقوة إيمانه وثقته العالية بنصر الله تعالى، حيث لا ينظر إلى عدد الأعداء مهما بلغوا، وقد حاول بكلامه هذا تعديل موازين المعركة، حيث إن الأعداء يبلغون عشرة أضعاف المسلمين، فلا بد أن يوازن ذلك قوة عالية في الروح المعنوية لدى المسلمين تُعوض ذلك الفرق الكبير في العدد.

### عيون للمسلمين:

فلما كان الغد خرجوا أيضاً في يوم ذي ضباب، وأتى المسلمين رجال من العرب كانوا نصارى فأسلموا.

(٢) أي مما أصاب أقدامه من الحفا.

(١) فتوح الشام للأزدي: ٢١٠ - ٢١١.

(٣) تاريخ الطبري ٣/٣٩٧ - ٣٩٨.

فقال لهم أبو عبيدة، وخالد بن الوليد: ادخلوا في عسكر الروم، فاكتموهم إسلامكم، والفؤنا بأخبارهم، فإن في هذا لكم أجراً، والله حاسبه لكم جهاداً، فإنكم تدفعون بذلك حرمة الإسلام، وتدئون على عورة أهل الشرك، فانطلقوا، فدخلوا عسكر الروم، ثم جاؤوا بعد ما مضى من الليل نصفه.

فأتوا أبا عبيدة بن الجراح، فقالوا له: إن القوم قد أوقدوا النيران، وهم يتعبون لكم، ويتهيؤون لقتالكم، وهم مصبحوكم بالغداة، فما كنتم صانعين، فاصنعوا الآن.

فخرج أبو عبيدة، ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص فعبوا الناس، وصففوفهم، فلم يزالوا في ذلك حتى أصبحوا<sup>(١)</sup>.

#### مبشرات بالنصر:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من حديث راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال: صلى بنا أبو عبيدة بن الجراح يومئذ صلاة الغداة في عسكره، في الغداة التي لقينا فيها الروم باليرموك، فقرأ في أول ركعة ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ فلما مرَّ بقول الله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إرم ذات العماد ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ٩﴾ [الفجر: ١-١٤] قلت في نفسي: ظهرنا والله على القوم للذي أُجْرِي على لسانه، وسُررت بذلك سروراً عظيماً، وقلت: عدونا والله هذا نظير هذه الأمة في الكفر والكثرة والمعاصي.

قال: ثم قرأ في الركعة الثانية ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١٠﴾ فلما مرَّ بقول الله عز وجل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ إلى خاتمة السورة [الشمس: ١١-١٥] فقلت في نفسي وهذه أخرى إن صدق<sup>(٢)</sup> ليصبنَّ الله عليهم صوط عذاب، وليدمدمنَّ عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبله.

(٢) أي ظني وما قلت في نفسي.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢١١-٢١٢.

قال: فلما قضى أبو عبيدة صلاته أقبل على الناس بوجهه، فقال: أيها الناس أبشروا، فإنني رأيت في ليلتي هذه فيما يرى النائم كأن رجالاً أتوني، فحفنوا بي، وعليّ ثياب بيض، ثم دعوا لي رجالاً منكم أعرفهم، ثم قالوا لنا: أقدموا على عدوكم ولا تهابوهم، فإنكم الأعلون، وكأننا مضيئنا إلى عسكر عدونا، فلما رأونا قاصدين إليهم انفرجوا لنا انفراج الرأس، وجئنا حتى دخلنا عسكرهم وولّوا مدبرين. فقال له الناس: أصلحك الله نامت عينك، هذه بشرى من الله، بشرك الله بخير.

فقال أبو مرثد الخولاني: وأنا أصلحك الله قد رأيت رؤيا، إنها لبشرى من الله، وإنني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأننا خرجنا إلى عدونا، فلما توقفنا صبّ الله عليهم من السماء طيراً بيضا عظاما، لها مخالب الأُسُد، وهي تنقض من السماء انقضاض العُقبان، فإذا حاذت بالرجل من المشركين ضربته ضربة يخرُّ منها منقطعاً، وكأنّ الناس يقولون: أبشروا معاشر المسلمين، فقد أيدكم الله عليهم بالملائكة.

قال: فتباشر المسلمون بهذه الرؤيا، وسرُّوا بها.

فقال أبو عبيدة: وهذه والله بشرى من الله، فحدثوا بهذه الرؤيا الناس، فإن مثلها من الرؤيا يشجّع المسلم، ويحسن ظنه وينشّطه للقاء عدوه.

قال: وانتشرت هذه الرؤيا ورؤيا أبي عبيدة في المسلمين، وفرحوا واستبشروا بهما<sup>(١)</sup>.

وهكذا نرى أن الله جل جلاله مع المؤمنين بنصره وتأييده، ولا شك أن هذه الرؤى كان لها الأثر البالغ في رفع معنوية المسلمين.

هذا وما ينبغي ذكره أن هذا النصر من الله تعالى للمؤمنين، وتسكين قلوبهم، ومنحهم البشرى والسرور قبل الدخول في المعركة لم يكن لمجرد كونهم مسلمين في الظاهر وإنما ذلك لكونهم من المؤمنين الصادقين الذين لم يتسرب إلى قلوبهم اعتبار أي قوة من قوى الأرض، ولم يستلهموا النصر والتأييد إلا من الله تعالى، وكانت ثقتهم به عظيمة واعتمادهم عليه وحده في طلب النصر.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢١٢-٢١٤.

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين جيوش الصحابة رضي الله عنهم وجيوش كثير من المسلمين بعد ذلك، حيث تخلف النصر عنهم وتسلب الأعداء عليهم، لأنهم كانوا لا يذكرون الله تعالى في حروبهم إلا قليلاً فتخلى الله عنهم ووكلمهم إلى حولهم وقوتهم .

ومع إيمان الصحابة الراسخ بأن الله تعالى مع أوليائه في شدتهم ورخائهم فإنهم لم يعتمدوا على التوكل وحده، بل قاموا بتحقيق كل ما أمكنهم من أسباب النصر المعروفة، فجمعوا جيوشهم في جيش واحد واختاروا المكان المناسب وطلب المدد من أمير المؤمنين، إلى غير ذلك من الأسباب، مع استصحاب التوكل على الله تعالى وطلب المدد منه في كل أحوالهم، واعتبار أن العمل بالأسباب المادية من طاعة الله تعالى فهو الذي أمرهم بإعداد القوة للكفار، والاجتماع لقتالهم، وطاعة الأمراء، فحققوا كل عوامل النصر التي تخضع لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ .

### إنذار الروم بالهزيمة:

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم - حدثني في خلافة عبد الملك بن مروان - أن رجلاً من عظماء الروم أتى باهان في صبيحة الليلة التي خرج إلى المسلمين باليرموك فقال: إني رأيت رؤيا، وأريد أن أحدثك بها، قال: هاتها.

قال: رأيت كأن رجلاً نزلوا إلينا من السماء طوالاً أحدهم أبعد من مدِّ بصره، فنزعوا سيوفنا من أعمادها، وأسنة رماحنا من أطرافها، ثم لم يدعوا منّا رجلاً إلا كتّفوه، ثم قالوا لنا: اهربوا فأكثركم هالك، فأخذنا نهرب، فمننا من يسقط على وجهه، ومننا من يتبلد لا يستطيع أن يبرح من مكانه، ومننا من يحلُّ كتافه، ثم يسعى حتى لا نراه.

قال له باهان: أما من رأيت يسقط على وجهه، ومن رأيت يتبلد ولا يطيق أن يسعى، ولا يتنحى من مكانه فهؤلاء الذين يهلكون، وأما الذي رأيت يحلُّون كتافهم ويسعون فلا تراهم، فأولئك الذين ينجون.

ثم قال له باهان: أما إذ رأيت [ما رأيت] فو الله لا تسلم مني أبداً، فوجهك الوجه الذي بشرَ بالشر، وقنط من الخير، ألسنت أنت الذي كنت أشد الناس عليّ في أمر الرجل الذي قتل من أهل الذمة رجلاً؟ فأردت أن أقتله به، فكنت أنت أشد الناس عليّ في أمره، حتى عطلت حدّاً من حدود الله وتركته وكان من الحق عليّ أن أقيمه، فحلّت بيني وبينه في جماعة من السفهاء، وتركته كراهية أن أفرق جماعتكم، أو أن أفرق بينكم، أو أن يضرب بعضكم بعضاً، فأما الآن فقد حدثت نفسي بالموت، وإنما ألقى القوم من ساعة، فإن شئتم الآن فتفرقوا، وإن شئتم فاجتمعوا، فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحدّ يومئذ، فإنه لم يكن يسعني ولا ينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه، ثم أمر به فضربت عنقه، وطلب الرومي الذي كان قتل الذمي، فهرب منه، ولم يقدر عليه.

قال أبو جهضم: فسألت الرومي: ما كان من قصة ذلك الرومي؟

قال: إن بطريقاً من بطارقة الروم نزل بيت رجل من أهل الذمة، وكان عظيماً من عظمائهم وأشدائهم، فوقع على امرأة الذمي فنكحها، فجاء زوجها ليمنعه فقتله، فخرج أخوه فاستعدى عليه أميرهم الأعظم باهان، وأخبره خبره. فدعاه باهان فقال: أحق ما يزعم هذا؟ قال: نعم.

قال: وما حملك على ما صنعت؟

قال: إنما هي أمّتي، وإنما زوجها عبدي، أتمنعني أن أقضي لذتي من أمّتي؟ وتريد أن تقتلني بعبدي؟

قال باهان: الحقُّ أن أقتلك به، وأن أمنع نساءهم من أشباهك، فقام رجال كثيرون من سفهاء الروم وشرارهم فقالوا: أقتل رجلاً من عظمائنا وأشرافنا بعبد من عبيده؟ فمنعوه من ذلك، وكان ذلك الرجل الذي قتله باهان من أشدهم يومئذ على باهان.

فقال له باهان: أما أنتم فقد أتيتم أمراً عظيماً، وعصيتم ربكم، وأغضبتموه عليكم وإذا غضب على قوم فهو ينتقم منهم، ثم كف عنهم.

فقال أخو المقتول لباهان: أنا إذا لم تُعدني عليهم فإني أستعدي عليهم ملك السماء<sup>(١)</sup>.

وهكذا في الوقت الذي ارتفعت فيه معنوية المؤمنين بما أراهم الله في المنام من البشرى انحطت معنوية الكفار بما أراهم الله في المنام من الرعب والإرهاب، فقد أصاب «باهان» اليأس وأيقن بالهزيمة والموت، ولذلك أقدم على عمل يختلف عما عُرف عنه من الحكمة والسياسة، حيث قتل الرجل الذي أخبره بهذه الرؤيا مع أنه من عظماء الروم، وكانت الحكمة تقتضي أن يمنعه من نشر هذه الرؤيا لأن قتله يكون سبباً في انتشارها، ومما يدل على يأسه من النصر أنه بعد أن ذكر سبب عدم إقامته الحد على مرتكب الذنب سابقاً وهو خوفه من أن يفرق جماعة الجيش قال: فأما الآن فقد حدثت نفسي بالموت وإنما ألقى القوم من ساعة فإن شئتم الآن فتفرقوا وإن شئتم فاجتمعوا فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحد يومئذ فإنه لم يكن يسعني ولا ينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه.

#### استعداد الجيشين للمواجهة:

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: حدثني الصقعب بن زهير عن المهاجر بن صيفي عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال: خرج إلينا باهان يوم اليرموك في يوم ذي ضباب، فخرج إلينا في عشرين صفاً، وهم في نحو من أربعمئة ألف، فجعل ابن قناطر في ميمنته، وجعل معه جرجير صاحب أرمينية، وجعل الدرُّنَجار في ميسرته، وكان من نساكهم، ثم زحف إلى المسلمين مثل الليل والليل. وأصبح المسلمون طيبة نفوسهم بقتال المشركين، وقد شرح الله لهم صدورهم، وشجع قلوبهم على لقاء عدوهم، فهم أشد شيء بصيرة، وأحسنه نية على باهان، وأعظمه حسبة، وأحرصه على لقاءهم.

فأخرجهم أبو عبيدة، وجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته قبّاث بن أشيم، وجعل على الرّجاله هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وجعل على الخيل خالد ابن الوليد.

(١) فتوح الشام للأزدي/ ٢١٤ - ٢١٦.

وكان الأمراء، يزيد بن أبي سفيان على ربع، وشرحبيل بن حسنة على ربع، وعمرو بن العاص على ربع، وأبو عبيدة على ربع .

وخرج الناس على راياتهم، وفيها أشرف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم، وفيها الأزد، وهم ثلث الناس، وفيها حمير، وهم عظم الناس، وفيها همدان، وخولان، ومدحج، وختعم، وقضاعة، ولخم وجذام، وغسان، وعاملة، وكندة، وحضرموت، ومعهم جماعة من كنانة، ولكن عظم الناس من أهل اليمن، ولم يحضرها يومئذ أسد ولا تميم ولا ربيعة، ولم تكن دارهم هنالك، وإنما كانت دارهم عراقية، فقاتلوا فارس بالعراق .

فلما برز المسلمون إليهم سار أبو عبيدة في المسلمين، ثم قال: يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فإن وعد الله حق، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار - أي مفشلة - فلا تبرحوا مصافكم ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدووهم بقتال، وأشروعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى أمركم إن شاء الله .

قال: وخرج معاذ بن جبل يقص على الناس ويقول: يا قراء القرآن ومسحفي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق، إن رحمة الله والله لا تُنال وجنته لا تدخل بالأمانى ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل، ألم تسمعوا قول الله عز وجل ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . . الآية [النور: ٥٥] أنتم إن شاء الله منصورون ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم في قبضته ورحمته، وليس لأحد منكم ملجأ ولا ملتجأ من دونه، ولا مُتَعَزِّزَ بغير الله، فجعل يمشي في الصفوف، ويحرضهم ويقص عليهم، ثم انصرف إلى موقفه .

وقال أبو إسماعيل الأزدي: وحدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد الأنصاري قال: ومرَّ عمرو بن العاص على الناس يومئذ، فجعل يعظهم



ويقص عليهم ويحرضهم، ويقول: أيها الناس غُضُّوا أبصاركم، واجثوا على  
الركب، وأشرعوا الرماح، والزموا مراكزكم ومصافكم، فإذا حمل عليكم عدوكم  
فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأُسنة فثبُّوا في وجوههم وثوب الأُسد، فو الذي  
يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان، لقد  
بلغني أن المسلمين سيفتحونها كَفْرًا كَفْرًا<sup>(١)</sup>، وقَصْرًا قصراً، فلا يهولنكم جموعهم  
ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لقد اندعروا اندعار أولاد الحجل<sup>(٢)</sup>.

قال: وكان أبو سفيان يومئذ يسير في الناس، ويقف على أهل كل راية وعلى  
كل جماعة، فيحرض الناس ويحضُّهم ويعظُّهم ويقول: إنكم يا معشر المسلمين  
أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الإبل، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد  
المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عددهم، شديد عليكم حنقهم، وقد  
ترتموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وبلادهم، فلا والله لا ينجيكم  
منهم اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء والصبر في مواطن المكروهة،  
فامتنعوا بسيفكم، وتقربوا بها إلى خالقكم، ولتكن هي الحصون التي تلجؤون  
إليها، وبها تُمنعون<sup>(٣)</sup>.

هذا ولقد كان لكلمات هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم وأمثالها أثر بالغ على  
عموم المسلمين، فإن الموقف كان شديداً تعلوه الرهبة والتخوف من وقع المفاجأة  
حينما يقابل الفرد المسلم عشرة من الكفار، فكان لا بد من قيام أهل الشجاعة  
والرسوخ في العالم من تثبيت أفراد الجيش الإسلامي ليواجهوا هول الصدمة  
بالثبات والصبر.

### وصف المعركة:

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعيد الأنصاري  
قال: وزحف الروم إلى المسلمين وهم يزفون زفًا، ومعهم الصلبان، وأقبلوا بالأساقفة  
والقسيسين والرهبان، والبطارقة والفرسان، ولهم دوي كدوي الرعد، وقد تباع  
عظُّهم على الموت، ودخل منهم ثلاثون ألفاً، كل عشرة في سلسلة لثلا يفروا.

(٢) الحجل نوع من الطيور.

(١) أي بلدا بلدا.

(٣) فتوح الشام للأزدي/ ٢١٧ - ٢٢٠، وانظر تاريخ دمشق ١٤٨/٢ - ١٤٩.

فلما نظر إليهم خالد بن الوليد مقبلين أقبل إلى نساء المسلمين وهنَّ على تل مرتفع في العسكر، فقال: يا نساء المسلمين، أيما رجل أدركتَّه منهزماً فاقْتُلْتِه فأخذن الخناجر، ثم أقبلن نحو المسلمين، فقلن: لستم ببعولتنا إن لم تمنعونا اليوم. وأقبل خالد إلى أبي عبيدة فقال له: إن هؤلاء قد أقبلوا بعدد وجدِّ وحدِّ وإن لهم لشدة لا يردّها شيء، وليست خيل المسلمين بكثيرة، ولا والله لا قامت خيلي لشدة حملتهم وخيلهم ورجالهم أبداً، وخيل خالد يومئذ أمام صفوف المسلمين، والمسلمون ثلاثة صفوف.

قال خالد: فقد رأيت أن أفرق خيلي فأكون أنا في إحدى الخيلين، ويكون قيس ابن هبيرة في الخيل الأخرى، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة. فإذا حملوا على الناس، فإن ثبت المسلمون، فالله ثبتهم وثبت أقدامهم، وإن كانت الأخرى حملنا عليهم بخيولنا وهي جامّة على ميمنتهم وميسرتهم، وقد انتهت شدة خيلهم وقوتها، وتفرقت جماعتهم، ونقضوا صفوفهم، وصاروا نَشراً، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال، فأرجو عندها أن يظفرنا الله بهم، ويجعل دائرة السوء عليهم.

وقال لأبي عبيدة: قد رأيت لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا، وتقف أنت من ورائه في جماعة حسنة، فتكونوا رداءً للمسلمين.

فقبل منه أبو عبيدة مشورته، وقال: افعل ما أراك الله، وأنا فاعل ما ذكرت، فأمر أبو عبيدة سعيد بن زيد، فوقف في مكانه، وركب أبو عبيدة، فسار في الناس يحرضهم، ويوصيهم بتقوى الله والصبر، ثم انصرف، فوقف من وراء الناس رداءً لهم<sup>(١)</sup>.

وهكذا لما اقترب الروم من المسلمين وفقَّ الله خالد بن الوليد إلى خطة تكمل ما بدأه من خطته السابقة التي قسم بها الجيش إلى أربعين كتيبة تقريباً، وذلك أنه رأى ضخامة جيش الروم وما يتقدمه من الخيول التي تزيد عن خيول المسلمين أضعافاً، فأدرك أنه سيكون لهم شدة عنيفة تؤثر فيمن يواجههم، وهو يدرك بألمعيته وخبرته الحربية العالية أن مقاومة الجيوش الضخمة بجيوش لا تزيد عن عشرين لا يكون

(١) فوح الشام للأردني/ ٢٢٠ - ٢٢١، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٠ - ١٥١.

بمجرد المواجهة والاعتماد على الشجاعة والصبر والثبات، وإنما لا بد مع ذلك من إعمال الفكر واستعمال الحيل، وذلك في تتبع نقاط الضعف لدى الأعداء ثم الاستفادة من ذلك بالهجوم المركز الذي يبهت الأعداء ويحول بينهم وبين الاستفادة من طاقتهم، فيبقى أكوام منهم معطلين لا يستطيعون المواجهة بمفردهم.

ونتيجة لهذا التفكير فقد رأى خالد أن يقسم خيله قسمين، يكون هو على رأس قسم منهما وعلى الآخر قيس بن هبيرة المرادي الذي كان يعتبر الرجل الثاني في الفروسية بعد خالد، فيكون أحدهما خلف الميمنة المسلمين والآخر خلف ميسرتهم، حتى إذا انتهت شدة فرسان الروم الأولى واختلطوا بجيش المسلمين خرج لهم خالد وقيس بفرسان المسلمين من الميمنة والميسرة فأوقعوا الخلل في صفوفهم.

قال محمد بن عبد الله الأزدي في سياق خبر ثابت بن سهل الأنصاري: وأقبلت الروم كقطع الليل حتى إذا حاذوا الميمنة نادى معاذ بن جبل الناس، فقال: يا عباد الله المسلمين، إن هؤلاء قد تيسروا للشدة عليكم، ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر على البأساء، ثم نزل عن فرسه وقال: من أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن بن معاذ وهو غلام حين احتلم. فقال: يا أبت، إني لأرجو أن أكون أنا فارساً أعظم غناءً عن المسلمين مني راجلاً، وأنت يا أبت راجل أعظم غناءً منك فارساً، وعظم المسلمين رجالة، وإذا رأوك صابراً محافظاً صبروا إن شاء الله وحافظوا.

فقال له معاذ بن جبل: وفقني الله وإياك يا بني لما يحب ويرضاه، فقاتل معاذ وابنه قتالاً ما قاتل مثله كثير من المسلمين.

ثم إن الروم تحاضوا وتداعوا، وقصت عليهم الأساقفة والرهبان، وقد دنوا من المسلمين، فإذا سمع معاذ ذلك منهم قال: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، والزمننا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، ورضنا بالقضاء.

قال: وخرج باهان صاحب الروم، فجال في أصحابه وتيسر، وأمرهم بالصبر والقتال دون ذراريهم وأموالهم وسلطانهم وبلادهم، ثم بعث إلى صاحب الميسرة أن احمل عليهم، وكان عليها الدرّنجار، وكان متنسكاً، فقالت البطارقة والرؤوس الذين معه: قد أمركم أميركم أن تحملوا عليهم.

قال: وتهيأت البطارقة، ثم شدوا على الميمنة، وفيها الأزد، ومذحج وحضرموت وحمير وخولان، فثبتوا حتى صدقوا، واقتتلوا قتالا شديداً.

ثم إنه ركبهم من الروم أمثال الجبال، فأزالوا المسلمين من الميمنة إلى ناحية من القلب، فانكشفت طائفة من المسلمين إلى المعسكر، وثبت عظم الناس فلم يزولوا، وقاتلوا تحت راياتهم ولم ينكشفوا، ولم تنكشف يومئذ زبيد وهي في الميمنة، وفيهم الحجاج بن عبد يغوث أبو عمرو بن الحجاج، فنادى: يا خيفان<sup>(١)</sup> يا خيفان، فاجتمعوا إليه، ثم شدوا على الروم، وهم في نحو من خمسمائة رجل شدة شديدة، فلم يتنهوا حتى خالطوا الروم، ثم قاتلوا قتالاً شديداً، وشغلوهم عن أتباع من انكشف من المسلمين، وشدت عليهم حمير وحضرموت وخولان بعدما كانوا زالوا، ثم رجعوا إلى موافقهم حتى وقفوا في الصف حيث كانوا. واستقبلت النساء المسلمين وهم منهزمون، معهن العناهر (وقال العناهر عمدة البيوت) فأخذن يضربن بها وجوههم.

قال سهل بن سعد: أخذت خولة ابنة ثعلبة بن مالك بن الدخشم عموداً من تلك العمدة، ثم أقبلت نحو المنهزمة وهي ترتجز وتقول:

يا هارباً عن نسوة تقييات رُميت بالسهم وبالنيات  
فعن قليل مائري سبيات غير حظيات ولارضيات<sup>(٢)</sup>

كل هذا وخالد بن الوليد يقف بخيله خلف الميمنة ينتظر اللحظة المناسبة للهجوم الكاسح الذي يرجو أن يحسم به المعركة، وكان قد توقع حدوث بعض الخلل في جيش المسلمين لأنه يدرك ضخامة العبء الذي سيلصب على المسلمين حيث سيواجه ثلاثة صفوف من المسلمين عشرين صفاً من الروم، فوضع خطته الحربية التي نوهنا عنها سابقاً، وقد حان له الآن تنفيذها، فهجم بخيله هجوماً قوياً شديداً على جيش الروم من جانب ميسرتهم فقتل منهم في حملته تلك نحواً من عشرة آلاف ودخل كثير منهم معسكر المسلمين مجرحين وهارين من عنف الهجوم الكاسح، ولما قضى خالد على هجوم الروم ورفع الضغط عن المسلمين عاد يتتبع بفرسانه الروم الذين دخلوا معسكر المسلمين، ثم جمع خيله ونادى فيهم وفي

(١) الخيفان الكثرة من الناس.

(٢) فتوح الشام للأزددي / ٢٢٢ - ٢٢٣، وانظر تاريخ دمشق ١/ ١٥١-١٥٢.

عموم الجيش: يا أهل الإسلام لم يبق عند القوم من الجلد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم، فالشدَّة الشدة، فهو الذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم.

فجعل لا يسمع هذا القول من خالد أحد من المسلمين إلا شجعه عليهم<sup>(١)</sup>.

وقد كان خالد جعل خلف الميسرة نصف الفرسان بقيادة قيس بن هبيرة حسب خطته السابقة وقد قام قيس بمثل الهجوم الذي قام به خالد في الميمنة، فإنه لما أحس بأن فرسان الروم قد فقدوا كثيراً من طاقتهم واشتدت الوطأة على المسلمين هجم بفرسانه من جانب ميمنة الروم فقصف بعضهم على بعض كما فعل خالد وقتل منهم عدداً كبيراً<sup>(٢)</sup>.

أما قلب الجيش الإسلامي فقد كان في مقدمته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب وأحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم أجمعين وقد كان أسداً في الحروب لايهاب الأهوال، ولهذا كان أبو عبيدة يختاره للمقدمة لتفوقه في الثبات أمام الأعداء، ومن ورائه شرحبيل بن حسنة، ثم أبو عبيدة في جماعة من المسلمين. وقد كان في مقابلهم من جيش الروم جبلة بن الأيهم في عرب الشام، والأرمن بقيادة جرجير فتوجهوا إليه كأمثال الجبال ولكن موجاتهم العاتية تحطمت أمام ثبات سعيد بن زيد ومن معه من الأبطال، فثبت قلب الجيش الإسلامي ولم يتزحزح، وكان من أهم عوامل ثباته وجود أبي عبيدة في كتيبة من وجوه المسلمين خلف القلب، فكان من أوجعه حر القتال وفكر في أن ينهزم يستحي أن يمر بأبي عبيدة وهو منهزم، وإن وجود أبي عبيدة خلف الجيش جزء من خطة خالد التي سبق ذكرها وقد تبينت نتائجها الحسنة في سير المعركة.

وفي الإشادة بجهود سعيد بن زيد يقول حبيب بن مسلمة: اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فله در سعيد، ما سعيد يومئذ إلا مثل الأسد، جثا والله على ركبتيه حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل الليث فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ والله يقاتل راجلاً قتال الرجل الشجاع البأس فارساً<sup>(٣)</sup>.

(١) فتوح الشام للأزدي/ ٢٢٥- ٢٢٦ بتصرف، وانظر تاريخ دمشق ١٥٤/٢.

(٢) فتوح الشام للأزدي/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣) فتوح الشام للأزدي/ ٢٢٨، وانظر تاريخ دمشق ١٥٥/٢.

هذا وقد نجحت خطة خالد بالهجوم المباغت بفرسان المسلمين من جانبي جيش الروم، فاستطاع بذلك أن يفصل بين مشاة الروم الذين ما يزالون في مصافهم وبين فرسانهم الذين دخلوا في جيش المسلمين وخرج كثير منهم من الخلف .

وقد ساعد على نجاح هذه الخطة قلة كثافة الجيش الإسلامي فكان فرسان الروم يخترقونه بسرعة، ثم يهرب كثير منهم في الصحراء، خاصة بعد هجوم فرسان المسلمين، والروم كغيرهم من الكفار ليس لديهم استعداد للتضحية بأنفسهم، فإن أهم شيء عندهم وقاية أنفسهم من الخطر، وقد كانوا قبل هذه المعركة يفرون من أول لقاء مع المسلمين، فجاءت تعليمات هرقل لباهان أن يختار للجيش مكاناً واسعاً المطرد ضيق المهرب، فاختار ذلك المكان المقفل من الجهات الثلاث بحيث لا يمكن الهروب إلا باختراق جيش المسلمين، ونظراً لخبرة المسلمين بالروم فقد أفسحوا لهم المجال للهروب فكان من يخترق جيشهم لا يرجع إلى قومه في الغالب فأصبح مشاة الروم بدون فرسان في مواجهة المسلمين، عند ذلك نهد خالد بالجيش كله للهجوم على جيش الأعداء وقد كان معظمهم من المشاة، وقد ابتداء الهجوم من القلب حيث أمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن ينشبا القتال الشامل وكانا على مجنبي القلب .

فأنشبا القتال وارتجز القعقاع وقال :

يا ليتني ألقاك في الطراد قبل اعترام الجحفل الورد

وأنت في حلبتك الورد

وقال عكرمة :

قد علمت بهكنة الجوارى أني على مكرمة أحامي<sup>(١)</sup>

وشد المسلمون عليهم جميعاً شدة واحدة، وكان الأعداء في رعب شديد لما وقع لفرسانهم، فكانت مقاومتهم ضعيفة جداً، حتى شبههم بعض الرواة بالحائط كما جاء في رواية للطبري «وأقبل خالد والمسلمون على الرجل -يعني المشاة- ففضوهم فكأنما هُدم بهم حائط»<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠ .

وما زال المسلمون يقتلونهم وهم يتراجعون إلى الخلف، حتى اقتحموا خندقهم فاقتحمه المسلمون معهم، وما زال المسلمون يقتلون منهم وهم يتراجعون إلى الخلف حيث يسرون إلى مهلكهم، ذلك أن مكان المعركة يضيق شيئاً فشيئاً بين نهر الرقاد ونهر اليرموك حتى يلتقيان في الأخير، واستمر المسلمون في قتالهم ودفعهم حتى أظلم الليل عليهم، والمسلمون يواصلون القتال، حيث لا يمنعهم من ذلك ظلام الليل ولا طول جلاله، إلى أن تهافت الروم في هاوية سحيقة في نهر الرقاد، فسميت تلك الهاوية الواقعة لأن الروم وقصوا فيها، وقد هلك منهم في الواقعة نحو مائة وعشرين ألفاً، وقد كان اقترن منهم بالسلاسل ثمانون ألفاً كل عشرة في سلسلة، فكانوا إذا هوى منهم واحد هوى أصحابه المقترنون معه، وقتل منهم في المعركة بعدما أدبروا نحو خمسين ألفاً<sup>(١)</sup>.

وهكذا عاد تخطيطهم أكبر وبالأعلى عليهم، فلما كانت نقطة الضعف البارزة لديهم هي الفرار عند اللقاء حاولوا تلافي ذلك باختيار هذا المكان الذي يصعب الفرار منه، وقرنوا جنودهم بالسلاسل من أجل أن لا يفروا، فكان ذلك سبباً في هلاك هذا العدد الهائل منهم، وهكذا يجعل الله تخطيط الكافرين وبالا عليهم، ويهدي المسلمين إلى التخطيط الناجح المحطّم لعدوهم، فله سبحانه الحمد والمنة.

وأخرج الأزدي من خبر حنظلة بن جوية قال: واتبعهم خالد بن الوليد، رضي الله عنه، على الخليل، يقتلهم في كل واد وكل شعب، وفي كل جبل وفي كل ناحية، فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى دمشق، فخرج إليه أهل دمشق فاستقبلوه، وقالوا: نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم.

فقال خالد لهم: أنتم على عهدكم، ثم اتبعهم خالد، فجعل يقتلهم في القرى والأودية، وفي الجبال والشعاب، والسهل والجبل، وفي كل وجه، فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى حمص، فخرج إليه أهل حمص، فقالوا له مثل ما قال له أهل دمشق.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠، فتوح الشام للأزدي/ ٩٤-٩٥.

وقال لهم: نحن على ما كان بيننا وبينكم، وأقبل أبو عبيدة على قتلى المسلمين، يرحمهم الله، وجزاهم عن الإسلام وعن أهله خيراً، فدفنهم<sup>(١)</sup>.

هذا وإننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة القليلة التي لا تتجاوز عشر جيش عدو قد أقبل وهو مملوء بالغیظ والعداء، وقد اكتسب خبرة كافية في قتال المسلمين، وتعاهد كبرائه على الموت في سبيل الدفاع عن مملكة الروم..

إننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة على هذا العدو الهائل يتملكنا العجب، وتهيمن علينا الحيرة، فإن هذا الانتصار في مقاييس البشر أقرب إلى الاستحالة، إن الذي يتصوره الذهن المجرد أن جيش الروم الهائل سيطبق على جيش المسلمين من كل جهة، وسيشل حركتهم ويتركهم كأمس الذهب.

ولكن الذي يحو هذا التصور من أذهاننا، والذي محاه قبل ذلك من أذهان المسلمين آنذاك هو الإيمان الراسخ بأن المسلمين الصادقين ليسوا وحدهم في الميدان، وإنما هم موصولون بقوة الله العلي القدير، ومن كانوا كذلك فإنهم لا يُغلبون أبداً حتى يقع منهم الإخلال بشيء من واجبه مع الله تعالى.

وفي ذلك يقول خالد بن الوليد في حال المشورة قبل المعركة: «وإن كنا إنما نقاتلهم بالله والله فما جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض أنها تغني عنهم شيئاً».

وقد ثبت أن الله تعالى أمد أوليائه المؤمنين بالملائكة في أكثر من موطن، فقد أمدهم في بدر وحنين، واعتبر سبحانه الشرط اللازم لهذا الإمداد أن يتحلَّى المؤمنون بالتقوى والصبر كما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقد كان الصحابة مثلاً أعلى في تقوى الله تعالى والصبر على حر القتال، وإن هؤلاء الذين أمدهم الله تعالى في عهد النبوة بالملائكة قد حضر اليرموك منهم ألف صحابي منه مائة من أهل بدر<sup>(٢)</sup> وصحبهم من التابعين من كانوا على نية صادقة واحتساب، وإن الصحابة الذين أمدهم الله تعالى بالملائكة في بدر وحنين لم

(١) فتوح الشام للأزدي: ٢٣١، وانظر تاريخ دمشق ١٥٨/٢ - ١٥٩.

(٢) البداية والنهاية ٩/٧.



يفقدوا في حروبهم بعد ذلك إلا شخص النبي ﷺ، ولكنهم ظلوا بعده على العهد لم يبدلوا ولم يغيروا، فحرى بهم وهم كذلك أن تنزل عليهم الملائكة لنصرهم.

### تحديد تاريخ المعركة:

تعتبر معركة اليرموك كبرى معارك المسلمين، ومع كونها بهذا الحجم الكبير وأنها المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم فقد اختلف المؤرخون في تاريخ حدوثها اختلافاً كبيراً، فوجد سيف بن عمر الضبي يؤرخ لهذه المعركة في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر ويعتبرها أولى المعارك الكبرى في الشام ويعتمد ذلك ابن جرير الطبري، بينما نجد جمهور المؤرخين يعتبرونها في شهر رجب من العام الخامس عشر ويجعلونها آخر المعارك الكبرى في الشام، ومن قال بذلك ابن إسحاق والواقدي والأزدي وابن الكلبي والبلاذري وابن عساكر، وقد ذكر في ذلك تسعة أقوال، ثم قال: وهذه الأقوال هي المحفوظة في تاريخ اليرموك، وقد ذكر سيف بن عمر أنها كانت قبل فتح دمشق في أول خلافة عمر سنة ثلاث عشرة، ولم يتابع على ذلك<sup>(١)</sup>.

وقال الإمام الذهبي: نزلت الروم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة، وقيل سنة ثلاث عشرة وأراه وهماً<sup>(٢)</sup>.

ولا شك بأن قول الجمهور بأنها كانت في العام الخامس عشر أرجح للدلائل التالية:

١- أن كثيراً من التفاصيل التي مرَّ ذكرها لا تنطبق على كون المعركة في العام الثالث عشر وفي أواخر حياة الصديق رضي الله عنه، ومن ذلك الرسائل المتبادلة بين أبي عبيدة وعمر رضي الله عنهما، فهذا يدل قطعاً على أنها كانت في خلافة عمر، والرسائل أكثرها كان قبل المعركة<sup>(٣)</sup>.

٢- أنه جاء في خطاب هرقل الذي خاطب به عظماء الروم بعد فتح المسلمين لحمص «وقد قاتلتموهم -يعني المسلمين- غير مرة بأجنادين وفحل ودمشق والأردن

(١) البداية والنهاية ٧، فتوح البلدان للبلاذري/ ١٨٦، تاريخ دمشق ٢/ ١٤١-١٤٢.

(٢) تاريخ الإسلام/ الخلفاء الراشدون/ ١٣٩. (٣) انظر «فتوح الشام» للأزدي/ ١٥٦-١٥٩.

وفلسطين وحمص» فذكر معارك الشام الكبرى ولم يذكر اليرموك مع شهرتها مما يدل على أنها لم تحدث آنذاك<sup>(١)</sup>.

٣- جاء في أحداث اليرموك أن باهان قائد الروم بعث إلى أبي عبيدة يقول له: أرسل إليّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميراً -يعني خالد بن الوليد- وهذا لا ينطبق على كون المعركة في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر لأن الأمير كان آنذاك أبا عبيدة ثم كان خالدًا بتأثير أبي بكر لهما<sup>(٢)</sup>.

٤- جاء في حوار خالد مع باهان قبيل المعركة قوله «وقد علمت وبلغك ما أسأل وما أطلب وما أدعو إليه، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم بأجنادين ومرج الصفر وفحل ومدائنكم وحصونكم».

فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن هذه المعارك المذكورة وعن فتح المدائن التي من أبرزها دمشق وحمص<sup>(٣)</sup>.

٥- جاء في أحداث معركة فحل أن عكرمة بن أبي جهل حضرها وكان له دور بارز فيها وأنه حضر اليرموك وقتل فيها، فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن معركة فحل.

٦- ذكر الإمام الذهبي رواية عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «كنت في الجيش الذي مع خالد الذي أمدّ بهم أبا عبيدة وهو محاصر دمشق...»<sup>(٤)</sup>.

فهذا يدل على أن وصول خالد إلى الشام كان أثناء حصار المسلمين دمشق وليس في أثناء معركة اليرموك.

٧- أخرج الحافظ عبد الرزاق من خبر إبراهيم النخعي قال: . . . وقد قاتلن نساء قريش يوم اليرموك حين رهنهم جموع الروم حتى خالطوا عسكر المسلمين، فضرب النساء يومئذ بالسيوف في خلافة عمر رضي الله عنه<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر المرجع السابق/ ١٤٩- ١٥١ والبداية والنهاية ١٥/٧ . (٢) انظر فتوح الشام للأزدي/ ١٩٥ .

(٣) انظر المرجع السابق/ ٢٠١ . (٤) سير أعلام النبلاء ١١/١ .

(٥) مصنف عبد الرزاق ٢٩٨/٥ ، رقم ٩٦٧٣ .

٨- ما جاء في خبر إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي الذي أخرجه المؤرخ ابن إسحاق، وفيه: فقتل رحمه الله شهيداً باليمامة، وجرح ابنه جراحة شديدة ثم استبلى منها، ثم قتل عام اليرموك في زمن عمر رضي الله عنه شهيداً<sup>(١)</sup>.

ففي هذين الخبرين أن معركة اليرموك جرت في عهد أمير المؤمنين عمر وليست في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

وحيث تبين لنا أن هذه المعركة هي آخر المعارك الكبرى في الشام فهي المعركة الفاصلة حيث لم يبق للروم بعدها قائمة في بلاد الشام، فقد كان ملك الروم مرابطاً في أنطاكية ينتظر أخبار هذه المعركة ليقرر بعدها مواصلة القتال واستعادة ملك الشام إن كانت المعركة لهم أو الجلاء عن الشام إلى غير رجعة إن كانت عليهم.

### بلوغ هزيمة الروم ملك الروم:

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني عبيد الله بن العباس قال: إن الهزيمة لما انتهت إلى ملك الروم، وهو بأنطاكية، فكان أول من جاءه رجل من المنهزمة، فأخبره بهزيمة الروم، قال: قد كنت أعلم أنهم سيهزمونكم.

قال: فقال له بعض جلسائه: ومن أين علمت ذلك أيها الملك؟

قال: من حيث إنهم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة، ويرغبون في الآخرة أشد من رغبتكم في الدنيا، فلا يزالون ظاهرين ما كانوا هكذا، وليغيرون كما غيرتم، وليتقضن كما نقضتم.

وروى بإسناده عن عبد الله بن قرط الثمالي قال: فإنه -يعني ملك الروم- كذلك إذ جاءه رجل عظيم من عظماء الروم، فقال له الملك: ما وراءك؟ قال: الشرُّ هُزِمنا.

قال: فما فعل أميركم باهان؟ قال: قُتِل، قال: فلان وفلان وفلان، فسمى له عدداً من أمرائه وبطارقته وفرسان الروم، قال: قتلوا.

(١) سيرة ابن هشام ٤٠١/١.

فقال له: ولكنك أنت والله أخبث وألأم وأكثر من أن تذبَّ عن دين أو تقاتل عن دنيا.

ثم قال لشرطه: أنزلوه، فأنزلوه، فجاؤوا به، فقال له: أأست أنت كنت أشد الناس عليّ في أمر محمد نبيّ العرب حين جاءني كتابه ورسوله؟ وكنتُ قد أردت أن أجيبه إلى ما دعاني إليه، وأدخل في دينه، فكنتَ أنت من أشد الناس علي حتى تركت ما كنت أريد من ذلك، فهلاً قاتلت الآن قوم محمد وأصحابه دون سلطاني، وعلى قدر ما كنتُ لقيتُ منك إذ منعني من الدخول في دينه؟ اضربوا عنقه، فقدموه، فضربوا عنقه.

ثم نادى في أصحابه بالرحيل إلى القسطنطينية راجعاً، فلما خرج من أرض الشام وأشرف على أرض الروم استقبل الشام بوجهه فقال: السلام عليك يا سوريا، سلام مودّع، لا يرى أنه يرجع إليك أبداً.

ثم أقبل على أرضه، فنظر إليها وقال: ويحك أرضاً، ما أنفعك لعدوك لكثرة ما فيك من العشب والخصب والخير<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان هرقل مصدقاً بالإسلام بقلبه ويعلم أن رسول الله ﷺ هو النبي الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، منذ وصل إليه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام، وسأل عنه أبا سفيان وصحبه، وقد جمع عظماء الروم آنذاك ودعاهم إلى الإسلام فأبوا جميعاً إباءً شديداً فأظهر لهم أنه إنما أراد أن يختبر دينهم كما تقدم.

لقد كان هرقل يريد أن يدخل في الإسلام هو وقومه ويبقى على ملكه، فلما كان الخيار بين الإسلام والملك اختار الملك ولم يسلم.

وكان موقفاً بانتصار المسلمين في كل حروبهم مع الروم، ولكنه كان مضطراً لبعث الجيوش لقتالهم لأنه لم يكن يتصرف بإرادته وإنما كان يتصرف بإرادة زعماء دولته.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٣٤ - ٢٣٦.

وقد ظهر غضبه - في هذا الخبر - من ذلك الزعيم الرومي الذي جاءه بخبر الهزيمة، حيث تذكر أنه كان من أشد الذين وقفوا في وجهه حين دعاهم للإسلام، فقتله بسبب ذلك مع عدم ثباته في الدفاع عن دينه الذي أظهر تصلُّبه في اتباعه.

### رسالتان بين أبي عبيدة وعمر:

قال أبو إسماعيل الأزدي: وكتب - يعني أبا عبيدة - إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين أظهره الله على أهل اليرموك، وخرج يطلبهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أمير المؤمنين، من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذي أهلك المشركين ونصر المسلمين، وقديماً ما تولى الله أمرهم، وأظهر فلجهم، وأعز دعوتهم، فتبارك الله رب العالمين، أُخبر أمير المؤمنين، أكرمه الله، أنا لقينا الروم، وهم في جموع لم تلق العرب مثلها جموعاً قط، فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، ما قوتل المسلمون مثله في موطن قط، ورزق الله المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر، فقتلهم الله في كل قرية وكل شعب، وكل واد وجبل وسهل، وغنم المسلمون عسكرهم، وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم، ثم إنني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغت أقاصي بلاد الشام، وقد بعثت إلى أهل الشام عُمالي، وقد بعثت إلى أهل إيلياء، أدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا وإلا فليؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم، ثم لا أزيلهم حتى يفتح الله على المسلمين، إن شاء الله، والسلام عليك.

### فكتب إليه أمير المؤمنين عمر:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد أتاني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إهلاك الله المشركين، ونصره المؤمنين، وما صنع الله لأوليائه وأهل طاعته، فأحمد الله على حسن صنيعه إلينا، وأستتمُّ الله ذلك بشكره<sup>(١)</sup>، ثم اعلموا أنكم

(١) أي أطلب تمام ذلك من الله تعالى بشكره.

لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدّة، ولا حول ولا قوة، ولكنه بعون الله ونصره ومَنّه، وفضله، فله الطَّوْلُ والمنُّ والفضل العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله رب العالمين، والسلام<sup>(١)</sup>.

### مواقف بطولية لبعض المسلمين:

في هذا العنوان أذكر مواقف بطولية لبعض المجاهدين مما لم يرد له ذكر أثناء الكلام على المعركة:

١- فمن ذلك موقف لعكرمة بن أبي جهل، فقد قال ذلك اليوم: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفرُّ منكم اليوم! ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمئة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقُتلوا إلا من برأ<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير: وقد ذكر الواقدي وغيره أنهم لما صرعوا من الجراح استسقوا ماءً فجيء إليهم بشربة ماء فلما قُرِبَتْ إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فلما دُفِعَتْ إليه نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً ولم يشربها أحد منهم رضي الله عنهم أجمعين<sup>(٣)</sup>.

وقد مات عكرمة بعدما أبلى بلاءً عظيماً سواء في هذه المعركة أو ما سبقها من المعارك منذ أن دخل في الإسلام رضي الله عنه.

٢- وكان لأبي سفيان دور كبير في تثبيت المسلمين وإثارة حماسهم وكان لكبر سنه لا يقاتل ولكنه يدور على المسلمين ويشبّتهم حتى مرَّ على ابنه يزيد فقال له: يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوقاً بقتال، فكيف بك وبأشباhek الذين وُلُوا أمور المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني ولا يكوننَّ أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجراً على عدو الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله، فقاتل يومئذ يزيد قتالاً شديداً.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠١.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٣- ٢٤٤.

(٣) البداية والنهاية ٧/ ١٢.

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتًا يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد<sup>(١)</sup>

٣- وأخرج الأزدي من خبر سهل بن سعد قال: وأقبل يومئذ عمرو بن الطفيل ابن ذي النور وهو يقول: يا معشر الأزد، لا يؤتینَّ المسلمون من قبلكم، وأخذ يضرب بسيفه متقدمًا عليهم، وقاتل قتالا شديدًا، وقتل من أشدائهم تسعة، ثم قتل رحمه الله .

ونادى أبو هريرة: يا مبرور، يا مبرور، فأطافت به الأزد<sup>(٢)</sup>.

٤- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الأعلى بن سُراقَة قال: انتهيت إلى أبي هريرة يومئذ وهو يقول: تزينوا للحوار العين، وارغبوا في جوار ربكم في جنات النعيم، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم.

قال: وأطافت به الأزد، ثم اضطربوا هم والروم، فو الذي لا إله إلا هو لرأينا الروم وإنها لتدور بهم الأرض وهم في مجال واحد كما تدور الرِّحَا، فما برحوا ولا زالوا، وركبهم من الروم أمثال الجبال، فما رأيت موطننا قطَّ أكثر قحفًا ساقطًا<sup>(٣)</sup>، أو معصمًا نادرا، أو كفًا طائحة من ذلك الموطن، وقد والله أوحلناهم شرًا وأوحلونا<sup>(٤)</sup>.

٥- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر حنظلة بن جُويَّة قال: والله إني لفي الميسرة إذ مرَّ بنا رجال من الروم على خيل العرب، لا يشبهون الروم وهم أشبه شيء بنا، فما أنسى قول قائل منهم: يا معشر العرب الحقوا بوادي القرى ويثرب، وهو يقول:

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٨، البداية والنهاية ١٤/٧، تاريخ دمشق ١٥٥/٢، ١٥٧.

(٢) فتوح الشام للأزدي/ ٢٢٤. (٣) القحف العظم الذي فوق الدماغ .

(٤) فتوح الشام للأزدي/ ٢٢٤-٢٢٥، تاريخ دمشق ١٥٣/٢.

فِي كُلِّ حِينٍ فَئَةً تُغَيِّرُ نَحْنُ لَنَا الْبَلْقَاءُ وَالسَّادِرُ  
هِيَ هَاتَ يَا بِي ذَلِكَ الْأَمِيرُ وَالْمَلِكُ الْمُتَوَجُّعُ الْمُخْبِرُ

قال: وأحمل عليه، وحمل عليّ، واضطربنا بسيفينا، فلم يغننا شيئاً، قال: ثم إنني اعتنقته فخررنا جميعاً، فاعتركنا ساعة، ثم إنا تحاجزنا ساعة، قال: فنظرت إلى عنقه وقد بدا منه مثل شراك النعل، فمشيت إليه، واعتهدت ذلك الموضع بسيفي، فو الله ما أخطأته، فقطعته، وصرع، فضربته حتى قتلتها، وأقبلت إلى فرسي وقد كان عاراً<sup>(١)</sup> وإذا قومي قد حبسوه علي، فأقبلت حتى ركبته<sup>(٢)</sup>.

٦- قال حنظلة بن جوية في هذه الرواية: وقاتل قبّاث بن أشيم يومئذ قتالاً شديداً، وكسر في ذلك اليوم ثلاثة أرماح، وقطع سيفين، وأخذ يقول كلما قطع سيفاً أو كسر رمحاً: من يعين بسيف أو برمح في سبيل الله رجلاً قد حبس نفسه مع أولياء الله، وقد عاهد الله لا يفر ولا يبرح، يقاتل المشركين حتى يظهر الله المسلمين أو يموت. وكان من أحسن الناس بلاءً يومئذ<sup>(٣)</sup>.

٧- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر حبيب بن مسلمة قال: وشد على عمرو بن العاص جماعة من الروم، فانكشف عنه أصحابه، وثبت عمرو، فجالدهم طويلاً، وقاتلهم قتالاً شديداً، ثم إن أصحابه تراجعوا إليه، فلسمعتُ أم حبيبة ابنة العاص وإنها لتقول: قبح الله رجلاً يفر عن حليلته، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته<sup>(٤)</sup>.

وهذا موقف يذكر لعمر بن العاص في الشجاعة والثبات وإن كانت شهرته في الدهاء والسياسة، وكون الرجل يجمع بين الشجاعة والرأي من صفات الكمال في الرجال.

(١) أي لم يبق على ظهره شيء.

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧.

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧ - ٢٢٨، تاريخ دمشق ١٥٥/٢.

(٤) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩، تاريخ دمشق ١٥٦/٢.



٨- قال حبيب بن مسلمة في هذه الرواية: وقاتل شرحبيل بن حسنة في رُبْعِهِ الذي كان فيه قتالا شديداً، وكان وسطاً من الناس، إلى جانب سعيد بن زيد، وجعل ينادي ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١] إلى آخر الآية. ثم يقول: أين الشارون أنفسهم ابتغاء مرضاته؟ أين المشتاقون إلى جوار الله في داره؟ فاجتمع إليه ناس كثير، وبقي القلب لم ينكشف فيه أهله الذين كانوا فيه مع سعيد بن زيد.

وكان أبو عبيدة من وراء ظهور المسلمين ردءاً لهم<sup>(١)</sup>.

٩- قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني أبو عبد الله بن الحسين، أن الأشتر<sup>(٢)</sup> كان من جلداء الرجال ومن أشدائهم وأهل القوة منهم والنجدة. وأنه قتل يوم اليرموك قبل أن ينهزموا أحد عشر رجلاً من بطارتهم، وقتل ثلاثة منهم مبارزة.

وأقبل الأشتر مع خالد بن الوليد حين طلب الروم وحين انهزموا، فلما بلغوا ثنية العقاب من أرض دمشق، وهو يهبط الهابط منها من قبل حمص، فيقع في الغوطة، غوطة دمشق، وعلى ثنية العقاب جماعة عظيمة من الروم، فلما انتهوا إلى تلك الجماعة من الروم يرمون المسلمين من فوقهم، فتقدم إليهم الأشتر في رجال من المسلمين، وإذا أمام الروم رجل من عظمائهم وأشدائهم، وهو عظيم جسيم، فمضى إليه الأشتر فلما دنا منه وثب الأشتر، فاستوى هو والرومي على صخرة مستوية، فاضطربا بسيفيهما، فضرب كف الرومي، فأطار كفه، وضرب الرومي الأشتر بسيفه، فلم يضره شيئاً، واعتنق كل منهما صاحبه، ثم دافعه الأشتر من فوق الصخرة، فوقعا عنها، ثم تدحرجا، فأخذ الأشتر يقول وهو في ذلك ملازم العلج لا يتركه وهما يتدحرجان: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٢] لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

(١) فتوح الشام للأزدي/٢٢٩، تاريخ دمشق ١٥٦/٢. (٢) هو مالك بن الحارث النخعي.

فلم يزل يقول ذلك حتى انتهى إلى موضع مستوٍ من الجبل وقرار، فلما استقرا جميعاً وثب الأشر على الرومي، فقتله، ثم صاح في الناس: أن جوزوا، فجاز الناس. فلما رأت الروم ذلك، وأن صاحبهم قد قتله الأشر خلوا سبيل العقبة للناس، ثم انهزموا<sup>(١)</sup>.

وهكذا استطاع الأشر أن يفتح الطريق للمسلمين بقتل عظيم الروم الذي كانوا يتقون به، وهو مثل من أمثلة الشجاعة الفذة والإقدام المندفع، حيث ينسى المغامر نفسه وحياته في سبيل خدمة المثل العليا التي يؤمن بها.

١٠- أما نساء المسلمين فكان لهن عمل مهم أثناء القتال حيث قمن بتأنيب المتراجعين إلى الوراء وتثيبتهم، فإنهم لما انكشف بعض المسلمين من الميمنة والميسرة استقبلتهم النساء ومعهن عمد الخيام والحجارة حتى ردّتهم إلى المعسكر.

وصاحت نسوة من المسلمين يقلن: قاتلوا أيها المسلمون فلستم ببعولتنا إن لم تمنعونا، فكان لذلك أثر في تراجع المنكشفين إلى مواقعهم.

وكان لبعضهن مشاركة في قتال من اقترب منهن من الكفار<sup>(٢)</sup>.

كما جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله حينما سئل عن جهاد النساء قال: كنّ يشهدن مع رسول الله ﷺ فيداوين الجرحى ويسقين المقاتلة، ولم أسمع معه بامرأة قتلت، وقد قاتلن نساءً قريش يوم اليرموك حين رهقهم جموع الروم حتى خالطوا عسكر المسلمين، فضرب النساء يومئذ بالسيوف في خلافة عمر رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>. ومما جاء في ذلك ما ذكره ابن كثير في ترجمة أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها قتلت بعمود خيمتها يوم اليرموك تسعة من الروم<sup>(٤)</sup>.

هذا إضافة إلى مهمتهن المعروفة دائماً من سقي الجرحى وتضميد جراحهم.

فهذه المواقف وأمثالها مما مر علينا في الكلام عن هذه المعركة تبين لنا عظمة المسلمين وتفوقهم في الحياة الجهادية لأنهم جعلوا الجهاد هو قضيتهم الكبرى،

(١) فتوح الشام للأزدي/ ٢٣٣ - ٢٣٤، وانظر تاريخ دمشق ١٥٨/٢.

(٢) فتوح الشام للأزدي/ ٢٢٩، البداية والنهاية ١١/٧، تاريخ دمشق ١٥٤/٢.

(٣) مصنف عبد الرزاق ٢٩٨/٥، رقم ٩٦٧٣. (٤) البداية والنهاية ٣١٢/٨.

فبرعوا فيه وفاقوا أبطال الأمم الذين يُعدُّ الواحد منهم عن ألف مقاتل، حتى أصبح الرعب منهم يسبقهم في كل موطن فيزلزل أقدام أعدائهم، ويهيئهم للهزيمة والفشل.

وإن ما قامت به النساء المؤمنات من تثبيت المجاهدين وتقريع المنهزمين يعتبر جهداً عالياً كان له دور جيد في تماسك المؤمنين وثباتهم، وإن ما قامت به بعضهن من المشاركة في القتال دفاعاً عن أنفسهن يعتبر تضحية عالية وإسهاماً جيداً في تخفيف العبء عن الرجال.

ولقد أدرك الأعداء الذين اخترقوا صفوف المؤمنين أنه ليس من السهل الاستيلاء على نساء المسلمين لأن كل واحدة منهم تُفضّل أن تُقتل عن أن تقع أسيرة بيد الأعداء.

\*\*\*\*\*

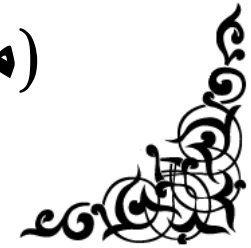


مواقف وعبر

في

فتوحات الشام

(ما بعد اليرموك)



عاد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بعد «اليرموك» إلى توزيع الجيوش الإسلامية في الشام حسب توجيه أبي بكر رضي الله عنه، فأمر على دمشق يزيد ابن أبي سفيان وأمره بأن يستكمل فتح القرى التابعة لها، وأمر على الأردن شرحبيل بن حسنة وأمره بفتح القرى التابعة له، وأمر على فلسطين عمرو بن العاص وأمره أن يفتح بيت المقدس وسائر قراها، وسار هو إلى حمص وبرفقتة خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين.

وقد قام يزيد بن أبي سفيان بفتح بيروت وصيدا وبعض قرى الساحل وكان على مقدمته أخوه معاوية، وقد تولى معاوية فتح بعض القرى والحصون بتوجيه من أخيه يزيد<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري/ ١٧٣ .

## فتح قنسرين

كان شمال الشام تابعاً لمدينة حمص حسب تقسيم الصحابة رضي الله عنهم في تقسيم الشام على أمراء الجهاد.

وقد ذكر الإمام الطبري في رواية له أن أبا عبيدة وجّه خالد بن الوليد رضي الله عنهما لفتح قنسرين، فلقى حولها جمعاً من الروم والعرب بقيادة «ميناس» وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل، فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، وأما العرب فأرسلوا إلى خالد يخبرونه بأنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربته فقبل منهم وتركهم.

وسار خالد إلى قنسرين فتحصنوا منه فقال: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا.

وهذه كلمة عظيمة تدل على ثقته البالغة بنصر الله تعالى كما أنها تحمل في طياتها إظهار عز الإسلام وتمكن دولته وسلطانه.

قال: فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص، فأبى إلا على إخراج المدينة فأخربها<sup>(١)</sup>.

قال: ولما بلغ عمر ذلك قال: أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني، وقد كان عزله هو والمثنى مع قيامه - يعني بأمر الخلافة - وقال: إنني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما<sup>(٢)</sup>.

هكذا ذكر هذا القول بعد «قنسرين» ولم يكن خالد في هذه المعركة قد أمر نفسه وإنما ولاه أبو عبيدة، ولم يظهر منه عمل كبير يلفت النظر بالنسبة إلى أعماله الحربية السابقة، وإنما أمر نفسه في معركة «اليرموك» كما سبق حيث قال لأبي عبيدة: «ولّني ما وراء بابك فأنا أكفيك بإذن الله أمر هذا العدو»، وقد ظهر منه من

(١) يعني أخرب حصونها الحربية.

(٢) تاريخ الطبري ٦٠١/٣ .

البراعة في القيادة والقوة في تحمل المسؤولية وبذل الطاقة العظيمة في معركة اليرموك ما يبهر الأبصار ويستجيش البصائر .

فإذا ثبت أن عمر رضي الله عنه قال هذا القول عقب معركة قنسرين فإنما يريد بالدرجة الأولى ما قام به في اليرموك لقرب الزمن بين المعركتين وانطباق كلامه على ما جرى من خالد في اليرموك .

وإن هذا الثناء البالغ من عمر على خالد ليدلنا على عظمة شخصية عمر وتجرده الواضح من حظ النفس، فقد سبق له أن عزل خالدًا وهو في أوج عزّه، لما تبدى له من المصلحة العامة في ذلك آنذاك، وتحمل ما قد يواجهه من لوم الناس في ذلك، فكان الوضع المعروف لدى أكثرية الناس في هذا المجال أن يغض الطرف عن محاسن من كان له رأي فيه يخالف الأغلبية إن لم يُغَطَّ على محاسنه ويحولها إلى مساوئ كما يفعل بعض الناس، أما عمر الرجل العظيم الذي يهين نفسه من أجل أن تسود المكارم والمعالي فإنه لم يهضم أبا سليمان حقه وحاشاه أن يفعل ذلك .

\*\*\*\*\*

## فتح حلب وأنطاكية

ذكر البلاذري في رواية له أن أبا عبيدة رحل إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فأعطوا ذلك، فاستثنى عليهم موضع المسجد، وكان الذي صالحهم عليه عياض، فأنفذ أبو عبيدة صلحه.

وسار أبو عبيدة إلى أنطاكية وقد تحصن بها خلق من أهل جند قنسرين، فلما صار بقرية مهروبة وهي على فرسخين من مدينة أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضّهم وأجأهم إلى المدينة، وحاصر أهلها من جميع جوانبها ثم إنهم صالحوه على الجزية والجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم فتح هاتين المدينتين بهذه السرعة نظراً لقوة المسلمين، واعتباراً بما حصل لمدينتي دمشق وحمص، وبهذا نعلم ضرورة وجود دولة الإسلام القوية في كل زمن لأن وجودها يُخضع أعداءها لها بسلاح الرعب من غير أن يكون قتال، وهذا يوفر قوة جيش المسلمين لاستخدامها عند الحاجة.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح البلدان / ١٩٩ - ٢٠٠ .



## فتح اللاذقية

أخرج البلاذري بإسناده عن مشايخ من أهل حمص قالوا: استخلف أبو عبيدة عبادة بن الصامت الأنصاري على حمص، فأتى<sup>(١)</sup> اللاذقية فقاتله أهلها، فكان بها باب عظيم لا يفتحه إلا جماعة من الناس، فلما رأى صعوبة مُرامها عسكر على بُعد من المدينة، ثم أمر أن تُحفر حفائر كالأسراب يستتر الرجل وفرسه في الواحدة منها، فاجتهد المسلمون في حفرها حتى فرغوا منها، ثم إنهم أظهروا القفول إلى حمص، فلما جنَّ عليهم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم، وأهل اللاذقية غارون، يرون أنهم قد انصرفوا عنهم، فلما أصبحوا فتحوا بابهم وأخرجوا سرحهم، فلم يرعهم إلا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم من باب المدينة، ففتحت عنوة، ودخل عبادة الحصن ثم علا حائطه فكبر عليه، وهرب قوم من نصارى اللاذقية إلى «اليسيد» ثم طلبوا الأمان على أن يتراجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدونه قَلُوا أو كثروا، وتُركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً بأمر عبادة، ثم إنه وسَّع بعد<sup>(٢)</sup>.

هذا وإن في الخبر موقفاً حريياً يذكر لعبادة رضي الله عنه، وفيه لون جديد من ألوان التخطيط الحربي القائم على المكر بالأعداء باجتلاب شعورهم بالأمن ثم اغتنام غفلتهم والإيقاع بهم، والمسلمون في حروبهم يحبون المبارزة بالحرب التي يتواجه فيها الأقران وتبرز فيها شجاعة الشجعان، ولكن حينما يتحصن منهم الأعداء بالأسوار والأبواب المحكمة فإنهم يلجؤون إلى استعمال الحيل وتصيد غفلات الأعداء حتى يهتكوا حصونهم ويقابلوهم وجهاً لوجه، وقلماً يصمد لهم أعداؤهم.

\*\*\*\*\*

(٢) فتوح البلدان/ ١٨٠ - ١٨١.

(١) يعني عبادة بن الصامت.

## فتح قيسارية<sup>(١)</sup>

ظلت قيسارية ممتنعة من المسلمين نحووا من سبع سنين، وكان عمرو بن العاص يحاصرها ثم يتركها لينضم إلى جيوش المسلمين في معاركهم الكبرى.

وحينما ولى أمير المؤمنين عمر معاوية على جزء من الشام أمره بالمسير إليها، وجاء في كتابه له: أما بعد فإني قد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، الله ربنا ورباؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير.

فسار معاوية إليها في سبعة عشر ألفاً من الجنود وعلى قيسارية أمير يسمى «أبني»، فخرجوا إلى جيش معاوية فقاتلوه فهزمهم عدة مرات، ثم إنهم خرجوا بجمع كبير فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فانهمزوا وقتل منهم في المعركة ثمانون ألفاً وعشرون ألفاً في حال هزيمتهم.

وكان فتحها في العام التاسع عشر للهجرة.

وجعل معاوية يحبس الأسرى عنده ويقول: ما صنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله، ففطمه عن العيب بأسرى المسلمين حتى افتتحها، ووجه معاوية بالفتح إلى أمير المؤمنين عمر مع رجلين من «جذام» ثم خاف ضعفهما عن المسير فوجه رجلاً من خثعم، فكان الخثعمي يُجهد نفسه في السير والسرى وهو يقول:

أَرَقَّ عَيْنِي أَخَوًا جِذَامَ      أُخِيَّ جُشْمَ وَأَخَوَ حَرَامَ

كيف أنام وهمما أمامي      إذ يرحلان والهجير طامي

فسبقهما ودخل على عمر فكبر عمر وكبر المسلمون<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تم فتح هذه البلدة التي استعصت على المسلمين عدة سنوات لمناعة أسوارها، ولأن الروم وضعوا ثقلهم فيها حينما أفلت الشام من أيديهم، وقد لجأ إليها كثير ممن فر من معارك المسلمين مع الروم في الشام.

(١) مدينة في فلسطين على ساحل البحر بين حيفا ويافا.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري / ١٩١ - ١٩٤، تاريخ الطبري ٦٠٤/٣ باختصار.

وإن كثافة عدد القتلى ليدلنا على كثرة من كان فيها من المحاربين .

ولقد كان فتح هذه البلدة من مآثر معاوية رضي الله عنه ، كما أننا نلمح في هذا الخبر مثليين مما كان يتصف به معاوية من الحزم والدهاء : الأول في إرساله رسولا ثالثا يخبر بالفتح وعدم اكتفائه بالرسولين السابقين وإشعار الأخير بذلك مما جعله ينافس الرسولين السابقين ويصل قبلهما .

والثاني في حبس أسرى الأعداء عنده حتى يضمن سلامة أسرى المسلمين ، وقول معاوية : « ما صنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله » يخالف في الظاهر قول رسول الله ﷺ في أسارى معركة بدر « استوصوا بالأسارى خيراً »<sup>(١)</sup> فيقال : إن هذه الوصية هي الأصل في معاملة الأسرى ، ولكن حينما يتجبر الأعداء ويعاملون أسرى المسلمين بالتعذيب والإذلال فإن مما يدفع هذه المعاملة السيئة عن أسرى المسلمين أن يعامل المسلمون أسرى الأعداء بمثل معاملتهم أسرى المسلمين ، باستثناء الأعمال التي هي محرمة في الإسلام .

\*\*\*\*\*

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٨٦ .

## فتح بيت المقدس

وَجَدَ عمرو بن العاص نفسه بين قوتين، قوة ترابط داخل بيت المقدس، وقوة قد تحصنت بأجنادين، وذلك كله تحت قيادة «الأرطوبون» وكان أدهى الروم وأبعدها غورا، وأنكأها فعلا. وقد رابط بأجنادين، وبعث عمرو جيشاً لحصار بيت المقدس بقيادة علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي، وبعث أبا أيوب المالكي إلى الرملة وكان بها جيش تابع للأرطوبون، ولما أمن عمرو على جيشه من هذه القوات توجه إلى القوة الكبرى في أجنادين.

ذكر ذلك ابن جرير الطبري رحمه الله ثم قال: وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطوبون على سقطة، ولا تشفيه الرسل، فوليه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد.

وقال أرطوبون في نفسه: والله هذا لعمرو أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله، ثم دعا حرسيا فسارَه بقتله، فقال: اخرج فقم مكان كذا وكذا، فإذا مرَّ بك فاقتله، وفطن له عمرو، فقال: قد سمعت مني وسمعت منك، فأما ما قتله فقد وقع مني موقعاً، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أمره، فأرجع فأتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضتَ مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمئهم، وكنت على رأس أمرك. فقال: نعم.

ودعا رجلا فسارَه، وقال: اذهب إلى فلان فردّه إليّ، فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق فجئ بأصحابك، فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها، وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال: خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق، فبلغتُ عمر فقال: غلبه عمرو. لله عمرو<sup>(١)</sup>.

لقد كان عمر بن الخطاب قال حينما علم بمواجهة عمرو بن العاص لأرطوبون الروم: قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظروا عمّ تنفرج. وقد انفرجت

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠٥.

عن استخدام ذكي من عمرو لما وهبه الله من الدهاء، عرف به مداخل العدو ومخارجه ومواطن قوته وضعفه.

وكان أرتبون الروم من الدهاء بحيث عرف أن عمراً وقد جاء على هيئة رسول ليس رجلاً عادياً بل هو رجل يحمل همّاً كبيراً وقد هيمن على نفسه فجعله يستعمل كل طاقته في التعرف على المواقع والرجال والسلاح وكل ما يتعلق بالحرب ولم يكن مجرد رسول لقائد الجيش يؤدّي الرسالة وهو غافل عن استكشاف قوة العدو وخفاياه.

وكان عمرو بارعاً في دهائه حينما أدرك ما أراداه به الأرتبون من قراءة ذلك في وجهه وما قام به من تصرف يوحى بإرادة الغدر به، فابتكر بسرعة هذه الحيلة التي استطاع بها أن يتخلص منه، ولا شك أن عمراً كان أدهى منه، لأن أرتبون الروم لم يستطع إخفاء ما أراد في ضميره بل ظهر ذلك على وجهه حتى أدرك ذلك عمرو، بينما استطاع عمرو أن يعرض خدعته ببساطة وكان أملك لأعصابه مع أنه كان في مقام الخوف، ومن المعلوم أن الخوف يظهر في آثار منها اصفرار الوجه وتلعثم اللسان، لكن عمراً لم يبد على وجهه أي تغيير ولم يفقد شيئاً من رباطة الجأش وفصاحة اللسان، حتى خفي أمره تماماً على أرتبون الروم، وطمع في إفناء عشرة من مفكري المسلمين بدلاً من واحد.

ألا ما أحوج المسلمين اليوم إلى ممثلين لهم بذكاء عمرو ودهائه، خاصة وأن معركة المسلمين مع أعدائهم أصبحت في هذا الزمن تعتمد في أكثر مراحلها على التفوق الفكري، ولطالما استفاد القادة المسلمون من العباقرية في تذليل الصعوبات وحل المشكلات وإخضاع الأعداء للخطط التي يريدونها، ولطالما جنبوا أممهم تضحيات كبيرة في الأنفس والأموال بسلوك الخطط التي يرسمها العباقرية وتوجيه أذكيائهم ووجهائهم للتفاوض مع الأعداء. أما عمرو بن العاص فإنه وقد أفلت من قبضة الأرتبون قد استفاد من رؤية معكسر الأعداء، فأصبح أجراً على حربهم وقد عرف مكامن ضعفهم وقوتهم فالتقوا اللقاء الأخير الذي انهزم به الأعداء، وقد لجأ الأرتبون مع من بقي من جيشه إلى القدس، واستطاع دخولها والتحصن بها.

## أبو عبيدة يتوجه إلى القدس:

بعد أن أكمل أبو عبيدة تطهير شمال الشام بمساعدة خالد بن الوليد توجه بجيشه إلى القدس التي استعصى فتحها على عمرو بن العاص.

قال محمد بن عبد الله الأزدي في رواية له: فنادى بالرحيل إلى إيلياء، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته بين يديه، وأقبل يسير حتى انتهى إلى حمص، فبعث على حمص حبيب بن مسلمة القرشي، وأرض قنشرين إذ ذاك مجموعة إلى صاحب حمص، وإنما سميت حمص الجند المقدم، لأنها كانت أذناها من الروم ومن دمشق ومن الأردن وفلسطين، وهن كلهن وراءها.

ثم خرج من حمص ومن دمشق، فولأها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ثم خرج حتى مرَّ بالأردن، فنزلها، فعسكر بها، وبعث إلى أهل إيلياء الرسل، وقال: اخرجوا إليّ أكتب لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم، ونف لكم كما وفينا لغيركم. فتثاقلوا وأبوا.

قال: فكتب أبو عبيدة إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله العظيم ورسوله، أما بعد، فإننا ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، فإذا شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم، وكنتم إخواننا في ديننا، وإن أبيتم فأقروا لنا باعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حبا للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكل الخنزير، ثم أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلتكم، وأسبي ذراريكم<sup>(١)</sup>.

وهذا كتاب قوي شرح فيه أبو عبيدة دعوة الإسلام، ودعا أهل بيت المقدس إلى الدخول فيه بالترغيب أولا ثم بالترهيب ثانيا، وليس أعظم في الترغيب من أن يكونوا إخوانا للمسلمين إذا أسلموا، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وليس أبلغ في الترهيب من التهديد بالغزو برجال هم أحب للموت من أعدائهم للحياة!

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٢-٢٤٣.

قال: ثم إن أبا عبيدة انتظر أهل إيلياء، فأبوا أن يأتوه ولا يصالحوه، فأقبل إليهم حتى نزل بهم، فحاصرهم حصاراً شديداً، وضيق عليهم من كل جانب، فخرجوا إليه ذات يوم، فقاتلوا المسلمين ساعة، ثم إن المسلمين شدوا عليهم من كل جانب، فقاتلوهم ساعة، ثم انهزموا فدخلوا حصنهم، فكان الذي ولى قتالهم خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، كل واحد منهما في جانب.

فبلغ ذلك سعيد بن زيد وهو على دمشق، فكتب إلى أبي عبيدة، رضي الله عنه ورحمه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فلعمري ما كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي، وعلى ما يقربني من مرضاة ربي عز وجل، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى عمك من هو أرغب فيه مني، فليعمل لك عليه ما بدا لك، فإنني قادم عليك وشيكاً، إن شاء الله، والسلام.

قال: فلما وصل كتابه إلى أبي عبيدة قال: أشهد ليفعلتها.

فقال ليزيد بن أبي سفيان: اكفني دمشق، فوجهه إليها، فسار يزيد إليها، فوليتها<sup>(١)</sup>.

قال: فلم حضر أبو عبيدة أهل إيلياء ورأوا أنه غير مقلع عنهم وظنوا أنه لا طاقة لهم بحربه قالوا له: نحن نصلحك قال: فإنني أقبل منكم الصلح.

قالوا: فأرسل إلى خليفتك عمر، فيكون هو الذي يعطينا العهد، وهو يصلحنا، ويكتب لنا الأمان<sup>(٢)</sup>.

فقبل ذلك أبو عبيدة منهم، وهم بالكتاب، وكان أبو عبيدة قد بعث معاذ بن جبل على الأردن، وكان معاذ لا يفارق أبا عبيدة لرغبته في الجهاد، وكان أبو عبيدة لا يكاد يقطع أمراً دون رأي معاذ، فأرسل إلى معاذ. فلما قدم عليه أخبره بما سأله القوم.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٤-٢٤٦.

(٢) وإنما طلبوا ذلك لأن في كتبهم المقدسة أن الذي يفتح بيت المقدس هو عمر، وقد ذكر باسمه وصفاته كما سيأتي ما يفيد ذلك.

فقال له معاذ: تكتب إلى أمير المؤمنين، وتسأله القدوم عليك فلعله يقدم عليك، ثم يأتي هؤلاء الصلح، فيكون مسيرة عناء وفضلا، فلا تكتب له حتى توثق هؤلاء وتستحلفهم بأيمانهم المغلظة، لئن أنت سألت أمير المؤمنين القدوم عليهم، وكتب إليه بذلك فقدم عليهم، فأعطاهم الأمان، وكتب لهم كتاباً على الصلح ليقبلن ذلك ويصالحوا عليه.

فأخذ عليهم أبو عبيدة الأيمان المغلظة، فحلفوا بأيمانهم، لئن عمر أمير المؤمنين قدم عليهم، ونزل بهم، فأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وكتب على ذلك كتابا ليقبلن ذلك وليؤدن الجزية، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الشام.

فلما فعلوا ذلك كتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإننا أقمنا على إيلياء، وظنوا أن لهم في المطاولة بهم فرجاً ورجاء، فما يزدهم الله بها إلا ضيقاً ونقصاً وهزلاً وأزلاً، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا به ممتنعين قبل ذلك وله كارهين، وأنهم سألوا الصلح على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين، فيكون هو المؤمن لهم والكاتب لهم كتاباً، وإنا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين، ثم يغدر القوم فيرجعون، فيكون سيرك -أصلحك الله- عناءً وفضلاً، فأخذنا عليهم الموائيق المغلظة بأيمانهم، لئن أنت قدمت عليهم، فأمنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك، وليؤدن الجزية، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة، ففعلوا وأخذنا عليهم الأيمان بذلك، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل، فإن في سيرك أجراً وسلاماً، وعافية للمسلمين، أراك الله مرشدك، ويسر أمرك، والسلام عليك.

فلما أتى عمر، رضي الله عنه كتابه جمع رؤوس المسلمين إليه، فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة إليه، واستشارهم بالذي كتب إليه أبو عبيدة.

فقال له عثمان بن عفان: أصلحك الله، إن الله قد أذلهم وحصرهم وضيق عليهم، وأراهم ما صنع بجموعهم وملوكهم، وقتل من صناديدهم، وفتح على المسلمين بلادهم، فهم في كل يوم يزدادون هزلاً وأزلاً -قال: والأزل شدة العيش- وذلاً ونقصاً، وضيقاً ورغماً، فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك



بهم وبأمرهم مستخفّ، وبشأنهم محتقر وغير معظم، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى ينزلوا على الحكم أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا حاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم حتى يعطوا بأيديهم .

فقال عمر: ماذا ترون؟ هل عند أحد منكم غير هذا الرأي؟

فقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: نعم يا أمير المؤمنين، عندي غير هذا، فقال: فما هو؟

قال: إنهم يا أمير المؤمنين قد سألك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار، وهي على المسلمين فتح ولهم عزّ، وهم يعطونها الآن في العاجل في عافية، ليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم، ولك يا أمير المؤمنين في القدوم عليهم الأجر في كل ظمياً وكل مَخْمَصَةً<sup>(١)</sup>، وفي قطع كل وادٍ وكل فجٍ وشعبٍ، وفي كل نفقة تنفقها حتى تقدم عليهم، فإن قدمت عليهم كان قدومك الأمن والعافية، والصلح والفتح، ولست تأمن لو أنهم يتسوا من قبلك الصلح ومن قدومك عليهم أن يتمسكوا بحصونهم، ولعلمهم أن يأتيهم من عدونا منهم مدد لهم، فيدخلوا معهم في حصونهم، فيدخل على المسلمين في حربهم وجهادهم بلاء ومشقة، ويطول بهم الحصار، ويقيم المسلمون عليهم، فيصيب المسلمين من الجهد والجوع نحو ما يصيبهم، ولعل المسلمين يدنون من حصونهم، فيرمونهم بالنشاب، أو يقذفونهم بالحجارة، فإن قُتل أحد من المسلمين تمنيتم أنكم افتديتم رجلاً من المسلمين بمسيركم إلى مقطع التراب، وكان المسلم بذلك من إخوانه أهلاً .

فقال عمر -رضي الله عنه- قد أحسن عثمان في مكيمة العدو، وقد أحسن عليّ النظر لأهل الإسلام .

ثم قال: سيروا على اسم الله، فإنني معسكر وسائر، وخرج الناس معه، أشرف الناس، وبيوتات العرب، والمهاجرون والأنصار، وأخرج عمر معه العباس ابن عبد المطلب<sup>(٢)</sup> .

هذا وإن هذه المحاورة لتدلنا على تفوق الصحابة رضي الله عنهم -وخاصة أمير المؤمنين عمر- في الاستفادة من الشورى التي أمر الله تعالى بها وأمر بها رسوله

(١) كل عطش وكل جوع .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٧ - ٢٥٠ .

وَتَبَقَّهَا فِي حَيَاتِهِ، وَلَقَدْ دَرَأَ اللَّهُ عَنْهُمْ شُرُورًا كَثِيرَةً وَحَقَّقَ لَهُمْ خَيْرًا كَثِيرًا  
بِسَبَبِ اسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى الْإِخْتِيارِ بِالشُّورَى .

وهذه المحاوره تدلنا على أن العقل البشري لا يحيط بالأمر من كل جوانبها  
غالبًا، بل يغلب على فكر أحد المستشارين أمر بينما يغلب على فكر غيره أمور  
أخرى، ولقد أوجز عمر رضي الله عنه اختلاف وجهه النظر بين عثمان وعلي  
رضي الله عنهما بكلمات معدوده حيث قال: «قد أحسن عثمان في مكيدة العدو،  
وقد أحسن علي النظر لأهل الإسلام» وفي هذا الكلام ثناء على الرجلين وتقدير  
لهما، ثم أخذ برأي علي لأنه رآه أرفق بالمسلمين .

### وصول أمير المؤمنين عمر إلى الشام:

ووصل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى الشام .

يقول الأزدى في سياق روايته: ثم خرج من الجابية إلى إيلياء، فخرج إليه  
المسلمون يستقبلونه . . . فأقبلوا يتدرونه، فقال للمسلمين: مكانكم .

ثم نزل عمر رضي الله عنه عن بعيره فأخذ زمام جملة، وزمامه من ليف، ثم  
دخل الماء بين يدي جملة حتى جاز الماء إلى أصحاب أبي عبيدة فإذا معهم بردون  
يُجَنَّبُونَهُ، فقالوا: يا أمير المؤمنين، اركب هذا البردون، فإنه أجمل بك وأهون  
عليك في ركوبك، ولا نحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة التي نراك  
فيها، واستقبلوه بثياب بيض، فنزل عمر رضي الله عنه عن جملة، وركب البردون  
وترك الثياب، فلما هملج به البردون نزل عنه، وقال: خذوا هذا مني، فإن هذا  
شيطان وأخاف أن يغيّر عليّ قلبي .

قالوا: يا أمير المؤمنين، فلو لبست هذه الثياب البيض، وركبت هذا البردون  
لكان أجمل في المروءة، وأحسن في المراكز، وخيرًا في الجهاد .

فقال لهم عمر رضي الله عنه: ويحكم لا تعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتذلوا .

ثم مضى، ومضى المسلمون معه حتى أتى إيلياء فنزل بها، فأتاه رجال من  
المسلمين، فيهم أبو الأعور السُّلَمي وقد لبسوا لباس الروم وتشبهوا بهم في

هيئتهم، فقال عمر رضي الله عنه: احثوا في وجوههم التراب حتى يرجعوا إلى هيئتنا وستتنا ولباسنا، وكانوا قد أظهروا أشياء من الديباج. ثم أمر بهم فحرق ذلك عليهم.

فقال له يزيد بن أبي سفيان: يا أمير المؤمنين، إن الدواب والثياب عندنا كثيرة، والعيش عندنا رفيع، والسعر عندنا رخيص، وحال المسلمين كما تحب، فلو أنك لبست من هذا الثياب البيض، وركبت من هذه الدواب الغرّة<sup>(١)</sup>، وأطعمت المسلمين من هذا الطعام الكثير كان أبعد للصوت، وكان أزين لك في هذا الأمر، وأعظم لك في الأعاجم.

فقال له: يا يزيد لا والله لا أدع الهيئة التي فارقت عليها صاحبي، ولا أترين للناس بما أخاف أن يشينني عند ربي، ولا أريد أن يعظم أمري عند الناس ويصغر عند الله.

ولم يترك عمر رضي الله عنه هيئته على الأمر الذي كان عليه في حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر رضي الله عنه، حتى خرج من الدنيا<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أطرح عمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا، ولم يلق لها بالا، وغلب عليه ذكر الآخرة. وما فارق عليه صاحبيه رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، ولم يستطع أمراء المسلمين في الشام أن يؤثروا عليه بما ذكروا من مسوغات تغيير الملبس والمركب ونحو ذلك.

وتظهر في هذا الخبر حساسية عمر المرهفة نحو مظاهر الدنيا والخوف من الافتتان بها، ويذكره تراقص البرذون لما ركبه بمظاهر الدنيا، فينزل عنه سريعاً ويعود إلى جملة، وهذا يدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه.

ونراه يركز في موعظته للصحابة على الاعتصام بالإسلام الذي أعز الله به المسلمين، والحذر من النظر إلى المظاهر الدنيوية، واعتبار أنها سبيل إلى العزة والكرامة.

(١) أي الأفضل.

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٢ - ٢٥٤.

## خطبة لعمر:

قال: ثم إن عمر -رضي الله عنه- قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: يا أهل الإسلام، إن الله قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وورثكم البلاد، ومكن لكم في الأرض، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر للنعم، وقُلَّ ما كفر قوم بما أنعم الله عليهم، ثم لم يَفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلَّط عليهم عدوهم. ثم نزل (١).

فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يذكر المسلمين في هذه الخطبة بأن ذلك العز الذي يعيشون فيه والتمكين في الأرض سببه نصر الله تعالى إياهم، وضمان ثباته واستدامته يكون بشكر المنعم جل وعلا بذكره وطاعته، وزوال هذه النعم العظيمة يكون بمعصية الله تعالى فليحذر المسلمون من المعاصي حتى لا يسلبوا عزهم في الدنيا ثم يبوؤوا بالندامة يوم القيامة.

## أذان بلال:

وحضرت الصلاة، فقال عمر: يا بلال، ألا تؤذن لنا رحمك الله؟ فقال بلال: يا أمير المؤمنين، أما والله ما أردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، ولكن سأطيعك اليوم إذ أمرتني في هذه الصلاة وحدها.

فلما أذن بلال، وسمعت الصحابة صوته ذكروا نبيهم ﷺ، فبكوا بكاءً شديداً، ولم يكن من المسلمين يومئذ أحد أطول بكاءً من أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حتى قال لهما عمر رضي الله عنه: حسبكما رحمكما الله (٢).

هذا الخبر يبين لنا حب الصحابة رضي الله عنهم العظيم لرسول الله ﷺ حيث بكوا ذلك البكاء الشديد لذكراه، وإن هذا الحب العالي من أهم الدوافع التي دفعتهم للتقيد الشديد بسنته، وبذلك ظهر تفوقهم في سلمهم وحرابهم.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦.

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦.

## شكوى من بلال:

فلما قضى عمر رضي الله عنه صلاته قام إليه بلال فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمراء أجنادك بالشام والله ما يأكلون إلا لحوم الطير والخبز النقي، وما يجد ذلك عامة المسلمين.

فقال لهم عمر رضي الله عنه: ما يقول بلال؟

فقال له يزيد بن أبي سفيان: يا أمير المؤمنين، إن سعر بلادنا رخيص، وإنما نصيب هذا الذي ذكر بلال ههنا بمثل ما كنا به نقوت عيالاتنا بالحجاز.

فقال عمر رضي الله عنه لا والله لا أبرح العرصة<sup>(١)</sup> أبداً حتى تضمّنوا لي أرزاق المسلمين في كل شهر.

ثم قال: انظروا كم يكفي الرجل ما يشبعه ويكتفي به في كل يوم؟ فقالوا له: كذا وكذا.

قال: كم يكون ذلك في الشهر؟ قالوا: جريين<sup>(٢)</sup> مع ما يصلحه من الزيت والخلّ عند رأس كل هلال، فضمّنوا له ذلك.

ثم قال: يا معشر المسلمين، هذا لكم سوى أعطياتكم، فإن وفي لكم أمراؤكم بهذا الذي فرضت لكم عليهم، وأعطوكموه في كل شهر فذلك ما أحب، وإن هم لم يفعلوا فأعلموني حتى أعزلهم عنكم وأولّي أمرهم غيرهم.

قال: فلم يزل ذلك جارياً لهم دهرًا من دهرهم حتى قطعه عنهم ولاة السوء<sup>(٣)</sup>.

وهذا الذي ذكر بلال رضي الله عنه في هذا الخبر لا يعني أن أمراء الجند يوسعون على أنفسهم من الأموال العامة، بل إن ذلك من أموالهم الخاصة، ولو كان من مال المسلمين لحاسبهم عليه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ولكن لما علم عمر بأن هناك تفاوتًا في المعيشة بين الأغنياء والفقراء رفع من شأن الفقراء بما ضمن لهم من المعيشة اليومية إضافة إلى أعطياتهم السنوية.

(١) أي ذلك المكان والعرصة المكان الواسع بين البيوت.

(٢) الجريب مكيال وزنه حوالي ثلاثين رطلا.

(٣) فتوح الشام للأزدي/ ٢٥٦ - ٢٥٧.

فله در أمير المؤمنين عمر من أمير عادل يواسي الجراح ويقضي الحاجات ويقارب بين طبقات المجتمع .

### عمر يجري الصلح مع أهل بيت المقدس:

قال محمد بن عبد الله الأزدي: حدثني الحسن بن علي قال: ولما قدم عمر ضربت له قبة من شعر، وجلس فيها على التراب ثم قام يصلي، وعلت للمسلمين ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير، فسمع أهل إيلياء، فأشرفوا عليهم لينظروا شأنهم، ونادى واحد منهم: يا معشر العرب ما شأنكم؟

قالوا: إن أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا، قال: فرجع فأعلم البطريق، فأطرق إلى الأرض لا يتكلم، فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر قال لأبي عبيدة: تقدم إلى القوم، وأعلمهم أنني قد أتيت.

قال: فخرج أبو عبيدة، وصاح بهم وقال: إن صاحبنا أمير المؤمنين قد قدم، فما تصنعون فيما قلتم؟

قال: فأعلموا البطريق فخرج من كنيسته، وعليه المسوح، وترجل الرهبان والقسس والأساقفة معه، وقد حمل بين يديه صليباً لا يخرجونه إلا في يوم عيدهم، وتقدم إزاء أبي عبيدة وقال: يا هذا الرجل، إن كان صاحبك قد أتى فدعه يدن منا، فإننا نعرفه، وأفردوه من بينكم، وليقف بإزائنا حتى نراه.

قال: فرجع أبو عبيدة إلى عمر، وأخبره بما قال البطريق.

فهمَّ عمر بالقيام، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، تخرج إليهم منفرداً وليس عليك آلة حرب، وإنا نخشى عليك منهم غدرًا ومكرًا، فينالون منك.

فقال عمر: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ثم أمر ببعيره، فاستوى عليه، وسار بين القوم، وليس معه غير أبي عبيدة، حتى قرب من السور، ووقف بإزاء البطريق والجاثليق.

وتكلم البطريق وقال: هذا والله الذي نجد صفته، ويكون فتح بلادنا على يديه.

ثم إنه قال لأهل بيت المقدس: انزلوا إليهِ واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله .

قال: فلما سمعت الروم كلام البطريق نزلوا مسرعين، وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار، ففتحو الأبواب، وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة، ويقرون له بالجزية .

فنظر إليهم عمر، وخر ساجداً لله وقال: ارجعوا إلى بلادكم وذوبكم ولكم الذمة والعهد إذا سألتمونا وأقرتم الجزية .  
قال: ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليلة<sup>(١)</sup> .

هذا وقول عالم النصارى عن عمر رضي الله عنه «فإننا نعرفه» يعني أنه مذكور في كتبهم التي ورثوها عن أنبيائهم عليهم السلام بصفته، وكونهم طلبوا أن يكون الصلح على يده دليل على أن اسمه موجود في كتبهم، وقد جاء في رواية أخرجه الإمام الطبري أن عمرو بن العاص رضي الله عنه خادعهم ليعرف من هو الذي ذكر في كتبهم يتم الصلح على يديه، حيث كتب كتاباً إلى الأرطوبون جاء فيه «وقد علمت أنني صاحب فتح هذه البلاد» وأرسله مع رجل يعرف لغتهم وأمره أن يتنكر وأن لا يكلمهم بلغتهم، فقرأ الأرطوبون الكتاب بمشهد من وزرائه فقالوا له: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها اسمه «عمر» ثلاثة أحرف<sup>(٢)</sup> .

هذا وإن ذهاب أمير المؤمنين عمر إليهم وهو أمير العالم الإسلامي، وكل الأعداء يتمنون قتله . . إن ذهابه إليهم بغير سلاح وليس معه إلا أبو عبيدة دليل على عظمة توكله على الله جل وعلا .

### بشرى عظيمة:

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني عطاء عن شهر بن حوشب عن كعب<sup>(٣)</sup> قال: قلت لعمر رضي الله عنه، وهو بالشام عند انصرافه: يا أمير المؤمنين، إنه مكتوب في كتاب الله تعالى، إن هذه البلاد التي كان فيها بنو

(٢) تاريخ الطبري ٦٠٦/٣ .

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٣) كعب هو المشهور بكعب الأحبار الحميري .

إسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة على رجل من الصالحين، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، سره مثل علانيته، وعلانيته مثل سره، وقوله لا يخالف قلبه، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء، وأتباعه رهبان بالليل، وأسدٌ بالنهار، متراحمون، متواصلون، متنازلون.

فقال له عمر رضي الله عنه: ثكلتك أمك، أحقُّ ما تقول؟

قال: إي، والذي أنزل التوراة على موسى، والذي يسمع ما أقول إنه لحق.

قال عمر رحمة الله عليه فالحمد لله الذي أعزنا، وأكرمنا وشرفنا، ورحمنا بمحمد ﷺ وبرحمته التي وسعت كل شيء.

قال: وكان كعب رجلاً من العرب من أهل اليمن من حمير<sup>(١)</sup>.

وهذه صفات جليلة عالية تدل على عظمة عمر والصحابة الذين معه رضي الله عنهم.

### عمر في المسجد الأقصى:

أخرج ابن جرير عن رجاء بن حيوة عن من شهد أنه قال: لما شخص عمر من الجابية إلى «إيلياء» فدنا من باب المسجد قال: ارقبوا لي كعباً - يعني كعب الأبحار لعلمه بما في الكتب السابقة - فلما انفرق به الباب قال: لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليك، ثم قصد المحراب، محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً، فصلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس، وقرأ بهم «ص» وسجد فيها، ثم قام وقرأ بهم في الثانية صدر «بني إسرائيل»<sup>(٢)</sup> ثم ركع ثم انصرف.

فقال: عليّ بكعب، فقال: أين ترى أن نجعل المصلّي؟ فقال: إلى الصخرة، فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب، وقد رأيتك وخلعتك نعليك، فقال: أحببت أن أباشره بقدمي، فقال: قد رأيتك، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله

(١) فتوح الشام للأزدي/ ٢٦٢.

(٢) يعني سورة الإسراء، وفي السورتين مناسبة ظاهرة، فسورة (ص) فيها ذكر داود وسليمان عليهما السلام، وقد عمرا المسجد الأقصى، وسورة الإسراء فيها ذكر مسرى رسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى.



ﷺ قبله مساجدنا صدورها، اذهب إليك فإننا لم نؤمر بالصخرة، ولكننا أمرنا بالكعبة، فجعل قبلته صدره.

ثم قام إلى كناسة قد كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل، فلما صار إليهم أبرزوا بعضها وتركوا سائرها، وقال: يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها وحثا في فرج من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه، وكان يكره سوء الرعة في كل شيء، فقال: ما هذا؟ فقالوا: كبر كعب وكبر الناس بتكبيره، فقال: عليّ به، فأُتِيَ به، فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأدبلوا عليهم، فدفنوه - يعني بيت المقدس - ثم أُدبلوا - يعني بني إسرائيل - فلم يفرغوا له - يعني لتنظيفه - حتى أغارت عليهم فارس فبعوا على بني إسرائيل، ثم أُدبلت الروم عليهم حتى وكيت، فبعث الله نبياً على الكناسة - يعني في أمرها وذلك قبل خمسمائة عام من ذلك التاريخ كما ذكر كعب - فقال: أبشري «أوري شلم» عليك الفاروق ينقيك مما فيك<sup>(١)</sup>.

وهذه فضيلة عظمى لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث ذكره الأنبياء عليهم السلام، وقام بتنظيف المسجد الأقصى، وأظهر الحق الذي غطى عليه الروم والفرس.

### وصول عمر إلى المدينة:

ثم إن عمر رضي الله عنه أقبل نحو المدينة، فاستقبله الناس، يهتفون بالنصر والفتح، فجاء حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ فصلى ركعتين عند المنبر، ثم صعد المنبر، فاجتمع الناس إليه، فقام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وقال: أيها الناس، إن الله قد اصطنع عند هذه الأمة أن يحمده ويشكروه، وقد أعز دعوتها، وجمع كلمتها، وأظهر فلجها ونصرها على الأعداء، وشرفها ومكّن لها في الأرض، وأورثها بلاد المشركين وديارهم وأموالهم، فأحدثوا لله شكراً يزيدكم، واحمدوه على نعمة يدمها لكم، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين ثم نزل<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦١١، وأروي شلم اسم القدس بالعبرانية وينطقونها الآن أورشليم.

(٢) فتوح الشام للأزدي/ ٢٦٦.

## حصار الروم مدينة حمص

ذكر الإمام الطبري في أحداث السنة السابعة عشرة للهجرة أن الروم وأهل الجزيرة<sup>(١)</sup> اتفقوا على غزو المسلمين والهجوم على مدينة حمص، فلما علم أبو عبيدة بذلك ضمَّ إليه جيوشه القريبة وعسكروا بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه من «قنسرين» حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء الجيوش، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصن إلى مجيء الغياث، فكان خالد يرى مناجزتهم، وأشار سائرهم بالتحصن، وأن يكتب إلى عمر، فأخذ أبو عبيدة برأي الأكثر، وكتب إلى عمر يخبره بخروج الروم إليه، وانشغال أجناد الشام عنه بالمرابطة في مواقعهم، فلما بلغ الخبر عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أُحيط به.

وكان عمر قد أعد خيولاً احتياطية في كل بلد استعداداً للحروب المفاجئة، فكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فجهز سعد عليها الجيش الذي أرسله إلى الشام.

وكتب عمر أيضاً إلى سعد: أن سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت «الرقّة» فإن أهل الجزيرة هم الذين استشاروا الروم على أهل حمص، وإن أهل «قرقيساء» لهم سلف، وسرح عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى «نصيبين» فإن أهل قرقيساء لهم سلف، ثم لينفضا حران والرُّها، وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وسرح عياضاً، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم.

فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريقهم نحو الأهداف التي وجهوا إليها.

(١) يعني بلاد الجزيرة التي تقع شمال غرب العراق وهي الآن تابعة لسوريا.

وخرج أمير المؤمنين عمر من المدينة مغياً لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية .

وعلم أهل الجزيرة الذين اشتركوا مع الروم في حصار أهل حمص بخروج الجيوش من العراق ، ولا يدرون هل مقصدهم حمص أم بلادهم في الجزيرة فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم ، وتركوا الروم يواجهون المعركة وحدهم .

ولما رأى أبو عبيدة أن أنصار الروم من أهل الجزيرة قد انفضوا عنهم ، استشار خالدًا في الخروج إليهم وقتالهم فأشار عليه بذلك ، فخرجوا إليهم وقتلوهم وفتح الله عليهم .

وقدم القعقاع بن عمرو ومن معه من أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من المعركة .

وقدم أمير المؤمنين عمر فنزل بالجابية ، فكتبوا إليه بالفتح وبقدوم المدد عليهم بعد ثلاثة أيام من الفتح وبالحكم في ذلك ، فكتب إليهم : أن أشركوهم فإنهم قد نفروا إليكم وقد تفرق لهم عدوكم<sup>(١)</sup> .

هذا وإن في هذا الخبر مواقف عالية للصحابة رضي الله عنهم نوجزها فيما يلي :

١- حينما داهم الروم وأحلافهم المسلمين جمع أبو عبيدة أمراء الأجناد فاستشارهم في القتال أو التحصن حتى مجيء الأمداد من الخليفة ، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة التي تدل على أن أمور المسلمين في ذلك العصر تقوم على الشورى ، وقد أمر الله جل وعلا رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه مع أنه معصوم كما قال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وطبَّق ذلك في حياته وتأسى به فيه أصحابه رضي الله عنهم .

ومشورة أهل الحل والعقد في الأمور المهمة تجمع عقولا كثيرة كلها تفكر في القضية بدلا من أن يفكر فيها عقل الرجل المسئول وحده فَيُنتج عن ذلك رأي موحد مدروس ، وفي حال فشل القضية لا تكون المسئولية متركزة على فرد واحد ، ويتضاءل إنكار الناس لكون القضية قد دُرست وبذل فيها الجهد .

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٥٠ .

٢- جاء في هذا الخبر أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أعد خيولاً للأموال الطارئة، في جميع أقطار المسلمين، ووكل بها أناساً يقومون بسياستها وتمرينها لتكون مستعدة للجري في أي وقت فإذا نابت المسلمين نائبة ركبها قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس كما جاء في بعض الروايات<sup>(١)</sup>.

وفي هذا دليل على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأموال الجهاد، وعنايتهم بتنفيذ أوامر الله تعالى كقوله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وواضح أنه لكل عصر أسلحته ووسائله الخاصة به، والصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا في عصرهم أعلى المستويات في الاستعدادات الحربية، مع ما اختصوا به من القوة المعنوية الفائقة، الناتجة عن تمسكهم القوي بهذا الدين الحنيف، فلذلك فشل الأعداء في مواجهتهم سواء في الحروب التي يتم التخطيط لها والعلم بها، أو في محاولاتهم المتكررة للغدر بالمسلمين وأخذهم على غرة.

٣- حينما نتأمل هذه الخطة الحربية البديعة التي رسمها عمر رضي الله عنه لإرباك الأعداء وتفريقهم نجد أمراً عجباً، ويزداد عجبنا إذا علمنا أنه يضع الخطط الحربية وهو بعيد عن ميدان المعارك، فقد أمر ببعث جيش سريع من الكوفة إلى حمص ليقوم بعملية الإنقاذ، وخرج هو بجيش من المدينة، وهذا كله يبدو أمراً معتاداً، ولكن الأمر الذي يثير الإعجاب هو ما قام به من الأمر ببعث الجيوش إلى بلاد المحاربين ليضطروهم إلى ترك ميدان القتال والتفرق إلى بلادهم لحمايتها، وقد نجحت هذه الخطة حيث تفرقوا فهان على المسلمين القضاء على الروم.

٤- ونستفيد أخيراً أن أعداء المسلمين جميعاً لا يؤمن غدرهم وإن هادنوا المسلمين وأظهروا مسالمتهم، فإنهم إنما يتحنون الفرص المناسبة للانقضاض على المسلمين والقضاء عليهم، وقد كانت مواقف الصحابة رضي الله عنهم عالية في

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٥٢.

أخذ الحيلة والحذر والرصد الحربي الدائم حيث كانوا يعرفون تحركات الأعداء في وقت مبكر وقد مرت بنا أمثلة واضحة لذلك .

ويحسن بنا أخيراً أن نعقد مقارنة بين مواجهة المسلمين لغزو الروم هذا ومواجهتهم لغزوهم السابق الذي تم حسمه بمعركة اليرموك، ففي الغزو السابق خرج أبو عبيدة وخالد بجيش المسلمين من حمص وضموا إليهم جيشهم في دمشق وخرجوا منها واجتمعت جيوش المسلمين في جنوب الشام ليواجهوا أعداءهم وهم جميع، وفي الغزو الأخير ظل أبو عبيدة وخالد مع جيش المسلمين في حمص وتحصنوا بها إلى أن يصل مدد المسلمين .

والفرق واضح فإنه في الغزو الأول كان كل من يستطيع الخليفة أن يجندهم قد وجههم إلى العراق، وكان المسلمون في انتظار المعركة الحاسمة في القادسية فليس من المؤمل أن يصل إليهم مدد كبير، فكان الرأي أن تجتمع الجيوش في الشام لمواجهة الأعداء ولو تخلوا عن المدن، أما الغزو الأخير فكانت جيوش العراق قد انتهت من المعركة الفاصلة وبإمكان أمير المؤمنين أن يمدهم من العراق والمدينة، فكان الرأي بقاء الجيوش في حماية المدن الكبيرة والتحصن إلى حين وصول المدد .

\*\*\*\*\*

## فتح بلاد الجزيرة

تقدم لنا أن الروم وأهل بلاد الجزيرة التي تقع جنوب بلادهم أغاروا على مدينة حمص وحصروا فيها أبا عبيدة رضي الله عنه والمسلمين وأن عمر رضي الله عنه أرسل إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمره بإمداد أهل حمص بجيش يخرج من الكوفة إلى حمص، وجيوش تخرج إلى الجزيرة.

وقد أرسل سعد جيشاً من الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي، وأرسل جيوشاً إلى الجزيرة وكلها تحت قيادة عياض بن غنم رضي الله عنه.

فخرجت هذه الجيوش إلى الجزيرة فسلك سهيل بن عدي وجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى «الرقّة» فحاصروهم، فنظروا إلى أنفسهم بين قوتين للمسلمين في العراق والشام فصالحوه.

وسلك عبدالله بن عبدالله بن عتبّان طريق دجلة حتى انتهى إلى نصيبين فلقبه أهلها بالصلح كما صنع أهل الرقة.

ولما أعطى أهل الرقة ونصيبين الطاعة ضم عياض سهيلاً وعبدالله إليه وسار بالناس إلى حران فأخذ ما دونها، فلما انتهى إليهم اتقوه بالإجابة إلى الجزية فقبل منهم، ثم سرح سهيلاً وعبدالله إلى الرها فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية.

وهكذا فتحت الجزيرة كلها على سعتها صلحا، فكانت أسهل البلدان أمراً<sup>(١)</sup>.

ولو عقدنا مقارنة بين فتح بلاد الجزيرة، وما تم فتحه من بلاد المسلمين قبل ذلك لوجدنا فرقا كبيراً في الجهود التي بذلت في تلك البلاد.

وهذا إنما يرجع لعزة المسلمين وقوة دولتهم، فكلما قويت شوكة المسلمين، وانتشر وجودهم الحربي فإن الأعداء يرهبونهم فيلقون لهم ما بأيديهم ويستسلمون لهم بدون مقاومة، ولا يفكرون في غزو بلادهم، وكلما ضعف أمر المسلمين وتضاءل وجودهم الحربي فإن الأعداء يطمعون بهم، ويصعب عليهم -والحال هذه - القضاء على قوة أعدائهم.

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٥٣.

ومن العرض السابق لفتح بلاد الجزيرة يتبين لنا بجلاء أهمية سلاح الرعب الذي ينصر الله به المسلمين إذا قاموا بأمره تعالى وأقاموا علم الجهاد في سبيله، وهذا السلاح يوفر عليهم جهوداً كبيرة حيث يضطر المعاندين إلى الاستسلام والصلح بدون مقاومة.

وكان من قادة المسلمين في فتح بلاد الجزيرة الوليد بن عقبة وقد انحاز إليه المسلمون من عرب الجزيرة وصالحه الكفار منهم إلا بني إياد بن نزار فإنهم ارتحلوا إلى الروم، وقد كتب الوليد إلى أمير المؤمنين يُعلمه بأمرهم فكتب عمر رضي الله عنه إلى ملك الروم: إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتُخرجنّه أو لننبذنّ إلى النصارى، ثم لنُخرجنّه إليك، فأخرجهم ملك الروم، فخرجوا، فتَمَّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد، وخنس بقيتهم ففرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكل إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر نموذج للمواقف العالية التي جرت من خلفاء المسلمين في معاملتهم مع الأعداء، فإن الأعداء في أغلب الأزمان لهم مصالح في بلاد المسلمين تقلُّ أو تكثر، وبإمكان قادة المسلمين أن يحملوا الأعداء على احترام المصالح الإسلامية بتهديدهم في مصالحهم التي يرعونها في بلاد الإسلام.

وكان بعض عرب الجزيرة من النصارى قد رفضوا دفع الجزية لكونهم يرونها منقصة ومذمة، فبعث الوليد برؤساء النصارى وعلمائهم إلى أمير المؤمنين فقال لهم: أدوا الجزية، فقالوا لعمرو: أبلغنا مأمناً، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفضحنّ من بين العرب، فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية، والله لتؤدنه وأنتم صَغَرَةٌ قَمَاءٌ [يعني حقيرين] ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم، ثم لأسيبنكم.

قالوا: فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء، فقال: أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم، فقال له علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين ألم يُضْعَفِ عليهم سعد بن

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٥٤.

مالك الصدقة؟ قال: بلى، وأصغى إليه فرضي به منهم جزاء، فرجعوا على ذلك<sup>(١)</sup>.

ومن هذا الخبر نأخذ درساً في معاملة المتكبرين من الأعداء الذين يخاطبون المسلمين بعزة وأنفة ويهددون باللجوء إلى دول الكفر، فنجد أمير المؤمنين عمر خاطبهم بعنف وحقّرهم وهددهم إذا لجؤوا إلى الكفار بالسعي في إحضارهم ومعاملتهم كمعاملة الحربيين من سبي ذراريهم ونسائهم، وهذا أشد عليهم كثيراً من دفع الجزية.

ففي هذا الجواب القوي أزال ما في رؤوسهم من الكبرياء والتعظيم فرجعوا متواضعين يطلبون من أمير المؤمنين أن يوافق على أخذ ما يريد من غير أن يُسمّى ذلك جزية.

وهنا تدخل علي رضي الله عنه - وكان لرأيه مكانة عند عمر لفقّه في الدين - فأشار عليه بأن يُضعف عليهم الصدقة كما فعل سعد بن أبي وقاص بأمثالهم، فقبل ذلك أمير المؤمنين تألفاً لهم ومنعاً من محاولة اللجوء إلى دول الكفر.

وقد أصبح هذا الرأي مقبولاً حينما وقع موقعه، وذلك بعد ما أزال أمير المؤمنين عمر ما في نفوسهم من العزة والكبرياء، فأما لو قبل ذلك منهم في بداية العرض فإنهم سيعودون بكبريائهم ولا يؤمن منهم بعد ذلك أن ينقضوا العهد وسيئوا إلى المسلمين.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٥٦.



## عزل خالد عن قنسرين

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جاء بنفسه نجدة لأبي عبيدة رضي الله عنه ومن معه من المسلمين في حمص، وحينما اطمأن عمر إلى حال المسلمين هناك عاد إلى المدينة.

وعلي إثر عودة أمير المؤمنين إلى المدينة قام خالد بن الوليد ومعه عياض بن غنم رضي الله عنهما في جيش من المسلمين بغزو الروم في بلادهم، ولعلمهم أرادوا بذلك إرهاب الروم حتى لا يتجرؤوا علي غزو المسلمين مرة أخرى.

وقد قاموا بمغامرة جريئة نجحت وغنموا فيها غنائم كثيرة، ولكن كان من نتائجه عزل خالد بن الوليد عن ولاية قنسرين، وهو العزل النهائي له عن العمل، وذلك أنه لما رجع من الغزوة وتسامع الناس بما غنم قصده رجال من الآفاق، وكان ممن قصده الأشعث بن قيس الكندي فأجازه خالد بعشرة آلاف، وكان عمر لا يخفى عليه شيء من عمله، حيث كان يُكْتَب إليه بما يكون من عماله، فدعا البريد فكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يُعلمهم من أين إجازة الأشعث، أمن ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف.

وتمَّ استجوابه بحضور أبي عبيدة، وأقر بأن ذلك كان من ماله، ولما علم بعزله ودَّع أهل الشام وخرج إلى المدينة إجابة لطلب أمير المؤمنين، فلما قدم على عمر، قال: لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري غير مُجْمَلٍ يا عمر، فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان، ما زاد على الستين ألفاً فهو لك، فقوِّم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال، ثم قال: يا خالد والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجد الموقف أمام قضية فيها حرج كبير لأمير المؤمنين عمر، حيث يُقدم فيها على استجواب رجل بلغت شهرته الآفاق، فحاز على إعجاب المؤمنين،

(١) تاريخ الطبري باختصار ٤ / ٦٧.

وأرهب الكافرين في كل أقطار الأرض، ولكن عمر أمام مبادئ إسلامية واضحة لا بد من أن يطبقها، وجاهلية بقيت رواسبها عالقة ببعض النفوس لا بد أن يطمسها، فالمال في الإسلام لا بد من التحري الدقيق فيه، من أين اكتسب وفيه أنفق؟ خاصة من الولاة الذين يقتدي الناس بهم، وإذا كان الاكتساب حلالاً، والإنفاق في حلال فلا بد من اجتناب السرف والخيلاء وإلا وقع المنفق في المأثم.

كان ذلك واضحاً أمام عمر، وكان واضحاً لديه فيما يتعلق بهذا الأمر أن من رواسب الجاهلية تَطَّلَعُ ذوي الشرف واللسان إلى انتجاع ذوي السلطان والغنى وطلب رفدهم وعائدتهم عن طريق الثناء بالشعر وغير ذلك من الوسائل المعروفة.

فلما سمع بأن من هؤلاء من قصدوا خالد بن الوليد لهذا الغرض فزع من ذلك وأشفق على المجتمع الإسلامي أن تحيا فيه عوائد الجاهلية، فكانت عقوبته لخالد بليغة مؤثرة.

وهذه العقوبة من النظرة الأولى تبدو أكبر بكثير من المخالفة، ولكن عند التأمل في الدوافع التي دفعت عمر إلى إجرائها يتبين لنا أنها إجراء مناسب لإقرار مبادئ الإسلام ومحو مبادئ الجاهلية، هذا الأمر الذي ظل عمر يجاهد من أجله بقوة لا تعرف الكلل ولا التردد.

ولقد كان إجراء هذه العقوبة على رجل عظيم القدر في المجتمع الإسلامي وأثير عند عمر نفسه له أكبر الأثر في قطع هذا الطريق الذي مُحِيَ تماماً في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وبدأ الناس يعودون إليه لما كثرت عوائد الفتوح.

أما خالد رضي الله عنه فلا شك أنه لم يكن يتصور هذه الآثار الناجمة عن تصرفه، وكان رجلاً كريماً شهماً فأجاز قاصديه من ماله الخاص.

وقد يقول قائل: إنه كان يكفي في معاقبته بعث خطاب عتاب وتحذير إليه، أو تغريمه المبلغ المصروف مع ذلك، ولكن عمر رضي الله عنه كان أخبر الناس بطبيعة خالد، فهو رجل قد بلغ الكمال في القيادة الحربية، ولكنه ليس على النمط الذين

يريدهم عمر للإمارة حيث كان لا يُلزم نفسه بالتحري الدقيق في الحسابات والرجوع في ذلك إلى دار الخلافة، يدل على ذلك المحاوراة التي جرت بين أبي بكر وعمر في شأن خالد رضي الله عنهم، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير قال:

وقد حكى مالك عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر: اكتب إلى خالد أن لا يعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمرك، فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك فكتب إليه خالد: إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك وعملك، فأشار عليه عمر بعزله، فقال أبو بكر: فمن يجزي عني جزاء خالد؟ قال عمر: أنا، قال: فأنت، فتجهز عمر حتى أُنيخَ الظهر في الدار، ثم جاء الصحابة فأشاروا على الصديق بإبقاء عمر بالمدينة وإبقاء خالد بالشام. فلما ولي عمر كتب إلى خالد بذلك فكتب إليه خالد بمثل ذلك فعزله، وقال: ما كان الله ليراني أمر أبا بكر بشيء لا أنفذه أنا<sup>(١)</sup>.

وهذا الخبر يدلنا على أن أبا بكر كان يعلم ميل خالد إلى الاجتهاد في صرف الأموال أحياناً، ولكنه أبقاه لعدم وجود من يقوم مقامه في الشؤون الحربية.

واستعداد عمر لأن يقوم مقام خالد في ذلك ليس من باب سؤال الإمارة المنهي عنه، وإنما هو ما تقدم بيانه من أن المسلم إذا آس من نفسه الكفاءة في عمل معين وأمن الفتنة فلا بأس من أن يعرض نفسه للعمل، على أنه مُقدم على عمل صالح فيه خدمة للإسلام والمسلمين.

وهذا هو العزل الأول لخالد حين كان أميراً على الشام، فعزله عمر وولّى أبا عبيدة إمرة الشام ولكن ظل خالد قائداً للجيش تحت إمرة أبي عبيدة إلى أن فتح قنسرين فولاه عليها وأقره على ذلك أمير المؤمنين عمر.

وقد اعتذر عمر إلى الناس من عزله خالدًا من إمرة الشام بأمرين:

أولهما: يتعلق بحماية التوحيد، وقد روى الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن عدي بن سهيل قال: كتب عمر إلى الأمصار: إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فُتتوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة<sup>(٢)</sup>.

(١) البداية والنهاية ٧ / ١١٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٤ / ٦٨ .

وهذا ملحوظ مهم لأن التوكل على الله وحده هو العامل الرئيس في النصر. وفيه تبرة لخالد، وبيان أن ما تجاوز فيه كان عن اجتهاد منه في خدمة الجهاد ولم يكن عن خيانة.

**والثاني:** هو ما تقدم من تجاوزه في صرف المال، وقد روى الإمام البخاري في التاريخ وغيره من طريق علي بن رباح عن ياسر بن سمي البرني قال: سمعت عمر يعتذر إلى الناس بالجابية من عزل خالد، فقال: أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف واللسان، فأمرت أبا عبيدة<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن عمر وخالدًا مجتهدان فيما ذهبا إليه ولكن عمر أدرك أمورًا لم يدركها خالد رضي الله عنهما.

### حياة خالد بن الوليد الجهادية:

لقد بدأ خالد بن الوليد رضي الله عنه حياته الجهادية في السنة التي أسلم فيها، وذلك في العام الثامن للهجرة، حيث حاز على شرف اللقب الجهادي العظيم «سيف الله» يوم أن كانت النهاية المشرفة لمعركة «مؤتة» على يده، فلقبه رسول الله ﷺ بهذا اللقب.

ثم تتابعت أحداثه الجهادية في أواخر حياة النبي ﷺ، ومن أبرز ذلك قيادة سرية «دومة الجندل»، وقيادة مقدمة الجيش في «فتح مكة المكرمة وحنين».

ثم كان جهاده الكبير في حروب الردة في العام الحادي عشر، حيث قضى على تجمع طليحة الأسيدي وتجمع مسيلمة الحنفي، اللذين هما أضخم التجمعات الحربية في جزيرة العرب آنذاك، وكانت تلك المعركتان أبرز معارك حروب الردة، حيث تقرر بهما مصير بلاد العرب لصالح دولة الإسلام.

ثم قام في العام الثاني عشر بقيادة الجيش الإسلامي الموجه لجهاد الفرس، حيث تمت على يده فتوح العراق الأولى التي نجحت في إضعاف قوة الفرس وضم غربي العراق للدولة الإسلامية.

ثم كان له شرف المشاركة في فتوح الشام وقيادة معاركها، ومن أبرزها معركة فحل واليرموك التي تقرر بها مصير الحروب بين المسلمين والروم.

(١) البداية والنهاية ١١٥/٧

لقد كان خوض معامع القتال والاصطلاء بنار الحروب وأهوالها أعظم هويات خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وإذا كان كثير من الناس يحبون الراحة والدعة والسكون فإننا نجد خالدًا يقول في أمنيته المحبوبة إليه : ما من ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبح فيها العدو<sup>(١)</sup> .

وهكذا تُحبب المعالي إلى النفوس العالية، فالقتال أمر مكروه للنفوس حسب طبائعها المعتادة كما قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] . ولكنه أمام الأفاضل من الرجال محبوب، بل هو أحب إليهم من الشهوات التي جُبِلَ الإنسان عليها، وذلك أن من سما بفكره نحو المعالي من الأمور يعيش بخياله وأحاسيسه لهذه الأمور فلا يكاد يفكر بشيء غيرها .

وكلما حالت المشاق والعقبات دون الوصول إلى المراد كلما ازداد أصحاب الهمم العالية إصرارًا وشوقًا إلى بلوغ المقصود، ويصور ذلك شدو خالد بن الوليد بقطع المفاوز في ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد والأمل يحدوه إلى ملاقاته عدوه في الصباح . ويشبه هذه الأمنية السامية - مع الفارق الكبير في البذل والتضحية - هيام أهل العلم بالتحصيل والبحث، حتى ينسيهم الاستغراق في ذلك كثيرًا من الملذات الحسية والمعنوية التي يتنافس الناس عليها .

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام وإنه يمثل هذا البطل المغوار، والقائد المقدم ينتشر الإسلام وتحمى بلاد المسلمين، وتقوم دولة الحق ورايته عالية فوق بقاع المعمورة .

فما أحوج الأمة الإسلامية إلى الرجال الأكفاء الذين يجسدون هذه المعاني السامية، فيحيونها بتضحيات يراها الناس ويحسون بها، فإن مآثر الأمة الماضية تظل مادة مذكّرة عبر الأجيال، ولكن الانتفاع الكامل بها يتم بالتأسي بأولئك العظماء، وتطبيق هذه المعاني الكريمة من عظماء الرجال الذين يشاركون أفراد الأمة في

(١) سير أعلام النبلاء / ١ / ٣٧٥ .

ظروف الحياة المعاصرة، حتى لا يظن ظانٌ أن هذه المواقف والدروس التربوية إنما كانت في عصور ملائمة لوجودها، وأن تكرارها يتطلب ظروفًا حياتية مشابهة. والحقيقة أنه كلما قوي المحرك الإيماني فإن الله تعالى يتكفل بنصر أوليائه، وتسخير ظروف الحياة لصالحهم.

### نهاية خالد:

بعد ذلك العمر الجهادي القصير نسبيًا، المليء بالأحداث الجهادية المتلاحقة حانت وفاة هذا البطل الكبير الذي كان أعظم قادة العالم في عصره، وذلك في العام الحادي والعشرين للهجرة<sup>(١)</sup>.

ولقد كان ذكر الجهاد على لسان خالد حتى في حال احتضاره، كما ذكر الإمام الذهبي من خبر عاصم بن بهدلة عن أبي وائل أظن قال: لما حضرت خالدًا الوفاة قال: لقد طلبت القتل مظانّه فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بُتُّها وأنا مُتترسّ والسماء تهلني تنتظر الصبح حتى نغير على الكفار، ثم قال: إذا أنا مت فانظروا إلى سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله<sup>(٢)</sup>.

وأخرج الواقدي من خبر محمد بن عبدالله بن الديباج قال: لم يزل خالد مع أبي عبيدة حتى توفي أبو عبيدة واستخلف عياض بن غنم، فلم يزل خالد مع عياض حتى مات، فانعزل خالد إلى حمص، فكان ثمّ، وحبس خيلاً وسلاحاً، فلم يزل مرابطاً بحمص حتى نُزل به، فعاده أبو الدرداء، فذكر له أن خيله التي حبست بالثغر تلعف من مالي، وداري بالمدينة صدقة وقد كنت أشهدت عليها عمر، والله يا أبا الدرداء لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها<sup>(٣)</sup> كما ذكر الذهبي عن أبي الزناد: أن خالد بن الوليد لما احتضر بكى وقال: لقيت كذا وكذا زحفاً وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير<sup>(٤)</sup> فلا نامت أعين الجبناء<sup>(٥)</sup> فرضي الله عن خالد ورحمه رحمة واسعة.

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨١.

(٣) المرجع السابق ١/ ٣٨٢.

(٤) أي الحمار.

(٥) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٢.

مواقف وعبر

في

فتح المدائن



## في الطريق إلى المدائن

نتقل إلى الحديث عن المواقع التي جرت بين القادسية وفتح المدائن، وقد أقام سعد رضي الله عنه في القادسية شهرين حتى أتاه أمر أمير المؤمنين بالتوجه نحو المدائن، فبعث مقدمة الجيش بقيادة زهرة بن الحوية، وأتبعه بعبد الله بن المعتم في طائفة من الجيش ثم بشرحبيل بن السمط في طائفة أخرى، ثم بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص وقد جعله على خلافته بدلاً من خالد بن عرفطة، ثم لحق سعد بهم ببقية الجيش وقد جعل على المؤخرة خالد بن عرفطة.

### معركة «برس»:

ارتحل قائد المقدمات زهرة بن الحوية التميمي متوجهاً نحو المدائن، فلما انتهى إلى «برس» لقيه بها أحد قادة الفرس وهو «بصبهري» في جمع فناوشوه فهزمهم زهرة، فهرب بصبهري ومن معه إلى «بابل» وبها جمع من فلول الفرس في القادسية وبقايا رؤسائهم، وقد طعن زهرة بصبهري أثناء هروبه فمات بعد وصوله إلى بابل.

ولما هُزم بصبهري أقبل «بسطام» أمير برس فصالح زهرة وعقد له الجسور، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل<sup>(١)</sup>.

### معركة بابل:

لما علم زهرة بخبر الذين اجتمعوا ببابل كتب إلى سعد بالخبر، ولما علم سعد بذلك ارتحل بالناس على نظامه السابق، ولما وصل إلى «برس» قدم زهرة، ثم أتبعه بعبد الله بن المعتم، ثم بشرحبيل بن السمط وهاشم بن عتبة، وأتبعهم فنزلوا ببابل وعلى الجمع فيها «الفيرزان».

وقد قال قادة الفرس: نقاتل المسلمين شيئاً من قتال ثم نفرق، وكان كل واحد منهم يريد أن يستولي على جزء من فارس، وكأنهم أرادوا بهذا التجمع وقتال المسلمين أن يعذرهم «يزدجرد» إذا تفرقوا.

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢١٩ - ٢٢٠.



فاقتتلوا فهزمهم المسلمون في أسرع من لفت الرداء، فانطلقوا على وجوههم ولم يكن لهم همّة إلا الافتراق، فخرج الهرمزان نحو الأهواز فأخذها، وخرج الفيرزان نحو نهاوند فأخذها، وذهب النخیرجان ومهران الرازي للمدائن<sup>(١)</sup>.

### معركة كوثى:

تقدم زهرة من بابل نحو المدائن، وكان النخیرجان ومهران قد استخلفا على جنودهما «شهریار» وقد التقى زهرة بهذا الجيش في أكناف «كوثى» فخرج شهریار فنادى: ألا رجل، ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إلي حتى أنكّل به! فقال زهرة: لقد أردت أن أبارزك، فأما إذا سمعت قولك فإني لا أخرج إليك إلا عبداً، فإن أقيمت له قتلك إن شاء الله ببغيك، وإن فررت منه فررت من عبد، وكايدته.

ثم أمر أبا نباتة نائل بن جعشم الأعرجي - وكان من شجعان بني تميم - فخرج إليه، ومع كل واحد منهما الرمح، وكلاهما وثيق الخلق، إلا أن الشهریار مثل الجمل، فلما رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه، وألقى نائل رمحه ليعتنقه، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا، ثم اعتنقا فخرّاً عن دابتيهما، فوقع على نائل كأنه بيت، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراد حل أزرار درعه فوقعت إبهامه في فم نائل فحطّم عظمها، ورأى منه فتورا فتاوره فجلد به الأرض ثم قعد على صدره وأخذ خنجره فكشف درعه عن بطنه فطعنه في بطنه وجنبه حتى مات فأخذ فرسه وسواريه وسلبه، وانكشف أصحابه فذهبوا في البلاد.

وأقام زهرة بكوثى حتى قدم عليه سعد، فأتى به سعداً، فقال سعد: عزمت عليك يا نائل بن جعشم لما لبست سواريه وقبائه ودرعه ولترکبن برذونه، وغنّمه ذلك كله، فانطلق فتدرع سلبه، ثم أتاه في سلاحه على دابته، فقال: اخلع سواريك إلا أن ترى حرباً فتلبسهما فكان أول رجل من المسلمين سورّ بالعراق<sup>(٢)</sup>.

وهكذا رأينا هذا الفارس البطل كيف قضى على خصمه الذي يشبه الجمل من ضخامته، ولم يشغله كون ذلك الفارسي قد جثم على صدره بجسمه الهائل ولا

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٢٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٦٢١ - ٦٢٢ .

ما ينتظره من الموت عن أن يغتنم الفرص للإيقاع بخصمه، فاستفاد من وقوع إبهام ذلك الفارسي في فمه ليحطم عظمها ويشل حركته، فكان ذلك التصرف السريع بداية النهاية بالنسبة لخصمه الذي كان واثقاً من تفوقه.

ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن كثيرة أن نتائج حروب المبارزة في الفتوحات الإسلامية الأولى تكون دائماً لصالح المسلمين، والمبارزة فنٌ رفيع يكون له دائماً ما بعده، ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن أخرى مشابهة أن عوامل النصر المادية تكون لصالح الأعداء ثم يقبض الله تعالى في الأخير سبباً لصالح المبارز المسلم لا يتوقعه الأعداء فتكون النتيجة لصالحه، وهذا شاهد واضح على أن الله تعالى دائماً مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده.

### معركة مظلم ساباط:

مضى زهرة بن الحوية التميمي من «كوئى» بالمقدمات إلى «بهرسير» شرقي المدائن، وقد تلقاه «شيرزاد» بساباط بالصلح وتأدية الجزاء، فأمضاه إلى سعد بن أبي وقاص.

واصطدم زهرة بكتيبة كسرى التي سميت باسم ابنته «بوران» فهزمهم وقتل جمعهم، ثم مضى إلى المدائن<sup>(١)</sup>.

هذا القائد البطل الذي اختاره سعد لهذه المهمة الشاقة حيث كان يتقدم الجيش فيتحمل هو ومن معه من الأبطال هول المفاجآت وتذليل الصعوبات، ولا شك أنه كان رجل المواقف حيث استمر مسئولاً عن هذه المهمة من قبل معركة القادسية.

وكان موضع ثقة عمر رضي الله عنه كما جاء في الخطاب الذي وجهه إلى سعد في شأن زهرة حيث قال فيه: أنا أعلم بزهرة منك، وجاء فيه: تَعَمَدُ إِلَى مِثْلِ زَهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمِثْلِ مَا صَلَّى بِهِ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ تَكْسِرُ قَرْنَهُ وَتَفْسِدُ قَلْبَهُ! أَمْضِ لَهُ سَلْبَهُ وَفَضِّلْهُ عِنْدَ الْعَطَاءِ بِخَمْسِمِائَةٍ.

(١) تاريخ الطبري ٦٢٢/٣.

وكان سعد قد استكثر عليه سلب الجالنوس أحد قادة الفرس وكان زهرة قتله أثناء مطاردته فلول الفرس يوم القادسية، وتعجّل زهرة فلبس سلب الجالنوس قبل أن يأذن له سعد فغضب سعد ونزعه منه<sup>(١)</sup>.

وهذا نوع من الخطأ لكنه محتمل من زهرة وقد قدّم هذه التضحيات الكبيرة، ولذلك لام أمير المؤمنين سعداً على موقفه منه وأمره بإعادة ما أخذ منه.

وهذا دليل من الأدلة الكثيرة التي تدل على براعة عمر رضي الله عنه وتفوقه في معرفة الرجال.

وقد توجه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المدائن وجرى له موقف يذكر، وذلك حينما وصل إلى «مظلم ساباط» ولعله سُمي بذلك لكثرة ما به من الأشجار، وكان فيه كتائب لكسرى، وفيه أسودٌ قد دُرِبَتْ على الهجوم وكان منها أسد ضخيم يسمى «المُقرط» كان كسرى قد اختاره، فلما وصل هاشم إلى مظلم ساباط انتظر حتى أتى سعد ببقية الجيش، فلما وصل سعد وافق وصول ذلك الأسد فبادر إلى الهجوم على جيش المسلمين، فنزل إليه هاشم وقاتله بسيفه حتى قتله، وسُمي سيفه المُنْتَن لقوته وإنما القوة من حامله، وقد أكبر سعد هذا الموقف من ابن أخيه هاشم فكافأه بتقبيل رأسه، ورأى هاشم ذلك كبيراً من سعد فقبل قدم عمه رضي الله عنهم أجمعين<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نرى قادة المسلمين يسارعون إلى ركوب المخاطر ومواجهة الأهوال، فقد كان بإمكان هذا القائد المغامر أن يوجه لذلك الأسد كتبية ممن هم تحت قيادته، ولكنه كان من قوم يستعذبون الشدائد ويتنافسون في البذل والتضحية فقدم نفسه فداءً لإخوانه المجاهدين فنصره الله على ذلك الوحش الكاسر.

وهكذا أثبتوا للعالم أنهم لا يقتصرون على منازلة أندادهم من البشر، بل تجاوزوا ذلك إلى منازلة الوحوش الضارية.

(١) تاريخ الطبري ٥٦٧/٣.

(٢) تاريخ الطبري ٦٢٢/٣.

وهذا موقف يُثبت لنا شجاعة هذا القائد إلى جانب ما عُرف عنه من الرأي والتدبير، فلا يظنَّ ظانٌّ أن سعداً ولاء النيابة عنه لكونه ابن أخيه، فقد ولاء قيادة جيش العراق القادم من الشام أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وفي جيشه القعقاع بن عمرو وقيس بن هبيرة، وأمثالهما من الأبطال، وإنما كانوا يولُّون القيادة من كان يجمع بين سداد الرأي والشجاعة.

هذا وقد نزل سعد في «مظلم ساباط» بعد أن قدم هاشمياً ومن معه نحو بهرسير وهي الجزء الغربي من المدائن، ولما نزل سعد ذلك المكان قرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُنَجِّبُ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وإنما تلا هذه الآية لأن في ذلك المكان كتائب لكسرى تُدعى بوران، وكانوا يحلفون بالله كل يوم: لا يزول ملك فارس ما عشنا<sup>(١)</sup>. وقد هزمهم وفرقهم زهرة بن الحوية كما سبق.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٢.

## التوجه نحو المدائن

توجه زهرة قائد المقدمات إلى المدائن، والمدائن هي عاصمة دولة الفرس، وتقع شرق نهر دجلة وغربه، فالجزء الذي تقع غربه يسمى «بهرسير» والذي يقع شرقه يسمى «أسبانير» و«طيسفون».

وقد وصل زهرة إلى بهرسير وبدأ حصار المدينة. ثم سار سعد بن أبي وقاص بالجيش الإسلامي ومعه قائد قواته ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المدائن الغربية «بهرسير» وفيها ملك الفرس يزْدَجْرِد، فحاصرها المسلمون شهرين، وكان الفرس يخرجون أحياناً لقتال المسلمين ولكنهم لا يثبتون لهم.

وقد أصيب زهرة بن الحوية بسهم، وذلك أنه كان عليه درع مفصومة، فقيل له: لو أمرت بهذا الفصم فسُرد [يعني حتى لا تبقى فيها فتحة تصل منها السهام] فقال: ولم؟ قالوا: نخاف عليك منه، قال: إني لكريم على الله إن ترك سهم فارس الجند كله ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت في.

وكان كريماً على الله تعالى كما أمل، فكان أول رجل من المسلمين أصيب يومئذ بسهم، فثبت فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم: انزعوها منه، فقال: دعوني فإن نفسي معي ما دامت في لعلي أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة، فمضى نحو العدو فضرب بسيفه شهريار من أهل اصطخر فقتله<sup>(١)</sup>.

وهذا موقف عظيم من هذا القائد البطل يدل على قوة إيمانه ورغبته الصادقة في الاستشهاد في سبيله، فإنه لما علم الله تعالى صدق نيته ورغبته في الإصابة قدر إصابته من ذلك المكان.

ثم لننظر إلى هذا البطل الذي خالط حب الجهاد شغاف قلبه، حيث يعارض في نزع السهم من جسمه خشية أن تخرج روحه قبل أن يضرب في الأعداء، فهو يريد بقاء نفسه لا لمتاع الدنيا الزائل وإنما ليضرب ضربة يثخن بها في العدو، أو على الأقل أن يتقدم إليهم خطوات لتخرج نفسه وهو أقرب ما يكون إلى العدو.

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٦، وقد جاء لزهرة ذكر بعد فتح المدائن فلعله شفي من تلك الإصابة.

سبحان الله ما أعظم هؤلاء الرجال! أما كان يكفي زهرة من النضال والتضحية ما قدمه في مواقفه السابقة الكثيرة؟ أما كان من حقه -وقد أصيب- أن ينزوي في ناحية بعيدة آمنة ليعالج جرحه ويأخذ قسطاً من الراحة؟

نعم كان ذلك من حقه، ولكنه من قوم ينسون أنفسهم في سبيل تقديم الخدمة لأمتهم، ويضحون بأرواحهم في سبيل الدفاع عن دينهم ونشر دعوتهم، ويرون أن أسمى أمنية تتطلع إليها نفوسهم أن يُستشهدوا في سبيل الله تعالى.

وقد بقي المسلمون في حصار بهرسير شهرين، استعملوا خلالها المجانيق، وقد صنع لهم الفرس الموالبون لهم عشرين منجنيقاً شغلوا بها الفرس وأخافوهم<sup>(١)</sup>.

وفي هذا دلالة على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا لا يهملون تحصيل أسباب النصر المادية إذا قدروا عليها، وأنهم كانوا على ذكر تام لقول الله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، إلى جانب تفوقهم في أسباب النصر المعنوية التي انفردوا بأهمها وأبرزها وهو الاعتماد على الله تعالى وذكره ودعاؤه.

ومما يُذكر من الأمثلة على معية الله تعالى لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن أنس بن الحليس قال: بينما نحن محاصرون بهرسير بعد زحفهم وهزيمتهم أشرف علينا رسولٌ فقال: إن الملك يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبَلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم! فبدر الناس أبو مَفْزَرَّ الأَسود بن قطبة، وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو ولا نحن، فرجع الرجل ورأيانهم يقطعون إلى المدائن -يعني يعبرون النهر إلى شرق المدائن- فقلنا: يا أبا مَفْزَرَّ ما قلت له؟ قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما أدري ما هو إلا أن عليّ سكينه، وأنا أرجو أن أكون أنطقتُ بالذي هو خير، وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد فجاءنا فقال: يا أبا مَفْزَرَّ ما قلت؟ فوالله إنهم لهُراب، فحدثه بمثل حديثه إيانا.

(١) تاريخ الطبري ٦/٤

فنادى الناس ثم نهّد بهم، وإن مَجَانِقَنَا لتخطر عليهم، فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمنّاه، فقال: إن بقي فيها أحد، فما يمنعكم؟ [يعني لم يبق فيها أحد] فتسورها الرجال وافتتحناها فما وجدنا فيها شيئاً ولا أحداً، إلا أسارى أسرناهم خارجاً منها، فسألناهم وذلك الرجل: لأي شيء هربوا؟ فقالوا: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح، فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريدين بأُترجٍ كوثي، فقال الملك: واويله! ألا إن الملائكة تكلم على ألسنتهم، ترد علينا وتجب عن العرب، والله لئن لم يكن كذلك ما هذا إلا شيء أُلقي على في هذا الرجل لِنْتَهِي، فأرزوا إلى المدينة القصوى<sup>(١)</sup>.

وهكذا أنطق الله تعالى هذا المسلم العربي بلسان العجم بكلام لا يصدر إلا منهم، ولا شك أنه كان بلغة فارسية متقنة لا يُشْتَبه فيها أنها من عربي تعلم الفارسية، فأيقن الفرس حالاً بأن من نطق بذلك ملكٌ يجيب عن المسلمين أو رجل منهم أُلقي هذا الكلام على لسانه، فأخلوا مدينتهم الغربية من الرعب وانحازوا إلى مدينتهم الشرقية واحتموا بنهر دجلة الذي كان يجري بغزارة في تلك الأيام.

ولما دخل المسلمون «بَهْرُسِير» -وذلك في جوف الليل- لاح لهم الأبيض [وهو قصر الأكاسرة] فقال ضرار بن الخطاب: الله أكبر أبيض كسرى، هذا ما وعد الله ورسوله، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا<sup>(٢)</sup>.

وقوله «هذا ما وعد الله ورسوله» يعني يوم حفر الخندق لما بشر النبي ﷺ أصحابه بفتح فارس والروم ووصف لهم قصورها وقد سبق بيان ذلك.

#### مشورة بين سعد وجنوده في عبور النهر:

هذا ولما علم سعد أن كسرى قد عبر بالسفن إلى المدائن الشرقية وضم السفن كلها إليه وقع في حيرة من أمره، فالعدو أمامهم وليس بينهم إلا النهر، ولا سبيل إلى عبوره لعدم توفر السفن، وهو يخشى أن يرتحل عدوه فيصعب القضاء عليه،

(١) تاريخ الطبري ٧/٤.

(٢) تاريخ الطبري ٨/٤.

وقد أتى سعداً بعض أهل فارس فدُلُّوه على مخاضة يمكن اجتيازها مع المخاطرة، فأبى سعد وتردد عن ذلك، ثم فاجأهم النهر بمدَّ عظيم حتى اسودَّ ماء النهر وقذف بالزبد من سرعة جريانه، وفي أثناء ذلك رأى سعد رؤيا صالحة مفادها أن خيول المسلمين قد عبرت النهر، فعزم لتأويل رؤياه على العبور، وجمع الناس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه وهم يخلصون إليكم إذا شأؤوا فيناوشونكم في سفنهم، ولي وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، قد كفاكموهم أهل الأيام<sup>(١)</sup>، وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم<sup>(٢)</sup>، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد عدوكم بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعاً: عزَمَ اللهُ لنا ولك على الرشد فافعل.

وقبل أن أذكر خبر العبور أحب أن أقف أمام هذه العزيمة الصادقة وقفات:

**الأولى:** تَدَكَّرُ معية الله جل وعلا لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهذه الرؤيا الصادقة التي رآها سعد رضي الله عنه من الله جل وعلا لتثبيت قلبه ليُقدم على هذا الأمر المجهول العاقبة.

**الثانية:** أن الله تعالى يُجري الأمور لصالح المؤمنين، فالنهر جرى بكثافة مفاجئة على غير المعتاد، وظاهر هذا أنه لصالح الفرس، حيث إنه سيمنع أي محاولة لعبور المسلمين، ولكن حقيقته أنه لصالح المسلمين، حيث أعطى ذلك الكفار طمأنينة فلم يستعدوا لقدم المسلمين المفاجئ لهم، ولم يستطيعوا أن يحملوا معهم كل ما يريدون حمله في حال الفرار، وإقدام المسلمين على العبور رغم المخاطر، وتوقع الهلاك في عرف البشر المعتاد أثار فزع الأعداء وخارت عزائمهم.

وهذا يشبه ما جرى يوم بدر من تقليل الكفار في أعين المسلمين وتقليل المسلمين في أعين الكفار، ليُقدم كل فريق على قتال الآخر، فيجرب بذلك ما قدره الله

(١) يعني المجاهدين السابقين.

(٢) يعني مادتهم التي يدافعون عنها.



تعالى من ظهور الحق على الباطل ﴿وَإِذْ يَرْيَكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤].

الثالثة: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتفعلون خيراً بالرؤيا من الرجل الصالح، ويعتبرونها مرجحاً للإقدام على العمل، وكانوا رضي الله عنهم يحسنون الظن بالله تعالى، ويعتبرون أن رؤى الخير تثبت وتأييد منه تعالى.

الرابعة: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتصفون بالجرأة والإقدام وقد مرت أمثلة كثيرة على جرأتهم في منازلة الأبطال ومجاوله الوحوش الضارية، وها هم يُقدمون على خوض النهر الجارف بخيولهم، ومن قبل خاضوا البحر بخيولهم بقيادة العلاء بن الحضرمي، كما مر معنا سابقاً، وعلى قدر أهل العزم تكون العزائم.

الخامسة: أن قادة المسلمين في ذلك العهد كانوا يتصفون غالباً بالحزم واغتنام الفرص لاستنفاد طاقة الجنود وهم في حماسهم وقوة إيمانهم، فهذا سعد رضي الله عنه يأمر جيشه بأن يعبروا إلى الأعداء بسلاح الإخلاص والتقوى، وقد كان مطمئناً إلى مستوى جيشه الإيماني، فأقدم على ما أقدم عليه مستعيناً بعد الله تعالى بذلك المستوى الرفيع.

السادسة: اتصاف الصحابة رضي الله عنهم ومن معهم من التابعين بالطاعة التامة لقادتهم، وكانوا يعتبرون هذه الطاعة واجباً شرعياً وعملاً صالحاً يتقربون به إلى الله تعالى.

### عبور النهر وفتح المدائن:

وقد ندب سعد الناس إلى العبور وقال: مَنْ يبدأ ويحمي لنا الفراض [يعني ساحل النهر الشرقي] حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج؟ فانتدب لهم عاصم بن عمرو التميمي وكان من أصحاب البأس والقوة، وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات، فأمر عليهم سعد عاصماً، فسار فيهم حتى وقف على شاطئ دجلة وقال: من يتدب معي لنحمي الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى

تعبروا؟ فانتدب له ستون من أصحاب البأس والنجدة، ثم اقتحموا دجلة، واقتحم بقية الستمائة على إثرهم.

وهكذا تكونت من جيش المسلمين فرقة من الفدائيين عددهم ستمائة وقد سميت كتيبة الأهوال، واستخلص عاصم منهم ستين تحت قيادته ليكونوا مقدمة لهذه الفرقة. وهذا تخطيط محكم من سعد أولاً ثم من عاصم، وذلك أن مواجهة الأهوال والمغامرات لا تكون بالعدد الكبير، وإنما تكون بأصحاب البأس الشديد والقدرة القتالية العالية وإن كانوا قلائل، وذلك أنه إذا انضم لهذه الفرقة من هم أقل كفاءة وشجاعة ثم ارتدوا عند هجوم الأعداء يسيبون انهزام الفرقة كلها.

ومما يميز المسلمون آنذاك أن كل واحد منهم يعرف قدر نفسه وطاقتها، فلا يندفع إلا في حدود إمكاناته، وذلك لأنهم لا يعملون للمجد الدنيوي، لأن من كان كذلك قد يغامر بنفسه وهو غير مؤهل لذلك، رجاء أن يبقى فيحوز ذلك المجد، وهو في أدائه هذا العمل لن ينجح كثيراً لأنه سيبدل جل طاقته في الدفاع عن نفسه، وهذا يفوت الغرض الذي يجب أن يغامر من أجله، وإنما كان أولئك يعملون للأخرة، ولرفع مجد الإسلام، فهم لا يضعون خطواتهم إلا في موضعها الصحيح، وقد يغامر بعضهم وهو غير مؤهل حينما يتعين عليه الإقدام ثم يسهل الله له مخرجاً من الهول الذي غامر بنفسه فيه كما تقدم.

واقتحم عاصم النهر بالستين على الخيول وقد ذكر من طليعتهم الذين سبقوا إلى الشاطئ الآخر أصمُّ بني ولَّاد التيمي، والكَلَج الضبي، وأبو مفرزَّ الأسود بن قطبة، وشرحبيل بن السَّمط الكندي، وحَجَل العجلي، ومالك بن كعب الهمداني، وغلَام من بني الحارث بن كعب.

فلما رأهم الأعاجم أعدُّوا لهم فرسانا فالتقوا بهم في النهر قرب الشاطئ الشرقي، فقال عاصم: الرماحَ الرماح، أشرعوها وتوخَّوا العيون، فالتقوا فاطَّعنوا، وتوخَّى المسلمون عيونهم، فولَّوا نحو الشاطئ، والمسلمون ينخسون خيولهم بالرمح لتسرع في الهروب، فصارت تسرع وأصحابها لا يملكون منعها.

ولحق بهم المسلمون فقتلوا عامتهم ونجا من نجا منهم عورانا، ولحق بقية الستمائة بإخوانهم فاستولوا على الشاطئ الشرقي<sup>(١)</sup>.

هذا ولقد كان بإمكان الفرس الموكِّلين بحماية الشاطئ أن يلزموا مكانهم وأن يكتفوا رماية المسلمين بسهامهم، وذلك لو تمَّ سيرقل تقدم المسلمين بعض الوقت، وستقع فيهم إصابات نظراً لكونهم في الماء وعدوهم في اليابسة، والنظر إلى الموضوع من الناحية الحربية يجعل القدرة المادية إلى جانب الفرس لأن الذي فوق الأرض يستطيع أن يحدّد الأهداف أكثر ممن يعوم في الماء، ولكن الله سبحانه أعمى بصائر الفرس عن ذلك مع أنهم أهل الحروب الذين ورثوها كابراً عن كابر ليتيم ما أَراده الله تعالى من نصره دينه وأوليائه، حيث قدّم أعداؤهم طائفة منهم لخوض الجانب الشرقي من النهر وجانب النهر عادة يكون خفيف الماء، فالتحموا مع المسلمين، ولم يستطيعوا الثبات لهم وأصبحوا عائقاً يحول بين الرماة ومواصلة رمي المسلمين.

جاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: ولما رأى سعد عاصماً على الفراض [يعني التي في الجانب الشرقي] قد منعها أذن للناس في الاقتحام وقال: «قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وهذا القول تعبير من سعد ومن كانوا معه عن مدى تعلقهم بالله تعالى، واعتبارهم أن الأمر بيده كله، وأن تدبير أمور الحرب والسلام عنده، فهو الذي يوهن قلوب الأعداء ويعمي بصائرهم عن إدراك عوامل النصر، وهو الذي يوفق المسلمين لهذه العوامل وللتفكير السديد في الخروج من المأزق، وهو الذي يذل لهم شواهد الجبال المليئة بالجليد، وأعماق البحار والأنهار التي تقذف بالأمواج والزبد، وهو الذي يمدّهم بالملائكة عليهم السلام إذا كان الأعداء فوق طاقتهم الكبرى.

فهذا الكلام ليس مجرد كلام يقال باللسان، كما يقوله بعض المسلمين الذين عُمرت قلوبهم بالخوف من طغاة البشر وتضخمت في أنظارهم قوتهم وتضاءل في

(١) تاريخ الطبري ٩/٤.

قلوبهم الخوف من الله تعالى، وتذكر قوته وسعة ملكه، ثم مع ذلك يرجون من النطق بهذا الكلام أن يظهر مفعوله المدهش في واقع حياتهم.

إن الصحابة رضي الله عنهم قبل أن ينطقوا بهذا الكلام قد جردوا قلوبهم تماماً من حب غير الله تعالى ومن تعظيم طغاة البشر أو الخوف منهم، وعمروها بحب الله تعالى والإيمان بعظمته وقوته والخوف منه وحده، واعتبار أن السماوات والأرض وما فيهن في قبضته تعالى.

فسعد حينما يأمر الجيش الإسلامي بالنطق بهذه الكلمات لا يحاول أن ينشئ في قلوبهم عقيدة التوحيد الصافية، وإنما يذكرهم بما يعبر عن هذه العقيدة ليتذكر منهم من كان شارداً الفكر عن ذكر الله القلبي.

ولذلك كانت هذه الكلمات وأمثالها تعطي مفعولها المؤثر، لأن أولئك الصادقين كانوا يتمتعون بانسجام تام بين أقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم.

فالذي يركع لله تعالى مثلاً قد قام بتعظيمه بفعله لأن الركوع هيئة تعظيم، ثم قام بتعظيمه بقوله حيث يقول سبحان ربي العظيم فإذا وافق ذلك حضور القلب واعتقاده بعظمة الله تعالى كان ركوعاً كاملاً وأدى مفعوله في تقوية الإيمان وتقويم السلوك والظفر بمعية الله تعالى بالنصر والتأييد، أما إذا كان القلب غافلاً والفكر شارداً فإن ذلك يكون مجرد أقوال وأفعال لا تعطي شيئاً من ثمراتها العظيمة التي شرعت من أجلها.

ولقد كانت أعمال الصحابة وأذكارهم عامرة بالاعتقاد الحي المتجدد مع تجدد الزمن، فلذلك استقامت حياتهم وظفروا بهذه الانتصارات الباهرة التي أصبحت مضرب الأمثال.

فسعد رضي الله عنه يذكرهم بالاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه وحده، لأنه جل وعلا هو الذي بيده حسم تلك المعركة وغيرها من أفعال العباد، ثم يذكرهم بالذكر الذي قاله إبراهيم عليه السلام حينما أُلقيَ في النار، وقاله رسول الله ﷺ حينما هدده الكفار بجمعهم كما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] فإذا كان الكفار يعتدُّون بجمعهم وقوتهم المادية فإن المسلمين الصادقين يعتدون بالله تعالى وكفى به معينا وناصرًا وهو جل شأنه نعم المعتمد.

ثم يذكرهم بأن التحول من حال الضعف إلى القوة، ومن العسر والشدة إلى اليسر والسهولة، ومن انغلاق السبل إلى انفتاحها لا يكون إلا بالله تعالى وحده، حينما يقول المسلم مع الاعتقاد الجازم «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم».

قال الرواة في الرواية المذكورة: وتلاحق عظم الجند فركبوا اللجّة، وإن دجلة لترمي بالزبد، وإنها لمسودة، وإن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقتربوا، ما يكثرثون كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض<sup>(١)</sup>.

وجاء في رواية أبي بكر بن حفص بن عمر: وكان الذي يساير سعدًا في الماء سلمان الفارسي، فعامت بهم الخيل، وسعد يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرنَّ الله وليه، وليظهرنَّ الله دينه، وليهزمنَّ الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات»<sup>(٢)</sup> وهذا حسن ظن بالله تعالى، وثقة عظيمة بتحقيق وعده أوليائه بالنصر، ثم إدراك دقيق لعوامل تخلف ذلك حيث اشترط خلوص الجيش من الظلم والعدوان ومن الذنوب الأخرى التي تغلب الحسنات.

فجميع النصوص التي فيها الوعد بنصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض حق لا مرية فيه، ويجب على المسلمين أن يؤمنوا بها وتتحقق وقوعها، ولكن مع تجرد قلوب المسلمين من تعظيم طغاة البشر والخوف منهم، وتجرد ألسنتهم من الشناء عليهم وتعداد محامدهم، أو بعبارة أخرى أن يكون من توجهوا لهذا الأمر من الموحدين، ثم أن ينزهوا أنفسهم عن الظلم والعدوان، فإن الظالمين قد يُدبِّل الله عليهم جبايرة الكفار وإن كانوا أبعد منهم عن الهدى المنحرف بمراحل، ثم أن ينزعوا أنفسهم عن المعاصي التي تغلب الحسنات كما جاء في تعبير سعد رضي الله عنه، ومن ذلك الكبائر والإصرار على الذنوب وعدم المبالاة بآثارها، ولم يأت في استثناء سعد ذكر التوحيد، وإنما ذكر البغي والمعاصي لأن الذين معه كانوا جميعاً من الموحدين.

(١) تاريخ الطبري ١٠/٤.

(٢) تاريخ الطبري ١١/٤-١٢.

وهذه المعاني المذكورة في قول الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فالعبادة تشمل تطبيق الإسلام في جميع شؤون الحياة فكل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى فهو عبادة<sup>(١)</sup>.

واجتناب الشرك يعني إخلاء القلب وتجريده من أي اعتقاد يزاحم وجود الإيمان بالله تعالى وذلك كالخضوع للطغاة وتعظيمهم والخوف منهم، أو التعلق بالدنيا على أنها غاية يُعمل من أجلها، وما يترتب على اعتقاد القلب من الأقوال والأعمال الشركية.

قال الرواة: فقال له سلمان: الإسلام جديد، ذُكِّتَ لهم والله البحور كما ذُكِّلَ لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجنَّ منه أفواجا كما دخلوه أفواجا<sup>(٢)</sup>.

وقول سلمان رضي الله عنه: الإسلام جديد، يعني لآزال حياً وأتباعه أقوياء الإيمان معتزون به، وقد جعلوه قضيتهم التي من أجلها يحيون ومن أجلها يموتون، وإليها يدعون وعنهما يدافعون، أما حينما يتقادم العهد فإنه تأتي أجيال تراث هذا الدين وراثته لا اختياراً، ولا تجعله القضية التي تأخذ على أفرادها مشاعرهم واهتماماتهم، بل يجعلون همهم الأكبر هو العلو في الدنيا والتمتع بمتاعها، ويصبح الدين أمراً ثانوياً في قاموس حياتهم، فعند ذلك يخرجون منه أفواجا كما دخلوه أفواجا.

هذا وقد تم عبور المسلمين جميعاً سالمين لم يُصَبَ أحد منهم بأذى كما جاء في عدة روايات أخرجها الإمام الطبري، ولم يقع في النهر منهم إلا رجل واحد كما جاء في رواية أبي عثمان النهدي: أنهم سلموا من عند آخرهم إلا رجلاً من بارقي يدعى «غرقدة» زال عن ظهر فرس شقراء كأي أنظر إليها تنفض أعرافها عرياً والغريق طاف، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه إليه فأخذ بيده فجره حتى عبر،

(١) ينظر كتاب «شمول العبادة في الإسلام» للمؤلف.

(٢) تاريخ الطبري ١١/٣-١٢.

فقال البارقي - وكان من أشد الناس - أعجزت الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع، وكان للقعقاع فيهم خؤولة<sup>(١)</sup>.

وهذه منقبة للقعقاع تضاف إلى مناقبه الكثيرة في الشهامة والبطولة والنجدة.

هذا وقد كان عبور المسلمين مفاجأة للفرس لم يكونوا يتوقعونها، ولم يحسبوا لها حساباً، حيث إن قطع النهر وهو بتلك الكثافة والقوة في الجريان لا يمكن أن يتم إلا بالسفن عادة.

ولقد كان بإمكان الفرس لو توقعوا هذا العبور أن يجهزوا جيشاً على السفن يقاتلون به المسلمين بحيث لا يمكنونهم من العبور، ولكن الله تعالى قدر جريان النهر بتلك الكثافة المفاجئة كما جاء في إحدى الروايات «وفجئهم المد» وفي عبارة أخرى «وفي سنة جود صيفها متتابع».

قدر الله سبحانه ذلك ليطمئن الفرس على عدم وصول المسلمين إليهم لعلمهم بأن فيضان النهر يستمر عدة أشهر حسب المعتاد وليس لدى المسلمين سفن يعبرون عليها.

فكان عبور المسلمين في تلك الحال مفاجأة أذهلت الفرس كما جاء في رواية سيف السابقة: فَفَجَّوْا أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم، فأجهضوهم وأعجلوهم عن جمهور أموالهم<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية أخرى عن أبي مالك حبيب بن صهبان قال: لما عبر المسلمون يوم المدائن دجلة، فنظروا إليهم وهم يعبرون جعلوا يقولون بالفارسية «ديوان آمد» - قال أبو بكر بن سيف: يعني قد جاء الشيطان - وقالوا بعضهم لبعض: والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن، فانهزموا<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كانت هذه الكرامة العظيمة التي أكرم الله بها أوليائه المؤمنين من عبور النهر سبباً في فزع الأعداء وهروبهم وجلათهم عن عاصمة ملكهم، وقد اعتبروا أن عبور المسلمين بدون سفن أمر لا يجري من الإنس عادة وإنما يمكن من الجن الذين

(٢) تاريخ الطبري ١٠/٤.

(١) تاريخ الطبري ١٢/٤.

(٣) تاريخ الطبري ١٤/٤.

مكَّنهم الله تعالى من الطيران في الهواء وغير ذلك مما لا يبلغه الإنس، فنادى بعضهم بعضاً بالتحريض على الفرار، لأنه لا طاقة لهم بقتال من جرى منهم هذا الأمر الخارق.

وبعد ذكر خبر العبور أحبُّ أن أبين أن عبور النهر لم يكن أمراً عادياً كما يصوره بعض الكتاب المعاصرين حيث يرون بأن الخيل تعوم عادة في الماء، وأنهم استخدموها للعبور كما تُستخدم السفن، وهذا التصوير مخالف لسباق الخبر، فلو كان الأمر عادياً لما تحيَّر سعد وتردد في العبور، ولما كان لحيازة الأعداء جميع السفن إلى شاطئهم فائدة تذكر، ومما يدل على أن العبور كان خارقاً للعادة أن الفرس لما رأوا المسلمين يسيرون في النهر فوق ظهور الخيل ذهلوا من هول المفاجأة وقالوا: والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن كما تقدم.

ومما يدل على ذلك أيضاً ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمير الصائدي قال: لما أقحم سعد الناس في دجلة اقترنوا فكان سلمان قرين سعد إلى جانبه يسايره في الماء، وقال سعد: ذلك تقدير العزيز العليم، والماء يطمو بهم، وما يزال فرس يستوي قائماً إذا أعيا يُنشز له تلعة فيستريح عليها كأنه على الأرض فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك، وذلك يوم الماء، وكان يدعى يوم الجراثيم- يعني من كثرة ما رفع للمسلمين من الأرض وسط النهار-.

وأثبت ذلك أيضاً سيف بن عمر فيما يرويه عن شيوخه قالوا: كان يوم ركوب دجلة يدعى يوم الجراثيم، لا يعيا أحد إلا أنشزت له جرثومة يريح عليها<sup>(١)</sup>.

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يفسر ذلك بالجُزر النهرية التي تكون أحياناً في وسط الأنهار، فهل كان الرواة الأوائل من الغباء بحيث لا يعرفون الجزر النهرية؟ ولو كان هناك جزر لوقف عليها طائفة من الجند على الأقل ولم تكن خاصة بأفراد يصيبهم الإعياء.

ومما يدل أيضاً على كون الأمر خارقاً للعادة ما تقدم من قول سلمان رضي الله عنه عن المسلمين: ذُلت لهم والله البحور.

(١) تاريخ الطبري ١٣/٤.



فلو كان الأمر اجتيازاً معتاداً لما كان لهذا القول حاجة .

ومما يدل على ما ذكرنا أيضاً ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف عن قيس ابن أبي حازم قال: خضنا دجلة وهي تطفح، فلما كنا في أكثرها ماءً لم يزل فارس واقفاً ما يبلغ الماء حزامه<sup>(١)</sup>.

فإذا كان الماء لا يبلغ أحزمة الخيل مع أنهم في أغزر مكان من دجلة فهل يتصور أن الخيل كانت تسير على أقدامها في أرض النهر مع ما ذكر الرواة من عمق النهر وغزارته ومدَّ العظیم في تلك الأيام؟ أم هل يتصور أن لدى الخيل قوة على العوم وهي تحمل راكبيها ثم لا يبلغ الماء أحزمتها؟

إن ذلك كله لا يمكن تصوره، ولكن المؤمن الذي هو على علم ويقين من أمر الله تعالى يدرك أن قدرته تعالى فوق كل شيء وأنه هو الذي حمل ذلك الجيش الكبير بقدرته تعالى ولطفه ومنه .

كما يدل عليه أيضاً ما جاء في رواية أبي عثمان النهدي قال: طبَّقتنا دجلة خيلاً ورجلاً ودواب<sup>(٢)</sup>.

فهذا يدل على أن العبور غير مقتصر على الخيل، وأنه كان هناك مشاة يسيرون على أقدامهم ودواب أخرى .

أما الفرس فإنهم لما علموا ببدء عبور المسلمين بعثوا من الفرسان حامية تعوق تقدمهم حتى يتم جلاؤهم .

وقد قاومت هذه الحامية بعض الوقت، وخرج ملك الفرس يزدجرد إلى حلوان، وختل المدائن من الجيش الفارسي إلا حامية في القصر الأبيض .

وقد دخل المسلمون المدائن الغربية فلم يجدوا مقاومة حتى وصلوا إلى القصر الأبيض فامتنعت به حاميته، وقد دعاهم المسلمون إلى الإسلام، وكان الذي تولى ذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال لهم: إني منكم في الأصل وأنا أرق لكم، ولكم في ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم: أن تسلموا فإخواننا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإلا فالجزية، وإلا نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٠ .

ولما كان اليوم الثالث قبل أهل القصر الجزية وخرجوا<sup>(١)</sup>.

ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها وانتهى إلى إيوان كسرى أقبل يقرأ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨] (٢).

### مواقف من أمانة المسلمين

لما فتحت المدائن وجه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فرقا من المسلمين لتتبع المنهزمين وجمع الغنائم، وقد أدوا تلك الغنائم بكل أمانة وإخلاص، وقد رويت في ذلك أخبار تدل على مبلغ أمانتهم.

فمن ذلك ما قام به زهرة بن الحوية قائد المقدمة، حيث خرج يتبع المنهزمين فأدرك بعضهم على جسر النهروان، فزادحموا فوقع بغل في الماء، فعجلوا واجتمعوا عليه، فقال زهرة: إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأنا، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعدما أرادوا تركه، وترجل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه فأخرجوه فجاءوا بما عليه حتى رده إلى الأقباض ما يدرون ما عليه وإذا الذي عليه حلية كسرى ثيابه وخرزاته ووشاحه، ودرعه التي كان فيها الجواهر، وكان يجلس فيها للمباهاة<sup>(٣)</sup>.

وهكذا جمع زهرة في هذا الخبر بين الدهاء حيث أدرك أن وراء اهتمام الفرس بذلك البغل سرا، والشجاعة حيث ترجل عن فرسه وقاتل أولئك القوم، والأمانة حيث سلم ما على البغل من غير أن ينظر فيه.

ومنها خبر الكَلَجِ الضبيِّ وقد خرج للطلب فوجد اثنين من البغالين فقتلتهما بعد أن أفلت من سهامها، ثم ساق البغالين حتى سلمهما لصاحب الأقباض، وإذا فيهما تاج كسرى وفيهما الجواهر وثياب كسرى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر.

(٢) تاريخ الطبري ١٦/٤.

(١) تاريخ الطبري ١٤/٤.

(٣) تاريخ الطبري ١٧/٤، بتصرف.

ومنها خبر القعقاع بن عمرو وقد لحق بفارسي يحمي الناس فقتله، وإذا معه غلافان وعيبتان، وإذا في أحد الغلافين خمسة أسياف وفي الآخر ستة، وهي من أسياف الملوك من الفرس ومن الملوك الذين جرت بينهم وبين الفرس حروب وفيها سيف كسرى وسيف هرقل وإذا في العيبتين أدرع من أدرع الملوك وفيها درع كسرى ودرع هرقل، فجاء بها إلى سعد، فقال: اختر أحد هذه الأسياف فاختر سيف هرقل، وأعطاه درع بهرام، وأما سائرهما فنفلها كتيبة الخرساء التي هي بقيادة القعقاع، إلا سيف كسرى والنعمان، فقد رأى أن يعثهما إلى أمير المؤمنين لتسمع بذلك العرب لمعرفتهم بهما<sup>(١)</sup>.

ومنها ما رواه أبو عبيدة العنبري قال: لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحقٍّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكنني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبّعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس<sup>(٢)</sup>.

ومنها ما روي عن عصمة بن الحارث الضبي قال: خرجت فيمن خرج يطلب، فأخذت طريقاً مسلوگًا وإذا عليه حمّار، فلما رأني حثّه فلحق بآخر قدامه، فمالا وحثّا حماريهما، فأنتهيا إلى جدول قد كُسر جسره فثبتا حتى أتيتهما، ثم تفرقا، ورماني أحدهما فألظّظت به [يعني تبعته] فقتلته وأفلت الآخر، ورجعت إلى الحمارين، فأتيت بهما صاحب الأقباض، فنظر فيما على أحدهما فإذا سَفَطان في أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على نُفْره<sup>(٣)</sup> ولبيّه الياقوت والزمرد منظوم على الفضة ولجام كذلك، وفارس من فضة مكلّل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها شليل<sup>(٤)</sup> من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب، وكل

(١) تاريخ الطبري ١٨/٤، بتصرف.

(٢) تاريخ الطبري ١٩/٤.

(٣) هو السير الذي في مؤخرة السرج.

(٤) هو ما يوضع على عجز البعير.

ذلك منظوم بالياقوت، وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر، كان كسرى يضعهما إلى اسطوانتي التاج<sup>(١)</sup>.

وبعد فهذه نماذج من وقائع كثيرة تدل على صدق أولئك المجاهدين وأمانتهم، وتجردهم من مصالحهم الخاصة، فإن الذي جمعه وأدوه يعدُّ من أعظم عجائب الدنيا ونفائسها ويكفي في تقدير قيمته أنه عنوان حضارة الفرس المادية، حيث ظل الأكَاسرة يجلبونه بالأموال العظيمة، ويصنعون منه تلك المظاهر الدنيوية الخادعة.

وإنَّ أداء هذه الأموال والنفائس العظيمة مع إمكان إخفاء بعضها دليل على قوة إيمان أولئك المجاهدين، وإذا كانت هذه حالهم فلا غرابة في مخالفة النصر لهم بما يشبه خوارق العادات أو بما هو من خوارقها.

ولقد أثنى على ذلك الجيش أكابر الصحابة رضي الله عنهم، فمن ذلك قول سعد بن أبي وقاص: والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت على فضل أهل بدر.

وقول جابر بن عبد الله: والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم: طليحة بن خويلد، وعمرو بن معد يكرب، وقيس بن المكشوح.

وأكبر من ذلك ثناء أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عليهم لما رأى خمس تلك الغنائم كما أخرج الإمام الطبري من طريق سيف عن مخلد بن قيس العجلي عن أبيه قال: لما قُدم بسيف كسرى على عمر ومنطقته وزبرجده قال: إن قوما أدوا هذا لذووا أمانة، فقال علي رضي الله عنه: إنك عفتت رعيت الرعية، ولو رتعت لرتعت<sup>(٢)</sup>.

### وصول نوادر الغنائم إلى المدينة وموقف لعمر:

هذا ولما قسم سعد غنائم المدائن العظيمة أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بالأخماس وأرسل معها نوادر من لبس كسرى وفرشه وأشياءه الخاصة، واستأذن

(١) تاريخ الطبري ١٨/٤-١٩. (٢) تاريخ الطبري ١٩/٤-٢٠، البداية والنهاية ٦٧/٧.

الجيش في ذلك فأذنوا وطابت بذلك نفوسهم، ولما وصل ذلك إلى المدينة ورآه أمير المؤمنين فزع لمنظره وذكرَ به حقارة الدنيا وحقارة من اغتر بها، وقد أراد أن يُلقِي على المسلمين في المدينة درساً عملياً في التزهيد بمظاهر الدنيا، وقد ذكر خبر ذلك الحافظ ابن كثير من رواية الهيثم بن عدي قال: أخبرنا أسامة بن زيد الليثي قال حدثنا القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسواريه وسراويله وقميصه وتاجه وخفيه - وقد كانت كما في روايات أخرى من مواد غالية الثمن كالحرير والذهب والجوهر - قال: فنظر عمر في وجوه القوم، وكان أجسمهم وأبدنهم قامة سراق بن مالك بن جعثم، فقال: يا سُرَاقَ قم فالبس، قال سراق: فطمعت فيه، فقمت فلبست فقال: أدبر فأدبرت، ثم قال: أقبل فأقبلت، ثم قال بخ بخ، أعيرابي من بني مدلج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه، رب يوم يا سراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك ولقومك، انزع، فنزعت، فقال: اللهم إنك منعت هذا رسولك ونيك وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، وأعطينته، فأعوذ بك أن تكون أعطينته لتمكر بي، ثم بكى حتى أبكى رحمه من كان عنده، ثم قال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تسمي<sup>(١)</sup>.

وهكذا جَسَمَ عمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا الخلابة الخداعة، حينما ألبس سراق متاع كسرى، وكأنه يقول: انظروا إلى قمة مظاهر الدنيا التي بُدلت فيها آلاف الدنانير، ثم ما الذي أغتته عن صاحبها؟ فما هو في حياته الدنيا يُطرد من كل بلد، ويعيش في رعب وخوف، ثم هو في الآخرة من أصحاب الجحيم، فهل جلبت له هذه المظاهر السعادة في الدنيا والآخرة؟ وهل دفعت عنه ما يكره في الدارين؟

الواقع أنها تهاوت كما تتهاوى الخرائب، وسقط معها كل من انخدع بها. ثم يشير عمر رضي الله عنه بقوله «رب يوم يا سراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك ولقومك». . . يشير إلى أن

(١) البداية والنهاية ٦٨/٧.

العرب في جاهليتهم ليسوا أحسن حالا من غيرهم في الاغترار بمظاهر الدنيا، فقد كانوا يعظمون أهل هذه المظاهر، فلو غنم هذه المغنم أهل الجاهلية ولبسوها لاعتبروا ذلك شرفاً لهم، أما وقد غنمها المسلمون فإنهم لن يستحلوا لبسها، ولن يروها شيئاً يذكر، لأن الله سبحانه أعزهم بالإسلام فلا عزة لهم بغيره.

وبعد أن تم ما أراده عمر من تحقير مظاهر الدنيا مرت عليه لحظات من محاسبة النفس غلب عليه فيها جانب الخوف من الله عز وجل، فقارن بين حياته وحياة خليليه السابقين رسول الله ﷺ وخليفته أبي بكر رضي الله عنه، فرأى أنهما قد سلما من رؤية هذه المظاهر فخشى أن يكون قد ابتلي بها استدراجاً، فسخت عيناه بدموع هملت من سحب الخشية، وتحدرت من منابع الحزن، حتى أشفق عليه أصحابه مما يرونه يعاني من الحزن المصني والتأثر العميق، وماذاك إلا لقوة معرفته بالله تعالى، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

وهكذا فتحت مدينة «المدائن» عاصمة دولة الفرس التي كانت تملك أكثر من نصف الأرض الشرقي.

فيا ترى لو كان الفاتحون من غير المسلمين هل يتركون تلك المدينة وقصرها الأبيض المشهور وإيوان كسرى؟!!

إن البدهي في منطق العقول المعتادة أن ينتقل حاكم المسلمين وأميرهم من المدينة المنورة ذات المباني الطينية والخشونة في العيش للعيش في قصور الأكاسرة، وليجعل من حاضرة ملكهم التي تم بناؤها بجهود ضخمة عاصمة لدولة الإسلام. وإذا لم يتم ذلك فلا أقل من أن يتربع على عرش تلك المدينة والي العراق والمشرق.

ولكن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لم يفعل ذلك، ولم يفعله أيضاً والي العراق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. . ذلك لأنهما من قوم زكا الله تعالى قلوبهم وطهر سرائرهم، فطمحت أنظارهم وأفكارهم نحو قصور الجنة ونعيمها الدائم. . فرأوا أن أيّ تنعم في الدنيا ينقص من رفعة درجاتهم في الجنة.



مواقف وعبر

في

فتوح المشرق



## موقعة جلولاء

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري عدة روايات عن موقعة جلولاء من طريق سيف بن عمر عن شيوخه، وخلصتها أن الأعاجم لما هُزموا مرات عديدة في المعارك التي خاضوها مع المسلمين والتي كان آخرها معركة القادسية وفتح المدائن، اجتمعوا على مفترق الطرق إلى مدائنهم في جلولاء فتذا مروا وقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإذا كانت لنا فهو الذي نريد وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذرا، واجتمعوا على قيادة مهرا ن الرازي، وحفروا خندقاً حول مدينتهم، وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا الطرق التي يعبرون منها.

وقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر يخبره بذلك، فكتب إلى سعد يأمره ببعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي وعلى يمينته مسعر بن مالك، وعلى يسرته عمرو بن مالك بن عتبة وعلى ساقته عمرو بن مرة الجهني.

وسار إليهم هاشم بجيشه فحاصرهم وطاولهم أهل فارس فكانوا لا يخرجون لهم إلا إذا أرادوا، وزاحفهم المسلمون ثمانين زحفا، كل ذلك يعطي الله المسلمين عليهم الظفر، وغلبوا المشركين على حسك الخشب التي اتخذوها لإعاقة المسلمين فاتخذ الأعداء حسك الحديد.

وجعل هاشم يقوم في الناس ويقول: إن هذا المنزل منزل له ما بعده، وجعل سعد يمد بالفرسان، حتى إذا طال الأمر وضاق الأعداء من صبر المسلمين اهتموا بهم فخرجوا لقتالهم، فقام هاشم في الناس فقال: أبلوا الله بلاءً حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم واعملوا لله، فالتقوا فاقتتلوا، وبعث الله عليهم ريحاً أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلا المحاجزة، فتهافت فرسانهم في الخندق فلم يجدوا بداً من أن يردموا الخندق مما يليهم لتصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم.

أقول: وهذا مثل من أمثلة كثيرة يقبض الله فيها أسباباً ترجح كفة المسلمين مما



يدل على قرب الله تعالى من أوليائه وإمدادهم بالنصر والتأييد كلما ادلهمت بهم الخطوب وتوالت عليهم المحن، فالمسلم مأمور بأن يستمر في العمل بالأسباب المشروعة التي سخرها الله سبحانه له وجعلها مجالاً لجريان أقداره على ما يشاء ويقدر جل وعلا، مع شعوره الدائم بمعية الله له بالعلم والنصر والتأييد وظهور آثار عبوديته لربه جل وعلا بالخضوع له والدعاء والعبادة.

جاء في الرواية المذكورة «فلما بلغ المسلمين ما قام به الأعداء من ردم الخندق قالوا: أنهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه؟ فلما نهض المسلمون لقتالهم خرجوا فرموا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسك الحديد لكيلا تقدم عليهم الخيل وتركوا مكانا يخرجون منه على المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير وهي من ليالي القادسية إلا أنه كان أقصر وأعجل».

وهذا مثل من حزم المسلمين آنذاك واهتبالهم الفرص المناسبة للنكاية بالأعداء بالرغم مما أصاب المسلمين من الإنهاك المتواصل، وبذل ما في الوسع من الطاقة والقوة، وهو دليل على قوتهم في المصابرة على القتال المستمر، وقد نجحوا أكثر من مرة بسبب ذلك في الظفر على الأعداء، وكانت اللحظات الحاسمة تأتي بتفوق المسلمين في المصابرة بعد ملاحظة قوة أملهم بالله تعالى.

قال: «وانتهى القعقاع بن عمرو في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر منادياً فنادى: يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبلوا إليه ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله - وإنما أمر بذلك ليقوي المسلمين به - فحمل المسلمون ولا يشكون في أن هاشماً فيه فلم يحم لهم شيء حتى انتهوا إلى باب الخندق فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به وأخذ المشركون في هزيمة يمنة ويسرة عن المجال الذي بحيال خندقهم، فهلكوا فيما أعدوا للمسلمين فعقرت دوابهم [يعني بسبب حسك الحديد التي أعدوها للمسلمين] وعادوا رجالة، وأتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا من لا يعد، وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف، فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم، فهو جلولاء الواقعة».

وهكذا تمت اللحظات الحاسمة في هذه المعركة على يدي القعقاع بن عمرو كما تمت بذلك معركة القادسية وغيرها، فله دره من بطل دوح أعداء الإسلام بشجاعته النادرة ومصابرته المضنية وتخطيطه الحربي المدهش، وذلك يدل على قوة إيمانه بالله تعالى وعظيم ثقته بنصره وتأَييده.

ومن عجائب هذه المعركة أن المسلمين تفوقوا على أعدائهم وكان النصر حليفهم في جميع اللقاءات بينهم، حتى كانت النهاية لصالحهم، مع أن الأعداء يفوقونهم كثيرا في الاستعداد الحربي، فقد حفروا خندقًا عميقًا حول مدينتهم لا يمكن اجتيازه، فضمنوا بذلك حصنًا منيعًا يحميهم، ثم وضعوا عوائق من الخشب تصدُّ خيول المسلمين عن التقدم، ولما غلبهم المسلمون على هذه العوائق فأبطلوا مفعولها وضع لهم الأعداء حسك الحديد دونها، واستطاع المسلمون بتوفيق الله تعالى، ثم بمهارتهم في التخطيط الحربي أن يتفادوا قطع الحديد تلك، وركزوا هجومهم على المجال الخالي الذي تركه الأعداء لهم ليخرجوا منه إلى المسلمين، كما مر في صنيع القعقاع بن عمرو.

ولما كان الأعداء قد خرجوا في ذلك اليوم الذي حُسمت فيه المعركة لقتال المسلمين فإن القعقاع بن عمرو ومن معه من الأبطال قد غلبوا على المجال الذي يستطيعون أن يعبروا منه إلى مدينتهم، واضطروهم بالضغط الشديد إلى أن يذهبوا يمينًا ويسرة عن ذلك المجال، فتورطوا بحسك الحديد التي أعدوها لخيول المسلمين، فوقعت بها خيولهم، واضطروا إلى ترك الخيول وأن يقاتلوا مشاة على غير نظام، وإذا كان الأعداء لم يثبتوا للمسلمين وهم على خيولهم في كل الحروب التي خاضوها معهم فكيف يثبتون لهم وهم مشاة؟ ولذلك كانت تلك نهايتهم، وعاد عليهم سلاحهم الذي وضعوه لتعويق المسلمين فتورطوا به، وكسب المسلمون المعركة.

هذا وقد ذكر الطبري أن سعد بن أبي وقاص بعث زياد بن أبيه بالحسابات المالية إلى أمير المؤمنين، وكان زياد هو الذي يكتب للناس ويدونهم، فلما قدم على عمر كلمه فيما جاء له ووصف له فقال عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا

أقوى على هذا من غيرك! فقام في الناس بما أصابوا وبما صنعوا، وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد، فقال عمر: هذا الخطيب المصقع، فقال زياد: إن جندنا أطلقوا بالفعل لساننا<sup>(١)</sup>.

وقول زياد لعمر «والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك» لا يريد زياد هيبة الضعفاء المغلوبين على أمرهم من الجبارين الطغاة، ولكنها هيبة الأقوياء الأحرار من العظماء الذي وقرت محبتهم المشوبة بالإجلال والإكبار في نفوس المؤمنين.

وهو شاهد حي على ما يَمُنُّ الله به على أقوياء الإيمان من تسخير القلوب لهم وملئها بالهبة منهم، فكلما عظم الله تعالى في قلب المؤمن عظمت مكانته بين الناس، وإذا كان حاكماً فإنه لا يحتاج إلى كثير من البشر لحماية أمنه وأمن دولته، لأنه قد أمن جانب المؤمنين الذين يعتبرون طاعته طاعة لله تعالى وإكرامه إجلالا له جل وعلا كما جاء في قول رسول الله ﷺ «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشبهة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط» أخرجه الإمام أبو داود بإسناد حسن<sup>(٢)</sup>.

وهكذا انتهت معركة جلولاء بانتصار المسلمين، وقد غنموا فيها مغنم عظيمة أرسلوا بأخماسها إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقال حين رآه: والله لا يُجَنُّه سقف بيت حتى أقسمه فبات عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد، فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه جلابيبه -وهي الأنطاع- فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهه فبكى، فقال له عبدالرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا لموطن شكر! فقال عمر: والله ما ذاك يبكيك، والله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا أُلقيَ بأسهم بينهم<sup>(٣)</sup>.

وهكذا فزع عمر رضي الله عنه حينما رأى كثرة ذلك المال وخشي من مسئوليته فأقسم أن لا يستره سقف بيت حتى يقسمه، ثم بكى لما رأى تنوع مظاهر الدنيا في

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب / ٢٠.

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٤ - ٢٩.

(٣) تاريخ الطبري ٤ / ٣٠.

ذلك المال، وخشي على الأمة الإسلامية من حياة الترف وما ينتج عنها من تباعض وتحاسد، وما يعقب ذلك من شقاق وعداء .

وهذا لون من حساسية الإيمان المرهفة، حيث يدرك المؤمن الراسخ من نتائج الأمور المستقبلية ما لا يخطر على بال غيره، فيحمله الإشفاق على المؤمنين من أن يكدر صفو علاقاتهم الإيمانية شائبة من شوائب الدنيا التي تباعد بين القلوب . . يحمله ذلك على التأثر العميق الذي يصل إلى تحدر دموعه أمام الناس .

وإنه لعجيب أن تهطل الدموع من عيني رجل بلغ من القوة حدًا يخشاه أهل الأرض قاطبة، مسلمهم وكافرهم ومنافقهم، ولكنها الرحمة التي حلّى بها الله جل وعلا قلوب المؤمنين . . فأصبحوا كما وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿ [الفتح: ٢٩] .

وإن أغزر الأنهار مياهاً لتتحدر من شواهد الجبال الرواسي .

\*\*\*\*\*

## غزوة فارس من جهة البحرين

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أقر العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه على إمرة البحرين، وكان قد فتحها وقضى على المرتدين فيها في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ونهاه عمر عن غزو فارس من البحر، خوفاً من تعريض المسلمين للهلاك والحصار من الأعداء، ولكن العلاء خالف أمر عمر، فندب أهل البحرين لغزوة فارس من البحر وفرقهم أجناداً، على أحدها الجارود بن المعلّى، وعلى الآخر السوار بن همّام وعلى الآخر خُلَيْد بن المنذر بن ساوى، وخليد على جماعة الناس، فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا في «اصطخر»، وبإزائهم أهل فارس، وعلى أهل فارس «الهربذ» اجتمعوا عليه<sup>(١)</sup>، فحالوا بين المسلمين وسفنهم، فقام خليد في الناس فقال: أما بعد فإن الله إذا قضى أمراً جرت به المقادير حتى تصييه، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم، وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب، فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، فأجابوه إلى ذلك فصلوا الظهر، ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً في موضع من الأرض يُدعى «طاوس» فقتل أهل فارس مقتلة لم يقتلوا مثلها قبلها.

ثم خرج المسلمون يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، ثم وجدوا «شهرك» أحد قادة الفرس قد أخذ على المسلمين الطرق، فعسكروا وامتنعوا في مكان حصرهم.

ولما بلغ عمر الذي صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر أُلقي في رُوعه نحو من الذي كان، فاشتد غضبه على العلاء، وكتب إليه يعزله وتوعده، وقال: الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن قبلك، فخرج بمن معه نحو سعد.

(١) يعني على توليته القيادة.

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان: إن العلاء بن الحضرمي حمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك فخشيت عليهم إن لا ينصروا أن يغلبوا وينشَبوا، فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا.

فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر، فانتدب اثنا عشر ألفاً بقيادة أبي سبرة بن أبي رهم أحد بني مالك بن حسل بن عامر بن لُؤَيٍّ، ومعه عدد من الوجهاء والشجعان، فسار بالناس من طريق الساحل ولم يعرض له أحد، حتى التقوا بخليد وأصحابه عقب معركتهم مع الأعداء وقد أُخِذَتْ عليهم الطرق.

وكان أهل اصطخر قد استصرخوا عليهم أهل فارس كلهم لما حصروهم فضربوا إليهم من كل أنحاء فارس، فوافت أمداد فارس وقد وصل مدد المسلمين، فالتقوا مع عدوهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم من شأؤوا، ثم عادوا جميعاً إلى البصرة وكان عتبة أوصاهم بعدم الإقامة<sup>(١)</sup>.

ومن عرض هذا الخبر تبين أن الذي كان يخشاه عمر رضي الله عنه على المسلمين من الغزو من البحر قد حدث، حيث لم يصل المسلمون في فتوحهم من جهة البر إلى ذلك المكان، فانحصر الغزاة المسلمون في بلاد عدوهم وسدوا عليهم الطرق المؤدية إلى إخوانهم المسلمين في العراق، وبدؤوا يخططون للقضاء عليهم، فندبوا لهم من جيوش فارس ما لا قبل لهم به، لولا أن قيض الله تعالى لهم أمير المؤمنين عمر فأدرك بإحساسه المرهف ويقظته الدائمة - بعد إلهام الله إياه - ما سيؤول إليه أمر ذلك الجيش المحصور، فندب أهل البصرة لإنقاذه، فكانت رحمة الله بهم، حيث تم إنقاذهم وهزيمة عدوهم.

هذا وإننا حينما نتذكر أسباب النصر الحقيقية التي بينها الله سبحانه ورسوله ﷺ نجد أن سبباً من أهم تلك الأسباب قد تخلف حينما عزم العلاء على الغزو من

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٧٩-٨٢.

البحر، ذلكم هو طاعة القائد، وقد كان أمير المؤمنين عمر هو القائد الأعلى للجهاد آنذاك، وكان قد نهى ابن الحضرمي عن الغزو من البحر، فلم يلتزم بذلك وأقدم على ما أقدم عليه، فكانت النتيجة مصيبة كبرى على المسلمين لولا ما قدره الله تعالى من عملية الإنقاذ المذكورة.

هذا إضافة إلى ما نتج عن ذلك من عزل العلاء بن الحضرمي عن البحرين وتعرضه لغضب أمير المؤمنين ووعيده.

ولم يشفع للعلاء أنه هو الذي قضى على المرتدين في البحرين وأنه أميرها الذي استقرت به أمورها. ولا أنه صاحب الكرامات المشهورة، فهو الذي بدعائه والصالحين معه نبع الماء من الرمال، وهو الذي بدعائه والصالحين معه سار بجيشه على البحر بدون مراكب. كل ذلك لم يشفع له، لأن منهج عمر رضي الله عنه -وهو المنهج الإسلامي- أن المحسن يكافأ على إحسانه ويحاسب على إساءته، فإذا أحسن المسئول كان موضع التقدير والثناء، وإذا أخطأ فلا يجوز السكوت على خطئه مجاملة له، لأن ذلك قد يجرّئه على تكرار الخطأ، وقد يجرى غيره على ارتكاب مثل ذلك.

ومن موقف عمر هذا يتبين لنا أن الكرامات لم يكن لها كبير أثر في حياة الصحابة رضي الله عنهم، وأنه لم يكن يتم بموجبها تقسيم الرجال، وإنما كانوا يقيمون بأعمالهم الصالحة، وكانوا يفهمون أن تلك الكرامات إنما هي مدد من الله تعالى لأولياته عند احتياجهم لذلك، أو سبب من الأسباب الظاهرة لانتصار الإسلام، ولا شك أن من جرت على يديه يوصف بالصلاح، ولكن المعول عليه في تقدير كفاءته والثقة به وإسناد المهمات إليه هو ما يقدم من عمل صالح.

هذا وينبغي أن نشير إلى موقف من مواقف الزهد في الجاه، فقد جاء في الخبر المذكور أن عتبة بن غزوان لما أحرز الأهواز وأوطأ فارس استأذن أمير المؤمنين عمر في الحج فأذن له، فلما قضى حجه استعفاه، فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجع إلى عمله، فدعا الله ثم انصرف، فمات في بطن نخلة، فدفن، وبلغ عمر فمر به

زائراً لقبيره وقال: أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم، وأثنى عليه  
بفضله<sup>(١)</sup>.

هذا وإن الزهد في الجاه دليل على أن الزاهد فيه يفكر في هدف هو أعلى من  
المتعة بحصوله، ويخشى أن يؤثر طلبه على ذلك الهدف الأعلى، وإنما هذا الهدف  
الأعلى هو الرفعة في الحياة الآخرة، ولكن إذا كان الإنسان مطمئناً من كفاءته في  
العمل ومقدرته على الحفاظ على رضوان الله تعالى وإن غضب عليه الناس، فإنه  
بعمله في خدمة المسلمين يقدم لنفسه عملاً صالحاً يرفع ذكره ومنزلته يوم القيامة،  
فالمؤمن الحق هو الذي يجعل رضوان الله تعالى والدار الآخرة نصب عينيه دائماً،  
ثم يوازن بين بقائه في العمل أو طلب الإعفاء منه من منطلق الحصول على القدر  
الأعلى من هذا الهدف السامي.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٨٤.



## فتح رامهرمز

كان الفرس قد بدؤوا بالتجمع مرة أخرى بتحريض من ملكهم يزدجرد، فاجتمعوا في رامهرمز بقيادة الهرمزان.

وقد كان سعد بن أبي وقاص أخبر أمير المؤمنين بخبر اجتماعهم فأمره بأن يجهز إليهم جيشاً من أهل الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن، وأمر أبا موسى الأشعري بأن يجهز جيشاً من البصرة بقيادة سهل بن عدي، وإذا اجتمع الجيشان فعليهم جميعاً أبو سبرة بن أبي رهم، وكل من أتاه فهو مدد له.

وخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة، ثم سار نحو «الهرمزان» -والهرمزان يومئذ برامهرمز- ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ورجا أن يقتطعه، وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس، وقد أقبلوا نحوه، ونزلت أوائل أمدادهم بتستر، فالتقى النعمان والهرمزان بأربك، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الله عز وجل هزم الهرمزان للنعمان، وأخلى رامهرمز ولحق بتستر.

أما سهل بن عدي فإنه سار بأهل البصرة يريد رامهرمز، فأنتهم المعركة وهم بسوق الأهواز، وأتاهم الخبر بأن الهرمزان قد لحق بتستر، فمالوا إلى تستر، ومال إليها النعمان بأهل الكوفة<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٨٣-٨٤.

## فتح تَسْتَر

وصل جيش النعمان بن مقرن وجيش سهل بن عدي إلى تَسْتَر، واجتمعا تحت قيادة أبي سبْرَة بن أبي رُهْم، وقد استمد أبو سبْرَة أمير المؤمنين فأمدهم بأبي موسى الأشعري فأصبح قائد جيش البصرة، وظل أبو سبْرَة قائد الجيش كله، وقد بقي المسلمون في حصار تَسْتَر عدة شهور قابلوا فيها جيش الأعداء في ثمانين معركة .

وظهرت بطولة الأبطال بالمبارزة فاشتهر منهم عدد بقتل مائة مبارز سوى من قتلوا في أثناء المعارك، وقد ذُكر منهم: البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وأبو تميمة وهم من أهل البصرة، وفي الكوفيين مثل ذلك ذُكر منهم حبيب ابن قرّة وربّعي بن عامر، وعامر بن عبد الله الأسود .

هذا وإن إقدام الأعداء على الدفع بهذا العدد الكبير من المبارزين دليل واضح على استماتتهم في تلك المعارك واعتبارها مُقرّرةً لمصير دولتهم، ولكنهم قابلوا بحماسهم وتفانيهم جبالاً راسيات تتحطم أمامها جميع التيارات الجارفة .

وإنه لشرف عظيم ينصُرُ به هؤلاء الأبطال دينهم، ويتوجون به أمتهم، ويرهبون به أعداءهم، لقد حاول الأعداء بهذه السلسلة من المبارزات أن يستعيدوا شيئاً من معنويتهم المحطمة وكرامتهم التي مرّغت في التراب، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام قوة المسلمين العظيمة ومعنويتهم العالية .

وإن استمرار هؤلاء الأبطال في المبارزة مع انتصاراتهم المتكررة دليل على أنهم لم يكونوا يقاتلون ولا يغامرون من أجل الدنيا، فإن شرف الدنيا يكفي في نيله قليل من هذه التضحيات، ثم يُبقي طالب ذلك على نفسه ليطمئن بذلك الشرف، أما أن يستمر في المغامرات والتضحيات فإنه إنما يريد شرف الآخرة، لأنه كلما ازداد إقداماً وبذلاً تضاعف حصوله على ذلك الشرف .

فلما كان آخر لقاء بين المسلمين وأعدائهم، واشتد القتال نادى المسلمون البراء ابن مالك وقالوا: يا براء، أقسم على ربك ليهزمهم لنا، فقال: اللهم اهزمهم لنا، واستشهدني.

ونقف قليلا مع هذا البطل المغوار، المتوارى عن الأنظار، ونرجع قليلا إلى الوراء حيث علّق النبي ﷺ على صدره وساماً عظيماً من أوسمة الشرف وذلك بقوله «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك» أخرجه الإمام الترمذي وحسنه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

وقد كان البراء مستجاب الدعوة، وعرف الناس عنه ذلك بموجب هذا الحديث ولذلك طلبوا منه في هذه المعركة أن يدعو الله ليهزم عدوهم.

ومع هذا الثناء العظيم من رسول الله ﷺ على البراء فإنه لم يبطر ولم يتكبر، بل ظل الرجل المتواضع الذي يقتحم الأهوال، ويأتي بأعظم النتائج، من غير أن تكون له إمرة أو قيادة.

وإذا كان قد سأل الله تعالى النصر للمسلمين وهو عزُّ لهم وللإسلام فإنه لم يُغفل نفسه أن يسأل الله تعالى أعلى ما يتمناه المؤمن القوي الإيمان، حيث سأل الله تعالى الشهادة.

وقد استجاب الله تعالى دعاءه فهزم الأعداء، ورزقه الشهادة في ذلك اليوم.

وإنه لموطن كريم يتجلى فيه قرب الله جل وعلا من أوليائه المتقين حيث يجيب سؤالهم، ويحقق لهم أمانهم العليا، لأنه اصطفاهم فمنحهم القوة العالية التي بها خدموا دينه وأقاموا دولته في الأرض، حتى إذا أحبوا لقاءه من عليهم بأشرف نهاية ليصلوا إلى أسعد غاية.

جاء في الرواية المذكورة أن المسلمين هزموا أعداءهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم وأنه لما ضاق الأمر على الفرس واشتد عليهم الحصار اتصل اثنان منهم في جهتين مختلفتين بالمسلمين وأخبراهم بأن فتح المدينة يكون من مخرج الماء، وقد وصل الخبر إلى النعمان بن مقرن، فندب أصحابه إلى ذلك المكان،

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب، رقم ٣٨٥٤، باب ٥٥ (٦٩٢/٥).

ووصل الخبر إلى أبي موسى الأشعري فندب أصحابه كذلك، فالتقى الأبطال من أهل الكوفة والبصرة في ذلك المكان ليلاً، ودخلوا منه سباحة إلى المدينة، فكبروا وكبر من وقفوا في الخارج، وفتحوا الأبواب فأبادوا من حولها بعد شيء من المقاومة<sup>(١)</sup>.

لقد انتدب الأبطال لمغامرة الدخول من مخرج الماء وهم يتسابقون إلى الموت، فإما الظفر وإما الشهادة.

وإن دخول هؤلاء الأبطال وهم يسبحون في الماء يعرضهم لنار العدو، ولكنهم قوم ألفوا حياة الأهوال، وأصبحت الشهادة أمنية غالية لهم، فهم يتعرضون لمواطنها.

والظاهر أن الأعداء لم يتوقعوا من المسلمين الجرأة على اقتحام مدينتهم من ذلك المدخل الخطير، لأن الإقدام على ذلك أشبه بالانتحار، فكان دخول المسلمين منه مفاجأة مذهلة لهم أطارت صوابهم ومزقتهم شر ممزق.

ولقد كان في هذه المغامرة العظيمة نهاية بطلين من أعظم أبطال المسلمين، وهما البراء بن مالك ومجزأة بن ثور حيث رماهما الهرمزان، ولكن هذه النهاية جاءت بعد انتصار المسلمين، وبعد أن قَدَّمَ كل واحد منهما سجلاً حافلاً من التضحيات والنكاية بالأعداء، حيث قَتَلَ كل واحد منهما في تلك الأيام مائة من الأعداء مبارزة مع من قتلا أثناء الالتحام كما سبق.

وهكذا قدم أولئك الأبطال تضحيات ضخمة في تلك المعارك التي استمرت عدة شهور، وقدموا في غيرها الكثير، وأصبح المسلمون يتفسيؤون ظلالتها ويعيشون ثمراتها قرونًا عديدة، وهم ملوك الدنيا وقادة الأمم.

وإن هذا المُلْك العريض الضخم الذي لم يتكون إلا بالتضحيات والدماء، لا يجوز أبداً أن يفرط فيه الوارثون، فيضعفوا عن حمايته، ويستسلموا لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٨٤-٨٥.

أما هرمزان قائد الفرس فإنه لجأ إلى القلعة، وأطاف به المسلمون الذين دخلوا من مخرج الماء، فلما عاينوه وأقبلوا قبَّله قال لهم: ما شئتم، قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم، ومعني في جُعبتي مائة نُشابَه، ووالله ما تصلون إليَّ ما دام معي نشابة، وما يقع لي سهم، وما خير إساري إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح! قالوا: فتريد ماذا؟ قال: أن أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي ما شاء، قالوا: فلك ذلك، فرمى بقوسه وأمكنهم من نفسه.

### خبر أمير المؤمنين عمر مع الهرمزان:

وأوفد أبو سبرة بن أبي رُهم قائد المسلمين في تلك المعارك وفدًا إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وأرسل معهم الهرمزان، حتى إذا دخلوا المدينة هيَّؤوا الهرمزان في هيئته، فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب، ووضعوا على أرسه تاجًا يدعى الآذين مكلَّلًا بالياقوت وعليه حليته، كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه، فسألوا عنه فقيل لهم: جلس في المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة، فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فلم يروه، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقالوا لهم: ما تلددكم؟ [يعني لماذا تلتفتون يمينًا وشمالًا]؟ أتريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد، متوسدًا برنسه- وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فنام- فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدرة في يده معلقة.

فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذَا، وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه، وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال: أين حرسه وحُجَّابه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان، قال: فينبغي له أن يكون نبيًا، فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسًا ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم، فتأمله وتأمل ما عليه وقال: أعوذ بالله من النار، وأستعين الله، وقال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيكم ﷺ، ولا تُبطنكم الدنيا فإنها غرارة.

فقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه، فقال: لا، حتى لا يبقى عليه من حلته شيء فرمى عنه بكل شيء عليه إلا شيئاً يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال عمر: هيه يا هرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا، فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا، ثم قال عمر: ما عذرک وما حجتک في انتقاضک مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك، قال: لا تخف ذلك، واستسقى ماءً فأُتي به في قرح غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأُتي به في إناء يرضاه، فجعلت يده ترجف، وقال: إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن به، فقال له عمر: إني قاتلك، قال: قد آمنتني، فقال: كذبت، فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمنتته، قال: ويحك يا أنس أنا أو من قاتل مجزأة والبراء، والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبناك، قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت: لا بأس عليك حتى تشربه، وقال له من حوله مثل ذلك، فأقبل على الهرمزان وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا لمسلم، فأسلم، ففرض له على ألفين، وأنزله المدينة<sup>(١)</sup>.

وإننا لنخلص من هذا الخبر بمواقف عظيمة نلاحظ منها تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث نام وحده في المسجد بلا فراش وهو أمير المؤمنين وحاكم أعظم دولة في العالم آنذاك، وإن هذا دليل على منتهى التواضع والتجرد من حظ النفس.

إن تصور هذا المشهد ليوحي لنا بتفوق أخلاقي لا نظير له إلا في حياة الأنبياء عليهم السلام والصدّيقين، فما الذي حمله على كبح جماح نفسه نحو الترفع والعلو وهو يملك جميع مقومات ذلك؟

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٥-٨٨.

وما الذي حمّله على حياة الزهد حتى أصبح يقوى على النوم على الأرض وهو يملك استخدام الفرش والوثيرة والأثاث الفاخر؟

وما الذي حمّله على أن يرضى لنفسه أن ينام في المسجد وهو الذي يملك بناء أفخم القصور، واختيار أبعد الأماكن عن الجلبة والضجيج؟

إنه الإيمان الراسخ واليقين القوي بأن ما عند الله خير من الدنيا وما فيها، وأن حياة الزهد والتواضع هي التي تقرّب من رضوان الله تعالى، وهو الهدف الإسلامي الواضح الذي أثنى الله به جل وعلا على أولئك الصحب الكرام ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ثم ما الذي أعطاه الأمان والسلامة حتى ينام وحده في المسجد وهو الذي دوّخ أمم الأرض وانتزع ملكهم، ومرغ سمعتهم في التراب، وأذلّ المنافقين، وحملهم على منتهى التستر والاختفاء، وأخذ الحق من الظالمين، وأوطأهم على الاستقامة حتى أصبح لا يطمع قويّ في باطل، ولا يهاب محقّ من نيل حقه غير متعنت ولا مستضعف؟

إن الذي أعطاه الأمان والطمأنينة هو إيمانه الكامل بقضاء الله وقدره، ثم عدله الذي أصبح مضرب الأمثال على مدار التاريخ، وإن كون العدل في الحكم محطّ الأمان والسلامة أمر متفق عليه بين العقلاء، ولذلك قال الهرمزان لما رأى عمر نائمًا في المسجد: عدلت فأمنت فتمت، وذلك أن الحاكم العادل لا يخشى من أمته أن يخونوه، لأن جميع الذين ينشدون العدل من رعيته يصبحون حراسًا أوفياء له، وكذلك الذين تُستخلص حقوقهم على يديه فإنهم قد يُفنون أنفسهم من أجله، ويفدون به بكل ما يملكون، أما الذين يُلزمهم بالحق من أصحاب الهوى والجنوح نحو الظلم فإن الله سبحانه يُنزل في قلوبهم مهابة من يحملهم على الحق والرهبته منه، ثم لا يلبث من أراد الله له الهداية منهم حتى يحبه من قلبه ويتمنى أن يفديه بنفسه وماله.

ولذلك نص الهرمزان على العدل وحده كسبب في أمن عمر الذي حمّله على النوم في المسجد، لأن الهرمزان وأمثاله من الكفار لا يعرفون قضاء الله وقدره ولا يؤمنون به.

ومع أن الهرمزان قد نسب ذلك الأيمن القوي إلى العدل، فإنه عبر بما يفيد بأنه حتى مع العدل لا يصل الأفراد العاديون إلى مثل هذا الأيمن، ولذلك قال عن عمر: ينبغي له أن يكون نبيا، وذلك لما تواتر في عرف الأمم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون بحماية الله تعالى.

ومن المواقف العالية في هذا الخبر إعزاز الإسلام وإذلال الكفر وأهله، وذلك يتمثل في المشاهد التالية:

١- قول عمر حينما رأى الهرمزان وسأله عنه: أعوذ بالله من النار وأستعين بالله، فقد ذكر النار حالاً لما رأى الهرمزان وهو بلباس الجبارين، وعمر يعلم أن الله تعالى أعد النار لمثل هؤلاء. كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «تُحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطتهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها»<sup>(١)</sup>.

فأهل النار، كما جاء في هذا الحديث المتكبرون وهم الذين يتعالون بأنفسهم عن قبول الحق، ويحتقرون من هم دونهم في مظاهر الدنيا كما جاء في قول النبي ﷺ «الكبر بظن الحق وغمط الناس»<sup>(٢)</sup>، والمتجبرون هم الطغاة الذين تجاوزوا حدودهم فبغوا في الأرض وظلموا.

أما أهل الجنة فهم ضعفاء الناس وسقطتهم، يعني في نظر أهل الدنيا، لتواضعهم وزهدهم في مظاهر الدنيا التي يتنافس الناس عليها، فتسقط منزلتهم عند أهل الكبرياء والسرف ولكنهم عند الله تعالى وعند المتقين منزلتهم عالية.

وفي قول عمر «وأستعين بالله» طلب العون من الله تعالى على مواجهة هذا الموقف والصبر في مخاطبة المتصفين بصفات أهل النار، وهذا إدراك إيماني رفيع،

(١) صحيح البخاري، التفسير رقم ٤٨٥٠ (٨/٥٩٥)، صحيح مسلم، كتاب الجنة رقم ٢٨٤٦، (ص ٢١٨٦).

(٢) صحيح مسلم، الإيمان رقم ٩١ (٩٢).



فالإنسان مهما كان من العقل والرفعة ضعيف محدود الطاقة من غير عون من الله تعالى . فتذكر الاستعانة بالله جل وعلا في جميع الأمور -وخاصة المهم منها- يعتبر من الفقه في الدين والرسوخ في الإيمان .

وفي ذكر النار والاستعاذة بالله منها إذلال للكفر وأهله حيث يستقر في الأذهان أن الكفار مهما بلغوا من الرفعة في الدنيا فإن مصيرهم في الآخرة إلى النار، وما قيمة الدنيا المحدودة الفانية بكل ما فيها من رفعة وجبروت إذا كان مصير أهلها في دار الخلود إلى النار، كما أن في ذلك إعزازاً للإسلام وأهله حيث يستقر في الأذهان أن المسلم وإن كان فقيراً مستضعفاً في الدنيا فإن مصيره في دار الخلود إلى الجنة، وإنما العبرة في ميزان العقلاء بدار الخلود لا بدار الفناء .

٢- قول عمر: «الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه» الخ فهذا صريح في بيان عزة الإسلام وأهله وأن الإسلام يُعز الله به المسلمين، ويذل به الكفر وأهله .

فالإسلام يمنح المسلم قوة عظمى يتفوق بها على جميع البشر حتى لو كان في مقام الضعف المادي، ولكن ضعف إيمان بعض المسلمين يجعلهم يشعرون بالذلة أمام الكفار، فيكونون بواقعهم السيء المنافي للإسلام سبياً في اعتزاز الكفار وإيغالهم في الطغيان والجبروت .

وقد ركز عمر على الوصية بالتمسك بهذا الدين وعدم الاغترار بالدنيا، وذلك لأن الاغترار بالدنيا والابتعاد عن هدي الله تعالى هو الذي جر الأمم إلى حياة السرف والترف ثم الانهيار في الدنيا، والهلاك في الآخرة .

٣- قول عمر حينما طلب منه الوفد أن يكلم الهرمزان «لا، حتى لا يبقى عليه من حليته شيء» وهو بيان صريح في إذلال أبهة الدنيا ومظاهرها الكاذبة التي تكونت وتراكت بسبب الكفر والبعد عن الصراط المستقيم، ومادام الكفار يعتزون بهذه المظاهر... ويعتبرون أنها مثبتة لوجودهم وملازمة لعزهم فليرفضها المؤمنون وليُظهروا عزة الإسلام الذي كرمهم الله به، وليُلزموا الكفار برفض مظاهرهم التي يعتزون بها ما داموا يريدون المفاوضة والحوار مع المسلمين .

إن بقاء الكفار في مظاهر الأبهة من الملابس والمراكب والمسكن قد يجرُّ المسلمين إلى محاكاتهم في ذلك لئلا يكونوا أقل في أنظار الكفار وعامة المسلمين إلى منهم، وفي هذا انحراف خطير عن خط الاستقامة الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم بتوجيه النبي ﷺ وتربيته لهم، وإن بقاء المسلمين في مظهر أدنى من الكفار قد يضعف المسلمين أمامهم في حال الحوار والتفاوض على أمر من أمورهم المشتركة.

ولهذا وغيره من المعاني السامية رفض عمر رضي الله عنه أن يخاطب الهرمزان وهو في لباس الأبهة والكبرياء.

٤- قوله «أنا أؤمّن قاتل مجزأة والبراء!» يعني مجزأة بن ثور والبراء بن مالك، وهما بطلان من أبطال المسلمين مر ذكر شيء من مآثرهما فيما مضى، ويكفي لمعرفة أثرهما في نصر الإسلام والنكاية بالأعداء أن كل واحد منهما قتل في معارك تُستَر مائة من الأعداء مبارزة، وقد قتلهما الهرمزان لما غامرا بالدخول من مخرج الماء مع مجموعة من الأبطال، وكان الهرمزان ماهراً في الرماية فأصابهما.

وفي ذكر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لهما، إعزاز للمسلمين وتقدير لأهل التقدم والبلاء في الإسلام حيث اعتبر قتل الهرمزان لهما مانعاً من العفو عنه.

٥- قول عمر «خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم» فيه إظهار لعزة الإسلام، فالمسلم إذا خُدع من مسلم فإنخدع له ليس في ذلك خفض لمنزله ولا إهانة لكرامته كمسلم، لأنه قد انخدع لأخيه في الإسلام، وهو وإياه يشكّلان جزأين من جسم واحد، فكرامته الإسلامية لم تُجرح، لأن من خدعه مسلم وكلاهما يعتز بالإسلام.

فأما حينما تكون الخديعة من كافر أو منافق فإن المقصود الأول بذلك هو إهانة الإسلام، فلا يجوز لمسلم أن ينخدع لكافر حتى لو خالف ما وعده وما اتفق عليه معه، لأن الكافر سيعتز عليه بنصر مبدئه الكفري في مقابل هزيمة إسلامه، وإنه

لإلهام عظيم من الله تعالى لعمر، وفقه دقيق في فهم الولاء والبراء، والعلاقات بين المسلمين والكفار.

ولما رأى ذلك الهرمزان أسلم، فقبل عمر إسلامه وفرض له ألفين من العطاء، وهكذا يظهر الفرق العظيم بين الكفر والإسلام، فحينما كان كافراً كان محكوماً عليه بالقتل لسيئاته التي ارتكبها ضد المسلمين، ولما أسلم كان موضع التكريم، وفُرض له من العطاء ما يفرض للمسلمين.

### عمر يستشير الهرمزان:

أخرج الإمام الطبري بإسناده عن زياد بن حدير قال: حدثني أبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للهرمزان حين آمنه: لا بأس، انصح لي، قال: نعم، إن فارس اليوم رأس وجناحان، قال: وأين الرأس؟ قال: بنهاوند مع بندار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان قال: وأين الجناحان؟ فذكر مكانا نسيته، قال: فاقطع الجناحين يهن الرأس، فقال عمر: كذبت يا عدو الله، بل أعمد إلى الرأس فأقطعه، فإذا قطعه الله لم يعص عليَّ الجناحان<sup>(١)</sup>.

فهذا مثال مهم لليقظة والنباهة وأخذ الحيطة والحذر من أعداء الإسلام وإن أسلموا ظاهراً، فالإسلام يعصم دماءهم وأموالهم، ويكفل لهم سائر حقوقهم، ولكن لا يترتب على ذلك وضع الثقة بهم، حتى يتبين بجلاء ويقين صدق إيمانهم، لأن صدق الإيمان يقتضي البراءة التامة من الكفار، والولاء التام للمسلمين، ومن كانت هذه حاله لا ينتظر منه أن يغش المؤمنين، أما عند الشك في ذلك فإن أخذ الحيطة والحذر واجب حتى لا يؤتَى المسلمون على غرة من أعدائهم.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ١١٧/٤.

## فتح مدينة جندي سابور

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما فرغ أبو سبرة - يعني ابن أبي رهم - من السوس - يعني من فتح بلاد السوس - خرج في جنده حتى نزل على «جندي سابور» وزر بن عبدالله بن كليب محاصريهم، وأقاموا عليها يغادونهم ويرأونهم القتال، فمأزالوا مقيمين عليها حتى رمي إليهم بالأمان من المسلمين، وكان فتحها وفتح نهاوند في مقدار شهرين، فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تفتح، ثم خرج السرح، وخرجت الأسواق، وانبت أهلها، فأرسل المسلمون أن مالكم؟ قالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزء على أن تمنعونا، فقالوا: ما فعلنا، فقالوا: ما كذبنا فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد يدعى مكثفاً كان أصله منها، هو الذي كتب لهم، فقالوا: إنما هو عبد، فقالوا: لا نعرف حرركم من عبدكم، قد جاء زمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل فإن شئتم فاغدروا، فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إليهم: إن الله تعالى عظم الوفاء، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا، ما دمتم في شك أجزوهم وفوا لهم، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم<sup>(١)</sup>.

أقول: وإن هذا مثل عظيم من أمثلة تحري المسلمين ودقتهم في إبراء الذمة، واجتناب الظلم، والظهور أمام العالم في صفحة بيضاء ليس في ثناياها ما يسودها ويشوه بهاءها.

ولقد كان المسلمون مترددين بين أن يمشوا ذلك الأمان الذي قام به رجل واحد منهم كان أصله من أهل تلك البلدة، وقد صنع شيئاً أراد به نفع قومه، وبين أن يعتبروا أن ذلك الأمان لم يكن عن مشورة منهم ولا قرار من أميرهم فليلغوه، ولكن قطع ذلك التردد أمر عمر رضي الله عنه القاطع بإمضاء ذلك الأمان، وهذا يدل على شدة ورعه ودقة نظره وتقديره لعواقب الأمور، وخوفه الشديد من أن

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٩٣ - ٩٤.

يقع المسلمون في شيء من ظلم أعدائهم فيكون سبباً في إدالتهم عليهم عقوبة لهم على الظلم .

وهذا وأمثاله يبين لنا تفوق المسلمين الشاسع في مجال مكارم الأخلاق على جميع أعدائهم من الكفار، ولا شك أن هذا التفوق الأخلاقي كان من الدوافع الأساسية لدخول الكفار في الإسلام بتلك الكثافة والسرعة المذهلة .

ولا ننسى التنويه بتثبيت المسلمين وأناتهم حيث لم يغتنموا فرصة فتح الأبواب في هجوم مباغت على أعدائهم لأنهم يدرؤون الناس عن القتال ما أمكنهم ذلك، فهم هداة للبشرية، وليسوا تواقين لسفك الدماء، وإنما يلجؤون إلى ذلك اضطراراً، حينما يتحكم الطغاة في مصائر الشعوب ويحولون بينهم وبين إِبصار نور الهداية، فلا بد والحالة هذه من إزاحة تلك العراقيل التي تحجب الرؤية وتهمن على عقول الناس المغلوبين على أمرهم ليبصروا الأمور على حقيقتها حينما يكونون أحراراً في تفكيرهم .

\*\*\*\*\*

## النعمان ومدينة «كسكر»

أخرج الإمام الطبري رحمه الله من حديث أبي وائل رحمه الله قال: كان النعمان بن مقرن رضي الله عنه على «كسكر» -يعني واليا عليها- فكتب إلى عمر رضي الله عنه: مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب وإلى جنبه مومسة تلون له وتعطر، فأشُدك الله لما عزلتني عن كسكر، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين، قال: فكتب إليه عمر: أن اتت الناس بنهاوند، فأنت عليهم<sup>(١)</sup>.

وهذا همة عالية وتطلع كبير، فالنعمان لا يريد إدارة منصب يكتب منه الجاه في الدنيا، وهو وإن كان سيحصل على الأجر الأخروي بمشيئة الله تعالى، لأنه ممن يريدون بعملهم وجهه جل وعلا، إلا أنه يريد عملاً أكثر مشقة وأعظم تضحية، وبالتالي يكون أكثر أجراً في الآخرة.

إن الآخرة هي ميزان أعمالهم، فلا يستريحون إلا في العمل الذي يضمن لهم أكبر قدر من رضوان الله تعالى، وثوابه العظيم في الآخرة، ولذلك نجد أنهم يتسابقون إلى الجهاد، لما فيه من الأجر العظيم، ولما ينطوي عليه من احتمال الحصول على الشهادة التي هي غاية آماني المؤمنين الصادقين.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٢٦ .

## مشكلة وحلها

### (شكوى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص)

اجتمع نفر من أهل الكوفة بزعامة الجراح بن سنان الأسدي فشكوا أميرهم سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين عمر، وذلك في حال اجتماع المجوس في نهاوند لغزو المسلمين، فلم يشغلهم ما دهم المسلمين من ذلك.

ولقد كان سعد عادلاً رحيمًا بالرعية قويًا حازمًا على أهل الباطل والشقاق، عطوفًا على أهل الحق والطاعة، ومع ذلك شغب عليه هؤلاء القوم، ممن لا يطبقون حكم الحق ويريدون أن يحققوا شيئًا من أهوائهم.

وقد وقتوا لشكواهم وقتًا رأوا أنه أذعَى لسماع أمير المؤمنين منهم حيث كان المسلمون مقبلين على معركة مصيرية تستدعي اتفاق كلمة المسلمين وتضافر جهودهم في مواجهتها، وحيث كانوا يعلمون اهتمام عمر الشديد باجتماع كلمة المسلمين دائمًا، وخاصةً في مثل تلك الظروف، فرجوا أن يفوزوا ببغيتهم.

وقد استجاب أمير المؤمنين لطلبهم في التحقيق في أمر شكواهم مع علمه بأنهم أهل هوى وشر، ولم يكتفهم اعتقاده فيهم، بل صرح لهم بذلك، وبين لهم أن اعتقاده بظلمهم لواليتهم وتزويرهم الحقائق لا يمنعه من التحقيق في أمرهم، واستدل على سوء مقصدهم بتوقيتهم السيء حيث قال لهم: «إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعداد، وإيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم».

فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم، والأعاجم في الاجتماع، - وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار من شكى زمان عمر - فقدم محمد على سعد ليطوف به في أهل الكوفة، والبعوث تُضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند، فطوف به على مساجد أهل الكوفة، لا يتعرض للمسألة عنه في السر، وليست المسألة في السر من شأنهم إذ ذاك.

وفي هذا بيان لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في التحقيق في قضايا الخلاف التي تجرى بين المسؤولين ومن تحت ولايتهم، فالتحقيق يتم في العلن، وذلك بحضور المسئول والذين هو مسئول عنهم.

وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا: لا نعلم إلا خيرا ولا نشتهي به بدلا، ولا نقول فيه ولا نعين عليه، إلا من مالا الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون لا يقولون سوءا، ولا يسوغ لهم، ويتعمدون ترك الثناء، حتى انتهوا إلى بني عبس. فقال محمد: أنشد بالله رجلا يعلم حقا إلا قال، قال أسامة بن قتادة: اللهم إن نشدتنا فإنه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية، فقال سعد: اللهم إن كان قالها كذبا ورثاء وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرضه لمضلات الفتن، فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك.

قال: ثم أقبل -يعني سعد- على الدعاء على النفس، فقال: اللهم إن كانوا خرجوا أشرا وبطرا وكذبا فاجهد بلاءهم، فجهد بلاؤهم، فقطع الجراح بالسيوف يوم ثاور الحسن بن علي ليغتاله بساباط، وشدخ قبيصة بالحجارة، وقتل أربد بالوجء -يعني الضرب بنعال السيوف -يعني بأعقابها-.

هذا وإن في هذا الخبر نموذجا من معية الله تعالى لأوليائه المتقين حيث استجاب الله تعالى دعوة سعد على من ظلموه فأصيبوا جميعا بما دعا عليهم به.

وإن في استجابة الله تعالى دعاء سعد وأمثاله لونا من العناية الإلهية بأوليائه الله المتقين، فكم خاف المبطلون من هذا السلاح الخفي الذي لا يملكون بكل وسائلهم المادية مقاومته ولا الحد منه.

وكون هؤلاء الذين دعا عليهم سعد ختم لهم بالخاتمة السيئة دليل على تمكن الهوى والشر من نفوسهم حتى أدى بهم ذلك إلى المصير السيء.

ودافع عن نفسه سعد فقال: إني لأول رجل أهرق دما من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه، وما جمعهما لأحد قبلي -يعني حينما قال له يوم



أحد: «إرم فداك أبي وأمي» - ولقد رأيتني حُمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أنني لا أحسن أن أصلي وأن الصيد يلهيني .

قال: وخرج محمد به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر، فقال: يا سعد ويحك كيف تصلي؟ قال: أطيل الأوَّلَيْن وأحذف الأخيرين، فقال: هكذا الظن بك .

ثم قال: لولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا، ثم قال: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟ فقال: عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره واستعمله<sup>(١)</sup> .

وقول عمر رضي الله عنه «لولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا» يعني قد اتضح أمرهم، وأنهم ظالمون جاهلون، وظهرت براءة سعد مما نسبوه إليه، ولكن الاحتياط لأمر الأمة يقتضي درء الفتن وإماتتها وهي في مهدها قبل أن تستفحل فتسبب الشقاق والفرقة وربما القتال .

وإذا كان من أسباب القضاء على الفتنة تغيير المسئول فليتم ذلك وإن كان المسئول المدعى عليه بريئاً مما نسب إليه، فإن ذلك لا يضره بشيء وقد برئت ساحته مما نسب إليه من التهمة، وقد كانوا يفهمون الولاية مغرمًا لا مغنمًا، وتكليفًا يرجون به ثواب الله تعالى، فالولاية على أمر من أمور المسلمين نوع من الأعمال الصالحة لمن اتقى الله تعالى وأراد رضوانه والدار الآخرة، فإذا تحول هذا العمل إلى مصدر للفتنة فإن الحكمة تقتضي عدم الاستمرار فيه، كما هو الحال في هذه الواقعة، ولكل حادث حديث، وهذا هو ما أقدم عليه عمر حينما أعفى سعدًا من العمل، وكلف نائبه الذي هو موضع ثقة سعد، حيث أدرك عمر أن الذين تقدموا لشكاية سعد أصحاب هوى، وليسوا طلاب حق، ومن كانوا كذلك فإنهم سيستمرون في المشاغبة، وسيؤلَّبون معهم من هم على شاكلتهم، فيحدثوا فرقة في الجماعة، وذلك يؤثر على وجود المسلمين وتماسكهم سواء في السلم أو الحرب .

أما إذا كانوا مجتهدين في طلب الحق فمن السهل إقناعهم بما يتفق مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ حيث إنهما المرجع عند التنازع، ثم لن تحصل بعد ذلك فتنة ببقاء المسئول المدعى عليه .

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٢٠ - ١٢٢ .

## معركة نهاوند (فتح الفتوح)

### معاهدة بين الفرس:

ذكر الإمام الطبري خبر اجتماع الفرس بنهاوند وذلك فيما ما أخرجه عن شيوخه أنهم قالوا: وكان من حديثهم أنهم نفرُوا لكتاب يزيدُرد الملك - وقد ذكر في رواية سابقة أن الملك كاتب أهل فارس يحرضهم على المسلمين - فتوافوا إلى نهاوند، وذكروا أنه اجتمع بها خمسون ومائة ألف مقاتل، ثم ذكر ابن جرير رواية أبي طعمة الثقفي - وكان قد أدرك ذلك - قال: ثم إنهم قالوا: إن محمداً الذي جاء العرب بالدين لم يَغرض غرضنا، ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يَغرض غرض فارس إلا في غارة تعرض لهم فيها، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد، ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض، حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز، وأوطأها، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم، وهو آتيكم إن لم تأتوه، فقد أخرج بيت مملكتكم، واقتحم بلاد ملككم، وليس بمُنْتَه حتى تُخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقلعوا هذين المصريين - يعني البصرة والكوفة - ثم تُشغله في بلاده وقراره، قال: وتعاهدوا وتعاهدوا، وكتبوا بينهم على ذلك كتاباً وتمالؤوا عليه.

وبلغ الخبر سعدا وقد استخلف عبد الله بن عبد الله بن عتبان، ولما شخص لقي عمر بالخبر مشافهة، وقد كان كتب إلى عمر بذلك، وقال: إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح - يعني لقتال الأعداء - قبل أن يبادروهم الشدة، وقد كان عمر منعهم من الانسياح في الجبل.

وكتب إليه أيضاً عبد الله - يعني ابن عتبان - وغيره بأنه قد تجمّع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلكم.

وكان الرسول بذلك قريب بن ظفر العبدى.

قال فقال - يعني عمر: ما اسمك؟ قال: قريب، قال: ابن من؟ قال: ابن ظفر، فتفاءل إلى ذلك وقال: ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله.

## مشورة أمير المؤمنين عمر لأهل الرأي

ونُودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس ووافاه سعد، ففتاء إلى سعد بن مالك -يعني قدم سعد بن أبي وقاص المدينة فتفاءل عمر بقدمه- وقام -يعني عمر- على المنبر خطيباً، فأخبر الناس الخبر واستشارهم.

وقال: هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تُكثروا ولا تطيلوا فتُفشخ بكم الأمور -يعني تتسع- ويلتوي عليكم الرأي، أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً واسطاً بين هذين المصرين فأستفزهم، ثم أكون رداءً حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم في بلادهم، وليتنازعوا ملكهم.

فقام عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فتكلموا كلاماً، فقالوا: لا نرى ذلك -يعني سير أمير المؤمنين بنفسه- ولكن لا يغيين عنهم رأيك وأثرك، وقالوا: بإزائك وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم، ومن قد فض جموعهم وقتل ملوكهم، وبأشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك، فأذن لهم وأنذب إليهم وادع لهم، وكان الذي ينتقد له الرأي إذا عرض عليه العباس رضي الله عنه -يعني يعرض عليه الآراء ويأخذ رأيه فيها-.

قال: فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأي، وفهموا ما كُتب به إليك، وإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، هو دينه الذي أظهر وجنده الذي أعز، وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعد مع الله والله منجز وعده وناصر جنده، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز، يجمعه ويمسكه، فإن انحل تفرق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، ومن لم يحفل بمن هو أجمع وأحد وأجد من هؤلاء، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم.

فُسرَّ عمرٌ بحسن رأيهم، وأعجبه ذلك منهم.

وقام سعد فقال: يا أمير المؤمنين خفِّضْ عليك فإنهم إنما اجتمعوا لنقمة - يعني من الله عليهم - (١).

وفي هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمر المسلمين حتى بلغ به كثرة التفكير فيهم والخوف عليهم حدًّا حمله على التفكير في السير نحو العراق ليكون قريباً منهم، وهذا دليل على مقدار ما يعاني من الهم من أجلهم، ولكنه كان مطبّقاً تام التطبيق لأمر الإسلام في السلم والحرب، فلم يكن يبت في شيء مهم إلا بعد جمع أهل الحل والعقد والتشاور معهم.

وهذا مثل مهم لقيام الشورى بين الخليفة وأهل الحل والعقد، فلقد كان رأي الخليفة أن يخرج بنفسه فيكون بين البصرة والكوفة فيستحث الناس، ويمد الجيش بالجنود، وبعد مداولة الرأي عدل عمر عن رأيه إلى الرأي الذي عرضه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام، وغيرهم من أهل الرأي، وأيده على بن أبي طالب وشرحه بجلاء، مما جعل أمير المؤمنين يطمئن لهذا الرأي رضي الله عنهم أجمعين.

وهكذا تظهر قيمة الشورى، حيث تتفتح أذهان أهل الرأي بعد توفيق الله تعالى عن الآراء السديدة التي تستريح لها نفوس المؤمنين الصادقين.

هذا وفي كلام علي بن أبي طالب دليل على رسوخ اليقين في قلوب الصحابة رضي الله عنهم بأن الله تعالى منجز وعده بالتمكين لهذا الدين في الأرض، وهذه العقيدة تُعطي النفوس طمأنينة عالية وإقداماً عظيماً في قتال الأعداء، وإنما الذي يخالج النفوس هو الخوف من وقوع المجاهدين بشيء من معصية الله تعالى، فتتزع منهم هذه الكرامة العظيمة، وتكتب على يد غيرهم، وهذا هو الذي كان يخشاه عمر رضي الله عنه كثيراً ويذكر به جنده وقادته.

**كتاب من أمير المؤمنين إلى النعمان:**

هذا وقد بعث أمير المؤمنين كتاباً جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٢-١٢٤.

لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرّاً فتؤذيتهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفّرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار والسلام عليك<sup>(١)</sup>.

ومع هذه الوصايا الغالية لا بد أن نقف وقفات سريعة لنستشف مغزاها وعمق أثرها في تقويم السلوك ونجاح العمل.

ف نجد عمر رضي الله عنه يقول لقائده «ولا توطئهم وعرّاً فتؤذيتهم» يعني فليس المهم في مسير الجيوش أن تصل إلى أهدافها في وقت قياسي وإن أضر بأفرادها، إنما المهم أن تصل وهي محتفظة بقوتها وحيويتها، وهذا يرجع إلى سياسة القائد وحزمه في اغتنام الفرص والجدّ في الأمر من غير إيذاء ولا إنهاك.

ونجده يقول «ولا تمنعهم حقهم فتكفّرهم» وذلك أن من أقوى العلاقات بين القائد والجنود أن يشعروا بأن قائدهم حريص على مصلحتهم، وأنه يسير بهم بالعدل والرحمة، وأنه حريص على أداء الحقوق إلى أصحابها في وقتها المحدد، مما يجعلهم يشكرون فيضاعفون من جهدهم في العمل، أما منعهم حقوقهم فإنه قد يؤدي إلى كفر النعمة، فينسيهم اهتمامهم بحقوقهم الممنوع ما كان من معروف سابق، وذلك يؤدي إلى اختلال العمل.

إن من أهم عوامل النجاح في العمل أن يكون فكر العاملين منصرفاً إلى محاولة النجاح والتفوق في عملهم، فإذا تأخر أداء حقوقهم المالية أو منعوا منها فإن جزءاً من فكرهم ينصرف إلى هذا الهمّ الحاضر، وذلك يؤدي إلى الفشل في أداء العمل، واهتزاز الثقة والولاء بينهم وبين المسئول عنهم، الذي كان سبباً في منع حقوقهم أو تأخيرها، وذلك من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من باب الاحتياط للعمل والرفقة بالمسلمين، وإلا فمن المعلوم أن الدافع الأساسي للمجاهدين هو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة.

(١) تاريخ الطبري ٤/١١٤-١١٥ من روايته عن محمد بن إسحاق.

ونجد أمير المؤمنين يقول في وصيته «ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلا من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار» والغيضة هي الشجر الملتف، وإنما نهاهم عمر عن نزول الغياض لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو.

فهي وصية بأخذ الحيلة والحذر للمسلمين حتى لا يؤخذوا على غرة، وماداموا في وسط بلاد الكفار فهم مُعرَّضون لغدر الأعداء في كل لحظة، فمن الاحتراس والحفاظ على أرواح المسلمين أن يبعدهم القائد عن مواطن الخطر في حال أمنهم وراحتهم.

إن تسيير الجيوش الإسلامية وتعريضها للأهوال ليس من أجل جباية الأموال، ولا من أجل توسيع الملك، فإن بقاء المسلمين في راحة وطمأنينة أحب إلى عمر من أموال الدنيا، وإنما بُعثتْ لكم الجيوش لتحقيق الهدف الأعلى من وجود الإنسان في الأرض وهو أن يُعبد الله وحده، وأن لا ترفع فوق الأرض غير راية التوحيد، وأن لا تقوم في الأرض غير دولة الإسلام، ومن أجل هذا الهدف السامي تهون النفوس وتعلو الهمم.

فأما حين تذهب النفوس بسبب تفريط من القائد دون أن تحقق شيئاً من أهدافها فهو خسارة في ميزان الدول والمبادئ وإن كان بالنسبة لأفراد الجيش الإسلامي لا يعتبر كذلك لأنهم شهداء.

هذا وقد كتب عمر رضي الله عنه إلى والي الكوفة عبد الله بن عتبان مع ربعي ابن عامر: أن استنفز من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا<sup>(١)</sup>، فإني قد كتبت إليه بالتوجه من «الأهواز» إلى «ماه» فليوافوه بها وليسر بهم إلى «نهاوند» وقد أمرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن، وقد كتبت إلى النعمان: إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نُعيم بن مقرن<sup>(٢)</sup>.

هذا ومن خطة الحرب التي وضعها عمر ونفذها النعمان وقادته رضي الله عنهم وَوَضَعَ حَامِيَاتٍ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنَافِذِ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى نِهَاوَنْدٍ لِمَنْعِ أَمْدَادِ

(١) يعني الثلثين كما قال علي رضي الله عنه واستقر عليه أمر الشورى.

(٢) تاريخ الطبري ١٢٧/٤ من روايته عن سيف بن عمر.

الفرس، ولحماية جيش المسلمين إذا سار إلى نهاوند، وقد نجحت الخطة حيث وقف إمداد الفرس بالجيوش وسار النعمان بجيشه وهو آمن من خلفه.

### مغامرة من طليحة الأسدي:

وذكر الطبري في روايته عن سيف بن عمر أن النعمان قد استقر بجيشه في مكان يقال له «الطَّرَر» لتجتمع إليه الجيوش الإسلامية، وأنه حينما عزم على المسير بعث طليحةً استكشافية مكونة من طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وعمرو بن أبي سلمى، ليخبروا له الطريق إلى نهاوند، فلما ساروا يوماً وليلة رجع عمرو بن أبي سلمى فقالوا: ما رجعتك؟ قال: كنت في أرض العجم، وقُتلتُ أرض جاهلها، وقتل أرضاً عالمها، ومضى طليحة وعمرو بن معد يكرب حتى إذا كان من آخر الليل رجع عمرو فقالوا: ما رجعتك؟ قال: سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً، وخفت أن يُؤخذ علينا الطريق، ونفذ طليحة ولم يحفل بهما، ومضى حتى انتهى إلى نهاوند، ولما استبطأه الناس ظن بعضهم أنه قد ارتد مرة ثانية، فلما أقبل عليهم كبروا، ولما علم بظنهم أنكروا عليهم ذلك ثم دخل على النعمان فأخبره أنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد<sup>(١)</sup>.

وهذا موقف عظيم من مواقف الجسارة والإقدام يُذكر لطلليحة، إضافة إلى موقف مماثل قام به في القادسية، ولئن كان وقع في أيام الردة في الفتنة وارتكب ذنباً عظيماً، فإنه قد تاب إلى الله تعالى، وقدم لأُمَّته الإسلامية ولدينه تضحيات لم يقم بها أحد مثله فيما يتعلق بمهمة استكشاف أرض العدو.

ولئن كان عمر رضي الله عنه قد أوصى قادة المسلمين بعدم الاعتماد عليه وعلى أمثاله من قادة المرتدين في مهمات قيادية، فإن ذلك لا يعني اتهامهم في دينهم ولكنه من باب الاحتياط للمسلمين، وهذه سنة يجب أن يتنبه لها المسئولون عن الأمة، بأن لا يسندوا المناصب القيادية لمن سبق لهم أن شاركوا في مذاهب هدامة يُقصد بها القضاء على وجود الإسلام، وإن ظهرت توبة هؤلاء وحسنت أعمالهم.

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٧-١٢٨.

## وصول المسلمين إلى نهاوند:

وذكر الطبري في سياق روايته أنه بعد أن تأكد النعمان من سلامة الطريق إلى نهاوند نادى بالرحيل وأمر المسلمين بالتعبية وسار نحو نهاوند، فوفى جيش الفرس قرب نهاوند وهم على تعبيتهم وأميرهم الفيرزان، فلما رآهم النعمان كبر، وكبر الناس معه فتزلزلت الأعاجم<sup>(١)</sup>.

ف «الله أكبر» سلاح عظيم من أسلحة الرعب التي يزلزل الله بها قلوب الكفار، فهي سلاح معنوي يسبق السلاح المادي ويمهد له بخلع قلوب الأعداء وإرهابهم.

وهو سلاح ماضي المفعول إذا صدر من قلوب مؤمنة تعتقد بما تقول، وتستحضر عظمة الله سبحانه الذي بيده كل شيء، فإذا كان الكفار قد اعتزوا بكثرة عددهم وقوة عددهم فالله جل وعلا أكبر منهم ومن كل مخلوق.

إن استصحاب الشعور بعظمة الله تعالى وأن كل ما في هذا الكون في قبضته جل وعلا يجعل المؤمنين المتقين يحتقرون جمع الأعداء وقوتهم مهما بلغوا في ذلك، وهذا الشعور يجعلهم يقدمون على قتالهم بقلوب مليئة بالإيمان ونفوس مفعمة بالثقة واليقين بنصر الله تعالى.

أما الكفار فإنهم لتجاربتهم السابقة مع المسلمين أصبحوا يفرعون من تكبير المؤمنين لما كان يعقب ذلك من هجوم صاعق لا يقبل التراجع، وإقدام على الموت لا يقبل التردد، فأصبح ذلك الهجوم المرعب مقترناً برفع شعار التكبير، فصار له مفعول الهجوم الساحق، ولذلك تزلزل الفرس لما سمعوا التكبير من المسلمين مع أن المعركة لم تبدأ بعد.

قال: فأمر النعمان وهو واقف بحط الأثقال وبضرب الفسقاط، فضرِب وهو واقف، فابتدره أشراف أهل الكوفة وأعيانهم، فسبق إليه يومئذ عدة من أشراف أهل الكوفة، وقد ذكر الإمام الطبري في روايته أسماء أربعة عشر منهم<sup>(٢)</sup>.

وهذا الخبر قد يبدو صغيراً لا يستحق أن ينوه به، ولكنه في الحقيقة يكشف عن جانب من طبيعة ذلك المجتمع العالي، فالجيوش الإسلامية آنذاك ليس فيها مقاتلون

(١) تاريخ الطبري ١٢٨-١٢٩/٤.

(٢) تاريخ الطبري ١٢٩/٤.



وخدم أتباع، كما هو الحال في جيوش الكفار، وقد سبق لنا مثال لذلك في القادسية حيث كان مع جيش الفرس مثلهم من الأتباع والخدم، أما جيش المسلمين فإنهم كلهم مقاتلون، ويتنافسون في أعمال الخدمة لأنهم يعتبرونها أعمالاً صالحة يثابون عليها عند الله تعالى.

فهؤلاء أشرف أهل الكوفة يتنافسون في بناء فسطاط القيادة وهذا كما يدل على مستوى عالٍ من خلق التواضع، وعلى رغبة في فعل الخير والعمل الصالح، فإنه يدل على علو مكانة قائدهم في نفوسهم، فله درهم، ما أعظمهم قادة وما أعظمهم جنوداً!

### مناوشات ومشورة بين النعمان وأهل الرأي:

قال: وأنشب النعمان بعدما حط الأثقال القتال، فاقتلوا يوم الأربعاء والخميس وذلك لسبع سنين من إمارة عمر في سنة تسع عشرة وأنهم انجزوا في خنادقهم يوم الجمعة، وحصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله، والأعاجم بالخيار لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج، فاشتد ذلك على المسلمين، وخافوا أن يطول أمرهم وسرهم أن يناجزهم عدوهم، حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع تجمع أهل الرأي من المسلمين، فتكلموا وقالوا: نراهم علينا بالخيار، وأتوا النعمان في ذلك فأخبروه فوافقوه وهو يروى في الذي رووا فيه، فقال: على رسلكم لا تبرحوا، وبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي في الحروب، فتوافقوا إليه فتكلم النعمان فقال: قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاؤوا، ولا يقدر المسلمون على إنغاضهم -يعني تحريكهم- وانبعاثهم قبل مشيئتهم، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من الذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج فما الرأي الذي به نُحْمَشُهُمْ ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل؟ فتكلم عمر بن ثبي -وكان أكبر الناس يومئذ سناً، وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان- فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة، فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم، وقاتل من أتاك منهم، فردوا عليه جميعاً رأيه، وقالوا: إنا على يقين من إنجاز ربنا موعده لنا.

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم، فردوا عليه جميعاً رأيه وقالوا: إنما تناطح بنا الجدران، والجدران أعوان لهم علينا.

وتكلم طليحة فقال: قد قالوا ولم يصيبا ما أرادا، وأما أنا فأرى أن تبعث خيلاً مؤدبة، فيحذقوا بهم، ثم يرموا لينشبوا القتال ويحمشوهم، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطرادا، فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم، وإنما إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب.

هذا وقد أمر النعمان بتنفيذ هذه الخطة من تلك الساعة مما يدل على أنها حازت على استحسانهم وموافقتهم كما سيأتي<sup>(١)</sup>.

وهذه خطة من النعمان يُحمد عليها أن جمع أهل الرأي والنجدة واستشارهم في الخروج من تلك المشكلة، وهذه الطريقة التي تقوم على الالتزام بمبدأ الشورى من أعظم الأسباب التي أدت إلى نجاح المسلمين في حروبهم وإداراتهم.

وقد أدلى بعضهم برأيه، وتم نقده ورده، إلى أن استقر الرأي على ما طرحه طليحة بن خويلد الأسدي، وكان موقفاً فيما رأى.

وسيتبين لنا من أحداث المعركة كيف أن هذا الرأي كان مفتاح الالتحام الحاسم مع الأعداء، وهو رأي سيظل حبيساً في فكر صاحبه لو أن القائد استبد برأيه، أو قصر المشورة على أناس محدودين.

ومن خلال دراسة هذه المشورة يتبين لنا أنهم كانوا يُخطئون الرأي المجانب للصواب، ولا يرون في ذلك غضاظة، ولا تحملهم المجاملة والمدارة على السكوت عن الخطأ أو البحث عن الحلول الوسط، بل كانوا صرحاء في نقد الآراء، ولم يكن من انتقد رأيه وردَّ يحمل على من انتقده، ولا يدفعه الغيظ منه على أن يخطئ رأيه وإن كان صواباً، ذلك أن رائدهم جميعاً هو طلب مرضاة الله تعالى ونصرة الإسلام، فهم يفرحون بالعثور على الرأي الصائب وإن كان ممن انتقدهم وخطأ رأيهم، وبهذا السلوك القويم نجحوا في حياتهم السلمية والحربية.

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٩ - ١٣٠.

قال: فأمر النعمان القعقاع بن عمرو - وكان على المجردة<sup>(١)</sup> ففعل، وأنشبت القتال بعد احتجاز العجم، فأغضهم - يعني حركهم للقتال - فلما خرجوا نكص، ثم نكص ثم نكص، واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا: هي هي، فخرجوا فلم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب، وجعلوا يركبونهم حتى أرز القعقاع إلى الناس، وانقطع القوم عن حصنهم بعض الانقطاع والنعمان بن مقرن والمسلمون على تعبيتهم في يوم الجمعة في صدر النهار وقد عهد النعمان إلى الناس عهده، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم، ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمي، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات، وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض، ثم قالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس فما تنتظر بهم؟ ائذن لنا في قتالهم، فقال لهم النعمان: رويدا رويدا، قالوا ذلك مرارا فأجابهم بمثل ذلك مرارا، رويدا رويدا، فقال المغيرة: لو أن هذا الأمر إليّ علمت ما أصنع، فقال: رويدا ترى أمرك، وقد كنت تلي الأمر فتحسن فلا يخذلنا الله ولا إياك، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحث، وجعل النعمان ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقي فيها العدو، وذلك عند الزوال وتفيؤ الأفياء ومهب الرياح، وجاء في رواية حدير: إنه والله ما منعتني أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاة وتهب الأرواح ويطيب القتال<sup>(٢)</sup>.

وعملُ النعمان هذا يعتبر مثلاً لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الاهتمام بسنة رسول الله ﷺ ومنهجه، وتيمُّنهم باتباع ذلك، وقد كان مثَلهم الأعلى في ذلك أبو بكر رضي الله عنه حيث كان أحرص المسلمين على التقيد بالسنة، وظهر للصحابة بركة ذلك وعواقبه المحمودة، ثم كان عمر رضي الله عنه كذلك من بعده.

فالنعمان لا يزال على ذكر من ذلك، فكان يتربص بالمسلمين حلول الساعة التي كان رسول الله ﷺ يحب أنه يبدأ القتال بها، وهي ساعة الزوال، وذلك إذا لم يبدأ القتال في الصباح.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١١٩.

(١) يعني الخيل التي جردت وانتخبت لتكون في المقدمة.

وإن في إجابة النعمان للمغيرة بن شعبة مثلاً للأدب الإسلامي الرفيع فهو مع كونه قائد الجيش لم يعنّفه حين اعترض على رأيه، وهذا يدل على تواضعه وسماحته، بل إنه أثنى عليه بالإحسان في ولايته، وبين له أن ما يرجوه في الإسراع من النكاية بالأعداء، وتلمس أسباب النصر يرجوه هو بالتأني، وأنه إنما لاحظ بالتأني أمراً هو فوق رأيه ورأي المغيرة وغيره، وهو الاقتداء بالنبي ﷺ.

### خطبة للنعمان:

قال: فلما كان قريباً من تلك الساعة - يعني ساعة الزوال - تحشش النعمان - أي تحرك - وسار في الناس على برذون أحوى - يعني قصير - قريب من الأرض، فجعل يقف على كل راية ويحمد الله ويثني عليه، ويقول: قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين وما وعدكم من الظهور، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره<sup>(١)</sup>، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه، والله منجز وعده، ومُتبع آخر ذلك أوله، واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة، فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة، والذي لهم في ظفركم وعزكم والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم، وقد ترون من أنتم بإزائه من عدوكم، وما أخطرتكم وما أخطروا لكم، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرثة - يعني المتاع - وما ترون من هذا السواد - يعني البلاد - وأما ما أخطرتكم فدينكم وبيضتكم - يعني دولتكم وقوتكم - ولا سواء ما أخطرتكم وما أخطروا، فلا يكوننَّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم، وأتقى الله عبدٌ صدق الله، وأبلى نفسه فأحسن البلاء، فإنكم بين خيرين منتظرين، إحدى الحسينين، من بين شهيد حيٍّ مرزوق، أو فتح قريب وظفر يسير، فكفى كل رجل ما يليه، ولم يكلُ قرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه، وذلك من الملامة، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه، فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإنني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت التكبير الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأً، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه، وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة فإنني

(١) يعني أوائله ومقدماته.

حامل إن شاء الله فاحملوا معاً، اللهم أعز دينك وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك<sup>(١)</sup>.

هذا وإن خطبة النعمان هذه تعتبر من عيون الخطب الحربية، وقد اشتملت على مواعظ وتوجيهات عالية، نوجز التعليق على بعضها فيما يلي:

١- ذكّر النعمان ذلك الجيش بوعد الله إياهم بالنصر، وذلك يجعلهم متفائلين بأن المعركة ستكون لصالحهم، ولاشك أن من دخل المعركة وهو واثق من النصر سيكون حماسه وقوته أعظم بكثير ممن دخلها وهو متردد خائف.

٢- ذكّرهم بما سيفقده الأعداء إذا انهزموا، وما سيفقده المسلمون إذا انهزموا. فالأعداء سيفقدون مظاهر الدنيا ومتاعها الزائل، أما المسلمون فإنهم يخاطرون بدينهم الذي هو المصدر الوحيد للنور الإلهي في الأرض، ودولتهم التي لا يوجد على ظهر الأرض من يمثل الحق غيرها، ولا سواء بين النتيجة.

وفي هذا تذكير لهم بهدفهم الأسمى من وراء حروبهم المتواصلة لئلا يبذلوا كل طاقتهم في الدفاع عن هذا الهدف.

٣- ذكّرهم بإحدى الحسنيين: إما النصر على الأعداء، أو الاستشهاد في سبيل الله تعالى، وذلك إشارة إلى قول الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] يعني هل تنتظرون بنا أيها الأعداء في جهادنا من النتائج إلا أن نظفر بإحدى النتيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنة النتائج في مجالي الحياة والموت؟ فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء، وإما موت كريم بالظفر بالشهادة وكلاهما خير وسعادة.

٤- ذكّرهم بلزوم بذل الطاقة في الجهاد، وذلك بأن يشعر المجاهد بأنه مسئول عن قتال من أمامه من الأعداء، وأن لا تنازعه نفسه إلى الاتكال على أخيه المجاور له فيجمع عليه صد العدو المقابل لهما فتضعف قوته بذلك.

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٠ - ١٣٢.

## ابتداء المعركة الفاصلة:

قال الطبري في سياق الرواية المذكورة: فلما فرغ النعمان من التقدم إلى أهل الموقف، وقضى إليهم أمره رجع إلى موقفه، فكبر الأولى والثانية والثالثة والناس سامعون مطيعون مستعدون للمناهضة، يُنحّي بعضهم بعضاً عن سننهم - يعني يحاول كل واحد أن يوسع مجاله الذي يقاتل فيه فداءً لأخيه - وحمل النعمان وحمل الناس، وراية النعمان تنقضُّ نحوهم انقضاض العقاب والنعمان مُعلم ببياض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً، لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كان أشد قتالاً منها، فقتلوا فيها من أهل فارس فيما بين الزوال والإعتماد ما طبق أرض المعركة وما يزلق الناس والدواب فيه، وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق في الدماء، فزلق فرس النعمان في الدماء فصرعه، وأصيب النعمان حين زلق به فرسه وصرع، وتناول الراية نعيم بن مقرن قبل أن تقع، وسجى النعمان بثوب، وأتى حذيفة بالراية فدفعها إليه، وكان اللواء مع حذيفة، فجعل حذيفة نعيم بن مقرن مكانه وأتى المكان الذي فيه النعمان، فأقام اللواء، وقال له المغيرة: اكنموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم لكيلا يهن الناس.

واقتلوا حتى إذا أظلمهم الليل انكشف المشركون وذهبوا والمسلمون مُلطَّون بهم متلبسون، فعمي عليهم قصدهم، فتركوه وأخذوا نحو اللهب<sup>(١)</sup> الذي كانوا نزلوا دونه بإسبيذهان فوقعوا فيه، وجعلوا لا يهوي منهم أحد إلا قال «وايه خرد» فسمي بذلك «وايه خرد» إلى اليوم، فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون، سوى من قُتل في المعركة أعدادهم ولم يفلت إلا الشريد<sup>(٢)</sup>.

وهكذا جاء في هذه الرواية أن النعمان رضي الله عنه زلقت به فرسه فصرع، وجاء في رواية ابن إسحاق وحدير أنه أصابته نَشَابَةٌ من سهام العدو فقتلته<sup>(٣)</sup> ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنه أصابه السهم وزلقت فرسه فصرع على الأرض.

(١) اللهب المكان العميق.

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٣٢.

(٣) تاريخ الطبري ٤/١١٥ - ١١٩.

وهكذا استجاب الله تعالى دعاءه فتقبله شهيداً ذلك اليوم والمعركة على أشدها .  
ولقد ألهم الله تعالى أمير المؤمنين عمر حينما عين خليفة النعمان من بعده،  
وكأنه كان يتوقع استشهاده، ولم يكن يفعل ذلك في أكثر المشاهد، بل كان يعين  
قائدا واحدا، وقد يعين القائد من يخلفه وقد لا يفعل .

وهكذا انتهت هذه المعركة المثيرة التي استمر المسلمون فيها في الضرب والطعان  
من زوال الشمس إلى أن أظلم الليل، وكانت بضراوتها وكثافة قتالها من المشركين  
تعادل معركة دامت عدة أيام .

وهذا يدل على أن المسلمين قد بذلوا طاقة عظيمة، وذلك لإخلاصهم ورغبتهم  
الأكيدة في إعزاز دينهم وحماية دولتهم .

وإن مما يثير العجب في نهاية المعركة أن الفرس حينما هزموا عند ظلام الليل لم  
يلجؤوا إلى بلادهم وحصونهم، وهي ليست منهم بعيد، والمسلمون لم يطوقوهم  
من الخلف، ولم يكن ذلك متيسراً للمسلمين وهم خمس عدد الأعداء، فلماذا  
تركوا طريق بلادهم واتجهوا نحو اللهب، وهو حسب سياق الرواية منخفض عميق  
مهلك لمن وقع فيه، فلماذا اتجهوا نحو هذا المكان المهلك ليموت فيه مائة ألف أو  
يزيدون؟

هل كان باستطاعة المسلمين وهم بذلك العدد المحدود أن يتولوا قتال من يليهم  
من الأعداء وأن يسوقوا بقيتهم قسراً ليرتدوا في ذلك المكان المهلك؟

ثم ما الذي ألجأ الصف الثاني وما بعده إلى السقوط وقد سمعوا صراخ الصف  
الأول ورأوا مصارعهم؟ ألم يكن بإمكانهم التراجع وتحذير من بعدهم من المصير  
المشؤوم؟

ثم ما الفارق بين هذا اللقاء وما سبقه من لقاءات حربية حيث كان الأعداء  
يخرجون لقتال المسلمين متى أرادوا فإذا أحسوا بالهزيمة تراجعوا ولجؤوا إلى  
خنادقهم وحصونهم؟ فما بالهم ذلك اليوم لم يفعلوا ذلك؟

الحقيقة أن المتأمل في واقع هذه المعركة ومعركة اليرموك المشابهة لها يترجح لديه أن هناك قوةً عظيمة غير منظورة تولت دفع تلك الكتلة الهائلة من البشر بقوة وعنف حتى أوقعتهم في المنخفض السحيق.

إن الله سبحانه يمد المؤمنين عند اشتداد الموقف بالملائكة عليهم السلام، وقد تقدم لنا في عرض مواقف اليرموك أن أبا عبيدة رضي الله عنه ورجلاً آخر رأيا في النوم ليلة المعركة أن الملائكة يقاتلون مع المؤمنين.

وفي كلام علي بن أبي طالب السابق ما يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعتقدون بأن الملائكة تقاتل مع المسلمين حيث يقول «وأيده - يعني أيد الله جند الإسلام - بالملائكة حتى بلغ ما بلغ» أما في عهد النبي ﷺ فإن أمر مشاركة الملائكة واضح وصريح كما جاء في الآيات التي نزلت في معركة بدر والأحزاب وحنين.

وبهذا يتبين لنا أن من المرجح أن الله سبحانه أيد المؤمنين في نهاوند بالملائكة عليهم السلام فقصوا في الليل على بقية الكفار الذين لم تصل إليهم سيوف المسلمين بالنهار، بعدما بذل المسلمون جهداً عظيماً في قتال الأعداء لم يسبق له مثيل.

ومما يؤيد ذلك أيضاً أن الرواة لم يذكروا أن المسلمين ألقوا الكفار إلى ذلك المنحدر، بل ذكروا أنهم عموا عن قصدهم، فلم يهتدوا إلى طريق مدينتهم وهذا إذا كان متصوفاً وقوعه من أفراد منهم فإنه لا يتصور مما يزيد على مائة ألف.

#### مواقف لبعض المجاهدين في نهاوند:

من المواقف التي تستحق أن يشار إليها ما جرى من سماك بن عبيد العبسي، وقد أخرج خبره الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه عن حدثهم من قومهم قال: بينما نحن محاصرو أهل نهاوند خرجوا علينا ذات يوم فقاتلونا فلم نلبثهم أن هزمهم الله، فتبع سماك بن عبيد العبسي رجلاً منهم معه ثمانية نفر على أفراس لهم، فبارزهم فلم يبرز له أحد إلا قتله حتى أتى عليهم، ثم حمل على الذي كانوا معه، فأسره وأخذ سلاحه، ودعا له رجلاً اسمه «عبد» فوكله به، فقال: اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصلحه على هذه الأرض وأؤدِّي إليه الجزية،



وسلني أنت عن إسارك ما شئت، وقد مننت عليّ إذ لم تقتلني، وإنما أنا عبدك الآن، وإن أدخلتني على الملك وأصلحت ما بيني وبينه وجدت لي شكرا، وكنت لي أخا، فخلّى سبيله وأمنه، وقال: من أنت؟ قال: أنا دينار - والبیت منهم يومئذ في آل قارن- فأتى به حذيفة، فحدثه دينار عن نجدة سماك وما قتل ونظره للمسلمين، فصالحه على الخراج<sup>(١)</sup>.

هذا وإن ما يتضمن هذا الخبر من شجاعة سماك العبسي ليعتبر مثالا على جرأة المسلمين في الحروب، فإن إقدام سماك على مطاردة تسعة من الفرسان قد يعرض حياته للخطر فيما لو اجتمعوا جميعاً لمقاومته، وهو أمر محتمل، ولكن هذا البطل وأمثاله لا يضعون في حسابهم هذا الاحتمال، لأن الواحد منهم إنما خرج يريد الشهادة، فإما حصلت له على أيدي هؤلاء ففاز فوزاً عظيماً، وإما قتلهم أو هزمهم فقد ظفر بإحدى الحسينيين فهو موقن بالربح العظيم سواء ظفر بالشهادة أو بالنصر.

ولقد كان من نتائج هذه المطاردة المباركة قتل ثمانية من الأعداء واستسلام قائدهم، وما تم بعد ذلك من المصالحة بينه وبين المسلمين على الإقليم الذي كان تحت ولايته.

ومن المواقف المذكورة ما قام به القعقاع بن عمرو من قتل قائد الفرس «الفيروزان»، وكان القعقاع على مقدمة نعيم بن مقرن الذي تولّى مهمة مطاردة من فرّ من المعركة وقدم أمامه القعقاع بن عمرو فأدرك القعقاع الفيروزان في ثنية همذان، وكانت مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلا، فلم يستطع اجتيازها بدابته فنزل منها، وهرب في الجبل فنزل القعقاع وتبعه حتى قتله، وقال المسلمون إن لله جنوداً من عسل<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قضى القعقاع على أحد كبار قادة الفرس فكفى المسلمين شره بعد ذلك، وهو عمل جليل يضاف إلى بطولاته الكثيرة التي مر ذكر بعضها.

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٣٢ من رواية سيف بن عمر.

(١) تاريخ الطبري ٤/١٣٥.

## وصول خبر الفتح إلى المدينة ومواقف لعمر:

هذا ما كان من شأن المسلمين في نهاوند، أما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد كان يستنصر للمسلمين ويدعو لهم كما جاء في رواية زياد بن حدير عن أبيه، أن أمير المؤمنين في المدينة يستنصر لهم ويدعو لهم مثل الحُبَلَى (١).

وهذا التشبيه يدل على ما كان يعاني منه أمير المؤمنين من الهم الشديد والتخوف على المسلمين، وإذا كان عمر رضي الله عنه كذلك فإن عموم الصحابة رضي الله عنهم في المدينة قلوبهم مع إخوانهم في نهاوند ودعائهم لهم متواصل، ولا شك أن لذلك الدعاء المبارك أثراً في نزول نصر الله تعالى على عباده المؤمنين.

إنهم يؤمنون إيماناً راسخاً بأن الأمر بيد الله تعالى وحده. والدعاء الخالص إذا صدر من قلوب مؤمنة مخلصه مستحضرة عظمة الله تعالى وضعف خلقه فإنه سبب مهم من أسباب النصر على الأعداء.

ولهذا فإن المسلمين الذين حضروا ميدان المعركة كانوا ثلاثين ألفاً، ولكن الذين شاركوا في المعركة بدعائهم الصالح كانوا عشرات الألوف من المسلمين في المدينة وسائر أمصار الإسلام.

وإن شعور المسلم وهو يتوجه إلى ميدان المعركة بأن الذين سيشاركونه بقلوبهم وابتهاهم إلى الله تعالى هم عموم المسلمين في كل أقطار الأرض. إن شعوره هذا يجعله يدخل المعركة وهو واثق من نصر الله تعالى، إذا تجرد المجاهدون من عوائق النصر.

أما وقع خبر المعركة على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد كان مزيجاً من الفرح بالنصر، والبكاء على فراق الأحبة من الشهداء.

وقد أخذ به الهم مأخذه في تلك الليالي حتى بلغه خبر انتصار المسلمين، يصور ذلك ما جاء في إحدى الروايات التي أخرجها الإمام الطبري وفيها «وتملل عمر تلك الليلة التي كان قدر لقاءهم - يعني لقاء المسلمين مع أعدائهم - وجعل يخرج ويلتمس الخبر، فبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه، فرجع إلى

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٠.

المدينة ليلاً، فمر به راكب في الليلة الثالثة من يوم نهاوند يريد المدينة فقال: يا عبد الله من أين أقبلت؟ قال: من نهاوند، قال: ما الخبر؟ قال: الخبر خير، فَتَحَّ اللهُ على النعمان واستشهد، واقتسم المسلمون فيء نهاوند فأصاب الفارس ستة آلاف، وطواه الراكب حتى انغمس في المدينة، فدخل الرجل فبات فأصبح فحدث بحدثه ونمى الخبر حتى بلغ عمر وهو فيما هو فيه، فأرسل إليه فسأله فأخبره، فقال: صدق وصدقت، هذا عثيم بريد الجن وقد رأى بريد الإنس، فقدم عليه «طريف» بالفتح بعد ذلك فقال: ما الخبر؟ قال: ما عندي أكثر من الفتح، خرجت والمسلمون في الطلب وهم على رجلٍ - يعني أنهم جادون في مطاردة أعدائهم - وكتمه إلا ما سره - يعني أنه أخبر بما يسره من الفتح وكتم خبر استشهاد النعمان لتوقعه بأنه سيتأثر من ذلك-<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر تصوير لما كان يعاني منه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من الهم المتواصل حول نتائج تلك المعركة الحاسمة إشفافاً منه على المسلمين، حتى وافق ليلة المعركة قمة اشتداد الهم عنده.

وفي هذا الخبر مثل من تسخير الله سبحانه ما شاء من خلقه ليكونوا في خدمة أوليائه، فلما كان الجن أسرع من الإنس في قطع المسافات حمل بريد الجن الخبر مع بريد الإنس فسبقه بعدة أيام، وكان في تلك الأيام راحة وطمأنينة للمؤمنين، خاصة أمير المؤمنين عمر الذي كان أبلغهم همًا وأكثرهم تفكيراً في ذلك الأمر.

لقد كان مسلمو الجن في خدمة إخوانهم من مسلمي الإنس من غير أن يسعى لذلك المسلمون، تكريماً من الله تعالى لأوليائه المؤمنين.

وهكذا بلغ خبر الفتح أمير المؤمنين عمر، ولم يبلغه خبر استشهاد النعمان بن مقرن لأن طريفاً المرسل بذلك أخبر أمير المؤمنين بما يسره من الفتح وطوى عنه ما يؤلمه من خبر الشهداء، ولكن خبر الشهداء بلغ أمير المؤمنين مع السائب بن الأقرع الذي كان موكلاً بقسمة الغنائم، وقد ذكر الإمام الطبري خبر ذلك من رواية السائب قال: قدمت على عمر بن الخطاب فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خير

(١) تاريخ الطبري ١٣٤/٤.

يا أمير المؤمنين، فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن رحمه الله - فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: ثم بكى فنشج حتى إني لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتفه - يعني مجتمع الكتفين - قال: فلما رأيت ما لقي قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعرف وجهه، فقال: المستضعفون من المسلمين! لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر! (١).

وفي هذا الخبر موقفان جليان؟ أحدهما شفقة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على رعيته وحزنه على مصابهم، خاصة من كانوا مؤهلين للقيادة، فقد بكى بكاءً شديداً على النعمان بن مقرن رضي الله عنه حين علم باستشهاده، مع علمه بفضل الشهادة، وأنها أمل المؤمنين الصادقين، لكنه يعلم أن أمور الأمة إنما تنتظم بالقيادة الأكفاء، فلذلك حزن هذا الحزن الشديد على فقد النعمان كما حزن قبل ذلك على فقد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين.

ومن هذا الباب ما جاء في رواية ابن أبي نجيح: قال عمر بن الخطاب لجلسائه: تمنوا، فتمنوا، فقال عمر بن الخطاب: لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح (٢).

واختيار عمر للولادة والقيادة الأكفاء كان سبباً مهماً من أسباب نجاحه في الحكم واستقرار الأمور في عهده.

أما الموقف الثاني فهو في تأثره لما قال له السائب: والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يعرف وجهه، حيث قال المستضعفون من المسلمين! لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر! فقد أدرك حالاً خطيرة هذه الفهم الذي فهمه السائب، وهو أن الذين يُنظر لهم، ويهتمُّ بأمر وجودهم أو فقدهم هم وجوه الناس المعروفون لدى الخليفة وولاته وقادته.

ولما كان في ذلك الخوف من الرجوع إلى عرف الجاهلية في التمييز بين الناس في الحقوق مع تساويهم في الأداء، وربط هذه الحقوق بمدى قربهم من القيادة

(١) تاريخ الطبري ١١٦/٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٤١٣/٣.

والولادة.. لما كان في كلام السائب نوع من التلميح لذلك غير المتعمد أنكره عمر بشدة وحزم، وربط الأمر كله بعلم الله تعالى، فهو الذي خلق عباده هؤلاء، ومن عليهم بالهداية ثم أكرمهم بالشهادة، وهو الذي يتولى مكافأتهم على ما قدموا من عمل في الآخرة.

ثم أكد هذا المعنى بالتقليل من شأن معرفة عمر بهم، وأن معرفته ببعض المسلمين لا تغني عنهم من الله شيئاً، وجهله ببعضهم لا يضرهم عند الله تعالى.

وفي التعبير بقوله «ابن أم عمر» تواضع جليل من رجل كبير فإن الانتساب إلى الأم يدل على التواضع حيث إن من عادة العرب أن يفتخروا بأبائهم، وإن له أسوة حسنة برسول الله ﷺ حيث قال للرجل الذي ارتعد خوفاً لما جاء يكلمه «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»<sup>(١)</sup>، ولقد كان درساً عالياً في مكارم الأخلاق وعاه عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

\*\*\*\*\*

---

(١) دلائل النبوة ٥/٦٩.

## فتح أصبهان

جرت بين المسلمين والفرس حروب بعد معركة نهاوند وذلك فيما جرى في فتح أصبهان، وقد كان ذلك بقيادة عبد الله بن عبد الله بن عتبان، وقد التقى المسلمون بأعدائهم وكانوا تحت قيادة «الأستندار» فاقتتلوا قتالا شديداً، ثم خرج قائد مقدمة الفرس للبراز وهو شهربراز جاذويه فبرز له عبد الله بن ورقاء الأسدي، فقتله عبد الله وانهزم أهل أصبهان، ودعا قائدهم الأستندار إلى الصلح فصالحهم المسلمون.

ثم سار عبد الله بن عتبان بجيشه نحو مدينة «جَيَّ» بأصبهان ومَلِكُ أصبهان يومئذ «الفاذوسفان» فحاصرهم المسلمون واقتتلوا معهم في عدة لقاءات، فقال الفاذوسفان لعبد الله: لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك، ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي، فبرز له عبد الله وقال: إما أن تحمل عليّ وإما أن أحمل عليك، فقال: أحمل عليك، فوقف له عبد الله، وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب سرج فرسه، فوقع عبد الله قائماً، ثم استوى على الفرس عُرِيّاً وقال له: اثبت، فحاجزه وقال: ما أحب أن أقاتلك فإنني قد رأيتك رجلاً كاملاً، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا أن براعة المسلمين في مجال المبارزة أكسبتهم هاتين المعركتين وفتحوا بذلك هذا الإقليم المهم، وفي الخبر الأخير بيان أهمية اختيار القادة حيث إن من الصفات اللازمة لذلك أن يكون القائد شجاعاً ذا مقدرة فائقة في فنون الحرب، فقد رأينا كيف أن عبد الله بن عتبان وقع من فرسه قائماً ولم يسقط لما سقط سرج الفرس، وقد أذهلت هذه الحركة الرياضية الممتازة قائد الفرس فاستسلم له واعترف برجولته الكاملة، وهذا يدل على أن المسلمين آنذاك كانوا يهتمون كثيراً بالتدريبات

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٢٩ - ١٤٠ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه، بتصرف.

العسكرية المتوفرة في مجتمعهم، إلى جانب ما تفوقوا به في مجال الأخلاق  
والمعاملة، فكانوا محط إعجاب العالم في ذلك الزمن.

ولقد وفر قادتهم وأبطالهم المقدمون كثيراً من الجهد على جنودهم بما قدموا من  
تضحيات في مجالات المبارزة واقتحام المناطق الخطرة والتخطيط الحربي المحكم،  
بينما كان قادة أعدائهم يزجون بجنودهم في مواقع الخطر بأعدادهم الكثيفة،  
وأحياناً يقرنونهم بالسلاسل حتى لا يفروا، ولا يبذل القادة شيئاً يُذكر في المجال  
الحربي، فتكون النتيجة أنهم يُعرضون جندهم لمجازر هائلة يكون بعدها الفشل  
والهزيمة.

\*\*\*\*\*

## معركة «واج الروذ»

ذكر الإمام الطبري من حديث سيف بن عمر عن شيوخه أن الأعداء تكاتبوا من ثلاث جهات: الديلم وأهل الري، وأهل أذربيجان، فخرج أهل الديلم بقيادة «موتا» حتى نزل بـ «واج روذ»، وأقبل الزينبي أبو الفَرُّخَان في أهل الري حتى انضم إليه، وتحصن المسلمون في «دَسْتَي» وبعثوا إلى نُعَيْم بن مقرن بالخبر، وكان في همذان في اثني عشر ألفاً من الجند.

وكتبوا إلى عمر باجتماعهم ففزع منها عمر واهتم بحربها.

وهكذا اجتمعت هذه الجيوش لحرب المسلمين بعدما رجع منهم من رجع بعد نهاوند، ولم يبق مع نعيم بن مقرن رضي الله عنه إلا هذا العدد القليل بالنسبة لكثرة أعدائهم.

فهل من الرأي أن يُقدم المسلمون على معركة غير متكافئة؟ أو ينسحبوا ويطلبوا المدد من أمير المؤمنين؟

فالإقدام على المعركة مغامرة، خاصة وأن أحد الجيوش الثلاثة وهم الديلم يقاتلون المسلمين لأول مرة، ولا شك أن الذين خبروا قوة المسلمين، وجربوا الهزائم على أيديهم سيكونون أضعف أمامهم من الذين يقاتلونهم لأول مرة.

ولكن نُعَيْمًا البطل المقدم لم يجعل في الأمر خياراً، بل أقدم على المسير إليهم، لا إقدام المتهور، بل إقدام من حَسَنَ ظنه بالله تعالى، وعظمت ثقته بنصر أوليائه، وإقدام من عظمت ثقته بإيمان جنده واندفاعهم نحو التضحية بكل طاقتهم.

وقد استخلف نعيم بن مقرن يزيد بن قيس على ولايته، وخرج إلى الأعداء بالجيوش، حتى نزل عليهم بـ «واج الروذ» فاقتتلوا بها قتالاً شديداً وكانت وقعة عظيمة تعدل «نهاوند» ولم تكن دونها، وقُتِل من الأعداء أعداد كبيرة لا يُحصون، ولا تقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار.



وقد كان أمير المؤمنين عمر مُهتَمًا بحربهم، ويتوقع ما يأتيه منهم، فلم ينجأه إلا البريد بالبشارة، فقال: أبشير؟ فقال: بل عروة، فلما ثنى عليه، أبشير؟ فظن فقال: بشير، فقال عمر: رسول نعيم؟ قال: رسول نعيم، قال: الخبر؟ قال: البشرى بالفتح والنصر، وأخبره الخبر، فحمد الله وأمر بالكتاب فقرأ على الناس، فحمدوا الله.

ثم قدم سماك بن مخرمة وسماك بن عبيد وسماك بن خرشة في وفود من وفود الكوفة بالأخماس على عمر، فنسبهم، فانتسب له سماك وسماك وسماك، فقال: بارك الله فيكم، اللهم اسمك بهم الإسلام، وأيدهم بالإسلام<sup>(١)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٤٨، بتصرف.

## فتح الري

أخرج الإمام أبو جعفر الطبري عن شيوخه قالوا: وخرج نُعَيْم بن مقرن من واج رُوذ في الناس - وقد أخرجها - إلى دَسْتَبِي، ففصل منها إلى الري، وقد جمعوا له، وخرج الزينبي أبو الفَرُّخَان، فلقبه الزينبي بمكان يقال له قَهَا مسالما ومخالفاً لملك الري، وقد رأى من المسلمين ما رأى مع حسد سِياوْخَش وأهل بيته، فأقبل مع نُعَيْم والملك يومئذ بالريِّ سِياوْخَش بن مهران بن بهرام شوبين، فاستمد أهل دُنباوند وطبرستان وقومس وجرجان. وقال: قد علمتم أن هؤلاء قد حلُّوا بالريِّ، إنه لا مقام لكم، فاحتشدوا له، فناهده سِياوْخَش فالتقوا في سَفْح جبل الريِّ إلى جنب مدينتها، فاقتتلوا به، وقد كان الزينبي قال لِنُعَيْم: إنَّ القوم كثير، وأنت في قلَّة، فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به، وناهدهم أنت، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك. فبعث معه نُعَيْم خيلاً من الليل، عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة، ولا يشعر القوم، وبيتهم نُعَيْم بيئاتاً فشغلهم عن مدينتهم، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعوا التكبير من ورائهم. ثم إنهم انهزموا فقتلوا مقتلةً عُدوا بالقصب فيها<sup>(١)</sup>، وأفاء الله على المسلمين بالريِّ نحواً من فيء المدائن، وصالحه الزينبي على أهل الريِّ ومرزبه<sup>(٢)</sup> عليهم نُعَيْم، فلم يزل شرف الريِّ في أهل الزينبي الأكبر، ومنهم شهرام وفرخان، وسقط آل بهرام، وأخرب نُعَيْم مدينتهم، وهي التي يقال لها العتيقة - يعني مدينة الريِّ - وأمر الزينبي فبنى مدينة الريِّ الحُدثى. وكتب نُعَيْم إلى عمر بالذي فتح الله عليه مع المضارب العجليِّ، ووفد بالأحماس مع عُتَيْبَة بن النَّهاس وأبي مفرز في وجوه من وجوه أهل الكوفة<sup>(٣)</sup>.

(١) يعني لكثرة قتلاهم لم يمكن عدُّهم إلا بقياس مكانهم بالقصب.

(٢) مرزبه عليهم، أي ولاء مرزباناً عليهم، والمرزبان: رئيس الفرس.

(٣) تاريخ الطبري ٤ / ١٥٠.

وهذا الذي قرره نعيم بن مقرن من قبول معونة الفرخان وضمه وجنوده إلى الجيش الإسلامي رأي سديد، لأنه قوة تضاف إلى قوة المسلمين، إضافة إلى كونه من أهل البلاد، فهو بهذا ينفع المسلمين برأيه، كما جرى في هذا الخبر.

ولكن هذا الأمر ليس مشروعاً على إطلاقه، بل لا بد أن تكون القيادة للمسلمين، وأن تكون قوتهم أعظم من قوة حلفائهم، وأن يتأكد لهم صدق مُحالفيهم . . إلى غير ذلك من الضمانات التي تضمن خضوع هؤلاء الأعداء للمسلمين سواء في حال انتصارهم أو هزيمتهم.

\*\*\*\*\*

## فتح الباب

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري عن شيوخه قالوا: ردّ عمر أبا موسى إلى البصرة، وردّ سراقه بن عمرو- وكان يدعى ذا النور- إلى الباب، وجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة- وكان أيضاً يدعى ذا النور- وجعل على إحدى المجنبتين حُدَيْفَةَ بن أسيد الغفاريّ، وسمّى للأخرى بكير بن عبد الله الليثيّ- وكان بإزاء الباب قبل قدوم سراقه بن عمرو عليه، وكتب إليه أن يلحق به- وجعل على المقاسم سلّمان بن ربيعة.

فقدّم سراقه عبد الرحمن بن ربيعة، وخرج في الأثر، ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على الملك بالباب- والملك بها يومئذ شهربراز، رجل من أهل فارس- كاتبه شهربراز، واستأمنه على أن يأتيه، ففعل فأتاه، فقال: إنّي بإزاء عدوّ كلبٍ وأمّم مختلفة، لا يُنسَبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يُعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست من القَبِجِ في شيء، ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادتي وأمّتي، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم، صَعُويّ<sup>(١)</sup> معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبّون، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم.

فقال عبد الرحمن: فوقي رجلٌ قد أظلك فسر إليه، فجوّزه، فسار إلى سراقه فلقى به بمثل ذلك، فقال سراقه: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بدّ من الجزاء ممّن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك، وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين، وفيمن لم يكن عنده الجزاء، إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزاء تلك السنة. وكتب سراقه إلى عمر بن الخطاب بذلك، فأجازه وحسنه. وقد وجه سراقه بن عمرو عددا من السرايا لفتح تلك البلاد، ثم مات رحمه الله تعالى واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة.

(١) يعني ميلّي.

هذا وقد ذكر الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه أن عبد الرحمن بن ربيعة أقره أمير المؤمنين على قيادة الجيش الذي وجهه لفتح الباب بعد موت سراقه بن عمرو، فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب- وولاية الباب هي آخر حامية لدولة الفرس من ناحية الشمال- فقال له شهربراز- وهو ملك ولاية الباب الذي صالح المسلمين- قال له: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد «بَلَنْجَر» قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب، قال: لكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم، وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغتُ بهم الرَّدْم- يعني سد يأجوج ومأجوج- قال وما هم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية فآزاد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم، وحتى يُلَفْتُوا عن حالهم بمن غيرهم<sup>(١)</sup>.

وهذا وصف دقيق من عبد الرحمن بن ربيعة لحال الصحابة رضي الله عنهم، وبيان لبعض عوامل النصر، فمن ذلك دخول الجهاد بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعزاز دينه، فإذا تغيرت النية لإرادة الدنيا أو الجاه فإن النصر غير مضمون، بل ربما أنزل الله عقوبته على هؤلاء الذين بدلوا نياتهم، وخادعوا المسلمين.

ومن ذلك صلاح الولاية وعدلهم، فإذا كانت نية الولاية صادقة في إعزاز الإسلام وتقوية دولته، وأصبحت سيرتهم عادلة فإن أصحاب العناصر الزكية ممن تحت ولايتهم تكون لهم الكلمة والقيادة، فبذلك تبرز طاقاتهم الكبيرة، ويكون التنافس في الأعمال الصالحة، ويستمر الجهاد قائماً وحيّاً في النفوس.

ومن كانت هذه صفاتهم وصفات ولايتهم فإنهم لا يُغلبون بإذن الله تعالى، ولا يحول دون طموحاتهم حائل حتى تتحقق دولة الإسلام الكبرى، وتكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

قال: فغزا- يعني عبد الرحمن بن ربيعة- بَلَنْجَر غزاة في زمن عمر لم تَمَّ فيها امرأة، ولم يَيْتَم فيها صبي، وبلغ خيله في غزاتها «البيضاء» على رأس مائتي

(١) تاريخ الطبري ١٥٥/٤ - ١٥٨، بتصرف.

فرسخ من بلنجر، ثم غزا فسلم، ثم غزا غزوات في زمان عثمان، وأصيب عبد الرحمن حين تبدل أهل الكوفة في زمان إمارة عثمان، لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك، وزادهم فساداً أن سادهم من طلب الدنيا، وعضلوا بعثمان حتى جعل يتمثل:

وكنت وعمراً كالمسمن كلبه فخذشه أنيابه وأظافره

وفي رواية أخرى عن سلمان بن ربيعة قال: لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله تعالى بين الترك والخروج عليه، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت، فتحصنوا منه وهربوا فرجع بالغنم والظفر، وذلك في زمان إمارة عمر، ثم إنه غزاهم غزوات في زمان عثمان، ظفر كما كان يظفر، حتى إذا تبدل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتد فغزاهم بعد ذلك، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض: إنهم لا يموتون، قال: انظروا وفعلوا، فاخطفوا لهم في الغياض، فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين غرةً فقتله، وهرب عنه أصحابه، فخرجوا عليه عند ذلك، فاقتتلوا فاشتد قتالهم، ونادى مناد من الجو: صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة، فقاتل عبد الرحمن حتى قُتل، وانكشف الناس، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة، فقاتل بها، ونادى المنادي من الجو: صبراً آل سلمان بن ربيعة، فقال سلمان: أوترى جزعاً! ثم خرج بالناس، وخرج سلمان وأبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جرجان، واجترأ الترك بعدها، ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبد الرحمن، فهم يستسقون به حتى الآن<sup>(١)</sup>.

وهكذا تبين لنا أن فساد الولاية يؤثر على مستوى الجهاد، فبالرغم من كون عبد الرحمن بن ربيعة مايزال هو القائد فإن تبدل الأمراء في الأمصار المشرفة على الجهاد، وتوكل من سبقت منهم ردة، ثم لم يعرف منهم بعد الولاية استقامة يخذل المجاهدين ويهبط من معنوياتهم، ويتيح الفرصة لمن كان منهم له ميل إلى الدنيا إلى استعجال الفرصة، لينال نصيبه من ذلك بالوساطات الهرمية المعروفة عند أهل الدنيا.

(١) تاريخ الطبري ٤/١٥٥ - ١٥٩ .

وبهذا نعرف شيئاً من الحكمة في السُّنة التي مضى عليها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في منع تولية من سبقت ردتهم وإن حسن إسلامهم على أكثر من مائة كما سبق، وهما مجتهدان في ذلك، وعثمان رضي الله عنه مجتهد في محاولة استصلاح هؤلاء، ولكن الحق فيما ذهب إليه أبو بكر وعمر من ذلك، وقد تبين لعثمان الآثار السيئة التي ترتبت على إسناد الأمر لمن سبقت ردتهم، كما هو ظاهر في الرواية.

وفي هذه الرواية بيان لعمق إدراك الرواة آنذاك وقوة توحيدهم، فإن السبب الظاهر في تحليل هذه الوقائع أن الترك قد انخدعوا بالمسلمين حيث ظنوا أنهم لا يموتون، ثم إنهم قاموا بتجربة تبيّن لهم منها أنهم يموتون فتجرؤوا على قتالهم، ولكن السبب الخفي هو معية الله جل وعلا لأوليائه بالنصر والتأييد، وتسخير قلوب الأعداء لهيبة المسلمين والرعب منهم، حينما كان ولأنتهم من أهل الصلاح والتقوى، فحينما تغير هؤلاء الولاة فأصبحوا من أهل الدنيا، وتغير بعض الجند بتغيرهم تخلى الله تعالى عن نصرتهم، فانتزعت الهيبة من قلوب أعدائهم وتجرؤوا عليهم.

أما الدلائل الظاهرة لتغير بعض الجند، فمنها كما جاء في هذه الرواية هربهم من العدو حينما قتلوا رجلاً منهم، وهربهم لما قُتل قائدهم أثناء المعركة، والمسلمون في ذلك العهد لم يكونوا يهربون أبداً من عدوهم، بل كان الواحد منهم يقابل رهطاً من الأعداء، فيثبت لهم، فكان الهرب أول علامات الانهزام التي جرأت أعداءهم عليهم.

وقول الترك «ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت» باعته انتصارات المسلمين المتوالية وقضاؤهم على أعظم امبراطورية في نصف الأرض الشرقي، واقتطاعهم أهم ممالك الامبراطورية الأخرى في الغرب، ثم أهم من ذلك انتصاراتهم الخارقة للعادة كما في معركة اليرموك ونهاوند، حيث يغلب على ظن المتأمل فيها أن الملائكة عليهم السلام كانت تقاتل مع المؤمنين.

ولقد كان لهذا الاعتقاد أثر فعال في توهين الأعداء كما هو الحال في هذه الموقعة مع الترك.

ومن هذه المواقف المثيرة فى هذا الخبر ما كان من نداء الملائكة عليهم السلام حيث قالوا: «صبراً آل عبد الرحمن فإن موعدكم الجنة».

وفى هذا دلالة على أن الله تعالى قد كتب لهم الشهادة فى تلك المعركة ولم يكتب لهم النصر، وذلك لتخلف بعض عوامل النصر المعروفة حيث مال بعض الجند إلى الدنيا، ولم يتجردوا للآخرة فضعف صبرهم وثباتهم، وأصبحت رَحَى الحرب تدور على أهل الثبات والبلاء، فاستشهد من استشهد فى تلك المعركة رضى الله عنهم.

وموقف آخر يدلنا على عظمة المسلمين فى قلوب أعدائهم، حيث كان أولئك القوم يقدسون جسد عبد الرحمن بن ربيعة فيستمطرون به الغمام، حيث لم تأكل الأرض جسده، ولم يتعرض للتعفن، وهذا دليل على صدقه وصلاحه رحمه الله، ولاشك أن ذلك كان من دوافع إقبالهم على الإسلام بعد ذلك.

\*\*\*\*\*



## شهادتان لصالح المسلمين

في أثناء هذه الفتوح صدرت شهادتان من الأعداء على عدل المسلمين ووفائهم وبيان سر عظمتهم وقوتهم .

فأولى الشهادات صدرت من شهربراز ملك ولاية الباب الفارسية، وقد أخرج خبر ذلك الإمام الطبري من رواية مطر بن ثلج التميمي، وذكر قصة حضور الرجل الذي بعثه شهربراز لاستكشاف سد يأجوج ومأجوج وما ذكر من صفته وأنه أعطى شهربراز ياقوتة أهداها إليه ملك تلك البلاد وأن شهربراز ناولها عبد الرحمن بن ربيعة قائد المسلمين في تلك الولاية وما حولها، وأن عبد الرحمن نظر إليها ثم ردّها إليه فقال شهربراز: لَهذه خير من هذا البلد - يعني الباب - وأيمُ الله لأنتم أحب إليّ ملكةً من آل كسرى، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني، وأيمُ الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووقى ملككم الأكبر<sup>(١)</sup>.

هذا وإن قول شهربراز هذا شهادة حق للمسلمين من غيرهم، فالمسلمون قد ملكوا قلوب العالم آنذاك بالعدل والوفاء وسائر مكارم الأخلاق، بعدما أزالوا أصحاب الطغيان والهوى بالكفاح والجهاد المتواصل، فاشربَّت إليهم أعناق أهل الشهامة والوفاء ممن يقدرُّون مكارم الأخلاق، وينفرون من البغي والعدوان، فوجدوا في المسلمين ضالَّتْهم المنشودة، حيث وجدوا ولاتَّهم يُشكِّلون هراً متناسباً في تمثيل هذه المكارم، من إمامهم الأكبر إلى أصغر وال فيهم، وأصبحت مكارم الأخلاق هي السمة البارزة في أفراد المسلمين في أي بقعة حلُّوها، وتضاءل وجود أصحاب الهوى والبغي، واضطروا إلى الاستخفاء بميولهم المنحرفة حتى لا يُكشَفوا فتقع عليهم العقوبة الرادعة.

فببرُّوز أصحاب الشهامة والعدل والوفاء والتواضع، واحتفاء أصحاب الأثرة والبغي والكبرياء ظهر المجتمع الإسلامي وكان كلَّ أفرادِه ممن يمثلون الرقي الأخلاقي في جميع أبعاده.

(١) تاريخ الطبري ١٥٩/٤ - ١٦٠، بتصرف.

وهذه ظاهرة خلافة بهرت الأمم، فسارع كل من ملكَ حرّيته إلى الدخول في الإسلام، أو على الأقل إلى إبرام الصلح مع المسلمين والرضى بالدخول تحت حمايتهم.

أما الشهادة الثانية فقد صدرت من ملك الصين، وذلك حينما أرسل له كسرى يطلب منه المدد والنصرة، فجرت بينه وبين رسول كسرى محاورة جاء فيها قول ملك الصين: قد عرفتُ أن حقاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم فصّف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر قلةً منهم وكثرةً منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشرّ فيكم، فقلت: سلني عما أحببت، فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون قبل أن يقاتلوكم؟ قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث، إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنابذة، قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدهم، قال فما يحلّون وما يحرّمون؟ فأخبرته، فقال: أيحرمون ما حلّل لهم أو يحلّون ما حرّم عليهم؟ قلت: لا، قال: فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلّوا حرامهم ويحرّموا حلالهم، ثم قال: أخبرني عن لباسهم، فأخبرته، وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العراب - ووصفتها - فقال: نعمت الحصون هذه، ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دوابّ طوال الأعناق.

وكتب معه كتاباً إلى يزيدجرد: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمر وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلّو سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف فسالمهم، وأرض منهم بالمساكنة ولا تهجهم ما لم يهجوكم. ذكره الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر بإسناده عن الوازع بن زيد بن خليدة<sup>(١)</sup>.

وهكذا شهد ملك الصين للمسلمين بالقوة والعظمة وامتلاك أسباب التمكين في الأرض، وما جاء في هذه الاستفسارات والتتائج المرتبة عليها يدل على سعة عقل ملك الصين وخبرته الدقيقة بعوامل انتصار الأمم وعوامل انهزامها.

(١) تاريخ الطبري ١٧٢/٤ - ١٧٣.

وقد أشار إلى بعض العوامل التي كانت سبباً في انتصار المسلمين وتمكينهم في الأرض، فمن ذلك:

١- وفاؤهم بالعهد، وذلك أن الوفاء بالعهد دليل على الالتزام بمبدأ قوي مهيمن، لا تتلاعب به الأهواء، وهذا المبدأ يفرض احترام أصحابه على الناس، ويبعث على هيبتهم، فأما لو نقض المسلمون العهود فإنهم يصبحون كغيرهم ممن تُسيرهم أهواؤهم أو أهواء من يعملون لهم، وبالتالي تزول هيبتهم عند الأمم ويطمعون في الاستيلاء على بلادهم.

٢- أن أول خصلة يدعو إليها المسلمون هي دخول أعدائهم في الإسلام، وأنهم إذا دخلوا فيه كانوا كالمسلمين تماماً، وأصبحت لهم بلادهم وسائر حقوقهم، بل أصبحوا جديرين بأن يُفرض لهم العطاء كبقية المسلمين، بدلاً من أن تؤخذ منهم الجزية، وإن هذا وحده ليدل على أن المسلمين لم يخرجوا من بلادهم لطلب ملك أو للإفساد في الأرض، وهذا يجعل جنود الأعداء يقاومون المسلمين بضعف لعلمهم بأنهم دعاة إصلاح، وقد يتأكد لديهم أن إنقاذهم من ظالمهم سيكون على يد هؤلاء الذين وُجِّهوا لقتالهم، ولهذا العامل وغيره كان الكفار دائماً ضعفاء أمام المسلمين في ذلك الزمن.

ولقد كان أكثر أفراد الأمم سعادة آنذاك هم الذين دخلوا في الإسلام، ثم يليهم في ذلك الذين دفعوا الجزية ودخلوا في حماية المسلمين، لأنهم لمسوا عدل المسلمين ورحمتهم بالمقارنة بما كانوا عليه من ظلم ولاتهم السابقين.

٣- طاعة الجنود لقادتهم، والمسلمون الأوائل في هذه الخصلة لا نظير لهم في الأمم، ذلك أنهم يعتبرون طاعة القائد من طاعة الله تعالى ما لم يأمر بمعصية، وهذا لا يوجد في غير الإسلام، ولذلك قال رسول كسرى في وصفهم «هم أطوع قوم لمرشدهم».

٤- الالتزام الكامل بالدين الذي من أجله قاتل المسلمون، فإن المسلمين إذا التزموا بأوامر الدين فأحلوا ما أحل الله وحرّموا ما حرم الله تعالى فإنه جل وعلا يكون معهم، ومن كان الله معه فإنه لا يُغلب أبداً، وبعد هذا فإن قوة المسلم في

جهاده إنما تتبع من كونه يدافع عن عقيدة صحيحة مهيمنة على مشاعره، وهو لها في غاية الاحترام والتعظيم، فإذا أُخِلَّ بهذه العقيدة فإن قوته تضعف كثيراً لأنه يشبه والحال هذه من يقاتل بلا عقيدة، وإنما يقاتل من أجل الوطن أو المال وغير ذلك من المنافع الدنيوية.

ولقد أدرك ملك الصين خطر مخالفة الدين الذي من أجله كان القتال والانسحاق في الأرض، حيث قال: «فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلُّوا حرامهم ويحرموا حلالهم».

ومن الذي يستطيع من الأعداء أن يحمل المسلمين على هذه المخالفة؟

إنه لا يمكن أن يتم شيء من ذلك إلا بإرادة المسلمين أنفسهم، ولذلك كان مما يشبه المستحيل أن يستطيع الأعداء التغلب على المسلمين ما لم يكونوا هم بأنفسهم عوناً على أعدائهم، وذلك بالتفريط في أمور دينهم الذي هو مصدر عزهم ومكمن قوتهم.

وبعد هذه المسألة قال ملك الصين في رسالته إلى كسرى: ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خَلَّي سَرَبَهُمْ أزالوني ماداموا على ما وصف- يعني لو خَلَّي طريقهم إلى ملك الصين لأزالوه رغم قوته الذي ذكر.

وهذه العوامل التي ذكرها ملك الصين هي بعض عوامل قوة المسلمين، وقد اكتسب معرفتها بالخبرة بأحوال الأمم.

هذا وإنَّ صدق رسول كسرى في خبره عن المسلمين دليل على أن عامة الفرس كانوا معجبين بالمسلمين، ولذلك سارع كثير منهم إلى الدخول في الإسلام منذ أن زالت دولة الطغاة عنهم وأصبحوا أحراراً في تفكيرهم.

**وصية من أمير المؤمنين عمر:**

وما ذكره ملك الصين من أن سر انتصار المسلمين المتكرر يكمن في التزامهم بدينهم، قد أوصى به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كثيراً، فمن ذلك قوله - كما جاء في سياق هذه الرواية - في خطبة له بعد ورود خبر انتصار المسلمين على

الترك وعلى آخر جمع ليزدجرد ملك الفرس: إن الله تبارك وتعالى ذكّر رسوله ﷺ وما بعثه به من الهدى، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة فقال له ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] فالحمد لله الذي أنجز وعده ونصره جنده، ألا إن الله قد أهلك ملكَ المجوسية وفرّق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، ألا وإن المصرين -يعني البصرة والكوفة- من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين من البعد -يعني أن فتوحات أهل البصرة والكوفة من البعد كبعُد المدينتين عن المدينة المنورة- وقد وغلوا في البلاد، والله بالغ أمره ومنجز وعده ومنتبع آخر ذلك أوله، فقوموا في أمره على رجلٍ يُوفٍ لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تُبدّلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُوتى إلا من قبلكم<sup>(١)</sup>.

فإن قول عمر رضى الله عنه «لينظر كيف تعملون» يشير إلى أن ما من الله به على الأمة الإسلامية من الفتوح الواسعة ليس من أجل أن يتمتعوا بفيئها وخيراتها، وإنما من أجل أن يعمروها بعبادة الله تعالى، وفيه إشارة إلى أن بقاء ملك المسلمين وهيمنتهم مرهون بتنفيذهم شريعة الله تعالى، فإذا فرطوا وتهاونوا في أمر الدين فإن الله سبحانه قد ينتزعها منهم ولو على يد الكفار عقوبة لهم، فلا يغترن المسلمون بمملكتهم الواسعة، فإنها ليست بيدهم وإنما هي بيد الله تعالى أدالهم فيها على من سبقهم من الأمم، والمسلمون أحق بها وأجدر ما داموا على الوفاء بالعهد والالتزام بأمانة الدين، فإذا خانوا العهد وضيعوا الأمانة فليسوا أهلا لقيادة الأمم وعمران الأرض.

### من أمثلة أمانة جنود الإسلام:

ولقد كان المسلمون آنذاك موضع الأمانة وأكفاء المسؤولية، ولقد كانت عفتهم عن الدنيا مع قدرتهم على أخذ المال من غير وجهه الحلال دليلا على قوة إيمانهم وجدارتهم بما أفاء الله جل وعلا عليهم من فتوح وانتصارات.

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٧٣.

وإن من أمثلة أمانتهم ما ذكره الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن عاصم بن كليب عن أبيه قال: خرجنا مع مجاشع بن مسعود غازين «توج» فحاصرناها وقتلناهم ما شاء الله، فلما افتتحناها وحوينا نهبها نهباً كثيراً - يعني غنائمها- وقتلنا قتلى عظيمة، وكان عليّ قميص قد تخرق فأخذت إبرة وسلكتها وجعلت أحيط قميصي بها، ثم إني نظرت إلى رجل في القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب ما فيه، فلبسته، فلما جمعت الرثة -يعني الغنائم- قام مجاشع خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، فقال يا أيها الناس لا تغلوا فإن من غل جاء بما غل يوم القيامة، ردوا ولو المخيط، فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأحماس<sup>(١)</sup>.

وهذا مثل شاهد على أمانة جنود الفتح الأوائل، فعلى الرغم من حقارة ذلك الثوب الذي أخذه وحاجته إليه وما قام به من تنظيفه فإنه قد رده إلى الغنائم، وبهذه الأمانة بلغوا ذلك المستوى الرفيع الذي أهلهم للنصر على الأعداء والسيادة على العالم.

ولقد كانت توصيات قادتهم تدور حول هذا المعنى، فمن ذلك قول عثمان بن أبي العاص بمناسبة فتح «إصطخر»: إن هذا الأمر لا يزال مقبلاً ولا يزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يغلوا فإذا غلوا رأوا ما يكرهون، ولم يسدّ الكثير مسد القليل اليوم.

وقال أيضاً: إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفهم ووفر أمانتهم، فاحفظوها فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، فإذا فقدتموها جدد لكم في كل يوم فُقدان شيء من أموركم<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان قادة المسلمين على هذا النهج السديد فليس غريباً أن يستقيم جندهم وأن يعلو أمرهم.

\*\*\*\*\*

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٧٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٤ / ١٧٥ - ١٧٦ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه .

## مواقف لبعض قادة المسلمين

تبين لنا من الأخبار الماضية أمثلة عالية تظهر تفوق قادة المسلمين الأوائل وذلك فيما يتعلق بالرأى السديد والقوة والشجاعة، مما يدل على أن الولاة كانوا يبذلون جهداً في اختيارهم للمهام الحربية.

ونجد من أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن الحكم بن أبي العاص وكان قائداً في إحدى معارك فارس قال: قصد إليّ «شهرک» -يعني قائد الفرس- قال: فصعد إليّ في الجنود فهبطوا من عقبة عليهم الحديد، فخشيت أن تعشوا أبصار الناس فأمرت منادياً فنادى: أن من كان عليه عمامة فليلفها على عينيه، ومن لم يكن عليه عمامة فليغمض بصره<sup>(١)</sup>.

وهذا نوع من السداد في الرأى والحزم في العمل، فإن انبهار الجنود بمنظر عدوهم المروع قد يكسر بعض ما في نفوسهم من الإقدام، وقد لفت انتباه القائد لمنظرهم وهم في دروع الحديد والسلاح كونهم نازلين من منحدر فهم مكشوفون بأجمعهم لجيش المسلمين بخلاف ما إذا كانوا وإياهم في أرض مستوية وإنما يرون مقدميهم فقط.

وقد يقول قائل: وهل يضمن القائد من جيشه أن يلتزموا بهذا الأمر فيغضوا أعينهم؟

والجواب على ذلك أن طاعة أوامر القائد واجبه شرعاً عند المسلمين ما دامت في حدود طاعة الله تعالى، ولذلك فإن القائد يضمن تنفيذ أوامره بدون تكليف رقباء من الجنود يحافظون على الالتزام، وهذه ميزة كبرى يختص بها المسلمون الملتزمون بأوامر دينهم.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري أيضاً بإسناده أن عبيد الله بن معمر وكان قائداً في فتوح فارس خشي من أحد قادة الفرس الذين صالحوهم وهو

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٧٧.

«آذرييان» أن يغدر بالمسلمين فقال له: إني أحب أن تتخذ لأصحابي طعاماً، وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التي تليني فإنني أحب أن أتمشش العظام، ففعل، فجعل يأخذ العظم الذي لا يكسر إلا بالفؤوس فيكسره بيده فيتّمخّخه<sup>(١)</sup> - وكان من أشد الناس - فقام الملك فأخذ برجله، وقال: هذا مقام العائد فأعطاه عهداً<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كفى عبيد الله بن معمر جيشه حرباً قد تضر بالمسلمين، باستخدامه ما وهب الله تعالى من قوة بدنية، فقد أربع ذلك الأمير الفارسي بما رآه من قوته، وتصور أن الذي كسر العظام الصلبة بيده قادر على تحطيم جماجمهم بسلاحه، كما أن في هذا التصرف الذي قام به عبيد الله إشعاراً لهم بأنه مصمم على تحطيمهم لو نقضوا العهد كما حطم تلك العظام.

ومن الأمثلة الرائعة في الجمع بين سداد الرأي والشجاعة ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الوازع بن خليدة قال: لما بلغ عمر غلبه الأحنف على المرويين وبلخ<sup>(٣)</sup> قال: وهو الأحنف وهو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه<sup>(٤)</sup> وكتب عمر إلى الأحنف: أما بعد فلا تجوزنّ النهر، واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدّم لكم النصر وإياكم أن تغيروا فتفضوا.

ثم ذكر استنجد ملك الفرس بملك الترك خاقان وأن ملك الترك أنجده وخرج بجيشه حتى عبر نهر بلخ إلى أن قال: وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان والصغد نهر بلخ غازياً له خرج في عسكره ليلاً يتسمع هل يسمع برأي ينتفع به، فمر برجلين يتقيان علفاً، إما تبنا وإما شعيراً، وأحدهما يقول لصاحبه: لو أن الأمير أسدنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً، وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله،

(١) أي يخرج مخه.

(٢) تاريخ الطبري ١٧٧/٤.

(٣) قوله المرويين يعني مرو الروذ ومرو الشاهجان.

(٤) الأحنف هو ابن قيس التميمي وكان من سادة العرب وقد أعجب أمير المؤمنين برأيه ومنطقه ثم أعجب بشجاعته، وقد سمى الأحنف لحنف في رجله ولذلك قال عنه عمر «المسمى بغير اسمه» لأن الحنف الميل.



فرجع واجتزاؤها، وكان في ليلة مظلمة فلما أصبح جمع الناس ثم قال: إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يهولنكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، ارتحلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى الجبل فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد، ففعلوا وقد أعدوا ما يصلحهم، وهو في عشرة آلاف من أهل البصرة، وأهل الكوفة نحو منهم.

وأقبلت الترك ومن أجلبت حتى نزلوا بهم، فكانوا يغادونهم ويراهونهم، ويتنحون عنهم بالليل ما شاء الله، وطلب الأحنف علم مكانهم بالليل، فخرج ليلة بعدما علم علمهم طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان فوقف، فلما كان في وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطله، ثم وقف من العسكر موقفاً يقفه مثله، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز ويقول:

إن على كل رئيس حقاً أن يخضب الصعدة أو تندقاً  
إن لنا شيخاً بها ملقى سيف أبي حفص الذي تبقي

ثم وقف موقف التركي وأخذ طوقه، وخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه الأول، ثم وقف دونه وحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز:

إن الرئيس يرتبي ويطلعُ ويمنع الخلاءً إما أربعوا

ثم وقف موقف التركي الثاني وأخذ طوقه، ثم خرج ثالث من الترك ففعل فعل الرجلين ووقف دون الثاني منهما، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعتين، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز:

جرى الشَّموسُ ناجزاً بناجزٍ محتفلاً في جريه مشارز

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره، ولم يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعد، وكان من شيمة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة، فخرجت الترك ليلتد بعد الثالث، فأتوا على فرسانهم مقتلين، فتشاءم خاقان وتطير فقال:

قد طال مقامنا، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يُصَبْ بمثله قط، مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير فانصرفوا بنا، فكان وجوههم راجعين<sup>(١)</sup>، وارتفع النهار للمسلمين ولا يرون شيئاً وأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بلخ<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تبين لنا أن من النتائج الطيبة لحسن اختيار القادة أن المسلمين قد تجنبوا كثيراً من المواجهات مع الأعداء، وكفاهم قادتهم ذلك إما بالرأي السديد في إدارة المعركة أو في اختيار مكانها الملائم وإما بمواقف الشجاعة التي كسروا بها قلوب الأعداء ووفروا طاقة جنود المسلمين للمواجهات التي لا بد منها.

ومن هؤلاء القادة العظماء هذا القائد الفذ الأحنف بن قيس الذي جمع بين سداد الرأي والشجاعة النادرة، وهو مع ذلك لا يَعْتَدُّ برأيه وإنما يلتمس الآراء حتى من عامة الجند الذين قد لا يوصلون آراءهم لقادتهم، فقد نزل هذا القائد إلى ميدانهم فصار يتسمع في الليل وهو يدور في مضارب الجيش علّه يسمع رأياً سديداً يصير إليه في قتال الأعداء، وحصل له ما أراد كما هو واضح في الخبر.

ثم هو بعد ذلك يُعمل فكره وَيَسْهَرُ الليل ليعرف واقع الأعداء وأحوالهم الدقيقة فلعل معرفته بذلك تدلّه على مواطن ضعفهم، وحيث إنه دقيق التفكير عظيم الهم لأمر جيشه وأتمته فقد فضّل أن يقوم هو بمهمة استكشاف أمر العدو ليلا ليعرف سر انسحابهم بعيداً عن أرض المعركة.

وقام بذلك وحده وهي مهمة شاقة خطيرة لا يتصدى لها إلا عظماء الرجال، واكتشف سر ذلك بخروج طليعتهم من الفرسان الثلاثة وقيامهم بدق الطبول على انفراد وتباعد، الأمر الذي لا يتم لهم لو بقوا في ميدان المعركة، وقام بالقضاء عليهم الواحد تلو الآخر بشجاعة نادرة وجسارة عظيمة، وقد ساعده على القيام بهذه المهمة بُعْدُ هؤلاء الفرسان عن قومهم بحيث لا يرونهم ولا يسمعون صوتهم، وانفراد كل واحد منهم عن الآخر.

وبهذا نعلم أن قادة المسلمين كانوا أقرب إلى الأهوال والتضحيات من جنودهم، وقد يكلّفون بمثل هذه المهمة واحداً أو أكثر من أصحاب الكفاءات الذين يثقون

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٦٨ - ١٧٠.

(١) أي وجوههم نحو الخلف راجعين.

بإدراكهم وشجاعتهم، ولكن قد يكون في ذهن القائد تخطيط معين مبني على إدراك أمور العدو، ويرى أن غيره لا يشفيه في هذه المهمة فيذهب لتحقيقها بنفسه كما هو الحال في هذه الواقعة.

ولا شك أن الإقدام على السير إلى أرض العدو نوع فريد من الشجاعة مبني على قدر عظيم من الإيمان بالله تعالى.

ولقد تحقق لهذا القائد البطل ما أراد من هذه المغامرة الجريئة حيث وُفق إلى قتل الثلاثة الذين خرجوا طليعةً للعدو ثم كان قتلهم سبباً في تشاؤم الأعداء ورحيلهم عن أرض المعركة.

وهكذا جنّب الأحنف جيشه معركة شرسة يخوضونها مع عدو يتصف بالغلظة والشجاعة، وتحقق فيه قول عمر رضي الله عنه الذي تقدم في أول هذا الخبر حيث اعتبره سيد أهل المشرق، وإن من أبرز علامات السيادة أن يجعل القائد من نفسه حامياً لجنده يقيهم بنفسه المهالك ويوفر عليهم المتاعب.

ولا ننسى أن من أسباب خذلان الكفار ما وقر في قلوبهم من عقيدة التطير، فقد تشاءموا مما حدث لفرسانهم الثلاثة، فكان ذلك من أهم العوامل التي هزمتهم وقرروا بها الانسحاب من أرض المعركة، وقد كانت هذه العقيدة الجاهلية عاملاً مُضعفاً للأعداء ومقويّاً للمسلمين في كثير من حروبهم كما مر علينا في القادسية.

وإن من مزايا عقيدة الإسلام الناصعة أن الله تعالى طهر قلوب المسلمين من عقيدة التشاؤم فأصبحوا يمشون في جهادهم مُقدمين لا يلوون على شيء من الأمور التي تعوق الأعداء وتوهن قوتهم.

### خبر سارية بن زعيم وموقف لعمر:

هذا وقد حدث في أحيان نادرة أن فات التوفيق إلى الرأي السديد بعض القادة فيقيض الله تعالى للمسلمين ما يخرجهم من المآزق التي وقعوا فيها.

ومن الأمثلة على ذلك ما أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: وقصد سارية بن زعيم «فَساً» و«وارايَجُرد» -يعني حينما أمر أمير البصرة قاداته بالتفرق في بلاد الفرس- حتى انتهى إلى عسكرهم، فنزل عليهم

وحاصرهم ما شاء الله، ثم إنهم استمدوا فتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير، فرأى عمر رضي الله عنه في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في ساعة من النهار، فنادى من الغد: الصلاة جامعة، حتى إذا كانت الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان أريهم والمسلمون بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم، وإن أرزوا إلى جبل من خلفهم لم يُؤتوا إلا من وجه واحد، ثم قام فقال: يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين - وأخبر بحالهما - ثم قال: يا سارية الجبل، الجبل، ثم أقبل عليهم، وقال: إن الله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغهم، ولما كان تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد فهزمهم الله لهم، وكتبوا بذلك إلى عمر واستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم<sup>(١)</sup>.

وجاء في رواية أخرى ذكرها الإمام الطبري أن المسلمين في المدينة سألوا رسول ذلك الجيش عن الفتح وهل سمعوا شيئاً يوم الواقعة؟ فقال: نعم سمعنا: يا سارية الجبل، وقد كدنا نهلك فلجاناً إليه ففتح الله علينا<sup>(٢)</sup>.

وذكر الحافظ ابن كثير رواية مختصرة لهذه الواقعة وقال: هذا إسناد جيد حسن<sup>(٣)</sup>، وذكرها العلامة على المتقي الهندي من رواية ابن الأعرابي والديرعاقولي وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي نعيم والبيهقي واللالكائي وابن عساكر، ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر حسن إسناده<sup>(٤)</sup>.

هذا وقد تبين لنا من هذه الروايات أن سارية بن زنيم لم يوفق في اختيار المكان المناسب لتلك المعركة فكشفهم الله تعالى لأمر المؤمنين عمر رضي الله عنه في المنام وأدرك خطورة مكانهم والمكان المناسب لحمايتهم، فجمع المسلمين من الغد وذكر لهم ما رأى، ثم نادى سارية أمامهم وأمره بلزوم الجبل، وإنما جمع الناس وأعلن اجتماعهم ليحضره من يحضر مجالس الذكر من الملائكة عليهم السلام ومسلمي الجن، فأراد بذلك الخطاب أن يسمعه جنود الله تعالى فلعل بعضهم يبلغ رسالته كما صرح بذلك.

(١) تاريخ الطبري ١٧٨/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١٧٩/٤ .

(٣) البداية والنهاية ١٣١/٧ .

(٤) منتخب كنز العمال ٣٨٦/٤ .

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى جنوداً لا نراهم ينصر بهم المسلمين ويبلغون رسائلهم، فقد نصر الله تعالى المؤمنين بالملائكة، عليهم السلام، في أكثر من موطن، وبلغ رسائلهم بواسطة إخوانهم مسلمي الجن كما مر علينا ذلك.

ولما كان عهد المسلمين الأوائل ليس عهد الاتصالات السريعة سخر الله تعالى من عباده من نقل رسالة عمر إلى سارية فنفعه الله بها، وسمعوا يوم المعركة صوتاً ينادي: يا سارية الجبل فلجؤوا إليه ونصرهم الله تعالى.

وإذا كان ذلك من امتنان الله تعالى على المسلمين عامة فهو كرامة منه جل وعلا لأمير المؤمنين عمر الذي وهب نفسه لله سبحانه ولعباده المؤمنين.

\*\*\*\*\*

## فتح سجستان

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا: وقصد عاصم بن عمرو لسجستان ولحقه عبد الله بن عمير فاستقبلوهم فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، فهزموهم ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزرنج، ومخروا أرض سجستان ما شاؤوا، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الأرضين، فأعطوه وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أن فدأفدها حمى، فكان المسلمون إذا خرجوا تناذروا خشية أن يصيبوا منها شيئاً<sup>(١)</sup>.

فهذا مثل من أمثلة حفظ المسلمين للعهد، حيث يُنذر بعضهم بعضاً إذا خرجوا حتى لا ترعى دوابهم من ذلك الحمى فيخلُّوا بالعهد، ولقد كانت لهم الهيمنة ويدهم القوة لو أرادوا أن يخفروا، ولكنهم يخشون الله تعالى حيث يعلمون أن نقض العهد أو الإخلال بشروطه أمر محرم.

وهكذا حمى المسلمين دينهم من المخالفات التي يترتب عليها سوء المصير في الآخرة، والعاقبة السيئة في الدنيا، حيث قد يسلب أعداؤهم عليهم فتكون الدولة لهم.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٨٠.

## معركة بيروز من الأهواز

كان أمير المؤمنين عمر قد عهد إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما حينما فرّق الجند على الأمصار البعيدة أن يسير إلى نهاية حدود قطاع البصرة كي لا يُوتى المسلمون من خلفهم، ولإنقاذ من يحاط به من الجيوش أو من ينقطع عن جيشه.

ولقد وقع ما حذر منه عمر حيث اجتمع في «بيروز» جمع عظيم من الأكراد وغيرهم ليكيدوا المسلمين ويصيبوا منهم عورة، وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا، فخرج إليهم حتى نزل عليهم في رمضان، فالتقوا بين نهر تيري ومناذر.

وهذا الحذر من عمر إلهام من الله تعالى له، وهو مع أمثلة سبق بعضها مصداق قول النبي ﷺ «لقد كان فيمن قبلكم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر» أخرجه الشيخان<sup>(١)</sup>.

فقد أدرك عمر مما يتوقع من الفرس وهو بعيد عنهم مالم يدركه القريبون من قادة العراق، وكم لهذا الإمام الملهم من مواقف عظيمة كانت إنقاذاً من الله تعالى للمؤمنين آنذاك من مهالك، ومآزق خطيرة.

ولما التقى الصفان قام المهاجر بن زياد وقد تحنّط واستقتل فقال لأبي موسى: أقسم على كل صائم لما رجع وأفطر، فرجع أخوه لإبرار القسم، وإنما أراد بذلك توجيه أخيه عنه لئلا يمنعه من الاستقتال، وتقدم فقاتل حتى قُتل، ووهن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة<sup>(٢)</sup>.

هذا وإن ما قام به المهاجر بن زياد من الاستعداد للشهادة مثل من أمثلة رائعة لجماعة من أقوياء الإيمان جعلوا من أنفسهم مشعلاً لحماس المسلمين ودفعهم لبذل طاقتهم الكاملة في المعارك، ولقد كانوا مقدمة للنصر الذي أحرزه المسلمون آنذاك.

وهو مثل يدلنا على ما يفعله القلب المشحون بالإيمان من دفع النفس إلى ركوب المخاطر وخوض الأهوال من أجل تحقيق العلو والسيادة لكلمة الله تعالى في الأرض.. هذا المبدأ السامي الذي كان ماثلاً على الدوام في أعين أولئك المجاهدين، والذي استهانوا من أجله بالدنيا وما فيها من متاع زائل.

(١) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، باب ٦، صحيح مسلم، فضائل الصحابة/٢٣.

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٨٣ من طريق سيف بن عمر عن شيوخه.

## شكوى ضد أبي موسى الأشعري

وهي الشكوى التي تقدم بها ضبة بن محصن العنزي ضد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين كان والياً على البصرة، وقد ذكرها الإمام الطبري مطولة وخلاصتها أن هذا العنزي طلب من أبي موسى أن يرسله في الوفد إلى أمير المؤمنين فأبى وقال: قد كتبنا من هو أحق منك، وكتب أبو موسى بخبره إلى عمر، فقدم على أمير المؤمنين عمر فاشتكى أبا موسى الأشعري في أنه أخذ ستين من أبناء أمراء فارس الذين تم سبيهم، وأن له جارية تدعى عقيلة تُغدى جفنة وتُعشى جفنة، وأن له قفيزين، وأنه فوض أمر الإمارة إلى زياد بن أبيه، وأنه أجاز الحطيئة بألف.

وجاء في الرواية أن عمر بعث إلى أبي موسى فقدم عليه وجمع بينه وبين ضبة العنزي، وساءل أبا موسى عن تلك الموضوعات فقال أبو موسى عن أبناء أمراء فارس: دُلت عليهم، وكان لهم فداء ففديتهم وأخذته فقسّمته بين المسلمين، فقال ضبة: والله ما كذب ولا كذبت، وقال عن القفيزين: قفيز لأهلي أفوتهم وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم، فقال ضبة: والله ما كذب ولا كذبت، فلما ذكر عقيلة سكت أبو موسى فلم يعتذر، وعلم أن ضبة قد صدقه.

وقال عن زياد: وجدت له نبلاً ورأياً فأسندت إليه عملي، وقال عن الحطيئة: سددت فمه بمالي أن يشتمني.

فقال عمر: قد فعلت ما فعلت فارجع إلى عملك، وقال له: إذا قدمت فأرسل إليّ زياداً وعقيلة.

وجاء في الرواية أنه اختبر زياداً فوجده فقيهاً فردّه وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه، وحبس عقيلة بالمدينة، وقال: ألا إن ضبة العنزي غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه، وفارقه مراغماً أن فاته أمر من أمور الدنيا، فصدق عليه وكذب فأفسد كذبه صدقه فأياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى النار<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ١٨٤/٤ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه.



هذا وإن ما قام به هذا الرجل يعتبر مثلاً للتعجل والتهور في شكوى المسؤولين في أمور عرف المدعون ظاهرها وخفي عليهم باطنها، فأولوها على حسب أهوائهم، وقد كان الطريق القويم أن يبدي هذا الرجل اعتراضه على أميره ليعرف منه جلية الأمر، ولكن الهوى أحياناً يقود صاحبه إلى سوء التفكير، والخطأ في التدبير.

وقد استمع أمير المؤمنين لشكواه مع علمه بخبره، وهو تجاوب من عمر رضي الله عنه حملة على استقدام الوالي واستجوابه في المسائل التي رُفعت ضده، وهذا هو المنهج السليم في الحفاظ على حقوق الرعية، وإخماد الفتن في المراحل الأولى من اشتعالها.

هذا وإن في سكوت أبي موسى رضي الله عنه في موضوع الجارية مثلاً من التزام المؤمنين الصادقين بالصدق، وعدم تزوير الحقائق، بينما نجد من هم أقل درجة في الإيمان يلتمسون لأنفسهم المعاذير للخروج من الموقف ولو بتغيير الحقائق.

والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن المؤمنين الصادقين يراقبون الله عز وجل في سلوكهم، بينما أولئك يراقبون من يخاطبهم من المسؤولين، والله تعالى لا تخفى عليه مكنونات الضمائر، بينما يستطيع الذكي اللبّ أن يزور الحقائق، ويتكلم بلسانه عن غير ما يعتقد بقلبه، وأقوياء الإيمان يلاحظون التخلص من وقوفهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة، والذين هم دون ذلك يراقبون التخلص من المآزق التي وقعوا فيها في الدنيا.

فالمسؤولون دائماً في راحة من أقوياء الإيمان لأن صفحاتهم بيضاء، وألستهم مرآة لقلوبهم، بينما هم في عنتٍ وهم من ضعفاء الإيمان حيث لا يثقون بالمعلومات التي يحصلون عليها منهم، ويضطرون لبذل جهد كبير في التحري عن قضيتهم.

وأخيراً يوجّه عمر رضي الله عنه المسلمين إلى المسلك الأمثل في انتقاد الناس ورفع القضايا ضد المسؤولين، وذلك بالتجرد من الهوى الذي يحمل صاحبه على الكذب، إما باختلاق قضايا لا أصل لها، أو بتضخيم القضايا، أو بتفسير الأحداث على غير وجهها، فإذا حدث هذا فإن صاحب القضية لا يُسمع له وإن صدق في بعض أقواله لأن كذبه يفسد عليه صدقه.

\*\*\*\*\*



مواقف وعبر

في

فتوح مصر



لما تم فتح الشام أشار عمرو بن العاص على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما بفتح مصر، وذلك حينما قدم عمر إلى الشام كما ذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية قام إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر، وحرّضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين ووعناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجزها عن القتال والحرب، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن إليه عمر وعقد له على أربعة آلاف رجل<sup>(١)</sup>.

وإنما لم يقبل عمر في أول الأمر إشفافاً منه على المسلمين، وكان دائماً حريصاً على أن لا تُسفك دماء المسلمين إلا في سبيل إعزاز الإسلام، وبناءً على خطط مدروسة محكمة تكون نتائجها التقدم بدولة الإسلام خطوات بعيدة مع بذل أقل التضحيات، فكان لذلك يختار القادة الحكماء وينهى قاداته عن أن يقدموا على جيوشهم الشجعان المستميتين الذين يندفعون بدافع الفداء والشجاعة المطلقة التي لا تتقيد بالرأي السديد والتفكير المحكم حتى لا يورطوا المسلمين في هلكة، وذلك أن الشجاع الفدائي قد ينجو من المغامرة لأن الناس لا يقفون أمام المستميت ولكن قد لا يكون من وراءه بمثل مستواه من الاندفاع والقوة فيأكلهم الأعداء بسبب تهور من تقدمهم.

وإن المحافظة على سلامة الجنود مع الحصول على أكبر المكاسب الحربية هو الهدف الذي يسعى له القادة المسلمون، بدافع من خوفهم من الله عز وجل ورجائه قبل كل شيء، ولأنهم مسئولون ثانياً أمام أمتهم التي ترقب هذه النتائج وتعيش على الأمل السعيد في حصول الانتصارات الكبيرة مع بذل أقل التضحيات، وإذا كان الدافع الأخير يشترك فيه مع المسلمين بعض الأمم التي يترتب بقاء القادة فيها على السمعة الحسنة لدى أفرادها، فإن الدافع الأول وهو الخوف من الله عز وجل ورجاؤه ينفرد فيه المسلمون، وهو الدافع الأهم الذي ظل ملازماً للمسلمين في فتوحهم الأولى.

(١) النجوم الزاهرة ٥/١، فتوح مصر ٤٧.

وإذا كان الكفار يدفعون بجنودهم للتوسع في الأرض رغبة في تأمين الضروريات للمعيشة والكماليات للرفاهية وإشباعاً لحب السيطرة والعلو، فإن المسلمين يدفعون بجنودهم رغبة في إنقاذ الشعوب المغلوبة على أمرها كي تصل إليها دعوة الإسلام، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

وإذا كان جنود الكفار يندفعون للقتال رغبة في تأمين الحياة الدنيوية لهم على الوضع الذي يحبونه فإن جنود الإسلام يندفعون إلى الجهاد رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر الأخروي.

ولذلك فإن ولاة المسلمين إذا بذلوا جهدهم في وضع الخطط المحكمة وتأمين ما يستطيعون من سبل السلامة فإنهم لا يكونون ملومين من الجنود وغيرهم في حصول ما يُكره من المصائب لأن الجنود إنما اندفعوا رغبة فيما عند الله تعالى، وهم يعلمون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يموتوا شهداء.

وبهذا التفكير من الموازنة بين حب الجهاد في سبيل الله تعالى والحفاظ على أرواح المسلمين كان أمير المؤمنين عمر يفكر حينما عرض عليه عمرو بن العاص السير لفتح مصر.

\*\*\*\*\*

## مسير عمرو إلى مصر

جاء في رواية ابن عبد الحكم السابقة: وقال له عمر: سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله، فإن أدركك كتابي أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها ف قيل: إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو لمن معه: أألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى، قال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله تعالى<sup>(١)</sup>.

هذا وقد ذكر ابن تَغْرِي بَرْدِي تفاصيل سير عمرو بن العاص بجيشه، فذكر أنه سار إلى مصر حتى وصل إلى «الفرما» وهي قرية قديمة بين العريش والفسطاط، فلقي بها جموعاً من الروم وقاتلهم قتالاً شديداً نحواً من شهر حتى فتح الله عليه، وقد جاء في رواية ابن عبد الحكم هذه أن القبط قال بعضهم لبعض: ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وإنما هم في قلة من الناس! فأجابهم رجل منهم فقال: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا خيرهم.

(١) فتوح مصر / ٤٧ .

يعني أنهم يكونون سبباً في قتل خيرهم وهو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كما جاء في رواية أخرى عند ابن عبد الحكم أن عمراً طلب ذلك الرجل، فأخبره أصحابه أنه لا يدري ما يقول، حتى خلصوه، قال: فلما بلغ عمراً قتل عمر بن الخطاب أرسل في طلب ذلك القبطي فوجده قد هلك فعجب عمرو من قوله<sup>(١)</sup>.

وهذه شهادة للمسلمين من أحد أعدائهم بالشجاعة والإرادة الصارمة، والتوفيق إلى النتائج الحاسمة، والحق ما شهدت به الأعداء، وإنما بلغ المسلمون ما بلغوا من ذلك لصلتهم القوية الدائمة بالله عز وجل، فهم يشعرون دائماً بأنهم موصولون بالسماء وأن جنود الله تعالى من الملائكة وغيرهم تشاركتهم وتؤيدهم، وإن شعور أي إنسان يقع هو وقومه في محنة بأن دولة قوية تقف معهم يعطيهم قدراً كبيراً من الثقة والأمان والأحلام المستقبلية فكيف إذا كان الإنسان يشعر بأن الله جل وعلا معه بنصره وتأييده؟!!

وأخرج ابن عبد الحكم من رواية أبي حبيب قال: وكان رجل ممن كان خرج مع عمرو بن العاص حين خرج من الشام إلى مصر أصيب جملة، فأتى عمراً يستحمله فقال عمرو: تحمل مع أصحابك حتى تبلغ العامر، فلما بلغوا العريش جاء فأمر له بجملين ثم قال له: لن تزالوا بخير ما رحمتكم أئمتكم، فإذا لم يرحموكم هلكوا وهلكتم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان عمرو بن العاص رحيماً بالمسلمين محافظاً عليهم كما أراد أمير المؤمنين عمر، وإن هذه المعاملة الكريمة لتحبب قلوب الجنود إلى قائدهم، وترفع من معنوياتهم، فلا يكون هناك لديهم عوائق دون بذل كل ما يستطيعون من طاقة في الجهاد.

\*\*\*\*\*

(٢) فتوح مصر / ٤٨ .

(١) فتوح مصر / ٥٠ ، النجوم الزاهرة ٧ / ١ .

## معركة أمّ دنين

ذكر ابن عبد الحكم في روايته أن عمراً مضى بجيشه حتى فتح «بليبس» بعد قتال دام نحواً من شهر، ثم مضى حتى أتى «أم دنين» وتسمى المقس وهي واقعة على النيل فقاتل المسلمون حولها قتالاً شديداً، وأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين يستمده فأمدّه أمير المؤمنين بأربعة آلاف، فلما طال الحصار طلب عمرو المدد مرة أخرى فأمدّه أمير المؤمنين بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة ابن مُخَلَّد، وقيل الرابع خارجة بن حذافة، وقال عمر في كتابه له: اعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن تُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.

وقد خرج الروم مع الأقباط لمواجهة المسلمين، وجرت بينهم معركة حامية استعمل فيها عمرو بن العاص دهائه الحربي كما صنع خالد بن الوليد في حروب العراق، وذلك أنه جعل جيشه ثلاثة أقسام، حيث أقام كميناً للأعداء في الجبل الأحمر، وأقام كميناً آخر على النيل قريباً من أم دنين، وقابل أعداءه ببقية الجيش، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي في الجبل الأحمر وانقض على الروم فاقتل نظامهم وانهزموا إلى أم دنين فقابلهم الكمين الذي بقربها فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة وانهزموا وتفرق جيشهم ولجأ بعضهم إلى حصن باب اليون الحصين<sup>(١)</sup>.

وهكذا كسب المسلمون هذه المعركة ووقاهم الله شر أعدائهم بفضلته تعالى وذلك بتوفيق قائدهم المحنك إلى هذه الخطة المحكمة التي بدد بها طاقة الأعداء وأجأهم إلى الهزيمة والفرار.

\*\*\*\*\*

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/١، فتوح مصر ٤٩.

## معركة باب اليُون وحصار حصنها

سار عمرو بجيشه حتى وصل حصن باب اليون، وقد أخرج الإمام الطبري خبر ذلك من طريق سيف بن عمر عن شيوخه: أن عمرو بن العاص خرج إلى مصر بعدما رجع عمر [يعني من الشام] إلى المدينة حتى انتهى إلى باب اليون، واتبعه الزبير فاجتمعا، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر<sup>(١)</sup> ومعه الأسقف في أهل النيات، بعثه المقوقس لمنع بلادهم، فلما نزل بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم يقول: لا تعجلونا لنعذر إليكم وترون رأيكم بعد، فكفوا أصحابهم، وأرسل إليهم عمرو: إني بارز فليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام - وهما زعيما الأقباط - فأجابوه إلى ذلك، وأمن بعضهم بعضاً، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا، إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته، وقد قضى الذي عليه وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمَثَلْنَا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبدلنا له المنعة، وقد أعلمنا أننا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم، وإن لكم إن اجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطين خيراً، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطين خيراً، لأنهم لهم رحماً وذمة، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء - يعني لا يعلم خبرها إلا الأنبياء - معروفة شريفة كانت ابنة ملكنا، وكانت من أهل «منف» والمُلْك فيهم، فأدبيل عليهم أهل عين شمس، فقتلوهم، وسلبوا ملكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام، مرحباً به وأهلاً<sup>(٢)</sup>.

يقصدون بذلك هاجر أم إسماعيل عليه السلام، فإما أن عمراً ذكرها لهم ولم تُذكر في الرواية، وإما أن خبرها كان معلوماً لديهم جميعاً فلم يكن هناك حاجة لذكرها.

(١) يعني رئيس النصارى.

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٠٧.



وهكذا رأينا في هذا الخبر كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يغلتمون نقاط اللقاء مع الأعداء، محاولةً منهم في اجتذابهم إلى الإسلام، أو على الأقل ليخففوا من اندفاعهم نحو مواجهتهم بالحرب، فالروم في مصر كانوا متصلين في عداة المسلمين وهم أصحاب السلطة العليا في مصر، أما الأقباط الذين هم أهل مصر فقد كانوا يشعرون بظلم الروم ولم يكونوا قادرين على التحرر منهم، فإذا انتقلوا من سيطرتهم إلى سيطرة المسلمين، فإن ذلك من صالحهم وقد شاهدوا عدل المسلمين في البلاد التي فتحوها قبل ذلك، فظهر منهم الميل إليهم وتفضيلهم على الروم، فكانت هذه المبادرة من عمرو بن العاص لاستمالة الأقباط، حيث ذكر لهم أولاً أن الرسول ﷺ قد أخبرهم بفتح مصر للمسلمين، وهم أهل كتاب، وقد عرفوا قبل ذلك نبوة رسول الله ﷺ، وهذا الخبر يرسخ في نفوسهم أن المعركة لصالح المسلمين قبل أن يخوضوها، ولا شك أن ذلك يوهن في عزائمهم.

كما ذكر لهم وصية رسول الله ﷺ بهم، وذكرهم بوشائج القرى القديمة التي تربطهم بهم، وذلك يبعث على التفاهم بينهم.

وهكذا يسلك القادة العظماء حيث لا يندفعون بقوتهم ونجاحهم في الحروب، بل يحاولون النفوذ إلى قلوب أعدائهم للحد من الاندفاع نحو مواجهتهم، ولدعوتهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، فيما دخلوا في الإسلام، وإما صالحوهم، وإما واجهوهم بعد ذلك بضعف لتضائل دوافع المواجهة في نفوسهم.

ثم جاء في سياق رواية الطبري المذكورة أن زعيمى النصرى أبا مريم وأبا مريم قالا لعمرو بن العاص: آمناً حتى نرجع إليك، فقال عمرو: إن مثلى لا يُخدع، ولكنى أوْجلكما ثلاثاً لتتنظرا وتناظرا قومكما، وإلا ناجزناكم، قالا: زدنا، فزادهم يوماً، قالا: زدنا فزادهم يوماً، فرجعا إلى المقوقس فهم - يعني بالصلح - فأبى أرطوبون أن يجييهما وأمر بمناهدتهم.

وهكذا أفلح عمرو في إقناع الأقباط بالصلح، ولكن قائد الروم رفض ذلك، وأمر بالحرب.

وقد التزم المسلمون بالهدنة في الأيام الخمسة ولكن الروم غدروا فبيتوا المسلمين ليلاً بهجوم مفاجئ، وكان المسلمون على استعداد لهم، كما هي حالهم مع

أعدائهم في ذلك العهد، فالتقوا معهم وقُتل «فرقب» قائد الأعداء ومن معه وانهمز بقيتهم<sup>(١)</sup>.

وهكذا أعطى قادة المسلمين في هذه المعركة -كما أعطوا من قبل- أمثلة حية لليقظة والترقب والرصد الحربي، حيث لم يكونوا يُؤخذون على غرّة، ويعلمون بتحركات أعدائهم بدقة متناهية.

هذا وقد اعتصم الروم والأقباط في حصن باب اليون المنيع، وجرت مفاوضات أخرى حيث أرسل المقوقس إلى عمرو يقول: إنكم قد ولجتم في بلادنا، وألحتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصابة يسيرة، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم، لا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لمطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء.

### رسل المقوقس يتأثرون بصلاة المسلمين وأخلاقهم:

فلما أتت عمراً رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟!!

وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يرون حال المسلمين، فرد عليهم عمرو مع رسلهم: إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال، إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا، وإما أن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدنا بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين.

فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قوماً الموت أحب لأحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في

(١) تاريخ الطبري ٤/١٠٧-١٠٨.

الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضعهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم.

فقال عند ذلك المقوقس: والذي يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم<sup>(١)</sup>.

وهكذا انكشف لنا جانب من جوانب عبقرية هذا القائد الملهم عمرو بن العاص، حيث أبقى أولئك الرسل يومين ليروا عظمة المسلمين فيحملوا هذه الرسالة الوصفية لزعيمهم، وإنما دفعه لهذا التصرف ما يدركه من ذلك الرصيد الضخم الذي يملكه المسلمون آنذاك من الرقي الأخلاقي الذي أذهل أفراد الأمم وقادتها.

إن واقع المسلمين في ذلك العصر يعتبر دعاية قوية للإسلام وليس في حياتهم ما يُستحي منه ويحرص على إخفائه عن أنظار الأعداء، بل هو صفحة بيضاء من مكارم الأخلاق، وسجل حافل من مظاهر المروءة.

ولذلك عاد أولئك الرسل وقد ملئوا إعجاباً بجيش المسلمين أفراداً وقادة، وسجلوا هذا الإعجاب بما وصفوا به ذلك الجيش من الشجاعة النادرة، التي أوصلتهم إلى حب الموت أكثر من حب الحياة، والتواضع الجم، والزهد الرفيع في الدنيا والمساواة بينهم، حيث لم يجدوا في حياتهم فرقا في المظاهر بين أمير ومأمور، وشريف ووضع، وسيد وعبد.

كما أبدوا إعجابهم بانتظام المسلمين جميعاً في الصلاة حيث لا يتخلف منهم أحد، وهو مظهر مهم من مظاهر الانضباط عند المسلمين، كما أبدوا إعجابهم بما يقومون به بين يدي الصلاة من الوضوء، ثم في مظهر السكينة والخشوع الذي يعلو وجوه المؤمنين ويحكم جوارحهم وهم يؤدون الصلاة.

(١) النجوم الزاهرة ١ / ١٠.

ولا شك أن صورة المؤمنين وهم يستعدون للصلاة بالوضوء الذي هو مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة التي يتفق العقلاء على أهميتها في حياة الإنسان، ثم انضباطهم جميعاً وراء إمام واحد، وخشوعهم جميعاً بحيث لا يلتفتون ولا يرفعون أبصارهم.. لا شك أن هذه الصورة تأسر أنظار الناس الذين يشاهدونها لأول مرة، وتخلب ألبابهم، ويدركون من خلال هذه الصورة الأخاذة أن هؤلاء المصلين وهم في هذا السكون الرهيب والخشوع المهيّب، قد خرجوا عن التفكير في هذه الحياة التي يشترك في جواذبها عموم البشر إلى التفكير فيما وراء الحياة، فيدفع هؤلاء المتأملين ذلك إلى التساؤل عن الأمر المهم الذي شغل هؤلاء العظماء عن التفكير في أمور الدنيا، وعندها يدركون أن هذا الأمر المهم هو الخضوع لعظمة الله عز وجل ولذة مناجاته والشوق إلى لقائه بنعيمه في دار الخلود.

ومن هنا نعلم أن هذه الصلاة الجماعية بذلك المظهر الأخاذ من الخشوع والسكينة تعتبر أعلى مظهر من مظاهر الدعوة إلى الإسلام.

ولقد أثرت هذه المظاهر الأخلاقية على المقوقس فقال ما قال من الثناء على المسلمين، والاعتراف بأنهم لو استقبلوا الجبال لأزالوها، وإنما قال ذلك بناء على تجاربه الحربية، وإدراكه بأن التفوق الأخلاقي يترتب عليه التفوق الحربي.

### حوار المقوقس مع وفد المسلمين:

هذا وقد جاء في الرواية المذكورة أن المقوقس رد رسله إلى المسلمين يقول لهم: ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وأن لا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث قال: فإن أمير المؤمنين قد تقدم إليّ في ذلك، وأمرني أن لا أقبل شيئاً إلا خصلة من هذه الثلاث، وقد تقدم أنها الإسلام أو دفع الجزية، وإلا فالقتال.

قال: وكان عبادة أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده، وقال: نَحُوا عني هذا الأسود وقدّموا غيره يكلمني، فقالوا جميعاً: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا، والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله .

فقال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟ قالوا: كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقةً وعقلاً ورأياً، وليس يُنكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة: تقدّم يا أسود وكلمني برفق فإنني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة .

وعند هذا المقطع من الخبر نقف لنطلّ على مشهد مثير يختصم فيه ملاً أهل الحق وملاً أهل الباطل حول تحديد القيم العليا التي يجب أن تسود مفاهيم البشر .

فبينما نجد ملاً أهل الباطل يضعون معايير للقيم مبنية على الأشكال والصور الظاهرة، دون عمق وتوغل في الباطن، فينظرون إلى لون البشرة، ويعلقون عليه الحب والتفاؤل والتشاؤم، نجد ملاً أهل الحق يحرصون إلى الحقائق، ويستخرجون العناصر الزكية من مكامنها فيقدّمون أصحاب الكفاءات الذين يملؤون مراكزهم، ويعبرون عن أمتهم ومبادئهم السامية، بما يذهل العدو ويعجب الصديق ويشفي صدور المؤمنين، وإن كان هؤلاء الأكفاء من أصحاب اللون الأسود الذي يزدريه الجاهليون على مختلف طبقاتهم .

وإنه إن صدر هذا الازدراء من عامة الناس الجاهلين فإنه لمن العجيب أن يصدر من رجل مسؤل عن أمة، بل من رجل قد اشتهر بالحكمة والتعقل منذ أن أرسل رسول الله ﷺ كُتبه إلى زعماء الأمم فكان المقوقس أحسنهم وأحكمهم جواباً، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على رسوخ معاني العصبية الجاهلية في النفوس التي لم تشرق عليها شمس الإسلام الساطعة .

ولقد كان جواب هذه الفئة المؤمنة من أصحاب عبادة جواباً حاسماً ورادعاً للقيم الجاهلية التي تبجح بها زعيم أولئك القوم، حيث أجابوا بهدوء وحكمة وشجاعة،

فأنكروا وزن الناس بمعيار اللون، وبينوا أن هذا المعيار لا يوجد عند المسلمين، مع بيان مؤهلات التقدم التي اتصف بها عبادة رضي الله عنهم أجمعين.

وإزاء هذا الرد الحاسم فإن المقوقس قد اضطر إلى قبول التحديث مع عبادة بن الصامت مع طلب الرفق في الكلام حتى لا يجتمع عليه هيبة لونه مع هيبة كلامه.

قال: «فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك وإنّ في من خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً مني وأفطع منظرًا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني، وأنا قد ولّيت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوًّا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا، ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالًا، وما يبالي أحدنا أكان له قناطر من ذهب أم كان لا يملك إلا درهمًا، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكله يأكلها يسد بها جوعته، ليله ونهاره، وشملةً يلتحفها، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على هذا الذي بيده ويبلغه ما كان في الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، بذلك أمرنا الله تعالى وأمرنا به نبينا ﷺ، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستتر عورته، وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاد عدوه (١).

وقبل أن أذكر تأثير المقوقس بهذا الكلام العظيم البليغ أحب أن أعلق قليلاً على هذا المستوى السامي الذي ارتفع إليه هؤلاء العظماء، فقد بين عبادة رضي الله عنه أنه وأصحابه من الشجاعة والإقدام بحيث لو قابل أحدهم مائة من الأعداء لثبت لهم، ثم عزا هذه القوة والثبات إلى ما يتصفون به من الزهد في الدنيا والتجرد من حظوظ النفس، والاقتصار في المعيشة على القليل الكافي لسد الجوع وستر العورة، وأنه يستوي في ذلك الفقراء الذين لا يملكون إلا هذا والأغنياء الذين يملكون قناطر الذهب، لأن هدفهم السامي هو ابتغاء رضوان الله تعالى، وما أعده لهم في

(١) النجوم الزاهرة ١٢/١.

الجنة من النعيم المقيم، وأن هذا النعيم الدائم هو الذي يجب أن يسعى إليه العقلاء بكل ما يملكون من طاقة، بخلاف نعيم الدنيا الزائل الذي يتنافس عليه ضعاف العقول وقصيرو النظر.

وإذا كان الأمر كذلك، وكان هذا هو هدف المسلمين المتقين، فما الذي يشدهم إلى الأرض، ويمنعهم من الإقدام على الجهاد، والحال أن الجهاد يقربهم من بلوغ هذا الهدف السامي؟!

هذا وقد جاء في الرواية المذكورة أن المقوقس لما سمع جواب عبادة تأثر بذلك وأكبره وعظمه حيث قال لمن حوله: «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبَّتْ منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن مُلكهم إلا سيغلب على الأرض كلها، ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح قد سمعت مقاتلتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغت ما بلغت إلا بما ذكرت، وما ظهرت على من ظهرت عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقتلكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقتلكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم، على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم، قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به».

هذا وإن الإنسان المتأمل ليعجب كيف يفكر المقوقس بهذا التفكير ويعرض هذا العرض مع يقينه واعترافه بأن من يخاطبهم ليسوا طلاب دنيا، وإنما هم أصحاب دين عظيم يتقيدون به، ويبدلون جهدهم في نشره بين الأمم، ولكنها محاولة رجل يئس أراد بها أن يصنع شيئاً يُعذر به أمام قومه، وأمام الروم المهيمين عليه، وهو يعلم أنهم كانوا في الشام يحاولون الصلح مع المسلمين تفادياً لمواجهةهم.

وهنا يظهر لنا لون من ألوان المساومات الرخيصة، حيث يحاول الصغار أن يستنزلوا العظماء من عليائهم، ليشاركوهم أفكارهم المتدنية، وسلوكهم الدنيوي الهابط، وإن مما يزيد الأمر سوءاً أن من تولى هذه المساومة قد أدرك واعترف بأن المسلمين قد بلغوا من الرقي الأخلاقي درجة عظيمة خولت لهم لفتح الممالك وغلبة الأمم، وأنهم سيملكون الأرض كلها، ومع ذلك يساوم بما في جعبته من عروض متدنية.

ولقد كان عبادة بن الصامت رجل الموقف في إجاباته الحكيمة الحازمة حيث قال له: «يا هذا لا تغرنَّ نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلت حقاً فذلك والله أرغب ما يكون لقتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند الله تعالى إذا قدمنا عليه، إن قُتِلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حيثنذ على إحدى الحسينين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرتنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرت بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وما منّا من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده. وإنما همنا ما أمامنا.

وأما في قولك إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيّتها شئت، ولا تُطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبله إلينا.

إما إجابتكم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته، صلوات الله عليهم، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه



ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا، وكان أخانا في دين الإسلام، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدا ما بقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم، هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم»<sup>(١)</sup>.

وإننا أمام هذا الكلام الواضح العميق لا نمك إلا أن نُكبر أولئك الرجال، ونعتبرهم النماذج العالية في الدعوة والجهاد، وتنظيم العلاقات بين أمة الإسلام والأمم الأخرى.

وإن من أبرز ما نلاحظه في هذا الجواب وجميع إجابات قادة الإسلام الأوائل وضوح المبدأ الذي يدافعون عنه وينطقون باسمه، والتصميم الجازم على الخيارات الثلاثة التي تكررت معنا في كل فتوحات الإسلام باعتبارها من توجيهات النبي ﷺ.

فالقاعدة العامة التي يحملها القادة واضحة لا لبس فيها، ثابتة لا تتغير، ولذلك فإنه لا أمل للأعداء بتغيرها عند قادة المسلمين ولا عند إبدال قادة الأعداء بمن هم أكثر فطنة ودهاء، وإنما الذي يتغير من قائد لآخر هو نوع الأساليب الحربية، من وضع الخطط وخذاع الأعداء، وتجنيب المسلمين المهالك، والحصول على أكبر النتائج بأقل الخسائر ما أمكن ونحو ذلك.

ولقد كان عبادة موفقا تمام التوفيق حينما واجه التخويف بجيش الروم وقوتهم ببيان المعنوية العالية لجيش المسلمين التي تعتمد على الرغبة الخالصة في الاستشهاد في سبيل الله تعالى، وأنه كلما عظم الجيش المقابل كان احتمال كثرة الشهداء

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٤.

أكبر، كما ركز على بيان أن المجاهدين قد فرغوا أذهانهم تماما مما خلّفوه وراءهم من الأهل والأولاد، واستودعوا ذلك كله ربهم جل وعلا، فليس في أذهانهم ما يعوقهم عن الإقدام، وإنما يهيمن عليهم حب رؤية النصر على الأعداء أو الشهادة وذلك يدفعهم إلى الإقدام.

وإن هذا الكلام ليعتبر مطارق من حديد تنزل على رؤوس الأعداء، فتزِيل ما عساه أن يكون قد بقي فيها من نشوة الإقدام للدفاع عن النفس والوطن. ولهذا قال المقوقس في جوابه: هذا لا يكون أبداً، ما تريدون إلا أن تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا.

فقال عبادة: هو ذلك فاختر ما شئت.

فقال المقوقس: أفلا تجيئوننا إلى خصلة غير هذه الخصال؟ فرفع عبادة يده وقال: لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختراروا لأنفسكم.

فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه وقال: قد فرغ القوم فما ترون؟ فأصروا على رفض الجزية ولم يرضوا بالدخول في الإسلام، فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتكّم هذه ما تمنيتم وتنصرفون، فقام عبادة وأصحابه وعادوا وهم على ما عرضوا عليهم من الإسلام أو الجزية أو القتال.

وقد تبادل المقوقس الرأي مع أصحابه وأشار عليهم بعد ذلك بقبول الجزية ولكنهم رفضوا ذلك فلم يكن بُدٌّ من القتال.

### فتح حصن باب اليون ثم الصلح:

وقد ألح المسلمون بالقتال على من في قصر باب اليون حتى كتب الله لهم النصر عليهم<sup>(١)</sup>.

(١) النجوم الزاهرة ١/١٥، فتوح مصر ٥٣/٥٣.

وفتح الله للمسلمين ذلك الحصن المنيع، ولام المقوقس قومه على عدم قبول الصلح فقال: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم، ما تنتظرون؟ فوالله لنجيبنهم إلى ما أرادوا طوعاً، أو لنجيبنهم إلى ما هو أعظم من ذلك كرهاً، فأطيعوني من قبل أن تندموا، فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه.

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه: إني لم أزل حريصاً على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت بها إليّ، فأبى عليّ ذلك من حضرتي من الروم والقبط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم في أموالهم وقد عرفوا نصحي لهم وحببي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي، فأعطني أماناً أجمع أنا وأنت في نفر من أصحابي، وأنت في نفر من أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعاً، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا فيه.

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا فقال: قد علمتم ما عهد إليّ أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليّ فيها أحببتهم إليها وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم. فاجتمع أمرهم على قبول الصلح وفرض الجزية<sup>(١)</sup>.

#### مواقف عالية لبعض المسلمين:

هذا وقد جرت لبعض المسلمين مواقف في أثناء ذلك الحصار، ومن هذه المواقف ما جاء في رواية ابن عبد الحكم رحمه الله قال: وبينما عبادة بن الصامت رضي الله عنه في ناحية يصلي وفرسه عنده رآه قوم من الروم فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزة، فلما دنوا منه سلّم من الصلاة ووثب على فرسه ثم حمل عليهم، فلما رأوه ولوا هارين وتبعهم، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعبهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم، فصار لا يلتفت إليه حتى دخلوا إلى الحصن، ورُمي عبادة من فوق

(١) النجوم الزاهرة ١/١٧.

الحصن بالحجارة، فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوه من متاعهم حتى رجع إلى موضعه الذي كان فيه فاستقبل الصلاة وخرج الروم إلى متاعهم وجمعوه (١)

وفي هذا الخبر تنكشف لنا أمور مهمة في حياة المسلمين الأوائل فهو مثال رفيع للشجاعة النادرة حيث يقوم عبادة بن الصامت رضي الله عنه بمطاردة قوم من الروم إلى أن لاذوا بحصنهم، وهذه الشجاعة العظيمة تقوم على قوة تمثل المبادئ السامية في الذهن، حيث يعيش المسلم ويموت من أجلها، ويستتهين في سبيلها بنفسه ومستقبله الدنيوي، فإذا قابله في الميدان من يعيشون لمستقبلهم الدنيوي فإنهم لا يمكن أن يقفوا أمامه مهما كان عددهم وعدتهم، لأنهم إنما يحصلون على ما يريدون في هذا المستقبل ببقاتهم على قيد الحياة، أما المسلم الحق فإنه يحصل على المستقبل الأخروي السعيد ببذل نفسه وماله في سبيل الله تعالى استشهد أو بقي على قيد الحياة.

وفي هذا الخبر نموذج من نماذج العفة والترفع عن الدنيا، فحينما أحس عبادة رضي الله عنه أن القوم أرادوا أن يشغلوه بأموالهم ترفع عن هذه الأموال لبيّن لهم أن المال ليس هو هدف المسلمين من الجهاد وإن كان الله تعالى قد أباح لهم الغنائم ليتقوا بها على أعدائهم، ولكن حينما يكون هدف الأعداء مساومة المسلمين عن أنفسهم ومبادئهم بأموالهم فإنها مساومة مردودة لدى أقوياء الإيمان الذين اتضحت أهدافهم واستقامت مناهجهم لأنهم لا يرضون بالتخلي عن الأهداف السامية مقابل متاع عاجل مهما كان قدره وأثره.

ومن هذا المثل ندرك الحسَّ الإسلامي الواضح الذي كان يعمر تفكير أولئك الصحب الكرام، ويجعلهم يسيرون في سلوكهم على مقتضى الحكمة والعقل السليم، فحينما يكون المال غنائم خلفها القتال فإنهم يأخذونها كما أباحها الله تعالى ويصرفونها في مصارفها الشرعية، ولكن حينما يكون المال مساومة على المبادئ السامية فإنهم يترفعون عن أخذه وينزهون أنفسهم عن الإخلال بمبادئهم من أجله.

(١) فتوح مصر / ٥١، النجوم الزاهرة ٩/١.

ونجد مع ذلك أن هذا الخبر يحتوي على مثل من الأمثلة الكثيرة التي تبين لنا مدى سلاح الرعب الذي يُنصر به المسلمون الأتقياء، وهذا السلاح الفعّال يوفر على المسلمين بذل طاقات كبيرة، بينما يشل من حركة الأعداء ويبدد طاقتهم.

ومن المواقف المذكورة في ذلك مغامرة الزبير بن العوام رضي الله عنه حينما صعد سور الحصن وحده، وقد جاء خبر ذلك في رواية ابن عبد الحكم قال: فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير: إني أهب نفسي لله تعالى، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره يجيئونهم جميعاً، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً أن ينكسر السلم، وكبر الزبير تكبيراً فأجابه المسلمون من خارج، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً الحصن فهربوا، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم الفتح الذي طال انتظاره على يد ليث من ليث الإسلام، وبطل من أبطاله العظماء، فلقد باع الزبير بن العوام نفسه رخيصة لله تعالى، وفدى بها إخوانه، فصعد إلى أعلى السور بمفرده، وفي ذلك من الأخطار ما لا يتصور قدره، فإن الاحتمال المتبادر في ذلك أن يكون غرضاً لسهام الأعداء حتى يُردوه قتيلاً، ولكن الله تعالى أراد أن يكون الفتح على يديه فأعمى بصائرهم عنه، وذهلوا بسماع التكبير الذي هو أقوى على الأعداء وأنكى بهم من القذائف الفتاكة.

ولعلمهم رأوا أنه من المستحيل أن يفادي رجل بنفسه فيصعد وحده فوق السور، فإنهم لم يروا في حياتهم من يُرخص نفسه بهذه الصورة المذهلة، فتوقعوا أن المسلمين استطاعوا أن يصعدوا السور، وأن هذا الذي بدا لهم ما هو إلا طليعة المتسلقين، خصوصاً وأن الأرض قد ارتجت من تكبير المسلمين، ففضلوا السلامة، ولاذوا بالفرار.

(١) فتوح مصر / ٥٢.

## موقف عدالة من أمير المؤمنين عمر:

هذا ومما يتعلق بهذا الفتح من المواقف، موقف من مواقف العدل لأمر المؤمنين عمر رضي الله عنه، ويتلخص موضوع ذلك في أن عمرو بن العاص قد عقد هدنة بينه وبين الأعداء لمدة خمسة أيام، ولكن العدو خلالها هجم منه طائفة على المسلمين ليلاً، وكان عمرو وجيشه على استعداد فقتلوهم وسبوا منهم وممن حولهم، فلما انتهى الفتح جاء الراهبان اللذان عقدا الصلح يطالبان عمرو بن العاص بما كان من السبي خلال الهدنة فرفض عمرو وذكرهما بما كان من الغدر من قومهما.

فلما علم عمر رضي الله عنه بخبر الراهبين، قال: ألا أراهما يبصران وأنتم تُجاهلون ولا تبصرون، من قاتلكم فلا أمان له، ومن لم يقاتلكم فأصابه منكم شيء ومن أهل القرى فله الأمان في الأيام الخمسة حتى تنصرم، وبعث في الآفاق حتى رد ذلك السبي<sup>(١)</sup>.

وهذا مثل من أمثلة عدل عمر رضي الله عنه الذي اشتهر به حتى مع أعدائه، ولقد كان لهذا وأمثاله من صور العدل التي عامل بها الصحابة رضي الله عنهم أعداءهم الأثر الكبير في إقبال الناس على الدخول في الإسلام.

## موقف في الدهاء لعمرو بن العاص:

ومن المواقف التي جرت بعد فتح حصن باب اليون موقف لقائد المسلمين عمرو ابن العاص رضي الله عنه، وقد جاء ذلك في رواية أخرجه الإمام الطبري، وفيها: أن القبط حضروا باب عمرو، وبلغ عمراً أنهم يقولون: ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم! ما رأينا مثلاً دان لهم! فخاف أن يستشيرهم ذلك من أمرهم، فأمر بجُزِر فذبحت فطبخت بالماء والملح، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا وأعلموا أصحابهم، وجلس وأذن لأهل مصر، وجيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين، فأكلوا أكلاً عربياً، انتشلوا وحسوا وهم في العباء ولا سلاح،

(١) تاريخ الطبري ١٠٩/٤.

فافترق أهل مصر وقد زادوا طمعاً وجرأة، وبعث في أمراء الأجناد في الحضور بأصحابهم من الغد، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ففعلوا، وأذن لأهل مصر، فرأوا شيئاً غير ما رأوا بالأمس، وقام عليهم القوام بالوان مصر، فأكلوا أكل أهل مصر، ونحواً نحوهم، فافترقوا وقد ارتابوا، وقالوا: كدنا.

وبعث إليهم أن تسلحوا للعرض غداً، وغدا على العرض وأذن لهم، فعرضهم عليهم، ثم قال: إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب، وهون تزجيتهم، فخشيت أن تهلكوا، فأحبيت أن أريكم حالهم، وكيف كانت في أرضهم، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فظفروا بكم، وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني، فأحبيت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني إلى عيش اليوم الأول، فافترقوا وهم يقولون: لقد رمتمكم العرب برجلهم.

وبلغ عمر رضي الله عنه فقال لجلسائه: والله إن حربته لكينة مالها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره، إن عمراً لعض -يعني رجل داهية- ثم أمره عليها وقام بها (١).

وهذا مثل من دهاء عمرو بن العاص وخبرته الدقيقة بغوائل النفوس وأدوائها، وبلسم شفائها، فلقد قرأ في وجوه الأعداء الاستهانة بأمر المسلمين، لما رأوا من زهدهم وبساطة عيشهم، وخاف من منطقتهم احتمال هيجان نفوسهم نحو إثارة العصيان، والعودة إلى القتال، وفي ذلك هلاك لهم وعنّت شديد على المسلمين، فأراهم في اليوم الأول حال المسلمين وهم في بلادهم، ثم أراهم إياهم وهم يعيشون عيشة أهل مصر المترفة ثم عرضهم عليهم في اليوم الثالث وهم مسلحون، ثم خاطبهم بالمنطق الذي يفهمونه، وهو أن من تحول عن معيشة الشظف والشدّة إلى معيشة الترف والنعيم لن يعود إلى المعيشة الأولى وهو يملك السلاح الذي

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١١٠.

يقاتل به، والقوة التي تحمل هذا السلاح، فأرعبهم بذلك، واقتلع من رؤوسهم وساوس الشيطان الذي زين لهم سابقًا هَوَانَ أمر المسلمين، وإمكانية التغلب عليهم.

ولا شك أن تلك الكلمات التي تحمل التهوين من شأن المسلمين لثلاثة مظهرهم لم تصدر من عقلاء القوم، لأن العقلاء يدركون أن المظاهر من الطعام والشراب واللباس لا تقدّم ولا تؤخر في قضايا الحرب والسياسة، وإنما صدرت من العامة وهم الكثرة في كل الأمم، ولهم وزن اجتماعي مؤثر، فكان لا بد لقائد عبقرى مثل عمرو بن العاص رضي الله عنه أن ينزل إلى مستواهم، وأن يداوي أدواءهم بما يناسبها.

ومن هنا نعلم أن اقتصار بعض الدعاة والقادة على اجتذاب المفكرين والطبقات الخاصة يعتبر خللاً يؤثر على نجاح مهمتهم، فلا بد من مخاطبة كل فئات المجتمع وأن يكون محتوى الخطاب وأسلوبه مناسباً لكل طبقة.

وإن فيما قام به عمرو بن العاص من هذا المنهج البديع الذي سلكه مع عامة أولئك القوم لقطعاً لدابر أي فتنة ربّما اغتنمها مفكرو القوم لتدبير انتفاض على المسلمين لا تحمد عقباه، فكان عمرو رجل الموقف الذي قد أعد للمشكلات حلولها منذ ظهور أول بوادرها، ولذلك أثنى عليه أمير المؤمنين عمر، ووصفه بالدهاء والمكر بالأعداء.

#### موقف رحمة من عمرو بن العاص:

هذا ولما انتهى فتح حصن باب اليون أراد عمرو بن العاص التحول من مكانه ذلك، وأمر بالرحيل لاستكمال فتح مصر، فحدثت حادثة واجهها عمرو بن العاص بسلوك إسلامي رفيع يدل على عمق تخلقه بمكارم الأخلاق، وقد ذكر ذلك ابن عبد الحكم رحمه الله حيث يقول: لما فتح عمرو بن العاص الحصن، وهو المسمى الآن بقصر الشمع فكان فسطاطه قبالة الحصن، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع الفسطاط من ذلك المكان، فلما أرادوا ذلك وجدوا عليه عُشًّا



يامة قد باضت وأفرخت، فقال عمرو: اتركوا الفسطاط على حاله احتراماً لليامة التي عشّشت عليه (١).

وفي رواية أخرى عند ابن عبد الحكم: أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بقي بها من الروم أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ، فقال عمرو بن العاص: لقد تحرّم منا بمتحرّم، فأمر به فأقرّ كما هو، وأوصى به صاحب القصر (٢).

وهذا شاهد حيّ على ما كان يتمتع به المسلمون الأوائل من الرحمة والعطف والمواساة، فلم تكن الحروب المتواصلة ومشاهدة القتل والدماء عاملاً على قسوة قلوبهم وميلها إلى العدوان والانتقام، بل وجدهم العالمُ رحماً بررة أوفياء، ولا أدل على هيمنة الرحمة على قلوبهم من هذا الخبر، حيث ترك عمرو فسطاطه رحمة بالحمامة التي عشّشت عليه وفرخت فيه.

وإذا كان هذا القلب الكبير قد حنّى على حمامة فأبقى خيمته من أجل أن لا تُفجع بفراخها، أفلا يكون حانياً على بني البشر إذا هم تخلوا عن طغيانهم وأبصروا طريق الحق؟!

إن هذا السلوك العالي يعتبر من أهم وسائل الدعوة إلى الإسلام، فالذين يملكون على ذلك الفسطاط القائم وحده من أجل تلك الحمامة وفراخها، والذين يسمعون بهذا الخبر سيتساءلون عن الدوافع التي دفعت هذه الأمة إلى أن تكون قوية إلى أعلى غايات القوة في القتال، ورحيمة رقيقة إلى أسنى درجات الرحمة والرفقة في حال السلم، فكيف جمعت بين هذه الخصال التي ظاهرها التناقض؟

والذي يجيب عن هذا التساؤل هو البحث عن حقيقة الدين العظيم الذي خضعت له هذه الأمة، وأصبح هو المهيمن على تصوراتها وسلوكها في هذه الحياة، لأن هذا الدين هو الذي جمع الله به بين قبائل العرب حتى تكونت منهم النواة الأولى للأمة الإسلامية، فكل محاولات العظمة، وجميع نواحي الإبداع

(١) بدائع الزهور ١/١٠٣.

(٢) فتوح مصر / ٦٨.

التي تمت من قادة المسلمين وجنودهم إنما هي من ثمرات الهداية إلى هذا الدين العظيم .

وأخيراً فإننا نجد في هذا الخبر لفظة مهمة نحو استشعار أولئك العظماء رقابة الله عز وجل في كل خطوة يخطونها، فلو أن هذا القائد العظيم أمر بإزالة الفسطاط فمن الذي سيلومه على هذا التصرف؟ لكنه يعلم أن الله تعالى مطلع عليه فهو يراقبه جلا وعلا، ويعلم أن معيته سبحانه لعباده بالنصر والتأييد إنما تكون بمعيتهم له بالطاعة والخضوع والتعظيم، وإنما يستنزل المسلمون نصر الله سبحانه برحمتهم خلقه الضعفاء وإن كانوا من العجماوات التي لا حول لها ولا قوة .

\*\*\*\*\*

## فتح الإسكندرية

توجه عمرو بجيشه نحو الإسكندرية، وفي طريقه إليها جرت بينه وبين أهل تلك البلاد حروب كان النصر فيها حليف المسلمين، ومن المواقف التي تذكر في ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص أصيب بجراحات كثيرة في معركتهم مع أهل الكريون فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال عبد الله:

أقول إذا ما جاشت النفس اصبري فعمما قليل تُحمدي أو تلامي

فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال فقال عمرو: هو ابني حقاً<sup>(١)</sup>.

وهذا موقف من مواقف الصبر والتحمل يذكر لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي اشتهر بالعلم والعبادة، فجمع إلى ذلك الشجاعة والصبر على الشدائد.

ووصل عمرو بجيشه إلى الإسكندرية فحاصرها وكان فيها أكبر حامية للروم، وكانوا يهتمون بها كثيراً، كما جاء في رواية لابن عبد الحكم أن رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم، وكان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية حيث غلبت العرب على الشام، فقال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم، وانقطع ملكها، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يياشر قتالها بنفسه إعظماً لها، وأمر أن لا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية! فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤونته، وكان موته في سنة تسع عشرة، فكسر الله بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تبين لنا بوضوح أن الله سبحانه مع أوليائه المؤمنين بنصره ودفعه وتأييده، فالروم حينما فقدوا الشام وجدوا من الإسكندرية عوضاً عنها فركزوا اهتمامهم

(١) فتوح مصر/ ٥٧.

(٢) فتوح مصر/ ٥٨.

بها، وحينما علم هرقل بغزو المسلمين لها قال كلمته المذكورة: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها، فعزم على تجهيز جيش عظيم يقوده بنفسه للدفاع عنها، ولو تم ذلك لوجد المسلمون منه مشقة عظيمة، ولكانوا بحاجة إلى إمدادات كبيرة، وربما اضطروا لسحب بعض جيوشهم من الشام، وفي ذلك إضعاف لوجودهم فيها.

ولكن الله سبحانه سلّم المسلمين من هذا البلاء العظيم حيث أخذ روح هرقل، ولما يغادر بلاده، فرجع أكثر الجيش الذي كان قد توجه إلى الإسكندرية.

ومن هنا نعلم أن على المسلمين أن يسعوا في جهادهم مع الأعداء بما لديهم من إمكانيات وقوة، مع التوكل على الله تعالى، وأن يؤمنوا بأنه جل وعلا يتولى أمرهم في الخروج من المحن والشدائد التي يفاجؤون بها.

**من أمثلة دهاء عمرو وبديهته:**

ومن مواقف الذكاء والدهاء التي تذكر لعمرو بن العاص رضي الله عنه ما رواه ابن عبد الحكم من رواية يزيد بن أبي حبيب قال: خرج طرف من الروم من باب حصن الإسكندرية فحملوا على الناس فقتلوا رجلا من مُهْرَة فاحتزوا رأسه وانطلقوا به، فجعل المُهْرِيُّون يتغضبون ويقولون: لا ندفنه أبداً إلا برأسه، فقال عمرو بن العاص: تتغضبون كأنكم تتغضبون على من لا يبالي بغضبكم، احملاوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم، فخرجت الروم إليهم، فاقتلوا، فقتل من الروم رجل من بطارتهم فاحتزوا رأسه فرموا به إلى الروم، فرمت الروم برأس المهري إليهم، فقال: دونكم الآن فادفنوا صاحبكم<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجحت خطة عمرو الذكية في استثارة الأعداء، وذلك بالتظاهر لهم بأن المسلمين لم يباليوا بكيد الأعداء حيث أظهروا لهم عدم الاهتمام بالاحتفاظ برؤوس القتلى، فرد عليهم الروم بالمثل ورموا برأس القاتل المسلم.

(١) فتوح مصر/ ٥٩.

ولنفرض أنه لم يحصل شيء من ذلك فيكفي في نجاح خطة عمرو أنه دفع المهريين إلى الحماس في القتال، وأوقف ما كانوا فيه من النقاش الذي عاقهم عن مواصلة القتال.

### موقف لأحد المجاهدين:

وما يذكر من مواقف هذا الفتح ما أخرجه ابن عبد الحكم من رواية بكر بن عمرو الخولاني: أن عبد العزيز بن مروان حين قدم الإسكندرية سأل عن فتحها، فقيل له: لم يبق ممن أدرك فتحها إلا شيخ كبير من الروم، فأمرهم فأتوه به فسأله عما حضر من فتح الإسكندرية، فقال: كنت غلاماً شاباً، وكان لي صاحب ابن بطريق من بطارقة الروم فأتاني فقال: ألا تذهب بنا حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يقاتلوننا! فلبس ثياب ديباج وعصابة ذهب وسيفاً مُحلّى، وركب برذونا سميّاً كثير اللحم، وركبت أنا برذونا خفيفاً، فخرجنا من الحصون كلها حتى برزنا على شرف، فرأينا قوماً في خيام لهم، عند كل خيمة فرس مربوط ورمح مركوز، ورأينا قوماً ضعفاء، فعجبنا من ضعفهم، وقلنا: كيف بلغ هؤلاء القوم ما بلغوا؟ فبينما نحن وقوف ننظر إليهم ونعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام فنظر فلما رآنا حل فرسه فمعكه ثم مسح ووثب على ظهره وهو عري، وأخذ الرمح بيده، وأقبل نحونا، فقلت لصاحبي: هذا والله يريدنا، فلما رأيناه مقبلاً إلينا لا يريد غيرنا أدبرنا مولّين نحو الحصن، وأخذ في طلبنا فلحق صاحبي لأن برذونه كان ثقيلاً كثير اللحم قطعنه برمحه فصرعه، ثم خضخض الرمح في جوفه حتى قتله، ثم أقبل في طلبي وبادرت، وكان برذوني خفيف اللحم فنجوت منه حتى دخلت الحصن، فلما دخلت الحصن أمنت فصعدت على سور الحصن أنظر إليه، فإذا هو لما أيس مني رجع فلم يبال بصاحبي الذي قتله، ولم يرغب في سلبه، ولم ينزعه عنه، وقد كان سلبه ثياب الديباج وعصابة من ذهب، ولم يطلب دابته، ولم يلتفت إلى شيء من ذلك وانصرف من طريق أخرى وأنا أنظر إليه، وأسمعه يتكلم بكلام يرفع به صوته، فظننت أنه إنما يقرأ بقرآن العرب، فعرفت عند ذلك أنهم إنما قووا على ما قووا عليه وظهروا على البلاد لأنهم لا يطلبون الدنيا، ولا يرغبون في شيء منها، حتى بلغ خيمته، فنزل عن فرسه فربطها، وركز رمحه، ودخل خيمته ولم يُعلم بذلك أحداً من أصحابه.

فقال عبد العزيز -يعني ابن مروان-: صف لي ذلك الرجل وهيئته وحالته، فقال: نعم هو قليل دميم، ليس بالتام من الرجال في قامته ولا في لحمه، رقيق آدم كوسج، فقال عبد العزيز عند ذلك: إنه ليصف صفة رجل يمانى<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر مواقف جليلة، منها الاهتمام البالغ بأمور الآخرة، وعدم الاكتراث بالدنيا ومظاهرها، وأن ذلك كان من الأسباب المهمة في انتصارات المسلمين الأولى وقد سبق الكلام عن هذا الموضوع.

ومنها شجاعة المسلمين الأوائل، ومسارعتهم إلى بذل أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى، وقد تقدم الكلام عن ذلك أيضاً.

ومنها محاولتهم إخفاء أعمالهم الصالحة، وعدم التمدح بما قاموا به من أعمال جليلة قد تدخل في مجال المغامرات، ومع ذلك فإنهم لا يفاخرون بهذه الأعمال، ولا يذكرونها، لأنهم إنما يرجون ثوابها من الله تعالى، وهو سبحانه مطلع عليهم، وكلما بالغوا في إخفاء عملهم كلما كان العمل أبلغ في الإخلاص.

فهذه القصة المشتملة على التضحية بالنفس والترفع عن متاع الدنيا، والزهد في الجاه والذكر، ما كانت لتُعرف لولا أن راويها الذي شاهدها قصها بعد ذلك، وهذا يُعدُّ من أهم مؤهلات العظمة والسيادة في حياة الجيل الإسلامي الأول.

#### موقفان لعمر و مسلمة بن مخلد:

هذا ومن مواقف المسلمين في فتح الإسكندرية ما أخرج خبره ابن عبد الحكيم من رواية خالد بن نجيح قال: أخبرني الثقة أن عمرو بن العاص قاتل الروم بالإسكندرية يوماً من الأيام قتالاً شديداً، فلما استحر القتال بينهم بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد، فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه، وكان مسلمة لا يقام لسبيله ولكنها مقادير، ففرحت بذلك الروم، وشق ذلك على المسلمين، وغضب عمرو بن العاص لذلك، وجاء في الرواية أنه اتهم مسلمة بالجن واشتد عليه بالكلام، وأن مسلمة غضب من ذلك ولم يراجع.

(١) فتوح مصر / ٥٨.

قال: ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية فقاتلهم العرب في الحصن، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعاً من الحصن إلا أربعة نفر بقوا في الحصن، وأغلقوا عليهم باب الحصن، أحدهم عمرو بن العاص، والآخر مسلمة بن مخلد، ولم نحفظ الآخرين، وحالوا بينهم وبين أصحابهم، ولا تدري الروم من هم، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجؤوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به، فأمروا رومياً أن يكلمهم بالعربية، فقال لهم: إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم، فامتنعوا عليهم، ثم قال لهم: إن في أيدي أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم أصحابنا ولا نقتلكم، فأبوا عليهم، فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة وهي نصف بيننا وبينكم، أن تعطونا بالعهد ونعطيكم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكتمونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلبنا سبيلكم إلى أصحابكم، فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه، وعمرو ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس، فتداعوا إلى البراز، فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته، وقالوا: يبرز رجل منكم لصاحبنا، فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال: ما هذا تخطئ مرتين، تشذ عن أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك، وقلوبهم معلقة نحوك، ولا يدرون ما أمرك، ثم لا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل، فإن قتلت كان ذلك بلاءً على أصحابك، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله، فقال عمرو: دونك فرجها الله بك، فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة، ثم أعانه الله عليه، ففتحوا لهم باب الحصن ولا تدري الروم أن أمير القوم فيهم، حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك وأكلوا أيديهم تغيظاً على ما فاتهم.

فلما خرجوا استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، فقال عمرو عند ذلك: استغفر لي ما كنت قلت لك، فاستغفر له وقال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة، وما منهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت من واحدة منهن أشد مما قلت لك ووالله إنني لأرجو أن لا أعود إلى الرابعة ما بقيت<sup>(١)</sup>.

(١) فتوح مصر / ٥٩.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مواقف إسلامية متعددة الأنواع في هذا الخبر، فما بين احتمال كبير للأذى والإهانة، إلى نماذج من الإقدام والشجاعة، إلى مظاهر المساواة بين القادة والجنود، إلى اعتراف القادة بأخطائهم أمام الجنود واعتذارهم منهم، كما نرى التجرد من حظ النفس وتقديم المصلحة العامة.

فبينما نرى مسَلَمَةَ بن مَخَلَّد الذي يُعَدُّ بطلاً من أبطال المسلمين يُتقدم على المبارزة بعد بذل مجهود كبير في حرب ضارية، إذ به يُخفق في تحقيق النصر على غير المعهود منه، ولقد كانت هفوة من فارس كبير، قيل إنه يعدل ألفاً من الرجال، ولكن لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة.

ولقد كان وَقَعُ هذا الإخفاق عظيمًا على نفوس المسلمين، وخاصة عمرو بن العاص حيث تكلم على مسلمة بكلام شديد، ولكن مسلمة لم يرد عليه، ولئن كان عمرو بن العاص مشتهراً بالحلم والحكمة فإنه قد خرج عما ألف منه ذلك اليوم، وأهان فارساً له دوره الكبير في حياة المسلمين الجهادية.

ولقد كان أثر هذا التصرف كبيراً على عمرو نفسه، حيث اعتذر بعد ذلك من مسلمة وأبان له أن هذا التصرف هو أكبر خطأ ارتكبه في حياته كما جاء في الرواية.

أما الأعذار التي يمكن أن يعتذر بها لعمرو حينما أصدر هذا اللوم العنيف فإنها تظهر حينما نعلم أن المسلمين آنذاك قد امتلكوا سلاح المبارزة، ولم يعرف أن أحد فرسانهم الكبار هُزم في مبارزة قبل ذلك، والمبارزة لها أثرها الكبير في رفع معنويات الجيش وخفض معنويات العدو عند الانتصار، وقد كان كبار القادة يلجؤون إليها إذا تآزمت المعركة لرفع معنوية المسلمين كما تقدم لنا من خالد بن الوليد يوم اليمامة.

فلما حصل في معركة الإسكندرية ما حصل من إخفاق مسلمة بن مخلد، ولصعوبة ما واجهه المسلمون من أعدائهم، وطول مدة الحصار، ولما أثقل به فكر عمرو من التخطيط لمواجهة الأعداء، وتحمل مسؤولية الجيش الإسلامي، ومرارة الإخفاق في إكمال فتح مصر. . لذلك كله وقعت من عمرو هذه الزلة في ساعة غضب، وكفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معاييه.



ونلاحظ في سكوت مسلمة وعدم رده على عمرو مقدرة فائقة على امتلاك النفس عند الغضب، فهذا مثال رفيع لخلق الحلم الذي هو من أهم عناصر السيادة. كما يدلنا ذلك على الأدب العالي الذي كان يتمتع به كبار المسلمين مع قادتهم، حيث إن الهيئة التي تتكون لقادة المسلمين بموجب لزوم طاعتهم شرعاً، وبمعاملتهم الإسلامية لجنودهم يجب أن لا تُمتهن لمجرد خطأ يصدر من القائد لأحدهم. كما نلاحظ في اعتذار عمرو لمسلمة مثلاً سامياً لتواضع قادة المسلمين، وعدم اغتنام مناصبهم لفرض سيطرتهم والتعالي على تابعيهم.

وإذا جمعنا بين تصرف عمرو والقائد ومسلمة الجندي في هذه المعركة يتبين لنا أيُّ مستوى أخلاقي بلغه المسلمون الأوائل.

وننتقل إلى المشكلة الصعبة التي واجهها عمرو مع ثلاثة من جنوده حينما انفردوا عن المسلمين داخل حصون الأعداء، والمواقف الإسلامية التي جرت خلال ذلك.

إن انفراد قائد المسلمين مع ثلاثة من جنوده دليل على حجم المشاركة التي يقوم بها قادة المسلمين في معاركهم مع الأعداء، كما أنه دليل على ضراوة هذه المعركة التي خاضوها، حيث فرقتهم واضطرت القائد إلى أن ينفرد بهذا العدد القليل.

وأمر آخر نلاحظه في هذا الخبر، وهو أن الروم قطعاً لم يكونوا يعرفون قائد المسلمين، فلو عرفوه لساوموا عليه أبلغ مساومة، وكون قادة المسلمين غالباً غير معروفين للأعداء إنما هو من ثمرات المساواة التي يعيشها المسلمون، حيث لا فرق في المساكن واللباس بين القادة والجنود، بينما كان قادة أعدائهم معروفين بتمييزهم باللباس والمسكن، فيكونون هدفاً لغارة المسلمين في الغالب، والغريب في الأمر أنهم كانوا لا يتنازلون غالباً عن هذه الطبقة حتى في حال الحرب، مع ما يُعرضهم ذلك من فقدان الأمن والاستهداف للهجوم المضاد.

ومن المواقف البارزة في هذا الخبر أن عمرو بن العاص مع كونه قائد المسلمين قد استعد لمبارزة الرومي الذي انتخبه الروم لمبارزة أحد المسلمين الأربعة، وفي هذا بيان لما يتصف به عمرو بن العاص من الشجاعة والإقدام والتضحية، ولئن كانت

لديه آمال عريضة في حكم مصر وما يترتب على ذلك من الدعوة إلى الإسلام وإقراره على يديه فإنه يؤمن بقضاء الله وقدره، ويعلم أن إقدامه على المباراة لا يقدم أجله عن مواعده الذي كتبه الله له، وإلى هذا الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر ترجع نسبة كبيرة من دوافع الإقدام المذهل عند الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين.

ونرى أخيراً في تدخُّل مسلمة بن مخلد نموذجاً عالياً للفداء والتضحية حيث عارض عمراً في تقدمه للمبارزة، وتقدم هو للقيام بهذا الدور الخطير، وإذا لاحظنا ما تقدم من النقد الشديد الذي وجهه عمرو لمسلمة حينما أخفق في المباراة السابقة يتبين لنا ما جُبِّل عليه أبناء ذلك الجيل من التجرد عن المصالح الذاتية والتقدم لما فيه مصلحة المسلمين العامة.

وقد يقول قائل: لماذا لم يُقدِّم الروم على قتال هؤلاء، وإنما هم أربعة نفر فيفتحوا عليهم الباب بالقوة ويقاتلوهم حتى يقتلوهم أو يأخذوهم أسرى؟

فأقول: إنهم لم يكونوا يشعرون بأنهم أمام أربعة رجال عاديين وإنما بأنهم أمام أربعة أسود أشاوس، والروم كسائر الكفار يحافظون أولاً على أرواحهم، وكل واحد منهم يخشى أن يكون هو الضحية في قتال هؤلاء، كما لو هجم أسد على مجموعة من الناس فإنهم في الغالب يلجؤون إلى الفرار وإن كان معهم أسلحة، فلذلك فضلوا التفاوض معهم، وهذا من أدلة تفوق المسلمين على أعدائهم في الثبات والتضحية.

وقد يقال: لماذا لم يتركوهم محبوسين حتى يموتوا جوعاً أو يفادى بهم المسلمون أنفسهم بأسراهم؟

فيقال: إن الروم كانوا يخشون من ضراوة هجوم المسلمين وكرتهم عليهم فيما إذا كان لهم أسرى يريدون إنقاذهم، وقد كانوا يعانون من بأس المسلمين من غير ذلك، فكيف إذا أضيف إلى دوافع إقدام المسلمين هذا السبب، فلذلك لجؤوا إلى هذا العرض الأخير، وشجعهم عليه ثقتهم بشجاعة صاحبهم، فرجوا أن ينصر فيستأسر لهم المسلمون الثلاثة ليفادوا بهم عن أسراهم لدى المسلمين، ولكن الله تعالى خيب آمالهم فانتصر مسلمة على صاحبهم.

## كتاب من أمير المؤمنين عمر:

لقد ظل المسلمون يحاصرون الإسكندرية عدة شهور، فلما تأخر فتحها كتب إليهم أمير المؤمنين في ذلك، كما أخرج ابن عبد الحكم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد لقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلون منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمت أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك في صدور الناس، ومُر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله تعالى ويسألوه النصر على عدوهم.

فلما أتى عمرًا الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر، ففعلوا ففتح الله عليهم<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الكتاب الذي يستبطن فيه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فتح بقية البلاد المصرية نجده يذكر الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر الإسكندرية بلزوم حياة الزهد وعدم الجنوح نحو حياة الترف، ويعزو تأخر الفتح لما قد يكون الجنود المسلمون أحدثوه من فعل معصية أو تكاسل عن طاعة أو ميل إلى متاع الدنيا من المال أو الجاه، ثم يوجه الجيش إلى صدق النية مع الله تعالى، والتزام الصبر لأن النصر مع الإخلاص والصبر.

وأخيرًا يوجه أمير المؤمنين قائد الجيش الإسلامي إلى التزام خطة من الخطط الحربية التي يراها أنجح في بلوغ المقصود، وهي أن يكون الهجوم بشكل موحد في

(١) فتوح مصر/ ٦٠.

وقت واحد، بحيث تكون الهجمة من جميع الجيش كهجمة رجل واحد، وحينما تكون الهجمة الموحدة فإن العدو لا يستطيع أن يقف أمام هؤلاء المقاتلين، لأن قوة اثني عشر ألفاً تجتمع فتكون كتلة واحدة، وهذا مستفاد من توجيه الله تعالى عباده المؤمنين إلى التضامن والتلاحم وتوحيد الهجوم حيث يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بِنْيَانٍ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

إنه حينما يجتمع عشرة رجال على دفع كتلة ثقيلة أو جرّها فإنهم ينجحون حينما تتفق قوتهم في وقت واحد، ويفشلون حينما تتفاوت قوتهم في التوقيت، ولذلك كان هذا التوجيه في غاية الأهمية، لأن تطبيق الهجوم الجماعي الموحد إما أن يقضي على قوة الأعداء لقوة اندفاعه، وإما أن يحدث في جيشهم شرخاً كبيراً يتسبب في فصل قواتهم وإضعافها.

ولم يُغفل عمر رضي الله عنه في هذا التوجيه أن يذكر الجيش الإسلامي بأهمية الاتصال بالله تعالى، واستنزال النصر منه، وهو الأهم في هذا الموضوع، فوجههم إلى اختيار الوقت الأفضل للهجوم حيث ساعة الإجابة ونزول الرحمة يوم الجمعة، وفي هذا جمع بين فعل الأسباب الممكنة في طلب النصر مع التوكل على الله تعالى وحده.

#### استشارة عمرو أهل الرأي ونهاية المعركة:

أما موقف عمرو بن العاص رضي الله عنه من ذلك فقد ضجر هو أيضاً من تأخر الفتح، فاستشار كبار أصحابه في هذا الأمر، يبين ذلك ما رواه ابن عبد الحكم: أن عمرو بن العاص قال لمسلمة بن مخلد: أشر عليّ في قتال هؤلاء، فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك، قال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت.

قال: فدعا عمرو عبادة فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك أن لا تنزل، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه فصاف الروم وقتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

وفي رواية أخرى عند ابن عبد الحكم قال: لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره، ثم جلس فقال: إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يُصلح آخره إلا ما أصلح أوله - يريد الأنصار - فدعا عبادة بن الصامت فعقد له، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك<sup>(١)</sup>.

وهذه مشورة صادقة، ورأي صائب، فإن القائد العام الذي هو المسؤول الأول عن الجيش لا يكون همُّه الأول هو الإقدام المندفع، بقدر ما يكون همه الحفاظ على مركز القيادة، حتى لا يكون عرضة للاجتياح من الأعداء، فيكون سبباً في حصول الخلل في الجيش، فإذا أناب القائد العام من يتولى عنه القيادة المباشرة ممن يشتهرون بالشجاعة والتجرد، فإن الشيء الذي سيشغل بال هذا القائد هو الإقدام بقوة للحصول على النصر، لأن إصابته لا تعني إصابة الجيش، ولا وقوع الخلل فيه.

هذا وإن تنازل عمرو بن العاص عن القيادة لعبادة بن الصامت يشبه تنازل أبي عبيدة بن الجراح في اليرموك، حينما أسند القيادة لخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا التنازل يدل دلالة واضحة على أن أولئك الصحابة لم يكن هدفهم أن يبنوا أمجاداً لأنفسهم، ولا أن يخلدوا ذكركم، ولو كانوا يلاحظون هذا الهدف ما كان منهم هذا التنازل، حتى لا يذهب شرف الانتصار لغيرهم.

وهذا التنازل مبعثه شعور القائد بأنه قد استنفد كل طاقته في القيادة، ويرجو أن يتمَّ ما استغلق من أمر الفتح على يدي من يتوسم بهم الخير ويتفائل بصلاحهم، فيلغي من حسابه ذاته وسمعته ليحافظ على أمر الأمة ومصالحتها.

ولو أن جميع المسؤولين لاحظوا هذا الهدف السامي فأسندوا مهماتهم أو بعضها لغيرهم من أهل الكفاءة، رجاء تحقق النجاح على أيديهم لتجنب الأمة كثيراً من أسباب الفشل، ولتقدمت كثيراً في معارج الكمال.

(١) فتوح مصر/ ٦٠ - ٦١ .

وفي الحقيقة فإن مَنْ صنع ذلك يكتسب من السمعة ثناء أهل الصلاح والعقول الراجحة، وإن لم يقصد ذلك؛ لأنهم سيُكبرون فيه زهده في الرئاسة والصدارة، ويقدرّون اهتمامه الكبير بمصلحة أمته، ونجاح مهمته.

هذا وإنني لا أريد أن أترك هذه الرائعة من السلوك العالي دون أن أنوه بموقف عمرو حينما ألح على عبادة بأن لا ينزل عن فرسه وألبسه عمامته بيده وهو فوق فرسه، وفي ذلك تكريم لأهل الفضل، ورفع لمكانتهم في المجتمع، وهو إضافة إلى ذلك يعتبر شاهداً حياً على ما كان يتصف به قادة المسلمين الأوائل من العقل الراجح، والتواضع الجمّ.

ومما جاء في أخبار هذا الفتح ما أخرجه ابن عبد الحكم عن جنادة بن أبي أمية قال: دعاني عبادة بن الصامت يوم الإسكندرية وكان على قتالها، فأغار العدو على طائفة من الناس، ولم يأذن لهم بقتالهم فسمعتني فبعثني أحجز بينهم، فأتيتهم فحجزت بينهم، ثم رجعت إليه فقال: أقتل أحد من الناس هنالك؟ قلت: لا، قال: الحمد لله الذي لم يقتل أحد منهم عاصياً<sup>(١)</sup>.

وهذا يعني أنهم استمروا في الهجوم على الأعداء ولم يكتفوا بالدفاع، وهذا الأمر لا بد فيه من إذن القائد، وقد حكم عبادة على من فعل ذلك بالعصيان وحمد الله تعالى أنهم لم يموتوا على ذلك، وهذا يدل على مقدار اهتمام قادة المسلمين بتنظيم أمور الجيش ومن ذلك لزوم طاعة القائد واستئذانه في أي عمل يُقدم عليه الجنود، وقد تقدمت لنا أمثلة تبيّن النتائج السيئة المترتبة على معصية القائد، أو التصرفات الفردية.

### رسول من عمرو إلى أمير المؤمنين بالفتح:

هذا وقد بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب بشيراً بالفتح فقال له معاوية: ألا تكتب معي؟ فقال له عمرو: وما أصنع بالكتاب؟ أأست رجلاً عربياً تُبَلِّغ الرسالة وما رأيت وحضرت؟ فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخرَّ عمر ساجداً وقال: الحمد لله.

ذكره ابن عبد الحكم، ثم ذكر عن معاوية بن خديج أنه قال: بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة في الظهيرة،

(١) فتوح مصر/ ٦١ .

فأنخت راحلتي بباب المسجد؛ ثم دخلت المسجد فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحباً عليّ ثياب السفر، فأتتني فقالت: من أنت؟ قال: فقلت: أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتدُّ أسمع حفيف إزارها على ساقها- أو على ساقها- حتى دنت مني فقالت: قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها، فقال: ما عندك؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين فتح الله الإسكندرية، فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن أذن في الناس، الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك، فقم فأخبرتهم، ثم صلي ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات، ثم جلس فقال: يا جارية هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال: كل فأكلت على حياء، ثم قال: كل، فإن المسافر يحب الطعام، فلو كنت أكلا لأكلت معك، فأصبت على حياء، ثم قال: يا جارية هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد قال: قلت أمير المؤمنين قائل- أي نائم في الظهيرة- قال: بتس ما قلت- أو بتس ما ظننت- لئن نمت النهار لأضيغنَّ الرعية، ولئن نمت الليل لأضيغن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية<sup>(١)</sup>.

ومن هذا الخبر نستنتج أن المسجد في عصر الإسلام الأول كان يمثّل أهم وسائل الإعلام، حيث يجتمع المسلمون فيه ببناء: الصلاة جامعة، وهذا النداء يعني أن هناك أمراً مهماً سيتم إبلاغه لعموم المسلمين فإذا اجتمعوا ألقيت عليهم البيانات العسكرية، والأمور السياسية والاجتماعية وغير ذلك.

وإذا كان الفكر قد يجنح إلى أن هذه هي الوسيلة المتاحة لهم في ذلك الوقت، فينبغي أن لا نغفل عن ملاحظة مهمة وهي ما يضيفه جو المسجد الروحي من ضرورة الالتزام بمكارم الأخلاق، والبعد عن مساوئها، فليس من المتوقع ممن قام يلقي بيئاً، أو يصدر تعليمات في المسجد أن يقع منه الكذب والتزوير، ولا أن يغتتم غفلة الناس ليصوغ تصوراتهم كما تملي عليه أهواؤه ومصالحه الخاصة، أو مصالح من يعملون معه، أو يعمل لصالحهم.

(١) فتوح مصر / ٦٢ .

وهذا لا يعني أن الصحابة رضي الله عنهم لو أذاعوا هذه البيانات ونحوها خارج المسجد لوقع منهم التزوير والتضليل فإن إيمانهم القوي يحميهم من ذلك، ويصاحبهم حيثما حلوا وأينما ارتحلوا، ولكن المسجد يعتبر وسيلة من وسائل الضمانات التي تساعد على الالتزام بمكارم الأخلاق.

كما نستفيد من هذا الخبر وصفاً لحياة عمر رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين، حيث يقول معاوية بن خديج: لئن نمتُ النهار لأضيعنَّ الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعنَّ نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية.

وهذا يدل على كمال اليقظة لحق النفس وحقوق الآخرين، وإذا استطاع المسلم أن يجمع بين مراعاة ذلك كله فإنه يكون من المتقين المحسنين.

فالليل فرصة عظيمة للعمل الصالح، فإن كثرة الصلاة تزيد من الحسنات، وترفع رصيد المؤمن عند ربه تعالى يوم القيامة، كما أنها تُقوي قلبه على تحمل الشدائد والمشكلات التي يواجهها مع الناس في النهار، فلا بد لكل مسلم، وخاصة من يتحمل مسئولية في أمته أن يتزودَّ بالصلاة، وكلما كان زاده منها أكبر كان احتمالها لمواجهة الناس أقوى، ولذلك قرن الله سبحانه بين أمر نبيه ﷺ بقيام الليل والإخبار بضحامة المسئولية المنوطة به حيث يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل : ١ - ٥].

والنهار فرصة للعمل الصالح من ناحية أداء المسئولية التي تحملها المسلم نحو إخوانه المسلمين، بأن يؤدي حقوقهم كاملة، وكلما زادت حساسية المسلم نحو شعوره بالمسئولية فإنه يضاعف من عمله، حتى لا يستطيع أن يجد إلى الراحة سبيلا، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يشير بقوله هذا إلى هذه المعاني وغير ذلك مما يدركه بحسه الإيماني القوي، ولا شك أنه قد بلغ الدرجات العلى في مراعاة المسئولية وأداء حقوق الناس.

هذا وفي هذا الخبر وما سبقه ما يفيد بأن الإسكندرية فتحت عنوة، ولكن جاء في روايات أخرى ما يفيد بأنها فتحت صلحا، من ذلك ما جاء في رواية أخرجهما



الإمام الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن زياد بن جَزء الزبيدي- وكان في جند عمرو بن العاص- وقد جاء في هذه الرواية أن صاحب الإسكندرية عرض على عمرو أن يدفع إليه الجزية في مقابل أن يرد عليه ما أصاب المسلمون من سبايا أرضه، وأن عمرًا راسل في ذلك أمير المؤمنين وأن عمر أجابه بقوله: أما بعد فإنه جاء في كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن تردّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولن بعدنا من المسلمين أحب إليّ من فيء يقسم، ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه، وُضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل بيته، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإننا لا نقدر على ردّهم ولا نحب أن نصلحه على أمر لا نفي له به.

قال: فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين، قال: فقال: قد فعلت، قال: فجمعنا ما في أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى، فجعلنا نأني بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيرّه بين الإسلام والنصرانية، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تُفتح القرية، قال: ثم نحوزه إلينا، وإذا اختار النصرانية نُخرت النصارى ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعًا شديدًا حتى كأنه رجل منا خرج إليهم، قال: فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم.

وقد أُتي فيمن أتيانا به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن -قال القاسم: وقد أدركته وهو عريف بني زبيد- قال: فوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية - وأبوه وأمه في النصارى- فاختار الإسلام فحزناه إلينا- ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى<sup>(١)</sup>.

وإن هذا يعتبر شاهد صدق على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العزوف عن الدنيا والإقبال على الآخرة، والرغبة الصادقة في هداية العالمين إلى

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٠٥.

الإسلام، فإن دخول الأسرى في الإسلام لا يفيد المسلمين شيئاً من الدنيا. وبقاؤهم على دينهم يتضمن فائدة دنيوية لهم حيث يُلزمون بدفع الجزية للمسلمين، ومع ذلك نجد عمر رضي الله عنه يأمر بتخيير الأسرى بين الإسلام أو دفع الجزية. وحينما تم تطبيق ذلك كان الصحابة ومن معهم من المسلمين يكبرون تكبيراً أشد من تكبير الفتح حينما يختار أولئك النصارى دين الإسلام، ويجزعون جزعاً شديداً حينما يختارون البقاء على دينهم، حتى كأن أولئك الأسرى من ضمن جماعة المسلمين وخرجوا عن دين الإسلام.

وهذا يدل دلالة واضحة على أن بقاء الكفار على دينهم ورضاهم بدفع الجزية كان هو الخيار الاضطراري عند المسلمين، وأنهم كانوا يفضلون عليه دخول الكفار في الإسلام ويتحمسون لذلك.

وكونهم يجزعون حينما يختار الأسرى البقاء على دينهم مع دفع الجزية دليل على أن المسلمين كانوا يفهمون جيداً أن استرقاق هؤلاء السبي لا يعني إذلالهم ولا استخدامهم، وإنما يعني تهية الجو الملائم لهم ليتفهموا الإسلام حيث يعيشون فترة من الزمن في بيوت المسلمين، فيشاهدون صلواتهم وأخلاقهم العالية، مع ما يؤملون من عتقهم إذا أسلموا فيكون مجموع ذلك دافعاً لهم إلى الدخول في الإسلام.

وتعبير الراوي عن مشهد اختيار أولئك لدينهم بقوله «وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً حتى كأنه رجل خرج منا إليهم» دليل على أن أولئك المؤمنين المتقين قد قطعوا مراحل في محاولة إدخال أولئك النصارى في الإسلام، فكأنهم انتزعوا منهم وقد أوشكوا على بلوغ مقاصدهم من دعوتهم.

وكون بعضهم قد اختار الإسلام دليل على سرعة تأثير أولئك المسلمين في اجتذاب الكفار إلى الإسلام، حيث لم يمض إلا وقت قليل بين أسرهم ودخولهم في الإسلام.

وإننا لنستطيع أن نعرف اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بخلق الوفاء من قول عمر رضي الله عنه في كتابه «فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب، فبلغ مكة

والمدينة واليمن فإننا لا نقدر على ردهم، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفي له به» فعمر رضي الله عنه ينظر إلى الوفاء بالعهد قبل إبرام الاتفاق مع الأعداء، حتى لا يكون المسلمون في وضع لا يستطيعون فيه الوفاء، وهذا الخلق يعتبر مرحلة عالية في الوفاء، لأن من يبرم اتفاقية على أمر ثم لا يستطيع الوفاء به يكون معذوراً، ولكن حينما يفكر بعمل الاحتياطات اللازمة لموضوع الوفاء بالعهد حتى لا يجد نفسه بعد ذلك عاجزاً عن الوفاء، فهذا نهاية التدبير، وغاية النظر الثاقب.

وما جاء في هذه الرواية من ذكر أبي مريم بن عبد الرحمن الذي كان نصرانياً فأسلم، ثم رفعه إسلامه بعد ذلك إلى أن أصبح عريقاً على قبيلة بني زيد العربية، يدل دلالة واضحة على تجرد المسلمين آنذاك من العصبية، وأن مقياس الكرامة في الإسلام الذي شرعه الله تعالى بقوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. كان مطبقاً في عصور الإسلام الزاهرة.

وهذا الخبر يفيد بأن الإسكندرية فتحت صلحاً، والجمع بينه وبين النصوص المتقدمة التي تفيد بأنها فتحت عنوة أن نتائج الحروب كانت لصالح المسلمين، وأن رواة المسلمين سموا النصر الأخير فتحاً، وأنه لما رأى ذلك صاحب الإسكندرية وأدرك أن بلاده ستفتح عرض الصلح المذكور، فتسامح معه المسلمون وقبلوا ذلك، لأن المفترض أن يكون الصلح قبل القتال، وقد مر علينا سابقاً في فتح مصر أن عمرو بن العاص قبل الصلح بعد القتال، وأن بعض الصحابة عارضوه في ذلك ولكن أقره على ذلك عمر رضي الله عنهم أجمعين.

هذا وافتتح الإسكندرية تم فتح جميع البلاد المصرية، وكانت آنذاك أبرز بلادها.

وإن الذي يتأمل في فتح مصر يجد المسلمين عاملوا أهل تلك البلاد بالرفق واللين أكثر مما عاملوا غيرهم، وقد تقدم أن النبي ﷺ أخبرهم بفتح مصر وأوصاهم بأهلها خيراً وذكر أن لهم ذمة ورحمًا، ولا شك أن الصحابة كانوا يلاحظون ذلك.

هذا إضافة إلى أن أهل البلاد من الأقباط كانوا يميلون إلى المسلمين، ويرون فيهم سبباً للخلاص من عسف الروم وجبروتهم، ولذلك لم يكن في مصر بعد

الفتح مشكلات انتفاض وقلقل، وكان عمرو بن العاص يكرم كبراءهم ويهتم بهم كما جاء في بعض الروايات .

ولما انتهى عمرو من فتح الإسكندرية استأذن أمير المؤمنين عمر في أن يجعل منها دار الإمارة لتوفر المباني بها، ولكن عمر أبى عليه ذلك، وأمره أن يجعل دار الإمارة دون نهر النيل حتى لا يحول بينه وبين دار الخلافة نهر ولا بحر، فانتقل إلى مكان إقامته حينما كان محاصراً حصن باب اليون، وابتدأ بإنشاء مدينة الفسطاط التي سميت بذلك من فسطاط عمرو الذي تركه من أجل الحمامة التي فرخت فيه .

### موقفان لأمر المؤمنين عمر:

جاء في رواية لابن عبد الحكم: وبنى عمرو بن العاص المسجد، وكان ما حوله حدائق وأعشاباً، فنصبوا الحبال حتى استقام لهم، ووضعوا أيديهم فلم يزل عمرو قائماً حتى وضعوا القبلة، وإن عمراً وأصحاب رسول الله ﷺ وضعوها، واتخذ فيه منبراً.

فكتب إليه عمر بن الخطاب: أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أو ما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لما كسرت<sup>(١)</sup>.

هذا ولعل المنبر الذي صنع لعمرو كان عالياً، فلفت نظر عمر حينما بلغه ذلك فخشى أن يداخل من صعده شيء من الكبر، أو يقع في قلوب بعض المستمعين شيء من اتهامه بذلك، وإلا فإن المنبر قد صنع لرسول الله ﷺ، ولكن لم يكن عالياً، إذ كان ثلاث درجات فقط .

وفي هذا دلالة على اهتمام عمر رضي الله عنه بمشاعر المسلمين وحقوقهم، وهذا مثل من أمثلة محاولاته الدائمة لإزالة الفجوات والفوارق بين الحكام والمحكومين، لئلا يطغى حاكم فينخدع بمظاهر التعظيم والرفعة، فيحتجب عنه أهل العقول الكبيرة والإيمان القوي، ويحاول التقرب إليه والهيمنة عليه أصحاب العقول

(١) فتوح مصر / ٦٨ .

الصغيرة والإيمان الضعيف، ولئلا يضعف محكوم فينزوي عن طلب الحق والدفاع عنه .

وإذا كان عمر رضي الله عنه يأخذ ولاته بهذه الملاحظات الدقيقة مع أنه يتحرى أشد التحري في اختيارهم ومع كون أغلبهم من الصحابة، فكيف بمن هم دونهم في العقل والدين بمراحل!

إن الملاحظة الدائمة للعلاقة بين الحكام والرعية تعتبر من أهم دعائم قوة الدولة الإسلامية، وسرعة انتشارها في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين، ولقد عرفنا من هذه الملاحظات والتحريات أن مهمة الحاكم لا تنتهي باجتهاده في اختيار الولاة الأكفاء، بل تمتدُّ إلى المتابعة وإبداء الملاحظات النافعة.

وإذا كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أخذ ولاته بذلك وحاسبهم حتى على الأمور التي لم يخطر ببالهم أثرها على الأمة، فإنه قد أخذ نفسه بذلك قبل أن يأخذ غيره، فحينما بعث إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه بقوله له: إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع، فكتب عمر: أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين<sup>(١)</sup>.

وهذا دليل على كمال ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وزهده في مظاهر الحياة الدنيا، وإذا كان الكبار والزعماء هم الذين يترفعون عن أحوال الدنيا، ومتاعها الزائل، فإن من دونهم من باب أولى أن يترفعوا عن ذلك.

\*\*\*\*\*

---

(١) فتوح مصر / ٦٩ .



مواقف وعبر

في



خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه



## استشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما

أخرج أبو زيد عمر بن شبة النميري بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن عمر كان دخل بأبي لؤلؤة البيت ليصلح ضَبَّةً له، وكان نجاراً نقاشاً يصنع الأرحاء، فقال أبو لؤلؤة: مُر سيدي المغيرة بن شعبة يضع عني خراجي. فقال: إنك لتكسب كسباً كبيراً فاصبر واتق الله، هل أنت صانع لي رحى؟ قال: نعم والله لأصنعن لك رحى تتحدث بها العرب. فقال عمر رضي الله عنه: أوعدني الحبِيث، وخرج إلينا فقال لو قتلت أحداً بسوء الظن لقتلت هذا العليج، إنه نظر إليّ نظرة لم أشك أنه أراد قتلي فقلّ ما مكث حتى طعنه (١).

في هذا الخبر بيان للسبب الظاهري لإقدام أبي لؤلؤة المجوسي على قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

وفيه مثل من ورع عمر الشديد حيث لم يقتل ذلك الرجل الذي توعدده مع أنه كافر، بل إنه لم يسجنه ولم يخرجه من المدينة، وفيه أيضاً دلالة على قوة توكل عمر وإيمانه بقضاء الله وقدره وأن جميع الأمور بيد الله سبحانه.

وأخرج الإمام البخاري خبر استشهاده من حديث عمرو بن ميمون قال في سياق حديثه: إني لقائم ما بيني وبينه أحد -يعني عمر وفي صلاة الفجر- غداة أصيب وكان إذا مرّ بين الصفيين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبّر فسمعته يقول: قتلي - أو أكلني الكلب، وذلك حين طعنه، فطار العليج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله،

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣/ ٨٩٣.

فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلتني، فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع؟ -يعني الذي يصنع بيده- قال: نعم، قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام.

إلى أن قال: وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك<sup>(١)</sup>.

وقوله «وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي» مثل لآثار الخوف من الله تعالى بتخيل الوقوع في شيء من التقصير في أمر المسئولية فيود لو أن أجر الولاية قوبل بما يحتمل أن يكون وقع فيه من تقصير فيخرج منها كفافًا لا له ولا عليه.

وإذا كان عمر يشعر بهذا الشعور وهو الذي ضرب بعدله المثل وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة فكيف ممن هم دونه في العدل بمراحل ولم يظفروا بمثل هذه الشهادة من الصادق المصدوق ﷺ.

وإنه لعجب من عمر وهو في تلك الساعات العصبية أن يبدي النصيحة ويغير المنكر الذي رأى ذلك الشاب متلبسًا به، فقد وعظه في إطالة ثوبه بأسلوب مؤثر جمع فيه بين الفائدة الدينية والدنيوية، حيث بين أن تقصير الثوب طاعة لله تعالى يسلك بها صاحبها سبيل المتقين، وحفظ للثوب من الفناء، حيث إن ملامسة الثوب للأرض تدينسه وتعجل في بلاه.

ثم قال عمر كما جاء في رواية البخاري المذكورة: يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه، قال إن وفي له مال آل عمر فأدّه من أموالهم، وإلا فسّل في بني عدي بن كعب، فإن لم تَفِ أموالهم فسّل في قريش ولا تعدّهم إلى غيرهم فأدّ عني هذا المال.

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٥٩/٧).



وهذا مثل من ورع عمر رضي الله عنه وتقواه فهو الذي يقوم على رأس أعظم دولة في العالم، وقد جُبِّتْ إليه خزائن الأرض ومغانم الفتوح العظيمة، ومع ذلك يموت مَدِينًا، ويأبى أن يُسَدِّدَ دينه من بيت مال المسلمين، وإنما يأمر ابنه عبد الله بأدائه من مال أسرته فإن لم يف بذلك فليعرض القضية على عشيرته ثم على قبيلته .

وإنما تورع عمر عن أداء ذلك الدين من بيت مال المسلمين لأن فيه حقًا لكل مسلم فلا بد أن يأذن له في ذلك جميع المسلمين، ومن الذي يضمن له أن جميع المسلمين راضون عن ذلك؟ وهو لا يريد أن يفارق الدنيا وقد تحمل في ذمته شيئًا من أموال المسلمين بغير رضاهم .

أما قرابته وقبيلته فهو يضمن أنهم لن يبذلوا إلا عن رضَى منهم فليس في الأمر شبهة .

وقد امتدت خلافته رضي الله عنه من العام الثالث عشر إلى نهاية العالم الثالث والعشرين، وكان عهده على طوله نسيبًا عهد عمل وإنتاج متواصل، سواء في المجال الحربي أو المجال العمراني، فلقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهده حتى شملت العراق وبلاد فارس والشام ومصر، وبهذا يكون المسلمون في عهده قد ضموا مملكة الفرس بجميع أطرافها إلى دولة الإسلام، وهي الإمبراطورية الكبرى التي كانت تسيطر على المشرق، كما ضموا أهم أقاليم دولة الروم وهما الشام ومصر، وذلك بعد خوض عشرات المعارك التي كان النصر فيها حليف المسلمين إلا في القليل النادر .

وفي خلال هذه السنوات العشر الحافلة بالأعمال الجليلة كان الأعداء يبذلون كل ما يستطيعون من جهد لتدمير هذه الدولة الفتية التي أخذت تتسع بشكل لم يسبق له مثيل، فلقد وجهت الدولتان العُظميان آنذاك كل طاقتهما القتالية لصد المسلمين فلم يفلحوا، واتفقوا في عام واحد وهو العام الخامس عشر على حشد جميع مالدِيهم من جنود ليواجهوا المسلمين في وقت واحد، فكانت معركة القادسية واليرموك، حيث شُغِلَ المسلمون بالإعداد لمواجهة تجمع الفرس الكبير لعدة أشهر،

ففاجأهم الروم بالحشود العظيمة السريعة التي التقت مع المسلمين في الشام في معركة اليرموك ثم كانت القادسية بعد ذلك .

ولقد جرت محاولات بعد ذلك من الفرس لحشد ما تبقى من قوتهم في مواجهة شاملة مع المسلمين، وكان آخر الحشود الضخمة في نهاوند حيث قضى عليها المسلمون .

### خبر الشورى بين أهل الحل والعقد:

إن من أهم مواقف عمر رضي الله عنه التي ختم بها حياته ما قام به من تثبيت مبدأ الشورى بين أهل الحل والعقد، وقد جاء في الرواية التي أخرجها الإمام البخاري من حديث عمرو بن ميمون: «فقالوا: أوْصِ يا أمير المؤمنين، استخلف، فقال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمي علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء (١) .

وهكذا جعل الخلافة شورى بين أفضل الأمة ديناً وهم الستة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، ولم يدخل معهم سعيد بن زيد مع أنه سابع السبعة الذين بقوا من العشرة المبشرين بالجنة بعد أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم . . لم يدخله معه في هذا الأمر لأنه ابن عمه وزوج أخته، وذلك مبالغة منه في الورع وإبعاد صلة القرابة من أن يكون لها تأثير في اختيار الخليفة، وهذا من كمال عدله وورعه وبُعدته عن شرف الدنيا وجاهاها .

ولا شك أن عمر قد لاحظ في كل واحد من هؤلاء الستة الكفاءة للقيام بهذا الأمر، لأن الأفضلية في الدين وحدها لا تكفي لحمل مسئولية الأمة .

هذا وقد أحاط عمر رضي الله عنه أمر هذه الشورى بنظام يحمي هذا الأمر من التفتت والفوضى، فمن ذلك أنه حصر الشورى في هذا العدد المحدود، وذلك أضمن لنجاح هذا الأمر، بخلاف ما لو جعلت لعموم الأمة فإنه سيدخل في حق الاختيار ضعفاء الإيمان من أصحاب الهوى، وربما دخل المنافقون، وإذا كان الرأي

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٥٩/٧) .

للأكثرية فربما يتغلب أصحاب الدنيا على أصحاب الآخرة فيحل الفساد في الأرض .

كما أنه حصر المدة التي يتم فيها اختيار الخليفة بثلاثة أيام وذلك أحزم للأمر وأبعد من حدوث تدخُّل من بعض أصحاب الدنيا قد يحدث بسببه فتنة بين المسلمين .

وحيث إنه قد جعل الرأي للأغلبية من أهل الشورى فإنه أدخل معهم ابنه عبد الله ليكون مرجحاً لأحد الفريقين عند التساوي وفي حال عدم رضاهم بحكمه يكون الترجيح للفريق الذين معهم عبد الرحمن بن عوف كما جاء في رواية المدائني أن عمر قال لهم «إذا اجتمع ثلاثة على رأي وثلاثة على رأي فحكّموا عبد الله بن عمر، فإن لم ترضوا بحكمه فقدموا من معه عبد الرحمن بن عوف»<sup>(١)</sup> .

وهذا صريح في أن إدخال عبد الله بن عمر معهم للترجيح عند تساوي الأصوات، وإنما اختاره أمير المؤمنين عمر لهذه المهمة لما عُرف عنه من الزهد في الدنيا والتجرد الكامل لله تعالى، وربما لأسباب أخرى يدركها عمر ويعلم أن في وجوده ما يساعد على نجاح الأمر، كما أن ترجيح الجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف قد لاحظ فيه عمر ما يتصف به من الزهد في مناصب الدنيا والتجرد للآخرة .

أما أمر الشورى في اختيار الخليفة فإن الستة المذكورين اجتمعوا بعد الفراغ من دفن عمر رضي الله عنهم أجمعين، وقد جرت مواقف من الإيثار والرأي السديد تُسجّل لهؤلاء العظماء .

فمن ذلك أنهم لما اجتمعوا تحدث عبد الرحمن بن عوف فقال كما جاء في رواية الإمام البخاري السابقة: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن: أفجعلونه إليّ والله عليّ أن لا ألوّ عن أفضلكم؟

(١) فتح الباري ٦٧/٧ .

قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمرتك لتعدلنَّ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه فبايع له عليّ وولج أهل الدار فبايعوه<sup>(١)</sup>.

وهذه الرواية فيها اختصار شديد حيث لم تذكر ما قام به عبد الرحمن بن عوف خلال الأيام الثلاثة، وقد جاء في رواية أخرى للبخاري الإشارة إلى ذلك، وفيها قول المسور بن مخرمة: «حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايعنا عثمان - قال المسور- طرقتني عبد الرحمن بعد هيع من الليل، فضرب الباب حتى استيقظت فقال: أراك نائماً فوالله ما اكتحلْتُ هذه الثلاث بكثير نوم» ثم أمره بدعوة بعض أهل الشورى.

وجاء في آخر الرواية «فلما صلى الناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر- فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن، ثم قال: أما بعد يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن علي نفسك سبيلاً، فقال -يعني لعثمان- أبايعك على سنة الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والخليفين من بعده، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون<sup>(٢)</sup>.

هذا وإن ما قام به هؤلاء الصحابة الأربعة رضي الله عنهم من التنازل عن الخلافة ابتغاء وجه الله تعالى يعتبر موقفاً عظيماً، أما تمسك عثمان وعلي رضي الله عنهما بحقهما في ذلك فهو محمول على أن كل واحد منهما يريد القيام بهذا العمل الصالح الذي يعتبر من أعلى الأعمال الصالحة وأشرفها حيث لا يأتي من يساوي الخليفة في هذا العمل إذا قام بتبعاته وحذر من مغباته، فالخليفة يعتبر هو القائد الأعلى لجميع المجاهدين في دولة الإسلام، وأي فتح يتم بتوجيهه فله منه حظ ونصيب، إضافة إلى قيامه بالعدل بين الناس وإثابة المحسن وعقوبة المسيء، وإقرار دولة الإسلام في الأرض.

(٢) صحيح البخاري رقم ٧٢٠٧ (١٣/١٩٣).

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٧/٦١).

ولكن مواقف الصالحين تختلف نحو هذا الأمر كما اختلفت مواقف أصحاب الشورى هنا، فمنهم من يغلب جانب السلامة من المآثم خشية عدم المقدرة على القيام بكل مطالب الولاية، ومنهم من يغلب جانب الطموح نحو المعالي في الأعمال الصالحة مع رجاء التسديد والتوفيق من الله تعالى.

والذي يدفع أصحاب الصلاح غالباً إلى قبول الولاية كونهم يحملون في أفكارهم مشاريع خيرة نحو الإصلاح وإعزاز الإسلام، ويخشون إن تولاهم غيرهم لم يحقق هذه الأمانى السامية.

هذا وتجدر الإشارة بشكل خاص بجهود عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فقد كان رجل الموقف حيث أشار عليهم بأن يجعلوا أمر الشورى لثلاثة منهم، وذلك بالتنازل عن حقهم في هذا الأمر، وفي ذلك حصر لأمر الخلافة وهو أدعى للنجاح في اختيار الخليفة.

ولما تم التنازل وكان عبد الرحمن بن عوف أحد المرشحين تنازل عنها ليقوم بعملية الاختيار، وقد قام بها خير قيام، حيث ظل ثلاثة أيام يأخذ آراء أهل الرأي من المسلمين، فلما رأى أغلبهم يرشح عثمان عزم على أخذ البيعة له، فبايعه أهل الشورى بغير تردد ولا امتناع، ثم بايعه وجهاء المسلمين وعامتهم في المدينة رضي الله عنهم أجمعين.

\*\*\*\*\*

## من مواقف عثمان بن عفان رضي الله عنه

استفتح الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافته بعدة كتب، فكتب إلى ولاية الأمصار، وإلى قادة الجنود، وإلى المسؤولين عن جباية الأموال، وإلى عامة المسلمين.

### كتابه إلى الولاية:

ذكر هذا الكتاب الإمام ابن جرير الطبري فيما يروي عن شيوخه قالوا: وكان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله:

أما بعد: فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلُقوا رعاة، لم يخلُقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك قطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم، وتأخذوا بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تتبابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الكتاب أشار عثمان رضي الله عنه إلى بيان مهمة الولاية الذين يلون أمور المسلمين، حيث بين أنهم رعاة، ومهمة الرعاة حفظ رعاياهم والعناية بهم وبذل الجهد في صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة، وليسوا جباة لأموالهم، بل هم مستأمنون على تلقي موارد الدولة المالية وصرفها بأمانة وعدالة.

ونبه على ما سيكون عند تغير الولاية من رعاة إلى جباة، بأن ذلك سبب في تقلص مكارم الأخلاق التي مثل لها بالحياء والأمانة والوفاء، وذلك أن بين الراعي والرعية خيطاً سامياً من العلاقات المتينة، يؤكد ويثبت اتفاق الجميع على هدف واحد، وهو ابتغاء وجه الله تعالى، فالوالي يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لرعيته من رعاية وعدالة، وأفراد الرعية يسعون لهذا الهدف بما يقدمونه لإمامهم من طاعة

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٤٤-٢٤٥.

وولاء وأمانة ووفاء، ويبقى خُلُقُ الحياء الذي أشار إليه عثمان يُظَلُّ الجميع فيمنعهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع في الحرج.

ثم يوصي عثمان ولاته بالعدل في الرعية، وذلك بأخذ ما عليهم من الحقوق وبذل ما لهم من ذلك، ويشير إلى نقطة مهمة وهي أن الوفاء بالعهود من أهم أسباب الفتح والنصر على الأعداء، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين أثر هذا الخلق الرفيع في تفوق المسلمين الإداري والحربي.

### كتابه إلى قادة الجنود:

قال ابن جرير: قالوا: وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج<sup>(١)</sup>:  
أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملاء منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الكتاب لفت نظر إلى أن الأمور لن تتغير بتغير الخليفة، لأن الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسرون على خط واحد، وهو القيام بمهمة تطبيق الإسلام في واقع الحياة.

وقوله «وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملاء منا» إشارة إلى أن حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشورى، وذلك يترتب عليه أن جميع القضايا المهمة تكون معلومة بتفاصيلها عند أهل الحل والعقد، فإذا ذهب الحاكم وخلفه حاكم آخر سار على المنهج نفسه لوضوح الهدف لدى الجميع.

وقوله «ولا تغيروا فيغير الله بكم» وعي لسنن الله تعالى في هذا الكون، فمعية الله جل وعلا لأوليائه بالتوفيق والحماية والنصر مشروطة بلزومهم شريعته واستسلامهم لأمره، فإذا تغيروا في ذلك غير الله ما بهم واستبدل بهم غيرهم في الهيمنة والتمكين، وفي ذلك يقول الله سبحانه ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

(١) يعني الأقاليم.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٤٥.

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿الرعد: ١١﴾ .

### كتابه إلى الجبابة:

قال الإمام ابن جرير: قالوا: وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج: أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم<sup>(١)</sup>.

ففي هذا الكتاب تذكير بالله تعالى لتكون رقابته هي المهيمنة على النفوس، فيلتزم من ولاهم الله أمور أموال الأمة بالحق ويستقيموا عليه، فلا يأخذوا الأموال من مصادرها إلا بطريق حلال، وإذا أخذوها قاموا بحفظها بأمانة حتى يؤديها في وجوهها المشروعة.

ثم يوصيهم بلزوم الأمانة، ويذكرهم بأنهم إن سلبوها فإنهم يتحملون مغبة فقدها في الدنيا والآخرة، ويشاركون في المآثم من تأسى بهم في ذلك.

ثم يوصيهم بالوفاء بأداء حقوق اليتامى والمعاهدين، ويذكرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معرضون لنقمة الله تعالى، لأنه خصم لمن ظلم هؤلاء المستضعفين.

وفي هذه لفظة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٤٥.





مواقف وعبر

في



جهاد المسلمين في المشرق

وبلاد الروم



## مواقف جهادية في أذربيجان وبلاد الروم

لقد ضاق الأعداء ذرعاً بالإطاحة بدولهم وانتقاض ممالكهم، فأقدموا على التخطيط لزعزعة دولة الإسلام من داخلها، وكان أبرز مظاهر ذلك التخطيط إقدامهم على قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لاعتقادهم بأنه هو المحرك الأقوى للجهاد الإسلامي وألعم البارز لتماسك المسلمين في ظلال دولته القوية.

وقد ظهر بعد استشهاد واستخلاف عثمان رضي الله عنه ما يؤيد ذلك، حيث بدأت بعض الأقاليم بالانتفاض على المسلمين في الشام ومصر.

ومن الأخبار في ذلك ما رواه الإمام الطبري من أن أهل أذربيجان انتقضوا على المسلمين وأن أمير الكوفة الوليد بن عقبة سار إليهم حتى وطئهم بالجيش فلما رأوا ذلك انقادوا وطلبوا إليه أن يتم لهم على الصلح الذي كان صالحهم عليه حذيفة بن اليمان، ففعل وقبض منهم المال، وكانوا قد حبسوا ذلك عند وفاة عمر<sup>(١)</sup>.

أما الروم فإنهم قد أجلبوا على المسلمين بجموع عظيمة، وقد كتب أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الوليد بن عقبة الوالي على الكوفة يقول له: أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام.

فقام الوليد في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً- يعني في بلاد الفرس والمشرق- ردّ عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افستحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يأمرني أن أئدب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الزجر العظيم المبين، فانتدبوا رحمكم

(١) تاريخ الطبري ٢٤٧/٤.

الله مع سليمان بن ربيعة الباهلي، قال: فانتدب الناس فلم يمض ثلاثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلي، فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ماشاؤوا من سبي، وملؤوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصونا كثيرة<sup>(١)</sup>.

وهكذا زُتبت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وولاته وقادة جنوده البواسل أن الدولة الإسلامية ما تزال قوية مرهوبة الجانب، حيث أخضعوا أعداءهم وقضوا على القلاقل التي حدثت في المشرق، ثم اتجهوا نحو الروم فأوقعوا فيهم خسائر جسيمة، وأثبتوا لأعداء الإسلام أن القضاء على قادة المسلمين لا يعني شيئاً مهماً في إضعافهم ولو كان من توجهوا للقضاء عليه إمام المسلمين، لأن قادة الإسلام وجنوده يجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وليسوا مجبورين على القتال من حكاهم، ولو كان المسلمون يتأثرون بفقد إمام أو قائد تأثراً يشل حركة جهادهم لتأثروا قبل ذلك بفقد رسول الله ﷺ.

#### موقفان لحبيب بن مسلمة وزوجته:

هذا ومن الروائع التي رُويت في جهاد المسلمين مع الروم ما ذكره الإمام الطبري من خبر قائد المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري، وقد جاء في الخبر: «وكان حبيب صاحب كيد، فأجمع على أن يبيت الموريان»- يعني قائد الروم- فسمعت امرأته أم عبيد الله بنت يزيد الكلبيّة يذكر ذلك، فقالت له: فأين موعذك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة، ثم بيّتهم فقتل من أشرف له، وأتى السرادق فوجد امرأته قد سبقت، وكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق، ومات عنها حبيب، فحلف عليها الضحّاك بن قيس الفهري فهي أم ولده<sup>(٢)</sup>.

وقد عبر حبيب عن النصر على الأعداء بالوصول إلى سرادق «الموريان» باعتبار أن الوصول إلى مقر القائد يعني هزيمة الأعداء، وقد جعل لزوجته موعداً في الآخرة إن ظفر بالشهادة، وهو اللقاء في الجنة.

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٤٧.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٤٨.

وهذا دليل واضح على أن من صفات الجيل الأول أنهم يجعلون هدفهم إحدى الحسينين: إما النصر على الأعداء، أو الظفر بالشهادة.

وما قام به حبيب بن مسلمة دليل على براعته في التخطيط، حيث فاجأ الأعداء بذلك الهجوم الليلي المباغت، وهو مثل على تفوق المسلمين الحربي، ولم يكن الأعداء على مستوى المسلمين في الحذر والرصد الحربي، فلذلك وقع الروم في الفشل وانهزموا.

أما امرأة حبيب فإنها كانت مثالا للمرأة المؤمنة الشاعرة بمسئوليتها أمام زوجها وأمام واجبها نحو أمتها، فقد كانت مشاركة لزوجها في مشاعره وأفكاره وتخطيطه في أهم عمل يقوم به في حياته، وهو جهاد الأعداء.

ولا شك أن سؤالها عن موعد اللقاء وجواب حبيب لها يدل على مشاركة سابقة في تصور طموحاته ومراحل عمله.

وإذا كانت المرأة ذات كفاءة، وشاركت زوجها في المشورة والتشجيع والمؤازرة فإن إنتاج زوجها يكون مضاعفًا لأنه سيعيش في نطاق عمله ليل نهار.

وإذا كانت المرأة وهي التي تتصف عادة باللين وإيثار السلامة والبعث عن المخاطر. إذا كانت هي التي تدفع بزوجها - كهذه المرأة- إلى اقتحام الأهوال والدخول في المغامرات، فإنها امرأة عظيمة حقًا، ولاشك أن زوجها سيكون مندفعًا لذلك بطاقته المعتادة مضافًا إليها ما ناله من تأييد وتشجيع من الجانب الذي ينتظر منه ضد ذلك.

ولقد كانت هذه المرأة عظيمة أيضًا حينما لم تكتف بتشجيع زوجها ودفعه إلى بذل كل ما يملك من جهد في قتال الأعداء، بل غامرت بنفسها حتى سبقت زوجها إلى سرادق قائد الروم.

\*\*\*\*\*

## فتح بعض بلاد خراسان

استمرت الفتوحات في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد ولى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز القرشي.

وقد سار ابن عامر سنة إحدى وثلاثين إلى خراسان ففتح أبرشهر وطوس وبيورد ونسا، حتى بلغ سرخس، وصالح فيها أهل مرو. ذكر ذلك الإمام الطبري<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر رواية عن السكن بن قتادة العريني أن أهل خراسان جمعوا أربعين ألفاً بقيادة «قارن» فسار إليهم عبد الله بن خازم وليس معه إلا أربعة آلاف، وأمر الناس فحملوا الودك من سمن أو دهن أو زيت أو إهالة [وهي الودك المذاب]، ثم سار حتى إذا أمسى قدم مقدمته ستمائة، ثم أتبعهم، وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح، وجعل يقتبس بعضهم من بعض، وانتهت إلى عسكر قارن، فأتوهم نصف الليل، ولهم حرس فناوشوهم، وهاج الناس على دهبش، وكانوا آمنين في أنفسهم من البيات، ودنا ابن خازم منهم، فرأوا النيران يئمة ويسرة، وتتقدم وتتأخر، وتنخفض وترتفع، فلا يرون أحداً، فهاهم ذلك، ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم، ثم غشيهم ابن خازم بالمسلمين، فقتل قارن وانهزم العدو فاتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤوا، وأصابوا سبياً كثيراً<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يتحفنا قادة المسلمون الأوئل بالخطط الحربية المتنوعة، مما يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا الجهاد من أجل نصره الإسلام قضيتهم الكبرى، يعيشون من أجلها، ويموتون في سبيلها، فألهمهم الله تعالى الخطط الملائمة للمقام.

ومما يلاحظ أن هذه الخطط النادرة لا تتوفر للمسلمين إلا إذا كانوا في ضائقة من أمرهم، فيلهمهم الله تعالى إياها إنقاذاً لهم، وإعزازاً لهذا الدين.

ولهذا فإننا نراهم يُقدمون ويتوغلون في بلاد الأعاجم مع قلة العدد وضآلة العدد، متوكلين على الله جل وعلا ذاكرين معيته لأوليائه بالنصر والتأييد، مع بذل الجهد في الأخذ بالأسباب التي جعلها الله تعالى موصلة إلى غاياتها.

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٠.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٣١٤-٣١٥.

## معركة في طخارستان

أخرج الإمام الطبري عن مقاتل بن حيان قال: صالح ابن عامر<sup>(١)</sup> أهل مرو وبعث الأحنف<sup>(٢)</sup> في أربعة آلاف إلى طخارسان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مروروز، وجمع له أهل طخارستان وأهل الجوزجان والطاقان والفارياب فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفاً، وأتى الأحنف خبرهم وما جمعوا له فاستشار الناس فاختلفوا، فبين قائل: نرجع إلى مرو، وقائل: نرجع إلى أبرشهر، وقائل: نقيم نستمد، وقائل: نلقاهم فنناجزهم قال: فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر، ويستمع حديث الناس، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة أو يعجن، [والخزيرة طعام يشبه العصيدة] وهم يتحدثون ويذكرون العدو، فقال بعضهم: الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح حتى يلقى القوم حيث لقيهم فإنه أرب لهم فيناجزهم، فقال صاحب الخزيرة أو العجين: إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم، أتأمرونه أن يلقى حدَّ العدو مُصحراً في بلادهم، فيلقى جمعاً كثيراً بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلمونا! ولكن الرأي له أن ينزل بين المرغاب<sup>(٣)</sup> والجبل، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه.

فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال، فضرب عسكره وأقام، فأرسل إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه، فقال: إني أكره أن أستنصر بالمشركين فأقيموا على ما أعطيناكم وجعلنا بيننا وبينكم، فإن ظفرونا فنحن على ما جعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم.

قال: فوافق المسلمين صلاةً العصر، فعاجلهم المشركون فناهضوهم فقاتلوهم، وصبر الفريقان حتى أمسوا.

ثم ذكر في رواية أخرى أنهم استمروا في القتال ليلاً حتى ذهب عامة الليل، ثم هزمهم الله<sup>(٤)</sup>.

(١) هو والي البصرة عبد الله بن عامر القرشي.

(٢) هو الأحنف بن قيس التميمي.

(٣) المرغاب نهر يمر الروذ كما ذكر البلاذري في فتوح البلدان.

(٤) تاريخ الطبري ٤٤/٣١١ - ٣١٢، فتوح البلدان ٥٧٢.

في هذا الخبر نجد الأحنف بن قيس مع ما اشتهر به من الرأي وحصافة التفكير يجمع أهل الرأي فيستشيرهم، وهو بذلك يطبق حكماً شرعياً قد أمر الله تعالى به نبيه ﷺ مع أنه معصوم حيث يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فمن باب أولى أن يكون هذا الحكم سارياً على قادة المسلمين وولاتهم.

ومع ذلك نجد الأحنف لا يكتفى بتلك الشورى بل يقوم من الليل ويدور على خيام الجند عله يسمع رأياً جديداً مفيداً يأخذ به، فقد دلته التجارب على أن بعض العامة يُلهمهم الله آراءً سديدة، وهذه الآراء تظهر غالباً عند التهاور وتبادل الرأي، وقد يوصلون الرأي المختار لقائدهم وقد لا يفعلون ذلك.

ونجد الأحنف وهو القائد المحنك لا ينتظر احتمال وصول هذه الآراء إليه وهو في مركز القيادة بل يحمل نفسه على التجول ليلا عله يسمع رأياً مفيداً يحل مشكلة المسلمين.

والخطة الحربية التي استفدناها من هذا الخبر هي أن الجيش إذا كان عدده قليلاً وعدد عدوه كثيراً عليه أن يلجأ إلى مكان محصور بحيث لا يأتيه العدو إلا من جهة واحدة والمختار أن يكون المكان غير واسع بحيث لا يصل إلى الجيش إلا القدر المناسب لعدده.

وهكذا فعل الأحنف فأخذ بهذه الخطة فنجح وانتصر على أعدائه في تلك المعركة.

هذا وقد بعث الأحنف بن قيس طائفة من الفرسان بقيادة الأقرع بن حابس إلى الجوزجان، إلى بقية كانت بقيت من الزحوف الذين هزمهم الأحنف، فقاتلهم، فجال المسلمون جولة، فقتل فرسان من فرسانهم فقال كثير النهشلي:

سقى مُزَنُ السحاب إذا استهلَّتْ      مصارع فتية بالجُوزجان  
إلى القصرين من رُستاق خُوطٍ      أقادهمُ هناك الأقرعان<sup>(١)</sup>

ونحن مع كثير النهشلي فنقول: كم ضمت الأرض في مشارقها ومغاربها من شهداء المسلمين الذين عبقت الأرض بروائعهم الزكية، وأصبحوا شاهداً حياً على مدار التاريخ على عظمة المسلمين، واستعدادهم العالي للتضحية بأنفسهم وأموالهم في سبيل إعزاز دينهم.

إن الدولة الإسلامية التي حكمت أكثر بلاد العالم عدة قرون إنما بُنيت ونمت على دماء أولئك الشهداء الأبرار، وما أنتجته عقول أولئك القادة الأخيار.

\*\*\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٣١٢/٤.





مواقف وعبر

في



جهاد المسلمين في المغرب



## فتح مدينة سببيلة في أفريقية

ذكر ابن الأثير أن عثمان بن عفان رضي الله عنه ولى على مصر وما وراءها من أفريقية عبدالله بن سعد بن أبي السرح .

ثم إن عبدالله بن سعد لما ولي أرسل إلى عثمان في غزو أفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبدالله بن عباس وغيره، فسار بهم عبدالله بن سعد إلى أفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها، وساروا إلى طرابلس الغرب فغنموا ممن عندها من الروم، وسار نحو أفريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة .

وكان هرقل ملك الروم قد ولاء أفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سببيلة يوم وليلة، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم، وراسله عبدالله بن سعد يدعو إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما .

وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبدالله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مجداً ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين فسأل جرجير عن الخبر فقبل قد أتاهم عسكر ففت ذلك في عضده، ورأى عبدالله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقبل إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبدالله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي وهو يخاف، فحضر عنده وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبدالله .

## موقف لعبدالله بن الزبير:

ثم إن عبدالله بن الزبير قال لعبدالله بن سعد: إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة سالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبدالله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخبولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً فلما أُذُن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل الطائفتين ألقى سلاحه، ووقع تعباً، فعند ذلك أخذ عبدالله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزم الروم وقُتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة الملك جرجير سبية.

ونازل عبدالله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال مالم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار، ولما فتح عبدالله مدينة سبيلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكرا إلى حصن الأجم، وقد احتفى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحته بالأمان فصالحه أهل أفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار ونفل عبدالله بن الزبير ابنة الملك وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح أفريقية<sup>(١)</sup>.

هذا ولقد كان لعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما موقفاً عظيماً في البطولة والشجاعة وقد ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال: لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً أفريقية، وعليهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وفي جيشه عبدالله بن عمر،

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٥-٤٦.

وعبدالله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالَةً، فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبدالله بن الزبير: فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلاله بريش الطواويس فذهبت إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان قال: فأمر بهم فحَمَوْا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه، وهم يظنون أنني في رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس مني الشر، ففرَّ على برذونه فلحقته فطعنته برمحي، وذففت -يعني أجهزت- عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فرَقُوا وفرُوا كَفَرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمّة وأموالاً عظيمة، وسبيًا عظيمًا، وذلك ببلد يقال له «سبيللة» على يومين من القيروان.

قال: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين<sup>(١)</sup>.

هذا وإن ما قام به عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما يعتبر في غاية الشجاعة والجرسارة، حيث اخترق صفوف الأعداء ثم انتزع ملكهم من بين أيديهم فقتله وهم يشاهدون مشدوهين وقد ملأ الرعب قلوبهم.

ولقد كان ما قام به ابن الزبير نوعًا من الطموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال، بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعمائة وعشرين سنة، ولم يُذكر له قبل ذلك مواقف بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك؟ إن الاحتمالات التي يمكن أن ترد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خلد المغامر أمران:

(١) البداية والنهاية ٧ / ١٥٨ .

١- أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر، ويتفرق جنده كما عادة الكفار، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوف منها المسلمون.

٢- أن يتقبله الله شهيداً، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأمانى، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن في ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير، حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك، إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في أتون المعركة الملتهب.

إنه لا يُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون اللجنة من وراء تلك الوثبة، فيتخيلون أنهم يثبون إليها.

ولقد كان ابن الزبير وهو يثب تلك الوثبة متجرداً من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة طامحاً بتصوراته إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة.

وليس غريباً من ابن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه ذلك الإقدام النادر فإن الشبل من ذاك الأسد، ولقد سبق لنا عرض شيء من مغامرات أبيه العظيمة، ومنها هجومه على الأعداء وحده من فوق حصن باب اليون في فتوح مصر، واختراقه صفوف الروم يوم اليرموك وحده ذهاباً وإياباً.

وقد جاء في هذا الخبر أن البربر بعدما قُتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفرار القطا، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين، وأنه يقبض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشدائد، وينقذهم من المآزق، فإن المسلمين قد وقعوا في معضلة كبرى حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات في العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه، كما جاء في قول الراوي «فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه» فقبض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها.

ولا ننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبدالله بن الزبير يحمون ظهره، فإنهم قد شاركوه في تلك المخاطرة، ولئن لم يذكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائي قد بقي مخلدًا في الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها، وفي الآخرة بما ينتظرون من جزاء الإحسان بالإحسان.

أما ما جاء مما ظاهره الاختلاف بين رواية ابن الأثير ورواية ابن كثير فهو محمول على أن كل واحد منهما نقل مشهدا أو مشاهد من المعركة، فابن الأثير حاول استقصاء وصف المعركة من أولها وابن كثير اكتفى بعرض موقف عبدالله بن الزبير لما فيه من الأهمية، وهجوم ابن الزبير محمول على أنه تقدم بالجيش الاحتياطي، ثم انفرد بطائفة يحمون ظهره لما أبصر ملك أفريقية.

\*\*\*\*\*

## حروب المسلمين البحرية

كان المسلمون متفوقين على الروم في الحروب البرية، فاغتنم الروم مقدرتهم في المجال البحري حيث يمتلكون عدداً كبيراً من السفن، ولديهم بحارة متدربون، ولهم خبرة طويلة في مجال الحروب البحرية. . اغتتموا ذلك في الإغارة على سواحل المسلمين في الشام ومصر.

وقد كان معاوية رضي الله عنه أميراً على بعض الشام، فاستأذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في حمل المسلمين في البحر لمقاومة هجمات الروم، وللإستيلاء على الجزر القريبة من بلاد المسلمين كجزيرة قبرص، ليأمن المسلمون من استخدامها معاقل للروم ينطلقون منها لغزو المسلمين.

وقد أخرج الإمام الطبري في ذلك من طريق سيف بن عمر عن جنادة بن أمية الأزدي قال: كان معاوية كتب إلى عمر كتاباً في غزو البحر يرغبه فيه، ويقول: يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص، فاتَّهمه عمر لأنه المشير، فكتب إلى عمرو - يعني ابن العاص -: أن صف لي البحر، ثم اكتب إليَّ بخبره، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين إنني رأيت خلقاً عظيماً، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإنما هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق<sup>(١)</sup>.

فكتب عمر إلى معاوية كما جاء في رواية أخرى للطبري: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*\*\*

---

(١) يعني دهش، والمقصود أن راكبي البحر لا يكادون يصدقون أنهم نجوا من دهشتهم.

(٢) تاريخ الطبري ٤ / ٢٥٩.

## فتح جزيرة قبرص

تقدم لنا أن أمير الشام معاوية بن أبي سفيان أستاذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الغزو البحري، وفتح جزيرة قبرص، فأبى عليه خوفاً على المسلمين من مخاطر ركوب البحر.

فلما استخلف أمير المؤمنين عثمان بن عفان أعاد الكرة معاوية فاستأذنه في الغزو البحري، فتردد في ذلك ثم أذن له وقال لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل وسار بالمسلمين من الشام، وسار عبدالله بن سعد بن أبي السرح من مصر حتى لقوا معاوية فكان معاوية على قيادة ذلك الجيش.

وقد ساروا حتى وصلوا إلى جزيرة قبرص بسلام ونزلوا من مراكبهم، فأرسل ملك قبرص يطلب الصلح فصالحه معاوية على جزية قدرها سبعة آلاف دينار<sup>(١)</sup> وذلك معلوم أنه بعد أن دعاهم إلى الدخول في الإسلام فأبوا ذلك.

وقد شارك في تلك الغزوة عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان رضي الله عنهما، وتحقق فيها معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر بذلك، كما أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان فاتكأ عندها ثم ضحك، فقالت: لم تضحك يا رسول الله؟ فقال: ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله مثل الملوك على الأسرة فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعلها منهم، ثم عاد فضحك، فقالت له مثل -أو مم- ذلك، فقال لها مثل ذلك، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين ولست من الآخرين، قال أنس: فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة<sup>(٢)</sup> فلما قفلت ركبت دابتها فوقصت بها فسقطت فماتت<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٦٠ - ٢٦٢ .

(٢) يعني فاختة بنت قرظة زوجة معاوية.

(٣) صحيح البخاري رقم ٢٨٧٧، صحيح مسلم ١٣ / ٥٧ .



وفى هذا الحديث بشارة خير من رسول الله ﷺ لأولئك المجاهدين الذين ركبوا البحر للجهاد في سبيل الله تعالى، حيث ظهر فرحه وسروره من جهادهم ووصفهم بوصف يشعر بعزتهم وقوتهم.

وقد جاء في سياق أحداث هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى، ثم قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لما ناوأهم، فلما تركوا أمر الله عز وجل وعصوه صاروا إلى ما ترى.

هذا وإن ما تفوه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة والفقه في أمر الله تعالى، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم فلم ينقادوا لدعوة الحق فباؤوا بهذا المصير المؤلم حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلة، لإصرارهم على لزوم الباطل والتكبر على الخضوع لدعوة الحق ولو أنهم عقلوا وتدبروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم وعمران ديارهم والظفر بحماية دولة الإسلام.

إن هذا التفكير العميق من أبي الدرداء مظهر من مظاهر الرحمة والعطف فتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدر من عيني هذا الرجل العظيم، لتعبر عما يجول في نفسه من نظرات الحنان والرحمة والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع لها البقاء على الضلال والمآل السيء بزوال الملك والوقوع في الذل والهوان.

وإنه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر والتشرد وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا؟

هذا ومن المواقف العالية في هذا الفتح ما قام به معاوية بن أبي سفيان من اهتمام بالغ بالجهاد في سبيل الله تعالى، مع دقة إدراكه الحربي حيث علم أن السيطرة على البرّ وحده لا تكفي لأن خطر الروم على المسلمين سيبقى ماثلاً دائماً من جهة البحر، وبسبب ذلك تتعرض المدن الساحلية لغارات متكررة من قبل الأعداء.

ولقد كان له شرف قيادة أول حملة بحرية، وهي التي شبهها رسول الله ﷺ بالملوك على الأسرة، وهذا إشارة إلى ما آل إليه أمر الأمة الإسلامية من العزة والتمكين في الأرض.

وعاد المسلمون من قبرص بعدما خَلَّفوا وراءهم تلك الصحابة الجلييلة التي كانت موضع تقدير النبي ﷺ واهتمامه، وأصبح الناس يرون على قبر أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها ويقولون: هذا قبر المرأة الصالحة<sup>(١)</sup>.

ولقد كان فتح جزيرة قبرص في غاية الأهمية لأنه كان بداية هيمنة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط.

\*\*\*\*\*

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٦٢، البداية والنهاية ٧/ ١٥٩.

## غزوات ابن قيس البحرية

ما زال معاوية رضي الله عنه مهتماً بالغزو البحري، وذلك لتثبيت هيمنة الدولة الإسلامية وحمايتها من هجمات الروم، فاختار لهذه المهمة قائداً فذاً جمع بين الشجاعة والخبرة، وهو عبدالله بن قيس الجاسي.

وقد جاء خبره في رواية للإمام الطبري من حديث خالد بن معدان وفيه «واستعمل - يعني معاوية - على البحر عبدالله بن قيس الجاسي حليف بن فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم يُنكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل<sup>(١)</sup> - يعني استجاب الله دعوته -».

ولنا وقفة مع ما قام به عبدالله بن قيس من اهتمامه بتهيئة الأسباب اللازمة للنجاح مع توكله العظيم على الله تعالى ودعائه المذكور بأن يعافيه في جنده، وقد مرّت علينا أخباراً رأينا أن القائد فيها يسأل الله تعالى أن يرزقه الشهادة، ولقد كان الدعاء بالسلامة في تلك المعارك البحرية أولى من طلب الشهادة لأن عبدالله بن قيس كان رائد تلك المعارك، وقد كان المسلمون يتخوفون ركوب البحر والقتال فيه لما يشتمل عليه من مخاطر، فكانت سلامة تلك الحملات البحرية أمراً منظوراً إليه لإزاحة الشعور بالخوف من الحروب البحرية.

وقد سلّم الله تعالى ابن قيس في خمسين غزوة بث فيها الرعب في قلوب الروم حتى تبين لهم أنهم لم يعودوا سادة البحر، وأن المسلمين قد تفوقوا عليهم في غزو البحر كما تفوقوا عليهم سابقاً في غزو البر.

أما نهاية هذا القائد المحنك فقد جاء في الرواية المذكورة «حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعةً فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سؤال يعترفون بذلك المكان - يعني مساكين يسألون - فتصدق عليهم.

فرجعت امرأة من السؤال إلى قريتها فقالت للرجال: هل لكم في عبدالله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرفأ، قالوا: أي عدوة الله! ومن أين تعرفين

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٦٠.

عبدالله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبدالله على أحد، فثاروا إليه فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه.

فجاؤوا حتى أرسوا بالمرفاً، والخليفة عليهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبدالله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: «الغمرات ثم ينجلينا» قال: فترك ما كان يقول ولزم «الغمرات ثم ينجلينا» وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبدالله بن قيس الجاسي.

وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتيه؟ قالت بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك، ولم يقبض قبض التجار، وفي رواية قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كالمملك فعرفت أنه عبدالله بن قيس<sup>(١)</sup>.

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أُتيحت له وهو في وضع لا يضر بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرجل يظهر في مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين ولكنه يعطي عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السيادة مع بساطة مظهره فعرفت أنه قائد المسلمين الذي دوخ المحاربين في تلك البلاد.

وهكذا كانت سماحة ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره ومعرفة مركزه، ليقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً، فيتم بذلك الهجوم عليه وظفره بالشهادة.

وهكذا يضرب قادة المسلمين المثل العليا بأنفسهم لتتم الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه فيتولَّى هذه المهمة،

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١، الكامل لابن الأثير ٣/ ٤٩.

ثم نجده يتخلَّق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضعفتهم فيمد إليهم يد الحنان والعطف، ويسخو لهم بالمال الذي هو من أعز ما يملك الناس .

ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً، لا معنفاً ولا مستكبراً، وإذا ادلهمت الخطوب تفاعل بانكشاف الغمة ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل، ويعجّل بالخلل والفوضى .

أما خليفته سفيان الأزدي فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة ولكن مما يُحفظ له أنه لما نبهته جارية عبدالله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهجه في القيادة، سارع في التأسّي به في ذلك، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة الحق وإن صدرت من جارية مغمورة .

وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس . . هذا الخلق العظيم الذي كان غالباً في الجيل الأول، وبه تمَّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة .

فله در أبناء ذلك الجيل: ما أبلغ ذكرهم، وما أبعد غورهم، وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين، وما أعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين!!

\*\*\*\*\*

## غزوة ذات الصواري

إن من أهم المعارك البحرية التي خاضها المسلمون معركة «ذات الصواري» وذلك في أواخر خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

وقد ذكر الإمام الطبري عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن أهل الشام خرجوا، وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بأفريقية، فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب، فالتقوا هم وعبد الله بن سعد، فأمن بعضهم بعضاً حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك، بين صواريها<sup>(١)</sup>.

قال مالك بن أوس بن الحدثان: كنت معهم، فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منا، وسكنت الريح عنا. فقلنا: الأمانُ بيننا وبينكم، قالوا: ذلك لنا ولكم، ثم قلنا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم، وإن شئتم فالبحر، فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: الماء، فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم، فقاتلنا أشد القتال، ووثب الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن ويتواجهون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما.

وجاء في رواية حنش بن عبد الله الصنعاني أن عبد الله بن سعد قال: أشيروا عليّ، قالوا: ننظر الليلة، فباتوا - يعني الروم - يضربون بالنواقيس، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله تعالى .

وجاء في رواية ابن أعثم الكوفي أن العدو باتوا ليلة المعركة يضربون بالصنوج والطنابير ويشربون الخمر، وينفخون في الصفارات، وأن المسلمين جعلوا يكثر من قراءة القرآن، ولا يفترون عن الصلاة والدعاء<sup>(٢)</sup>.

(١) جمع صار، وهو الخشبة المعترضة وسط السفينة، وبذلك سميت المعركة ذات الصواري.

(٢) الفتوح لابن أعثم ١/ ٣٥٤.

وفي سياق رواية حنش الصنعاني عند الطبري قال: ثم أصبحوا وقد أجمع قسطنطين على أن يقاتل، فقربوا سفنهم، وقرب المسلمون، فربطوا بعضها إلى بعض، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر.

قال: ووُثِبَت الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها، فكانوا يقاتلون على غير صفوف، قال: فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الله تعالى نصر المؤمنين، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم نجاح المسلمين في الغزو البحري بانتصارهم في هذه المعركة الكبيرة، فأصبحوا سادة البحر كما كانوا سادة البر، وفقد الروم أملاً من آمالهم في التفوق العسكري البحري.

لقد فضّل الروم القتال في البحر حينما خيّرهم المسلمون، لأنهم قد ذاقوا الأمرين من قتال المسلمين في البر، وجربوا معهم كل ما في وسعهم من الحيل والاستعداد فلم ينجحوا معهم في ذلك، وكان مصير جميع حروبهم الفشل، فلجؤوا إلى القتال في البحر لخبرتهم الطويلة فيه، وقلة تجربة المسلمين وضعف استعدادهم، فغلب على ظنهم الظفر بالمسلمين في تلك المعركة الكبرى التي بالغوا في الاستعداد لها.

وقد جاء في هذا الخبر بيان أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح المسلمين وإخفاق عدوهم، حيث بات الروم ليلة المعركة يضربون بالصنوج والطنابير ويشربون الخمر، وينفخون في الصفارات، بينما بات المسلمون مصليين، لا يفتر عن الدعاء وتلاوة القرآن، وفرق كبير بين معسكر يبيت على اللهو والمجون، ومعسكر يبيت على الجد والحزم والترقب.

وفرّق بين معسكر مقطوع الصلة بالسماء، يستمد وجوده وبقائه من قوى الأرض الضعيفة الهزيلة، ومعسكر قد اعتصم بحبل الله المتين، فأنظاره ليست مقصورة على الأرض بل هي متجهة أولاً وأخيراً إلى السماء.

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٠ - ٢٩٢.

فَرَقٌ بَيْنَ مَعْسَكَرٍ يَرَى أَنَّ قُوَّتَهُ مَحْصُورَةٌ فِي إِمْكَانَاتِهِ الْمَادِيَةِ الْمَائِلَةِ أَمَامَهُ، وَمَعْسَكَرٍ يَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا جَازِمًا أَنَّ قُوَّةَ عَظْمَى تَهَيِّمُنَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَعْدَائِهِ هِيَ قُوَّةُ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ عِبَادَهُ الصَّادِقِينَ بِالنَّصْرِ، وَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ تَأَكَّدَ لَهُمْ بِمَا شَاهَدُوا مِنْ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْمَآزِقِ وَنَجَاتِهِمْ مِنَ الْمَهَالِكِ بِمَا يَشْبَهُ الْخَوَارِقَ .

وَأخِيرًا فَرَقٌ بَيْنَ مَنْ يِقَاتِلُ وَقِصَارَى هَمِّهِ مُسْتَقْبَلُهُ وَمُسْتَقْبَلُ دَوْلَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَمَنْ يِقَاتِلُ وَطُمُوحَاتِهِ تَسْمُو إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْآخِرِيِّ . . . إِنَّ الْأَوَّلَ يِقَاتِلُ لِيَسْتَبْقِيَ نَفْسَهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَتَمَتَّعَ بِثَمَرَاتِ النَّصْرِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الَّتِي رُبَّمَا يَرْبُطُ بِهَا مُسْتَقْبَلَهُ وَأَمَالَهُ، أَمَّا الثَّانِي فَيُنَاقِلُ فِي ذَهْنِهِ سَلُوكَ أَمْثَلِ الطَّرِيقِ وَأَقْرَبَهَا لِتَأْمِينِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي مُسْتَقْبَلِهِ الْآخِرِيِّ، وَهَذَا الشُّعُورُ يَجْعَلُهُ يَسْتَمِيتُ فِي جِهَادِهِ، وَالْمُنْطِقُ الْعَقْلِيُّ يَقْتَضِي أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يُقْتَلُ حَتَّى يَفْتَكَّ بِأَعْدَائِهِ الَّذِينَ يَحْبُونَ الْحَيَاةَ كَمَا يَحِبُّ هُوَ الْمَوْتَ .

وَمَعَ مِلَاحَظَةِ هَذِهِ الْفَوَارِقِ فَإِنَّ أَمْرَ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ يَبْدُو وَاضِحًا لَهُ مَسُوغَاتِهِ الْقَوِيَّةَ الَّتِي تَشْحَنُ الْمُجَاهِدِينَ بِقُوَّةٍ عَارِمَةٍ لَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ مَهْمًا كَانَتْ الْفَوَارِقُ الْمَادِيَّةُ، مَا دَامَ الْمُجَاهِدُونَ مُلْتَزِمِينَ بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتِينِ .

وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ تَفُوقِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ الصَّلْبَةِ عَلَى الْخُبْرَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَالتَّفُوقِ فِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ، فَلَقَدْ كَانَ الرُّومُ هُمْ أَهْلَ الْبَحْرِ مِنْذُ الْقَدَمِ، وَقَدْ مَرُّوا بِتِجَارِبِ طَوِيلَةٍ فِي الْحُرُوبِ الْبَحْرِيَّةِ، بَيْنَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ حُدِيثِي عَهْدٍ بِرُكُوبِ الْبَحْرِ وَالْقِتَالِ الْبَحْرِيِّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدَالَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ بِرَغْمِ التَّفُوقِ الْمَذْكُورِ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ سَخَّرَ أَوْلِيَاءَ الْمُؤْمِنِينَ لِنَشْرِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ .

وَإِنَّ مَا يُشَادُّ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ قُوَّةَ قَائِدِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَرِبَاطَةَ جَاشِهِ، وَمَقْدَرَتَهُ الْجَيِّدَةَ عَلَى إِدَارَةِ الْحُرُوبِ .

وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ بَسَالَةِ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِقْتَالِهِمْ فِي الْحُرُوبِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ إِعْزَازِ دِينِهِمْ وَرَفْعِ شَأْنِ دَوْلَتِهِمْ .

\*\*\*\*\*



## غزوة جزيرة صقلية

قال المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي: ثم تهيأ المسلمون لغزو صقلية وكانت عظمة الشأن، قال: وإنما كان ملك الروم في ثلاثة مواضع من الأرض في صقلية ورومية وقسطنطينية، قال: وكان ملك قسطنطينية في قديم الدهر إلى يومنا هذا يلبس خفين أحمرين، ويأذن لصاحب صقلية في أن يلبس فرداً أحمر وفرداً أصفر، ويأذن لصاحب رومية أن يلبس فرداً أحمر وفرداً أخضر، ويأذن لسائر البطارقة أن يلبسوا أخفأفاً سوداً. قال: وكانت جزيرة صقلية هذه جزيرة واسعة خصيبة مسيرة ثلاثة أيام في مثل ذلك، فيها عيون غدقة وزروع وأشجار وخير كثير، فعزم معاوية على غزوها وكتب إلى عثمان في ذلك قال: وبلغ أهل أفريقية فبعثوا إلى أهل صقلية بأن العرب قد أجمعوا على حربكم فكونوا من ذلك على حذر.

قال: واتصل هذا الخبر بصاحب صقلية فغضب لذلك وقال: وطمعت العرب في غزونا لعلهم يظنون أننا كأهل إفريقية، ولا يرضى العرب منا أن نمسك عنهم ولا نغزوهم.

قال: وخطف المسلمون من ساحل البحر في ثلاثمائة مركب فلم يشعر أهل صقلية إلا ومراكب المسلمين قد طلعت عليهم، فنظروا إليها. قال: وبلغ ذلك ملك صقلية، فأشرف من قصره ومعه جماعة من بطارقه، فنظر إلى مراكب المسلمين قد أقبلت وعليها الرايات والمطارف والأعلام، وفيها الرجال بالسلاح الشاك الذي لم ير مثله، قال: فنظر ملك صقلية إلى مراكب كثيرة وإلى سلاح شاكٍ لم يكن يظن أنه يكون عند العرب مثله.

قال: وكان صاحب قيسارية لما هرب من أيدي المسلمين صار إلى صاحب صقلية، وكان عنده من ناحية، فكان يحدث صاحب صقلية عن العرب وما فتحت من أرض الشام ومن مدن سواحلها. فلما كان ذلك اليوم، التفت صاحب صقلية إلى صاحب قيسارية فقال له: إن هؤلاء أكثر من أولئك الذين كانوا بأرض الشام؟ فقال له صاحب قيسارية: أيها الملك! كانوا أكثر من هؤلاء، وكانوا أيضاً قوماً

صالحين أصحاب نيات وبصائر، يقاتلون على نية ودين وحسن يقين، وهؤلاء أظن أنهم يريدون الدنيا، فلو أن الملك أعطاهم شيئاً يدفع به عن بلده لكان ذلك عندي له الرأي، قال: فغضب ملك صقلية من ذلك ثم قال له: أنت رجل مرعوب لأنك قد رأيت منهم بقيسارية ما قد رأيت من ظهورهم على بر الشام وبحرها، وإن في صقلية اليوم من الرجال الذين يحملون السلاح مثل ما في الشام في برها وبحرها، ومثل ما في أرض مصر، وإني لأعرضهم على مائة عارض فيمكثون سنة يعترضون.

قال: فقال له صاحب قيسارية: صدقت أيها الملك! ولذلك فارتقتُ ملك الروم لما مضى إلى القسطنطينية، وصرت إليك لما أعلم من حزمك وعزمك وكثرة خيلك ورجلك، وإن صقلية عندي أيها الملك لتقاس إلى رومية، قال: فسُرِّي عن صاحب صقلية وقال: صدقت أيها الملك هي كذلك، قال: وإنما خدعه صاحب قيسارية بهذا الكلام، لأن رومية في البر دون مدينتها أربعون ميلاً.

قال: وأرسي المسلمون مراكبهم في جزيرة صقلية، قال: فأرسل إليهم ملكها أن ابعثوا إليّ منكم رجلاً له بيان حتى أكلمه بما أريد.

قال: فبعث المسلمون إليه برجل ومعه ترجمان يخبره بما يقول الروم فأقبل حتى وقف حذاءه وصاحب صقلية مشرف عليه، فقال: ما أنتم؟ فقال المسلم: من العرب الذين قد بلغت دعوتنا أطراف الأرض وأكناف الجبال وأقطار البحار، لأن الله عز وجل بعث إلينا رسولاً هو أفضلنا بيتاً وأصدقنا حديثاً، وأكرمنا نفساً، فدعانا إلى الله عز وجل، فأجبنا رسول الله وآمنا به وصدقناه، واتبعه منا من اتبعه وأبى منا من أبى، فقاتل من أبى عليه بالذين اتبعوه حتى أظهره الله عز وجل على العرب قاطبة، إما راغب فيما دعاه إليه، وإما راهب من فرق السيف، ولقد أقر له هرقل ملك الروم من قبل بالنبوة، وشهد له بالرسالة ولم ينكر له ذلك، ولقد خبرنا نبينا محمد ﷺ من قبل وفاته بأن الله تعالى يفتح علينا ويظهرنا على جميع الأديان، وقد بلغك ما كان منا بأرض الشام لما قتلنا أهلها وسببناهم حتى لم يلتق منهم اثنان في موضع واحد، ونحن على ما نحن عليه من الضعف وقلة المال والسلاح والكراع حتى هرب منا هرقل إلى قسطنطينية خائفاً مرعوباً، فلم يزل

كذلك حتى مات بحسرتنا، ثم قام من بعده قسطنطين، فقد بلغك ما نزل به منا، وأنا قتلنا أصحابه في البحر وأخذته الرماح، وأثخنته الجراحات، حتى صار إليكم وشمتم به، فهذه قصتنا وهذه حالتنا، فلم تسألنا عن أمرنا كأنك لا تعرفنا أو كأنك جاهل بما لقيتم منا.

قال: فتبسم صاحب صقلية ثم قال: صدقت، نحن قتلناه، لأنه خرج بالروم في أيام ريح عاصفة فأهلكهم في البحر، ثم نجا وصار إلينا، فلم نحب أن يرجع إلى أهله سالمًا حتى نُوتم أهله منه وولده كما أيتم الروم، قال: ثم التفت صاحب صقلية إلى صاحب قيسارية فقال: ما يخفى على العرب شيء من أمرنا؟ فقال: نعم أيها الملك، وكذلك لا يخفى علينا شيء من أمورهم.

قال: ثم أقبل صاحب صقلية على المسلم فقال: خبّرني الآن عنكم لماذا قصدتمونا في مثل هذا البحر؟ فقال له المسلم: قصدناكم لندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسلام وتأمّنوا على دياركم وأموالكم، ونولّي عليكم رجالاً منكم تقيمون الصلوات الخمس، وتصومون شهر رمضان، وتحجون البيت الحرام، وتؤخذ الصدقة من أغنيائكم فترد على فقرائكم، فإن أبيتكم الدخول في ديننا فاقبلوا عهدنا وذمتنا وأدوا الجزية إلينا وقرّوا في دياركم آمنين. فإن أبيتهم ما عرضناه عليكم فقد أنذرناكم وأعدنا إليكم، فاعلموا أن ما بيننا وبينكم إلا السيف، فإن قُتلنا كنا على بينة من ربنا، إنا في الجنة وأنتم في النار، أو أظفرنا بكم، فذاك ما وعدنا نبينا محمد ﷺ.

قال: فقال صاحب صقلية لترجمانه: قل له الآن عني إنك تكلمت وقلت ما أردت فذرنا حتى نتكلم بما نريد، فقال المسلم: قل ما تشاء، فقال: قل له عني: إنكم قد اغتررتم بأنفسكم بغزوكم إيانا في مثل هذا البحر، وظننتم أن صقلية إنما هي كمدائن الروم التي افتتحتموها من قبل، وليس الأمر كما تقولون ولا كما ظننتم، إن صقلية أمنع من ذلك، وأنتم قد ندمتم على مسيركم إلينا عندما رأيتم من جمعنا وعددنا وكثرة سلاحنا، فلو أنكم أردتم أن ترجعوا إلى بلادكم لم تقدروا على ذلك، لأنكم قد لججتم في هذا البحر حتى وصلتكم إلينا، ولسنا نحب أن تعادوا هذه العادة علينا في قتلكم وكثرتنا، لأنه لم يطمع أحد من أعدائنا في

هذا منا، ولم يغزنا قط أحد من قبلكم إلا ذل وخضع، وإنا لنغزو جميع أهل الأديان في ديارهم فنسبهم، ونذلهم ونأتي بهم إلى جزيرتنا هذه أسارى أذلة صاغرين، وأما ما عرضتموه علينا من اتباع دينكم فهذا ما لا يكون، ولست أفارق ديني أبداً، وأما ما سألتموه من الجزية فقد يجب عليكم أن ترضوا مني بالمساكنة والمسالمة أن لا أغزوكم في بلادكم.

فلما فرغ صاحب صقلية من كلامه أقبل المسلم على الترجمان فقال: قل له عني: إنني أراك قد بغيت في كلامك، والبغي منقصة وشؤم ومصرعة وحتم، ونحن نرجو أن يُدال عليكم ببغيتكم، ونحن قوم لا نرى القتل سبباً، ولا الموت عاراً، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم.

قال: فبينما المسلم يكلم صاحب صقلية بهذا الكلام ونحوه، وإذا بطريق منهم قد أشرف من جدار القصر وقال: أيها العربي! قد أكثرت علينا من كلامك ولكن من يبارزني منكم؟ فقال له المسلم: يبارزك أدنانا رجلاً وأضعفه في نفسه، قال: فغضب البطريق من ذلك وقال: يا كلاب! وفيكم من يبارزني! ثم إنه بادر ونزل، فخرج من باب القصر وفي يده سيف له مشطّب ودرقة مذهبة، وعليه قباء حرير ويلمق ديباج، قال: فبرز إليه رجل من أهل أفريقية واختلفا بضربتين، ضربه الأفريقي ضربة على أم رأسه فسقط البطريق قتيلًا، ثم وقف عليه الأفريقي فجعل يسلبه وصاحب صقلية مع بطارقه ينظرون إليه، ثم وقف الأفريقي ونادى بأعلى صوته: من يبارزني؟ قال صاحب صقلية: من هذا منكم؟ فقال له المسلم: هذا رجل من أهل أفريقية وقد كان من خدمكم، فمن الله عز وجل عليه بالإسلام فأسلم، وقد رأيت ما فعل بصاحبكم، فكيف لو برز إليه رجل من حزبنا.

قال: فنزل صاحب صقلية من قصره مغموماً، وخرج المسلمون من المراكب فأغاروا على أطراف صقلية، فسبوا وغنموا، ثم أخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمياً متداركاً، ورزق الله عز وجل المسلمين من اعتدال حجارة مجانيقهم وقصدها لحصون الكفار وقصورهم شيئاً عجيباً، قال: ورمت الروم بالعرادات، فلم يكن لعراداتهم نكاية. قال: وقهرهم المسلمون حتى أحجزوهم في دورهم وقصورهم.

قال: فعندما خرج صاحب صقلية من قصره، واجتمع إليه أهل مملكته بأجمعهم فحططوا ونفخوا في البوقات، وأظهروا ما قدروا عليه من آلة السلاح، قال: وصف المسلمون صفوفهم وأظهروا سلاحهم، واقتحمت الروم على مسيرة المسلمين وكشفوهم وثبتت الميمنة والقلب، فقاتلوهم ساعة، ثم رجعت مسيرة المسلمين إلى موضعها، ودامت الحرب بينهم يومهم ذلك، فقتل من الفريقين جماعة، ثم افترقوا وذلك وقت المساء، حتى إذا مضى من الليل بعضه أغار المسلمون على قراهم وحصونهم، فسبوا سبياً كثيراً وغنموا من الغنائم ما ملأت أيديهم، ثم رجعوا إلى مراكبهم.

قال: وبلغ ذلك صاحب صقلية فاغتم لذلك غمّاً شديداً، ثم أرسل إلى مقاتلته فدعاهم إليه وقال: ما بالكم لا تغيرون عليهم كما يغيرون عليكم؟ سوءاً لكم! لقد خشيت أن تؤخذ صقلية منكم كما أخذت الشام من قبل، قال: فسكتت الروم ولم يقولوا شيئاً، فقال له صاحب قيسارية: أيها الملك! إنني أشير عليك أن تكتب إلى الملك الأكبر وتسأله المدد، فقال: لا فعلت ذلك أبداً، ولو أخذت صقلية من يدي. قال: فلم يزل المسلمون في المحاربة حتى ملؤوا أيديهم من الغنائم وقتلوا منهم بشراً كثيراً.

قال: وبلغ ذلك ملك الروم فجهز إلى صقلية ستمائة مركب فيها المقاتلة والسلاح، قال: واتصل الخبر بالمسلمين قبل أن يتصل بأهل صقلية، فأرأوا من الرأي أن يرحلوا، فقال لهم أميرهم: ليس الرأي أن ترحلوا نهراً، فإننا لا ندرى ما يكون من الحدّثان، ولكن أخرجوا هذا إلى الليل، فقالوا: ذاك أيها الأمير!

قال: فلما كان الليل وهدأت العيون قعد المسلمون في مراكبهم وخطفوا من ساحل صقلية، وهبت الريح، ورفعوا الشراع، وسارت المراكب على تودة بغير هول ولا فزع حتى أصبحوا على بلد بعيد من صقلية، ثم ساروا حتى صاروا إلى ساحل الشام، فخرج المسلمون من المراكب فأرسوها ثم أخرجوا تلك الغنائم وذلك السبي، فأخرج معاوية في ذلك كله الخمس ووجه به إلى عثمان، وكتب إليه يخبره بسلامة المسلمين وما كان من أمر صقلية.

قال: فسّر عثمان بذلك، وقسم الخمس على أهل المدينة، وقسم معاوية ما بقي من بعد الخمس في المسلمين<sup>(١)</sup>.

في هذا الخبر مواقف وعبر:

فمن ذلك أولاً: بيان ما يتصف به ملوك الكفار آنذاك من الانخداع بمظاهر الدنيا إلى حد السذاجة في التفكير حيث يخصص ملك الروم له اللون الأحمر للحذاء، فلا يلبس من هم دونه بذلك اللون، وحيث إن ملك صقلية يليه في العزة فإنه يأذن له بفرد أحمر ويكون الآخر باللون الأصفر، ثم يليهما ملك روما حيث يلبس فرداً أحمر وفرداً أخضر، ثم بقية الأمراء حيث يلبسون باللون الأسود.

وهذا السلوك يدل على استغراقهم في الطبقية، وضحالة تفكيرهم حيث ربطوا معالي الأمور بهذه المظاهر الدنيّة.

وثانياً: في الحوار الذي جرى بين مندوب المسلمين وملك صقلية يتبين وضوح المسلمين في عرض قضيتهم، فهم يقومون بعرض موجز للإسلام يبينون محاسنه بالمقارنة بمساوئ الجاهلية ثم ينطلقون إلى العروض الثلاثة المعروضة: الإسلام أو الجزية وإلا فالمناجزة بالقتال، فهم يبدؤون أولاً بالدعوة إلى الإسلام ويبيّنون للمدعوين أنهم إذا أسلموا يكونون كأمة الإسلام تماماً في جميع الحقوق، وهذا يدل على أن الهدف الأعلى عندهم هو نشر الإسلام في الأرض.

ثم يعرضون دفع الجزية مقابل حمايتهم من قبل دولة الإسلام بحيث تكون دولتهم تابعة للدولة الإسلامية، وفي هذا إزالة لكبرياء الكفار وتحطيم لطغيانهم، حيث يستطيع أبناء تلك البلاد أن يدخلوا في الإسلام متى شاؤوا ولا يكون لدولتهم سلطان عليهم بمنعهم من ذلك لأن السلطان لدولة الإسلام، وبهذا فإن الشعوب ستقبل على الدخول في الإسلام إذا فهموا دعوته خاصة بعد معرفة المزايا الدنيوية، المادية منها والمعنوية، مثل وضع الجزية عمن أسلم وظفره بالعطاء السنوي الذي يُعطى لأفراد المسلمين، وكونه يصبح أثيراً ومقرباً لدى الدولة الإسلامية ذات السلطان الكبير.

(١) الفتوح لابن أعمش ١/ ٣٦١ - ٣٦٦.

وأخيراً فإن في قول مندوب المسلمين «ونحن قوم لا نرى القتل سبباً ولا الموت عاراً، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم» إظهاراً لعزة المسلمين وشجاعتهم وتصميمهم على القتال، وتيئساً للأعداء من محاولة الطمع في تحويل المسلمين عن أهدافهم ومناهجهم المذكورة.

ثالثاً: في المباراة المذكورة حسن اختيار من المسلمين، حيث اختاروا رجلاً من أهل أفريقية الذين كان الروم يحتقرونهم، ولقد أذهل الروم أن يتفوق عليهم في ذلك أبناء أفريقية الذين كانوا قبل دخولهم في الإسلام يستذلونهم ويستخدمونهم، ولئن سلموا للعرب هذا التفوق، واعتبروا ذلك اكتشافاً لأمر كانوا يجهلونه فما بال الأفرقة الذين كانوا يخشون الروم ويعيشون تحت استعبادهم؟!!

ولقد بدا ظاهراً للعيان أن صانع هذا التفوق هو الإسلام وأن الناس بدون هذا الدين متقاربون في الكفاءات وتبادل فرص النجاح والإخفاق، ولكن ما أن يدخل الإسلام في المعارك حتى تتبدل الموازين فتعلو كفة المسلمين وتنخفض كفة الكافرين مهما كانت جنسياتهم.

وإن ذلك وحده كان كافياً لإقناع أصحاب العقول الراجحة والأفكار النيرة كي يراجعوا حساباتهم نحو هذا الدين، وقد تم بالفعل تأثر الملايين من الناس وانجذابهم آنذاك إلى الإسلام لما زال حكم الطغاة الذين كانوا يحولون بينهم وبين التفكير المتأمل والنظر الصحيح.

رابعاً: في خبر معرفة المسلمين بتلك السفن التي أبحرت من القسطنطينية لنصرة أهل صقلية دليل على اتصاف المسلمين الأوائل بدقة الرصد والمعرفة الجيدة لتحركات الأعداء حيث علموا بإبحار السفن من بلاد الروم قبل أن يعلم بذلك أهل الجزيرة.

وأغلب الظن أن معاوية - رضي الله عنه - وهو السياسي المحنك والقائد الحربي البارِع قد وضع طلائع في البحر يرصدون حركة الأعداء، حتى لا يُعرض تلك الحملة التي توغلت في أعماق البحر للخطر، فيكون في ذلك تغرير بالمسلمين وانتكاسة للجهاد البحري.

هذا وإن ما اتخذته أولئك المجاهدون من قرار الانسحاب لما خشوا أن يحاط بهم لا يُعتبر من الفرار يوم الزحف، بل كان من التحيز إلى معسكر المسلمين الكبير في الشام، فهو داخل في قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]، وقد قال عمر رضي الله عنه حينما أصيب جيش المسلمين في العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي: رحم الله أبا عبيد لو انحاز إليّ لكنت له فئة، كما سبق.

وفي قول الراوي «وهبت الرياح» مثل من عناية الله تعالى بأوليائه المجاهدين وحمایته لهم فإن السفن آنذاك تعتمد قبل كل شيء على هبوب الرياح، وقد كانت الرياح لصالحهم فسأقت سفنهم نحو ساحل الشام بسرعة كبيرة.

هذا ولقد خيب الله تعالى ظنون ملك الروم وحاكم صقلية حيث توقعوا هلاك تلك الفئة من المسلمين وقد أحيط بهم، ولم يعلموا أنهم آساد يعرفون كيف يردون وكيف يصدرون عند اللزوم، وأنهم قبل ذلك مستظلون برعاية الله جل وعلا وحمایته، ولن يخيب من كان الله جل وعلا مولاه وناصره.

\*\*\*\*\*





مواقف وعبر

في



خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه



كان عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عهد حروب داخلية وفتن، وذلك بسبب الصدمة القوية التي أصابت المسلمين على إثر مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد كان موضوع إقامة حدّ القصاص على قتلة عثمان سبباً في وقوع خلاف كبير بين الصحابة رضي الله عنهم، حيث كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يرى تأجيل ذلك حتى تتم البيعة من جميع المسلمين وتجتمع جماعتهم، وكان طلحة والزبير وعائشة من جهة ومعاوية من جهة -رضي الله عنهم- يرون وجوب إقامة الحد على أولئك القتلة على الفور.

وقد خرج طلحة والزبير وعائشة من مكة المكرمة إلى العراق من أجل الإصلاح بين المسلمين وتتبع قتلة عثمان، فلما علم بهم أمير المؤمنين علي خرج من المدينة إلى العراق، وقد تم اللقاء بينهم هناك واصطالحوا على تجنب الحرب، والبحث عن قتلة عثمان، وقد كان عدد كبير من هؤلاء الثوار القتلة في جيش علي، وعلى رأسهم المخطط الأول لقتل عثمان وهو عبد الله بن سبأ اليهودي، ولما علم هؤلاء الثوار باصطلاح الصحابة فيما بينهم قال لهم عبد الله بن سبأ: إن هؤلاء لم يصطالحوا إلا على قتلنا، فأمر أتباعه بإثارة الحرب في آخر الليل، وبدأ هؤلاء الثائرون في الحرب، فكانت معركة «الجمل» المعروفة التي هي من مآسي المسلمين.

ثم انتهت هذه المشكلة وبدأت مشكلة أخرى، وهي عزم أهل الشام على السير إلى العراق بقيادة أميرهم معاوية بن أبي سفيان، وذلك لتتبع قتلة عثمان وإقامة الحد عليهم، ورفض معاوية البيعة لأمير المؤمنين علي حتى يتم ذلك، فكانت المأساة الأخرى في حرب «صفين» المشهورة.

وحيث إنه ليس من منهج هذا الكتاب التعرض للحروب التي ثارت بين المسلمين، لأن ذلك يسيء إلى سمعة هؤلاء المتحاربين، والمقصود من هذا الكتاب هو إبراز مواقف المسلمين العالية وتجليّة العبر في تاريخهم. . حيث إن ذلك هو الهدف فإنني لم أتعرض لتفصيل هذه الحروب، ولكن بما أنه قد خرجت علي أمير المؤمنين علي طائفة من جيشه -وهم الخوارج- فإنني قد رأيت الحاجة إلى الحديث عن هذه الفتنة، لأن النبي ﷺ قد ذكرهم وذمهم ووعد من قاتلهم بالأجر العظيم، ولأخذ العبرة من معاملة الصحابة للخوارج، ليكون ذلك سنة لمن بعدهم.

## الخوارج وما ورد فيهم من أحاديث

الخوارج هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه (١) ومما يميزهم عن غيرهم تكفير فاعل الكبيرة والحكم عليه بالخلود في النار.

وبداية وجودهم في عهد رسول الله ﷺ، وذلك حينما اعترض عليه أحدهم في قسمة الغنائم يوم حنين، وقد أخرج خبر ذلك الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر ابن الخطاب: دعني أضرب عنقه. قال: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه، يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يُنظر في قُدْذِه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر نضيبه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرت والدم. آيتهم رجلٌ إحدى يديه -أو قال ثدييه- مثل ثدي المرأة، أو قال: مثل البضعة تدردر. يخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد: أشهدُ سمعتُ من النبي ﷺ، وأشهدُ أن علياً قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ (٢).

وقوله «كما يمرق السهم من الرمية» معناه أن خروجهم من الإسلام يتم بسرعة كخروج السهم من الصيد المرمي بقوة وسرعة من قوة الرمي.

وقوله «ينظر في قُدْذِه» هي ريش السهم.

وقوله «ثم ينظر إلى نصله» يعني حديدة السهم.

وقوله «ثم ينظر إلى رصافه» يعني إلى مدخل النصل من السهم.

وقوله «ثم ينظر نضيبه» هو السهم بلا نصل ولا ريش.

وقوله «سبق الفرت والدم» أي أن السهم جاوزهما ولم يعلق فيه منهما شيء.

(١) الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ١/١٥٥.

(٢) صحيح البخاري، رقم ٦٩٣٣، كتاب استنابة المرتدين ١٢/٢٩٠ صحيح مسلم، رقم ١٠٦٤، كتاب الزكاة ص ٧٤٤.

والمقصود هو التعبير عن سرعة خروج الخوارج من الإسلام بتشبيه ذلك بسرعة خروج السهم من الصيد المرمي بحيث لا يعلق بأي جزء من أجزائه شيء منه .

وفي حديث آخر أخرجه الشيخان أن النبي ﷺ قال في وصفهم: «يقروون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية لمسلم «يتلون كتاب الله لنا رطبا»<sup>(٢)</sup>.

وجاء في حديث آخر أخرجه الشيخان «سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

وجاء في رواية لمسلم «يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحالق، هم الخلق - أو من أشر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق».

وفي رواية أخرى لمسلم «يتيه قوم قبل المشرق، مُحَلِّقَةٌ رؤوسهم»<sup>(٤)</sup>.

ففي هذه الأحاديث بيان شيء من صفات الخوارج، فمن ذلك أنهم يشتهرون بكثرة التعبد بالشعائر التعبدية كالصلاة والصيام، وأن الصحابة رضي الله عنهم على كثرة تعبدهم يحقرون صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم.

ومنها أنهم من قراء كتاب الله تعالى وأنهم يحسنون أداءه، ويحسنون أصواتهم به، ولكنهم لا يتأثرون به في قلوبهم ولا يؤثر على سلوكهم.

ومنها أنهم من صغار السن وأنهم سفهاء العقول لا يفكرون تفكيراً سليماً.

(١) صحيح مسلم، رقم ١٠٦٤/١٤٣، الزكاة (ص ٧٤١-٧٤٢).

صحيح البخاري، رقم ٣٣٤٤، الأنبياء (٦/٣٧٦).

(٢) صحيح مسلم، رقم ١٠٦٤/١٤٥، الزكاة (ص ٧٤٣).

(٣) صحيح البخاري، رقم ٦٩٣٠، ٦٩٣٤، كتاب استنابة المرتدين (١٢/٢٨٣، ٢٩٠).

صحيح مسلم رقم ١٠٦٦/١٥٤، الزكاة، (ص ٧٤٦-٧٤٧).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الزكاة رقم ١٤٩، ١٦٠ (ص ٧٤٥، ٧٥٠).

ومنها أنهم ينطقون بالكلام الحسن الذي يجذب انتباه الناس لكنهم يسيئون الأفعال، وذلك من قول رسول الله ﷺ عنهم «يقولون من خير قول البرية» قال الحافظ ابن حجر: تقدم قول من قال إنه مقلوب وأن المراد من قول خير البرية وهو القرآن، قال قلت: ويحتمل أن يكون على ظاهره» والمراد القول الحسن في الظاهر وباطنه على خلاف ذلك، كقولهم «لا حكم إلا لله»، قال: وفي حديث أنس عن أبي سعيد عند أبي داود والطبراني «يحسنون القول ويسئون الفعل»<sup>(١)</sup>.

ومنها أنهم يكثر من الأقوال التي ظاهرها الإيمان، ولكن قلوبهم بخلاف ذلك «لا يجاوز إيمانهم حناجرهم».

ومنها أنهم يحلقون رؤوسهم على الدوام على خلاف المعتاد من حياة الناس في ذلك الزمن.

ومنها أنهم يعاملون من خالفهم من المسلمين بعنف وقسوة، ويستحلون دماءهم وأموالهم، بينما يعاملون الكفار من أهل الذمة بلين ولطف، ويتورعون عن دمائهم وأموالهم.

### مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج:

كان أول ظهور الخوارج بشكل جماعي في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك بعد معركة صفين حينما دعا أصحاب معاوية رضي الله عنه إلى إيقاف القتال والتحاكم إلى كتاب الله تعالى، فكَرِهَ ذلك علي رضي الله عنه لأنه كان قد أوشك على النصر وقبِلَ ذلك فرقة من جيشه وألزموه بإيقاف القتال وقبول التحكيم، ثم إن طائفة من هؤلاء غيروا رأيهم واعتبروا أن التحكيم كفر وأن من قبل ذلك فقد كفر، ثم أظهروا توبتهم من ذلك الكفر ورفضوا قبول التحكيم، وخرجوا على علي رضي الله عنه.

وقد وردت في ذلك أخبار منها ما أخرجه المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الإمام الشعبي قال: لما اجتمع علي ومعاوية على أن يُحكَّما رجلين اختلف الناس على علي فكان عظيمهم وجمهورهم مقرين بالتحكيم راضين به، وكانت

(١) فتح الباري ٢ / ٢٨٧.

فرقة منهم - وهم زهاء أربعة آلاف من ذوي بصائرهم والعباد منهم - منكراً للحكومة، وكانت فرقة منهم وهم قليل متوقفين، فأنت الفرقة المنكرة علياً فقالوا: عد إلى الحرب - وكان علي يحب ذلك - فقال الذين رضوا بالتحكيم: والله ما دعانا القوم إلا إلى حق وإنصاف وعدل، وكان الأشعث بن قيس وأهل اليمن أشدهم مخالفة لمن دعا إلى الحرب، فقال علي للذين دعوا إلى الحرب: يا قوم قد ترون خلاف أصحابكم وأنتم قليل في كثير، ولئن عدتم إلى الحرب ليكونن أشد عليكم من أهل الشام، فإذا اجتمعوا وأهل الشام عليكم أفنوكم، والله ما رضيت ما كان ولا هويته، ولكنني ملت إلى الجمهور منكم خوفاً عليكم. ثم أنشد:

وما أنا إلا من غُزِيَّةٍ إن عُوتَ غويت وإن ترشد غزية أرشد

ففارقوه ومضى بعضهم إلى الكوفة قبل كتاب القضية، وأقام الباقر معه على إنكارهم التحكيم ناقلين عليه يقولون: لعله يتوب ويراجع، فلما كتبت القضية<sup>(١)</sup> خرج بها الأشعث فقال عروة بن حدير: يا أشعث ما هذه الدنية؟ أشرط أوثق من شرط الله؟ واعترضه بسيف فضرب عجز بغلته وحكم<sup>(٢)</sup> فغضب للأشعث أهل اليمن حتى مشى الأحنف، وجارية بن قدامة، ومعقل بن قيس، وشبث بن ربعي، ووجه تميم إليهم فرضوا وصفحوا<sup>(٣)</sup>.

وأخرج أيضاً من خبر الإمام الزهري قال: لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من «صَفِين» خاصمته الحرورية ستة أشهر وقالوا: شككت في أمرك وحكمت عدوك ووهنت في الجهاد، وتأولوا عليه القرآن فقالوا: قال الله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠] وطالت خصومتهم لعلي، ثم زالوا بريايتهم وهم خمسة آلاف عليهم ابن الكواء، فأرسل إليهم علي عبدالله بن عباس وصعصعة بن صوحان فدعواهم إلى الجماعة وناشدهم فأبوا عليهما، فلما رأى ذلك علي أرسل إليهم إنا نوادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله لعلنا نصطرح، وقال لهم: أبرزوا منكم اثني عشر نقيباً، وأبعث منا مثلهم ونجتمع بمكان كذا فيقوم خطبائنا

(١) أي قضية الصلح بين علي ومعاوية رضي الله عنهما بتحكيم الحكيمين.

(٢) أنساب الأشراف ٣ / ١١٢.

(٣) يعني قال: لا حكم إلا لله.

بحججنا وخطباؤكم بحججكم . ففعلوا ورجعوا فقام علي فحمد الله وأثنى عليه  
ثم قال :

أما بعد فإنني لم أكن أحرصكم على هذه القضية وعلى التحكيم ولكنكم وهتم  
في القتال، وتفرقتم عليّ وخاصمني القوم بالقرآن ودعونا إليه، فخشيت إن أبيت  
الذي دعوا إليه من القرآن والحكم، أن يتأولوا عليّ قول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ  
أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ  
مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]. ويتأولوا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ  
وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ  
مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ  
أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا  
سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥] ويتأولوا قوله:  
﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبِعْتُمْ حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ  
اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥] فلم آب عليهم التحاكم،  
وخشيت أن تقولوا: فرض الله في كتابه الحكومة في أصغر الأمر فكيف الأمر  
الذي فيه سفك الدماء، وقطع الأرحام وانتهاك الحريم، وخفت وهنكم وتفرقتكم .

ثم قامت خطباء الحرورية، فقالوا: دعوتنا إلى كتاب الله والعمل به فأجبنك  
وبايعناك وقد قُتلت في طاعتك قتالنا يوم الجمل وصفين، ثم شككت في أمر الله  
وحكمت عدوك، ونحن على أمرك الذي تركت، وأنت اليوم على غيره، فلسنا منك  
إلا أن تتوب منه وتشهد على نفسك بالضلالة . فلما فرغوا من قولهم: قال علي:

أما أن أشهد على نفسي بالضلالة فمعاذ الله أن أكون ارتبت منذ أسلمت، أو  
ضللت منذ اهتديت، بل بنا هداكم الله من الضلالة، واستنقذكم من الكفر،  
وعصمكم من الجهالة، وإنما حكمت الحكيمين بكتاب الله والسنة الجامعة غير  
المفرقة، فإن حكما بكتاب الله كنت أولى بالأمر في حكمهما، وإن حكما بغير  
ذلك لم يكن لهما علي وعليكم حكم .

ثم تفرقوا فأعاد إليهم عبدالله بن عباس وصعصعة فقال لهم صعصعة: أذكركم  
الله أن تجعلوا فتنة العام مخافة فتنة عام قاتل، فقال ابن الكواء: أستم تعلمون أي

دعوتكم إلى هذا الأمر؟ فقالوا: بلى. قال: فإني أول من أطاع هذا الرجل فإنه واعظ شفيق. فخرج معه منهم نحو من خمسمائة فدخلوا في جملة علي وجماعته، وبقي منهم نحو من خمسة آلاف رجل فقال علي: اتركوهم حتى يأخذوا، ويسفكوا دمًا حرامًا ففعل ذلك.

وأخرج أيضًا من خبر الصلت بن بهرام قال: لما قدم علي الكوفة من صفين جعل يخطب الناس وجعلت الخوارج تقول - وهو على المنبر - : قَبِلَتِ الدِّيَةَ بِالْقَضِيَّةِ<sup>(١)</sup>، وجزعت عن البلية لا حكم إلا لله. فيقول: حكم الله أنتظر فيكم. فيقولون: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فيقول علي: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وأخرج أيضًا من خبر الإمام الزهري قال: أنكرت الحكومة على علي طائفة من أصحابه قدمت إلى بلدانها من صفين، وانحاز منهم اثنا عشر ألفًا - ويقال ستة آلاف - إلى موضع يقال له: حروراء بناحية الكوفة فبعث إليهم علي ابن عباس وصعصعة، فوعظهم صعصعة. وحاجهم ابن عباس فرجع منهم ألفان وبقي الآخرون على حالهم حينًا، ثم دخلوا الكوفة، فلما انقضت المدة في القضية وأراد علي توجيهه أبي موسى أنه حرقوص بن زهير التميمي وزيد بن حصين الطائي وزرعة بن البرج الطائي في جماعة من الحرورية، فقالوا: اتق الله وسر إلى عدوك وعدونا، وتب إلى الله من الخطيئة، وارجع عن القضية، فقال علي: أما عدوكم فإني أردتكم على قتالهم وأنتم في دارهم فتواكلتم ووهنتم وأصابكم ألم الجراح فجزعتم وعصيتُموني، وأما القضية فليست بذنب ولكنها تقصير وعجز أتيموه وأنا له كاره، وأنا أستغفر الله من كل ذنب. فقال له زرعة: والله لئن لم تدع التحكيم في أمر الله لأجاهدك، فقال له علي: بؤسًا لك ما أشقاك، كأني أنظر إليك غدًا صريعًا تسفي عليك الرياح، قال: وددتُ ذلك قد كان، فانصرفوا وهم يظهرون التحكيم<sup>(٢)</sup> ويدخلون الكوفة، فإذا صلى علي وخطب حكّموا، فيقول علي: كلمة الحق يُعتزى بها باطل.

(١) يعني حينما رضيت بالتحكيم.

(٢) أي يقولون لا حكم إلا لله.



وبلغ يزيد بن عاصم المحاربي قول علي لزرعة بن البرج، فأتاه فقال: يا علي أتخوفنا بالقتل، إنا لندرجو أن نضربكم بها عن قليل غير مصفحات<sup>(١)</sup>، ثم تعلم أينا أولى بها صلياً، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيا في دينك فإنها إدهان وذل<sup>(٢)</sup>.

وأخرج الإمام الطبري نحو ذلك في عدة أخبار، وقد جاء في خبر عبد الملك بن أبي حرة الحنفي أن علياً رضي الله عنه خرج ذات يوم يخطب، وإنه لفي خطبته إذ حكمت المحكمة<sup>(٣)</sup> في جوانب المسجد فقال علي: الله أكبر، كلمة حق يراد بها باطل، إن سكتوا غمناهم، وإن تكلموا حججناهم، وإن خرجوا علينا قاتلناهم، فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال: الحمد لله غير مودع ربنا ولا مستغنى عنه، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيا في ديننا، فإن إعطاء الدنيا في الدين إدهان في أمر الله عز وجل وذل راجع بأهله إلى سخط الله.

وفي خبر آخر عن كثير بن بهز الحضرمي، قال: قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجلٌ من جانب المسجد: لا حكم إلا لله، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يُحكّمون، فقال علي: الله أكبر، كلمة حق يُتمس بها باطل! أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتُمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفياء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته<sup>(٤)</sup>.

### بعث ابن عباس لمحاورتهم:

هذا وقد أرسل إليهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهم ليجادلهم بالحكمة ويدعوهم بالتي هي أحسن، وقد ورد الخبر عن ذلك من عدة طرق، منها ما أخرجه الإمام عبدالرزاق الصنعاني من خبر أبي زُمَيْل سمّاك الحنفي قال: حدثنا عبدالله بن عباس قال: لما اعتزلت الحرورية فكانوا في دارٍ على حدّتهم قلت لعليّ: يا أمير المؤمنين! أبرد عن الصلاة لعلي آتي

(٢) أنساب الأشراف ٣ / ١٢٦ - ١٣٠.

(٤) تاريخ الطبري ٥ / ٦٤ - ٧٣.

(١) يعني نضربكم بحد السيوف.

(٣) يعني قال الخوارج لا حكم إلا لله.

هؤلاء القوم فأكلّمهم، قال: إني أتخوفهم عليك، قلت: كلاً إن شاء الله تعالى، قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحو الظهيرة، قال: فدخلت على قوم لم أرَ قوماً قطُّ أشدَّ اجتهاداً منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل، ووجوههم معلّمة من آثار السجود، قال: فدخلت، فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس! ما جاء بك؟ قلت: جئتُ أُحدّثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ، عليهم نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، فقال بعضهم: لا تحدّثوه، وقال بعضهم: والله لنحدّثه، قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عمِّ رسول الله ﷺ وختنه، وأول من آمن به؟ وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثاً، قلت: وما هنَّ؟ قالوا: أولهنَّ أنه حكّم الرجال في دين الله، وقد قال الله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، قال: قلت: وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يسب، ولم يغنم، لئن كانوا كفّاراً لقد حلّت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم، قال: قلت: وماذا؟ قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين، قال: قلت: أرايتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدّثكم من سنة نبيه ﷺ مالا تنكرون، أترجعون؟ قالوا: نعم، قال: قلت: أمّا قولكم: حكّم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥] أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دماؤهم وأنفسهم، وإصلاح ذات بينهم أحقُّ أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم بل في حقن دماؤهم، وإصلاح ذات بينهم، قال: أخرجتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأمّا قولكم: إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أممكم عائشة؟ أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها، فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فأنتم مترددون بين ضلالتين، فاخترتوا أيتهما شئتم، أخرجتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأمّا قولكم: محا نفسه من أمير

المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشاً يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتاباً، فقال: أكتب. هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: والله لو كُنَّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله، فقال: والله إني لرسول الله حقاً وإن كذبتُموني. اكتب يا علي! محمد بن عبدالله، فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه، أخرجتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفاً، وبقي منهم أربعة آلاف، فقتلوا<sup>(١)</sup>.

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام الطبراني رواه وأن الإمام أحمد روى بعضه قال: ورجالهما رجال الصحيح<sup>(٢)</sup>.

وأخرجه الحافظ البيهقي وذكر نحوه وفيه: فرجع من القوم ألفان وقتل سائرهم على ضلالة<sup>(٣)</sup>.

وما جاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفاً فيه مبالغة، والصواب ما جاء في الروايات الأخرى من أنهم كانوا أربعة آلاف ثم زادوا حتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف على اختلاف الروايات.

### جرمتهم بقتل المسلمين الأمنين:

أخرج البلاذري من خبر أبي مجلز: أن علياً رضي الله عنه نهى أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتى يحدثوا حدثاً.

قال: وكان الخوارج الذين قدموا من البصرة مع مسعر بن فدكي استعرضوا الناس في طريقهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأته على حمار له، فدعوه وانتهره ورعبوه وقالوا له: من أنت؟ فقال: رجل مؤمن قالوا: فما اسمك؟ قال: أنا عبدالله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ فكفوا عنه، ثم قالوا له: ما تقول في علي؟ قال: أقول: إنه أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، وقد حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ستكون فتنة يموت فيها قلب الرجل فيصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً». فقالوا: والله لنقتلنك قتلة ما قُتلها أحد،

(١) مصنف عبدالرزاق ١٠ / ١٥٧ - ١٦٠ رقم ١٨٦٧٨ . (٢) مجمع الزوائد ٦ / ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٣) سنن البيهقي ٨ / ١٨٠ .

وأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامراته وهي حبلى مُتَمَّ حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت رطبة منها فقتلها بعضهم في فيه، فقال له رجل منهم: أغير حلها ولا ثمن لها؟ فألقاها من فيه واخترط سيفه وجعل يهزه فمرَّ به خنزير لذمي فقتله بسيفه، فقال له بعض أصحابه: إن هذا لمن الفساد في الأرض. فطلب صاحب الخنزير حتى أرضاه، فقال ابن خباب: لئن كنتم صادقين فيما أرى وأسمع إني لآمن من شرِّكم قال: فجاءوا به فأضجعوه على شفير نهر وألقوه على الخنزير المقتول فذبحوه عليه، فصار دمه مثل الشراك قد امذقر<sup>(١)</sup> في الماء، وأخذوا امرأته فبقروا بطنها وهي تقول: أما تتقون الله؟ وقتلوا ثلاث نسوة كنَّ معها.

فبلغ عليًّا خبر ابن خباب وامراته والنسوة، وخبر سوادياً لقوه بنفَر فقتلوه، فبعث علي إليهم ابن الحارث بن مرة العبدي ليتعرف حقيقة ما بلغه عنهم، فلما أتى النهروان وقرب منهم خرجوا إليه فقتلوه، وبلغ ذلك عليًّا ومن معه، فقالوا له: ما تركنا هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا وعيالاتنا بما نكره؟ سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل المغرب<sup>(٢)</sup>، فإن هؤلاء أحضر عداوة وأنكى حداً.

وقال: وقام الأشعث بن قيس فكلمه بمثل ذلك فنادي علي بالرحيل<sup>(٣)</sup>.

وقد أخرج الخطيب البغدادي خبر قتلهم عبدالله بن خباب بنحو ذلك<sup>(٤)</sup>.

وأخرج البلاذري من خبر حميد بن هلال عن رجل من عبدالقيس كان مع الخوارج ثم فارقه قال: وأتى علي المدائن وقد قدمها قيس بن سعد بن عبادة، وكان علي قدّمه إليها. ثم أتى علي النهروان فبعث إلى الخوارج: أن أسلموا لنا قتلة ابن خباب ورسولي والنسوة لأقتلهم ثم أنا تارككم إلى فراخي من أمر أهل المغرب فلعل الله يقبل بقلوبكم ويردكم إلى ما هو خير لكم وأملك بكم. فبعثوا إليه أنه ليس بيننا وبينك إلا السيف إلا أن تقرّ بالكفر وتتب كما تبنا فقال علي: أبعد جهادي مع رسول الله ﷺ وإيماني أشهد على نفسي بالكفر؟ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦] ثم قال:

(١) أي لم يختلط بالماء

(٢) يعني أهل الشام، وكانوا يسمون الشام المغرب.

(٣) أنساب الأشراف / ٣ / ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) تاريخ بغداد / ١ / ٢٠٥.

يا شاهداً لله عليّ فاشهد      آمنت بالله وليّ أحمد  
من شك في الله فإني مهتد

وكتب إليهم: «أما بعد فإنني أذكركم أن تكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً بعد أن أخذ الله ميثاقكم على الجماعة، وألف بين قلوبكم على الطاعة، وأن ﴿تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ودعاهم إلى تقوى الله والبرِّ ومراجعة الحق، فكتب إليه ابن وهب الراسبي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] إن الله بعث محمداً بالحق وتكفل له بالنصر كما بلغ رسالاته، ثم توفاه إلى رحمته، وقام بالأمر بعده أبو بكر بما قد شهدته وعايته متمسكاً بدين الله مؤثراً لرضاه حتى أتاه أمر ربه، فاستخلف عمر، فكان من سيرته ما أنت عالم به، لم تأخذه في الله لومة لائم، وختم الله له بالشهادة، وكان من أمر عثمان ما كان حتى سار إليه قوم قتلوه لما أثر الهوى وغير حكم الله، ثم استخلفك الله على عباده فبايعك المؤمنون وكنت لذلك عندهم أهلاً، لقرابتك بالرسول، وقدمك في الإسلام، ووردت صفين غير مدهن ولا وان، مبتدلاً نفسك في مرضاة ربك فلما حَميت الحرب وذهب الصالحون: عمار بن ياسر، وأبو الهيثم بن التَّيَّهَان، وأشباههم اشتمل عليك من لا فقه له في الدين ولا رغبة في الجهاد، مثل الأشعث بن قيس وأصحابه واستنزلوك حتى ركنت إلى الدنيا، حين رفعت لك المصاحف مكيدة فتسارع إليهم الذين استنزلوك، وكانت منا في ذلك هفوة ثم تداركنا الله منه برحمته، فحكمت في كتاب الله وفي نفسك، فكنت في شك من دينك وضلال عدوك وبغيه عليك، كلا والله يا بن أبي طالب، ولكنكم ﴿وَضَنَّتُمْ ظَنِّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وقلت لي قرابة من الرسول وسابقة في الدين فلا يعدل الناس بي معاوية، فالآن فتب إلى الله وأقرّ بذنبك، فإن تفعل نكن يدك على عدوك، وإن أبيت ذلك فالله يحكم بيننا وبينك.

قالوا: وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فناداهم فقال: يا عباد الله أخرجوا

إلينا طلبتنا وانهضوا إلى عدوكم وعدونا معاً. فقال له عبدالله بن شجرة السلمي: إن الحق قد أضاء لنا فلسنا متابعيكم أبداً أو تأتونا بمثل عمر. فقال: والله ما نعلم على الأرض مثل عمر إلا أن يكون صاحبنا، وقال لهم علي: «يا قوم إنه قد غلب عليكم اللجاج والمرء وأتبعتم أهواءكم فطمح بكم تزيين الشيطان لكم وأنا أنذركم أن تصبحوا صرعى بأهضام هذا الغائط وأثناء هذا النهر».

فلم يزل يعظهم ويدعوهم فلما لم ير عندهم انقياداً - وكان في أربعة عشر ألفاً - عباً الناس فجعل على ميمته حجر بن عدي الكندي وعلى ميسرته شيبث بن ربعي وعلى الخليل أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري، وعلى الرجال أبا قتادة الأنصاري - واسمه النعمان بن ربعي بن بلدمة الخزرجي - وعلى أهل المدينة وهم سبعمائة - أو ثمانمائة - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري.

ثم بسط لهم عليّ الأمان ودعاهم إلى الطاعة، فقال فروة بن نوفل الأشجعي: والله ما ندري على ما نقاتل عليّاً؟ فانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنجين<sup>(١)</sup> والديسكرة، وخرجت طائفة منهم أخرى متفرقين إلى الكوفة، وأتى مسعر بن فدكي التميمي راية أبي أيوب الأنصاري في ألف، واعتزل عبدالله بن الحوساء - ويقال: ابن أبي الحوساء الطائي - في ثلاثمائة وخرج إلى عليّ منهم ثلاثمائة فأقاموا معه، وكانوا أربعة آلاف فارس ومعهم خلق من الرجالة. واعتزل حوثة بن وداع في ثلاثمائة، واعتزل أبو مريم السعدي في مائتين، واعتزل غيرهم، حتى صار مع ابن وهب الراسبي ألف وثمانمائة فارس، ورجالة يقال: إنهم ألف وخمسمائة.

وقال علي لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤوكم ونادي جمرة بن سنان: روحوا إلى الجنة، فقال ابن وهب: والله ما ندري أنروح إلى الجنة أم إلى النار وتنادى الحرورية: الرواح إلى الجنة معاشر المختبين وأصحاب البرانس المصلين، فشدوا على أصحاب عليّ شدة واحدة، فانفرقت خيل عليّ منفرقين: فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة. وأقبلوا نحو الرجالة فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل حتى كأنهم

(١) بلدة في طرف النهروان - معجم البلدان . .

معزى تتقي المطر بقرونها، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة، ونهض عليّ إليهم من القلب بالرماح والسيوف فما لبثوا أن أهدموا في ساعة<sup>(١)</sup>.

خبر ذي الثدية ومعجزة لرسول الله ﷺ:

أخبر النبي ﷺ عن صفة الخوارج الذين يخرجون على جماعة المسلمين، وأخبر عن رجل فيهم في عضده مثل الثدي، وقد وجد في إلى حلقه «من أبغض خلق الله إليه منهم أسودٌ إحدى يديه طبي شاة<sup>(٢)</sup> أو حلمة ثدي» فلما قتلهم عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انظروا. فنظروا فلم يجدوا شيئاً فقال: ارجعوا. فوالله ما كذبت ولا كُذبت -مرتين أو ثلاثاً- ثم وجدوه في خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه. قال عبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول عليٍّ فيهم. زاد يونس في روايته: قال بكيرٌ: وحدثني رجل عن ابن حنين أنه قال: رأيتُ ذلك الأسود.

كما أخرج أيضاً من حديث عبيدة السلماني، عن علي رضي الله عنه قال: ذكر الخوارج فقال: فيهم رجل مخدج اليد، أو مُودنُ اليد<sup>(٣)</sup>، لولا أن تبطروا<sup>(٤)</sup> لحدتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ. قال: قلت: آت سمعته من محمد ﷺ؟ قال: إي. ورب الكعبة! إي. ورب الكعبة! إي. ورب الكعبة<sup>(٥)</sup>.

وأخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر عبدالمك بن أبي حرة، أن علياً خرج في طلب ذي الثدية ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو جبرة، والريان بن صبرة بن هوذة، فوجده الريان بن صبرة بن هوذة في حفرة على شاطئ النهر في أربعين أو خمسين قتيلاً. قال: فلما استخرج نظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع

(١) أنساب الأشراف ٣ / ١٤٤ - ١٤٧، وانظر تاريخ الطبري ٥ / ٨١ - ٨٧، البداية والنهاية ٧ / ٢٩٥ - ٢٩٨، الفتح الرباني ٢٣ / ١٥٤ - ١٥٩، تاريخ بغداد ١ / ٢٠٥.

(٢) (إحدى يديه طبي شاة) المراد به ضرع الشاة. وهو فيها مجاز واستعارة. وإنما أصله للكعبة والسباع.  
(٣) (مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد) مخدج اليد أي ناقص اليد. ومودن اليد ناقص اليد. ومثدون اليد صغير اليد مجتمعها.

(٤) (لولا أن تبطروا) البطر هنا: التجبر والغرور

(٥) صحيح مسلم رقم ١٠٦٦، الزكاة (ص ٧٤٧ - ٧٤٩).

على منكبه كثدي المرأة، له حلمة عليها شعرات سود، فإذا مُدَّت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما استخرج قال عليّ: الله أكبر! والله ما كذبتُ ولا كُذبتُ، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم، عارفاً للحق الذي نحن عليه، قال: ثم مرّ وهم صرعي فقال: بؤساً لكم! لقد ضركم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، من غرهم؟ قال: الشيطان، وأنفسُ بالسوء أمّارة، غرّتهم بالأماني، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. قال: وطُلب من به رمق منهم فوجدناهم أربعمئة رجل، فأمر بهم عليّ فدُفعوا إلى عشائرتهم، وقال: احملوهم معكم فداوؤوهم، فإذا برئوا فوافؤا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء.

قال: وأما السلاح والدواب وما شهدوا به عليه الحرب فقسّمه بين المسلمين، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم رده على أهله<sup>(١)</sup>.

### معجزة أخرى لرسول الله ﷺ:

أخرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله<sup>(٢)</sup>. يعني فكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي قاتل مخالفيه على تأويل القرآن كما قاتل الكفار على تنزيله، فوقع بذلك ما أخبر به النبي ﷺ.

### حكم على رضي الله عنه عليهم:

أخرج الإمام عبدالرزاق الصنعاني من خبر الإمام الحسن البصري قال: لما قتل علي رضي الله عنه الحرورية، قالوا: من هؤلاء يا أمير المؤمنين؟ أكفارهم؟ قال: من الكفر فروا، قيل: فمنافقون؟ قال: إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، قيل: فما هم؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا<sup>(٣)</sup>.

(٢) المسند ٣ / ٣١.

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٨٨.

(٣) مصنف عبدالرزاق، رقم ١٨٦٥٦ (١٠ / ١٥٠).



مثل من ورع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

أخرج الإمام الطبري من خبر المحل بن خليفة: أن رجلا منهم من بني سدوس يقال له العيزار بن الأخنس كان يرى رأي الخوارج، خرج إليهم، فاستقبل وراء المدائن عدي بن حاتم ومعه الأسود بن قيس والأسود بن يزيد المراديان، فقال له العيزار حين استقبله: أسالم غانم، أم ظالم أثم؟ فقال عدي: لا، بل سالم غانم، فقال له المراديان: ما قلت هذا إلا لشر في نفسك، وإنك لنعرفك يا عيزار برأي القوم، فلا تفارقنا حتى نذهب بك إلى أمير المؤمنين فنخبره خبرك. فلم يكن بأوشك أن جاء علي فأخبراه خبره، وقالوا: يا أمير المؤمنين، إنه يرى رأي القوم، قد عرفناه بذلك، فقال: ما يحل لنا دمه، ولكننا نحسبه، فقال عدي بن حاتم: يا أمير المؤمنين، ادفعه إلي وأنا أضمن ألا يأتيك من قبله مكروه. فدفعه إليه<sup>(١)</sup>.

وهكذا ابتلي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأول حركة قتالية يقوم بها الخوارج، فكان ذلك من الخير للأمة الإسلامية، حيث سار في معاملتهم قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها على توجيهات النبي ﷺ، فكان بذلك أول قائد يطبق منهج الإسلام في قتال الخوارج.

وقد تبين لنا من صفاتهم في هذه الأخبار زيادة على ما جاء في وصفهم في الأحاديث النبوية التي مر ذكرها، أنهم يتأولون آيات الله تعالى التي نزلت في الكفار على غير وجهها، حيث يطبقونها على مخالفهم من المسلمين، وفي ذلك يقول الإمام البخاري: وكان ابن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك أنهم يتسرعون في تكفير المسلمين، فيحكمون بالكفر على من وقع في الخطأ في نظرهم، وبالتالي فإنهم يرون وجوب قتال المسلمين الذين لا يظهرون التوبة من الذنب، وإن كان هؤلاء المسلمون لا يرون ذلك ذنبا.

هذا ولقد كانت لأمر المؤمنين علي رضي الله عنه في مواجهة تلك المحنة مواقف جهادية وأخلاقية عالية، فمن ذلك أنه تحمل خلافهم وردودهم القاسية

(١) تاريخ الطبري ٨٩/٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين باب/ ٦ (٢٨٢/١٢).

واعتراضاتهم الجافية، وأنه وعدهم بأنه لن يؤاخذهم بكلامهم ما لم يسفكوا دمًا أو يتتهبوا مالا، وقد وفى لهم بذلك على الرغم من أنهم اتهموه بالشرك والكفر والمداهنة في أمر الله تعالى واعترضوا عليه وهو يخطب، فلم يأخذهم بقتل ولا بسجن ولا بتعذيب، وهذا يعتبر من أروع أمثلة العدل والسماحة والحكمة.

لقد أعطاهم أمير المؤمنين رضي الله عنه الحرية الكاملة والفرصة التامة للتعبير عن آرائهم، وجادلهم في شبهاتهم -بالتي هي أحسن- بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، فلما أفحمهم ولم يجدوا مجالاً للكلام ورأوا أن جدالهم لا يكسبهم نصارا، وأن عددهم صار يقل يوماً بعد يوم بسبب انقياد عقلائهم للبراهين التي احتج بها عليهم علي وابن عباس رضي الله عنهم ومن ناشدوهم من قادة المسلمين.. لما رأوا ذلك لجؤوا إلى الحرب فاعتدوا على الآمنين، وسفكوا الدماء المحرمة، فحلَّ بذلك قتالهم وزالت حرمة دمائهم.

لقد كان الوضع السياسي في ذلك العهد مستقيماً عادلاً، حيث كانت الكلمة للحجة والبرهان، لا للسياق والسنان، فكان أولئك الخوارج يتكلمون كيف شاؤوا، ويجمعون كيف شاؤوا، ويجادلون بقوة وجرأة، ولكنهم لم يكونوا أهلاً للعدالة، لأنهم لم يحترموا منطق العقل السليم، ولم يقتصروا على التعبير بألستهم، ولكنهم لجؤوا إلى التعبير بقوة سلاحهم، بغياً وغروراً وعدواناً، فقضوا على أنفسهم بأنفسهم، وأبادوا بجهلهم جزءاً كبيراً من الأمة، وعُطِّيت بسبب رعونتهم أرض المعركة بأجساد أبطال لو وجهوا إلى أعداء الإسلام لكانت لهم فيهم نكاية كبيرة.

ولقد كانت الفرصة أمامهم متاحة حتى اللحظات الأخيرة، حينما قل عددهم وواجهوا جيشاً أضعاف عددهم، حيث كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لم ينقطع عن مناشدتهم في العودة إلى الصف، وكانوا يعلمون صدقه في ذلك، ولكن قادتهم لما خشوا من تراجع بعض جنودهم أمرهم بالهجوم السريع، فكان هجومهم انتحارياً حيث قُتلوا أو جرحوا جميعاً ولم يفلت منهم أحد.

ولقد طبق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه سنة الإسلام في قتال البغاة من المسلمين، حيث أمر جنوده أن لا يجهزوا على جرحاهم، وأن لا يتبعوا مدبرهم، وأن لا يسبوا نساءهم ولا ذراريهم، وأمر بحمل الجرحى وعلاجهم، ثم إيصالهم إلى أهاليهم.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يمرقون من الدين» هل هو دليل على كفر الخوارج؟ ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى أقوال عدد من العلماء حكموا بكفر الخوارج لظاهر هذا الحديث، ولقوله «لأقتلنهم قتل عاد» وفي لفظ «ثمود» وكل منهما إنما هلك على الكفر، ولقوله «هم شر الخلق» وقوله «إنهم أبغض الخلق إلى الله تعالى» ولتكفيرهم أعلام الصحابة رضي الله عنهم وفيهم من شهد لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة، ثم ذكر أن أكثر أهل الأصول من أهل السنة على أن الخوارج فساق، وأن حكم الإسلام يجرى عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام، وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد، وجرهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك<sup>(١)</sup>.

ومن العلماء الذين حكموا بعدم كفرهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: وأصحاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - علي بن أبي طالب وغيره - لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم، بل أول ما خرجوا عليه وتحيزوا بحروراء، وخرجوا عن الطاعة والجماعة، قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا، ولا حقكم من الفياء. ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم، ثم قاتل الباقي وغلبهم، ومع هذا لم يسب لهم ذرية، ولا غنم لهم مالا، ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين، كمسيلمة الكذاب وأمثاله، بل كانت سيرة علي والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة، ولم ينكر أحد على علي ذلك، فعلم اتفاق الصحابة على أنهم لم يكونوا مرتدين عن دين الإسلام.

(١) فتح الباري ١٢/٢٩٩ - ٣٠٠.

قال: وقال الإمام محمد بن نصر المروزي: «وقد ولي علي رضي الله عنه قتال أهل البغي، وروى عن النبي ﷺ فيهم ما روى، وسمّاهم مؤمنين، وحكم فيهم بأحكام المؤمنين. وكذلك عمار بن ياسر».

وقال محمد بن نصر أيضاً: «حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا يحيى بن آدم، عن مفضل بن مهلهل، عن الشيباني، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: «كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان، فقيل له: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فرّوا. فقيل: فمنافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل: فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا فقاتلناهم»<sup>(١)</sup>.

وواضح أن القول بعدم تكفير الخوارج أصوب لأن ذلك هو قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أقره الصحابة رضي الله عنهم على ذلك ولم يُنقل عنهم خلافه، والصحابة هم أعلم المسلمين بتأويل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

\*\*\*\*\*

---

(١) منهاج السنة النبوية ٥/ ٢٤١ - ٢٤٢.

## فهرس المصادر والمراجع

- أسد الغابة في معرفة الصحابة / لعز الدين علي بن محمد الشيباني «ابن الأثير»/ الناشر: انتشارات إسماعيليات/ طهران.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب/ لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري / الناشر: مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر» / الناشر: مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨هـ.
- أنساب الأشراف/ لأحمد بن يحيى البلاذري/ الناشر: دار الفكر في لبنان.
- البداية والنهاية/ للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت.
- تاريخ بغداد/ للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي/ الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت.
- تاريخ خليفة بن خياط/ لأبي عمر خليفة بن خياط الليثي/ الناشر: دار القلم، دمشق، مؤسسة الرسالة- بيروت.
- تاريخ الطبري/ لمحمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- سنن الترمذي/ للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي/ الناشر: المكتبة الإسلامية.
- سنن أبي داود/ للحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي/ الناشر: محمد علي السيد/ حمص.
- سنن الدارمي/ للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي/ الناشر: دار الريان، القاهرة/ ودار الكتاب العربي، بيروت.

- سنن ابن ماجه/ للحافظ محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»/ الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- سنن النسائي/ للحافظ أحمد بن شعيب النسائي/ الناشر: المكتبة التجارية الكبرى في مصر.
- صحيح البخاري/ للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري مع شرحه فتح الباري/ الناشر: المطبعة السلفية ومكبتها في القاهرة .
- صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري/ الناشر: دار إحياء التراث العربي .
- فتوح البلدان/ لأبي العباس أحمد بن يحيى البلاذري/ الناشر: مؤسسة المعارف في بيروت .
- فتوح الشام/ لمحمد بن عبد الله الأزدي/ الناشر: مؤسسة سجل العرب .
- فتوح مصر/ لأبي القاسم عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحكم المصري/ الناشر: لجنة البيان العربي بمصر .
- القاموس المحيط/ لمجد الدين الفيروزبادي/ الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت .
- الكامل في التاريخ/ لأبي الحسن علي الشيباني «ابن الأثير»/ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت .
- لسان العرب/ لأبي الفضل محمد بن كرم بن منظور/ الناشر: دار صادر - بيروت .
- النجوم الزاهرة/ لجمال الدين يوسف بن تغري بردي/ الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف .
- الملل والنحل/ لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني/ الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه- القاهرة .

- معجم البلدان/ لشهاب الدين ياقوت الحموي/ الناشر : دار صادر ودار بيروت- بيروت .
- معجم معالم الحجاز/ لعاتق بن غيث البلادي/ الناشر: دار مكة للنشر والتوزيع .
- معرفة الصحابة/ لأبي نعيم أحمد الأصبهاني / الناشر: مكتبة الدار- المدينة- مكتبة الحرمين- الرياض .
- منهاج السنة النبوية/ لأبي العباس ابن تيمية/ الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

\* \* \*

## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- المقدمة .....	٥
<b>خلافة أبي بكر الصديق / مواقف وعبر</b>	
- موقف لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ .....	١٣
- بيعة سقيفة بني ساعدة .....	١٦
- إنفاذ أبي بكر جيش أسامة .....	٢٢
<b>مواقف وعبر في جهاد المرتدين</b>	
- حوار بين الصحابة ومواقف لأبي بكر .....	٢٧
- جهاد المرتدين والتمردين حول المدينة .....	٣٢
- مخاطبة المرتدين والتمردين وعقد الأولوية لقتالهم .....	٣٨
- جهاد تجمع طليحة الأسدي .....	٤٣
- جهاد تجمع أم زمل بنت مالك .....	٥٢
- خبر بني تميم وموقف خالد بن الوليد منهم .....	٥٣
- معركة اليمامة ونهاية مسيلمة الكذاب .....	٥٧
- جهاد المرتدين في منطقة مكة .....	٦٩
- جهاد المرتدين من عكّ والأشعرين .....	٧٠
- جهاد المرتدين في منطقة الطائف .....	٧١
- جهاد المرتدين في البحرين .....	٧٢
- جهاد المرتدين في عمان .....	٨٤
- جهاد المرتدين في مهرة .....	٨٧



٨٩ ..... جهاد المرتدين والمرتدين في اليمن

٩٢ ..... نتائج حروب الردة

### مواقف وعبر في فتوح العراق الأولى

٩٧ ..... مسير خالد بن الوليد إلى العراق

٩٩ ..... معركة كاظمة

١٠١ ..... معركة المذار

١٠٢ ..... معركة الوجبة

١٠٥ ..... معركة أليس

١٠٨ ..... معركة أمغيشيا

١٠٩ ..... معركة الحيرة

١١٦ ..... فتح الأنبار

١١٩ ..... فتح عين التمر

١٢١ ..... فتح دومة الجندل

١٢٣ ..... معركة الحُصَيْد

١٢٤ ..... معركة المصيخ

١٢٥ ..... معركة الثَّنيِّ والزُّمَيْل

١٢٦ ..... معركة الفراض

### مواقف وعبر في فتوح الشام الأولى

١٣١ ..... عزم أبي بكر ورؤيا شرحبيل

١٣٤ ..... مشورة أبي بكر في جهاد الروم

١٤٢ ..... مسير يزيد بن أبي سفيان ووصية أبي بكر

١٤٨ ..... مسير شرحبيل بن حسنة

- ١٤٩ ..... - مسير أبي عبيدة بن الجراح
- ١٤٩ ..... ثناء وموعظة من معاذ لأبي بكر
- ١٥٠ ..... موقف لخالد بن سعيد بن العاص
- ١٥١ ..... قدوم مدد من طيء
- ١٥١ ..... وصيتان من أبي بكر
- ١٥٣ ..... - سير الجيوش الإسلامية وموقف هرقل
- ١٥٧ ..... - مكاتبات بين أبي بكر وبعض قادته
- ١٦٠ ..... - خروج هاشم بن عتبة إلى الشام
- ١٦٣ ..... - خروج سعيد بن عامر بن حذيم إلى الشام
- ١٦٦ ..... - مسير حمزة بن مالك الهمداني إلى الشام
- ١٦٩ ..... - موقعتا العرب والدائنة
- ١٧٠ ..... - مسير عمرو بن العاص إلى الشام
- ١٧١ ..... - توجيه خالد بن الوليد إلى الشام
- ١٧٤ ..... - مسير خالد إلى الشام
- ١٧٧ ..... - حروب خالد في مسيره إلى الشام
- ١٨١ ..... - معركة أجنادين
- ١٨٩ ..... - حصار دمشق ومعركة الصُّفْر
- ١٩٢ ..... وفاة أبي بكر واستخلاف عمر رضي الله عنهما
- مواقف وعبر في خلافة أمير المؤمنين عمر**
- ١٩٩ ..... - مكاتبات بين عمر وأبي عبيدة ومعاذ
- مواقف وعبر في فتوح الشام الثانية (ما قبل اليرموك)**
- ٢١١ ..... - معركة فحل

٢١٢	بين يدي المعركة.....
٢١٤	محاورة معاذ مع زعماء الروم.....
٢٢٣	وصف المعركة.....
٢٢٧	مواقف جهادية.....
٢٢٩	كتاب من أبي عبيدة لعمر.....
٢٣١	- حصار دمشق وفتحها.....
٢٣٧	- فتح حمص.....
٢٣٩	- خبر قيصر حين بلغه فتح الشام.....
<b>مواقف وعبر في فتوح العراق الثانية (ما قبل القادسية)</b>	
٢٤٦	- معركة النمارق، معركة كسكر، معركة باقسيانا.....
٢٥٠	- معركة الجسر الأولى.....
٢٥٨	- معركة البويب.....
<b>مواقف وعبر في معركة القادسية</b>	
٢٦٥	- الاستعداد للمعركة.....
٢٧٠	- وصية من أمير المؤمنين عمر لسعد بن أبي وقاص.....
٢٧٢	- خطبة لأمير المؤمنين عمر.....
٢٧٥	- مسير سعد إلى زرود.....
٢٧٦	- موقف جهادي للمعنى بن حارثة.....
٢٧٦	- مسير سعد إلى العراق.....
٢٧٩	- الاستعانة بالتائبين.....
٢٨٠	- كتاب من أمير المؤمنين عمر.....
٢٨٢	- كتابان بين سعد وعمر.....

- ٢٨٤ ..... موقف جهادي لزهرة بن الحوية التميمي
- ٢٨٥ ..... حروب خاطفة ومكاتبات بين سعد وعمر
- ٢٨٧ ..... بعث وفد المسلمين إلى كسرى
- ٢٩٤ ..... حوار بين ملك الفرس وقائده
- ٢٩٥ ..... رؤى مزعجة لرستم
- ٢٩٦ ..... حوار بين رستم وأحد المجاهدين
- ٢٩٨ ..... تقارب بين الجيشين
- ٢٩٩ ..... مغامرة من طليحة الأسدي
- ٣٠٢ ..... حوار رستم مع زهرة التميمي
- ٣٠٥ ..... حوار رستم مع ربعي بن عامر
- ٣٠٩ ..... حوار رستم مع حذيفة بن محصن
- ٣٠٩ ..... حوار رستم مع المغيرة بن شعبة
- ٣١٥ ..... حوار رستم مع بقية وفد المسلمين
- ٣٢١ ..... عبور الفرس إلى المسلمين
- ٣٢١ ..... عودة إلى الرؤى المزعجة
- ٣٢٢ ..... استعداد المسلمين
- ٣٢٤ ..... رستم يفرع من الأذان
- ٣٢٦ ..... مواعظ جهادية
- ٣٢٨ ..... يوم أرمات
- ٣٣٣ ..... مواقف بطولية في اليوم الأول
- ٣٣٦ ..... يوم أغواث
- ٣٤٠ ..... بطولات أخرى في هذا اليوم

- ٣٤٣ ..... ليلة السواد.
- ٣٤٦ ..... يوم عماس
- ٣٤٨ ..... بطولات أخرى في هذا اليوم
- ٣٥٠ ..... ليلة الهرير
- ٣٥٢ ..... يوم القادسية
- ٣٥٥ ..... نهاية المعركة
- ٣٥٦ ..... كتاب من سعد إلى عمر
- ٣٥٨ ..... خطبة لعمر بعد الفتح
- ٣٥٩ ..... كتابان بين سعد وعمر
- ٣٦١ ..... تاريخ المعركة

#### مواقف وعبر في معركة اليرموك

- ٣٦٥ ..... استعداد الروم للمعركة
- ٣٦٦ ..... مشورة أبي عبيدة مع قاداته
- ٣٦٨ ..... رسالة إلى أمير المؤمنين عمر
- ٣٦٩ ..... رسالة إلى أبي عبيدة
- ٣٧٠ ..... مشورة أخرى لأبي عبيدة مع القادة
- ٣٧٢ ..... كتاب من عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة
- ٣٧٣ ..... كتاب من أبي عبيدة إلى عمرو
- ٣٧٥ ..... كتاب من عمرو بن العاص إلى الروم
- ٣٧٧ ..... مثل من فساد قادة الروم
- ٣٧٩ ..... رسالتان بين أبي عبيدة وعمر
- ٣٨٣ ..... عدد أفراد الجيشين

٣٨٥	.....	- مكان المعركة والتقاء الجيشين
٣٨٦	.....	- مناوشة بين بعض الجيشين
٣٨٧	.....	- تنظيم جيش المسلمين
٣٩٠	.....	- مبارزة ومناوشات
٣٩٢	.....	- عدول الروم إلى المفاوضات
٣٩٧	.....	- حوار خالد بن الوليد مع الروم
٤٠٤	.....	- مشورة قائد الروم باهان لأصحابه
٤٠٦	.....	- استعداد الجيشين للمعركة
٤٠٧	.....	- عيون المسلمين
٤٠٨	.....	- مبشرات بالنصر
٤١٠	.....	- إنذار الروم بالهزيمة
٤١٢	.....	- استعداد الجيشين للمواجهة
٤١٤	.....	- وصف المعركة
٤٢٢	.....	- تحديد تاريخ المعركة
٤٢٤	.....	- بلوغ هزيمة الروم ملك الروم
٤٢٦	.....	- رسالتان بين أبي عبيدة وعمر
<b>مواقف وعبر في فتوحات الشام (ما بعد اليرموك)</b>		
٤٣٦	.....	- فتح قنسرين
٤٣٨	.....	- فتح حلب وأنطاكية
٤٣٩	.....	- فتح اللاذقية
٤٤٠	.....	- فتح قيسارية
٤٤٢	.....	- فتح بيت المقدس

٤٤٤	..... أبو عبيدة في القدس
٤٤٨	..... وصول أمير المؤمنين عمر إلى الشام
٤٥٠	..... خطبة لعمر
٤٥٠	..... أذان بلال
٤٥١	..... شكوى من بلال
٤٥٢	..... عمر يجري الصلح مع أهل بيت المقدس
٤٥٣	..... بشرى عظيمة
٤٥٤	..... عمر في المسجد الأقصى
٤٥٥	..... وصول عمر إلى المدينة
٤٥٦	- حصار الروم مدينة حمص
٤٦٠	- فتح بلاد الجزيرة
٤٦٣	- عزل خالد عن قنسرين
٤٦٦	- حياة خالد الجهادية
٤٦٨	- نهاية خالد

### مواقف وعبر في فتح المدائن

٤٧١	..... في الطريق إلى المدائن
٤٧٢	..... معركة كوثنى
٤٧٣	..... معركة مظلم ساباط
٤٧٦	..... التوجه نحو المدائن
٤٧٨	..... مشورة بين سعد وجنوده في عبور النهر
٤٨٠	..... عبور نهر دجلة وفتح المدائن
٤٨٩	..... مواقف من أمانة المسلمين

- ٤٩١ ..... وصول نوادر الغنائم إلى المدينة وموقف لعمر
- مواقف وعبر في فتوح المشرق
- ٤٩٧ ..... موقعة جلولاء
- ٥٠٢ ..... غزوة فارس من جهة البحرين
- ٥٠٦ ..... فتح رامهرمز
- ٥٠٧ ..... فتح تستر
- ٥١٠ ..... خبر أمير المؤمنين عمر مع الهرمزان
- ٥١٦ ..... عمر يستشير الهرمزان
- ٥١٧ ..... فتح مدينة جندى سابور
- ٥١٩ ..... النعمان ومدينة كسكر
- ٥٢٠ ..... شكوى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص
- ٥٢٣ ..... معركة نهاوند (فتح الفتوح)
- ٥٢٣ ..... معاهدة بين الفرس
- ٥٢٤ ..... مشورة أمير المؤمنين عمر لأهل الرأي
- ٥٢٥ ..... كتاب من أمير المؤمنين إلى النعمان
- ٥٢٨ ..... مغامرة من طليحة الأسدي
- ٥٢٩ ..... وصول المسلمين إلى نهاوند
- ٥٣٠ ..... مناوشات ومشورة بين النعمان وأهل الرأي
- ٥٣٣ ..... خطبة للنعمان
- ٥٣٥ ..... ابتداء المعركة الفاصلة
- ٥٣٧ ..... مواقف لبعض المجاهدين
- ٥٣٩ ..... وصول خبر الفتح إلى المدينة ومواقف لعمر



- ٥٤٣ ..... فتح أصبهان -
- ٥٤٥ ..... معركة واج الرّوذ -
- ٥٤٧ ..... فتح الري -
- ٥٤٩ ..... فتح الباب -
- ٥٥٤ ..... شهادتان لصالح المسلمين -
- ٥٥٤ ..... (شهادة ملك الباب وشهادة ملك الصين)
- ٥٥٧ ..... وصية من أمير المؤمنين عمر -
- ٥٥٨ ..... من أمثلة أمانة جنود الإسلام -
- ٥٦٠ ..... مواقف لبعض قادة المسلمين -
- ٥٦٠ ..... (الحكم بن أبي العاص، عبد الله بن معمر، الأحنف بن قيس)
- ٥٦٤ ..... خبر سارية بن زعيم وموقف لعمر -
- ٥٦٧ ..... فتح سجستان -
- ٥٦٨ ..... معركة بيروز من الأهواز -
- ٥٦٩ ..... شكوى ضد أبي موسى الأشعري -

#### مواقف وعبر في فتوح مصر

- ٥٧٥ ..... مسير عمرو بن العاص إلى مصر -
- ٥٧٧ ..... معركة أم دنين -
- ٥٧٨ ..... معركة باب اليون وحصار حصنها -
- ٥٧٨ ..... مفاوضات ومواقف لعمرو بن العاص -
- ٥٨٠ ..... رسل المقوقس يتأثرون بصلاح المسلمين وأخلاقهم -
- ٥٨٢ ..... حوار المقوقس مع وفد المسلمين وموقف لعبادة بن الصامت -
- ٥٨٨ ..... فتح حصن باب اليون ثم الصلح -

- ٥٨٩ ..... مواقف جهادية لبعض المسلمين
- ٥٨٩ ..... (عبادة بن الصامت، الزبير بن العوام)
- ٥٩٢ ..... موقف عدالة من أمير المؤمنين عمر
- ٥٩٢ ..... موقف دهاء لعمر بن العاص
- ٥٩٤ ..... موقف رحمة من عمرو بن العاص
- ٥٩٧ ..... - فتح الإسكندرية
- ٥٩٧ ..... موقف لعبد الله بن عمرو في الصبر
- ٥٩٧ ..... عزم ملك الروم على إنقاذ الإسكندرية ثم موته فجأة
- ٥٩٨ ..... من أمثلة دهاء عمرو بن العاص وبديهته
- ٥٩٩ ..... موقف لأحد المجاهدين
- ٦٠٠ ..... موقفان لعمر ومسلمة بن مخلد
- ٦٠٥ ..... كتاب من أمير المؤمنين عمر
- ٦٠٦ ..... استشارة عمرو أهل الرأي ونهاية المعركة
- ٦٠٦ ..... موقفان لعمر وعبادة بن الصامت
- ٦٠٨ ..... رسول من عمرو إلى أمير المؤمنين بالفتح
- ٦١٣ ..... الفتح ثم الصلح ومواقف عالية للمسلمين
- ٦١٤ ..... موقفان لأمير المؤمنين عمر

#### مواقف وعبر في خلافة عثمان رضي الله عنه

- ٦١٩ ..... - استشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما
- ٦٢٢ ..... - خبر الشورى بين أهل الحل والعقد
- ٦٢٦ ..... - من مواقف عثمان بن عفان
- ٦٢٦ ..... - كتابه إلى الولاة

- ٦٢٧ ..... كتابه إلى قادة الجنود.....
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين في المشرق وبلاد الروم
- ٦٣١ ..... مواقف جهادية في أذربيجان وبلاد الروم.....
- ٦٣٢ ..... موقفان لحبيب بن مسلمة وزوجته.....
- ٦٣٤ ..... فتح بعض بلاد خراسان.....
- ٦٣٥ ..... معركة في طخارستان.....
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين في المغرب
- ٦٤١ ..... فتح مدينة سببلة بأفريقية.....
- ٦٤٢ ..... موقف لعبد الله بن الزبير.....
- ٦٤٦ ..... حروب المسلمين البحرية.....
- ٦٤٧ ..... فتح جزيرة قبرص.....
- ٦٤٧ ..... خبر عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام.....
- ٦٤٨ ..... موقف لأبي الدرداء.....
- ٦٥٠ ..... غزوات ابن قيس البحرية.....
- ٦٥٣ ..... غزوة ذات الصواري.....
- ٦٥٦ ..... غزوة جزيرة صقلية.....
- ٦٥٧ ..... حوار بين حاكم صقلية ورسول المسلمين.....
- ٦٥٩ ..... مبارزة بين أحد زعماء الروم وأحد المجاهدين.....
- ٦٦٠ ..... مناقشات بين المسلمين والروم.....
- ٦٦٠ ..... عودة المسلمين إلى ساحل الشام.....
- مواقف وعبر في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- ٦٦٨ ..... الخوارج وما ورد فيهم من أحاديث.....

- ٦٧٠ ..... مواقف أمير المؤمنين علي من الخوارج
- ٦٧٤ ..... بعث ابن عباس لمحاورتهم
- ٦٧٦ ..... جريمتهم بقتل المسلمين الآمنين
- ٦٨٠ ..... خبر ذي الثُدَيَّة ومعجزة لرسول الله ﷺ
- ٦٨١ ..... معجزة أخرى لرسول الله ﷺ
- ٦٨١ ..... حكم علي رضي الله عنه عليهم
- ٦٨٢ ..... مثل من ورع علي رضي الله عنه
- ٦٨٧ ..... المرجع
- ٦٩١ ..... الفهرس